

جامعة الجزائر 2

كلية اللغة العربية وآدابها واللغات الشرقية

قسم اللغة العربية وآدابها

التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف

- دراسة تحليلية في الأساليب والوظائف -

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة العربي

التخصص: الدراسات البلاغية

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد القادر هني

إعداد الطالب:

مسعود مرزوقي

السنة الجامعية: 2018/2017م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى روعي والدي الكريمين في دار الحق

إلى أخي الأكبر الأستاذ مصطفى مرزوقي الذي علمني

وأنا صغير، ويسد خطواتي وأنا كبير

إلى زوجتي، وأولادي: ماجد، سميرة، باسم، حسام الدين

وعصام الدين

لكم مني - جميعا - الوفاء..... والولاء

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر والعرفان والامتنان إلى الله سبحانه وتعالى، فهو أهل الثناء والمجد
على ما أتّم من نعمه السابغة عليّ .

وبعد:

أتقدم بالشكر والامتنان إلى فضيلة الأستاذ الدكتور: هني عبد القادر الذي
أشرفه عليّ في الماجستير، ثم الدكتوراه، والذي لم يبخل عليّ بنصائحه وتوجيهاته،
فبارك الله في وعلمه وعمره. فما رأيت منه إلا سعة الصدر ودماثة الأخلاق.

كما أشكر الأساتذة أعضاء اللجنة الكرام المناقشين على جهدهم وحسن نظرهم
وحكمهم على هذا الجهد.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى: الدكتور عبد الوهاب مساعيد، وإلى الدكتور
فريد صحراوي، والدكتور فهم مجريد، وإلى الدكتور رضا دغبار.

وإلى كل من أسدى إليّ معروفاً وكان له الفضل في إتمام هذا العمل
المتواضع..... سائلاً المولى الكريم أن يتقبل عملنا جميعاً يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى
الله بقلب سليم.

مقدمة:

الحمد لله الذي ﴿بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٢﴾ ٥٨: ٢

والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق، وأيده بمعجزة القرآن الكريم، الذي منه استقى جوامع الكلم، ونوابغ الحكم، فدانت له عليه الصلاة والسلام الفصاحة وواتته البلاغة، فكان له من رفيع البيان الحظ الأوفى، والنصيب الأكمل.

وبعد: فليس من الغريب أن يحظى الحديث النبوي الشريف باهتمام أهل العلم والبلاغة، فهو يأتي في قمة الثقافة الإسلامية وعلومها، والركن الأول في إظهار ما أجمله القرآن، الذي هو دستور الإسلام، لذلك يتميز الحديث النبوي الشريف عن سائر العلوم الإسلامية بأنه يتسم بصفتين:

الأولى: أن الحديث النبوي الشريف في قمة البيان الإنساني، إنه كلام من أوتي جوامع

الكلم

والثانية: أنه المصدر الثاني بعد القرآن الكريم لبيان قواعد الشريعة وأحكامها، إلى جانب تفصيل ما أجمله القرآن الكريم، وإضافة ماسكت عنه، واستنباط المعاني الفقهية من دلالات بيانه وإشاراته.

إن البحث في البلاغة العربية عموماً، وحصرها في البيان النبوي الشريف، شرف ما فوقه شرف، إلا النظر في القرآن الكريم، الذي شرفني الله بالنظر فيه في دراسة سابقة.

لقد شغل كتاب الله الخالد أهل العلم، وجمهور النقاد وأئمة البلاغة، في القديم والحديث فدرسوا إعجازه، مستعرضين ما ظهر لهم من أبواب الإعجاز ومناحيه المختلفة.

غير أننا لم نجد من خص البيان النبوي الشريف بدراسة تحليلية -حسب علمنا- تظهر روائع بيانه عليه الصلاة والسلام، مع كثرة ما كتب في سيرته من مجلدات واسعة، حيث جهد العلماء في الاهتمام البالغ بالحديث النبوي، في سنده، ومتمنه، والعائد إلى الجوامع، والمسانيد، والمعاجم، والمستدركات، والمستخرجات، والسنن، والأطراف، والأجزاء،

والفهارس، والمختارات، وكتب أدلة الأحكام، وغيرها كثير من كتب الحديث، مع أن هذه الكتب قد يكون فيها شئ من التداخل.

ومع هذا الكم الذي كتب قديما وحديثا، على حد سواء، فإنه قلما نجد من نظر إلى البيان النبوي الشريف، اللهم ما كان من الدارسين الذين أجملوا العبارة في إعجابهم بالبلاغة النبوية في سياق كتبهم الأدبية والنقدية، حيث كانت ثمة نظرات متفرقة ومتفاوتة، لم تحدد منهاجا، ولم تخصص دراسة واسعة، ولم يُعط النص النبوي ما أعطي التراث الشعري والنثري من عناية. وما وجدناه، وهو جهد مبارك، هو كتاب الشريف الرضي، الموسوم بـ " المجازات النبوية " يعتبر فريدا في المكتبة العربية، في الماضي والحاضر، فقد تناول فيه البيان النبوي تناولاً بلاغيا، تمتاز فيه الفكرة العلمية بالروح الأدبية، امتزاجا يقرب من المنهج المنشود للدراسات البلاغية، وإذا كان الشريف قد جمع فيه ثلاث مائة وواحدا وستين حديثا، من حر البيان، وبلغ القول، فإن دراسة الرضي لها تجلية لجانب مهم من جوانب دراسة البيان النبوي في البحث البلاغي.

ومن الذين وصفوا البيان النبوي الشريف قبل الرضي، الجاحظ هذا الوصف الجامع الدقيق للون، أو الفن، بحسب عبارة الجاحظ، ربما تضمن أكثر من سمة من سمات البلاغة النبوية، وإذا تجاوزنا حديث الجاحظ عن فصاحة الأداء النبوي، ووصفه للنبي المبلّغ، فإنه تحدث عن سمتين بارزتين، قلة الحروف والكلمات وكثرة المعاني، وهي السمة المعبر عنها بجوامع الكلم، تحدث أيضا عن تنزه البلاغة النبوية عن الصنعة والتكلف.

وأما كتب غريب الحديث مثل: "الفائق في غريب الحديث" للزمخشري، و"النهاية في غريب الحديث والأثر" لابن الأثير، ومثل هذين الكتابين فيصب الجهد فيهما على تبيان الأصل اللغوي والتطورات الدلالية من غير تركيز على الجانب البياني في الحديث النبوي الشريف.

ومن الكتب التي تناولت البيان النبوي "عمدة القاري" للعيني، وكذلك: "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" للعسقلاني، قد جاء ذكر الجانب البياني فيهما عند شرح الحديث وبيان المعنى وأما الدراسات البلاغية المعاصرة في الحديث النبوي الشريف فإن أول كتاب ظهر في هذا الجانب هو " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية" للأستاذ مصطفى صادق الرافعي ، تحدث الرافعي مطولا، وبأسلوبه المتميز، المعهود، عن سمات البلاغة النبوية من ناحيتي اللغة والبيان، أو من "جهة الصناعتين اللغوية والبيانية" بحسب عبارة الرافعي، حاول الفصل بين هاتين الجهتين، إلا أنه يومئ إلى ما أشار إليه الجاحظ، وربما يفهم من كلامه أيضا الحديث عن سمة أساسية في البلاغة النبوية وهي سمة الإبلاغ، هذه السمة تحدث عنها عباس محمد العقاد في كتابه "عبقريّة محمد" وهي عنده السمة الغالبة على أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم، هي سمة الإبلاغ، قبل كل سمة أخرى، فهي السمة الجامعة التي لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات البلاغة النبوية الشريفة.

وهناك العديد من الدراسات المعاصرة الجادة تزيد الباحث تحمسا لدراسة البلاغة النبوية مثل " الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية" للدكتور عز الدين كمال السيد، وهي دراسة عامة تناول فيها الألوان البلاغية المختلفة، وهي في ذات الوقت تجمع بين الجانب الفكري، والذوق الفني، وكذلك "الصورة الفنية في الحديث النبوي" للدكتور محمد الصباغ، وهي دراسة جادة لولا عدم وضوح المصطلح الفني، وكذلك أيضا من الدراسات المعاصرة "الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف" للدكتور أحمد ياسوف، وهي دراسة كما قال صاحبها: تعتمد هذه الدراسة على المعطيات الفنية الجمالية القديمة والمعاصرة، والتنظير الأدبي، وسائر المعارف التي تمد يد العون، لكشف جمال الحديث النبوي، خصوصا التصوير الفني وفق أنماط بلاغية ونفسية وفنية، ومن الدراسات المعاصرة أيضا " في ظلال الحديث النبوي ومعالم البيان النبوي" للدكتور نور الدين عتر قال عنها: " أول دراسة فكرية اجتماعية وأدبية جمالية معاصرة، إنها مُنَمَّيْرَةٌ وفريدة في الأدب العربي، ولا تتوافر حتى الآن دراسات تنهج منهج الدراسات الأدبية المعاصرة الحديثة " ،إلى جانب العديد من الدراسات المعاصر أشرنا إليها في تمهيد هذا البحث.

ومع وجود مثل هذه الدراسات الجادة المعاصرة، إلا أنها لا تشكل إلا قطرة من غيث؛ لأن الأدب النبوي الشريف ميدانه فسيح، وظلاله واسعة، لا يمكن أبداً لمثل هذا العدد القليل من الدراسات أن تعطي صورة واضحة عن البيان النبوي، أو تميّط اللثام عن كنوز هذا الأدب الرفيع.

لذلك رأيت أن بمقدورنا أن نستشف بعض الجوانب الفنية والفكرية، خاصة الصورة البيانية المعبرة عن فكرة، أو أن الصورة في نهاية الأمر تؤدي فكرة، ووظيفة .

لقد منّ الله عليّ حين مكّني من أن أقرأ الكلام النبوي بقلبي وعقلي، وأن أعيش معه أمداً من الزمن، وأنا أدرس الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف في موضوع موسوم بـ: "التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف، دراسة تحليلية في لأساليب والوظائف" وقد انحصرت هذه الدراسة في الصحيحين "البخاري ومسلم".

وفي تقديري الراسخ، بأن التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف، لا يحتاج إلى دراسة واحدة فحسب؛ بل إلى العديد من الدراسات المتخصصة والدقيقة.

ومن هنا كانت قناعتني للموضوع، آملاً أن أسد ما شعرت به من نقص، رغم أنني أعلم تعدد مناحيه، وصعوبة مرتقاه، وافتقاره كل الافتقار إلى كُتبٍ تساعد على تبين الأسرار الدفينة في أدب رفيع، كان أروع ما أوحى به البشرية من بيان، وهذا ما زادني عزماً على بحثه، والوقوف على جماله.

إن أهمية التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف، تتبع من طريقتها الخاصة في تقديم المعني، وتأثيره في المتلقي، لكن ما طبيعة التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف؟ وهل ينحصر مداه في نوع من المتعة الذهنية الخاصة، فيعجب المتلقي ببنائه وقوة إيقاعه وجماله؟ أم أن تأثير التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف يتعدى حدود المتعة الشكلية، فيثير انفعالات المتلقي، إثارة خاصة تدفعه إلى موقف، أو سلوك بعينه؟ أم عند هذا المستوى نجد أنفسنا نتجاوز تأثير التصوير في ذاته، إلى تأمل طبيعة الاستجابة التي تعقبه، أو تصاحبه، في ضوء أعم يتصل بوظائف التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف؟.

وتبعاً لما تقدم طرح هذه الفرضيات:

إن الخطاب النبوي الشريف جامع لكل أنواع التصوير البياني، وأن هذه الأساليب البيانية التي تضمنها واحتواها، تعبر عن المعاني المقصودة بشكل يتوخى إظهار المعنى وعرضه في مشهد مرئي مائل للعيان كي يكون أقوى في التأثير على المتلقي.

إن البيان النبوي الشريف يحقق غاية شاملة تكتمل بوجود روافد وظيفية أخرى، تتجمع بكثافة في موقف إيحائي ديني بالدرجة الأولى، وذلك من خلال وظائف متعددة منها: النفسية، الأخلاقية، والتربوية، الدينية.

إن الفهم للتصوير البياني في الحديث النبوي الشريف، يكشف أنه ليس شيئاً ثانوياً يمكن الاستغناء عنه، أو حذفه، وإنما وسيلة حتمية لإدراك نوع متميز من الحقائق تعجز اللغة العادية عن إدراكها، وعندئذ تصبح المتعة التي تمنحها الصورة قرينة الكشف والتعرف على جوانب خفية، في تكامل بين العناصر المختلفة للتصوير البياني.

أما المنهج المتبع لإنجاز هذا البحث فهو المنهج التحليلي، غير أن طبيعة الموضوع تجعل منه وصفاً حيناً، ونفسياً أحياناً، وربما تاريخياً عند الوقوف على جهود علماء البلاغة حول أسلوب من الأساليب البيانية.

و جاءت هذه الدراسة في: مقدمة، وتمهيد، وبابين، وخاتمة.

فكانت المقدمة خبراً مركزاً عن موضوع الدراسة وخصائصه، وأما التمهيد فقد كان استنشاءً حول البلاغة والفصاحة في الحديث النبوي الشريف، وجهود الباحثين في دراستها.

أما الباب الأول فجاء تحت عنوان: أساليب التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف، وقسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول.

فجاء الفصل الأول تحت عنوان: صورة التشبيه في الحديث النبوي الشريف، تناولت فيه التشبيه (المفرد) و(التشبيه المركب، أو التشبيه التمثيلي).

وأما الفصل الثاني: فقد جاء تحت عنوان: الاستعارة في الحديث النبوي الشريف وتناولت فيه الاستعارة المفردة (التصريحية والمكنية)، ثم الاستعارة المركبة (التمثيلية).

وأما الفصل الثالث فقد جاء تحت عنوان: الصورة المجازية والكنائية، تناولت فيه المجاز العقلي، والمجاز المرسل، ثم الكناية.

وأما الباب الثاني، فقد جاء تحت عنوان : وظائف التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف، وقسمت هذا الباب إلى ثلاثة فصول، فجاء الفصل الأول تحت عنوان: الوظيفة النفسية بين الترغيب والترهيب، وأما الفصل الثاني فقد جاء تحت عنوان: الوظيفة الأخلاقية والتربوية، وفي الثالث تناولت: الوظيفة الدينية فجعلتها في أركان الإيمان.

وأنهت دراستي بخاتمة عرضت فيها لأهم النتائج التي انتهت إليها من خلال تحليل الصورة البيانية في الصحيحين البخاري ومسلم.

لقد واجهتني عدة صعوبات خلال سير البحث، أهمها سعة الموضوع، حيث لم أكن أتوقع ذلك، خاصة وأن هذا الموضوع جاء نتيجة التعديل في المشروع الذي تقدمت به، إلى جانب قلة المراجع الحديثة المتخصصة في الدراسات البيانية في الحديث النبوي الشريف مما دفعني إلى السفر بغية الحصول على بعضها، أو الاعتماد على المصادر القديمة، والتي هي في الغالب تقوم على الوصف العام، ولا تعتمد على النقد المعلن، والفضل كل الفضل يرجع إلى أستاذي الكريم في تجاوز، هذه الصعوبات.

وإذا كان أهل الفضل يذكرون ويشكرون، فإني التقدّم بالشكر، إلى أستاذي وأخي وصديقي الأستاذ الدكتور: عبد القار هني، الذي أخذ بيدي، ومهد لي طريق البحث، وأعانني على اجتياز عقباته في صبر الحكماء، وتواضع العلماء، فجزاه الله عني وعن العلم خير الجزاء، على ما بذله من جهد وتوجيه، ونصح ورشاد، وما أكرمني به من وقته، في بيته حتى تم هذا البحث المتواضع.

وأخيرا أرجو من الله العليّ القدير، أن يكون هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، كما أسأله أن يضاعف لنا أجر ما بذلنا من نظر في كتابه، وفي حديث نبيه الأمين، والحمد لله رب العلمين والصلاة والسلام على سيد الخلق أجمعين.

تمهيد:

البلاغة والفصاحة في الحديث النبوي وجهود الباحثين في دراستها

إذا كان القرآن الكريم أسمى أنواع البيان، فهو كلام الله المعجز، فإن الحديث النبوي الشريف، يأتي في المقام الثاني، لأنه يمثل البلاغة الإنسانية، فهو بين إعجاز القرآن وبلاغة البلغاء.

ومع هذا فإنه يبقى في حدود البيان الإنساني، فقد قال أوس بن حبيب الضبي: «... ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام، ما جانا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم»¹، ولقد سئل الباقلاني «هل كلام النبي معجز؟ وأجاب بقوله: «إن هناك فرقا بين القرآن وكلام النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كان النبي أفصح العرب، والفرق بينهما هو الفرق بين كلام البشر وكلام الله»²، وبلاغة النبي في أعلى طبقات البلاغة الإنسانية، فقد أخبر عن نفسه فقال: «بعثت بجوامع الكلم»³، قيل: أن جوامع الكلم أن الله يجمع الأمور الكثيرة، التي كانت في الكتب قبله، في الأمر الواحد، والأمرين أو نحو ذلك، وكان صلى الله عليه وسلم يتكلم بالمعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة.⁴

لقد تحدث القرآن الكريم عن بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم، وعلو بيانه وأسلوبه، في مواضع عديدة، حيث نجده يسمي الحديث "حكمة" ومن ذلك قوله تعالى:

¹ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، عام: 1988م، ج2، ص: 18.

² - عدنان زرزور، بلاغة النبي، بحث منشور في مجلة مركز البحوث السنة والسيرة النبوية، قطر، عام: 1991م، العدد: 5، ص: 235.

³ - البخاري، صحيح البخاري، تحقيق مصطفى البغا، دار الهدى والنشر، الجزائر، ط1، عام: 1992م، ذكر الطبعة والسنة، ج3، ص: 1087، رقم الحديث: 2815.

⁴ - انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، دار الكتاب العربي، بيروت، عن الطبع: 7، مصر، عام: 1983م، ج5، ص: 129.

﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾¹، والآية دالة على الكلام البليغ، والبيان الناجع

الأثر في أعماق النفوس، مما أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة، والحكم الفريدة²

أسباب بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وفصاحته:

إذا كان الرافعي يرى أن أسباب بلاغة النبي وفصاحته منها ما هو توفيق ووحى من الله ، ومنها ما هو توفيق يسر الله له سبيله، والحق أن النبي صلى الله عليه وسلم قد اجتمعت فيه سمات كثيرة ثقفت لسانه، وزينت بيانه، وجعلته تاج الفصحاء، وسيد البلغاء، وهذا ليس بالأمر الغريب، لأنه سيتحمل عبء «الرسالة العظيمة لينذر الناس جميعاً، ومن هنا فلا بد من الإعداد المناسب لأداء هذه الأمانة، ولابد من توفير الأسباب وتهيئة الظروف التي تساعد على أداء هذه المهمة العظيمة الجسيمة، وهي هداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور»³

ولأجل ذلك كانت هناك عوامل وأسباب أثرت في بلاغته صلى الله عليه وسلم وسأكتفي هنا بالإشارة إلى أبرزها، وأهمها في حياته عليه الصلاة والسلام.

أولاً: النشأة اللغوية الخاصة:

ومن أسباب بلاغته وفصاحته أنه تجمعت فيه خصائص البلاغة الفطرية حيث نشأ نشأة لغوية في بيئة عربية نقية خاصة، تموج بالبلاغة والفصاحة، التي صقلت موهبته المتفردة من بني البشر، ليتمكن لسانه من أداء المحكم، عما يلهم خاطره، ويجيش في صدره ونفسه من المعاني.

و يعود ذلك إلى نسبه الكريم، أنه كان قرشياً، هاشمياً، وقريش من أفصح القبائل العربية لساناً، وأخلصها منطقاً، وأنصعها بياناً، وأعذبها بلاغة، ثم أن أخواله من بني زهرة

¹-سورة الإسراء، الآية: 39.

²-انظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ج2، ص:160.

³-محمد أبو العلا الحمزاوي، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، عام:2007م، ص:31.

ورضاعه في بني سعد بن بكر، وزواجه من بني أسد، ومهاجرته إلى المدينة، حيث الأوس والخزرج ، وهذه القبائل أخلص لسانا، وأعذبها لهجة¹

ووسط هذه البيئة العربية الخالصة نشأ عليه الصلاة والسلام نشأة يافعة في ربوع الفصاحة، وميادين البلاغة، بقوة فطرية، وصفاء النفس ونفاذ البصيرة ،هذه البيئة العربية كانت « الفصاحة أكبر أمرهم، والكلام سيد عملهم، لو كان فيهم أفصح منه لعارضوه به ولأقاموه في وزنه، ثم لجعلوا من ذلك سببا لنقض دعوته والإنكار عليه، غير أنهم عرفوا منه الفصاحة على أتم وجوهها، وأشرف مذهبها، ورأوا له في أسبابها، ما ليس لهم ولا يتعلقون به ولا يطبقونه »²

ولهذا لم نجد من يطعن فيه، وفي فصاحته وبلاغته، من المشركين، لأنهم يعلمون نشأته، ثم أنه لم يخرج من بين أظهرهم، ولا خرج عن أرضهم، ففصاحته معلومة للخاص والعام منهم، ولهذا لم يجد أعداء الإسلام مغمزة يطعنون به في بلاغته وفصاحته، لأنهم يدركون أنه على حد الكفاية فيها « فمحمد العربي القرشي الناشئ في بني سعد،العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية في أطراف الجزيرة، لم يكن في كلامه كله غريب يجهله السامع، أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة، وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ، أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزا من اللفظ الغريب أو المعني الغريب»³

ثانيا:الفطرة النقية:

تعد الطبيعة النقية الصافية التي فطره الله عليها من بين الأسباب التي أهلت البلاغة النبوية، عن جدارة واستحقاق،لأن تصل الذروة العليا، وعلى قمة البيان البشري، فقد

¹ - انظر : مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب لعربي،بيروت، ط1، عام:2004م، ص:196.

² - انظر :المرجع نفسه، ص:197.

³ - عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، عام:1969م، ص:70.

وهب الله صفوة خلقه، فطرة صافية نقية، وبديهة حاضرة، « وقلبا واعيا، وبصرا نافذا، وذهنا متوقدا، ولسانا فصيحاً، مما لم يبلغه سواه من الخلق أجمعين، وذلك لإبلاغ رسالته كافة، وقد أسهمت هذه الفطرة النقية، أن يستوعب ألفاظ اللغة وتراكيبها، كما قال الرافعي: «كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحقائقها، فيخاطب كل قوم بلحنهم، وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً، وأسدهم لفظاً، وأبينهم عبارة، ولم يعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عرف لقد كانوا نقلوه، وتحدثوا به واستفاض فيهم»¹

هذه الفطرة أسهمت في أن يستوعب عليه الصلاة والسلام اللغة، ويتمكن من لغة قريش، تمكنا رفعه إلى مرتبة الوضع اللغوي، وهذه غاية سداد الفطرة، وقوة الملكة، وهو أمر لم تتطو عليه كثير من الفطر، ولذلك فوجودها نادر عند العرب، لا تكون إلا بالقدرة الباهرة المبدعة على التغلغل في اللغة، وهي مرتبة عالية جدالاً يصل إليها إلا القليل، فقد كان يصرف اللغة تصريفاً، ويديرها على أوضاعها، ويشقق منها في أساليبها ومفرداتها ما لا يكون لهم إلا القليل منه.

ثالثاً: التمكين الإلهي.

أما التمكين الإلهي والعطاء الرباني، فتلك منحة خصه بها جل جلاله دون العالمين وهذه المنحة تتمثل في جوامع الكلم، إذ منحه عز وجل الفطرة النقية، والبديهة الحاضرة واللسان الفصيح، مما ساعده على تصريف الكلام: « وأعانه على كمال الفصاحة والبيان فتمكن صلى الله عليه وسلم من أفانين البلاغة ما أبهر قومه، وهم أصحاب اللسن، وأرباب البيان»²، وهؤلاء القوم وصفهم الجاحظ بقوله: « وكل شئ للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأَنَّهُ إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإِنَّمَا هو أن يصرف وهْمَهُ إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام، أوحين يمتَح على رأس بُئر، أو يحدُو ببعير، أو عند المقارعة أو المناقلة، أو عند صِراع أوفي حرب، فما هو إلا أن يصرف وهْمَهُ

¹ - عزة محمد جدوع، البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، عام: 2014م، ص: 268.

² - مرجع نفسه، ص: 270.

إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذي إليه يقصد، فتأتيه المعاني أرسالا، وتنتال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحد من ولده، وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلمون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطبائهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهم عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدأرس، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد»¹

وصف الجاحظ، كان وصف خبير وصاحب علم ودراية، حيث وصف الأمر كما كان في تدفق بيان وخلوص عبارة، وإن من يوكل إليه إقناع هؤلاء، لسيد بلغائهم وأفصح رجالهم دون نزاع، ولم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد، مباهاة بالفصاحة ومفاخرة بالبيان، فما أبعده عليه الصلاة والسلام عن المفاخرة والمباهاة، ولكنه كان يعبر عن حقيقة خالصة قال تعالى: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾² ولذلك لم نجد من العرب من جمع الله فيه هذه الصفات، أو خصه بهذه القدرة البيانية، وخصه بحملها، وأسلس له مأخذها، وأخلص له أسبابها كالنبي صلى الله عليه وسلم.

رابعا: أثر القرآن الكريم في البيان النبوي الشريف:

لقد اختار الله محمدا صلى الله عليه وسلم من بين آلاف الفصحاء من قومه ليعجزهم بفصاحة القرآن، ووكل إليه أن يفسر كتابه، ويبين وحيه حين قال في محكم التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج3، ص:28.

² - سورة ص، الآية:86.

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾¹ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على البيان النبوي الشريف، حيث أخذت تتوالى عليه صلى الله عليه وسلم.

لا شك أن القرآن الكريم ببيانه وبلاغته، وفصاحته، كان له أثر عظيم في البيان النبوي الشريف، اختصه ربه به، فكان خير موجه له، إذ ملأ حياته، وشغل عقله وقلبه، وأورثه الحكمة والحجة والبيان، فكانت معانيه عليه الصلاة والسلام ربانية، وكانت ألفاظه معرضاً رائعاً لمعاني القرآن الكريم، ويتجلى ذلك في أحاديث كثيرة وليس هذا مقام البحث، وإنما نذكر ذلك على سبيل التمثيل، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليتحرى الصدق حتى يكتب عند الله عز وجل صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً»²، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾³ وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماساً وتروح بطاناً»⁴، وهو متأثر بقوله تعالى: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾⁵ ومثل هذه المعاني كثيرة في الحديث النبوي الشريف. وحتى البناء اللفظي لصورة البيانية نجد هذا الأثر مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ماحوله..»⁶، فهذه الألفاظ وهذا التصوير نجده في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾⁷.

تلك هي أهم العوامل التي لها أثرها الواضح في تكوين بلاغة النبي صلى الله عليه وسلم.

وسلم.

¹-سورة آل عمران، الآية: 164.

²-صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2271، رقم الحديث: 5743.

³-سورة التوبة، الآية: 119.

⁴-الترمذي، الجامع الكبير (سنن الترمذي) تح، شعيب الأرناؤوط، هيثن عبد الغفور، دار الرسال العالمية، ط1، عام: 2009م، ج4، 371، رقم الحديث: 2498.

⁵-سورة الطلاق، الآية: 3.

⁶-صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2379، رقم الحديث: 6118.

⁷-سورة البقرة، الآية: 17.

الحديث النبوي الشريف في الدراسات البلاغية:

السنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع بعد القرآن الكريم، وهي كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم، من قول أو فعل، أو تقرير، وجاءت لتبين ما في القرآن الكريم، ففصلت مجمله، أو وضحت مُشْكِلَه، أو قيدت مطلقه، أو خصصت عامه ولذلك نالت المكانة العليا بعد القرآن الكريم.

وقد نال الحديث النبوي الشريف مكانة متقدمة من جهود العلماء، حيث حظي بدراسات كثيرة في مجالات علمية متعددة منها: الرواية، والتدوين، والتوثيق، والشرح، والتفسير، واستخلاص الأحكام الفقهية والشرعية والقيم الأخلاقية.

لم تتوقف جهود العلماء عند هذا الحدّ، وإنما اتجهت عنايتهم إلى الدراسات اللغوية حيث نلاحظ اهتماما بغريب الحديث، وشرحه، وتصنيفه، مثل: غريب الحديث لابن قتيبة وغريب الحديث لابن الجوزي، والنهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير وغيرها من الكتب التي تناولت مواضع أخرى مثل إعراب الحديث.

أما الجانب البلاغي فإنه لم ينل تلك الرعاية الكافية، إلا ما جاء عند الأدباء والنقاد من وصف وإعجاب، على النحو الذي أشار إليه الجاحظ، والشريف الرضي والخطابي والرافعي والعقاد وغيرهم من القدماء والمحدثين

البلاغة النبوية عند القدماء:

أولاً: الجاحظ :

لقد سبقت الإشارة إلى كلمة يونس بن حبيب حين قال: " ما جاءنا عن أحد من روائع ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نقل الجاحظ هذه الكلمة في معرض حديثه عن بعض فنون الكلام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد قال الجاحظ : « وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثرت معانيه، وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف، وكان كما

قال الله تبارك وتعالى قل يا محمد: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾¹ فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعقيب، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصود في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشي، ورغب عن الهجين السوقي، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق»²، ثم قال أيضا: ثم قال أيضا: «ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعا، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم كثيراً»³.

وقد تعمدنا نقل هذا النص الطويل، لأنه يجمع أهم السمات التي يتصف بها الأسلوب النبوي الشريف بحسب رأي الجاحظ، وأهم هذه السمات هي: كثرة المعنى وقلة اللفظ، ثم الخلو من التكلف والصنعة، إلى جانب أن ألفاظه تتسم بالوساطة ليست وحشية ولا مبتذلة، فيها مراعاة مقتضى الحال، ثم يشير إلى التأييد إلا لشيء لبيان عليه الصلاة والسلام، هذا البيان الذي جمع بين مهابة المعاني وحلاوة الألفاظ، إلى جانب خلوه من عيوب الخطباء والمتكلمين، ثم بين قوة حجته عليه الصلاة والسلام، ثم سمات أسلوبه عامة - عموم النفع - اعتدال الوزن، وسهولة المخارج، وحسن بناء كلامه، وسمو غاياته.

ثانياً: الشريف الرضي:

يعد الشريف الرضي أشهر من ألف في البلاغة النبوية في تلك الفترة المتقدمة، إذ ألف كتاباً متخصصاً في البيان النبوي هو: "المجازات النبوية" تناول فيه البيان النبوي الشريف تناولاً بلاغياً، امتزجت فيه الفكرة العلمية، بالروح الأدبية، وجمع فيه ثلاثمائة وواحداً وستين حديثاً نبوياً، من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام، بين ما فيها من الألوان البلاغية، وأسرار اللغة اللطيفة، ونبه إلى السر البلاغي في إثارة التعبير بالمجاز على التعبير بالحقيقة، ثم ذكر ما يؤديه المجاز من دلالات وفوائد، في تحقيق الغرض المقصود من استخدامه، وبذلك جاءت دراسته تجلية لجانب مهم من جوانب دراسة البيان النبوي في البحث البلاغي⁴.

¹ - سورة ص، الآية: 87.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص: 18.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص: 18.

⁴ - انظر: عزة محمد جوع، البلاغة في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 277.

ولقد ذكر في مقدمة الكتاب السبب الذي دفعه إلى وضع هذا الكتاب النفيس المتخصص في دراسة الأدب النبوي الشريف من الوجهة البلاغية فقال: « فإني عرفت ما شافهتني به من استحسانك الخبيئة، التي أطلعتها، والدفينة التي أثمرتها من كتابي الموسوم بـ: "تلخيص البيان عن مجازات القرآن" وأني سلكت من ذلك محجة لم تسلك، وطرقت بابا لم يطرق، وما رغبت إلى فيه من سلوك مثل تلك الطريقة في عمل كتاب يشتمل على مجازات والآثار الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله، إذ كان فيها كثير من الاستعارات البديعة، ولمع البيان الغريبة، وأسرار اللغة اللطيفة، يعظم النفع باستنباط معادنها، واستخراج كوامنها، واطلاعها من أكمتها وأكنانها، وتجريدها من خللها وأجفانها، فيكون هذان الكتابان بإذن الله لمعتين يستضاء بهما وعرنينين لم أسبق إلى قرع بابها،»¹.

والواضح أن الشريف الرضي يحرص في كتابه المجازات النبوية على الإشادة بالبلاغة النبوية حتى يتحقق للحديث النبوي الشريف ذلك المقام البلاغي الذي لا يدانيه مقام، لأن صاحبه أوتي الحكمة وجوامع الكلم

ثالثا: الخطابي:

تناول الخطابي البلاغة النبوية، في مقدمة كتابه " غريب الحديث" تحت عنوان " ذكر فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يؤثر من حسن بيانيه" حيث ذكر أهم سمات أسلوبه عليه الصلاة والسلام بقوله: « إن الله جلّ وعزّ لمّا وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه، اختار له من اللغات أعربها، ومن الألسن أفصحها وأبينها لبياشر في لباسه مشاهد التبليغ وينبذ القول بأوكد البيان والتعريف، ثم أمده بجوامع الكلم التي جعلها ردءا لنبوته وعلمًا لرسالته، لينتظم في القليل منها علم الكثير، فيسهل على السامعين حفظه ولا يؤودهم حملُهُ، ومن تتبّع الجوامع من كلامه لم يَعدَم بيانها، وقد وصفت منها ضروبا، وكتبت لك من أمثلتها حروفا تدل على ما وراءها من نظائرها وأخواتها »².

ثم أشار إلى بعض ضروب البيان النبوي وأسلوبه عليه الصلاة والسلام منها: جوامع الكلم التي جعلها ردءا لنبوته وعلمًا لرسالته، ومن فصاحته وحسن بيانه أنه قد تكلم بألفاظ اقتضبها لم تُسمَع من العرب قبله ، ولم توجد في متقدّم كلامها، ومن فصاحته وسعة

¹ - الشريف الرّضي، المجازات النبوية، تح: كريم سيد محمد محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، عام: 2007م، ص: 9.

² - الخطابي، غريب الحديث، تحقيق، إبراهيم العزباوي، دار الفكر، دمشق، ط1، عام: 1982م، ج1، ص: 64.

بيانه أنه قد يوجد في كلامه الغريب الوحشي الذي يعيا به قومه وأصحابه وعامتهم، ومن حسن بيانه ترتيب الكلام وتنزيله منازل¹.

ولعل ما تتسم به دراسة الخطابي هي الجانب التطبيقي فهو يذكر الصورة البيانية لكل نوع فيتبعه بالشاهد والمثل الدال على ذلك.

ولعل أهم الخصائص التي أشار إليها الخطابي هي: الإيجاز الذي تكلم عنه الجاحظ ولكنه لم يكتف بأنه إلهام من الله وإنما جعله، علامة الرسالة، ثم اختصاصه عليه السلام ببعض التراكيب والمفردات، ثم إحاطته بغريب اللغة ، وكذلك ترتيب الكلام وتنزيله منازل.

رابعاً: عبد القاهر الجرجاني:

ولابد لنا أيضاً من وقفة عند عبد القاهر الجرجاني، الذي عُرفت البلاغة به وهو والذي بنى صرحها، بعد أن وضع الجاحظ أركانها، فقد كانت له عناية بالأدب النبوي الشريف، حيث وظف الحديث النبوي كشاهد بلاغي على فنون البيان، حتى وإن كانت جهوده لم تظهر الخصائص الفنية التي يتميز بها الأدب النبوي، لأن عبد القاهر كان اهتمامه بالقرآن الكريم خاصة موضوع الإعجاز الذي كان همه الأول.

ومما أورده في حديثه عن البيان النبوي، قوله: « ومثال الأصل الثاني، وهو أخذ الشبه من المحسوس للمحسوس، ثم وجه الشبه عقلي قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن" الشبه مأخوذ للمرأة من النبات كما لا يخفى وكلاهما جسم إلا أنه لم يقصد بالتشبيه لون النبات وخضرته ولا طعمه ولا رائحته ولا شكله وصورته ولا ما شاكل ذلك، بل القصد شبه عقلي بين المرأة الحسناء في المنبت السوء وبين تلك النابتة على الدمنة وهو حسن الظاهر في رأي العين مع فساد الباطن وطيب الفرع مع خبث الأصل »².

وقد ذكر الحديث مرة ثانية ، وأظهر فيه قيمة التشبيه، وتأثيره في قوة المعنى فيقول: «وكذا قوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم وخضراء الدمن" معلوم أن ليس القصد إثبات معنى ظاهر اللفظين، ولكن الشبه الحاصل من مجموعهما وذلك حسن الظاهر مع خبث الأصل»³.

¹ -- الخطابي، غريب الحديث، مصدر سابق، ص: 67.

² -- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون ذكر الطبعة والسنة، ص: 58.

³ -- ، مصدر نفسه، ص: 234.

والواضح أن الجرجاني يأتي بالحديث مثلا يوضح به القاعدة التي يقرها، ولم يكن يقصد دراسة الحديث، وبالتالي لم يستخلص الخصائص الفنية التي يمتاز بها الحديث النبوي الشريف

خامسا: ابن الأثير:

وقد اهتم ضياء الدين بن الأثير بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في كتابه: "المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" حيث وقف عند ما يزيد على مائة وثلاثين حديثا، استخلصها من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وعرض في كل حديث لفن بلاغي، أو أكثر، يستدل به على جودة الكلام وحسن مجئ الفن التعبيري في موضعه، والبيان في موطنه، من استعارة أو تشبيه أو كناية أو محسن لفظي كسجع أو طباق أو مقابلة، هذا الاهتمام ينبئ عن تقديره وإكباره، وقد دل في اختياره هذا على سعة التتبع وحسن الاهتداء، إلى المراد من المعاني الدقيقة، في بيانه عليه الصلاة والسلام، كما أنه أحسن الاختيار لطائفة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تحتل أكثر من معنى واحد، فقد أفاض في الاستدلال بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في أبواب الإيجاز والمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية وتحليلها وبيان فضلها وفضائلها وفضل الرسول صلى الله عليه وسلم، في دقة استعماله

الدراسات البلاغية المعاصرة:

نالت البلاغة النبوية في عصرنا الحاضر بعض الاهتمام من الباحثين في حقل البلاغة النبوية، وهي في حقيقة الأمر كانت امتدادا لجهود العلماء السابقين، غير أن الدراسات المعاصرة لم تتناول كل الجوانب البلاغية المتصلة بالحديث النبوي الشريف، لأن الحديث النبوي ثري بالأسرار الجمالية، ولا يعلو عليه، إلا القرآن الكريم بلاغة وفصاحة وأسلوبا . والبيان النبوي الشريف يمثل في حقيقة الأمر المعجزة النبوية « الأولى لصاحب الدعوة عليه السلام إذ تسنم دورا رائدا في سبيل نجاح الدعوة وانتشارها، الأمر الذي كان يجب أن يحفز علماء البلاغة والباحثين، ليسارعوا إلى القيام بدراسات وبحوث بلاغية متخصصة

ومعمقة في الأدب النبوي بحيث لا تقل كماً وكيفا عما كتبه مؤرخو السيرة النبوية من مجلدات في عصرنا الحاضر»¹.

ومع هذا نجد بعض المعاصرين تناولوا أسرار الجمال في الحديث النبوي، و الكشف عن خصائصه الفنية ، ونحن في هذا المقام نذكر بعض الدراسات على سبيل الاستدلال فقط، ومن هذه الدراسات ، وأهمها: ما كتبه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " و ما كتبه أيضا: الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه "عبقريّة محمد " وكذلك أيضا: " الحديث النبوي من الوجهة البلاغية" للدكتور كمال عز الدين السيد ، وكذلك : "التصوير الفني في الحديث النبوي" الدكتور محمد الصباغ، وكذلك أيضا: "الخصائص البلاغية للبيان النبوي" الدكتور محمد أبو العلا الحمزاوي، إلى جانب البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية" الدكتور عزة محمد جد وع، وكذلك أيضا : "الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف" الدكتور أحمد ياسوف، و"الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف" الدكتور فالح حمد أحمد الحمداني، وكذلك أيضا: "البلاغة القرآنية والنبوية في آثار الشريفين"الدكتور محمد حسن بيومي شرشر، وكذلك أيضا:" أضواء على البلاغة النبوية"،الدكتور إبراهيم طه الجعلي وغيرها من الدراسات التي تناولت الحديث النبوي الشريف والتي سيشار إليها في البحث.

¹ - عزة محمد جد وع ، البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية ، مرجع سابق،ص:283.

الباب الأول: أساليب التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف

الفصل الأول: الصورة التشبيهية في الخطاب النبوي الشريف

الفصل الثاني: الاستعارة في الخطاب النبوي الشريف

الفصل الثالث: المجاز والكناية في الخطاب النبوي الشريف

الفصل الأول: الصورة التشبيهية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: التشبيه المفرد في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الثاني: التشبيه المركب في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: التشبيه المفرد في الحديث النبوي الشريف

والمراد أن يكون وجه الشبه مفرداً، وليس مركباً، سواء كان التشبيه مجملاً، أو مفصلاً، ويتضمن ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: مفهوم التشبيه وأهم أقسامه:

التشبيه في اللغة: من شبه: « الشَّبَّ، والشَّبَّه، والشَّبِيه: المثل، والجمع أشباه، أشبَه الشيء الشيءَ: ماثله، وفي المثل: من أشبَه أباه فما ظلم، والتشبيه التمثيل »¹

وفي مختار الصحاح في مادة شبه « وشبه لغتان بمعنى يقال: هذا شبهه، أي شبيهه وبينهما شبه، والمشتبهات من الأمور المشكلات، والمشابهات: المتماثلات، والتشبيه التمثيل »²، وفي معجم المصطلحات البلاغية الشبه والتشبيه: «المثل، وأشبه الشيء: ماثله، وأشبهت فلانا وشابهته، وأشبهه عليّ، وتشابه الشيطان واشتبها: أشبه كل واحد منهما صاحبه والتشبيه التمثيل، واللغويون لم يفرقوا بين المصطلحين "التشبيه" و "التمثيل" وإلى ذلك ذهب بعض البلاغيين كالزمخشري وابن الأثير، ونعى الأخير على العلماء الذين فرفوا بينهما على: أنه لا فرق بينهما في أصل الوضع اللغوي»³

قال الزمخشري: « شبه: ما له شِبْهٌ وشَبَّهٌ وشَبِيه، وفيه شبه منه، وقد أشبه أباه وشابهه، وما أشبهه بأبيه، وفي الحديث: "اللبن يُشَبَّهُ عليه"، وتشابه الشيطان واشتبها، وشبّهته به وشبهته إياه، واشتبّهت الأمور، وتشابهت: التبتت الاشباه بعضها بعضاً، وفي القرآن

¹ - ابن منظور، لسان العرب، تنسيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، عام: 1988م، ج7، ص: 23.

² - محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، تعليق مصطفى ديب البغا، دار الهدى الجزائر، ط1، ص: 214.

³ - انظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، دار العربية للموسوعات، ط1، عام 2006، ج2، ص: 166

المُحكَّم والمتشابه، وشبه عليه الأمر: لبس عليه، وإياك والمشبّهات: الأمور المشكلات. ووقع في الشبهة والشبهات¹.

والمعاجم اللغوية تتفق - في الأغلب - على أن التشبيه هو التمثيل، فالشَّبُّ والشَّبُّ والشَّبُّ: المَثَل والمَثَل والمَثَل.

ويستشف من معاني التشبيه لغة، أنه يتضمن التمثيل، والمماثلة، والمساواة والاستواء وهذا يدل على ما بين الشئيين المرادين من شبه، يزداد أحيانا إلى حد الخلط والاتحاد بينهما فتولد عن ذلك مشكلات في تمييز أحدهما عن الآخر.

هذا الاختلاط، نلمحه بوضوح في المعنى اللغوي للتشبيه، فالمماثلة بين أمرين مراتب تتفاوت قوة وضعفا.²

ولا نظن أن هذه المعاني بعيدة عما جرى عليه البلاغيون فيما بعد في تحديد التشبيه.

التشبيه في الاصطلاح:

اهتم علماء البلاغة بالتشبيه اهتماما كبيرا فعرفوه تعريفات كثيرة تهدف إلى إيضاحه وبيان حده، بأساليب مختلفة في التعبير متفقة في الدلالة.

فقد حاول قدامة بن جعفر الإحاطة بجوانبه فقال: « إن الشيء لا يشبه بنفسه ولا بغيره من كل الجهات، إذ كان الشئان إذا تشابها من جميع الوجوه ولم يقع بينهما تغاير البتة، اتحدا فصار الاثنان واحداً، فبقي أن يكون التشبيه إنما يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها، واقتراق في أشياء ينفرد كل واحد منها بصفتها، وإذا كان

¹ - الزمخشري، أساس البلاغة تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، عام: 1998، ج1، ص: 493.

² - غازي بموت، علم أساليب البيان، دار الفكر اللبناني، ط2، عام 1995، ص: 94.

الأمر كذلك، فأحسن التشبيه هو ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها ،حتى يدني بهما إلى حال الاتحاد».¹

وأما الرماني فقد عرف التشبيه بأنه: « العقد على أن أحد الشيئين يسد مسد الآخر في حسٍ، أو عقلٍ، ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول، أو في النفس».²

والعقد بين الشيئين، والربط بينهما قد يكون في القول، أو في النفس، إلى جانب أن التشبيه عنده على قسمين: حسي، وعقلي: « ولا يخلو التشبيه من أن يكون في القول، أو في النفس: فأما القول فنحو قولك: زيد شديد كأسد، فالكاف عقدت المشبه به بالمشبه، وأما العقد في النفس، فالاعتقاد لمعنى هذا القول، وأما التشبيه الحسي فكما عين وذهبين يقوم أحدهما مقام الآخر ونحوه، وأما التشبيه النفسي فنحو تشبيه قوة زيد بقوة عمرو»³

والواضح أنه يشير في كلامه هذا إلى وجه الشبه، وهو المعنى الذي يجمع بين المشبه والمشبه به.

وأما أبو هلال العسكري فقد عرف التشبيه بأنه: « الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه »⁴، وقد قسمه إلا ثلاثة أقسام: تشبيه شيئين متفقين من جهة اللون وتشبيه شيئين متفقتين يعرف اتفاقهما بدليل، وتشبيه شيئين مختلفين لمعنى يجمعهما كتشبيه البيان بالسح، ثم قسم التشبيه تقسيما آخر من حيث الصورة، واللون والحسن والحركة.

¹ - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، القاهرة، مكتبة الخانجي، دون ذكر الطبعة، عام: 1963م، ص: 122

² - الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، وزغلول سلامة، دار المعارف، ط2، 1980م، ص: 80.

³ - المصدر نفسه، ص: 80.

⁴ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، المكتبة العصرية، بيروت، دون ذكر الطبعة، عام: 1986م، ص: 239.

أما ابن رشيق القيرواني، فقد عرف التشبيه بقوله: « التشبيه: صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة، أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه »¹.

وأما عبد القاهر الجرجاني فقد عرفه بقوله: « التشبيه أن تثبت لهذا معنى من معاني ذاك، أو حكما من أحكامه، كإثباتك للرجل شجاعة الأسد »².

وأما السكاكي فقد عرف التشبيه بقوله: « التشبيه مستدع طرفين: مشبها ومشبها به واشتركا بينهما من وجه، واقتربا من آخر »³. وأما الخطيب القزويني فقد عرفه أيضا بقوله: « التشبيه: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى »⁴.

وهذه التعريفات وغيرها، تؤدي إلى معنى واحد، هو أن التشبيه ربط شيئين أو أكثر في صفة من الصفات أو أكثر.

لكن البلاغيين اختلفوا في هذه الصفة، أو الصفات، ومقدار اتفاقها واختلافها، فذهب قدامة بن جعفر إلى أن أحسن التشبيه ما وقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات أكثر من انفرادهما فيها حتى يدني بهما التشبيه إلى حال الاتحاد. وإلى هذا ذهب ابن رشيق بقوله: « لأن المشبه لو ناسب المشبه به مناسبة كلية لكان إياه »⁵. وأما ابن سنان فقد قال: « وإنما الأحسن في التشبيه أن يكون أحد الشيئين يشبه الآخر في أكثر صفاته ومعانيه وبالضد، حتى يكون ردئ التشبيه ما قل شبهه بالمشبه به »⁶. وقد

¹ - ابن رشيق القيرواني، العمدة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط5، عام: 1981، ج1، ص: 286.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 74.

³ - السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1، عام: 1982، ص: 558.

⁴ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 عام 2004، ص: 174.

⁵ - ابن رشيق القيرواني، العمدة، مرجع سابق، ج1، ص: 286.

⁶ - ابن سنان، سرا لفصاحة، تحقيق عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح القاهرة، ط1 عام 1950، ص: 290.

يكون التشبيه أحسن، إذا كثرت جهات الاختلاف ليكون مجال التخيل والتصوير أبعد مدى، على أن لا يؤدي ذلك إلى الغموض «لأنه يفتح مجال التخيل والتصوير إلى أبعد مدى بشرط أن لا يكون ذلك الاختلاف وعدم الاتفاق عميقاً يؤدي إلى غموض التشبيه مما يستدعي إلى إعمال النظر أكثر، وإلى وقفة تأمل طويلة عميقة من غير فائدة يحدثها ذلك الإغراب، وهذا يستدعي من الأديب أن يكون دقيقاً في صورته التشبيهية، وأن يحسن الربط وعقد الصلة بين الأمرين بغية تصوير تخيلاته تصويراً بديعاً»¹.

ومهما تعددت التعريفات عند علماء البلاغة في التشبيه، فإن مؤداها واحد يشار إليه بقولهم «الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى بإحدى أدوات التشبيه الظاهرة أو المقدر»² أو هو «إلحاق أمر بأمر في معنى مشترك بينهما بإحدى أدوات التشبيه لفظاً أو تقديرًا لغرض يقصده المتكلم»³. وذلك عندما يريد إظهار وصف شيء ما فإنه يعتمد إلى اختيار شيء تكون الصفة فيه ظاهرة بارزة وأقوى، فيجعله مشبهاً به، والجمال فيما ينقل من الصورة الكامنة وحسن الاختيار للطرف الثاني -المشبه به- وما ينتج من وجه الشبه من الدلالة على قوة النفاذ إلى عمق الشيء.

التشبيه بين الحقيقة والمجاز:

إن طبيعة الاختلاف بين علماء البلاغة لم يتوقف فقط عند الصفة، أو الصفات ومقدار اتفاقها واختلافها، وإنما تعدى إلى جوهر التشبيه، هل هو حقيقة أم هو مجاز؟ فقد ذهبت طائفة منهم إلى القول: بأن التشبيه ليس مجازاً، ولعل أبرز هؤلاء عبد القاهر الجرجاني الذي كان من الأوائل الذين ذهبوا هذا

المذهب فقال: «وهكذا كل متعاطٍ لتشبيه صريح لا يكون نقل اللفظ من شأنه ولا من مقتضى غرضه، فإذا قلت: زيد كالأسد،

¹ - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، مرجع سابق، ج2، ص: 170.

² - محمد شعبان علوان، ونعمان شعبان علوان، من بلاغة القرآن الكريم، القاهرة، الدار العربية للنشر والتوزيع، ط1، عام: 1988، ص: 150.

³ - محمد لطفي عبد التواب، علم البيان، المكتبة العالمية العلمية، بيروت، ط1، عام: 2001م، ص: 31.

وهذا الخبر كالشمس، في الشهرة، وله رأي كالسيف في المضاء، لم يكن منك نقلاً للفظ عن موضوعه، ولو كان الأمر على خلاف ذلك لوجب أن لا يكون في الدنيا تشبيه إلا وهو مجاز، وهذا محال، لأن التشبيه معنى من المعاني، وله حروف وأسماء تدل عليه، فإذا صرح بذكر ما هو موضوع للدلالة عليه كان الكلام حقيقة كالحكم في سائر المعاني فاعرفه¹.

وسار على نهجه الرازي، والمطرزي، والسكاكي، وابن الزمكاني، والحلي والنويري والقزويني، وشرح التلخيص.

والى هذا أشار ابن قيم الجوزية عندما قال: « وذهب المحققون من متأخرين علماء هذه الصناعة وحذا قها إلى أن التشبيه ليس من المجاز، لأنه معنى من المعاني وله حروف وألفاظ تدل عليه² »

وأما الزركشي فقد أشار إلى أن التشبيه ليس من المجاز، فقال: «والمحققون على أنه حقيقة، قال الزنجاني في المعيار: « التشبيه ليس بمجاز، لأنه معنى من المعاني وله ألفاظ تدل عليه وضعاً، فليس فيه نقل اللفظ عن موضوعه، وإنما هو توطئة لمن سلك سبيل الاستعارة والتمثيل؛ لأنه كالأصل لهما وهما كالفرع له، والذي يقع منه في حيز المجاز عند البيانين هو الذي يجيء على حد الاستعارة، وتوسط الشيخ عز الدين فقال: "إن كان بحرف فهو حقيقة، أو بحذفه فهو مجاز، بناء على أن الحذف من باب المجاز"³. وفي المقابل ذهب فريق من علماء البلاغة إلى القول بأنه مجاز، وقد أشار ابن القيم الجوزية عندما

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق،: 206.

² - محمد بن أبي بكر بن أبو أيوب بن قيم الجوزية، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، دار مكتبة الهلال ببيروت، ط1، عام: 1987م، ص: 87.

³ - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، عام: 1980م، ص: 415.

فقال: « والذي عليه جمهور أهل الصناعة أن التشبيه من أنواع المجاز وتصنيفاتهم تصرح بذلك وتشير إليه ».¹

وهذه الرؤية نجدها أيضا عند ابن رشيق في حديثه عن التشبيه حيث ينظر إليه على أنه من المجاز، وليس حقيقة فيقول: « وأما كون التشبيه داخلا تحت المجاز ،فلأن المتشابهين في أكثر الأشياء إنما يتشابهان بالمقارنة على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة ».²

وأما العلوي فقد حسم في الموضوع فقال: « والمختار عندنا كونه معدودًا في علوم البلاغة لما فيه من الدقة اللطافة، ولما يكتسب به اللفظ من الرونق والرشاقة، ولاشتماله على إخراج الخفي إلى الجلي، وإدناؤه البعيد من القريب، فأما كونه معدودا في المجاز أو غير معدود فالأمر فيه قريب بعد كونه من أبلغ قواعد البلاغة، وليس يتعلق به كبير فائدة وربما كان الخلاف في ذلك لفظيًا فعدلنا عنه ».³

وأما الدكتور أحمد مطلوب فإنه يقول: «والحق أن التشبيه مجاز، لأنه يعتمد على عقد الصلة بين شيئين أو أشياء لا يمكن أن تفسر على الحقيقة، ولو فسرت كذلك لأصبح كذبا، وهو الفن الكثير الاستعمال في كلام العرب، ويبدو أن عدم الانتقال فيه من معنى إلى آخر كما في الاستعارة دعاهم إلى إخراجهم من المجاز الذي هو استعمال الكلمة في غير ما وضعت له، أو إسناد أمر إلى آخر لم تكن له صلة به ».⁴

ومن خلال هذا العرض أن التشبيه مجاز، أو غير مجاز، فإن الأمر يحتاج إلى تدقيق أكثر، حيث أن للتشبيه أنواعا بحسب اكتمال أركانه، وعدم اكتمالها، ومما لاشك فيه

¹ - ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، مرجع سابق، ص: 87.

² - ابن رشيق، العمدة، ج1، مصدر سابق، ص: 268.

³ - يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز، تحقيق: عبد الحميد هندواي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، عام: 2002، ج1، ص: 137.

⁴ - أحمد مطلوب، فنون بلاغية، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، عام: 1975م، ص: 36.

أنه لا يمكن القول بأن التشبيه كله حقيقة، فالقول مثلاً: زيد كالأسد، أو زيد أسد فإنهما يدخلان في المجاز على نحو ما، فالقول زيد كالأسد فيما يظهر أن الأمر لا يتوقف فقط عند مجرد تشبيه زيد بالأسد، وإنما المقصود من هذه الصياغة الدلالة على شجاعته، وهذا يرجع إلى العرف الذي جعل الأسد رمزاً للشجاعة، ومن هذا المنطلق كان هذا التركيب ليس حقيقة، وإنما هو مجاز عند من يرى ذلك، لأن زيد لا يشبه الأسد في شيء إذا تقيدنا بما يدل عليه ظاهر.¹

وبناء على ما جاء من تعريفات حول التشبيه وعلى الخلاف القائم حول الصفة أو الصفات ومدى مقدار اتفاقها واختلافها، فإن التشبيه يقوم على أربعة أركان، وهي:

المشبه، وهو الأمر الذي يراد إلحاقه بغيره، والمشبه به: وهو الأمر الذي يراد إلحاق غيره به، ويسمى المشبه والمشبه به بطرفي التشبيه، ثم الركن الثالث، وهو وجه الشبه، أو المعنى الجامع بين الطرفين، وكذلك الأداة، وهي اللفظ الذي يربط بين الطرفين، والهدف من التشبيه عند البعض.

أهم أقسام التشبيه:

وعندما أن استقرت علوم البلاغة العربية على النحو الذي نراه عليها عند المتأخرين، خاصة علم البيان، نحا البلاغيون منحى الإجمال وضبط المصطلحات، وكذا اختصار التقسيمات وفق ما يتناسب وطبيعة الفن البياني.

ومن أهم هذه تقسيمات التي يقسم التشبيه إليها: من حيث طرفاه، ومن جهة الأداة، وكذلك وجه الشبه، ثم إلى أنواع أخرى.

أولاً: أقسام التشبيه باعتبار الطرفين، طرفا التشبيه باعتبار الأفراد، والتقيد، والتركيب، ثم طرفا التشبيه باعتبار التعدد، ووحدة الطرفين، ثم وباعتبار حسية الطرفين، أو عقليتهما.

¹ - أحمد مطلوب، فنون بلاغية، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، عام: 1975م. ص: 36.

ثانياً: تقسيم التشبيه باعتبار الأداة، التشبيه المرسل، التشبيه المؤكد.

ثالثاً: تقسيم التشبيه باعتبار وجه الشبه:

أ- مفصل ومجمل، وإلى بليغ، باعتباره يأتي بدون أداة ووجه الشبه.

ب- تشبيه تمثيلي، وغير تمثيلي.

رابعاً: أنواع أخرى من التشبيه

1- التشبيه الضمني.

2- التشبيه المقلوب، أو التشبيه المعكوس.

3- التشبيه المتعدد.

المطلب الثاني: ما يدل على التفاعل والاتحاد بين الطرفين

أ- التشبيه البليغ

وفي هذا سأتناول الأحاديث التي اقتضت على ذكر طرفي التشبيه وما يقيدهما، أو يقيد أحدهما، إجمالاً وتفصيلاً، لما في ذلك من دور فاعل في استقطاب الصورة وحصرها ومن ثم توضيحها، وهذا ما يتضح في التشبيه البليغ.

وقد عبر البلاغيون عن هذا المعنى بأنه: «دعوى اتحاد بين الطرفين فالمشبه هو - بعينه- المشبه به، فهو بهذا الاعتبار أبلغ مما ذكرت فيه الأداة لخلو ذلك من دعوى الاتحاد بين الطرفين، ومن المبالغة في إثبات وجه الشبه بينهما، وهذا لا يكاد يختلف فيه أحد»¹.

وهذا الضرب من التشبيه ورد كثيراً في الحديث النبوي الشريف، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «إن من البيان لسحراً»²، وفي هذا الحديث جاء المشبه مقيداً بـ «من» التي تفيد التبعية، وذلك بعدما أكده بأداة التوكيد «إن»، مما جعل جزءاً من البيان مخصوصاً بالسحر، وذلك لما له من أثر في النفوس، وفي ذات الوقت محذراً من بعضه «البيان» في إظهار الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل.

والواضح أنه لم يشبه البيان كله بالسحر، وإنما شبه بعضه فقط، وترك القسم الأكبر منه من غير تخصيص، حتى لا ينازعه في تمثيله إياه بالسحر منازع، ولذلك جاء التشبيه حقيقة ثابتة لا تحتل الأخذ والرد.

وكذلك ما جاء في بيان استحباب جعل بعض الصلاة في البيت، وقد جاء عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها

¹ - انظر: عبد العظيم إبراهيم المطعنى، التشبيه البليغ، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، عام: 2002، ص: 4.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 1976، رقم الحديث: 851.

قبورا»¹، وفي رواية ثانية قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»²، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « صلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا »³، وهذه الروايات جاءت في باب استحباب صلاة النافلة في البيت وجوازها في المسجد، والمراد منها: صلوا فيها ولا تجعلوها كالقبور مهجورة من الصلاة، ربما يكون المراد بها النافلة، أي صلوا النوافل في بيوتكم، وقال القاضي عياض: « قيل هذا في الفريضة ومعناه اجعلوا بعض فرائضكم في بيوتكم ليقترن بكم من لا يخرج إلى المسجد من نسوة»⁴.

وكذلك أيضا حديث زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «....فعليكم بالصلاة في بيوتكم، فإن خير صلاة المرء في بيته، إلا الصلاة المكتوبة»⁵.

هذه الصور جميعها من التشبيه البليغ، ففي قوله: « لا تتخذوه مقابر»، والتقدير: البيوت الخالية من الصلاة مقابر، تشبيه بليغ محذوف الأداة والوجه، وحذف الأداة يفسح أمام العقل ميدان التوهم، وأن المشبه والمشبه به واحد من غير واسطة، « فالبيان النبوي الحكيم في هذا الحديث الشريف يصور لنا أن البيت الذي لا يصلي فيه أحد ، لا تجد فيه الحياة الكريمة، بل أنه موحش غارق في الوحشة، وذلك عندما تكون صلاة الإنسان كلها في المسجد و يمتنع عن أداء أي صلاة في بيته، فإنه بذلك يكون قد حول بيته إلى مقبرة »⁶. وبلاغته عليه الصلاة والسلام ترتبط أكثر باختيار الألفاظ التي تؤدي المعاني

¹ - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري صحيح مسلم، تحقيق ، محمد فؤاد عبد الباقي ، دار احياء التراث العربي ، ط2، عام:1972م، ج1، ص:538، رقم الحديث:777.

² - المصدر نفسه، ج1، ص:539، رقم الحديث: 780

³ - المصدر نفسه ، ج1، ص:539، رقم الحديث:777.

⁴ - القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص:63.

⁵ - صحيح مسلم ، مصدر سابق ج1، ص:540، رقم الحديث:781.

⁶ - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع ، عمان، ط1، عام:2001م. ص: 99.

الدقيقة، ويؤدي بها التشبيه الغاية الفنية المؤثرة في الملقى: « وألفاظ الأحاديث النبوية تحقق المقصدين معا: التوصليل للفكرة بسهولة ويسر والتأثير الفني».¹

واختيار اللفظ « جعل»، من أفعال التصير والتحويل تصور لنا استعداد البيوت لما يراد بها منا وبراعتها من فعلنا، فهي في ذاتها صالحة لجعلها مقابر، أو غيرها بما نزاول فيها من العمل.

ثم توظيف اللفظ " بيوتك " دون مساكنكم، أو منازلكم دلالة تتناسب مع كلمة "مقابر"، لأن في ذلك دلالة على الموت الحقيقي، أو المعنوي، فالبيت مكان النوم، الذي هو صورة من صور الوفاة، فإذا كان العبد يحب أن ينير قبره بعد موته، فلينر بيته بالصلاة النافلة وبقراءة القرآن.

ثم إن بناء العبارة على حذف أداة التشبيه يزيد في تقرير تحول البيت الذي لا يصلح فيه، ولا يقرأ القرآن فيه قبراً، ويؤكد هذه الرؤية وجوب النهي على جعله كذلك، كلما تأكد النهي تأكد الامتثال. وهذا الحديث يقرر بالتشبيه المؤكد المجمل ما يتصل ببيوتنا، ومن جنايتنا عليها وعلى قلوبنا « إذا أخليناها من قراءتنا وصلاتنا، إنه تشبيه يحمل معنى التقبيح والتنفير للبيوت التي هذه مثابتها، ومعنى التوبيخ والتقصير لمن يكون صاحبها وساكنها ».²

هذا إلى جانب ما يحمله الأسلوب الإنشائي من أمر " اجعلوا"، ونهي " لا تجعلوا بيوتكم"، مما يحتم الامتثال للهدي النبوي الشريف، بما فيه من ترغيب وترهيب وتنفير، إلى جانب الإيحاء؛ لأن البيوت التي هذا حالها، فأهلها كالموتى الذين لا يرجى منهم نفعاً، ولا يؤنس بهم

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، عام: 2013م، ص: 30.
² - كمال عزا لدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار اقرأ، بيروت، ط1، عام: 1984، ص: 148.

« والحياة الحقّة المستكملة لعناصر الجودة هي الحياة التي تكون العبادة لحمتها وسداها، أما عندما تخلو من العبادة فإنها تصبح موتاً وقبوراً»¹.

إن هذه الصورة التشبيهية المعبرة تضيف على الصلاة ظلاً محبباً مرغوباً، « وإذا عرفنا أن المقابر من المواضع التي تكره فيها الصلاة، ولا يكاد يصلي فيها أحد، أدركنا الترابط بين جزأي الحديث الذي يأمرنا شطره الأول بأن نجعل شيئاً من الصلاة في بيوتنا كصلاة السنن، والرواتب، والنوافل الأخرى، وقد ورد في هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: « أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة»².

ومن صور التشبيه البليغ الذي يفيد الاتحاد بين الطرفين ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي»³. يقول الطيبي: « فإن قلت: الذي يفهم من كلام الشارحين: أن الحديث وارد على التسبب فما يقضيه على البيان؟ قلت: كلتا الجملتين من باب التشبيه البليغ فإن قوله: " ما بين بيتي ومنبري " مبتدأ حمل عليه " روضة من رياض الجنة، كما يقال: " زيد بحر"، شبه تلك البقعة الطيبة التي يفيض عليها بركات الوحي السماوي، والعلم الإلهي، فتثمر الأعمال الصالحة والأفكار الصائبة من رياض الجنة، لذلك شبه صفة المنبر العجيبة الشأن بصفة الحوض الكوثر، فكما أنه صلى الله عليه وسلم يشفي غليل الجهل بماء علمه، ويشفي عليه بمواعظه ونصائحه، كذلك يروي صدى كرب يوم القيامة بماء الكوثر، فلما أريد المبالغة وتناهى التشبيه جعل المنبر الذي هو منصة العلم على حافة الحوض كما تقول: زيد كالبحر في العلم»⁴.

¹ - محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، بيروت، المكتب الإسلامي، ط1، عام 1983م، ص: 310.

² - المرجع نفسه، ص: 310.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 399، رقم الحديث: 1138.

⁴ - الإمام شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح تحقيق عبد الحميد الهنداوي، مكة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، عام 1997، ص: 930، رقم الحديث: 694.

وهذا الحديث يبين فيه عليه الصلاة والسلام الفضل العظيم الذي منحه الله لهذا المكان " ما بين بيته ومنبره "، فيشبهه بأنه كروضة من رياض الجنة في نزول الرحمة وحصول البركات.» وقيل: إن ذلك الموضع بعينه ينقل إلى الجنة، وقيل: إن العبادة فيه تؤدي إلى الجنة،¹ فهو من التشبيه البليغ، الذي حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه وفي ذلك دعوة على الاتحاد والتفاعل بين المشبه والمشبه به.

وفي هذا السياق الدال على الاتحاد والتفاعل أيضا قوله عليه الصلاة والسلام: «...كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته..»². والواضح في هذا الحديث أنه يتناول ما تستلزمه مسؤولية المؤمن تجاه المجتمع الإسلامي، فأوضح عليه الصلاة والسلام أنه لا ينبغي لأحد من أفراد المجتمع الإسلامي أن يتخلى عن هذه المسؤولية، أو يتصل منها، أو يتنكر لها، فالمجتمعات لا تقوم ولا تستقيم أمورها باتكال أفرادها بعضهم على بعض، وتهاون كل منهم في مسؤوليته، وإنما تقوم بأداء كل منهم واجبه، وحرصه على مسؤوليته وتقانيه فيها، فكل واحد إلا وهو راع يورد قطيعه موارد الماء، والكلاء، ويحميه من كل ما يضُرُّ به، أو ينال منه، فإن رعاه حق رعايته كوفئ، وأثيب، وإن تهاون وقصر حوسب وعوقب.

والتشبيه البليغ فيه من الاتحاد والتفاعل بين الطرفين، وهو تشبيه يحمل معنى الانضباط، وتحمل الأمانة، والحرص عليها، لأن المسؤولية أمانة الجميع، لأنهم شيء واحد، وهذا غاية الاتحاد والتفاعل بين الأفراد.

ومن التشبيه البليغ ما جاء عن عبد الله بن زيد في حديث طويل فقال: فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطبهم فَحَمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: « يا معشر الأنصار؟ ألم أجدكم ضُلَّالًا، فهداكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ ومتفرقين فجمعكم الله بي؟» ويقولون: الله ورسوله أَمَّنْ، فقال: « ألا تجيبوني؟ » فقالوا: الله ورسوله أَمَّنْ. فقال: أما إنكم لو شئتم

¹ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، دون ذكر دار الطبع، ط1، 1992م، ص: 182.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 304 رقم الحديث: 853.

أن تقولوا كذا وكذا، وكان من الأمر كذا وكذا» لأشياء عددها، زعم عمرو أن لا يحفظها فقال: «.. ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والابل، وتذهبون برسول الله إلى رجالكم؟ الأنصار شعار والناس دثار، ولولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً، لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض».¹

شبه عليه الصلاة والسلام الأنصار بالشعار وهو الثوب الذي يكون فوق الشعر، والغرض أن الأنصار هم بطانة النبي صلى الله عليه وسلم، وخاصته وأصفياءه، وأنهم ألصق به من سائر الناس كملاحقة الشعار للجسد، ولذلك وضع المصطفى عليه الصلاة والسلام هذه المكانة بقوله: " ولولا الهجرة لكنت امرأاً من الأنصار، ولو سلك الناس وادياً وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبهم " ، والتشبيه بليغ حذفته منه أداة التشبيه ووجه الشبه، مبالغة في الشيء وهذا يفيد عظم المكانة والمنزلة للأنصار، وهذا دلالة على الارتباط والاتحاد بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال إظهار هذه المكانة على أنهم بطانته الخاصة، وموضع سره وأمانته، ولفظ « الشعار» فيه إحياء بشدة الاتصال، لأن الشعار ما ولي شعر جسد الإنسان دون سواه من الثياب هم شعار، دون الدثار، وصفوا بالمودة والقرب والاتحاد والتفاعل.

وهذا المعنى أيضاً نجده في قوله عليه الصلاة والسلام لغسلة ابنته حين طرح إليها حقوه فقال: « أشعرنها إياه » فإن أبا عبيدة قال: « معناه اجعلنه شعارها الذي يلي جسدها، لأنه يلي شعرها، والشعار ما استشعر به من الثياب تحته»² ، وفي ذلك إحياء بالاتحاد والترابط والتفاعل وقرب المنزلة التي نالها الأنصار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 739، رقم الحديث: 1061.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص: 134.

ما يجسده رسول الله في قوله: « الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحببه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله ».¹

وفي مقام الصيام الذي هو ركن من أركان الإسلام، قوله عليه الصلاة والسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله، أو شاتمه فليقل إني صائم - مرتين - والذي نفسي بيده، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزى به، والحسنة بعشر أمثالها ».² فالصيام يمنع صاحبه من المعاصي ويقيه من النار والعذاب يوم القيامة، وفي ذلك دليل على منزلة الصيام والصائم.

والملاحظ أن الصورة جاءت متلاحمة بين الطرفين " الصيام جنة " إلى درجة الاعتقاد أن المشبه عين المشبه به، ثم أن جملة التشبيه البليغ قد يأتي فيها المشبه به خبراً عن المشبه، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: « يا حكيم، إن هذا المال خَصْرَةٌ حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بُورِكَ من اليد السفلى.... ».³ قال: النووي في قوله صلى الله عليه وسلم: " إن هذا المال خصرة حلوة "، « شبه المال في الرغبة فيه والميل إليه وحرص النفس عليه بالفاكهة الخضراء المستلذة، فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده، والحلو كذلك على انفراده، فكيف إذا اجتمعا ».⁴ له فيه، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، اليد العليا خير

وقد يأتي المشبه به في الصورة البليغة مصدراً، وذلك بأن يكون مصدر الفعل مشبهاً به في الظاهر، وهو مفعول مطلق لبيان النوع، إلا أن هذا المصدر البياني لا يكون إلا مضافاً إلى ما يقوي المشبه به تقييداً لنوعه؛ لأن المصدر من حيث هو مفعول مطلق يحتاج

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1379، رقم الحديث: 3572.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 670، رقم الحديث: 1795.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص: 535، رقم الحديث: 1403.

⁴ - القسطلاني، إرشاد الساري، مصدر سابق، ج3، ص: 61.

إلى تقييد بالإضافة، أو بالنعته، ولكن المضاف إليه هو في حقيقته المشبه به، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « دعه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه - وهو قدحه - فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قدذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث الدّم، آيتهم رجلٌ أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدرّر، ويخرجون على حين فرقة من الناس».¹

ففي قوله عليه الصلاة والسلام « يمرق السهم » مصدر، أي مثل مروق السهم، وقد شبه عليه الصلاة والسلام دخولهم في الدين وخروجهم منه بالسهم الذي لا يكاد يعترضه شيء لسرعة نفوذه، وهذا تنبيهها على أنهم لا يتمسكون بالدين « شبه دخولهم في الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا بعقدته، أو يعيقوا بطينته بالسهم الذي أصاب الرمية، وهي الطريدة المرمية، ثم خرج مسرعًا من جسمها، ولم يعلق بشيء من فرثها ودمها وذلك من صفات السهم الصائب، لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قوي النزعة».²

ولذلك لم تفقد الصورة التشبيهية عصبها الحيوي، لأن المفعول المطلق لغير بيان النوع، لا يصح أن يأتي في مثل هذا الموضوع، ومن ذلك أيضا قوله صلى الله عليه وسلم « اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه انبساط الكلب ».³

والواضح من الحديث صورة النهي عن هذه الكيفية المكروهة، في السجود بواسطة هذا الأسلوب الذي يدل على تحديد دقيق يفوق أي وصف، لأن الكلب من الحيوانات التي تعرف بهذه الكيفية، ويمكن القول أن الصورة مستوحاة من حياة المخاطبين، ما يجعل تأثيرهم

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1321، رقم الحديث: 3414.

² - الشريف الرضي، المجازات النبوية، تعليق محمد محمود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام 2007م ص: 22.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 283، رقم الحديث: 788.

بها وإدراكهم لها في غاية من الدقة، « وفي ضوء المقاييس البلاغية يكون المصدر مشبها به مستدلين بدخل الكاف عليه، في حين أن الصورة لا تكتمل إلا إذا أخذ بعين الاعتبار أن المضاف والمضاف إليه كيان واحد وأن المشبه به حقيقي، يتمثل في ذكر المضاف والمضاف إليه، ومع ذلك فإن المصدر وحده تجريدي لا يرسم صورة، ومن ثم فإن تعاملنا مع التشبيه بالمصدر لا يكون بمعزل عن المضاف إليه الذي هو محور الصورة ومصدر قوتها وحركتها، وانبعثت دلالاتها الفنية»¹.

ونعتقد أن من المفيد الإشارة إلى توظيف التشبيه بالمصدر على أنه لا يأتي إلا إذا كان الشبه فعلا حدثا « ولا الحدث معنى تجريدي، لا بد من أن يتجسد في كيان مادي يمتلك مقومات الحركة الموازية لدلالة الفعل لكي يتمثل لنا في صورة هذا الكيان المادي مقار عنف الحدث وقوته، وإذا ما انفصل هذا الحديث عن التلبس بحركة مبحث تأبى صورته على التشكيل، ثم على التأثير في النفس»².

ومن ذلك ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفا، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر»³.

والصورة في غاية من الدقة المتناهية في الوصف والوضوح، خاصة وقد اقترنت بوصف القمر عندما يكتمل بدرا وهو من الظواهر المحسوسة.

¹ - فالج حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 104.

² - المرجع نفسه، ص: 104.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 197، رقم الحديث: 216. مكرر

وفي هذه الصورة أضاف المصدر إليه « إضاءة القمر ليلة البدر»، مما يعطي زيادة في المعنى ويؤدي إلى فهم حقيقة أهل الجنة، وهم في حالة إشراق وبهاء، و ذلك ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: «هذه صفية، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم».¹ الكلام جاء مؤكدا و تنبيها لما ينبغي أن يعلم على وجه التأكيد، وذلك من شدة ملابسة الشيطان للإنسان، على أن الشيطان يلزم الإنسان كمجرى الدم فيه، ووجه الشبه شدة الاتحاد والاتصال وعدم المفارقة بينهما، ومما يزيد في الصورة دقة مجيء الفعل المضارع " يجري " الذي يفيد الاستمرار والدوام.

وعلى هذا فإن العلاقة بين الطرفين في الصورة البليغة تصل إلى حد التوحد والتداخل، مع أننا نذكر الطرفين، وهو بذلك يتجاوز حالة المقارنة والموازنة والمماثلة، وهذا ما جعل بعض البلاغيين ذهبوا إلى حد القول بالاستعارة.

ب : دلالة "كأن" على التفاعل والاتحاد بين طرفي التشبيه

ومما يعزز رؤية التفاعل والاتحاد بين الطرفين في التشبيه المرسل الأداة " كأن " ، ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في عدة مواضيع ببيان وأسلوبه البديع ببراعة وحذق، إذ جعل الصورة التشبيهية فيه مزية وأفضلية على ما سواها من الأدوات البسيطة مثل الكاف، ومثل وشبه، وغيرها من الأدوات.

فالتشبيه " بكأن" أبلغ، وأرفع شأوا « واعلم أن ليس شيء أبين وأوضح وأحرى أن يكشف الشبهة عن متأمله في صحة ما قلناه من التشبيه فإنك تقول: زيد كالأسد، أو شبيه بالأسد، فتجد ذلك كله تشبيها غفلا ساذجا. ثم تقول: كأن زيدا الأسد، فيكون تشبيها أيضا. إلا أنك ترى بينه وبين الأول بونا بعيدا، لأنك ترى له صورة خاصة، وتجذك قد فحمت

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق ، ج2، ص: 717، رقم الحديث: 1934.

المعنى، وزدت فيه بأن أفدت أنه من الشجاعة وشدة البطش، وأن قلبه قلباً لا يخامره الذعر، ولا يدخله الروح، بحيث يتوهم أنه الأسد بعينه»¹.

وكان عبد القاهر الجرجاني قد وظفها واستثمرها ضمن نظرية النظم التي بنى عليها براعة الكلام وترقيته في درجات الكمال، حتى يصل إلى غاية تتقطع دونها، ولذلك فإن المبالغة في التشبيه ناشئة في تقديم الكاف وصيرورة المشبه داخلاً في جنس المشبه به وفرداً من أفرادها بحكم الإخبار بالمشبه به عن المشبه، وقد أكد هذا الإثبات مجيء " أن"، وكذلك الإعلام من أول الأمر عن طريق تقديم الكاف بأن عقد الكلام على التشبيه، فتمت المبالغة في التشبيه وتأكيد هذه الكيفية، لا يكون مع " الكاف ".

وكان هي الأخرى تعزز النظرة إلى حالة التوحد والتفاعل بين المشبه والمشبه به مثلما رأينا في التشبيه البليغ، مما يؤكد رؤيتنا للأداة كأن، هو ذلك الأثر الفعال الواضح في تلاحم أجزاء الصورة التشبيهية، لأنها تلغي خصائص الأشياء المضادة لتجعل الطرفين ذوي خصيصة واحدة، هي في الغالب خصيصة المشبه به².

وتظهر مزية التشبيه بـ « كأن » عن « الكاف » في ما يلي:

أن التشبيه بـ « كأن » فيه من المبالغة والتأكيد ما لا يكون مع " الكاف"، لذا فهي تستعمل حيث يقوى الشبه، حتى يكاد الرائي يعتقد أن المشبه هو المشبه به، لا غيره. ولذا قالت بلقيس عندما رأت العرش: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾³، ومبنى هذه المزية في الأداة "كأن" على الفرق بين قولنا: زيد كالأسد، وقولنا: كأن زيدا أسد. فإن الأول فيه تحقيق لإلحاق الناقص بالكامل، وأما مبنى الثاني، فقد جاء على التشبيه من أول الأمر والمصارعة إلى تحقيق التشبيه⁴، ليتبادر ذهن السامع إليه، وأن تحقيق الأسدية له عن طريق التشبيه لا غير. هذه المزية أشار إليها

¹- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمد التُّجِّي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3 عام: 1999م، ص: 312.

²- انظر: علي الجندي، فن التشبيه، مكتبة نهضة مصر، ط1، عام: 1952م، ج1، ص: 181.

³- سورة النمل، الآية: 42.

⁴- انظر عبد القادر الجرجاني، مصدر سابق، دلائل الإعجاز، ص: 200.

أيضا الإمام عبد القاهر الجرجاني، عندما كان يتناول في معرض حديثه عن تميز الأساليب بالنظم والصياغة قائلا: « فإن قلت: فإذا أفادت هذه ما لا تفيد تلك فليستا عبارتين عن معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين؛ قيل لك: إن قولنا: "المعنى" في مثل هذا يراد به الغرض، والذي أراد المتكلم أن يثبته، أو ينفيه، نحو: إن تقصد تشبيه الرجل بالأسد فتقول: زيد كالأسد، ثم تريد هذا المعنى بعينه فتقول: كأن زيدا الأسد، فتفيد تشبيهه أيضا بالأسد، إلا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأول؛ وهي أن تجعله من فرط شجاعته وقوة قلبه، وأنه لا يروعه شيء بحيث لا يتميز عن الأسد، ولا يقصر عنه، حتى يتوهم أنه أسد في صورة آدمي. وإذا كان هذا كذلك فانظر هل كانت هذه الزيادة، وهذا الفرق، إلا بما تُؤخِّي في نظم اللفظ وترتيبه؟ حيث قدم الكاف إلى صدر الكلام، وركبت مع أن ¹».

فالمبالغة والاتحاد والمفاعلة في التشبيه ناشئة عن تقديم الكاف وصيرورة المشبه داخلا في جنس المشبه به، وفردا من أفرادِه بحكم الإخبار بالمشبه به عن المشبه.

وهذا التأكيد الحاصل من قولنا: كأن زيدا أسداً، يقترب كل الاقتراب من التأكيد الحاصل عند عدم وجود الأداة مطلقا، مثل قولنا: زيد أسد، ووجهة هذه الرؤية تقوم على أساس «أن توسط الأداة بين الطرفين مشعر بدالاتها على تغاير الطرفين أكثر من وجودها في أول الكلام، لأن قولك: زيد كالأسد تشبيه صريح كأنك قلت: زيد كائن كالأسد، أما قولك: أن زيدا كالأسد ففيه تحقيق لإثبات إلحاق الناقص بالكامل، وعندما يزيد الاهتمام بالتشبيه الذي عليه عقد الكلام، ويراد تأكيده، نقدم أدواته، وتبقى دلالاتها على التشبيه التي كانت معها عندما كانت متوسطة، لكنها عندئذ غير متعلقة بفعل، أو ما في معناه، لأنها فارقت الموضع الذي يهيئ لها التعلق به وصار ما تفيده الجملة عندئذ خلاف ما كانت تفيده قبل تقديم الكاف، وهو الإعلام بأن تحقيق الأسدية لزيد، إنما هو طريق التشبيه لا غير» ².

وقد شغل هذا الضرب من التشبيه حيزا كبيرا في التشبيهات النبوية التي كان لها أثرها في نشر الإسلام، ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال حدثني أبي

¹ - المصدر نفسه، ص: 200.

² - محمود موسى حمدان، أدوات التشبيه في القرآن، مطبعة الأمانة، مصر ط1، عام: 1992م، ص: 211.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد: أخبرني عن الإسلام، فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: صدقت، قال: فعجبنا له، يسأله ويصدق، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره» قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك» قال: فأخبرني عن الساعة، قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: «أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة، العراة، العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال ثم انطلق فلبثت ملياً، ثم قال لي: «يا عمر! أتدري من السائل؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم».¹

والواضح من هذا الحديث النبوي الشريف أنه جمع أركان الإسلام وأركان الإيمان والإحسان ووظائف العبادات الظاهرة، والباطنة .

والصورة البيانية التي جاءت في هذا الحديث في قوله عليه الصلاة والسلام: «أن تعبد الله كأنك تراه» صورة تشبيهية تدل على أنه جامع للكلم، فلو تخيلنا أن أحداً قام في عبادة من العبادات، وهو يعاين الله عز وجل، فإنه دون شك لن يترك صغيرةً، ولا كبيرةً، إلا وقام بها، مما يقدر عليه من الخشوع، والخضوع، وحسن السمات، والقصد، إلى جانب إتقان

¹ -صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 1، ص: 38، رقم الحديث: 8.

العبادة ظاهراً، و باطناً، وقد جاءت الصورة برواية ثانية « أن تخشى الله كأنك تراه ».¹ فقد شبه عليه الصلاة والسلام عبادة العبد ربه التي بها يصل إلى درجة الإحسان بعبادة الله عياناً يرى كل واحد منهما الآخر، ووجه الشبه في ذلك الخشوع والمهابة والإجلال، والإتيان واختيار الأداة كأن لها دلالة على إرادة الإبلاغ في تحقيق الحالين، معرفة الله، وخشيته، وطلب مرضاته لنيل الخير، فهو تشبيه مرسل مجمل. والأداة ربطت بين محسوسين، وهما طرفا التشبيه، ووجه الشبه محذوف، وهو الخضوع لله، والهدف من التشبيه بيان الحال والمقدار في هيئة العبادة، إلى جانب إظهار ما يجب أن يكون من خشوع ومهابة وإجلال.

والصورة البيانية تظهر ما فيه من التأكيد على تربية المسلم على فضيلة مراقبة الذات واستشعار الهيمنة الإلهية في جميع أموره.

ومن الأحاديث التي تفيد الاتحاد والتفاعل بالأداة " كأن " قوله عليه الصلاة والسلام: « من الصلاة صلاة ، من فاته ، فكأنما وُتِرَ أهله وماله ».² من حكمة الله تعالى أن جعل العبادات متنوعة خشية الرتبة والسأم، ومن ذلك الصلاة فقد فرضت في أوقات مختلفة ومتنوعة، حتى يتضح المتمسك بالدين والمتهاون به، ومن هذه الصلوات صلاة العصر، التي نلاحظ قلة المهتمين بها ، والمحافظين عليها، مع جماعة المسلمين.

وما يؤكد على أهمية صلاة العصر، أو الصلاة الوسطى، ما روي عن علي - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب: « ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس ».³

والصورة البيانية في قوله عليه الصلاة والسلام: "من فاته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله" حيث شبه عليه الصلاة والسلام من فاته صلاة العصر بمن وتر أهله ، ووجه

¹-المصدر نفسه، ج1، ص:40. رقم الحديث:10.

²- صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 436، رقم الحديث: 626 مكرر.

³- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1072 رقم الحديث: 2773.

الشبه في ذلك الندم ، والحسرة ، وهي صورة تتفرّ من المشبه وتقبّحه، وفي ذلك تحذير من التهاون في صلاة العصر .

وهو تشبيه مرسل، حيث ذكرت الأداة " كأن " التي تفيد قوة المشابهة بين المشبه والمشبه به إلى درجة الاتحاد والتفاعل بينهما .

وهو أيضا تشبيه مجمل ، لأن وجه الشبه محذوف، وهو الندم والحسرة على ما فاتته، إلى جانب أنه تشبيه محسوس بمحسوس .

إن دقة الصورة التشبيهية تتضح أكثر في اختياره عليه الصلاة والسلام الأهل والمال زينة الحياة الدنيا ،حيث تطمئن النفس بوجودهما، وكيف إذا فقدوا وضاعا منه في لحظة مثل ضياع وقت الصلاة، أو فاتته وقت الصلاة. ولفظة « فانتته » توحى بأن هناك سباقا بين العبد وبين الوقت، وهذا يدل على أن العبد في هذه الدنيا في صراع مع الزمن وفي سباق دائم حتى لا تفوته اللحظات، لأن الغفلة والتها وخسارة عظيمة " الأهل والمال"، وفي ذلك أمر من الله عز وجل بالمحافظة على الصلوات جميعا، وخص صلاة العصر بالأمر لأهميتها، حيث قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَلِيلًا﴾¹.

وفي حديث آخر يتناول صلة الرحم وعلاقة القرابة وحققها من الوصال، مارواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ، أحلم عنهم، ويجهلون عليّ، فقال: « لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهُم الملّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم، مادمتم على ذلك »².

هذا الحديث يعرض علينا مشهداً واقعياً قوامه موقف هذا الرجل من القرابة، فقد كان يصلهم ويقطعونهم، يحسن إليهم ويسيئون إليه، ويحلم ويجهلون، حيث ذكر هذه المواقف لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: بأنهم بعملهم هذا يستحقون العقاب الشديد، وأنا جره عظيم عند ربه بصبره عليهم سيكون له عون من الله عليهم، فلن يؤثروا عليه.

¹ - سورة البقرة، الآية: 238.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق ،ج4، ص:1982، رقم الحديث: 2558.

والتشبيه في قوله: « كأنما تسفهم المل » أي كأنما نطعمهم الرماد الحار، و في ذلك تصوير لما قد يلحقهم من الإثم، مثل ما يلحق أكل الرماد الحار، وما فيه من الألم.

ومن التشبيهات الواردة بأداة "كأن" ما جاء في مرضه عليه الصلاة والسلام عن عائشة رضي الله عنها قالت: سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودي من يهود بني زُرَيْقٍ يقال له: لبيد بن الأعصم، قالت حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله، حتى إذا كان ذات يوم، أو ذات ليلة دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا، ثم دعا، ثم قال: « يا عائشة! أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي: ما وجع الرجل؟ قال مطبوب، قال: من طبّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، قال: في أي شيء؟ قال: في مُشْطٍ ومُشَاطَةٍ، قال: وجبّ طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال في بئر ذي أَرْوَانَ ». قالت: فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أناس من أصحابه، ثم قال: « يا عائشة! والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين»¹.

فقد جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: " والله لكأن ماءها نقاعة الحناء، و لكأن نخلها رؤوس الشياطين" وفيه تشبيهان مرسلان لورود الأداة " كأن" فيهما، وهي تبين وتوضح ما بين الطرفين من قوة المشابهة ، ومجملان لأن وجه الشبه محذوف، وهذان يصوران قبح المكان وبشاعة منظره ، لاسيما وأن التشبيهين سبقا بقسم.

والتشبيه الأول في قوله: " والله كأن ماءها نقاعة الحناء "، فقد شبه عليه الصلاة والسلام ماء بئر أروان في تغير لونه إلى الحمرة لما اختلط به من الشوائب بنقاعة الحناء، والغرض من التشبيه بيان مقدار تغير لون ماء البئر.

¹ - المصدر نفسه، ج4، ص: 1720، رقم الحديث 2189.

وهو أيضا يدل على أن تلك البئر لا يؤخذ ماؤها وأنها مهجورة مما أدى إلى تغير لون الماء فيها، فهو تشبيه مرسل مجمل، والأداة هي كأن التي تفيد اتحاد الطرفين، والطرفان حسيان.

والتشبيه الثاني، في قوله: «و لكان نخلها رؤوس الشياطين»، وفي رواية البخاري

«يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء أو كأن رؤوس نخلها رؤوس الشياطين».¹

فالمشبه في هذه الصورة هو النخل «رؤوس النخل»، والمشبّه به: «رؤوس الشياطين»، ووجه الشبه بشاعة المنظر وقبح الصورة. والعرب إذا قبحت مذكراً شبهته بالشيطان، وإذا قبحت أنثى أشبهتها بالغول، وفي مثل هذه التشبيهات يرجعها البلاغيون إلى التشبه الوهمي، والواضح في هذا الحديث النبوي الشريف أثر القرآن الكريم في تصويره البديع .

ومن هذا الضرب من التشبيه قوله عليه الصلاة والسلام: «..وإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المحض من البياض..»². فقد شبه عليه الصلاة والسلام ماء ذلك النهر في صفاءه وبياض لونه باللبن الخالص، وقد وظّف عليه أفضل الصلاة والسلام لتحقيق هذا الشبه الأداة "كأن" لقوة الشبه والتماثل بين الطرفين إلى درجة الاتحاد بينهما.

وإذا نظرنا إلى النماذج السابقة يتضح أنها تقوم على الصورة الجزئية المستمدة من الواقع الإنساني وحياتهم اليومية في الغالب، ومن الطبيعة التي تحيط بهم وهي صورة التشبيه المجمل والتشبيه المرسل، ثم إن أغلب الصور جاءت حسية مأخوذة من الواقع المألوف في حياة الإنسان العربي، والصورة الحسية لها دور في التصوير النبوي الشريف خاصة من حيث الكشف، والتوضيح، والإقناع بالرسالة المحمدية، ولذلك كانت أغلب هذه الصور تنسم بالطابع المحسوس

¹-صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص:2174، رقم الحديث:5430.

²-المصدر نفسه، ج6، ص:2585، رقم الحديث:6640.

المطلب الثالث: الدلالة على المقارنة والموازنة في التشبيه

إذا كنا قد رأينا ما يدل على الاتحاد والتفاعل بين الطرفين، ومحاولة إلغاء الحدود بين المشبه والمشبه به فيما تقدم في التشبيه البليغ، والتشبيه القائم على الأداة " كأن " التي تفيد المبالغة والتوكيد، فإن التشبيه عموماً لا يخلو من صور الاتحاد والمبالغة والتفاعل بين عناصره خاصة المشبه والمشبه به، لذلك فإن من التشبيه ما يقوم على المقارنة والموازنة بين عناصره، خاصة المشبه والمشبه به، وفي هذا المقام يكون المشبه هو الغاية والمنطلق، ومن المنطق أيضاً ، أن يكون المشبه به أعلى حالاً من المشبه، وذلك من أجل الحصول على المبالغة، ولعل أهم ما يؤدي تلك الوظيفة " الكاف " .

1- دلالة الكاف على المقارنة والموازنة

حرف الكاف لم يتناولها صاحب اللسان، لأنها حرف بسيط، ومعلوم أن المعاجم معينة بمواد الكلمات المركبة، ومع ذلك فقد عرض لها ضمن كلامه الذي نقله عن ابن جني في كون " كأن " مركبة من كاف التشبيه، و " إن " حيث جاء في قوله «.. قال ابن جني : إذا سأل سائل فقال: ما وجه دخول الكاف ههنا، وكيف أصل وضعها، وترتيبها؟ فالجواب: أن أصل قولنا " كأن زيداً عمرو " ، إنما هو إن زيداً كعمرو، فالكاف هنا تشبيه صريح، وهي متعلقة بمحذوف، فكأنك قلت: إن زيداً كائن كعمرو.. وإنهم أرادوا الاهتمام بالتشبيه الذي عليه عقدوا الجملة، فأزالوا الكاف من وسط الجملة، وقدموها إلى أولها لإفراط عنايتهم بالتشبيه ».¹

وهذه إشارة إلى الكاف، والإشادة بإفادتها التشبيه تبعاً لابن جني، فالكاف تأتي مطلقاً لإفادة التشبيه، وهذا يعني أن لها سعة الاستعمال دون " كأن " والكلمات الأخرى التي تفيد الحكم بالمشابهة، وبذلك فهي تأتي في ضروب من التشبيه ، لا تأتي فيها هذه الكلمات فضلاً عن مشاركتها " كأن " والكلمات الأخرى في الدلالة على ما تدل عليه هذه الكلمات، إلى

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص: 245.

جانب الإفادة لمعنى اشتراك الطرفين في حكم من الأحكام، أو صفة من الصفات، ثم توظيفها في تشكل الصورة الجزئية.¹

والصورة القائمة على أداة "الكاف" تالت الحظ الأكبر في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، فعبرت عن تلك المعاني السامية التي يهدف إليها الهدي النبوي الشريف، وعند هذا نقول: هل تخصصت هذه الأداة بربط أجزاء الصورة التشبيهية مثل ما قامت به الأداة "كأن"؟ أم أن للكاف وظيفة ثانية تقوم بها وتنتهي عند حد معين؟ هذا ما سيتضح من خلال تحليل نماذج مختلفة من الحديث النبوي الشريف.

وحتى تكون الصورة أكثر وضوحاً نقف عند حدث يجمع بين "الكاف" و "كأن" وهذا ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه.. »². قال مصطفى صادق الرافعي: « وهذا كلام أبلغ ما أنت واجدٌ من تفسيره تلك النفس المؤمنة بإحساسها الرقيق كأنه من النور كبَّت في شعورها السمو الروحي الأعظم، وتلك النفس الفاجرة بإحساسها الغليظ، كأنه حاسة من التراب... ويكاد المؤمن الذي يسمع هذا الوصف يذكره ذنوبه - أن يحس بحركة جبل يهم أن ينقلع فيميل عليه، أما الفاجر فيسمعه بذكره ذنوبه، فإذا هي في خياله نقط سود تمر مرور الذباب ليس منه إلا الحس به، كما يحس من يضرب على أنفه برجل ذبابة... وجعل الذباب يمر على أنفه دون عينه، أو فمه، وذلك منتهى الجمال في التصوير لأن الذباب إذا وقع على الفم، أو العين، ثبت وألح، وإذا وقع على قصبه الأنف لم يكذب يقف ومر مروره »³.

¹ - أحمد هندواي، أدوات التشبيه في لسان العرب لابن منظور، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، عام: 2003م، ص: 21.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2324، رقم الحديث: 5949.

³ - مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، الجزائر، وزارة الثقافة، مؤمّن للنشر، ط1، عام 2007م ج1، ص: 577.

والملاحظ في هذا الحديث النبوي الشريف توظيف الأداة وذلك حسب مقام الكلام، فعندما كان المقام يقتضى القوة والمبالغة والاتحاد بين الطرفين، وظف الأداة " كأن " ، فذلك لشعور المؤمن بوقع أثر الذنوب عليه وشدة امتعاضه منه.

وأما الفاجر فإنه ينظر إلى ذنوبه على أنها شيء تافه، تمر في خياله سريعا مرور الذباب، ولذلك فإن استعمال الكاف مع الفاجر يدل على سهولة تقبله الذنب، وعدم اكترائه به.

ولذا فإن الكاف تتركز وظيفتها في التقريب ما بين الطرفين، بحيث يستعمل الطرف الأول قوة الوصف المشترك "وجه الشبه" ، وهذا يعني أن المشبه قد يرتقي إلى مصاف المشبه به ، ويصبح نداً له، والخصائص المشتركة ما هي إلا جسور التآلف والتداخل الذي يبعث في النفس إعجاباً بالموقف¹.

ولهذا فإن الكاف أصبحت أداة مقارنة أو موازنة من خصائصها أن تجعل البعيد قريباً، والأدنى منزلة مرتفعاً إلى الأعلى، والأضعف شأناً يقوى حين يكافأ بالطرف الثاني ويوازيه.

ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات، مميلات مائلات، رؤوسهنّ كأسيمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا² ».

هذا الحديث النبوي معجزة من معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، تظهر في هذا الزمان الذي كثر فيه الفساد والانحلال، وانتشر التعري، والتكشف بين النساء، باسم المدنية، والتحرر، وباسم التطور، ولم يعد هناك وازع دين، أو أخلاق، أو وجدان، فالرسول يخبر عن أهل النار ويخص بالذكر منهم صنفين من البشر.

¹ - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 113.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1680، رقم الحديث: 2128.

الصنف الأول: الذين يعتدون على الخلق بالضرب، والإهانة، والتعذيب، والتتكيل، وذلك من أجل التعالي، وحب الظهور، إلى جانب إشباع نفوسهم المتعطشة إلى سفك الدماء، وتعذيب الأبرياء.

صورهم عليه الصلاة والسلام، ومعهم سياط غليظة تشبه أذنان البقر، في غلظتها ومتانتها، أو في قسوتها، وهم ينهالون بها على الناس ضرباً، وتعذيباً، لا يرحمون أحداً.

وأما الصنف الثاني: فهن النسوة الفاجرات، اللواتي خالفن تعاليم الدين وآداب الإسلام، « فخلعن ملابسهن، وكشفن عن سواعدهن، ولبسن الملابس الرقيقة التي لا تستر جسداً، ولا تخفي عورة، إنما تزيد من الفتنة والإغراء».¹

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: "سياط كأذنان" تشبيه مرسل مجمل، وذلك لوجود الأداة وحذف الوجه، وكذلك أيضاً قوله: "رؤوسهن كأسنمة" والمقارنة بين الأمرين واضحة، حيث رؤوسهن كأسنمة البخت: أي يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة، أو نحوها.

وفي حديث آخر، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « بادروا بالأعمال فتناً، كَقَطْعِ اللَّيْلِ المَظْلَم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويُصْبَحُ كافراً، يبيع دينه بعرضٍ من الدنيا ».²

وفي ذلك دعوة وحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة، المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم.

والواضح من هذا الحديث، أنه يمثل صفحة من صفحات الجمال الفني في روعة العرض، وسمو التصوير « فإن الإنسان ليحس بالبلاء الذي ينزل، والفتن التي تحيط به، وكأنها ملموسة محسوسة تلاحقه كما يلاحق الظلام غسق الليل، وتلازمه كما يلزم الهلع

¹ - انظر: محمد على الصابوني، من كنوز السنة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 عام: 2004، ص: 113-114.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 110، رقم الحديث: 118.

قلب الجبان، وأي إنسان لا يفزع وهو يرى ذلك المنظر المخيف وتلك الصورة الرهيبة،
التي تملك عليه شعوره وإحساسه».¹

وقوله عليه الصلاة والسلام، " كقطع الليل المظلم " تشبيه مرسل مفصل، لا يخفى فيه
تتبع صور الفتن متلاحقة، كما تأتي الليالي متتابعة متلاحقة، حيث كلما تقدم الليل اشتد
الظلام، ومقارنة هذه الليالي في تتابع الظلام فيها، بتتابع الفتن. ولفظ الفتن جاء نكرة " فتنا "،
وفي ذلك من الدلالة على عموم البلايا التي تنزل بالناس آخر الزمان، في أنفسهم وأموالهم،
وعقائدهم، فهي تحدث في نفوس البشر ما بين عشية وضحاها، الردة عن الإيمان إلى الكفر
ومن الهدى إلى الضلال، ومن النور إلى الضلال.

ولعل من أهم الصور التي أسهمت الكاف في تشكيلها، ودلت على قرب الساعة قوله
عليه الصلاة والسلام، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « بعثت أنا والساعة
كهاتين »² ويشير بأصبعيه فيمدهما.

والحديث يقوم على تصوير قرب الساعة حيث يعتمد عليه الصلاة والسلام على الصورة
التشبيهية، إلى جانب الصورة الحركية، والإشارة هنا جاءت مصاحبة للكلام، مما يؤكد المعنى
الذي يهدف إليه عليه الصلاة والسلام.

والصورة التشبيهية تمثل معنى مجردا في صورة حسية، فالرسول الكريم هو الساعة
متلازمين متوازيين كتلازم السبابة والوسطى، و تجاوزهما.

وقد تدخل الكاف التي هي للمقارنة والموازنة، على مثل " كمثل "، كما جاء في قوله:

¹ - محمد علي الصابوني، مرجع سابق، من كنوز السنة، ص: 28.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2385، رقم الحديث: 6138.

عليه الصلاة والسلام: « مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار غمر على باب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات »¹. والملاحظ أن أداة التشبيه "الكاف" دخلت على مثل.

وعندما نتأمل الأمثلة السابقة نجدها صوراً جزئية قام بتشكيلها الكاف عن طريق المقارنة والموازنة بين تلك الخصال في المشبهات، وما يقابلها ويوازينا من خصال أخرى في المشبهات بها، حيث تتجلى بها الصورة « ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يذكرها صريحة بل انتفع من أداة التشبيه لتكون أقوى على إيضاح العلاقة المقبولة حساً، وعقلاً، وأوقع في النفس مما لو ذكرت صريحة، صراحة الطرفين الأولين »².

2 - دلالة "مثل" على المقارنة والموازنة بين الطرفين

وهي من الأدوات التي تفيد المقارنة والموازنة والمماثلة، وهي من الأسماء التي لا تستعمل إلا في صفة لها أهمية متميزة ومكانة ظاهرة بينة، تحس فيها بنوع من الرزانة والتقل فيما توفره من الاستقرار النفسي والاطمئنان والقناعة التامة، سواء استعملت في الترغيب أو في الترهيب³.

وهي أيضاً من الكلمات التي تأتي للإخبار بمعناها، إلى جانب إفادتها المقارنة والموازنة « والمعنى الذي تدل عليه في الغالب يكون المحكوم عليه بالمماثلة متفقاً مع ما يمثله في جميع الجهات التي يصير بالاتفاق معه فيها على مثاله، فيكونان جنساً واحداً يسد أحدهما مسد الآخر »⁴، ولذلك فإن مجيء المادة للدلالة على الاتفاق في الصورة جنساً وصفة، كما في قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الوحي : «..... وأحياناً يتمثل لي الملك

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 463، رقم الحديث: 668.

² - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 118.

³ - انظر: المرجع نفسه، ص: 118.

⁴ - محمود موسى حمدان، أدوات التشبيه، مرجع سابق، ص: 21.

رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»¹، أي: في الصورة من جنس الرجال له من صفاتهم ومثل كلامهم ولغتهم.

والأصل الذي تأتي عليه المماثلة: الاتفاق في الجنس والصفة، إلا أنه قد يكون هناك محط اهتمام لإبراز الاتفاق في الجنس. أو قد يكون لإبراز الاتفاق في الصفة، أو صفات حتى تتم المماثلة، هذه الأداة نجد ها في الأحاديث النبوية الشريفة، وهي في الغالب مقرونة بأشياء مادية متصلة بالحس والمشاهدة.

وبهذه الأداة تتحقق المقارنة والموازنة، ففي قوله صلى الله عليه وسلم: «من شهد الجنازة حتى يصلي عليها فله قيراط، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان». قيل: وما القيراطان؟ قال: «مثل الجبلين العظيمين». وكان ابن عمر يصلي عليها ثم ينصرف، فلما بلغه حديث أبي هريرة قال: «لقد ضيعنا قَرَارِيطَ كثيرة»².

وفي رواية ثانية: «قيل وما القِرَاطَانِ؟ قال: «أصغرهما مثل أحد»³ وفي رواية أيضا لأبي هريرة ما القيراط؟ قال: «مثل أحد»⁴.

وهذا حديث عظيم برواياته المتعددة يظهر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل صلاة الجنازة وأجر اتباعها والحضور إلى غاية دفنها، حيث الأجر العظيم،

والم تأمل للحديث من خلال الرواية الأولى، يجد أنه عليه الصلاة والسلام شبه القيراطين بالجبلين العظيمين، فكل قراط كالجبل العظيم، ووجه الشبه في ذلك الضخامة والعلو، وهو تشبيه مرسل مجمل، والغرض من هذا التشبيه بيان المقدار من خلال المقارنة

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص4، رقم الحديث: 2.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص652، رقم الحديث: 945.

³ - المصدر نفسه ج2، ص 653، رقم الحديث: 52 مكرر.

⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص: 653، رقم الحديث: 52 مكرر.

والموازنة بين الجبلين والأجر والثواب. وفي الرواية الثانية، شبه عليه الصلاة والسلام أصغر القيراطين بجبل أحد، وجبل أحد من أعظم وأضخم جبال المدينة المنورة، وهو أيضا مرسل مجمل والغرض منه المقارنة والموازنة بين الأمرين.

أما الرواية الثالثة، فقد جعل القيراط مثل أحد، والملاحظ أن المشبه عقلي والمشبه به حسي، وفي ذلك تجسيد للمعنوي في صورة حسية، لأن المسلمين جميعا يعرفون هذا الجبل فهو متصل بحدث تاريخي وقع في فجر الدعوة المحمدية، ثم إنهم يحبونه وهو يحبهم.

ومما يدل أيضا على إفادة الأداة مثل المقارنة والموازنة قوله عليه الصلاة والسلام: « لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا، ما بلغ مدًّا أحدهم ولا نصيفه¹ ». هذا الحديث يظهر موقف الرسول صلى الله عليه وسلم في دفاعه عن الصحابة رضوان الله عليهم، وأنهم جميعا جيل مثالي في الفضل والتقوى، وأنهم مصابيح الهدى، ولا يستطيع أحد من بعدهم أن يدرك المستوى المتقدم الذي بلغوه، فيوازن صلى الله عليه وسلم بين جبل من ذهب ينفقه واحد من الناس، وبين مد أو نصفه ينفقه واحد من الصحابة الكرام، ويقول إن ذاك الجبل لا يبلغ ذاك المد، ولا ذاك النصف.

والموازنة والمقارنة بين جبل من ذهب، وبين مد، أو نصفه ينفقه واحد من الصحابة وفي ذلك إظهار للمكانة والفضل الذي بلغوه في الدين والتقوى، لا يمكن إظهار هذه المكانة إلا من خلال هذا الأسلوب الذي جاء به الحديث النبوي الشريف.

وفي حبه صلى الله عليه وسلم للإنفاق في سبيل الله، والدعوة إليه، يقول عليه الصلاة والسلام في حديث بدايته قصة، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: إن خليلي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم دعاني فأجبتة فقال: « أترى أحدًا؟ » فنظرت ما علي من

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص1343، رقم الحديث: 3470.

الشمس وأنا أظن أنه يبعثني في حاجة له، فقلت: أراه فقال: «.. ما يسرني أن لي مثله ذهباً أنفقه كله، إلا ثلاثة دنائير..»¹.

والحديث فيه تواصل وامتداد للعقاب الذي سيصيب جامع المال الذي لا يؤدي صاحبه حق الله فيه، فقد ورد في بداية الحديث: «.. بشر الكانزين برُضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم، فيوضع على حَمَمةٍ ثدي أحدهم، حتى يخرج من نَغْضٍ كتفيه، ويوضع على نغض كتفيه، حتى يخرج من حمة ثدييه يتزلزل..»². والصورة التشبيهية المفردة جاءت في قوله عليه الصلاة والسلام " ما يسرني أن لي مثله ذهباً أنفقه إلا ثلاثة دنائير "، حيث شبه عليه الصلاة والسلام الذهب الكثير بجبل أحدس وهو من أعظم جبال المدينة المنورة، والأداة هي "مثل" وهو تشبيه مرسل وذلك بذكر الأداة، ومجمل، لأن وجه الشبه محذوف، والتشبيه من قبيل تشبيه المحسوس بالمحسوس، وفي ذلك إظهار أنه مهما بلغ الحب للمال، فإن الإنفاق في سبيل الله أمر واجب على المؤمن، والرسول صلى الله عليه وسلم يبين لنا ما يجب علينا نحو الأموال مهما كثرت ولو بلغت مثل جبل أحد. فالواجب إنفاقها في سبيل الله إلا ما كانت الحاجة ماسة إليه، كالإنفاق على الأهل والأولاد.

والمتمأمل في عذاب مانع الإنفاق لا يبقى في قلبه حب للمال، ناهيك عن مانع زكاته، فالرُضْف: الحجارة المحماة، والنغص: وهو العظم الرقيق الذي على طرف الكتف ويقال له أيضاً الناغض، ونلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام وظف أسلوب التشويق في قوله لأبي ذر: "أترى أحداً؟" وما في هذا الأسلوب من أثر لا يخفى، لأن المعاني التي تعرض بهذا الأسلوب تأتي بعد تهيئة للنفس وإثارة لانتباهها. صورة ثانية

يجسد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم حال هذه الدنيا أمام الآخرة وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: « والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 690، رقم الحديث: 992.

² - المصدر نفسه، ج2، ص 690، رقم الحديث: 992.

إصبعه هذه - وأشار يَحْيَى بالسبابة- في اليم فليُنظر بم ترجع «¹. فهو يؤكد عليه الصلاة والسلام مقام الدنيا الضئيل إذا ما قارنها بالآخرة، فهي مثل ما يعلق بالسبابة إذا أدخلت في اليم، فهي وما فيها مقارنة بالآخرة تكاد لا تذكر، حيث أن كمية الماء العالقة بالسبابة إذا قيسَت بالبحر العظيم ليست بشيء، وهو تشبيه مرسل مجمل، والأداة مثل تفيد المقارنة والموازنة.

¹ - المصدر نفسه ، ج4، ص: 2193، رقم الحديث: 2858.

المطلب الرابع: أنواع أخرى من التشبيه

1- التشبيه الضمني في الحديث النبوي الشريف:

يعد التشبيه الضمني منفرداً في صورته ودلالته، فهو لا يتقيد بعناصر معينة ولا بترتيب خاص، ولا بروابط محدودة، ومن ثم فهو لا يحدد الصلة بين الطرفين، فللمستقبل مجال واسع لتصوير الصلة بين المشبه والمشبّه به، والدليل فيه على إمكانية التقريب بين الطرفين هو السياق.

وهذا النوع من التشبيه يزيد على غيره من أنواع التشبيه بعدم التصريح فيه بذكر المشبه والمشبّه به، أو إظهارهما في الصورة المعروفة في فن التشبيه، وإنما يلحان في المعنى والتركيب، وهذا النوع من التشبيه يحتاج إلى أعمال الفكر أكثر من التصريح بذكر طرفي التشبيه. وقد أشار إلى ذلك عبد القاهر الجرجاني حين قال: «أن الشيء إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، بالميزة أولى، فكان موقعه من النفس أجل وألطف، وكانت به أضن وأشغف»¹. ويرى باحث آخر أنه ما حذفت الأداة ووجه الشبه، واستتر طرفا التشبيه خلف غلالة رقيقة تظللها ولا تخفيهما، فيكون بذلك إثارة نفس القارئ، وإيقاظ ذوقه، ودفع فضوله، كي يستشعر اللذة في قليل من البحث عنهما، حتى إذا وجدتهما، واستقامت له الصورة بجوانبها وإيحاءاتها، استشعر المتعة الفنية. وبذلك يكون التشبيه الضمني².

أو هو ما لا يكون التعبير فيه نصاً في التشبيه، وإنما بنيت العبارة عليه، وطوته وراء صياغتها، فأنت تراه هناك مضمراً مكتوماً في صورة من التشبيه يترك فيها المألوف وما تواضع عليه من التشبيهات الصريحة، التي يذكر فيها أركان التشبيه المألوفة، أو يتخذ منحى بلاغياً يقوم على الإيحاء دون التصريح في صورة من الصور، فهو يفعل ذلك نزوعاً

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق ص: 120.

² - انظر: محمد علي سلطاني، البلاغة العربية في فنونها، سوريا، دار العصماء، ط 1 عام 2004م، ص: 137.

إلى الابتكار، وإقامة للدليل على الحكم الذي أسند إلى المشبه، رغبة في إخفاء التشبيه، لأن التشبيه كلما دقّ وخفي، كان أبلغ وأفعل في النفس¹. وبذلك تكون صورة التشبيه الضمني تعتمد في ماهيتها على تضمين الطرفين دون ذكرهما، والاكتفاء بالتلميح إليهما، دون التصريح، بحيث يلمحان في سياق الكلام، ويكون المشبه به برهاناً على ما أسند إلى المشبه.

والمهم في هذا المقام، أن التشبيه الضمني تدل عليه العبارة دلالة ضمنية، حيث تتلاحق فيه الأوصاف حتى تكون صورة مكتملة.

هذا الضرب من التشبيه ورد في الحديث النبوي الشريف، غير أنه أقل الأنواع الأخرى من حيث الظهور في الأحاديث النبوية، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «...النجوم أمانة للسماء، فإذا ذهبَتِ النجومُ أتَى السماءَ ما توعَدُ، وأنا أمانة لأصحابي، فإذا ذهبَتِ أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»². والمتأمل في هذا الحديث النبوي الشريف، يلاحظ أن عليه الصلاة والسلام يشبه نفسه بالنجم، الذي يكون وجوده أمانة للسماء، فوجوده صلى الله عليه وسلم أمانة لأصحابه رضي الله عنهم، فوجوده في أصحابه كوجود النجم في السماء في توفير الأمان والطمأنينة ثم يبشر أمته بأن وجود أصحابه فيهم أمانة لهم، فإذا ذهبوا أتاهم ما يوعدون.

وفيما تقدم نلمح تشبيهاً على الرغم من عدم التصريح به، إلا أن الصورة الواردة جاءت حافلة بالإيحاءات، التي تناولت الظاهرة الكونية، فالنجوم أدوات الهداية، وكذلك حال الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضوان الله عليهم من بعده، فالتشبيه ضمني يفهم من سياق الكلام.³

¹ - انظر: علي الجارم، ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، بيروت المؤسسة الأدبية، ط17، عام 2003م، ص: 41.

² - صحيح مسلم، المصدر سابق، ج 4، ص: 1961، رقم الحديث: 2531.

³ - انظر: فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 128.

ومن هذا الضرب أيضا ما روه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم! يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود»¹.

وبالنظر إلى هذا الحديث النبوي الشريف نجد فيه بشارة من النبي صلى الله عليه وسلم، هذه البشارة تأتي في ظرف عصيب على الأمة الإسلامية، حيث يشعر فيها كل مسلم بالأسى يتعصر في قلبه، والحزن يستوطن في وجدانه، بل يحيط به من كل جانب فلا يستطيع أن يتنفس، تأتي هذه البشارة، بأن الدنيا لا يمكن أن تزول حتى تقع المعركة الفاصلة، بين المسلمين واليهود وينتصر فيها جند الرحمان، على جند الشيطان، والغلبة لعباد الله المؤمنين.

أما في قوله عليه الصلاة والسلام: "إلا الغرقد فإنه شجر اليهود"، هو شجر عظيم الشوك يكثر في أرض فلسطين، وهو من الأشجار الخبيثة، التي تشبه اليهود في خبثهم وصفاتهم الذميمة، فهذا النسيج فيه تشبيه ضمني يفهم تلميحا من المعنى، أي أن هذا الشجر الخبيث كخبث اليهود، فإنه لا ينطق تسترًا على اليهود.

وفي سياق الدعوة إلى حفظ القرآن الكريم والحث على تعاهده، وملازمته، والمداومة على القراءة والتلاوة، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "« تعاهدوا القرآن، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد ثقلًا من الإبل في عُقْلِهَا »"². والتشبيه الضمني في الحديث النبوي الشريف، يبين محاولة ثقلت القرآن الكريم من صاحبه، بالبعير الذي يخشى من شروده، لأن صاحبه لم يتعاهده بالعقل، ولو تعاهده لكان في مأمن من شروده، أما إذا تم الإهمال فإنه دون شك يهرب، ويشرد، ويصعب بعد ذلك ترويضه، كذلك القرآن الكريم فمتى كان المؤمن

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2239، رقم الحديث: 2922.

² - المصدر نفسه، ج1، ص: 545 رقم الحديث: 791.

شديد الحرص على القراءة، والحفظ، والمداومة عليه في خلوته، دام الحفظ بالقراءة الدائمة، أما إذا ترك القراءة والحفظ، كان مآله النسيان، وإذا داوم في الهجران، كان مآله الزوال، ومن الصعوبة بعد ذلك تذكره وإعادة حفظه.

وفي حديث آخر يدعو عليه الصلاة والسلام إلى ترك الشبهات، لأنها طريق للوقوع في الحرام، وأن المحارم حمى الله الذي يحب ألا تُنتهك.

عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه، وعرضه، ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالرّاعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»¹.

وقد ورد في هذه الرواية صورتان: الصورة الأولى في قوله عليه الصلاة والسلام: " ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالرّاعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه " وهذه الصورة من التشبيه التمثيلي.

أما الصورة الثانية وهي التي تهمنا في هذا المقام وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: " ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه "، فقد ذهب الشريف الرضي أن هذا من التشبيه الصريح فقال: « وهذا الكلام مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام شبه ما حظره الله سبحانه من محارمه بالحمى الذي يحميه ذو السلطان والملكة من مواقع السحاب ومنابت الأعشاب فلا ترعى فيه إلا إبله، ولا ينزل به إلا حيه »²

¹ - المصدر نفسه ، ج3، ص: 1220، رقم الحديث: 1599.

² - الشريف الرضي، المجازات النبوية، مصدر سابق، ص: 75.

وأما الدكتور فتحي فريد فإنه ينظر إلى هذا التركيب النبوي الشريف فيقول: « لكل ملك من الملوك حمى يتمثل في قيامه على شؤون دولته، وحمايته لكل فرد فيها، ودفاعه عنها ضد الأعداء والغاصبين، فإن لملك الملوك وسيد الكون حمى لا يصح الاقتراب منه وهو كل ما حرم الله، فترى أن العبارة مبنية على التشبيه ، ولكننا فهمنا التشبيه من مضمون الكلام، ولذا كان التشبيه ضمنيا وهو المعروف لدى البلاغيين بأنه: التشبيه الذي يفهم من سياق الكلام، ولا يذكر فيه أي شيء ينبئ عن التشبيه »¹.

ولا يخفى علينا أن هذا التشبيه ضمنى وأن تركيب العبارة النبوية تقوم فعلا على المقارنة والموازنة بين حمى الملوك، وحمى الله المتمثل في محارمه، حيث التحذير من أي عمل لا تؤمن عواقبه

2- التشبيه المقلوب في الحديث النبوي الشريف

ومن الأنواع التشبيهية التي يمكن اعتبارها من التشبيه البسيط في الأفراد، التشبيه المقلوب، والذي أطلق عليه ابن جني في كتابه الخصائص، "غلبة الفروع على الأصول" حيث قال: « هذا فصل من الفصول العربية ظريف تجده في معاني العرب، كما تجده في معاني الأعراب ولا تكاد تجد شيئا من ذلك إلا والغرض فيه المبالغة »². وقد أطلق عليه عبد القاهر الجرجاني "عكس التشبيه" فقال: «وهذا أصل إذا اعتبرته وعرضت كل واحد منهما عليه فوجدته يجيء في التشبيه مجيئا حسنا، وينقاد القياس فيه انقيادا لا تعسف فيه، ثم صادفته لا يطاوعك في التمثيل، تلك المطاوعة لا يجري في عنان مرادك ذلك الجري ظهر لك نوع من الفرق والفصل بينهما غير ما عرفت، وانفتح منه باب إلى دقائق وحقائق، وذلك جعل الفرع أصلا، والأصل فرعاً، وهو إذا استقرت التشبيهات الصريحة وجدته يكثر فيها»³

¹ - فتحي فريد، صور من البيان القرآني والنبوي، مكتبة النهضة المصرية ط1، عام: 1983، ص: 86، 87.

² - ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب، بيروت، دون ذكر الطبعة، عام 1952، ج1، ص: 300.

³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 175.

وأما ابن الأثير فقد سماه "الطرد والعكس" فقال: « اعلم أن من التشبيه ضرباً يسمى الطرد والعكس، وهو أن يجعل المشبه به مشبهاً، والمشبه مشبهاً به، وبعضهم يسميه غلبة الفروع على الأصول.. »¹.

وأما العلوي فقد سماه " التشبيه المنعكس" حيث قال: « اعلم أن هذا النوع من التشبيه يرد على العكس والندور، وبابه الواسع هو الاطراد كما أشرنا إليه، وإنما لقب بالمنعكس لما كان جارياً على خلاف العادة والإلف في مجاري التشبيه، وقد يقال له غلبة الفروع على الأصول وكل هذه الألقاب دالة على خروجه عن القياس المطرد والمهيغ المستمر وله موقع عظيم في إفادة البلاغة »².

وما يجب الانتباه إليه في هذا المجال، أن التشبيه المقلوب لا يصح أن يجري في كل شيء، وإنما يجري في الأمور التي يكون المشبه والمشبه به من الأمور المعلومة، أي: معلوماً عند الناس، وفي السنن المعروفة عند العرب، أما إذا كان التشبيه المقلوب في غير المؤلف والمعهود عند العرب فهو معيب، ومردود؛ لأن المبالغة فيه تؤدي إلى الغموض والتداخل بين الطرفين، فلا يعرف أيهما المشبه ، أو المشبه به، ولهذا ذمه النقاد واعتبروه « من التشبيه المهجور البارد الذي قد بعد عن البلاغة ونأى بعض النأي عن استعمال الفصحاء »³. ولذلك فإن القلب يستحسن ويستساغ في المتعارف، وأن لا يرد إلا فيما كان متعارفاً، حتى تظهر فيه صورة الانعكاس، وأن أجمل التشبيهات وأكثرها قبولا لدى الطباع هي تلك التي إذا انعكست وشبه فيها المشبه به بالمشبه، فإن الكلام يستقيم مع صحة المعنى وسلامته وصواب التشبيه وصحته⁴. وأشار آخر إلى إنها «مظهر من مظاهر الافتتان والإبداع»⁵.

¹ - ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، دون ذكر الطبعة، سنة 1939، ج1، ص: 421.

² - العلوي، الطراز ، ج1، ص: 158.

³ - العلوي، الطراز، مصدر سابق، ج1، ص: 159.

⁴ - المصدر نفسه، الطراز، ج1، ص: 158.

⁵ - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، دون ذكر الطبعة، سنة 2003م، ص: 240.

والتشبيه المقلوب كغيره من أنواع التشبيه له شروط لابد من توافرها في طرفي التشبيه، وهو أن يكون بين الطرفين وصف مشترك بين وواضح، فإذا امتنع ذلك امتنع القلب وذلك لشدة التفاوت في مقدار الوصف ، وتناول عبد القاهر الجرجاني هذا الموضوع وأوضح أن أقوى ما يمنع القلب في طرفي التشبيه « أن يكون بين الشيئين تفاوت شديد في الوصف الذي لأجله يشبه، ثم قصدت أن تلحق الناقص منهما بالزائد مبالغة ودلالة على أنه يفضل أمثاله فيه ».¹

وبعد ذلك يجمل القول في الأمر فيقول: « إنه متى لم يقصد ضرب من المبالغة في إثبات الصفة للشيء والقصد إلى إيهام في الناقص أنه كالزائد واقتصر على الجمع بين الشيئين في منطق الصورة والشكل واللون، أو جمع وصفين على وجه يوجد في الفرع حد ويوجد هو أو قريب منه في الأصل، فإن العكس يستقيم في التشبيه ومتى أريد شيء من ذلك لم يستقم ».²

هذا الضرب من التشبيه ورد في الحديث النبوي الشريف محدودًا بالقياس إلى الأنواع الأخرى. ربما يعود إلى أنه يتعارض مع مهمة تبليغ الرسالة التي تقتضي الوضوح « لأنه يتعارض مع رسالته التعليمية ومهمته البيانية، بسبب ما يحمله من الإيهام، عندما يشبه فيه الأعراف بالأقل منه معرفة ولغة ».³

والأصل في التشبيه أن يجرى على ما تعارف عليه العرب حيث يلتبس المشبه به مما هو معروف ومألوف في حياتهم حتى ولو كان المشبه أقوى وأعظم، وقد سلك القرآن الكريم هذا المسلك فشبه نور الله سبحانه وتعالى، وهو بلا شك أقوى الأنوار بنور المصباح في مشكاة، لأن العرب جروا على عادة أن يجعلوا نور المصباح أكبر الأنوار وأعظم الأضواء قال:

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 189.

² - المصدر نفسه، ص: 192.

³ - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 129.

تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾¹. شبه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج الصافي «إنما شبه بالمشكاة وإن كان نور الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار»². وعلى هذا جبلت العادة في البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلى، فإذا جاء الأمر خلاف ذلك فهو من التشبيه المعكوس أو المقلوب طلباً للمبالغة بادعاء أن وجه الشبه في المشبه أقوى منه في المشبه به.

ولذلك فإن محدودية هذا النوع من التشبيه في الحديث النبوي الشريف يرجع إلى التناسب مع الرسالة التعليمية ومهمته في الإيضاح، بسبب ما يحمله في الإيهام عندما يشبه فيه الأعراف بالأقل، وإنما البيان النبوي يجري في الغالب الأعم مع المؤلف الذي جرى عليه العرف في الاستعمال العربي، وربما يعود أيضاً سبب اللجوء إلى التشبيه المقلوب إلى أن الصورة التشبيهية عامة تدور في مجال ضيق تتكرر فيه الصورة مما دعا إلى سعة الأفق فكان اللجوء إلى مثل هذا النمط من التشبيه رغبة في التجديد والابتكار.

ومهما كان أمر التشبيه المقلوب فقد وردت منه نماذج في الحديث النبوي الشريف وإن كانت قليلة منها قوله عليه الصلاة والسلام عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟ قال: فوقع الناس في شجر البوادي: قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة»³. والمتأمل في هذا الحديث النبوي الشريف يتبين له أن الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام يظهر أن المؤمن عظيم النفع لكل من يلقاه، فلا يعاشره أحد، ولا يجاوره إنسان، ولا يعامله مخلوق إلا انتفع منه، ويمثل الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمن بالنخلة فكل شيء فيها نافع، ثمرها

¹ - سورة النور، الآية: 35.

² - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، بيروت، دار القرآن الكريم، ط4، عام 1981م، ج2، ص: 340

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 34، رقم الحديث: 61.

ونواها، وسعفها، وجذعها ، ولحاؤها، وجمارها،¹ ولهذا استخدم عليه الصلاة والسلام التشبيه المقلوب مبالغة لتلك الصورة التي تميز المؤمن وتبقي له الفضل.

والملاحظ أيضا أن هذا التشبيه جاء في إطار الحوار الذي وقع بينه وبين الصحابة، وذلك من أجل شد السامعين إلى ما يقوله حين سألهم عن الشجرة التي تشبه المؤمن، فعكس عندئذ الصورة حين قال: إنها مثل المؤمن مبالغة في إظهار الصورة الحقيقية التي تميز المؤمن عن غيره أصلا.

والصورة مأخوذة من الواقع المعروف عند الصحابة، فالنخلة معروفة بخيرها « وبركتها موجودة في جميع أجزائها مستمرة في جميع أحوالها، فمن حين تطلع إلى أن تيبس تؤكل أنواعها، ثم ينتفع بجميع أجزائها، حتى النواة في علف الدواب، الليف في الحبال ، وغير ذلك مما لا يخفى »².

ومن الصور التي يمكن اعتبارها من التشبيه المقلوب حديث الإفلاس، حيث أبان عليه الصلاة والسلام أن الإفلاس الحقيقي يكون في القيم والمبادئ العليا، فقد جاء عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: « إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، و أكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطي هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار »³.

وإذا كان الحديث فيه تلميح إلى الصورة الضمنية، فإنه أيضا يقوم على صورة التشبيه المقلوب ، وفي ذلك مبالغة في إفلاس من لم يحم حدود الله في صلاته، وصيامه، وزكاته

¹ - انظر: عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق ص: 291.

² - القسطلاني، إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 158.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1997، رقم الحديث: 2581.

، لأن الإفلاس الحقيقي يكمن فيمن يتكرر للإنسانية، ويتكرر للعقيدة الدينية، التي تقوم أساساً على حسن المعاملة بين الأفراد، فهو أفلس من المفلس بالدرهم والمتاع، ولذلك جاء هذا الحديث الشريف من خلال التشبيه المقلوب لإظهار هذه الحقيقة عن طريق الحوار ليتقرر هذا المعنى في النفوس « ولولا هذا لمر على أسماعهم مروراً عابراً، وبشير صلى الله عليه وسلم في هذه الصورة أن الإفلاس الحقيقي هو حالة الرجل الذي أضاع حسناته يوم القيامة في ذلك اليوم الذي لا يتاح للمرء أن يكسب شيئاً وي طرح في النار، وهذا التصوير الدقيق يؤدي غرضاً دينياً هو الامتناع عن الظلم في الدنيا، فقد تكون المظالم قوة يتمكن بها أن يفعل ما يشاء، ولكن عليه أن يتذكر أنه سيجرد من هذه القوة في يوم القيامة؛ لأن القدرة الإلهية لن تدع مظلوماً في ذلك اليوم حتى تنتصف له من ظالمه »¹.

وبلاغة التشبيه المقلوب تكمن في هذا التقديم الذي قصر وحصر المعنى فقولنا: الأسد زيد فإننا قد قصرنا الأسدية على زيد دون سواه.

وأما الوجه الثاني في بلاغة التشبيه المقلوب فإنه يكمن في المبالغة من خلال إظهار المشبه مظهر الأصل الذي تتجلى فيه الصفة المشتركة أقوى وأوضح لأهميتها من المشبه به المقلوب.

3: صور أخرى من التشبيه المتعدد

الأصل في التشبيه أن يأتي مفرد الطرفين، كأنه تشبيه شيء في فقرة من النثر، أو بيت من الشعر، ولذلك يرى البعض أن التشبيه المتعدد لم يرد في القرآن « ولهذا لم يقع التشبيه متعددًا في القرآن الكريم، فلم يجيء فيه تشبيه شيئين بشيئين، ولا أكثر من ذلك، إنما جاء تشبيه واحد بواحد فيما ورد من أنواع التشبيه جريا على أعراق البلاغة الأصلية التي تنفر من التكلف »².

¹ - قاله حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 132.

² - علي الجندي، فن التشبيه، مرجع سابق، ج2، ص: 127.

غير أن التزيين، والتتميق، والمبالغة، في الوصف والافتتان في التصوير نتج عنه هذا التعدد، الذي بلغ عند بعض الشعراء حد الإملال.

لذلك لاحظ البيانون ما ينتج عن احتمال تعدد المشبه دون المشبه به، أو تعدد المشبه به دون المشبه، في العبارة الواحدة، أو ما يعرف بتشبيه التسوية، وتشبيه الجمع. ثم تبين للبيانين ما قد ينتج عن احتمال أن تذكر المشبهات على حدة، ثم تذكر الأشياء المشبه بها على حدة، ويسمون هذا النوع بالتشبيه الملفوف؛ لأنه لف المشبهات معاً، والأشياء المشبه بها كذلك، أو أن يذكر عدة تشبيهات ولكن كل تشبيه على حدة لا يتداخل مع غيره، وسموا هذا التشبيه مفروقاً، لأنه فرّق بين التشبيهات فجاء كلٌّ مستقلاً عن صاحبه¹

والملاحظ أن الأنماط السابقة تختلف من حيث الظهور في الحديث النبوي الشريف من نمط إلى آخر، ونحن في هذا المقام لابد أن نشير إلى ما ورد منها استكمالاً لجوانب البحث، ومن تلك الصور في الحديث النبوي الشريف صورة:

أ - تشبيه التسوية:

قد يتفنن الأديب فيأتي بأكثر من مفرد على أن كل واحد مشبه، ويأتي بمشبه به واحد في العبارة الواحدة، أو هو أن يشبه شيئين أو أكثر بشيء واحد. وهذا يعني أن يتعدد المشبه دون المشبه به، يسميه البلاغيون بتشبيه التسوية، لأنه سوى بين المشبهات فجعل لها مشبهاً به واحداً، وهو أقل بلاغة من أنماط التشبيه المتعددة، على أن يكون لهذا التشبيه مناسبة بين كلا المشبهين، فقد شبهوا الرمش بالسهم، وشبهوا الكلمة تخرج من صاحبها بالسهم أيضاً، فلو أننا قلنا: «الرمش والكلمة كالسهم» لما كان لهذا التركيب من لطف في النفس وقبول².

¹ - انظر: فضل حسن عباس، أساليب البيان، مرجع سابق، ص: 236 وما بعدها.

² - انظر: فضل حسن عباس، أساليب البيان في علوم البلاغة، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، ط1،

عام: 2007 م، ص: 234.

أما قولهم: «أخلاق فلانة وإعطافها كالمسك، لكان مما تأنس به النفس، وهذا النمط من التشبيه ورد قليلا جدا في الحديث النبوي الشريف، ومما جاء عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل الصائم النهار»¹.

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: " الساعي على الأرملة والمسكين " ، تعدد المشبه حيث يمكن القول: الساعي على الأرملة كالمجاهد في سبيل الله، أو الساعي على الأرملة كالذي يصوم النهار ويقوم الليل، أو الساعي على المسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو الساعي على المسكين كالذي يصوم النهار ويقوم الليل.

والملاحظ أن "أو" التي جاءت في جهة المشبه به لا تفيد الجمع، وإنما تفيد التخيير لذلك يمكن لنا القول: أن التشبيه تشبيه تسوية، وليس تشبيها ملفوفا.

وإذا نظرنا إلى الجهاد في سبيل الله من خلال الأحاديث النبوية فهو ذورة سنام الإسلام، وأن أجره أجر عظيم، « نطقت بذلك الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة واستفاض ذلك عند المسلمين، فالذي يسعى على الأرملة والمسكين ينفق عليهما كالمجاهد في سبيل الله، هذه صورة، أو كالعابد المخلص في عبادته في صيامه النهار وقيامه الليل بشكل متواصل، وهذه صورة أخرى، وهاتان الصورتان جيء بهما للدلالة على عظم ثواب المتصدق على هؤلاء المعوزين »². خاصة الأرملة التي فقدت من يعولها ومن ينفق عليها ومن يرعى حاجتها، وكذلك أيضا المسكين الذي لا يكفه ما عنده لسد حاجاته الكثيرة، وضروب الحياة متنوعة قد لا يستطيع المرء مجابهة ذلك.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2047، رقم الحديث: 5038.

² - فالح حمد احمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق: 146.

ب - تشبيه الجمع:

وهذا الضرب من التشبيه يتفنن الأديب فيه ويأتي بمشبه واحد، ويأتي بمشبه به متعدد في العبارة الواحدة، أو أن يشبه شيئاً واحداً بشيئين أو أكثر، أو بمعنى آخر قد جمع للمشبه الواحد عدة أشياء جعل كل واحد منها مشبهاً به .

وقد تناول عبد القاهر الجرجاني مسألة الإغال في التفصيل والاستقصاء، لأن في ذلك رفعا للتشبيه إلى أعلى في التكامل والإبداع، لما يقوم عليه التشبيه من دقة في الملاحظة، وصولاً إلى الجزئيات الدقيقة « وجملة القول أنك متى زدت في التشبيه على مراعاة وصف واحد، أو جهة واحدة، فقد دخلت في التفصيل والتركيب، وفتحت باب التفاصيل، ثم تختلف المنازل في الفضل بحسب الصورة في استنفادك قوة الاستقصاء أو رضاك بالعفو دون الجهد»¹.

والواضح من كلام عبد القاهر الجرجاني، أنه يعطي أهمية لهذه العلاقة علاقة التشبيه بالتفصيل، لأنها تفتح باب التفاضل الذي يؤدي إلى حد الإعجاب بحشد التشبيهات.

ويكثر هذا الضرب في كلام العرب رغبة منهم في إعطاء الصورة شكلاً متكاملًا متعدد الألوان، مختلف المشاهد، لعله يجد متنفساً عن أفكاره التي غذتها فكرة بدوية تعشق التنوع وتمقت الاستقرار والركون إلى لون واحد من ألوان الحياة، وأساليب القول والتعبير.

والرسول عليه الصلاة والسلام أكثر من يسعى إلى إيضاح المعنى وتوطيده في النفوس من خلال الأحاديث النبوية الشريفة، ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: « كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل»². الرسول صلى الله عليه وسلم يخاطب ابن عمر بهذه الحال، وابن عمر يعرفها كما يعرفها كل الناس، وإنما أراد منه أن يكون في الدنيا شبيهاً بالغريب، أو

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 156.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2358، رقم الحديث: 6053.

عابر السبيل وعدم التعلق بما يتقله من متاعها الخادع الذي يعوق همته ويشغل قلبه عما هو أحق، إذ الدنيا طريق غربة يفضي بكل نفس إلى دار إقامة وقرار¹، غير أنه عليه الصلاة والسلام لم يتوقف عند ذكر مشبه به واحد، وإنما أضاف إلى الغريب مشبهاً آخر، هو عابر سبيل، وكلاهما لا يتعلق بالمكان ولا يعوقهما المضي «وهذه الصورة التشبيهية تترك خيال ابن عمر وخیالنا يصور لنا أوضاع الغريب وعابر السبيل عند وقوفنا من الدنيا على نوافذ الآمال وأبواب المطاعم، فتحد من جموحنا الشارد، أو تورطنا المهلك»². ومثل هذا الموقف جاء نتيجة تعدد المشبه به، الغريب، وعابر السبيل، لمشبه واحد وهو صاحب الدنيا، أو من أراد منه أن يكون كالغريب أو عابر السبيل.

وفي حديث آخر يتناول عليه الصلاة والسلام الدنيا وما فيها من ضيق حتى غدت سجناً للمؤمن، وغدت أيضاً جنة للكافر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»³.

في هذا الحديث شبهت الدنيا بسجن بالنسبة للمؤمن باعتبار ما سيلقاه في الآخرة من نعيم، فهو يستعجل هذا اليوم، ثم شبهت الدنيا مرة ثانية بالنسبة للكافر باعتبار ما سيلقاه من عذاب في الآخرة.

والصورة باعتبار حذف الأداة ووجه الشبه، هي من التشبيه البليغ، ومن جهة ثانية باعتبار أن المشبه واحد، والمشبه به متعدد، فهي تشبيه جمع.

وفي الصور السابقة بيان شأن المؤمن في الدنيا أن يعصم نفسه ويحافظ على دينه، لأن الدنيا فيها من اللذائذ والشهوات «فما كل ما رأيته، أو علمته ترتع فيه، فهو لا يقدم

¹ - انظر: كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 144.

² - قال: حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 107.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2272، رقم الحديث: 2956.

على أمر حتى يعلم حكم الشرع فيه، فإن منع امتنع»¹. والكافر لا يرد يده ونفسه عن شيء من شهوات ولذائذ الدنيا حلالها وحرامها، أما من أقام نفسه في الدنيا المائجة من حوله برغدها وفتنتها مقام السجين في سجنه، أفعم قلبه بالرضا وجسده بالراحة واشتغل بطاعة ربه².

وقد يرد تشبيه الجمع في الحديث النبوي الشريف ثلاثيا كما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام، عن أبي أمامه الباهلي: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين، البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»³. وفي رواية ثانية «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدّمه سورة البقرة وآل عمران»، وضربَ لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أمثال، ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان، بينهما شرق، أو كأنهما حِرْقَانِ من طير صواف، تحاجان عن صاحبهما»⁴.

وبالنظر إلى الروایتين نلاحظ أن الرواية الثانية لم تتوقف فقط عند حدّ القراءة وإنما تتعدّى إلى الذين يستحقون هذه المنزلة، هم الذين لا يكتفون بمجرد القراءة، وإنما يتدبرون القرآن بالدراسة ويعملون بما جاء فيه، ثم خص عليه الصلاة والسلام سورتي البقرة وآل عمران بفضيلة تدعو إلى الإكثار من قراءتهما وتدبرهما والعمل بما جاء فيهما، وقيل سميتا الزهراوين لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما⁵.

¹ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 323.

² - مرجع نفسه، ص: 323.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 553، رقم الحديث: 804.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص: 554، رقم الحديث: 805.

⁵ - هامش: صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 553.

لذلك نجده عليه الصلاة والسلام ضرب لهما ثلاثة أمثال: " كأنهما غمامتان " ، أو " غيايتان"، أو " ظلتان سودوان "، وهما بمعنى متقارب، والشبه الثالث " كأنهما فرقان من طير صواف، أو كأنهما حزقان من طير صواف، والمعنى أيضا متقارب في هذه الصورة الثالثة.

صور ثلاثة متقاربة تحاجان عن أصحابها تبتغي لهم الشفاعة و الفضل العظيم، وهذا يدل أن ضرب أمثال ثلاثة لأمر واحد يدل على غزارة الخيال المصور، كما يدل على أهمية هذا الذي تضرب له هذه الأمثال.¹

ومما لاشك فيه أن تعدد المشبه به لمشبه واحد، يجعل هذه الصورة من تشبيه الجمع، وربما يرجع لاختلاف حال القراء، فطائفة تكون السورتان لها غيايتين، وثانية تكونان لها ظلتين، وثالثة تكونان لها فرقين ، فالناس ليسوا على درجة سواء، في القراءة، والتدبر فحال السورتين مع كل مختلف: « وفهم القرآن وتدبره هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر فيفعلها البر، والفاجر، والمؤمن والمنافق، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر " ».²

ويظهر أن اختصاص هاتين السورتين " البقرة وآل عمران " «بهذه الصورة التي يكون فيها المشبه واحدا، والمشبه به متعددا، إشارة إلى ما فيهما من حماية للعقيدة من الزيغ والضلال، وبناء الإنسان المسلم على أساس سليم، وأن دورهما في هذا يشبه دور الغياية.. في التظليل والحماية من وقع سهام الشمس الحارقة، ومن يرجع إلى كتب التفسير يدرك شيئا من قيمة هاتين السورتين " الزهراوين»».³

¹ - محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 411.

² - محمد بن أبي بكر أيوب بن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرئؤوط، مؤسسة الرسالة، الرياض، عام: 1998م، ج1، ص: 399.

³ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 115.

وفي حديث طويل عن أبي سعيد الخدري، أن ناسًا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله! هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم». قال: «هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحب؟»، قال: «ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة، إلا كما تضارون في رؤية أحدهما.... ثم يضرب الجسر على جهنم. وتحل الشفاعة. ويقولون: اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ » قيل: يا رسول الله! وما الجسر؟ قال: «.. دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليبُ وَحَسَكُ، تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمرُّ المؤمنون كطرف العين، كالبرق، والريح، والطير وكأجاويد الخيل والركاب..»¹.

والواضح من هذا الحديث أنه يتناول مرور الناس على الصراط، منهم من يمر عليه كطرف العين، ومنهم من يكون كالبرق، ومنهم من يكون كالريح، ومنهم من يكون كالطير أو كأجاويد الخيل والركاب.

وهذا المرور على الصراط يختلف في السرعة، فكلما كان عمل المسلم حسناً، كلما كان أسرع في مروره، إلى جانب الثبوت والاستقرار على الصراط، ودل على ذلك بقوله: " دحض مزلة "وهو الموضع الذي تزل فيه الأقدام، ولا تستقر عليه، ومنه: "دحضت الشمس " :أي مالت، وحجة داحضة، :أي لا ثبات لها، لأن فقد التوازن أثناء المرور يعني السقوط في جهنم.

وأما المسلم الذي أَرْضَى الله بعمله الصالح في دنياه، فإنه يشعر بالثبات والاستقرار وعدم اختلال التوازن أثناء العبور، وأما من قل عمله فإن سرعته تختلف في عبوره، إلى جانب الاختلاف في التوازن والاستقرار على الصراط.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق ج1، ص: 169، رقم الحديث: 183.

هذا المشهد الغيبي يصوره عليه الصلاة والسلام في مشهد محسوس حيث تتفاوت السرعة والاستقرار على حسب الأعمال، كل حسب منزلته واستحقاقه المتوقف على الأعمال التي ترضي الله.

وهكذا جاءت المشبهات به مختلفة، ومتنوعة تبين منزلة كل واحد، بما تحمله هذه المشبهات من تفاصيل دقة التصوير، واختيار للألفاظ مما جعل المشهد الغيبي مرئيا محسوسا يدرك بالحواس.

ويمكن القول أن تعدد المشبه به أعطى إمكانية تصوير الموقف بدقة، وقد وظف عليه الصلاة والسلام أربعة أوجه لمشبه واحد.

فالتشبيه يتسم بالفاعلية في عملية التبيين، والإفهام، وإيضاح المعنى، صورة تقوم على الوصف من خلال المقارنة والموازنة بين هؤلاء جميعا في أعمالهم، ومن خلال سرعتهم كل حسب ما قدر له، بعضهم كطرف العين، أو كالبرق، أو كالريح، أو كالطير وبعضهم كأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم¹.

ج - التشبيه المفروق:

وهو ضرب من التشبيه المتعدد ، يتعدد فيه كل من المشبه والمشبه به، ويقرن كل مشبه بالمشبه في الذكر، لأنه قد فرق بين المشبهات والأمور المشبه بها، ويطلق عليه أيضا اسم غير الملفوف، لأن المشبهات قد فرق بينهما فلم تلف، وكذلك الأمور المشبه بها فقد فرق بينها بالمشبهات فليست ملفوفة، وإنما جاء كل تشبيه مستقلا عن صاحبه².

¹ - انظر: محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 214-215.

² - فضل حسن عباس، أساليب البيان، مرجع سابق، ص: 241.

وهذا الضرب من التشبيه ورد أيضا في الحديث النبوي الشريف، منه قوله عليه الصلاة والسلام: «العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره، والعقل دليله، والعمل قِيَمُهُ، واللين أخوه والرفق والده، والصبر أمير جنوده».¹

وفي الحديث كما هو واضح سبعة تشبيهات بليغة جاءت جميعها بطريقة التشبيه المفروق « تكثيف الصورة وإمامًا بجوانبها، في وحدة متكاملة شاملة ليعرفها المخاطب مفصلة بكل دقائقها. حيث شبه العلم بالخليل، والحلم بالوزير، والعقل بالدليل، والعمل بالقيم الذي يقوم على شؤون الشخص، واللين بالأخ، والرفق بالوالد، والصبر بأمير الجنود.

و هذه التشبيهات المتلاحقة قد ذكرت دون ذكر الأداة، وفي ذلك زيادة في التأكيد على مدلولها، إلى جانب الدلالة على الاتحاد والتفاعل بين المشبه والمشبه به.

وأما الوجه الرابط بين هذه الصور المعنوية ما أشار إليه الرضي في قوله: « والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام "العلم خليل المؤمن" أنه يأنس به من الوحشة ويسكن إليه في الوحدة كما يأنس الخليل بخليله ويسكن الحميم إلى حميمه، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: " والحلم وزيره "أنه يقوى به على الأمور، ويوازره على كظم المكروه، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام قيمه " أن العمل يتقف ميله، ويقوم زلله ويسد خلله، فهو كالقيم الذي يأتي لمصالح ما يقوم عليه، ومرشد ما يوكل إليه، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: "اللين أخوه "أن اللين يقيد مؤاخاة الإخوان ومخالصتهم، ويحفظ عليه صفاءهم، ومودتهم فجعله عليه الصلاة والسلام أخاه من حيث كان سببًا لاجتلاب الإخوان إليه، وحفظ المودات عليه، والمراد بقوله: "والعقل دليله " أنه بالعقل يهتدي في ظلم المشكلات، وينجو من مضايق الغمرات فهو كالدليل الذي يرشد في المضال، ويجنب عن المزال، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: "والعمل عليه الصلاة والسلام: "والرفق والده " كالمراد بقوله: واللين أخوه ،لأن الرفق يُقبل إليه بالقلوب، ويظأر عليه كوامن الصدر، فيصير كل واحد في الحنو عليه

¹ - الشريف الرضي، المجازات النبوية، مصدر سابق، ص: 112.

والميل إليه كالوالد الرؤوف، والجد العطوف، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام: "الصبر أمير جنوده" أن الصبر ملاك أمره، شداد أزره، وبه تبلغ الآداب، وتترك المحاب فهو كأمر جنده الذي يقوى به على أعدائه، ويصل به إلى أغراضه وطلباته وقد يجوز أن يكون المراد أن الصبر رأس خلاله، ورئيس خصاله فهو متقدم عليها، وكالأمر لسائرهما، كما أن الأمير متقدم على رعيته وله شأن من في طبقته»¹.

والواضح أنه عليه الصلاة والسلام أراد إظهار هذه الأمور المعنوية وما تحملها من وظائف نفيسة يمكن أن تكون دعما في حياة الإنسان، لذلك عمد إلى تشخيصها تشخيصا يعطيها الحياة والحس والإرادة، حتى غدت من الأمور المحسوسة فكان لها التأثير النفسي المرجو، لذلك جاءت هذه الصور متلاحقة، متعاقبة، بطريقة التشبيه المفروق.

وفي حديث آخر يتناول فيه عليه الصلاة والسلام أموراً كثيرة تكون سبيلاً إلى الجنة وتبعد المرء من جهنم، وذلك من خلال حديث معاذ بن جبل حيث قال عليه الصلاة والسلام: «ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»².

فهو عليه الصلاة والسلام جعل الإسلام رأس دين الله المتقدم ورئيسه المعظم، وجعل الصلاة عموده الذي به قوامه، وعليه قيامه وجعل الجهاد ذروة سنامه، لأنه يعد الرأس أعلى مشارفه، وأرفع مراتبه وبه يشاد بناؤه. ويقام لواؤه، ويقمع أعداؤه.

¹ - المصدر نفسه، ص: 113.

² - المصدر نفسه، ص: 240.

والملاحظ أن في الحديث ثلاثة صور بلاغية جاءت من خلال التشبيه المفروق، إلى جانب أن هذه الصور الثلاثة يمكن اعتبارها أيضاً من قبيل التشبيه المقلوب، وذلك زيادة في المبالغة.

د - التشبيه الملفوف .

هو أن يتعدد كل من المشبه والمشبه به وتكون المشبهات مجتمعة في طرف والمشبه بها في طرف آخر، ويسمى الملفوف، أو المقرون، لأن المشبهات قد اقترنت ولفت في طرف، وكذلك الأمور المشبه بها، وذلك مثل ما جاء في بيت امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً وَيَابِساً *** لَدَى وَكْرِهَا الْعُنَابُ وَالْحَشَفُ الْبَالِي

ففي الشطر الأول ذكر مشبهين: الأول قلوب الطير وهي رطبة، والثاني قلوبها وهي يابسة، وذكر في الشطر الثاني المشبه به لكل من هذين، فالقلوب الرطبة شبهها بالعناب والقلوب اليابسة شبهها بالحشف البالي.

ومن هذا الضرب ما رواه أبو موسى رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: « مثل الذي يذكر ربه، والذي لا يذكر ربه، مثل الحي والميت»¹، وفي رواية مسلم قال: « مثل البيت الذي يذكر الله فيه، والبيت الذي لا يذكر الله فيه، مثل الحي والميت»².

ومعنى في الروایتين متقارب، فالأولى شبه فيه عليه الصلاة والسلام الذي يذكر ربه بالحي، والذي لا يذكر ربه بالميت، وأما الرواية الثانية فقد شبه البيت الذي يذكر الله فيه بالحي، والبيت الذي لا يذكر الله فيه بالميت، ووجه الشبه بين الذاكر والحي هو الاعتداد بكل منهما وأهلية العون والنصرة، وأما وجه الشبه بين تارك الذكر والميت هو عدم الاعتداد

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2353، رقم الحديث: 6044.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 539، رقم الحديث: 779.

بكل منهما، « والحديث يبدو ظاهره أنه يمثل البيت الذي يذكر الله فيه بالحي، والذي لا يذكر الله فيه بالميت، ولكن التدقيق أنه يشبه الفرق بين البيت الأول والبيت الثاني بالفرق بين الحي والميت، فالمفارقة هي الغرض الذي سيق إليه الكلام، وليس تشبيه أحدهما بالحي والآخر بالميت، فالمعنى مجموع من أسلوبين وليس من واحد مجموع من التشبيه والمقابلة معاً، ولو أنك جعلتهما تشبيهين منفصلين لاختلف المعنى وضاع عن الهدف الذي سيق له القول»¹.

وفي الأخير يمكن القول أن التشبيه المتعدد له من الخصائص ما يجعله محط اهتمام الأدباء، لأنه يقوم على توضيح الأفكار وتقريبها من الأذهان، وهذا يدل على أهمية الاهتمام بالمشبه به، لأنه الركن الأقوى والأوضح، فكان الاهتمام بتعدد.

¹ - عبد الباري طه سعيد، اثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 105.

المبحث الثاني: التشبيه التمثيلي في البيان النبوي الشريف

المطلب الأول: آراء وجهود علماء البلاغة في التشبيه التمثيلي

لقد اعتمدت في دراستي للتشبيه كما هو واضح على الرأي الذي يقول: إن التشبيه أعم من التمثيل، وأن التمثيل جزء من التشبيه « وإذا عرفت الفرق بين الضربين فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه، فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً¹ ».

والتمثيل اسم مصدر "مثل" المضعف العين، كالتعظيم والتكريم، وأصل المادة "مثل" ثلاثي، وعلماء اللغة حين يوضحون هذه الكلمة، يذكرون أنها ترادف لفظاً آخر في مبناه ومعناه وهو كلمة "شبه" فالمثل والشبه، والمثل والشبيه، لفظان مترادفان لفظاً ومعنى «ويقال: مثله به شبهه، وتمثل به تشبه، ومثل الشيء بالشيء: سوى به، وقدر تقديره، وامثلت الأمر: احتذيته، وحذاه على المثل وعلى الأمثلة والمُثُل، ومَثَلَ مثلاً، وتمثَّله: اعتمله، ومثل التماثيل ومثلها صورها²».

ولقد رأينا عند بعض علماء اللغة أنه من لا يفرق بين التشبيه والتمثيل، مثل تعلق ابن الأثير بالنص اللغوي فعاب على البلغاء هذه التفرقة، فنراه يقول: « وجدت علماء البيان قد فرقوا بين التشبيه و التمثيل، وجعلوا لهذا باباً مفرداً، ولهذا باباً مفرداً هما شيء واحد لا فرق بينهما في أصل الوضع³». وإذا كان بعض علماء البلاغة لم يفرقوا بين التشبيه والتمثيل شأن الزمخشري، وكذلك ابن الأثير اعتماداً على الوضع اللغوي، فإن الرأي الجمهور يتجه نحو اعتبار التشبيه على نوعين: مفرد، ومركب⁴.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 80.

² - الزمخشري، أساس البلاغة، مصدر سابق، ج 2، ص: 193.

³ - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، مصدر سابق، ج 2، ص: 115.

⁴ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 172.

أهم مذاهب التشبيه التمثيلي:

لقد كان مفهوم التمثيل عاما عند البلاغيين والنقاد القدامى ، فأطلقوا عليه كثيرا من الصور البيانية، كالاستعارة ، والمجاز، والكناية والتشبيه، فقدمه بن جعفر جعله فرعاً من ائتلاف اللفظ مع المعنى، ومثّل له بأمثلة تشتمل كثيرا على أنواع البيان، أما أبو هلال العسكري فقد تحدث عنه في ظلال "المماثلة" وجاء بشواهد كثيرة من القرآن والشعر، هذه الشواهد تشمل العديد من الصور البيانية المختلفة، كالتشبيه، والمجاز، والاستعارة، والكناية، وعلى نفس المنوال نجد ابن رشيق القيرواني قد جعله ضرباً من الاستعارة ومثّل له بأمثلة أكثرها من الكناية والتشبيه.

وظل مفهوم التمثيل على هذا النحو عاما، حتى جاء عبد القاهر الجرجاني، وفتح بينه وبين الأنواع البيانية الأخرى وبين قيمته الفنية، وكشف النقاب عن بلاغته، وأثره في تصوير المعاني، ثم جاء بعده السكاكي، والخطيب القزويني، هؤلاء العلماء كانت لهم أياد بيضاء على هذا الفن البياني، فقد عنوا به عناية تامة بدراسته والكشف عن محاسنه ولطائف أسرارهِ، ووضعوا فوارق بينه وبين التشبيه الصريح.

وفي ضوء ذلك رأينا أنه من الواجب التركيز أكثر على هذه الثلاثة، حتى وإن كان المشهور في التمثيل مذهبين. مذهب عبد القادر الجرجاني، ومذهب الخطيب القزويني، غير أن السكاكي له أثر في تحديد التشبيه التمثيلي وضبطه.

أولاً: التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني:

لقد سلك عبد القاهر الجرجاني في فهم التشبيه التمثيلي مسلكاً آخر في التفرقة بينه وبين التشبيه غير التمثيلي، حتى وإن كان منهجه في ذلك قد يلتقي مع الخطيب في جوانب، وقد يختلف، ونعتقد أن الأساس الذي أقام عليه عبد القاهر دراسته في تحديد معالم التشبيه التمثيلي يقوم على النظر إلى حال قيام وجه الشبه، أو الصفة الجامعة بين الطرفين، حيث دقق في الأمر ورأى هناك فرقاً، فوجه الشبه إما أن يكون صريحاً ظاهراً في الطرفين

لا يحتاج في استخراجهِ إلى تأويل، أو يكون وجه الشبه يحتاج إلى تأويل، وعلى هذا الأساس قسم التشبيه باعتبار وجه الشبه إلى قسمين:

الأول: تشبيه غير تمثيلي.

وأما التشبيه غير التمثيلي عند عبد القاهر فهو ما كان وجه الشبه فيه أمراً بيئاً بنفسه لا يحتاج فيه إلى تأويل وصرف عن الظاهر « أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج إلى تأويل »¹ لأن المشبه يشارك المشبه به في نفس وجه الشبه وحقيقة جنسه لا في مقتضاه، ولازمه في قولهم: خد كالورد، فهو لحرمة في الطرفين، ويتحقق ذلك من خلال أمرين هما:

أولاً: أن يكون وجه الشبه حسيّاً، يدرك عن طريق الحواس الخمس، ووجه الشبه فيها من الأمور الحسية، سواء كان وجه الشبه مفرداً، أو مركباً، وعندئذ يكون الأمر لا دخل للأفراد، أو التركيب عند عبد القاهر الجرجاني ما دام وجه الشبه من الأمور التي تدرك عن طريق الحواس.

ثانياً: أن يكون وجه الشبه غريزياً طبيعياً "عقلياً حقيقياً"، فالغرائز والطباع أحقها عند القاهر بالحسيّات، لكونها حقائق ثابتة تعلمها في المشبه به، كما تعلمها في المشبه، مثل الشجاعة، والجبين، والكرم، والبخل.

ثانياً: التشبيه التمثيلي.

فهو ما كان الوجه فيه مؤولاً ، ولا يكون قائماً في الطرفين على حدّ التشبيه الصريح ثم لا يكون الاشتراك فيه في الصفة، وإنما في أمر هو مقتضى الصفة « اعلم أن الشئين إذا شبه أحدهما بالآخر كان ذلك على ضربين: أن يكون من جهة أمر بين لا يحتاج فيه إلى التأويل، والآخر: أن يكون الشبه محصلاً بضرب من التأويل »².

والضرب الثاني هو التمثيل ، حيث يكون وجه الشبه خفياً يحتاج في تحصيله إلى ضرب من التأويل، والصرف عن الظاهر، ورد شيء إلى شيء، يمثل له عبد القاهر بقولهم: حجة كالشمس في الظهور، وكلام ألفاظه كالعسل في الحلاوة ، وهم كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها ، فوجه الشبه في هذه الأمثلة ليس له وجود حقيقي في كلا الطرفين، ولذا فنحن نحتاج إلى تأويل وصرف عن الظاهر، بحثاً عن معنى يكون له وجود حقيقي في كلا

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 76.

² - المصدر نفسه، ص: 76.

الطرفين، وبذلك يكون التشبيه التمثيلي عند عبد القاهر مراتب «ثم إن ما طريقه التأول يتفاوت تفاوتاً شديداً، فمنه ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه ويعطي المقادة طوعاً، حتى إنه يكاد يداخل الضرب الأول الذي ليس من التأول في شيء، وهو ما ذكرته لك، ومنه ما يحتاج إلى قدر من التأمل، ومنه ما يدق ويغمض حتى يحتاج في استخراجهِ إلى فضل رؤية ولطف فكرة»¹.

والواضح أن عبد القاهر الجرجاني اعتمد على مقدار الخفاء والحاجة إلى التأول، ثم الشيوخ والندرة، فإن شاع التمثيل على السنة العامة إلى حدّ استوى الناس جميعاً في إدراك وجهه واستخراجهِ كان في المرتبة الدنيا من مراتب التمثيل، وبذلك يكون التمثيل عند عبد القاهر الجرجاني في ثلاثة مراتب:

المستوى الأول: ما يقرب مأخذه ويسهل الوصول إليه، وهذا نوع الخفاء فيه يسير يسهل الوصول إليه، ولا يحتاج فيه إلى تأول كثير، بل يدرك دون عناء وقد مثل له بقوله: حجة كالشمس في الظهور، فهو قريب المأخذ سهل التناول.

المستوى الثاني: ما يحتاج فيه إلى قدر من التأمل، وهو نوع أعلى قليلاً من النوع الأول، لأن فيه نوعاً من الخفاء وقد مثل له بقوله: كلام ألفاظه كالعسل حلاوة.

المستوى الثالث: ما يدق ويغمض ويحتاج إلى فضل رؤية ولطف وفكرة، وهذا النوع يشتد أمر التأول فيه، لأن خفاءه ظاهر حتى لا يعرف المقصود من التشبيه فيه بمجرد السماع، وقد مثل له بقول كعب الأشقري حين سأله الحجاج عن بني المهلب قال: فكيف كان بنو المهلب فيهم؟.. قال: كانوا حماة السرح نهاراً، فإذا ألبسوا فرسان البيات، قال: أيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها»².

وقيل أن هذا القول لفاطمة بنت الخرشب الأنمارية، وقيل إن كعب الأشقر أخذه منها فوصف به بني المهلب.³

ثم أشار أيضاً بقوله: «فهذا كما ترى ظاهر الأمر في فقره إلى فضل الرفق والنظر،

¹ - المصدر نفسه، ص: 76.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، هامش: ص: 79.

³ - المصدر نفسه، ص: 78.

ألا ترى أنه لا يفهمه حق فهمه إلا من له ذهن ونظر يرتفع به عن طبقة العامة».¹

عبد القاهر يدرك تماما دقة هذا التأويل وعدم إدراك العامة له كالصريح، لأن الوصول إليه يحتاج إلى ذهن صاف يطيل التأمل في الكلام ويعرف مسالكه، ومساربه، ويحسن سياسته، ويخرج منه أجمل ما فيه، ويجتهد في استخراج وجه الشبه، قياسا على مذهب التأول في الأمثلة السابقة.

ونعتقد أن وجه الشبه في ذلك هو المساواة التامة التي نراها في أطراف الحلقة، وربما يرجع إلى التكامل بين الأبناء حتى أننا لا نعرف الأول منهم والأخير، وهذا هو التناسب المحسوس الذي يوجد في الحلقة إلى التناسب الكلي الذي نجد عند الإخوة الذي لا تفاوت فيه.

ونعتقد أن عبد القاهر حين قسم التمثيل إلى هذه المستويات الثلاثة كان يريد القول أن أسلوب التمثيل يأتي في أساليب عالية رفيعة، فلا يدرك وجهه إلا الخاصة، فهو من الأساليب الفطرية المتغلغلة في أصول هذه اللغة.

وبعد أن تحقق واستطاع الاستدلال، وإثبات الفروق بين التمثيل والتشبيه الصريح «فقد تبين بهذه الجملة وجه الفرق بين التشبيه، والتمثيل، وفي تتبع ما أجملت من أمرهما وسلوك طريق التحقيق فيهما ضرب من القول ينشط له من يأنس بالحقائق»²، ثم قال: «وإذ قد عرفت الفرق بين الضربين، فاعلم أن التشبيه عام والتمثيل أخص منه فكل تمثيل تشبيه، وليس كل تشبيه تمثيلاً».³

ثانياً: التمثيل عند السكاكي:

وأما التمثيل عند السكاكي الذي يعد واحداً من رجال البلاغة في القرن السابع فهو

¹ - المصدر نفسه، ص 79

² - المصدر نفسه ، ص: 83.

³ - المصدر نفسه ، ص 80

يعرف التشبيه التمثيلي بقوله: «واعلم أن التشبيه متى كان وجهه وصفاً غير حقيقي وكان منتزعاً من أمور خص باسم التمثيل».¹ وهذا التعريف يختلف عن تعريف عبد القاهر، في أمور، ويتفق معه في وجه آخر.

فوجه الشبه عند السكاكي لابد أن يكون غير حقيقي، ولذلك فإن وجه الشبه ما دام غير حقيقي، فهو لا يكون إلا عقلي قائم في الطرفين.

ثم نلاحظ أن السكاكي يشترط في الوجه أن يكون مركبا منتزعا من هيئة مركبة، وهذا الشرط يخرجها عما ذهب إليه عبد القاهر من تمثيل المفرد.

إلا أنه يتفق معه في كونه منتزعا من هيئة مركبة، ومن شواهد السكاكي الدالة على التمثيل قول الشاعر:

أصبر على مضض الحسو *** د فإن صبرك قاتلتَهُ
فالنار تأكل نفسها *** إن لم تجد ما تأكلهُ

يقول السكاكي: « فإن تشبيه الحسود المتروك مقاولته بالنار التي لا تمد بالحطب فيسرع فيها الفناء ليس إلا في أمر متوهم له، وهو ما تتوهم إذا لم تأخذ معه في المقابلة مع علمك بتطلبه إياها، عسى أن يتوصل بها إلى نفثه مصدور من قيامه إذ ذاك مقام أن تمنعه ما يمد حياته ليسرع فيه الهلك، وإنه كما ترى منتزع من عدة أمور».²

والملاحظ أن السكاكي اعتمد في شواهد الدالة على التمثيل من القرآن الكريم، والشعر العربي، بينما يكاد يخلو كتابه من شواهد الحديث النبوي الشريف.

ثم إنه اعتمد في دراسته البلاغية عموماً على التقسيمات والقواعد المقننة، ولذلك اتجه إلى ذلك التقسيم من جهة وجه الشبه إلى تشبيه تمثيلي، وتشبيه غير تمثيلي، ثم إنه يطلق

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 575.

² - المصدر نفسه، ص: 575.

على وجه الشبه الأمر التصوري أو الأمر التوهمي، أو الصفة غير الحقيقية، وكل هذه التقسيمات في حقيقة الأمر تفضي إلى أمر واحد، وهو: وجه الشبه العقلي، ومن النماذج القرآنية التي استدلت بها السكاكي قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (١٧) صُمُّ بَكْرٍ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرَجِعُونَ ﴿١٨﴾¹

يقول السكاكي في ذلك « فإن وجه تشبيه المنافقين بالذين شبهوا بهم في الآية هو رفع الطمع إلى تمني مطلوب بسبب مباشرة أسبابه القريبة مع تعقب الحرمان والخيبة لانقلاب الأسباب وأنه أمر توهمي كما ترى منتزع من أمور جمة »². ووجه الشبه كما هو واضح من قول السكاكي في الآية الكريمة أن كلاً من المنافقين ومستوقد النار تعاطى الأسباب المقربة لتحقيق آمالهم، وحين ظهرت دلائل النجاح انقلب الأمر على عكس ما أملوا، والواضح أنه هيئة مركبة عقلية انتزعت من أمور متعددة.

ثالثاً: التمثيل عند الخطيب القزويني.

وأما الخطيب القزويني فقد تحدث عن التشبيه التمثيلي وعرفه بقوله: « ما وجهه وصف منتزع من متعدد أمرين، أو أمور »³. وقبل هذا أشار إلى التشبيه باعتبار الوجه فجعله في ثلاث تقسيمات: «وأما باعتبار الوجه فله ثلاث تقسيمات: تمثيل، وغير تمثيل، ومجمل، ومفصل، وقريب، وبعيد »⁴.

والواضح من تقسيمات الخطيب أنها عقلية ولم يلتفت فيها كثيراً إلى الذوق الفني والأثر النفسي للشاهد سواء أكان من القرآن الكريم، أو من الحديث النبوي الشريف، أو من الشعر العربي.

¹ -سورة البقرة، الآية: 17-18.

² -السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 577.

³ -الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 172.

⁴ -المصدر نفسه، ص: 172.

ثم أن تعريفه للتمثيل يختلف عن تعريف عبد القاهر والسكاكي، حتى وإن كان مذهب السكاكي، بالنسبة له بمثابة الأصل لمذهبه، وبهذا التعريف فإنه يوسع وصف التمثيل فيشمل كل تشبيه مركب، سواء كان الوجه حقيقيا، أو غير حقيقي، أو متأولا، أو كان تشبيه مركب حسي بمركب حسي، أو إخراج المعنوي إلى حسي أو من الحسي إلى معنوي¹. وبذلك يتحلل من تمثيل الأفراد في الوجه الذي رأيناه عند عبد القادر الجرجاني، كما يتحلل أيضا من القيد الذي وضعه السكاكي "غير حقيقي".

وبتعريفه هذا صار مذهب الخطيب أوسع المذاهب، وأخفها، وأيسرها، والملاحظ أيضا أنه لم يذكر أمثلة لتمثيله وإنما أشار في كتابه التلخيص بقوله: « كما مر »². أي كما مر من التشبيهات المركبة.

الموازنة بين الآراء الثلاثة:

من خلال الآراء الثلاثة يتضح أنها قد اتفقت في بعض الجوانب واختلفت في أوجه أخرى:

أن التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه مفردا حسيا أو عقليا حقيقيا يُعد من لتشبيه الصريح و ليس من التمثيل، كذلك أيضا القول أن التشبيه الذي يكون وجه الشبه فيه مركبا عقليا فهو من التمثيل وليس من التشبيه.

والاختلاف في حالة كون وجه الشبه مركبا حسيا، انفرد الخطيب باعتباره من التمثيل، وخالفه عبد القاهر والسكاكي.

¹-انظر: الخطيب، الإيضاح، مصدر سابق، ص: 173-175،

²- انظر: بسيوني عبد الفتاح فيود، دراسات بلاغية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، عام: 1998، ص: 194-195.

والخلاف بين الآراء الثلاثة، فيما إذا كان وجه الشبه مفردا عقليا غير حقيقي، حيث نجد عبد القاهر الجرجاني قد انفرد في اعتباره من التمثيل، وخالفه في ذلك السكاكي والخطيب.

والذي نراه بعد هذه الموازنة بين الآراء الثلاثة يمكن القول: أن التشبيهات التي يكون وجه الشبه فيها مركبا حسيا ينبغي أن تعد من قبيل التشبيه التمثيلي، وذلك باعتبار أن تحصيل وجه الشبه فيها يكون في حاجة إلى تأمل ولطف فكرة، حتى وإن كان الوجه يدرك عن طريق الحواس، لأن الخفاء فيه قائم لا يقل عن الخفاء الذي نجده في وجه الشبه المفرد العقلي غير الحقيقي، ولذلك ليس من المنطق إخراجه من دائرة التشبيه التمثيلي.¹

وعلى هذا يطلق التشبيه التمثيلي على كل ما كان وجه الشبه فيه مركبا عقليا، أو حسيا، كما يطلق على ما كان الوجه فيه مفردا عقليا غير حقيقي، وماعدا ذلك فهو من التشبيه الصريح، وليس من التمثيل، وإلى رأي الخطيب مال جمهور البلاغيين باعتباره أوسع المذاهب وأخفها وأيسرها.

¹-المرجع نفسه، ص: 195.

المطلب الثاني: أثر التمثيل النبوي في بيان صفات المؤمنين وأعمالهم

جاء التمثيل النبوي الشريف ليكشف عن صفات المؤمنين وفضائلهم ومناقبهم من خلال وصفهم برسوخ إيمانهم بالله ورسوله عليه الصلاة والسلام، إلى جانب وصف حالهم عند المصاعب والشدائد، ثم علاقة المسلم بأخيه المسلم، وغير ذلك من فضائل الأعمال.

فالإسلام رسالة هداية ودين السماحة واليسر، وتعاليمه الحكيمة تدعو إلى الرفق واللين، وكل شيء فيه نافع، فهو عظيم فلا يعاشره أحد ولا يجاوره إنسان ولا يعامله مخلوق إلا انتفع منه هذه المعاني وغيرها التي جاءت في حديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟»، فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: هي النخلة¹. والحديث وصف وبيان للمسلم لوضعه بين غيره، فهو بحكم إيمانه يتحول إلى إشعاع نوراني يضيئ سبل الخير، ويكون هو نفسه مصدر خير عام في كل أحواله وشؤونه، وقد أبرز الحديث هذا المعنى في تشبيه رائع استهله بهذا السؤال: «إن من الشجر... وإنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟» فأثار انتباه السامع وأخذ بمجمع مداركه، ثم ألقى إليه الجواب.. وفي هذا الجواب أبرز أن المؤمن نخلة للعالم، نخلة تمد به مادة الحياة والسعادة بما فيها من غذاء وفوائد كثيرة²

شبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب ثمرها ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى يبيس، وبعدما يبيس يتخذ منه منافع كثيرة من خشبها وجريدها، فيستعمل جذوعها حطباً وعصياً وحبالاً وأواني وغير ذلك، ثم آخر

¹ صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص:34، رقم الحديث:61

2 - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص:69.

شيء منها نواها ، وينتفع به علما للابل، ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها وخير وجمال¹.

وكذلك المؤمن فهو خير كله بكثرة طاعاته ومكارم أخلاقه، ومواظبته على صلاته وصيامه، وقراءته وذكره، والصدقة و صلة الرحم، وسائر الطاعات.

ومن صور التشبيه التمثيلي التي تتناول صفة عظيمة من صفات المؤمن التي يتحقق بها مبدأ عظيم في حياة المسلم مبدأ التعاون والتآخي، وهو ما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »² وشبك بين أصابعه.

والصورة كما هي واضحة تتناول علاقة المؤمن بأخيه في حالة تآلف معه، تزداد تلك العلاقة متانتها وقوتها بالتعاقد، والتكاتف مع إخوانه، فهو في حاجة إلى أخيه ،لأنه غير قادر بمفرده أن يحقق ما يرغب فيه لدينه ودنياه، فهو قليل بنفسه كثير بإخوانه المؤمنين مثل البنيان يشد بعضه بعضا، إذ ينضم الجدار إلى غيره مما يعطيه قوة، ومتانة ورسوخا، وهذا ما يجسد فعلا معنى الأخوة حيث يشارك كل منهما الآخر في آماله وألامه، فهو عليه الصلاة والسلام يصف هذه العلاقة بالقوة والتماسك والمنعة والصلابة تجاه أمور الحياة وظروفها المتقلبة لذلك شبهها بالبنيان يشد بعضه بعضا.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: " يشد بعضه بعضا " فبيان دقيق لوجه الشبه ، ولكنه لم يقتصر فيه على اللغة المنطوقة، بل أشرك معه الحركة بالإشارة المتمثلة في تشبيك الأصابع في وصف قوة العلاقة ومتانتها بين المؤمن وأخيه» وبعد هذا السلوك الحركي الإيماني أغنى أدوات التواصل بعد اللسان، ووظيفته الأساس هي بيان مقام التلفظ أي بيان

¹ - انظر: عبد الفتاح لاشين، من بلاغة الحديث الشريف، مكتبان عكاظ، الرياض، ط1، عام:1982م، ص:70، ص:70.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص:863، رقم الحديث: 2314

الإطار الزمني والمكاني الذي يدور فيه الكلام ، وبيان طبيعة العلاقة بين المتكلمين، وتعد نصوص الحديث النبوي التي فيها حركات إيمائية أنموذجا ههنا¹.

ونعتقد أن الحركة الإيمائية بالإشارة في هذا المقام بدت أكثر دقة في تصوير هيئة المؤمنين في تماسكهم وتآزرهم، تصويرا مرثيا وملموسا وصار المؤمن إلى جانب أخيه المؤمن كالشيء الواحد امتزاجا ولحمة وقوة واتحادا.

وهذه الحركة الإيمائية تزداد متانتها وقوتها لأبعاد أخرى، إلى الحب والإخاء وترسيخ روح الجماعة "البنیان" الدال على شدة التماسك والترابط، فهو « يحض على الحب ونفي الأنانية والأثرة حيث تذوب هذه اللبنة في البناء، ولا يعطي قيمة للذات المفردة كما صنعت الفلسفات الكافرة ، فلا قيمة لها إلا داخل هذا التشكيل البنائي الذي يوطد مفهوم الإسلام وروح الجماعة فيه»².

هذه العلاقة تسمو وتزداد قوة وتلاحما بينهم إلى درجة الاتحاد والتفاعل، وهذا ما جاء في حديث آخر عن النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»³. هذه الصفات التي أشار إليها عليه الصلاة والسلام، التواد، التراحم، التعاطف، صفات يحبها الله عز وجل في عباده المؤمنين قال تعالى، ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾⁴. والصورة تظهر التماسك والترابط والتآزر بين المؤمنين ومساعدة بعضهم بعضا في أمور الحياة، من دفاع عن الدين ، والحرقات والأرض، وحقيقة الإيمان تتضح أكثر في المواساة والتضحيات، فالألم واحد وليس من صفات المؤمن الأنانية والتفرد والتغلب على

¹ عبد الرحمان بودرع، الإيجاز وبلاغة الإشارة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، عام: 2009م، ص222.

² — أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، دار المكتبي، سوريا، ط2، عام: 2006م، ص: 427.

³ — صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1999، رقم الحديث: 2586.

⁴ — سورة المائدة، الآية: 2.

رقاب الآخرين،، هم جماعة ، ولكنهم كشخص واحد في تماسكهم،¹ ولذلك قال " مثل الجسد". هذه المعاني أخرجها البيان النبوي الشريف في أسلوب تمثيلي لتوضيح الصورة وتقريبها للأذهان، فالإيمان قوة تنظم وتتوحد فيها الغايات والأهداف بين المؤمنين، وهذا الاتحاد جعلهم متوادين ومتعاطفين ومتراحمين، فشبههم الرسول صلى الله عليه وسلم بالجسد الواحد فوحدتهم وحدة عضوية فإذا ما آلمت كارثة بواحد، أو مجموعة منهم تدعى الجمع بالمشاركة والمساعدة ، ولفظ " تداعى" يوحي بأن أعضاء الجسد قد هبت للنجدة يدعو بعضها ويناديها لإسعاف صاحبها،أو مواساته ، ثم يجعل تناديهما ليس صراخا ، وإنما هو الجواب العلمي المسعف والمساعد وهو السهر والحمى، وما يؤكد ذلك قوله: " إذا اشتكى منه عضو" في الألم، فيه تشخص الجسد ، فصار مهتما بالمساعدة ، وهذا من باب الترشيح وهكذا سعى البيان النبوي لتوضيح مسألة التكافل الاجتماعي بجماليات في العلاقات اللغوية ومفردات تؤدي الغرض المنشود على أروع ما يكون، وتصوير حسي يثير كوامن المشاعر بتجسيد للمجرد وحركته، فهناك ألفاظ من الحقل المعنوي للرحمة توالى على سبيل الإشباع " توادهم ، وتراحمهم، وتعاطفهم" وهي على وزن واحد لتؤدي نغما جميلا فضلا عن الإشارة بالوزن إلى التفاعل المتحرك ، والمشاركة الحيوية، إلى طلب همة واحدة في هذا المناحي الخيرة²

ومن الصفات الحسنة التي أشاد بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والتي وصف بها المؤمن ما ينتقل من طباع، فالجليس المؤمن الصالح تطمئن إليه النفوس، و ترتاح له القلوب، فهو رمز للدين والأدب والأخلاق الحميدة ،حيث أن من جالسه لا يعدم إحدى المنافع، فكلامه حكم ونصائح ووعظ، تجد النفس السوية الراحة والانشراح إليه ، وهذا ما جاء عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء ،كحامل المسك ونافخ الكبر،فحامل المسك إما أن يحذيك ، وإما أن تبتاع

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق،ص:296.

2 - مرجع نفسه،ص:296.

منه ، وإما أن تجد منه ريحا طيبة ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحا خبيثة
«¹،

وبالنظر إلى الحديث يتضح أن هناك رؤية يريد عليه الصلاة والسلام توضيحها للناس،
وهي الرغبة في مصاحبة الأخيار والعلماء الأشراف والسعي إلى مجالستهم ؛لأن الصالح الكريم
يعلمك ما ينفعك في دينك ودنياك ويدعوك إلى طاعة الله ورسوله بالإضافة إلى مكارم الأخلاق
ومحاسنها، سواء كان الأمر بقوله، أو عمله ، وهذا الصنف يجب الحرص على مداومة
الجلوس إليهم.

هذه الصفات الحميدة أخرجها عليه الصلاة والسلام في تصوير بديع من خلال الصورة
التمثيلية، تتجلى فيها البلاغة النبوية وروعة بيانه وإن "من البيان لسحرا"، صورة حية صادقة
للجليل، فالجليل الصالح هو الذي ترتاح إليه نفسك ويطمئن إليه فؤادك، وتتغش روحك
وتطرب لحديثه، وتتعم بمجالسته وتسعد بصحبته، إنه عدة في الرخاء وزينة في الشدة ويلسم
الفؤاد وراحة النفس².

فقد شبه الرسول عليه الصلاة والسلام الجليل الصالح بحامل المسك، الذي يدخل
عليه الإنسان فيشتري منه روائح منعشة زكية فيتأثر بأريجها ويعبيرها حتى المارة، فما بالك
بالجليل القريب منه. والصورة من التشبيه التمثيلي، وجه الشبه فيها منتزع من متعدد والغاية
منها إظهار تعدد الصفات التي يتصف بها المؤمن من خلال هذه الصور الحسية الماثلة أمام
العين. والنص كما هو واضح جاء في لوحة فنية ذات مشهدين:

المشهد الأول: يتكون من صورة شمعية تنتشر فيها رائحة المسك الطيبة، وثمة صداقة
حميمة تم التعبير عنها بالشراء ومجالسة سريعة، والتعبير عنها أيضا يشم من بعيد.

¹— صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص:2026، رقم الحديث:2628.

²— محمد علي الصابوني، من كنوز السنة،، مرجع سابق، ص:39.

أما المشهد الثاني: فهو يتكون من صورة «حرارة نتكئ في تشكيلها على المشاهدات الصناعية، وكأن الجليس الطالح ينفخ في أعماق جليسه فيشعل نيران الغضب والحقد والحسد والشهوة، وينفث في روعه كل المشاعر الحامية التي عبر عنها بالنار أو الجمر الذي ينفخ فيه الحداد، هذا يشير إلى عذاب الأخروي في نار جهنم»¹.

ومن الصفات التي أشار إليها الرسول صلى الله عليه وسلم صفة الصبر عند المؤمن، فهو كثير الآلام التي قد تصبه في بدنه، أو في أهله، أو في أبنائه، فذاك أمر الله فلا مرد له، وعلى المؤمن الصبر والرضا بما قدر الله له، وإذا كان الأمر مفرحاً فعليه بالشكر على ما أنعم الله عليه، وفي هذا المعنى ما جاء عن عبد الله بن كعب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كالخامة من الزرع، تقيئها الريح مرة، وتعديلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة، لا تزال حتى يكون انجعافها مرة واحدة»². وفي رواية ثانية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، من حيث أتها الريح كفاً فإذا اعتدلت تكفاً بالبلاء، والفاجر كالأرزة، صماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء»³.

والحديث بروايته من باب ضرب الأمثال لتوضيح المعاني وكشف الحقائق وتقريبها وترسيخها في العقول والأذهان.

والمثل لأول: ضربه عليه الصلاة والسلام للمؤمن، فهو مثل الخامة من الزرع تقيئها الريح تصارعها مرة وتعديلها أخرى، فإنه شبه المؤمن في تصريف الأيام به وما يناله من بلائها بالخامة من الزرع، تقلبها الريح مرة كذاو كذا .

¹ — أحمد يا سوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 539.

² — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2137، رقم الحديث: 5319.

— صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2138، رقم الحديث: 2320.

وأما الثاني: فقد ضربه للمنافق أو الكافر كمثّل شجرة الأرز الثابتة المنتصبة حتى يكون انقلاعها مرة واحدة، فالمصائب والبلاء تتباعدان عن المنافق أو الكافر، ليزداد إثماً فإذا قدرها الله عليه تحطم وانهار مرة واحدة¹.

والملاحظ في الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول الصفات، أنها مبنية على ثنائية الإيجاب والسلب، في الغالب بين المؤمن والكافر أو المنافق، ثم تمييز صفات المؤمن، والغاية من ذلك ترسيخ هذه الصفات الحميدة في النفوس والتأثير بها حتى تترجم في سلوك إيجابي.

وخلاصة القول: إن صفات المؤمن هي الخير بكل معانيه المختلفة، من حيث جئت فلا تجد منه إلا الخير، لأن قلبه مطمئن مرتاح مملوء بالإيمان بالله وبالرسول صلى الله عليه وسلم.

1— عبد البار طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 289.

المطلب الثالث: ظواهر فنية في تشكيل التمثيل النبوي

أولاً: اختيار الألفاظ.

لقد ورد في القرآن الكريم ما ينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التكلف وذلك في قوله عز وجل ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾¹ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ¹. فهو عليه الصلاة والسلام لا يريد من طلبه على تبليغ الرسالة أجراً، وليس من الذين يتصنعون ويتحيلون حتى ينتحل النبوة ويتقول القرآن، وما هذا القرآن إلا عطية وذكرى للإنس والجن والعقلاء. والمعروف عند النقاد أن المتكلف في كل أمر يحبط تأثيره، ويلقى على صاحبه ظلاً من الكراهة والاستئثار: «وأظهر ما يكون التكلف في قول يقال؛ لأن السامع لا يفتح صدره لمن يلمس فيه هذا الخلق الثقيل ومهما كان قوله صائباً صحيحاً، فإن مسحة التكلف تلقي عليه ظلالاً بغیضة تجعله أشبه بالقول المخطئ وما هو به، لأن الروح التي يصدر عنها لا تظهر صافية مطبوعة، بل تعاني من آثار التكلف والتصنع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة»².

قد يقول البعض إن كثيراً من الأحاديث روت بالمعنى لا باللفظ، حيث تعددت روايات الحديث الواحد بتعدد الرواة، واشتملت على ألفاظ غير ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم وإعراب غير إعرابه، وتصرف في اللفظ غير تصرفه، وأنت على صور متعددة بتعدد ألفاظ الرواة، إلى جانب كثرة الرواة الأعاجم الذين دخلوا في دين الله أفواجا، وروى كل راوٍ ما حفظ بلفظه هو، مع ما في ألفاظهم من لحن وعدم فصاحة، ولذلك فلا داعي لدراسة الحديث من الناحية اللغوية والبيانية والبلاغية، لأن ضبط اللفظ أمر بعيد لاسيما في الأحاديث الطوال³.

¹ -سورة ص، الآيات: 86-88.

² - محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، الدار المصرية اللبنانية، ط1، عام 2008م، ص: 255.

³ -انظر: عبد الرحمن بودرع، الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي، مرجع سابق، ص: 15-16.

ونعتقد أن مثل هذا القول بعيد عن جادة الصواب؛ لأن الحكم على الحديث بأنه رُوِيَ بالمعنى لا باللفظ، إنما قد يكون الأمر في بعض الأحاديث دون بعض، وقد يجري على الأحاديث الطوال دون الأحاديث القصار التي يسهل حفظها وتدوينها وتداولها بلفظها ومعناها، ومثل هذه الأحاديث يمكن دراستها لغة وبلاغة.

ثم « إن جواز الرواية بالمعنى ليس فيه حديث صحيح، وكل ما رُوِيَ من ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم مما تداولته بعض مصنفات علوم الحديث فهو واهٍ لا يحتج به ولا يجوز الاعتماد عليه، وما طرحه المتقدمون والمتأخرون في الموضوع هو احتمال عقلي، أو اجتهد شخصي، فلا يجوز تعميمه واعتداده حجة في تبديل ألفاظ النبوة الكريمة »¹.

وإذا كان رأي المحدثين في جواز الاحتجاج بالحديث في مسائل النحو والصرف لم يكن مطلقاً، إنما كان وفق شروط ذكر معظمها المتأخرون كالشاطبي والبدر الدماميني، وابن الطيب المغربي، وقد رتبها الشيخ محمد الخضر حسين وصنفها وزاد عليها، وأقر معظمها مجمع اللغة العربية بالقاهرة وبذلك فإنه « يصح الاحتجاج بالحديث وفق الشروط التي وضعوها، وبما ورد في الكتب المدونة في الصدر الأول مما جاء في كتب الأدب والبلاغة وغيرها محتجاً بلفظها لغرض أدبي أو بلاغي، مستخلصين منها القواعد، كما فعل السهيلي الذي استقرأ الحديث، واستخلص منه القواعد والأساليب الجديدة »².

ولقد كان الحرص الشديد على أداء الحديث بألفاظه وحروفه، أن صرّف كتاب الحديث همهم إلى ضبطه وتحقيقه شكلاً ونقطةً، ما يبعث الاطمئنان على سلامة لغته من كل تحريف، أو زيادة، أو نقص، أو إبدال للفظ بآخر « فقد كان الصحابة رضي الله عنهم إذا وقع لأحدهم مسألة في صيغة اللفظ وإن كان لا يخل بالمعنى، أبدى ذلك فقال: "إخاله كذا" أو "أظن كذا" وما ذاك إلا لسببين:

¹ - المرجع نفسه، ص: 17.

² - خديجة الحديثي، موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام،

العراق، ط1، عام: 1981م، ص: 427

أحدهما: الصدق في حقيقة النقل، والثاني: المحافظة على بركة ذلك اللفظ الخاص، لئلا تفوتهم بركته فكانت ألفاظه صلى الله عليه وسلم كلها عندهم بركات ومما يستلزم الإتيان¹.

ولذلك فإن دراسة ألفاظ الحديث النبوي الشريف يتيح لنا التعرف أكثر على السنة النبوية من أعظم الجوانب وأجملها، الجانب البلاغي، قيل: «رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة، وجناحها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهارها تخير الألفاظ، ومدار البلاغة على تحسين اللفظ. وهذا دليل أن الخطب الرائعة والأشعار الرقيقة ما عملت لإفهام المعاني فقط، لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته ورونق ألفاظه وجودة مطالعه وحسن مقاطعه وبديع معانيه وغريب مبانيه على فضل قائله وفهم منشئه»².

ونخال أن الحديث النبوي الشريف يقوم على هذه المميزات؛ لأن اللفظ في الحديث وسيلة، وغاية، فهو وسيلة، لأن الهدف منه إيصال المعاني إلى المتلقي واضحة سهلة المأخذ قريبة التداول حتى إذا أتى السامع حديثه عليه الصلاة والسلام ظل لسلامته ويسره أنه مما تسهل محاكاته.

ثم إن اللفظ في الحديث النبوي غاية فذلك من خلال المنظور الأدبي، لأن اللفظ يحمل شحنة من العواطف المؤثرة، فيكون حينئذ مقصودا لذاته يختاره صاحبه بعناية ودقة.

وألفاظ الأحاديث النبوية تحقق المقصدين معا: التوصيل الفكري بسهولة ويسر، إلى جانب التأثير الفني في المتلقي.

ولذلك يمكن لنا القول أن اللفظ النبوي الشريف ورد سهلا مأنوسا متألفا مترابطا بعيدا كل البعد عن التكلف والتعقيد، وذلك راجع إلى شمائله عليه الصلاة والسلام، فقد كان يكره

¹ - عبد الرحمان بودرع، الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي، مرجع سابق، ص: 19.

² - خديجة الحديثي، موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، مرجع سابق، ص: 427.

الإغراب، ويكره التكلف وفضول القول، ولذلك قلما خفي معنى من معانيه، أو احتاج باحث الرجوع إلى قواميس ومعاجم اللغة، خاصة إذا كان ذا معرفة باللغة.

وحتى تتضح الرؤية أكثر لابد من الوقوف عند بعض الأحاديث الشريفة التي تبرز قدرته عليه الصلاة والسلام في اختيار اللفظ بدقة وعناية ، مما يجعل بناء الخطاب النبوي الشريف من خلال الصورة التمثيلية في نظمه ومفرداته متلائماً مع حال المتلقي، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « رأيتُم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول: ذلك يبقي من درنه قالوا: لا يُبقي من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا »¹.

الحديث في غايته بيان فضل الصلوات الخمس، وأثرها في سلوك الإنسان، إلى جانب إظهار مكانتها في ميزان أعمال الإنسان، لأن الصلاة تكفر الخطايا وتمحي الذنوب، وإذا كانت تكفر الخطايا، فإنها في ذات الوقت تبعد النفس عن المآثم والمعاصي و ارتكاب الآثام.

هذه المعاني وغيرها عبر عنها الحديث من خلال الصورة الحسية التي عرضها على المتلقي في صورة الاغتسال خمس مرات في كل يوم، مظهراً أثر ذلك في النظافة التي تصاحب المغتسل².

وفي ذلك إظهار وتأكيد على أفضلية الصلاة والمواظبة عليها، حيث أبان التشبيه التمثيلي هذه الأفضلية من خلال تشبيه المؤمن الذي يعد نفسه للصلاة فيصلّيها، ثم يعد نفسه للصلاة الثانية فيصلّيها، وهكذا حتى يتم فرضه اليومي، شبه ذلك بحال المؤمن الذي يمر ببابه نهر، فهو يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، فكما أن تكرار الوضوء للصلاة يمحو الذنوب والخطايا، فإن تكرار الاغتسال لا يبقي من الدرن شيئاً، وحينئذ يدرك المؤمن

¹-صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 197، رقم الحديث: 505.

²- انظر: نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 154-155.

المواظب على الصلوات الخمس أنه يغتسل في كل صلاة من الذنوب، « فيكون التصوير الذي قدمه الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا النهر موقفا لجريان الماء الموجب للتطهير والابتهاج والحيوية والتجديد المزيل لكل الشوائب من الجسم، كما تزيل الصلوات كل الشوائب العالقة بالنفس، وصورة الممثل به سابقة في التعبير الكريم لتثير انتباه السامعين وتحرك شوقهم لاسيما وقد اقترنت بذلك الاستفهام التقريري »¹.

هذا الحديث من براعة التركيب والإيحاءات مما يزيد التشبيه قوة، ولذلك لابد من الإشارة إلى بلاغة التوظيف اللفظي للنهر، وقد ورد هذا اللفظ نكرة مما يوحي بالركة والصفاء والعذوبة، وبالنظر إلى ما توحى به الباء بين النهر والباب من الالتصاق حتى كأن الدار تجري من تحتها الأنهار، وما يخيّل لنا الفعل المضارع " يغتسل " من استحضار الصورة، مع التجدد والحدوث طرفي النهار وزلفا من الليل يدل عليها العدد المحصور في اليوم »².

ولفظ " كل يوم " فيه من الدلالة على اتصال النعيم ودوامه ، وتكرار الصلوات يمحو الخطايا كما أن تكرار الاغتسال لا يبقى من الدرن شيئا، ولفظ "الخطايا" جمع لا مفرد جاء بصيغة منتهى الجموع ليدل على مقدار فاعلية الصلوات الخمس، فهي تمحو الآثام والخطايا التي تغمر المسلم ، ثم انظر إلى هذا التركيب " يبقى ذلك من درنه شيئا "، وسر الإشارة بهذا اللفظ الدال على التعظيم لما فيه من لام البعد وكاف الخطاب، وداعي تقديم البيان وهو الجار والمجرور على المبين تعجيلا بالمهم، ثم تتكبر المبين وهو " شيئا " لإفادة التعليل فمعناه: شيئا أي شيء مهما كان قليلا »³. وإذا كان من الطبيعي أن يختار عليه الصلاة والسلام لكل غرض وحكم ما يناسبه من الأساليب الفنية، فإنه من الطبيعي أن يختار أيضا الألفاظ المناسبة حسب طبيعة المقام

¹ - زينب داودي، التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي الشريف، أطروحة دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحاج

لخضر باتنة، السنة: 2010م-2011م، ص: 92

² - انظر: كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 156-157.

³ - كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 156.

لأن التعبير عند رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخرج عن مقتضى المضمون؛ لأن ذلك من مهمة النبي الذي لا يعرف اللغو ولا الفضول، ولا يهدف بالتعبير اللغوي سوى السداد والوضوح، من خلال الألفاظ القوية، وهذا ليس بالأمر الغريب لأنه عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم، وما يعنينا في هذا الموقف سوى الوقوف على الظواهر الفنية، خاصة الألفاظ والتراكيب وتناسقها في الصورة التمثيلية المنتزعة من الواقع القريب، وذلك بغية أن تكون قريبة إلى الأذهان.

ومن الأحاديث التي تظهر العلاقة بين المؤمنين بعضهم ببعض ما تظهره الصورة التمثيلية في بيان حال المؤمنين، من تعاون وتراحم وتعاطف وربط وشائجهم بعضهم ببعض، ذلك كله قوامه الصدق والإيمان مما يدفع إلى التآزر والشفقة والرحمة، هذه الصفات تجري في دمائهم وقلوبهم، وهي صفات غرسها الإيمان الحقيقي في نفوسهم، ومن ذلك ما جاء عن النعمان بن بشير، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»¹، وفي رواية ثانية « المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»²، وفي رواية ثالثة قال عليه الصلاة والسلام: « المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه، اشتكى كله»³. والحديث في رواياته المختلفة دعوة إلى التواد والتراحم والتعاطف بين المؤمنين، ودلالة الألفاظ « التراحم، والتواد، والتعاطف كلها من باب التفاعل الذي يستدعي اشتراك الجماعة في أصل الفعل، وهي وإن تقاربت في المعنى بينها فرق لطيف، فالتراحم رحمة بعضهم بعضا بأخوة الإيمان، لا بسبب

¹-صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1999، رقم الحديث: 2586.

²- المصدر نفسه، ج4، ص: 2000، رقم الحديث : 2586 مكرر.

³- المصدر نفسه ، ج4، ص: 2000، رقم الحديث : 2586 مكرر.

آخر، والتواد والتواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي والتعاطف، وإعانة بعضهم بعضاً، كما يعطف الثوب على الثوب تقوية له»¹.

والوحدة بينهم وحدة حقيقية تغوص في الأعماق والمشاعر وتبدو على الوجوه والألسنة الوحدة بينهم وحدة عضوية، إذا ألمت كارثة بواحد منهم، أو مجموعة منهم تداعى لذلك سائرهم بالمشاركة في الألم والرعاية، قال أبو الحسن الرامهرمزي: « قال أبو محمد: التواد والتراحم والتواصل مصادر، من قولك: تحاب الرجلان وتوادا وتواصلًا وتراحماً... ويقع فعل المحبة والمودة والوصلة والرحمة من أحدهما مثل ما يقع من الآخر، وشبه المؤمنين في هذه الخصال، وإن تغايرت أجسامهم وتباينت بالجسد الواحد الذي يألم جميعه، بما ألم بعضه، فكَذلك المؤمنون متكافئون في السراء والضراء ومشترون في الشدة والرخاء»².

والحديث يصور حقيقة الإيمان في قلوب المؤمنين الذين يجمعهم ويشد بعضهم ببعض في السراء والضراء ببناء الجسد الواحد الذي يمسك بعضه بعضاً، وقرر بالتمثيل أن كل فرد من أفراد المجتمع المؤمن كالعضو من أعضاء الجسد إذا أصيب العضو الواحد منه بالألم سرى الألم في باقي الأعضاء بحكم الرابط الذي بينهم.

وبالنظر إلى الألفاظ نجد ما يدل على تماسك بين المشبه والمشبه به، بصيغة المفرد الذي لا يتحلل إلى أفراد فيحتفظ بصفات الجسدية، ثم وُصفَ بصفة الواحد إثباتاً للوحدة والتماسك وتأكيداً لها «ثم تجانس فعلا الشرط والجزاء في المضي، للدلالة على سرعة الاستجابة عند وجود الداعي ثم اختيار لفظ " تداعى " للدلالة على أن الأعضاء يدعو بعضها بعضاً إلى الاستجابة والإنقاذ من الهلاك، وكأن خطر الهلاك محقق بكل الأعضاء، لا بالعضو المصاب فقط»³.

¹ - محمد عبد العزيز الخولي، الأدب النبوي المكتبة التجارية الكبرى، بيروت، ط4، عام: 1955، ص: 122.

² - أبو الحسن بن عبد الرحمن بن خلال الرامهرمزي، أمثال الحديث، تحقيق: أحمد عبد الفتاح تمام، مؤسسة الكتب الثقافية،

بيروت، ط1، عام: 1409هـ، ج1، ص: 62.

³ - عبد الرحمان بودرع، الإيجاز وبلاغة الإشارة في البيان النبوي، مرجع سابق، ص: 158.

ولفظ " تداعى " دال على ساقط أو كاد، وقيل: دعا بعض الأعضاء بعضا للمشاركة في الألم ،أو أن الأعضاء تدعو إلى الاستجابة والإنقاذ من الهلاك، وتظهر هذه المشاركة من خلال لفظ " السهر " الدال على قلة النوم وعلى مشاركة كل الأعضاء مع بعضها البعض، فالوحدة بينهم حقيقية قائمة على الصدق والإيمان.

والملاحظ أن الحديث برواياته المختلفة من باب ضرب الأمثال وذلك من أجل توضيح المعاني وتقريبها للأفهام، ففي الرواية الأولى يمثل الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين بالجسد الواحد، حيث أن جميع الأعضاء وإن لم تكن متساوية في الأهمية، إلا أنها عند حدوث الضرر تصبح جميعها جسدا واحدا :« فليس هناك عضو في المجتمع الإسلامي مهما كان شأنه هينا لا تتأثر الأمة من أجل ضرر أصابه، إنهم لابد أن يتألموا لأنهم جسد واحد »¹.

إن اللغة الصادقة والجميلة، لها من المقدرة على التأثير مؤقتًا، لكن أن يبقى هذا التأثير مؤثرا إلى مدى طويل، فهذا الأمر عمل كبير مما يعطي للعمل الأدبي سمة الخلود.

وإذا كانت هذه اللغة الصادقة لها من التأثير قرونا عديدة، فذلك هو الأمر الجلل العظيم، الذي قد لا يتحقق لكل الأدباء، وهذه الظاهرة الفنية نلمسها في الأدب النبوي، فإنه لم يزل النبع الفياض بعد القرآن الكريم، ولم يزل هو الأدب الذي لا يموت وسيظل كذلك.²

ولذلك يمكن لنا القول أن الألفاظ المتميزة الدقيقة والمختارة هي التي تعطي الحياة الأبدية للعمل الأدبي، ألفاظه عليه الصلاة والسلام تتسم بالسهولة والقوة الممتعة الخالية من التعقيد، بريئة من المبالغة، متوازية تؤدي المعنى بدقة وبكل حرف فيها، إلى جانب الظلال المعنوية.

¹ - محمد الصباغ، التصور الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 449.

² - محمد بن سعد الدبل، الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، عام: 1997، ص: 121.

ومن الجميل أيضا أنه عليه الصلاة والسلام وضع من المفردات والتركيب والصور ما لم نعرفه في كلام العرب قبله، مما جعل البعض يطلق عليها الاختراع في الكنايات النبوية مثل قوله عليه الصلاة والسلام: "حمي الوطيس"، و "رفعت الأقاليم"، و"الجنة تحت ظلال السيوف"، وغير من الكنايات الدالة على معان دقيقة¹.

لغة الرسول صلى الله عليه وسلم صاغها في قالب متوازية موجزة سهلة ممتعة، لا ينقصها شيء من الوضوح والفصاحة، ليس فيها مفرد غامض أو حوشي، ولا تركيب مستعص على الفهم، أو متنافر البنيان ولكنه تعبير استند فيه الرسول الكريم إلى كل العوامل التي هيأها الله له ليكون النبي الذي اختصه ربه بالإعجاز البياني².

ثانيا: الإيجاز وجوامع الكلم.

من المظاهر الفنية في الحديث النبوي الشريف، ومن بديع نظمهِ وجمال أسلوبهِ، التعبير عن المعاني الكثيرة بقليل من اللفظ، حتى قيل: ما البلاغة؟ قيل: الإيجاز، وقيل ما الإيجاز؟ قيل: حذف الفضول وتقريب البعيد، وهذا ما يعرف بالإيجاز، وهو عائد إلى البيئة العربية الأصيلة التي نشأ فيها عليه الصلاة والسلام، ووسط هذه البيئة العربية الخالصة نشأ نشأة في ربوع الفصاحة، وميادين البلاغة، بقوة فطرته وصفاء النفس ونفاذ البصيرة فضلا عن الموهبة الربانية، والمنحة الإلهية، التي خصه بها جل جلاله دون العالمين، فتتمثل في جوامع الكلم، هذه المنحة التي أعطاها له تبارك وتعالى لغرض توصيل الأمانة وتبليغ الرسالة إلى الناس بأوجز لفظ وكثرة عدد معانيه، وذلك حسب المقام خاصة، وأنه عليه الصلاة والسلام كان يكره أن يجاوز الكلام مقدار القصد به .

¹-انظر:مصعب حمود، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية المجلد 26، العدد الأول عام: 2010، ص: 702

²-انظر: محمد بن سعد الدبل، الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مرجع سابق، ص:123

والإيجاز لغة: « التّقصير»¹، واصطلاحاً: « الكلام الذي قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه وجلّ عن الصنعة ونزه عن التكلف »²، وقيل أيضاً « فإنه عرض المعاني الكثيرة في ألفاظ قليلة مع الإبانة والإفصاح، ليسهل تعلقها بالذهن، وتذكرها عند الحاجة إليها في المناسبات المختلفة»³. وقد قسمه البلاغيون إلى قسمين هما: إيجازاً لقصر، وإيجازاً الحذف.

والإيجاز في اللغة العربية « أصل وروح وطبع، لأنها لغة أمة صافية الذهن، دقيقة الحس، سريعة الفهم تشعر بقوة، وتفهم بقوة، والبلاغة الإيجاز، والإيجاز امتلاء في اللفظ وقوة الحبكة، وشدة في الماسك »⁴.

والإيجاز من أبرز خصائص البيان النبوي الشريف حيث أوتي عليه الصلاة والسلام الكلم الجوامع للمعاني، فبلغ في ذلك الكمال الإنساني، إذ قل حروفه وكثر معناه، فلم يعرف في هذه اللغة لغيره صلى الله عليه وسلم من اجتماع الكلم وقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإبانته وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف، فكان عليه السلام في ذلك متفرداً دون الفصحاء والبلغاء من العرب، ومن الإيجاز ما ورد في حديث عن جابر رضي الله عنه: جاء أعرابي النبي صلى الله عليه وسلم فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموماً، أقلني، أقلني، فأبى ثلاث مرار، فقال: «المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها»⁵. فالرسول صلى الله عليه وسلم نفذ إلى أعماق الكلمات وقلوبها واختار أقدرها ليس على التعبير عن المعنى فقط وإنما الغوص فيها، وفي أخفى جوانبها، وأدق خصائصها، حيث أن الحديث جاء مبنيًا على جملتين متقابلتين " نفي الخبث، ونصع الطيب " والواضح من الحديث أن المدينة تدفع الأشرار وتبعدهم وتخرجهم منها، والجانب الآخر هو أنها تجذب إليها الأخيار وتظهرهم وتبرزهم حيث تشرق شخصيتهم وتنقيها، والملاحظ أن إحدى الجملتين راجعة إلى المشبه به والأخرى للمشبه، حيث أن المشبه أدخل في المشبه به إلى درجة الإتحاد بين الطرفين، وهذا

1 - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج: 15، ص: 221.

2 - الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج: 2، ص: 17.

3 - عبد العزيز عبد المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، بيروت، ط2، عام: 1984م، ص: 219.

4 - بدوي طبانة، البيان العبي، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط4، عام: 1968م، ص: 407.

5- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج: 2، ص: 666، رقم الحديث: 1784.

ضرب من ضروب التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي الشريف ، وقد شبه خيار الناس بالطيب حيث ينتشر أريجهم في كل الأمكنة، وبالنظر أيضا إلى قوله: "إنما المدينة " التي بينت أن هذا الأمر قد عرفه عامة الناس وعرفوا قداستها وطيبها وطهرها.

وما جوامع الكلم التي هي خصوصية ، خص الله بها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم دون سواه من الخلق، هي الكلام الذي قل عدد حروفه، وكثرت معانيه وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف، والإيجاز أبرز سمات الأسلوب النبوي الشريف « والذي يدل على أن الله عز وجل قد خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني قوله صلى الله عليه وسلم " نصرت بالصبا وأعطيت جوامع الكلم " ¹. ومن الأحاديث التي قل عدد حروفها وكثرت معانيها ماجاء عن النعمان بن بشير قال :سمعت رسول الله يقول: « إن الحلال بين وإن الحرام بين ، وبينهما متشابهاً لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب» ². مطلع الحديث يظهر أن الحلال بين لا شبهة فيه، وأن الحرام بين لا شبهة فيه، غير أن بين الحلال والحرام ما يشتبه على الناس أمره، ولا يتبين أمن الحلال هو، أم من الحرام إلا لذوي العلم؟.

والحديث ورد في صورة بيانية على سبيل التمثيل، شبه فيها الواقع في الشبهات المقترب من الحرام، بمن يرعى حول حمى محرم، والله سبحانه حمى، وحماه المحرمات والحدود، وكل من رعى قرب الحمى فإنه جدير بأن يدخله ويرتفع فيه، مهما تكن ذريعتاه التي يتذرع بها، لأن غنمه توشك بين الفينة والأخرى أن تقتحم الحمى المجاور وترتفع فيه وهو الحمى المحرم، وهو تشبيه يمثل فيه عليه الصلاة والسلام لمعنى الوقوع في الشبهة، بمثل

¹ - الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص:28.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص:1220، رقم الحديث:1599.

حدود المرعى، وذلك من أجل تقريب المعنى إلى الأذهان وجعله ماثلاً لكل من يهم بفعل أمر لا يعلم حكم الله فيه، وهذا يعني ترك الإنسان ما يريبه إلى ما لا يريبه.

وتشبيه المعنى المذكور بالمثل المذكور بيان موضح يختصر على المتكلم الحاجة إلى الشرح والتفصيل» ويهجم بصورة المعنى على ذهن المخاطب دفعة واحدة، فهو من الإيجاز المحمود ومن جوامع الكلم، من جهة بلاغة التشبيه والإيجاز لما يحتمله من الأحكام والمعاني. وهو من جوامع الكلم، لما تحتمله من الأحكام والمعاني التي تدخل تحت مفهوم الشبهة¹. ولذلك فإن هذا الحديث من شواهد الإيجاز وجوامع الكلم معاً، والصورة التشبيهية من باب التشبيه المحسوس بالمحسوس.

هذه الأحاديث التي تقوم على التشبيه التمثيلي، والمعروف أن التشبيه لا يؤتى به لإقامة علاقة بين المشبه والمشبه به، بل يؤتى به للإيضاح وللبيان مع الإيجاز والاختصار².

ثالثاً: أثر الطبيعة الحية في تشكيل الصورة التمثيلية.

استمد الحديث النبوي الشريف عناصر تشكيلية من مظاهر الطبيعة لأنها تمثل ميداناً خصباً وثرى، لما تتميز به من الحيوية والتجدد الدائمين، فكان لها أثرها النفسي على المتلقي.

لذلك فإن الحديث النبوي الشريف يحفل بتصوير مشاهد الطبيعة واتخاذها وسيلة للمعرفة الدينية، إلى جانب التأثير في النفس التي تهتز بطبيعتها لهذه المشاهد المحسوسة وتتفاعل معها، مما يشبع حاسة الجمال الفني في الإنسان.

وقد اتكأ الحديث النبوي في تمثيلاته على عناصر الطبيعة المختلفة من حيوان ونبات وجماد، وما تتسم به الطبيعة في تنوعها وتجدها، وإن كانت أكثر العناصر وروداً ما

¹ - عبد الرحمان بودراع، الإيجاز وبلاغة الإشارة، مرجع سابق، ص: 152.

² - انظر: أبو منصور الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، تحقيق، محمد إبراهيم سليم، مكتبة القرآن، القاهرة، ط1، عام: 1999م، ص: 21.

اتصل بالطبيعة الحية لأنها تشارك الإنسان في سريان حركة الحياة فيه وقد سخرها الله تعالى له ليقوم بها.

ومن زاوية ثانية، فإن أغلب هذه العناصر قد وردت في القرآن الكريم حيث يحتل تصوير الطبيعة مكانة هامة في الصورة التمثيلية في القرآن؛ لأن هذه الصورة مرتبطة بعالم المحسوسات، أو عالم الشهادة بتعبير القرآن، وهو مجال المعرفة الإنسانية، لأن الحواس تقوم بالنقاط الصور المنفردة من مشاهد الطبيعة، وتضعها لدى العقل الإنساني الذي يفسرها وينظمها ويعطي حكمًا عليها.

ولقد رأينا التركيز على الطبيعة الحية من عناصر النبات، وعناصر الحيوان، والإشارة أيضا إلى بعض عناصر الطبيعة الجامدة على وجه الاستدلال.

1- الطبيعة النباتية.

من خلال الاستقراء والبحث، رأينا كيف وظف عليه الصلاة والسلام في تمثيلاته عناصر مختلفة من النبات بشتى أنواعها، وذلك حسب المقام الذي يستدعي عنصرا دون غيره، لأنه طريق من طرق إثراء المعنى وإيضاحه، لذلك تنوعت هذه العناصر حسب الغرض منها في الصورة، فقد يكون المقام يتطلب توظيف مثلا الزرع، والريحان، وقد يكون الموقف يقتضي مثلا عنصرا معينا مثل الحنظلة، وربما الأشجار، كالنخل، والأترج وغير ذلك من العناصر النباتية التي توضح المعاني، تلك المعاني الجليلة التي تبين حقيقة الأشياء.

والصورة تضيف على مشاهد الطبيعة النباتية حياة حركة تبدو شاخصة مؤثرة في حس الإنسان ووجدانه، فيشعر بالتفاعل معها، لأنه لا يجد فيها مجرد مشاهد، بل يجدها شخوصا متحركة، مما يساعد على التوافق والانسجام بين الطبيعة والإنسان.

من النماذج التي نود الوقوف عندها، ما يفيد الطراوة والنمو السريع والخضرة مع الصفرة، ومن ذلك ما جاء في الحبة، أو ما جاء في البذور ومن ذلك ما جاء عن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان،

فيخرجون منها قد اسودُّوا فيلقون في نهر الحيا، أو الحياة - شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوية »¹.

وفي رواية مسلم: « فيخرجون من النار وقد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السيل »².

وفي رواية ثانية لمسلم عن أبي سعيد: « ..ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخْيَضِرُ، وما يكون منها إلى الظلّ يكون أبيض.. »³.

وفي هذه الروايات تصوير في غاية الروعة والحسن والدقة والجمال، حيث جمع بين الأمور المتباعدة، حبة تنمو في حميل السيل وتكبر، مشهد طبيعي محسوس، تم ربطه بمشهد غيبي سيحدث في الآخرة ، صورة جميلة تتناول كل ما يوحيه نبات البذور في حميل السيل من ضعف وتغير لون، هذا الوصف بلغ الروعة في نفوس الصحابة حتى قال أحدهم: " كأنك كنت ترعى بالبادية "

والمشبه في هذه الصورة، إنبات أجساد من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان بعد أن أسودت أجسامهم من شدة تأثير نار جهنم، ثم يلقون في نهر الحياة، فتخرج أجساد هؤلاء حسنة نظرة.

¹- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 16، رقم الحديث: 22.

²- صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 1، ص: 165، رقم الحديث: 182.

³- المصدر نفسه، ج 1، ص: 170، رقم الحديث: 183.

وما نعتقد أن الحبة تحمل أصل الحياة، وأساس إنبات النبات والبقول والخضروات كذلك الإيمان الذي كمقدار الحبة أساس وأصل الحياة والنجاة من النار، والنمو كما هو واضح يبدأ بالضعف، ثم ينمو حتى ينتهي بالنضرة الحسنة والحيوية « والمعنى من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان يخرج من ذلك الماء نضراً حسناً منبسطة متبخترًا كخروج هذه الريحانة من جانب السيل صفراء متمائلة »¹.

والصورة كما هو واضح تجمع بين المتباعدين وهما "أجساد محترفة تصير نبات أصفر ملتو"، وفي رواية أخرى "حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشناعة" ثم تثبت تلك الأجساد كنبات طري حسن المنظر متمایل كالريحانة، إنها رحمة الله التي وسعت كل شيء وأبت أن يخلد في النار "من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"².

والصورة من التشبيه التمثيلي، حيث امتزجت الصورة وجزئياتها فشكلت صورة متكاملة تمثل هيئة خاصة، بين الضعف مع الطراوة وحسن المنظر إلى جانب سرعة الإنبات، كما أنه عند خروجه من الأرض يتصف بالتمايل والتبختر، وربما يكون سرعة نباته سبباً في كونه ضعيفاً، إلى جانب أنه أصفر ملتوي، ثم بعد ذلك تشتد قوته.

ومن باب ضرب الأمثال التي تعتمد في عناصر تشكيلها و بلاغة صورتها على الطبيعة من خلال تشبه الهيئات والأحوال الحاصلة بين الممثل به، والممثل له، للحصول على صورة مجسمة تتطوي على دقائق وتفاصيل أخرى تزيد المماثلة قوة وتأكيذاً. وفي هذا المقام ما جاء في ذكر تلاوة القرآن الكريم من علاقة بين المؤمن الذي يقرأ القرآن وما يتصف به ،حين شبه بالأترجة، وهي نوع من الفاكهة يكاد يكون نادراً، لأنه يجمع بين طيب الرائحة، وطيب الطعم، وكثرة المنافع، ومن ذلك ما جاء عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة طعمها طيب وريحها طيب، والذي لا يقرأ

¹ - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج1، ص: 170.

² - زينب داودي التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 366.

القرآن كالتمرة، طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الفاجر الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة، ريحها طيب وطعمها مر، ومثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة، طعمها مر، ولا ريح لها»¹.

ويزداد الجمال جمالا والعطر أريجاً، حين يشبه قارئ القرآن الكريم، بالأترجة، وهذا ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: "مثل الذي يقرأ القرآن" ضرب من التشبيه التمثيلي وهو تشبيه اشتمل على معنى معقول صرف ، ولا يمكن إظهار هذا إلا بتصويره بالمحسوس ظاهراً، لأن العباد متفاوتون في ذلك حيث نجد من له النصيب الأكبر من ذلك التأثير، وهو المؤمن القارئ ومنهم ومن لا نصيب في ذلك وهو المنافق الحقيقي وقد يكون منهم من تأثر ظاهره دون باطنه، وهو المرئي أو بالعكس وهو المؤمن الذي لم يقرأه « وإبراز هذه المعاني وتصويرها في المحسوس ما هو مذكور في الحديث، ولم يجد ما يوافقها ويلائمها أقرب ولا أحسن ولا أجمع من ذلك ، لأن المشبهات والمشبّه بها واردة على التقسيم الحاضر، لأن الناس إما مؤمن ،أو غير مؤمن، والثاني :إما منافق صرف، أو ملحق به، والأول إما مواظب عليها، فعلى هذا قس الأثمار المشبه بها، ووجه الشبه في المذكورات مركب منتزع من أمرين محسوسين: طعم وريح»².

والملاحظ أنه عليه الصلاة والسلام قد ضرب المثل بما تنبته الأرض وما يخرجها الشجر للمشابهة التي بينها وبين الأعمال، فإنها من ثمرات النفوس فخص ما يخرجها الشجر من كالأترجة، والتمر بالمؤمن، وبما تنبته الأرض من الحنظلة والريحانة بالمنافق تنبيهاً على علو شأن المؤمن وارتفاع عمله ودوام ذلك، وتوقيفاً على ضعة شأن المنافق وإحباط عمله وقلة جدواه³.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 1917، رقم الحديث: 4732.

² - أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: علي محمد البجاوي، مكتبة التراث، ص: 23.

³ - انظر: عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق: 109.

وبالنظر إلى المشبه به فإننا نلاحظ أن الحواس تشترك في الاستفادة من الأترجة فالعين تسر برؤيتها، لأن الأترجة جميلة، والذوق يستلذ مطعمها، والأنف يستطيب رائحتها وكذلك المؤمن إذا نظرت إليه سرى، وإن جالسته نفعت، وإن استمعت إلى حديثه وتلاوته وجدت خيراً كثيراً.

ولا أعتقد أن هناك ما يمكن أن يفصح عن هذه المعاني المختلفة من التمثيل بالأترجة هذا النبات الذي اتسم بهذه الصفات، التي قد لا نجد لها في غيره، لذلك كان التصوير بهذا النبات أفصح عن المعاني وأكثر إيحاءً بها.

وحتى عند توظيف الفعل المضارع في قوله: "يقرأ" و"لا يقرأ" في ذلك دلالة على الاستمرار والدوام على القراءة، وأن القراءة ليس المراد حصولها مرة واحدة ثم تركها كلية، وإنما الاستمرار والدوام، فتجدد القراءة هو الذي يجعل من المؤمن يستحق الاتصاف بهذه الصفات التي جاء بها التمثيل بمظاهر الطبيعة.

وفي ذات الحديث نجد تشبيه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن بالتمرة، وللتمرة منافع كثيرة وجليلة فهي حلوة المذاق طيبة الطعم، ولكن ليس لها ريحاً حسناً وهذا يشابه المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، ويغفل عنه فيهجره ولا يتلوه ويعمل به ولا يحسن صوته به، فهذا المؤمن نقي لكنه لا يظهر إيمانه فشبه المؤمن بالأترجة والتمرة، نعتقد أن في ذلك إشارة إلى علو شأن المؤمن وحسن ظاهره وباطنه، وأن سلوكه وأعماله كلها صادرة من نفس مؤمنة مصبوغة بيقينه المشرق «وينبغي أن يعلم أن الطعم والريح هما أظهر ما يشتهي من المطعوم، وقد جعل عليه السلام الإيمان من المرء بمنزلة الريح الطيب، وجعل قراءة القرآن بمنزلة الريح الطيب وجوداً وعدماً، كما جعل الفجور مقابلاً للإيمان، لا يكون للمرء كمال فيما هو به إلا بالإيمان وقراءة القرآن، كما لا يكون للمطعوم كمال إلا بطعمه الطيب وريحه الطيب».¹

¹ - كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 428.

وإلى جانب الحديث عن التمر ذكر عليه الصلاة والسلام الريحانة وهي نوع من الشجر له رائحة زكية عطرة، إلى جانب اللون الجميل الموصوف بالخضرة إلا أنها مذاق مر، وفي ذلك شبه عليه الصلاة والسلام المنافق الذي يقرأ القرآن بالريحانة " مثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر"، فهو بقراءة القرآن يزين ظاهره ويخفي نفاقه في باطنه الخبيث، هذا الباطن يمثل مرارة الريحانة، فالقرآن لا يتجاوز حلقة وحنجرته لأنه لا يؤمن به، وإلى جانب الريحانة نجد شيئاً آخر في قوله عليه الصلاة والسلام " مثل الفاجر الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر " ، والحنظل: الشجرة المرة، قال أبو حنيفة: هو من الأغلاث، واحدته حنظلة.¹

وقد شبه عليه الصلاة والسلام المنافق والفاجر بما يخرج من الأرض من ذوي الشجر الصغير كالريحانة و الحنظلة، فهما قريبتان من الأرض ووسخها، وأجذرها لا تمتد بعيداً في أعماق الأرض، وذلك هو شأن الفاجر والمنافق حقيران في أعمالهما ولا يقومان إلا بالأعمال الصغيرة التي تراه على صغر نفسيهما، وإذا قاما بعمل فهو من صغائر الأمور التي لا تجد نفعاً فلا يجزيان عليها.²

وهكذا تكون الطبيعة النباتية قد شكلت عنصراً فنياً في بناء التمثيل النبوي الشريف من خلال ما تتصف به من تنوع في عناصرها.

2- الطبيعة الحيوانية:

والحيوان عنصر من عناصر الطبيعة الحية احتضنته بمختلف مظاهرها، وهو مألوف في البيئة العربية حيث الإنسان لا يمكن له الاستغناء عنه.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص: 362.

² - فايز سالم صالح يحي أحمد، التشبيه التمثيلي في الصحيحين، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة، جامعة أمالقرى، كلية اللغة، ص: 293.

ومن هذا الجانب نجده عليه الصلاة والسلام يستمد منها عناصر التشبيه التمثيلي بغية الإقناع بهذا الدين الحنيف، فكان القرآن الكريم يدعو الإنسان إلى التأمل والتفكير فيما حوله من هذه المظاهر الطبيعية الحية، مثل الإبل: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾¹ ولقد سميت العديد من سور القرآن بأسماء الحيوانات مثل: سورة البقرة، سورة الأنعام، سورة الفيل.

ومن أنواع الحيوان التي جاءت في بناء التمثيل النبوي الشريف، الإبل وهي من أنفس ما يمتلكه العربي من الحيوانات، ولها صلة وثيقة وعظيمة بحياته في سفره وإقامته، ومن ذلك ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام في بناء الصورة التمثيلية حيث شبه من يتعاهد القرآن بالمدارسة والمراجعة والتلاوة المستمرة والدائمة بالإبل المعلقة، أي الإبل المشدودة بالعقال، وهو الحبل الذي يشد به ركبة البعير، ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل المعلقة: إن عاهد عليها أمسكها، وإن أطلقها ذهبت»².

شبه عليه الصلاة والسلام درس القرآن واستمرار تلاوته بربط البعير الذي يخشى منه الهروب فما دام التعاهد موجودًا فالحفظ موجود، كما أنه ما دام مشدودًا بالعقال فهو محفوظ، فالقرآن كالإبل بحاجة إلى مداومة وتفقد مستمر حتى لا يذهب من الصدور.

و الملاحظ أن أحدهما إن ذهب صعب الأمر في استرجاعه إلا بعد مكابدة وجهد وعناء، ولذلك ربط عليه الصلاة والسلام بين القرآن الكريم في صدور الرجال وبين الإبل في عقلها «وإنما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل بالإبل دون غيرها من الخيل والحمير والبغال، وإن كانت إذا لم تربط ذهبت وشردت، لما بين القرآن والإبل من التناسب: ومن ذلك أن الإبل تنقاد مع الضعيف والقوي والصغير والكبير، والذكر والأنثى، مع شدة

¹ - سورة الغاشية، الآية: 17.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 1920، رقم الحديث: 4743.

قوتها وعظم خلقها، والقرآن مع علو قدره، وجلالة أمره، وعجز الخلق عن الإتيان بمثله ميسر منقاد للضعيف والقوي، والصغير والكبير والذكر والأنثى ووجه الشبه في ذلك الشروء وصعوبة الاسترجاع، فهو في حاجة إلى مكابدة وجهه¹.

ومن الصور التشبيه التمثيلي التي جاء ذكر الحيوان فيها، صورة الصدقة حين شبهها عليه الصلاة والسلام، بالفلو، " بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو"، وهو المهر الصغير، فالله سبحانه وتعالى يتعهد صدقة المؤمن التي تنتقل من يده إلى يد الرحمن فيضعها موضع رعاية حتى تنمو لصاحبها نموا يصيرها مثل الجبل، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلى الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه ثم يربها لصاحبها، كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل »²، وفي رواية أخرى "فلوه أو « قلسوه »³.

والحديث بروايته دليل واضح على رحمته تعالى بعباده وتكرمه وتفضله عليهم، فهو سبحانه يضاعف الصدقة التي يتصرف بها العبد من مال حلال طيب، ومهما كانت هذه الصدقة فإنه جلّ جلاله يربها لصاحبها حتى تصير في عظمتها مثل الجبل، وهي التي تكون سبباً في نجاة صاحبها من النار، فقد ورد عن عدي بن حاتم قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النار فأعرض، وأشاح، ثم قال: «اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح حتى ظننا أنه كأنما ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة »⁴، وإذا كان الفلو، أو المهر، لا يتوافر عند الناس جميعاً فإن الفصيل، أو القلوصة، لا يكاد يخلو بيت من بيوت العرب منهما.

¹- عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 108

²- صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، 702، رقم الحديث: 1014.

³- المصدر نفسه، ج2، 702، رقم الحديث: 1014 .

⁴- المصدر نفسه، ج2، ص: 704، رقم الحديث: 1016.

ومهما كان الأمر فإن الفلو، أو الفصيل، أو القلوص، فيهم ما يدل على حرص العربي بالتربية والعناية الفائقة، وما يدل على الزيادة والنمو، والحقيقة أن في التمثيل بتربية المهر لتربية الأجر براعة فائقة ودقة متناهية، لأن المهر يبذل من الجهد في تربيته ما لا يبذل في غيره من الحيوان، وقد اقتصر الرواية الأولى على المهر، وفي رواية مسلم جاء الفصيل ولمزيد من التوضيح ثم القلوص.¹

وجاء أيضا حق المنافقين أن شبههم عليه الصلاة والسلام بالشاة العائرة، فعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي قال: « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة »². فالنبي صلى الله عليه وسلم يشبه المنافق بالشاة العائرة في ترده وعدم ثباته على جانب، لأن المراد من العائرة أو الشاة الطالبة للفحل المتردد بين قطيعين من الغنم لا تستقر مع قطيع.

وهذه الصورة لا يختلف حال المنافق عن هذه الشاة فلا هو مع أهل الإيمان، ولا هو مع أهل الكفر، وإنما يمكن القول أنه ضائع ضال موزع بين هؤلاء وهؤلاء.

ويحكم أن لفظ الشاة من الطبيعة الحية حيث لا يخلو بيت عربي منها، اتخذ عليه الصلاة والسلام من هذه الشاة صورة لإظهار حال المنافق، فالشاة العائرة تضل ذليلة منبوذة لا تألفها الغنم، تتردد بين القطيعين، فتتزو إلى هذا مرة وإلى ذاك مرة، دائرة تائهة ساقطة من كلا الفريقين.

وبالتأمل في صورة هذه الشاة والجهد الذي تبذله فهي تكرر من هنا وهناك، وهي تأمل أن تجد الألفة والراحة ولكن أنى لها ذلك. وصورة المنافق تتضح من صورة هذه الشاة فهو مثل هذه البهيمة مذموم أبدا، محقر دوماً، هدفه خبيث، جهده ضائع، لأنه يبذل في نشر الشر

¹-انظر: محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 92.

²-صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 4 ، ص: 2146، رقم الحديث: 2784.

والهدم، فهو حيران ممزق النفس بين الكفر والإيمان، حيرة هذه الشاة الساقطة التائهة عن قطعها¹.

هذه الصور التي نجدها عند الحيوان لا تخلو من الدلالات يقدمها لنا عليه الصلاة والسلام بغية إيضاح حال هؤلاء المنافقين، ومن جانب آخر هذا الوصف علاج لهذه النفوس التائهة الضالة عساها تعود إلى الحق وإلى طريق الإيمان.

وبالنظر إلى ألفاظ هذا الحديث نجد لفظ الغنم «اسم جنس جمعي واحد، "غنم" فقد ثني بقوله: "الغنمين"، يقول الزمخشري: «وقد يُثنى الجمع على تأويل الجماعتين والفرقتين»². ولا شك أن هذا البناء لندرته يترك في السامع شيئاً من الحس بالغرابة، وكأن في ذلك تناسقا بين غرابة اللفظ وشذوذه، وغرابة النفاق وشذوذه³.

هذا عن صورة الشاة العائرة الطالبة للفحل المترددة بين قطيعين من الغنم فإن هناك صورة ثانية لا تقل بشاعة عن صورة الشاة العائرة، إنها صورة الكلب وهو الحيوان المعروف يضرب به مثل في لؤم الأصل وخبث الطبع، وسقوط القدر والخسة ومهانة النفس. وعرف عنه أنه حارس وحامي للقطيع، وحياة البدو لا تخلو من تربية الكلاب خاصة عند رعاة الأغنام، ولذلك نال مزيدا من العناية والاهتمام لما يقوم به.

يشبه عليه الصلاة والسلام العائد في الصدقة بالكلب في أسوأ حالة من حالاته فقد جاء عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل الذي يرجع في صدقته، كمثل الكلب يقيء ثم يعود في قيئه فيأكله»⁴. صورة بشعة ترهب النفس وتقززها، تشبيه يشنع على

¹-انظر: فايزة سالم صالح يحي أحمد، التشبيه التمثيلي في الصحيحين، مرجع سابق، ص: 306.

²- جار الله محمود الزمخشري، المفصل، تحقيق، علي أبو ملحم، مكتبة الهلال، بيروت، ط1، عام: 1993م، ج، ص: 23.

³-انظر: خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن، جامعة القاهرة، خطوط رسالة ماجستير عام: 2007م. ص: 66.

⁴-صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1240، رقم الحديث: 1622.

الذي يعود في صدقته ويظهره في صورة بشعة من خلال ربطه بالكلب الذي يقيء، ثم يعود في قيئه فيأكله.

صورة من يرجع في صدقته بحال الكلب الذي يقيء طعامه المهضوم ثم يعود فيه، صورة قذرة تفرز النفس، ربط هذه الصورة بالكلب الذي يمثل النجاسة، وتشبه من يعود في صدقته ويرجع فيها نجسة شأنه شأن الكلب الذي يعود في قيئه فيأكله، وطبيعة مجرى القيء مستقدر تعافه النفس العاقلة، فإن يُرجع بالقيء إلى الجوف فذلك من أشد القرف. ولا يصنع هذا عاقل « وكأن النبي عليه السلام يريد من وراء هذا أن يسلب الراجع في صدقته إنسانيته بسلبه العقل، لأنه لو كان ذا عقل لما رجع في قيئه؛ لأنه لا يفعل هذا غير الحيوان لعدم قدرته على التمييز بين الأكل والقيء، ويريد كذلك أن يبين أن الذي يعود في صدقته إنما يفعل ذلك لهيمنة الغرائز عليه رغبة في التملك والسيطرة والأذى، والكلب حين يرجع في قيئه إنما يرجع بدافع الغريزة، فالرغبة الغريزية في الحالتين: حال الكلب، وحال الرجل هي المسيطر والقائد والدافع¹، وبالنظر إلى الألفاظ نجد عليه الصلاة والسلام وظف اللفظ " يقيء " فيها من الاشمئزاز والكراهة، لأن مجرد القيء مستقدر تعافه النفس، والغرض من الحديث التحذير والترهيب والتنفير إلى جانب بشاعة الرجوع في الصدقة، أو الهبة مهما كانت الظروف، لأن العبد يدفع الصدقة للتطهير ماله ونفسه من الشوائب وأدران المعاصي، فإذا عاد فيها عاد إليه بأوساخ الذنوب فكأنه كلب تقيأ ثم عاد فأكل قياؤه.

¹- خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 65.

الفصل الثاني: الاستعارة في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: مفهوم الاستعارة من خلال جهود علماء البلاغة

المبحث الثاني: الاستعارة بين الأفراد والتركيب في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: مفهوم الاستعارة من خلال جهود علماء البلاغة

وينقسم هذا المبحث إلى ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: الاستعارة في اللغة والاصطلاح

الاستعارة باب من أبواب المجاز اللغوي، وجريا على منوال علماء البلاغة السابقين الذين أوردوها بعد التشبيه لما بينهما - الاستعارة والتشبيه - من صلة، فإن الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه الأساسيين، لذلك سرنا على منهجهم في ترتيب الاستعارة.

الاستعارة في اللغة

مصدر الفعل استعار، وانطلقنا من القاعدة الصرفية القائلة، كل تغيير في المبنى تغيير في المعنى.

فإن زيادة السين والتاء على الأصل "عار" التي تفيد الطلب، أي طلب والعارة والعارية: نقل الشيء من شخص إلا آخر، حتى تصبح تلك العارية من خصائص المعار إليه. «العارية والعارة ما تداولوه بينهم، وقد أعاره الشيء، وأعاره منه، وعاوره إياه، والمعاورة والتعاور: شبه المداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين»¹. والمستعار: المتداول، و«تعور واستعار: طلب العارية واستعاره الشيء واستعاره منه: طلب منه أن يعيره إياه»². ولذلك فإنها تعني رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، يقال: استعار فلان سهماً من كنانته، أي رفعه وحوله منها إلى يده.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج9، ص : 471.

² - المصدر نفسه ، ج9، ص: 471.

وعلى هذا يصح أن يقال: استعار إنسان من آخر شيئاً بمعنى أن الشيء المستعار قد انتقل من يد المعير إلى يد المستعير للانتفاع به، ومن ذلك يفهم ضمناً أن عملية الاستعارة لا تتم إلا بين متعارفين تجمع بينهما صلة ما.¹

وأما في القاموس المحيط «العارية مشددة وقد تخفف، والعارة: ما تداوله بينهم، ج: عواري، مشددة ومخففة، أعاره الشيء وأعاره منه، وعاوره إياه، وتور واستعار طلبها واستعار منه طلب إعارته، واعتوروا الشيء وتوروه وتاوروه، تداولوه، وعاره يعوره ويعيره: أخذه وذهب به»²

ومن خلال التتبع اللغوي لكلمة " الاستعارة " فإنها قد جاءت في معاجم اللغة: مأخوذة من الأصل اللغوي عور بينما نجدها عند البعض من الأصل عار .

إن هذا التناوب بين حروف العلة في عين الأصل لم يؤد إلى اختلاف في المعنى فالمعاني اللغوية، لهذا الأصل تصب جميعها في اتجاه واحد، فهي التداول، والمناولة والآخذ، والعطاء، والطلب، وبهذا فإن الاستعارة تعني في اللغة طلب العطية من أصلها وأخذها إلى موضع يلائمها، فتسد فيها حاجة، وتلبي بها رغبة، وتمتع منها ذوقاً.

غنى له عن الاستعارة مهما كان المعار: منافع وأقوال، يأخذ منها ما يحتاج ويعطي مما عنده من يحتاج وفي ذلك أخذ من المستعير، وعطاء من المعير، ومناولة بينهما وتداول للعطية والإنسان لا.

هذه المعاني اللغوية يؤكد لها ابن الأثير: « الأصل في الاستعارة المجازية مأخوذ من العارية الحقيقية التي هي ضرب من المعاملة، وهي أن يستعير بعض الناس من بعض شيئاً من الأشياء، ولا يقع ذلك إلا من شخصين بينهما سبب معرفة ما يقتضى استعارة أحدهما من الآخر شيئاً. وإذا لم يكن بينهما سبب معرفة بوجه من الوجوه فلا يستعير أحدهما من الآخر

¹ - انظر: عبد العزيز عتيق في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، دون ذكر الطبعة والسنة، ص: 167.

² - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق، محمد نعيم العرقسوس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، عام: 2005م، ص: 447.

شيئاً إذ لا يعرفه حتى يستعير منه، وهذا الحكم جار في استعارة الألفاظ بعضهما من بعض فالمشاركة بين اللفظين في نقل المعنى من أحدهما إلى الآخر، كالمعرفة بين الشخصين في نقل الشيء المستعار من أحدهما إلى الآخر»¹.

والذي نلاحظه في أن هذه الصلة التي تربط بين المعنيين المعنى اللغوي، أو الحقيقي للاستعارة، ومعناها المجازي إذ لا يستعار أحد اللفظين في واقع الأمر إلا إذا كان هناك صلة معنوية تجمع بينهما، وهذه المعاني جميعها نجدها عند علماء البلاغة في المفهوم الاصطلاحي.

الاستعارة في اصطلاح علماء البلاغة:

الاستعارة وسيلة من وسائل التعبير الفني الرفيع وصورة من صور الإبداع، يحرك بها اللغة من ثباتها حتى تتعدى مواضعها إلى مواضع أخرى جديدة لم تألفها ولم تتعود ارتيادها.

وفكرة الاستعارة عند علماء البيان تقوم على ثلاثة محاور النقل، والادعاء، والتناسب بين الطرفين، فالاستعارة لفظ ينقل من معناه في أصل اللغة إلى معنى آخر على سبيل الادعاء، ولا بد من مشابهة وتناسب بين المستعار، والمستعار له، إلى جانب علاقة تسوغ ذلك النقل، ولقد كان الجاحظ من الأوائل الذين اشاروا إليها ونالت اهتمامه، فالاستعارة عنده هي: « تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه »².

ويذكر الجاحظ أيضاً أمثلة من القرآن ثم يعلق عليها بما يؤكد هذا التفسير فيقول في قوله تعالى: ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾³ والعذاب لا يكون نزلاً، ولكن لما قام العذاب لهم في موضع النعيم لغيرهم، سمي باسمه⁴، وأجراه مجرى كلامهم كقول حاتم حين أمرؤه بفصد

¹ - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، مصدر سابق، ج2، ص: 76.

² - الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج1، ص: 153.

³ - سورة الواقعة، الآية: 56.

⁴ - الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج1، ص: 153.

بغيره وطعنه في سنامه قال: "هذا فصدّه " ولكن لما قام العذاب لهم في مواضع النعيم لغيرهم سمي باسمه «¹ ويسمى أيضا الاستعارة باسم البذل وذلك عندما تناول قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾² فالانسياب هو الأصل في الحية فترك واستعمل "السعي" بدلا منه يقول الجاحظ: «ولو كانوا لا يسمون انسيابها وانسيابها مشيا وسعيا، لكان ذلك مما يجوز على التشبيه والبذل، وأن قام الشيء مقام الشيء، أو مقام صاح «³.
وكذلك أيضا "وعلى المثل" و"على الاشتقاق" ويعني بها الاستعارة أو المجاز بمعناه العام الذي تندرج تحته الاستعارة.

ومع هذه المعرفة التامة للاستعارة عند الجاحظ فإننا لم نجد له تعريفاً، وربما يمكن القول إن النماذج التي ذكرها وحللها تعرف رؤية الجاحظ إلى الاستعارة.

أما ابن المعتز فقد تناول الاستعارة وأعد لها بابا في أول كتابه " البديع " ، حيث بدأ بتعريفها فقال: « هي استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها»⁴ وهو لم يبتعد كثيرا على ما ذهب إليه الجاحظ، ومثل لها بقوله تعالى: ﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾⁵ ومن الحديث النبوي الشريف قوله عليه الصلاة والسلام: « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، يطير على منته، كلما سمع هَيْعَةً أو فزعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانة.. »⁶ وقد علق ابن المعتز على شواهدة بقول: « وإنما هو استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها مثل أم الكتاب ومثل جناح الذل»⁷

¹ - الجاحظ ،البيان والتبيين، مصدر سابق، ج 2، ص: 153.

² - سورة طه، الآية: 20.

³ -الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، عام: 1943، ج4، ص: 273.

⁴ -ابن المعتز عبد الله، البديع. شرح وتحقيق، عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، عام: 2012م، ص: 11

⁵ - سورة مريم، الآية: 4 .

⁶ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1504 رقم الحديث 1889.

⁷ - ابن المعتز عبد الله، البديع، مرجع سابق، ص: 11.

وأما قدامة بن جعفر، فقد عقد في كتابه "نقد النثر" باباً للاستعارة تحدث فيه عن الحاجة إليها في كلام العرب، فهو ينظر إليها من حيث أنها استعارة الكلمة لشيء آخر أو بعض الألفاظ في موضع بعض، على التوسع والمجاز، هذا المفهوم نجده من خلال حديثه عن الحاجة إليها في كلام العرب، وأما الاستعارة، فإنما احتيج إليها في كلام العرب، لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم، وليس في لسان غير لسانهم، فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارة كثيرة ربما كانت مفردة له، وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره.

وربما «استعاروا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز، فيقولون إذا سأل الرجل الرجل شيئاً فبخل به عليه: "لقد بخله فلان"، وهو لم يسأله ليبخل، وإنما سأله ليعطيه لكن البخل لما ظهر منه عند مسأله إياه جاز في توسعهم ومجاز قولهم أن ينسب ذلك إليه ومنه قول الشاعر: "فللموت ما تلد الوالدة"

والوالدة إنما تطلب الولد ليعيش لا ليموت، لكن لما كان مصيره إلى الموت جاز أن يقال: للموت ولدته».¹

غير أن الملاحظ في قول قدامة، إن الاستعارة تتمثل في استعارة بعض الألفاظ في موضع بعض على سبيل التوسع والمجاز فقط، والذي نجده في شواهد دون أن يسمها، هي الاستعارة المكنية، حيث استدل على ذلك بقوله: «ومما جاء من هذا النوع في القرآن قوله: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾»² ولما جاز أن تحتل مزيداً من الكافرين حسن أن يقال: قالت وهل من مزيد؟³

ومن الذين تناولوا الاستعارة: علي بن عبد العزيز الجرجاني، فقد تناول أوجهاً مختلفة من البلاغة في كتابه: "الوساطة بين المتنبي وخصومه". وفي حديثه عن ألوان البديع، بدأ

¹ - قدامة بن جعفر، نقد النثر، تحقيق، العبادي، تصوير دار الكتب العلمية، عن الطبعة المصرية القديمة، دون ذكر

الطبعة، والسنة، ص: 64.

² - سورة ق، الآية: 30.

³ - قدامة بن جعفر، نقد النثر، ص: 65.

بالحديث عن الاستعارة، وذكر طائفة من الأمثلة التي يراها حسنة، والتي يراها سيئة، وفي بعض الأحيان يشير إلى أن هناك من يخلط بين الاستعارة والتشبيه البليغ حيث يقول: «وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه، أو مثل، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً من الاستعارة عدّ فيها قول أبي نواس:

والحب ظهر أنت راكبه *** فإذا صرفت عنانه انصرفا

ولست أرى هذا وما أشبهه استعارة، وإنما معنى البيت أن الحب مثل ظهر، أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكت عنانه فهو إما ضرب مثل، أو تشبيه شيء بشيء¹.

ثم قال: «وإنما الاستعارة ما اكتُفي فيها بالاسم المستعار على الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها، وملاكها تقريب الشَّبه، ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى، حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يتبين في أحدهما إعراض عن الآخر²، ومن خلال هذا النص يمكن القول إنه يقرر أمورا لا بد من الوقوف عندها وهي:

أولاً: الرد على من أخلط بين التشبيه البليغ والاستعارة من خلال بيت أبي نواس.

ثانياً: الإشارة إلى أن الاستعارة لا يجمع فيما بين طرفي التشبيه، وإنما لا بد من جعل المشبه به محل المشبه بعد حذفه - ويستغنى بالمشبه به- بالمستعار منه عن الأصل المستعار له.

ثالثاً: الإشارة إلى أن التشبيه حقيقة لغوية، والاستعارة مجاز لغوي

¹ - علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، المكتبة العصرية، بيروت تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي،

ط1، عام: 2006م، ص: 42.

² - المصدر نفسه، ص: 45.

رابعاً: أشار إلى أنه إذا كان نقل العبارة شرطاً في كل استعارة من هذا النوع -التصريحية- فلا بد من مناسبة جامعة بين ما استعير له، وما استعير منه حتى لا تبدو بين اللفظ بعد نقله والمعنى المجازي الذي أريد منه منافرة، أو إعراض أحدهما: "المعنى واللفظ" عن الآخر.¹

ونعتقد أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني بهذا المفهوم كاد أن يحدد معنى الاستعارة تحديداً دقيقاً: «لولا أنه ترك الإشارة إلى القرينة المانعة من إرادة المعنى الأصل للفظ المستعمل في المجاز، وكلامه هذا وإن خلا من ذكر القرينة، فهو كاف في إخراج قول أبي نواس من دائرة المجاز، فليس هو -إذن- استعارة بل هو تشبيه لعدم النقل الذي هو شرط الاستعارة، وذكر الطرفين مانع من تصور ذلك». ² وعلى هذا فإن القاضي الجرجاني يقسم الاستعارة إلى حسنة وريئة.

والاستعارة الحسنة عنده ترى فيها الحسن والإحسان، وإحكام الصنعة وعذوبة اللفظ، أما الاستعارة الرديئة فقد ذكر لها بعض النماذج.

إن كلام القاضي الجرجاني كان نواة للبحث البلاغي، وربما يكون ممن يتميز بهذه الرؤية العلمية، وإن كان الجاحظ من قبل قد تناول الفنون البلاغية مثل الاستعارة والمجاز إلا أنا لم نجد عنده مثل هذه الرؤية الجزئية الدقيقة التي تناولها القاضي الجرجاني، وصحيح أيضاً أن ابن المعتز في كتابه البديع يعتبر أول بحث بلاغي منهجي في تحديد الفنون البلاغية، غير أنه لم يلتفت إلى مثل هذه الجزئية الدقيقة، يمكن أن تكون إشارة منه وبداية فعلية للدراسات، لمن جاء بعده.

ومن الذين أخذوا بهذه النظرة المتقدمة التي رأيناها عند القاضي الجرجاني ويلتقي فيها معه الآمدي التقاء واضحاً، حيث يرى في الاستعارة أن تظهر فيها المناسبة بينه وبين المستعار له والمستعار منه.

¹ - انظر: عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني، التشبيه البليغ، مرجع سابق، ص: 10، إلى 12.

² - المرجع نفسه، ص: 11.

وقد أظهر الآمدي اهتماماً كبيراً بالاستعارة، فهي عنده لا تستعمل إلا فيما يليق بالمعنى، فاللفظ لا يستعار لما ليس له، إلا إذا كان يقاربه أو يناسبه أو يشبهه في بعض أحواله، وهو في هذه الرؤية يقارب القاضي الجرجاني، يقول الآمدي: « وإنما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه، أو يدانيه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذٍ لائقة بالشيء الذي استعيرت له وملائمة لمعناه ».¹

واستدل على ذلك بقول امرئ القيس:

فقلت له لما تمطى بصلبه *** وأردف أعجازاً وناء بكلكل

فقال: « وقد عاب امرأ القيس بهذا البيت " لهذا المعنى " من لم يعرف موضوعات المعاني والاستعارات ولا المجازات، وهو غاية الحسن والجودة والصحة، لأنه قصد وصف أحوال الليل الطويل فذكر امتداد وسطه وتثاقُل صدره للذهاب والانبعاث، وترادف أعجازه وأخره شيئاً فشيئاً وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته، وذلك أشد ما يكون على من يُراعيه ويترقَّب تصرُّمَه، فلما جعل له وسطاً يمتد وأعجازاً رادفه للوسط وصدرًا متثاقلاً في نهوضه حَسُنَ أن يستعير للوسط اسم الصلب وجعله متمطياً من أجل امتداده لأن تمطى وتمدد بمنزلة واحدة، وصلاح أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نهوضه، وهذا أقرب الاستعارات من الحقيقة، وأشد ملائمة لمعناها لما استعيرت له ».²

واستحسانه للاستعارة إنما كان لمناسبتها للمعنى الذي أراده الشاعر، وهذا هو معنى القرب الذي ذكره "يقاربه أو يناسبه أو يشبهه"، فالاستعارة لا تكون عند الآمدي إلا بهذه القيود، أما أن تستعير اللفظ لغيره كيفما يحلو لنا، ونخرج به عن القيود التي يراها، فإن ذلك يهيئنا للوقوع في الخطأ والفساد.

¹ - أبو القاسم الحسن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، دار المعارف المصرية، القاهرة، ط4، عام: 1992م، ج2، ص: 266.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 266.

وقد أورد الآمدي الكثير من الشواهد الشعرية والآيات القرآنية التي يرى فيها حسن الاستعارة، ومن قول أبي ذؤيب:

وَإِذَا الْمَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا *** أَلْفَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَتَفَعُّ

فقال: « لما كانت المنية -إذا نزلت بالإنسان وخالطنه- صلح أن يقال: نشبت فيه، وَحَسُنَ أَنْ يَسْتَعَارَ لَهَا اسْمُ الْأَظْفَارِ، لِأَنَّ النُّشُوبَ قَدْ يَكُونُ بِالظَّفَرِ ».¹

ومن القرآن قوله تعالى: ﴿ وَاشْتَغَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾² قال: « لما كان الشيب يأخذ في الرأس ويسعى فيه شيئاً فشيئاً حتى يحيله إلى غير حاله الأولى كالنار التي تشتعل في الجسم من الأجسام فتحيله إلى النقصان والاحتراق، وكذلك قوله تعالى ﴿ وَءَايَةُ لَهُمْ أَيْلٌ نَسَلُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُّظْلِمُونَ ﴾³ ولما كان انسلاخ الشيء من الشيء هو أن يتبرأ منه وَيَنْزِيلُ عنه حالاً فحالا كالجلد عن اللحم وما شاكلها - جعل انفصال النهار عن الليل شيئاً فشيئاً حتى يتكامل الظلام انسلاخاً، وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوَّطَ عَذَابٍ ﴾⁴ لما كان الضرب بالسوط من العذاب استعار للعذاب سوطاً»⁵

هذه الاستعارات هي غاية في الحسن والجودة والصحة، وما جاء في شعر أبي تمام من قبيح الاستعارات من مرذول ألفاظه وقبيح استعاراته فكثير، ثم أشار إلى نماذج مما يراه من قبيح استعاراته.

أما الرماني: وهو أحد أعلام المتكلمين الذين كانت لهم يد في البلاغة عامة والإعجاز خاصة، فتناول الاستعارة وفرق بينها وبين التشبيه، وبين أركانها، وذكر أمثلة كثيرة

¹ - الآمدي، الموازنة المصدر سابق ج1، ص: 268.

² - سورة مريم، الآية: 4.

³ - سورة يس، الآية: 37.

⁴ - سورة الفجر، الآية: 13.

⁵ - الآمدي، الموازنة، مصدر سابق، ج2، ص: 269.

من القرآن الكريم، وأشار إلى مواطن الاستعارة في كل مثال، إلى جانب الوقوف عند أثرها في المعنى.

ودراسة الاستعارة عند الرماني لم تكن تحت ظلال البلاغة، أو تحت مفهوم الصورة البيانية، وإنما كانت تحت ظلال الإعجاز القرآني، لقد درس الرماني الاستعارة تحت ظلال إعجاز القرآن البياني في رسالته "النكت في إعجاز القرآن" هذا الأثر البلاغي يمكن الإشارة إليه على أنه من أهم الكتب التي كتبها في الدراسات القرآنية، وأكثرها اتصالاً بالبلاغة والدارسات البيانية.

والاستعارة عنده هي: «تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة».¹

وهذا التعريف يظهر أن الكلمة في الاستعارة قد وضعت بازاء معنى جديد أطلقت عليه وهو غير المعنى الموضوع لها في اللغة، وهذا الإطلاق الجديد وارد على سبيل نقل الكلمة من معناها الأصلي إلى المعنى الذي أطلقت عليه.

وبالنظر إلى هذا التعريف أيضا يمكن الوقوف على سر من أسرار الاستعارة ، وهو إبانة المعنى وإيضاحه، وهذا سر واحد من أسرار الاستعارة ، وقد أشار البلاغيون إلى أسرار أخرى منها المبالغة والإيجاز وغير ذلك من أسرار الاستعارة.

وإذا كان البعض في بداية تأسيس هذا العلم "علم البلاغة " قد خلط بين الاستعارة والتشبيه، فإن الرماني فرق بينهما: « والفرق بين الاستعارة والتشبيه أن ما كان من التشبيه بأداة التشبيه في الكلام، فهو على أصله، لم يغير عنه في الاستعمال وليس كذلك الاستعارة، لأن مخرج الاستعارة مخرج العبارة ليست له في أصل اللغة. »²

¹ - أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص: 85.

² - المصدر نفسه، ص: 86.

ونرى أنه يعني أن الكلام في التشبيه باق على أصل معناه لم يتغير بخلاف الاستعارة فالكلام فيها خرج عن وضعه الأصلي في اللغة إلى وضع آخر على سبيل النقل.

ثم يشير إلى أركان الاستعارة فيقول: « وكل استعارة فلا بد فيها من أشياء: مستعار ومستعار له، ومستعار منه، فاللفظ المستعار قد ينقل عن أصل إلى فرع للبيان، وكل استعارة بليغة فهي جمع بين شيئين بمعنى مشترك بينهما يكسب بيان أحدهما بالآخر، كالتشبيه، إلا أنه بنقل الكلمة، والتشبيه بأداته الدالة عليه في اللغة، وكل استعارة حسنة فهي توجب بياناً لا تتوب منابه الحقيقية، وذلك أنه لو كان تقوم مقامه الحقيقة، كانت أولى به ولم تجز الاستعارة. وكل استعارة فلا بد لها من حقيقة، وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة كقول امرئ القيس "قيد الأوابد" والحقيقة فيه: مانع الأوابد، وقيد الأوابد أبلغ وأحسن».¹

وبعد أن ذكر الرمانى هذه الأصول المتعلقة بالاستعارة أخذ في ذكر أمثلة لها من القرآن الكريم، وأطال في ذلك فساق خمسة وأربعين مثلاً، ووقف أمام كل مثال منها موضحاً الاستعارة ومبيناً أثرها في أداء المعنى، ومن هذه الأمثلة التي استدلل بها الرمانى قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾² وعلق الرمانى عليه بقوله: « حقيقة " قدمنا " هنا "عمدنا"، وقدمنا أبلغ منه، لأنه يدل على أنه عاملهم معاملة القادم من سفر، لأنه من أجل إهماله لهم كمعاملة الغائب عنهم، ثم قدم فرآهم على خلاف ما أمرهم، وفي هذا تحذير من الاغترار بالإهمال، والمعنى الذي يجمعهما العدل، لأن العمد إلى إبطال الفاسد عدل، والقدوم أبلغ لما بيننا».³

يقول الدكتور محمد أبو موسى عن فهم الرمانى للاستعارة: أما «الرمانى في حديثه عن الاستعارة فقد لفت لفتة إلى باب جليل من أبواب بحث الاستعارة وأظنه لم يفتح بعد، ذلك هو تصنيف الصور الحسية إلى أنواع الحس، من بصرية، وسمعية، ولمسية، وهكذا تدرس في هذا الباب ضروب الحس كما تدرس المعاني التي نقلت إليها من حيث طبائعها وإدراك

1- أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى، النكت في إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص: 86

2- سورة الفرقان، الآية: 23.

3- أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى، النكت في إعجاز القرآن، مصدر سابق، ص: 86.

النفوس لها، فيقال مثلاً: إن العلم والحجة والرشاد، تنقل غالباً إلى صور بصرية فيستعارها لها النور أو الصراط المستقيم».¹

والملاحظ عند الرمانى أن الدراسة التطبيقية التحليلية هي الغالبة في دراسته للاستعارة حيث اهتم بضرب الأمثلة وبيان الاستعارة فيها وسر بلاغتها، وهو بذلك يرسم الطريق الأمثل لدراسة الفنون البلاغية.

أما أبو هلال العسكري فقد تناول فنون البلاغة، وعقد فصلاً كاملاً للاستعارة فقال: «الاستعارة نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيد، والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه، وهذه الأوصاف موجودة في الاستعارة المصيبة».²

ويبدو أن أبا هلال نقل هذا التعبير عن الرمانى كما نقل أقسام التشبيه ولم يشر إلى ذلك وأيضاً نقل عنه فكرة تعبير الاستعارة عما تعجز الحقيقة عن التعبير عنه.

وتعريف أبي هلال للاستعارة يقارب في جوانب متعددة التعريفات السابقة فهو أقرب إلى ابن المعتز وإلى قدامة في فهمهما للاستعارة، وأكثر منهم وضوحاً في قربه من الرمانى، وكذلك فهم الجاحظ للاستعارة.

غير أن تعريفه كما يبدو أكثر وضوحاً، لأنه يكشف عن الأسباب التي من أجلها جاز هذا النقل «إذ لا بد لهذا النقل من فائدة يتضمنها كشرح المعنى شرحاً يقربه من ذهن السامع، ويوضحه في نفسه توضيحاً، أو يؤكد، أو للمبالغة في إدخال المشبه في جنس المشبه به، أو لتصويره بصورة الغريب الذي تتوق النفس إلى معرفته، أو ليكون النقل مفيداً».³

والاستعارة عند أبي هلال أعلى أنواع البيان وهي تفضل الحقيقة، وفي حديثه عن فضل الاستعارة لإيجازها عن الحقيقة يقول:

¹ - محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، عام: 1997م، ص: 130.

² - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، مصدر سابق، ص: 268.

³ - المصدر نفسه، ص: 268 وما بعدها.

«فقله سبحانه وتعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾¹ حقيقة الشهيقة هاهنا الصوت الفظيع، وهما لفظتان، والشهيقة لفظة واحدة فهو أوجز على ما فيه من زيادة البيان، علاوة على الإيجاز، كما قد تفضل الاستعارة الحقيقية لمبالغتها في عموم المعنى، فقله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾² معناه كشفنا الظلمة، والأول أبلغ، لأنك إذا قلت: محوت الشيء فقد بينت أنك لم تبق له أثرا، وإذا قلت: كشفت الشيء مثل الستر وغيره لم تبين أنك أذهبتَه حتى لم تبق له أثرا»³، وهو يجعل حسن الاستعارة طريقا إلى البلاغة في القول، ففيها تقريب لمعنى البغية، وقصد إلى الحجة مما يبعد الإنسان عن حشو الكلام، ولقد تعرض أبو هلال إلى أصليين من أصول الاستعارة.

الأصل الأول: لابد لكل استعارة من حقيقة: «لابد لكل استعارة ومجاز من حقيقة وهي أصل الدلالة على المعنى في اللغة.

وأما الأصل الثاني: فهو الجامع بين المستعار له، والمستعار منه فقال: «ولابد أيضا من معنى مشترك بين المستعار له، والمستعار منه: والمعنى المشترك بين "قيد الأوابد" ومعنى الأوابد -هو الحبس وعدم الإفلات»⁴.

وقد أظهر ذلك من خلال الشواهد التي ذكرها، وربما هي ذات الشواهد التي جاء بها الرمانى، ثم بسط تلك الأمثلة بالشرح والتحليل، غير أنه من خلال الشرح نجده في بعض الحالات يدخل المجاز المرسل ضمن الاستعارة.

وأما حديث أبي هلال العسكري عن الاستعارة المصيبة، ربما يكون قد أخذه عبد القاهر الجرجاني فيما بعد، حيث فصل فيه القول، وقسم الاستعارة إلى استعارة مفيدة، واستعارة غير مفيدة، وبين مزايا الأولى وعيوب الأخرى، ويكاد كلامه في الاستعارة المفيدة يطابق كلام

¹ - سورة الملك، الآية: 7.

² - سورة الإسراء، الآية: 12.

³ - أبو هلال العسكري، الصنائع، مصدر سابق، ص: 272.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 271.

العسكري في الاستعارة المصيبة، فهي عنده « ما بان لك باستعارته فائدة ومعنى من المعاني وغرض من الأغراض، لولا مكان تلك الاستعارة لم يحصل ذلك».¹

ومن الذين تناولوا أيضا الاستعارة عبد القاهر الجرجاني حيث قسم المجاز إلى قسمين، لغوي، وعقلي، ثم قسم اللغوي إلى ما يبنى على التشبيه وهو الاستعارة، ثم لفظ استعمل مكان لفظ لعلاقة غير المشابهة وهو ما يعرف بالمجاز المرسل.

وقد أوضح عبد القاهر أمورا في غاية الأهمية في هذين القسمين حيث تحدث عن الاستعارة تحت اسم " البديع" أو المحسنات ". ومن الأمور التي تناولها بالدرس والتحليل موضوع الاستعارة عرفها بقوله: «اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر، أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية».²

ثم قسم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة، فقال: « ثم إنها تنقسم أولا قسمين: أحدهما أن لا يكون لنقله فائدة، والثاني: أن يكون له فائدة»³ ثم شرح المراد من الاستعارة غير المفيدة ، والاستعارة المفيدة وأقام الشواهد على كل قسم.

والواضح عنده أن الاستعارة لا تكون إلا حيث يكون التشبيه، مع أنه أوضح أن هناك نقلا لفائدة، غير أنه لا يعد استعارة؛ لأنه لا يعتمد على التشبيه، وهو القسم الثاني من المجازات وذلك لما رأى الناس يخلطون بينه وبين الاستعارة حيث النقل لم يكن بين المنقول والمنقول إليه.

وأما الاستعارة المفيدة فهي المبنية على التشبيه والمبالغة، فقال: «اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول وهي أمد ميدانا وأشد افتنانا...»¹ وهذا وصف

¹ - بدوي طبانة ، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، دار الثقافة، بيروت ، ط3، عام: 1981م ، ص: 171.

² — عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 30.

³ — المصدر نفسه ، ص: 30.

يشير به إلى الاستعارة المفيدة وإلى أثرها في النفسي في المتلقي، ثم يقسم الاستعارة المفيدة إلى قسمين باعتبار اللفظ المستعار، وهذا التقسيم يمكن اعتبار عبد القاهر سباقاً لغيره من العلماء وهو يشير إلى الاستعارة التصريحية، والمكنية حتى وإن هو لم يذكر التسمية صراحة، ووضع الفروق بين القسمين.

وأما السكاكي: فقد عرف الاستعارة بقوله: « الاستعارة أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به دالاً على ذلك بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به، كما تقول: في الحمام أسد، وأنت تريد به الشجاع، مدعياً أنه من جنس الأسود فتثبت للشجاع ما يخص المشبه به، وهو اسم جنسه مع سد طريق التشبيه بإفراده في الذكر، أو كما تقول: أن المنية أنشبت أظفارها، وأنت تريد بالمنية السبع بإدعاء السبعية لها، وإنكار أن تكون شيئاً غير سبع فتثبت لها ما يخص المشبه به وهو الأظفار»² ونعتقد أن هذا التعريف يتناول الاستعارة بنوعيهما التصريحية والمكنية، وقد عرف الاستعارة التصريحية والمكنية، وذكر أن التصريحية على قسمين حقيقية و تخيلية، ثم يقسم التحقيقية التخيلية إلى قطعية واحتمالية، ثم أخذ بعد ذلك في تقسيم الاستعارة إلى فروع متعددة.

وأما الخطيب فقد تناول في كتابه الإيضاح، مواضع بلاغية متعددة ومتنوعة، ووضع تعريفات أكثر دقة، ويظهر أنه استنار بجهود عبد القاهر الجرجاني خاصة عندما تناول الاستعارة فقال: « والمجاز ضربان: مرسل واستعارة؛ لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلا فهو مرسل»³ ثم بعد ذلك عرف الاستعارة وقسمها باعتبار الطرفين، ثم باعتبار الجامع، وباعتبار المستعار منه، والمستعار له، والصفة الجامعة بينهما، وبذلك يكون الخطيب قد قسم الاستعارة إلى وبذلك يكون الخطيب قد قسم الاستعارة إلى ستة لأقسام، نتناول ذلك في المطلب الثالث إن شاء الله

¹ — المصدر نفسه، ص: 39.

² — السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 599.

³ — الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 202.

المطلب الثاني: دور اللغة والخيال في بلاغة الاستعارة

عند تناولنا لصورة التشبيه في الحديث النبوي الشريف رأينا أنه يغلب عليه الطابع الحسي، وهذه الرؤية متميزة في التصوير البياني، لأن التصوير في أصل معناه يدل على الشكل والهيئة والصفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾¹، وفُسر هذا بأن المصور جلّ جلاله خلق الناس وأنشأهم على أشكال وأحوال منتصبة القامة بادية البشرة متناسبة الأعضاء، مختلفة الصور، متهئية لمزاولة الصنائع واكتساب الخبرات.²

هذه الصفات الحسية ذاتها نجدها في الاستعارة حيث لا تختلف كثيرًا عن صورة التشبيه من حيث الارتباط الحسي المتصل بالبيئة، والصورة عموماً تقف على الجانب الحسي، لأن ذلك يجعلها قريبة من الأذهان ويكون وراء ذلك دلالتها على الفنية وبلاغتها على التجسيد والتشخيص والتجسيم، أو على الأشياء القابلة للرؤية النظرية.³

وقبل الوصول إلى هذه العناصر الجمالية، فإنه لابد من الوقوف عند بلاغة الاستعارة من خلال بعض العناصر مثل اللغة والخيال،

ـ اللغة

«إن المستوى الأسطوري الذي تسمو إليه اللغة عبر الصور المجازية ليست حكايات فحسب، وإنما هو دائرة خصبة من المواقف تمتاز فيها الأحلام والأوهام بالرؤيا المباشرة المفعمة بالحيوية إزاء الأشياء والظواهر، وفي هذه الدائرة الأسطورية يتراجع التجريد الذهني، وليس هناك من مدخل لمبدأ السببية ومبادئ التفكير المنطقي الذي يشيع في حياة البشرية

¹ - سورة التغابن، الآية: 64.

² - انظر: محي الدين شيخ زاده علي، حاشية على تفسير البيضاوي، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، عام 1419هـ، ج7، ص 343-344.

³ - انظر: شفيع السيد، التعبير البياني، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، عام: 1980م، ص: 139.

المعاصرة، وفي الدائرة الأسطورية هذه تكون حياة الإنسان على أوثق التواصل مع حياة الطبيعة، التواصل الذي تبدو معه ظواهرها مندمجة في حياته وكأنها تجارب إنسانية»¹.

إن صور المجاز عموماً والاستعارة خصوصاً، من أرقى صور المجاز من خلال محاكاة الطبيعة وقدرتها على وصلها بحياة الإنسان وتجاربه فهي « لب التصوير الأدبي وذخيرته التي لا تنفذ»².

والتجربة الإنسانية كامنة في النفس قبل ظهورها، لا يعلم بها إلا صاحبها ما دامت في نفسه إلا حين تقع في ألفاظ وتصطبغ بعبارات، تنتقل من معمل النفس الداخلي إلى حيز الوجود وتتجلى معرضاً للآخرين³، وبهذه الرؤية تصبح الألفاظ في الاستعارة صوراً محسوسة تكون أقرب إلى العقول والأذهان، لأنها تجعل العمل الأدبي خلافاً، وليس مجرد صور محسوسة، ففيها تذوب العناصر فتعطي شكلاً فنياً جديداً.

إن عملية النقل، أو الادعاء للفظ من سياق لغوي معروف إلى سياق لغوي آخر غير مألوف، أو على حد تعبير ابن المعتز «استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها»⁴، وهذا يعني أن اللفظة المفردة ستحمل معها إحياءاتها ودلالاتها، وستتفاعل هذه الإحياءات والدلالات مع السياق اللغوي الجديد فتنتج لنا صورة جديدة. وهذا ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني عندما قال: «اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون للفظ أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية»⁵. وبذلك تستمد العبارة دلالتها -في العمل الأدبي- من مفردات الدلالات اللغوية للألفاظ ومن

¹ - انظر: أديب نايف ذياب، اليد وصورته المجازية، مجلة أبحاث اليرموك العدد "1" السنة: 1988، ص: 11.

² - أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، مرجع سابق، ص: 273.

³ - انظر: علي صبحي، البناء الفني للصورة الأدبية، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر ط1، عام: 1996، ص: 39.

⁴ - ابن المعتز، البديع، مرجع سابق، ص: 75.

⁵ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 30.

الدلالة المعنوية الناشئة من اجتماع الألفاظ وترتيبها في نسق معين، ثم من الإيقاع الموسيقي الناشئ من مجموعة إيقاعات الألفاظ متناغماً بعضها مع بعض، ثم من الصور والظلال التي تشعها الألفاظ متناسقة في العبارة.¹

ومما لاشك فيه أن الاستعارة تستمد قوتها من قوة الألفاظ في نسقها وتركيبها وبذلك تقوم اللفظة بالدلالة على معانيها دلالة شعرية تصويرية فنية موحية.

على أن الاستعمال للاستعارة، أو « أن اللغة في الاستعارة تكشف ما في اللفظ وما ليس فيه، وذلك عندما تتجاوز الدلالة اللغوية إلى ما هو فوق اللغة أو خارجها، لأنه مسار الدخول في عالم التحول والصيرورة والتنامي، عالم الخلق والإبداع وتوليد الدلالات المتنوعة التي تحمل كل منها على أخرى ويتم العبور من الدلالة إلى غيرها».²

غير أننا عندما نتناول اللغة في الحديث النبوي، لابد لنا من أخذ اعتبارات تخرج عن الرؤية النقدية، لأنها اعتبارات فطرية نقية صافية، وأهم من ذلك الإعداد الرياني والاصطفاء إلى جانب لغة القرآن.

هذه الاعتبارات وغيرها كان لها الأثر على لغته عليه الصلاة والسلام، لقد اختار الله محمداً صلى الله عليه وسلم من بين قومه ليعجزهم بفصاحة القرآن، ووكل إليه أن يفسر كتابه، ويبين وحيه، حين قال في محكم التنزيل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾³، وكذلك قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾⁴، والمراد، إنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه،

¹ - صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب، الجزائر، ط1، عام: 1988م، ص: 21-22.

² - نواف محمد حسين قوقزة، التشكيل الاستعاري في البلاغة والنقد، رسالة دكتوراه كلية الآداب واللغات، جامعة

الموصل، عام: 1994، ص: 114.

³ - سورة النحل، الآية: 44.

⁴ - سورة مريم، الآية: 97.

وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره لتبشر به المؤمنين المتقين، إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بعمل الرسول في الإبلّاغ والتبيين والهداية والتوجيه¹.

لقد مكن الله نبيه في منبته وفي نفسه، ما بهر به العقول إقناعاً وإفحاماً، إن العناية التي استخلصته لرسالة السماء قد طبعت حياته بطابع السماء، حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفساً ظامئة، وقلبا تائفاً، وروحاً متطلعاً، فروى الظمأ، وشفى الغليل كما كان أثر القرآن في النبي صلى الله عليه وسلم في التوجيه والإرشاد والهداية، كان أثره أيضاً في بيانه أعظم الأثر، فضرب الأمثال في القرآن من الأمور الشائعة، كذلك في الحديث النبوي في تصويره، فقد سلك عليه الصلاة في دعوته هذا المسلك في بيان أمور الدين وبيان خصال الخير التي يحبها الله².

هذه وغيرها من الاعتبارات التي جعلت من اللغة النبوية تتميز بعبارات متوازنة سهلة واضحة بعيدة عن الغموض خالية من التعقيد، بريئة من المبالغة، تؤدي المعاني أداء كاملاً وصادقاً في الدلالة، ولا تخرج عن مقتضى المضمون، دون لغو ولا فضول. ويختار عليه السلام لكل غرض وحكم، أسلوباً معيناً يلائم فيه حال المخاطب سواء كان من العامة أو الخاصة « فالمهمة الرئيسية للرسالة المحمدية هي الإبلّاغ والتبليغ والنفّاذ والتعمق في القلوب والاستحواذ على شغافها »³.

يصف العقاد لغة الوضوح عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول: «إن محمداً العربي الناشئ في بني سعد العالم بلهجات القبائل لم يكن في كلامه غريب يجهله سامع أو يحتاج تبأينه إلى مراجعة لأنه يريد إبلّاغ رسالته مباشرة دون حاجز لفظي أو معنوي ويروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعيد الكلام ثلاثاً ليقطع الشك أو يزيل الغموض»⁴.

¹ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص224.

² - انظر: مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مرجع سابق، ص:194، وما بعدها.

³ - عزة محمد جدوع، البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 295.

⁴ - عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، مرجع سابق، ص: 73.

ويمكن القول إنه عليه الصلاة والسلام سلك في بيان تلك المعاني السامية مسلكاً واضحاً في اختيار الألفاظ والتراكيب المعبرة والدالة، وهي لم تتجاوز الحقيقة في الإفصاح عنها.

والبيان النبوي يحفل بالأحاديث التي يقوم فيها اللفظ بتشكيل جمالي من خلال الصورة الاستعارية. ووفرة الصورة الجميلة في البيان النبوي يدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يؤثر التعبير عن المعنى المجرد بالصورة الحسية المستمدة من حياة المخاطبين، لأن ذلك أدعى إلى أن يفهموا مراده ويتأثروا به، ولأن الصورة البيانية، خاصة الاستعارة، تزيد في قيمة الأثر الأدبي، وترفع من شأنه وتكسو المعاني أبهة وتضاعف قواها في تحريك النفوس.

وبعد هذا يمكن لنا القول إن من أظهر ما يتسم به الأسلوب النبوي فصاحة الألفاظ ورصانة التعبير وسلامة اللغة، والترفع عن الركاكة والابتذال، وعدم القصد إلى التلاعب بالمعاني، والإغراب بالألفاظ وعدم تكلف الصنعة ومحسنات البديع وتجنب تراحم الصور وشطط الخيال.¹

فقد كان الخطاب النبوي ينطلق على سجيته، والمعاني تتوالى على طبيعتها، دون تكلف أو صعوبة، فهو يهدف إلى الوضوح والإقناع ولذلك فالمعنى عنده يطلب اللفظ والمقصد ويشكل الأسلوب ويصوغ التعبير يصف الرفاعي اللغة المحمدية فيقول: «أما اللغة: فهي لغة الواضع بالفطرة القوية المستحكمة، والمتصرف معها بالإحاطة والاستيعاب، وأما البيان: فبيان أفصح الناس نشأة، وأقواهم مذهباً، وأبلغهم من الذكاء والإلهام. وأما الحكمة: فتلك حكمة النبوة وتبصير الوحي وتأديب الله، وأمر في الإنسان فوق الإنسانية».²

¹ - انظر: محمد زكريا الزعيم، فنون الأدب في الحديث النبوي. التنفيذ الطباعي، مركز الفوال، دمشق، ط1، عام : 2011م، ص: 429-430.

² - مصطفى صادق الرفاعي، إعجاز القرآن، والسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 196.

- الخيال.

وهو العنصر الثاني الذي نود الوقوف عنده ،لأنه لب الاستعارة حيث يتجول بين المعاني والأشياء، ويجمع المتشبهات، ويقرب البعيد وهذا لا يتأتى إلا لمن امتلك السعة في الاطلاع والمعرفة وحسن التذوق في اختيار الألفاظ والمعاني، ولذلك توصف الاستعارة بأنها علامة العبقرية. فالخيال « وسيلة فنية لتحريك عالم الشعور، وهو ناشئ عن حركة ذهنية خلاقة حرة مصطبغة بالمشاعر، وهو عصب التصوير والمَلَكَة الرائعة لمن أحسن استخدامها والأداة الطيبة لمن نضجت فكرته وتوقد ذهنه وعمق موضوعه فيلون الواقع العياني تلويناً جميلاً يلذ للنفس ويكون منظومة فكرية جديدة ».¹

ومنهم من يرى أن الخيال ينشأ عن الذكرى المخزونة في الدماغ، وبذلك تكون العملية الذهنية في الدماغ، على أن عالم الخيال هو هذه الصورة الذهنية التي ترتسم على صفات عقولنا، وتخترن في ذاكرتنا، وهي التي ننشئ منها الجديد من الأشكال والمظاهر وأن استعادة هذه الصور إذا كانت من غير تبديل فهذا هو الخيال الحضورى أو الذاكرة، وإذا كانت بالتغيير والتبديل، حيث تنشأ عن ذلك صور جديدة فهذا الخيال الاختراعى، وهذا النوع الذي يفهم من كلمة الخيال.²

إن استعادة هذه الصور، لا يمكن إعادتها بهيئتها المختزنة دون تغيير، وإلا ما كان للأديب من فضل كبير في الإبداع، لأن عملية الاختزان تتم للجميع، والجميع لهم صور كثيرة يمكن تحريكها ونقلها كما أحسوا بها دون جهد.

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، دار المكتبي، سوريا، ط2، عام: 2006م، ص: 106.

² - انظر: عبد الحميد يونس، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ط1، عام: 1949م، ص: 91.

«إنما الفضل كل الفضل في إبراز هذه الصور المختزنة بعد اختيار للجيد ونفي للردئ، وحذف للعناصر النافعة، وإثبات للعناصر الحية هذه العملية الإبداعية الكبيرة هي ما يسمى بالخيال الفني».¹

وكذلك فإن الخيال بالنسبة للأديب لا يوجد في العدم، وإنما يوجد فيما تم اختزانه في أعماق النفس، فالصورة المختزنة تخضع إلى عملية تنسيق فني دقيق تراعى فيه جوانب مثل التقارب والتشابه.

فالقدر على تكوين صور ذهنية لا تتوقف في فاعليتها على الاستعارة الآلية لمدرجات حسية «تربط بزمان أو مكان بعينه، بل تمتد فاعليتها إلى ما هو أبعد وأرحب من ذلك، فتعيد تشكيل المدرجات وتبني منها عالماً متميزاً في جدته وتركيبه وتجمع بين الأشياء المتنافرة والعناصر المتباعدة في علاقات فريدة تذيب التنافر والتباعد وتخلق الانسجام والوحدة».²

وإذا كان حديثنا عن الخيال وطبيعته فإن ذلك يؤدي أيضاً إلى الحديث عن التخيل غير إننا نحاول الابتعاد عن المفاهيم الفلسفية التي تحيط بالموضوع، ونحن نهدف في هذا المقام أن التخيل لا يمكن «أن يعمل في غياب الحس وبالتالي فإن كل ما يعتور الحس ويلحق به لابد أن يؤثر في نشاط التخيل وفاعليته، ثم أن قدرة التخيل على التجريد تجعله أكثر تحرراً في التعامل مع صور المحسوسات، ومن ثم فإنه يستطيع أن يعيد تشكيلها في هيئات جديدة لا يعرفها الحس، وبذلك يتصف التخيل بصفته النوعية المميزة وهي الابتكار».³

ومن هذا المنطلق يمكن القول أن التخيل يتسم بالحسية، لأن مادته التي يتعامل معها هي صور المحسوسات المختزنة في القوة المصورة أو الخيال.

¹ - محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، مرجع سابق، ص: 240.

² - جابرعصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، عام 1992م، ص: 13.

³ - المرجع نفسه : 37.

وإذا كان الخيال يعتمد في نشاطه على مثل هذه المادة فمن البديهي حينئذ أن لا يعمل التخيل عندما يتوقف الحس عن العمل، ومن الطبيعي أيضا أن يتأثر التخيل بكل الحالات والأعراض التي تطرأ على الحس، ولذلك فإن «الحس منشأ التخيل، وحيث لا يوجد حس لا يوجد تخيل، ولذلك فإن الإنسان لا يمكنه أن يتخيل أمراً من الأمور أو شيئاً من الأشياء لم يؤدي إليه الحس بنحو من الأنحاء»¹

وينبغي علينا أن ننبه على خطر الخيال المكتظ الذي قد يسيء إلى الأدب مما يدفع إلى أن تصبح الصور حجاباً بين طرفين: المبدع والمتلقي، إن مثل هذا الخيال لا يقدم لوحة حافلة بالفكر والعاطفة، لأن مثل ذلك الخيال لأجل الخيال، كان هو الهدف المرغوب، وربما يكون الهدف الأوحده، وهذا ما نجده تحت عباءة الفن للفن، وهو نهج لا يلبث أن يزول، ومثل هذا الخيال لا يتأتى أبداً، ولا يقوم في الحديث النبوي الشريف لسببين:

أولهما: أن طبيعة الأدب النبوي أدب هادف غايته الدين الإسلامي الحنيف، وهو يسعى إلى الإدراك الحسي العاطفي للحقيقة الدينية فهو شارح وموضح للحقيقة الدينية، ولذلك فإن الرؤية القائلة الفن للفن، مستبعدة من الأدب النبوي الذي «هو فن ديني معرفي يواكب هذه الأيام الأدب الإسلامي، لأنه يشرح حقائق دينية شرحاً يلبس لبوساً جمالياً هادفاً ولا يمتزج بالجمال إلا لأجل الحق».²

ثانياً: أن الخيال أصلاً لا يدخل في الجوانب الفقهية خاصة الأمور المتعلقة بالعبادات فذلك أمر أوحج إلى رجاحة العقل وحده لذلك جاءت هذه الأمور في أسلوب تقريرى فصيح خال من الخيال أو المجاز.

¹ - جابرعصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب المرجع نفسه : 37.

² - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 111.

وأما الجانب الذي يمكن أن تكون فيه اللغة خيالية فيعود أصلاً إلى طبيعة اللغة العربية في صياغتها ومسار تقلب معانيها وتطور مدلولاتها، فهي نبع فائض وصدى شفاف لذلك ترسم صور فنية بطبيعتها وتستوي أداة لتجسيد الأمور المعنوية وتشخيص الموات.¹

وهذا ما نجده في الأدب النبوي الشريف عندما يتناول الفضائل والمثالب على الأغلب وهذا النوع من الأدب في حاجة إلى وجدان يتفاعل مع الدين الإسلامي، وهنا يكون التفاضل في التطبيق، لأنه يتعلق بالقلبيات إذ يتطوع المؤمن ويزهد ويناضل ويحسن ويقبح.

إن الأدب النبوي لم يكن ليتغزل بجمال الطبيعة حتى يمكن أن يرتقي الخيال فيه إلى المستوى الذي نراه عند البعض، وإنما نقف عند ذوق راق لعناصر الطبيعة وتوظيفها لغاية سامية من أجل الإبداع وإيضاح الحقيقة.

ثم أن مشاهد «أهل الجنة وأوصافها الرائعة واللؤلؤ وحرور عين ومنابر النور، كل هذه المشاهد من الجمال الذي تثير الخيال البشري وإن كان يخلو منه».²

وإذا كان لابد من الخيال في مخاطبة «عرب خلص مولعين بالخيال الذي يعم قصائدهم، وبالتجاوب مع مفردات الطبيعة. وإذا كنا ننفي إصاق مفهوم الخيال كما يتكئ عليه الشعراء بالنبي الكريم حال إنشاء الصورة فإنه يبدو لنا أن الصورة تكون جاهزة في فكره الشريف ولم تخرج تلقائياً من الباطن أو اللاشعور في الوقت نفسه»³

ويذهب الدكتور أحمد ياسوف إلى القول: «ولا يمنع في العقل، والشرع أن يعتقد النبي عليه الصلاة والسلام أن يخلق الله تبارك وتعالى تلك الصور التي يذكرها، وهو القادر على كل شيء. كما أن كثيراً من الأشياء المثيرة للخيال سوف تتحقق على شكلها المصور

¹ - انظر : أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 111.

² - المرجع نفسه ص: 111.

³ - المرجع نفسه، ص: 115.

، كتغير خُلِّقَه الكفار والشجر الكبير الحجم وسائر المرئيات غير المعهودة في الدنيا وسائر المرغبات والمرهبات لتي جاءت في أشكال لا نعهدها في عالم الشهود»¹.

ومهما يكون الأمر فإن الصورة في البيان النبوي الشريف قائمة ، والذي لاشك فيه أنها صورة ليست وليدة الانفعال الآني، الذي يزول بسرعة. وقد أشار سيد قطب عندما تناول التصوير الفني في القرآن أن « التصوير هو الأداة المفضلة في أسلوب القرآن فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية كما يعبر بها عن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور، ثم يرتقي بالصورة التي يرسمها، فيمنحها الحياة الشاخصة »² ويؤكد قوله بأنه «يجب أن نتوسع في معنى التصوير حتى ندرك آفاق التصوير الفني في القرآن، فهو تصوير باللون، وتصور بالحركة وتصور بالتخيل»³

وبعد هذا لابد لنا من الوقوف على وظيفة الاستعارة التي تزيد من بلاغتها وقيمتها الفنية حيث تزداد جمالا وتأثيرا عن طريق، التشخيص، والتجسيم

أولاً: التشخيص:

أشار ابن منظور إلى التشخيص فقال: « الشخص كل جسم له ارتفاع وظهور والمراد به: إثبات الذات فاستعير لفظ الشخص»⁴ والتشخيص هو إسباغ الحياة الإنسانية على ما لاحياة له، كالأشياء الجامدة والكائنات المادية غير الحية وفي التشخيص « يُمنح المعاني حياة آدمية، ويبعث في الفكرة حركة نابضة ، وتسري في الخاطرة الألوان الشاخصة والأشكال الإنسانية وتلتهب المواد في الطبيعة بالعواطف البشرية، وتفيض مظاهر الحياة

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 115.

² - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، دون ذكر الطبعة والسنة، ص: 60.

³ - المرجع نفسه، ص: 33.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 33.

بالوجدان المتدفقوالانفعال القوي، وبذلك تتحد مظاهر الحياة في طيات سر الوجود»¹
يتم التلاحم بين الجماد في سكونه،أو المجرد في غيابه، وبين الحسي أو العاطفي الإنساني ،
وفي هذا النهج علوٌ بالأشياء إلى المستوى الإنساني إذ تمنح المشاعر والأفعال البشرية لتكون
أقرب إلى الحركة العليا الواعية ، لا الحركة الاندفاعية الغريزية كما عند الحيوان.²

ويمكن أن نطلق عليه استتطاق الجماد وهو أكثر ما يكون في أسلوب الاستعارة
المكنية « أحد جبل يحبنا ونحبه »³ حيث تحول الجبل الجامد إلى شخص وديع يحب المسلمين
و يحبونه ، والأماكن تثير الذكريات ،كما يستذكر الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الجبل
أهله، لأن الذكريات تصلنا بالأشياء، فإذا بنا نحدثها فنصغي إليها كأنها تحدثنا،إنه فيض
إحساس بها انتقل إليها منا، والزيادة في الحب فتشخيصها نابض بالحياة وفي حديث آخر عن
أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « احتجت النار والجنة، فقالت هذه:
يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه :يدخلني الضعفاء والمساكين فقال الله، عز وجل،
لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء - وربما قال: "أصيب بك من أشاء" وقال لهذه: أنت
رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها »⁴.

والملاحظ في النص جانب التشخيص وذلك من خلال بروز الصفات الإنسانية في
الجماد والمعاني، لأننا في الدنيا لا نعرف الكلام لغير البشر، فالنار في النص مخلوق تنسم
بالكلام، وكذلك الجنة مخلوق لها من صفات الإنسان.

¹ - علي علي الصبح، البناء الفني للصورة الأدبية، المكتبة الأزهرية للتراث، مصر، ط1، عام:1996م، ص:187.

² - انظر: المرجع نفسه، ص183.

³ - صحيح البخاري، ج2، ص:540، رقم الحديث:1411..

⁴ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص:2186، رقم الحديث:2846، ص:187.

ثانياً: التجسيم

وبالنظر إلى الأصل اللغوي لمادة "جسم" تتضح لنا الدلالة الحسية، حيث جاء في لسان العرب: «الجسم جماعة البدن أو الأعضاء من الناس، والإبل، والدواب وغيرهم من الأنواع العظيمة، وجسم الشيء حقيقته»¹. على أن الجسم يتصف بالأبعاد من طول، وعرض، وارتفاع، حيث يمكن رؤية ذلك وتحسسه بالأيدي، أو عن طريق الحواس، أما مفهوم التجسيم في الأدب، فهو يعني إعطاء الفكرة جسماً، أو تجليها من خلال الوحدات اللغوية، وهكذا يلوح من الأصل اللغوي والاشتقاق.²

أما المدلول الفني، فيقول فيه المعجم الأدبي " «هو ميل معاكس للتجريد، أي إبراز الماهيات والأفكار العامة والعواطف في صورة وتشابيه محسوسة»³ هي في واقعها رموز معبرة عنها".

فمثلاً قوله عليه الصلاة والسلام: " أثقل الصلاة على المنافقين العشاء والفجر" بهذا التعبير أصبحت صلاة العشاء والفجر كأنها قطع كبيرة من الصخر على كاهل المنافقين، وكل الصلوات ثقيلة عليهم بدلالة الفعل " أثقل " وهو يعطي الصورة قوة كما في الحديث، حيث زاد المعنى قوة وتأثيراً في النفوس، ولاسيما في نفوس المنافقين؛ لأنهم المعنيون بالأمر، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام، فيما رواه أبو مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « الطهر شطر الإيمان، والحمد تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن - أو تملأ - ما بين السموات والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»⁴.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص:284.

² - انظر: علي علي صبح، البناء الفني للصورة الأدبية في الشعر، مرجع سابق، ص:183، 185.

³ - جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار الملايين، بيروت، ط1، عام: 1977 م، ص:59.

4 - صحيح مسلم، ج1، ص:203، رقم الحديث:223.

والملاحظ في هذا الحديث قوة التجسيم في مثل هذا التعبير المباشر، قائم على التشبيه البليغ، وهذا يفيد اتحاد الطرفين: المعنوي والحسي، فالطهارة تصبح نصف الإيمان، ويرتسم هنا كائن منقسم أحد قسميه هو الطهارة، وفي ذلك تقريب للمعنى وتشويق له.

المطلب الثالث: أركان الاستعارة وأقسامها

وبعد أن اتضح مصطلح الاستعارة في الدراسات البلاغية، حاول جمهور البلاغيين تحديد ماهيته، حيث وقفوا عند جوانب متعددة تتصل بالاستعارة رغم بعض الخلاف بينهم، إلا أنهم اتفقوا على أنها ضرب من المجاز اللغوي، علاقته المشابهة، وأنها: «اللفظ المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة بين المعنيين، الحقيقي، والمجازي، مع قرينة مانعة من إرادة للمعنى الأصلي للفظ».¹

وبالنظر إلى طبيعة الاستعارة فإن العلاقة بين طرفي الاستعارة «ليست علاقة منطقية، بقدر ما هي علاقة من وضع الخيال»². ومن هذا المنطلق، فإننا عندما نقول الاستعارة تقوم على التشبيه وتبنى عليه، فإننا نهدف بهذا الإطلاق «الذي يضمه المستعير في نفسه وهو تشبيه معنوي لا لفظي وهو لا يمكن تناسبه إلا بعد وجوده واستحضاره في النفس».³

وبالنظر إلى تقييد العلاقة في الاستعارة بالمشابهة فإنه يعني خروج المجاز المرسل والعقلي، لأن المرسل له ملابسات غير المشابهة، وكذلك المجاز العقلي فإن مجازه في الإسناد. ثم إن في الاستعارة كما هو واضح عند علماء البلاغة يحذف أحد الطرفين، المستعار منه، أو المستعار له، إلى جانب وجه الشبه والأداة، حتى يصح استعمالها.

والجانب الآخر هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له، والمراد من ذلك أن الألفاظ تدل على ما وضعت له في أصل اللغة، وهذا ما يسمى بدلالة المطابقة عند السكاكي « هي

¹ - غازي يموت، علم البيان، مرجع سابق، ص: 244.

² - أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، مرجع سابق، ص: 306.

³ - المرجع نفسه، ص: 20-21.

دلالة للفظ على تمام ما وضع له، كدلالة الإنسان على مجموع الحيوان الناطق، ودلالة البيت على مجموع السقف والدار، وسميت بذلك لتطابق اللفظ والمعنى»¹.

وهي دلالة وضعية مثل لفظ الأسد المفترس المعروف، فاستعارته للرجل الشجاع، مثل قولك: "صافحت الأسد"، فهذا التركيب استعمال في غير ما وضع له على سبيل الادعاء، لأن الاستعارة «لا تكون نقلاً، وإنما هي إدعاء دخول المشبه في جنس المشبه به، وذلك عن طريق إثبات المشبه به للمشبه»². وادعاء دخول المشبه في جنس المشبه به وهو الحيوان المفترس، وذلك بالإثبات ما له من خصائص الشجاعة والإقدام وهي ما يتصف به المشبه به، إثبات ذلك للمشبه "الرجل" وبذلك يكون لفظ الأسد مستعاراً، وهو المنقول، ويكون المستعار منه الحيوان المفترس "الأسد" المستعار له هو "الرجل الشجاع"، وذلك من خلال علاقة مشابهة بين الطرفين بمعاني الشجاعة والإقدام.

أركان الاستعارة:

وعلى هذا يمكن القول بأن أصول الاستعارة، وما أجمع البلاغيون عليه أن للاستعارة ثلاثة أركان هي:

أولاً: المستعار منه وهو المشبه به،

ثانياً: المستعار له وهو المشبه،

ثالثاً: المستعار، وهو اللفظ المنقول الذي تحدث فيه عملية الاستعارة.

ولما كانت الاستعارة خطوة متقدمة عن التشبيه كان التأكيد على الشبه الاستعاري ناجماً عن اعتبار التشبيه في هذا الجزء من الاستعارة هو الأساس الذي تبنى عليه، لأنه

¹ - أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، المصدر سابق، ص: 24.

² - أحمد مطلوب، البلاغة العربية، مرجع سابق، ص: 215.

الصورة التي يتخذها الشكل أو الصيغة التي تمثل النموذج الأدبي لهذا فلا بد لنا من الالتفات نحو هذا الأساس والسير معه»¹.

قال الآمدي: «وانما استعارت العرب المعنى لما ليس له إذا كان يقاربه، أو يناسبه، أو يشبهه في بعض أحواله، أو كان سبباً من أسبابه، فتكون اللفظة المستعارة حينئذ لائقة بالشئ الذي استعيرت له، وملائمة لمعناه»² ثم يضيف إلى ذلك «أن الاستعارة حدا تصلح فيه، فإذا جاوزته فسدت»³.

هذه الإشارات التي أشار إليها الآمدي تلقفها عبد القاهر الجرجاني بعقل الخبير الذي يدرك أصول الأمور، فقسم أصول ومآخذ الاستعارة إلى أقسام

نود الوقوف عند هذه المآخذ التي أشار إليها عبد القاهر الجرجاني⁴. والتي نعتقد أنها تساعد على الكشف عن الجانب الفني في الصورة الاستعارية في الحديث النبوي الشريف وهي مآخذ وأصول ثلاثة.

الأصل الأول: وفيه يؤخذ الشبه الاستعاري من الأشياء المدركة بالحواس للمعاني المعقولة، أي من الحسي إلى العقلي، وذلك كاستعارة النور للبيان والحجة، فالنور من الأشياء التي نشاهدها بالبصر وقد استعير للبيان والحجة وهما مما يتوصل إليهما عن طريق العقل ومنه أيضاً استعارة " النور للعلم والإيمان"، واستعارة الظلمة للشبهة والجهل والكفر. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾⁵ حيث استعار لفظ انسلخ وعبر به تعبيراً دقيقاً لدلالته

¹ - محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، مرجع سابق، ص: 96-97.

² - أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، مصدر سابق، ص: 266.

³ - المصدر نفسه، ص: 276.

⁴ - انظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص: 56.

⁵ - سورة الأعراف، الآية: 175.

على التخلي التام عن الآيات كما تتسلخ الحية من جلدها، بأن كفر بها وأعرض عنها والصورة تصور حالة النزع الشديد، والتعبير دال عن الخروج منها بالانسلاخ للإيدان بكمال مباينته للآيات بعد أن كان بينهما كمال الاتصال.

وطبيعي أن الآيات في إدراك المعرفة أمر عقلي، وأن السلخ أمر مادي، فاستعير هنا المحسوس للتعبير على المعقول، صورة شاخصة تنبض بالتعبير الحي فتثبت الحقيقة الواقعة للأمر من المجرّد العقلي إلى الإدراك الحسي المتميز.¹

ومن الحديث النبوي الشريف قوله عليه الصلاة والسلام: «بلوا أرحامكم ولو بالسلام»² وفي رواية ثانية " انضحوا أرحامكم".³

يقول الشريف الرضي: «والمعنى واحد، وهذه استعارة، لأن المراد: صلوا أرحامكم ولو بالسلام، أي جددوا المودة بينكم وبين أقبائكم ولو بالتسليم عليهم تشبيها ببل السقاء اليابس، لأنه لا يتبال إلا بملء الماء فينتدي قاحله، ويتمدد قالصه، فشبهوا بل الأرحام بذلك، لأن في حسن المخالفة تجديدًا لمخلقها وإحكاما لها وهي من علائقها».⁴

فقد شبه عليه الصلاة والسلام صلة الرحم ببل السقاء، إذ ما ترك جف ويبس وتقلص وتلف، أما إذا تم سقيه فإنه يظل طريًا لينا صالحا، كذلك الأرحام إذا تم وصلها وأخذ بها فإن الأرحام تصلحها الصلة، وتتلفها القطيعة، والصلة أمر معنوي تدرك بالعقل ولذلك استعاروا الببل وهو أمر حسي نتوصل إليه عن طريق الحواس، وفي ذلك إظهار الأمر المعنوي في صورة حسية، أو استعير الأمر الحسي للتعبير عن الأمر المعنوي

¹ - انظر: أحمد عبد السيد الصاوي، مفهوم الاستعارة، مرجع سابق، ص: 123.

² - الشريف الرضي، المجازات النبوية، مصدر سابق، ص: 59.

³ - المصدر نفسه، ص: 59.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 60.

الذي يدرك بالعقل فقد أخذ الشبه من الشيء الحسي المدرك بالحواس للتعبير عن المعنى العقلي.

الأصل الثاني: استعارة المحسوس للمحسوس.

وهو أخذ الشبه من الأشياء المدركة بالحواس للأشياء المدركة بالحواس، أو هو أخذ الشبه الاستعاري من المحسوس إلى المحسوس، وهذا الضرب من الشبه نماذج من القرآن الكريم أقل توافراً من الأصل الأول¹، ربما يعود الأمر إلى كون أن الأمر الحسي واضح على العموم، فلا ضرورة إلى ما يوضحه ومع ذلك نجد قوله عز وجل: ﴿يَكَاذُ الْبَرْقُ يَخْطُفُ أَبْصَارَهُمْ﴾² حيث أخذ الشبه من حسي إلى حسي، وهذه استعارة، والمراد يكاد يذهب بأبصارهم من قوة وشدة اللعان. ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «حصائد ألسنتهم»³ فالمستعار منه ما يقطع من الحشيش اليابس والرطب، والمستعار له ما يسمع من الكلام السقط، والجامع خليط النفيس مع الخسيس من غير تمييز، وقد يأتي الشبه من استعارة المحسوس للمحسوس والشبه عقلي، وحينئذ يؤخذ الشبه من الأشياء المدركة بالحواس للأشياء المدركة بالحواس بها مع كون وجه الشبه عقلي، وذلك كما في قوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم وخضراء الدمن» فالمشبه المرأة الحسنة في المنبت السوء، والمشبه به، النابتة على الدمنة، وكلاهما محسوس، وأما وجه الشبه في ذلك فهو أمر عقلي وهو حسن الظاهر وفساد الباطن.

الأصل الثالث:

وهو أخذ الشبه الاستعاري من معقول إلى معقول، وهذا النوع مقتضب فيما أحسب، ومرد ذلك يعود إلى طبيعة الحديث النبوي الشريف وممارسته الفنية التي تقوم أصلاً على الوضوح والإيضاح، وذلك بأن يتم تمثيل المجرد إلى الحاسة «أما التمثيل العقلي بالعقلي

¹- محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، مرجع سابق، ص: 126.

²- سورة البقرة، الآية: 20.

³- الترمذي، الجامع الكبير، تحقيق: بشار عوار معروف، دار الغرب الإسلامي، ط1، عام: 1996م، ص: 363، رقم الحديث: 2166.

فهو انتقال عن الأصل الموضوع له التصوير الاستعاري¹ ومع هذا قد نجد له في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾² إذ استعار للإيمان الحياة، وللکفر الموت، والإيمان أمر عقلي، والحياة أيضا أمر عقلي، والكفر جانب مثالي، والموت معنى مثالي « فهما استعارة عقلي لعقلي من هذا الوجه فحسب، على أن الآية قد أوضحت هذين الأمرين العقليين بما استعارت لمعرفتهما من أمر واقعي محسوس، وهذا النور للأول، والظلمات للثاني، وكأن تذليل هذه الاستعارة في هذا الكشف والإيضاح هو استخراج عنصرين من عناصر الطبيعة هما الظلمات والنور، لإمكان تطبيقهما على حالتي الحياة والموت في الإيمان والكفر، أو الهدى والظلال، أو العلم والجهل، وجميعها أمور معنوية عقلية»³.

إذا كان ظهور أصل الشبه فيما تم الإشارة إليه، فإنه قد لا يظهر ذلك في الاستعارة وجه الشبه، ويكون ذلك أوقع في النفس، حيث ينظر إليه على أنه من أحسن أنواع الاستعارة ويكون ذلك أوقع عند البلاغيين ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾⁴ فوجه الشبه لا يظهر، ولو حاولت ذلك إظهاره لخرج الكلام عن حد البلاغة.

ولذلك كلما زادت الاستعارة في الخفاء كلما كان وقعها أفضل وأحسن ومن الوجهة ونحن في هذا المقام نستدل بحديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ،لأنه يتوفر على أصول الشبه، وقد استشهد به صاحب كتاب التبيان في البيان، قال معاذ رضي الله عنه، قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني من النار، قال: « لقد سألتني عن عظيم، وأنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، وتحج البيت، ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار، وصلاة

¹ - محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي، مرجع سابق، ص: 127.

² - سورة الأنعام الآية: 122.

³ - أحمد عبد السيد الصاوي: مفهوم الاستعارة، مرجع سابق، ص: 127.

⁴ - سورة النحل، الآية: 112.

الرجل في جوف الليل، شعار الصالحين، ثم تلا ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾¹ ... حتى بلغ "يَعْمَلُونَ"، ثم قال: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه. فقلت بلى يا رسول الله، قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد، ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال كف عليك هذا، وأشار إلى لسانه، قلت: يا نبي الله، وأنا مؤخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم، أو قال: على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟²

من خلال التحليل يمكن الوقوف على العديد من الاستعارات في الحديث ففي قوله عليه الصلاة والسلام: "ألا أدلك على أبواب الخير" ففي قوله "أبواب الخير" يمكن القول إنها من الاستعارة التصريحية التخيلية، حيث نجده عليه الصلاة يشبه الخير بدار فيها كل ما تتمناه النفس، «ثم بولغ حيث أدخل الخير في جنس الدار فتوهم له ما يلزم الدار، وهو الباب، ثم شبه المخترع بالباب الحقيقي، ثم أطلق اسم المحقق على المتوهم وجعل إضافة الباب عليه قرينة».³

والملاحظ أنه استعارة محسوس لمعقول، ففي قوله: أبواب الخير، فإن المستعار منه الدار، والمستعار له الخير، والجامع كون الشيء مرغوب فيه.

وأما قوله عليه الصلاة "تطفئ الخطيئة، كما يطفئ الماء النار"، ففي قوله "تطفئ الخطيئة" استعارة يمكن اعتبارها من التبعية، لأن الأصل فيه أن يقال: «إذهاب الصدقة الخطيئة كما أطفأ الماء النار، ثم استعير الإطفاء بالذهاب ثم سرى معنى الإطفاء إلى تطفئ».⁴

¹ - سورة، السجدة، الآية: 16.

² - الترمذي، الجامع الكبير، مصدر سابق، ج4، ص: 363، رقم الحديث: 2616.

³ - فالج حمد أحمد الحمداي، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 194.

⁴ - المرجع نفسه ، ص: 194.

والملاحظ أنه استعار معقول لمعقول، وهو استعارة الإطفاء للذهاب. وأما قوله عليه الصلاة والسلام " حصائد ألسنتكم"، يمكن أن تكون الاستعارة تصريحية تحقيقية باعتبار ما يسمع به الإنسان هو المشبه المتروك وهو محقق، ويمكن أن تكون الاستعارة تخيلية، باعتبار أنه يشبه اللسان بالمنجل « ثم يبالغ فيه فيتوهم اللسان ما يلزم المنجل، ويمكن أيضا أن تكون الاستعارة تمثيلية، وذلك بأن تشبه حالة الصدقة وكونها بحيث تذهب الخطيئة نحوها بحالة الماء، وكونه يطفئ النار الشاعلة، ثم استعمل هنا ما كان مستعملا هناك»¹ والاستعارة من قبيل محسوس لمحسوس، بوجه حسي، فالمستعار منه ما يقطع من الحشيش اليابس والرطب، والمستعار له ما يسمع من الكلام السقط والنخب، والجامع خليط النفيس مع الخسيس من غير تمييز»².

وبالرجوع أيضا إلى قوله عليه الصلاة والسلام: " أبواب الخير" إذا جعلت الاستعارة في الباب فإن أصل الاستعارة حينئذ تكون من محسوس لموهم أو لمتوهم.³

وأشير في الأخير أن أخذ الشبه من المعقول إلى المحسوس، أو من المعقول للمعقول لم أجد لهما فيما وقع بين يدي إلا ما ذكرت. وهو ما ذكره الطيبي في كتابه: " التبيان في البيان" وربما أنه عليه الصلاة والسلام يخاطب عامة الناس فيحتاج إلى التوضيح والإبانة، لذلك كان المحسوس أكثر الأصول وضوحًا، سواء كان المحسوس لتوضيح المعقول، أو المحسوس للمحسوس، ثم إن الأصل أن يكون المحسوس للمعقول، أما لو كان الخطاب بالمعقول للمحسوس فإنه دون شك سوف يكون فيه تعمية وكذلك المعقول للمعقول. والمقام يقتضي الوضوح والإبانة لذلك لم نجد له أمثلة.

¹ - الطيبي، كتاب التبيان في البيان، تحقيق عبد الستار حسين مبروك زموط، رسالة دكتوراه جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، عام: 1977، ص: 321.

² - المرجع نفسه، ص: 321.

³ - انظر: المرجع نفسه ، ص: 320.

أقسام الاستعارة:

لقد انشغل الدارسون بتحديد أنواع الاستعارة وتوصيف آلياتها وأهملوا الجانب الفني الذي تقوم عليه في رسم الصورة التبليغية للمتلقي، لذلك أصابها ما أصاب الألوان البلاغية المختلفة الأخرى من التقسيمات والتفرعات المتنوعة، حتى ذهب رونقها وخف شعاعها وسحر جمالها، ومالت إلى الجفاف بسبب هذه التفرعات التي أسهمت في إخماد جمالها وسحر بيانها.

لقد كان ابن المعتز في القرن الثالث الهجري من الأوائل الذي توقف عند الاستعارة وضرب لها الأمثلة، وبذلك يمكن القول أنها أول محاولة جادة لتقديم تصور فني بلاغي يعتمد الاستحسان والاستهجان.

وفي القرن الرابع الهجري جاءت محاولة أبي علي الحاتمي، وهي إمتداد لذلك الحس الفني الذي رأيناه عند ابن المعتز حيث جعل الحاتمي الاستعارة طبقات ثلاث:

هي المستحسنة، وهي التي موقعها في البيان فوق موقع الحقيقة، وأما النوع الثاني: وهي الاستعارة المستهجنة؛ لأنهم استعاروا لما يعقل أسماء وألفاظ ما لا يعقل، وأما الثالثة: وهي أفضل من الثانية؛ لأنهم استعاروا لما لا يعقل اسماً لما يعقل.¹

هذه الطبقات الثلاث تصلح أن تكون الأساس الفني الذي ينتظمها، ثم جاء في القرن الخامس الهجري عبد القاهر الجرجاني الذي يعد فعلاً من الأوائل الذين قسموا الاستعارة إلى نوعين: الاستعارة غير المفيدة، والاستعارة المفيدة.

الاستعارة غير المفيدة: وهذا النوع تنتقل الألفاظ عن معانيها لكنها، لا تفتح أكماء الكلام ولا تفسح مجالاً للتوسع، وكل ما يؤديه هذا النوع «هذا الذي لا يفيد نقله: حيث يكون اختصاص الاسم بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتتوُّق في مراعاة

¹ -انظر: أبو علي الحاتمي، الرسالة الموضحة، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، دار بيروت، ط1، عام: 1965، ص: 40-41.

دقائق الفروق في المعاني المدلول عليها، كوضعهم للعضو الواحد أسامي كثيرة بحسب اختلاف أجناس الحيوان نحو وضع الشفة للإنسان، والمشفرة للبعير، والحفلة للفرس وما شكل ذلك من فروق»¹

وبذلك حسب رؤية عبد القاهر الجرجاني لا يفيد هذا النوع معنى زائداً فهو عنده لا يؤدي ما تؤديه الاستعارة المفيدة من توسع في التعبير.

والاستعارة المفيدة: وهي عند عبد القاهر عمدة فن الاستعارة، لذلك نجده قد أولاهما من الاهتمام والعناية والتحليل « اعلم أن الاستعارة في الحقيقة هي هذا الضرب دون الأول وهي أمد ميداناً وأشد افتناناً وأكثر جريانا وأعجب حسناً وإحساناً وأوسع سعة، وأبعد غوراً وأذهب نجداً في الصناعة وغوراً من أن تجمع شعبها وشعوبها وتحصر فنونها وضروبها، نعم وأسحر سحرًا وأملأ بكل ما يملأ صدرًا... »²

وربما تعود هذه الأهمية إلى كون الاستعارة المفيدة تسهم في إعطاء أشكال مختلفة من خلال تباين الألفاظ والسياقات، وهو بذلك يحصر الاستعارة في قسمها المفيد الذي يحقق جمالية القول وحسن العبارة ودقة التأمل وقوة التأثير، والملاحظ أن عبد القاهر الجرجاني يحاول إرجاع الاستعارة أيضاً إلى الأصول النحوية من حيث قيامها على الاسم والفعل «أن كل لفظة دخلتها الاستعارة المفيدة فإنها لا تخلو من أن تكون اسماً أو فعلاً»³ ثم أنه لمح إلى الاستعارة التصريحية والمكنية.

وأما السكاكي فقد عرف الاستعارة بقوله: «هي أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطرف الآخر مدعياً دخول المشبه في جنس المشبه به بإثباتك للمشبه ما يخص المشبه به»⁴ وقسم الاستعارة إلى ثلاثة عشر قسمًا، باعتبار ضابط التقنين والحصص، إلى جانب

¹ --عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص:30

² --المصدر نفسه، ص:39

³ -- المصدر نفسه، ص:3941

⁴ --السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص:599.

الإكثار من النماذج والأمثلة، وبذلك يكون قد أدخل البلاغة العربية عمومًا عهدًا جديدًا في تاريخها، فقد نظر في تقسيمه إلى الطرفين أو قيامها على الاسم الجامد أو المشتق أو الفعل إلى غير ذلك من الأصول الفنية.

هذه التقسيمات جميعها نجدها عند المتأخرين أمثال القزويني وشرح التلخيص وغيرهم من الذين أكثروا من هذه التقسيمات وجعلوها متشعبة على أسس واعتبارات مختلفة ومتنوعة.

ومع أن هذه التقسيمات التي ذكروها جميعها لا تخرج عن نطاق الاستعارة التصريحية، أو المكنية فهي إما لاحقة لها، أو متأثرة بها.

هذه التقسيمات كانت مدار البحث عند المتأخرين، حيث أضافوا إليها تقسيمات متعددة حتى تجاوزت العشرة من حيث وجه الشبه، مما أذهب رونق الاستعارة وبهاءها فأضحت جامدة جافة لا تنبض بالحياة.

وعلى العموم فإن هذه التقسيمات جميعها لا تخرج عن منهج تأثير الدراسات النحوية والمنطق والفلسفة الكلامية، هذا المنهج أدخل الاستعارة مثل باقي الفنون البلاغية خاصة التشبيه في تقسيمات كثيرة، ومن ذلك هذا المثال من مفتاح العلوم الذي يظهر مدى تأثير الدراسات البلاغية بالمنطق والعقل، يقول السكاكي بعد أن قسم الاستعارة إلى قسمين رئيسيين تصريحية ومكنية: « والمصرح بها تنقسم إلى حقيقية، وتخيلية، والمراد بالتحقيقية أن يكون المشبه المتروك شيئًا متحققًا إما حسيًا، وإما عقليًا، والمراد بالتخيلية أن يكون المشبه المتروك شيئًا وهميًا ما لا تحقق له إلا في مجرد الوهم، ثم تنقسم كل واحدة منهما إلى قطعية، وهي أن يكون المشبه المتروك متعين الحمل على ما له تحقق حسي، أو عقلي، وعلى ما تحقق له البتة إلا في الوهم، واحتمالية: وهي أن يكون المشبه المتروك صالحًا لحمل تارة على مسألة تحقق، وأخرى على ما لا تحقق له »¹.

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 604.

لاشك أن هذا النص وغيره يظهر مدى سيطرة العقل في التقسيم حيث عمد إلى المنطق في جميع إشاراته وتقسيماته.

هذا ما جعل الدكتور أحمد مطلوب يلح على أنه لا مناص في الدراسات أن نكتفي في دراسة الاستعارة بأقل المصطلحات، حيث يرى أن تقسيم الاستعارة إلى تصريحية ومكنية خير وأجدى في دراسة هذا الفن، لأن ذلك عمدته ما دامت الاستعارة تقوم على التشبيه عند معظم البلاغيين¹.

وأما الخطيب القزويني فقد سار على منوال السكاكي حيث عرف الاستعارة بقوله: «هي ما كانت علاقته تشبيه معناه بما وضع له»².

ثم قسم الاستعارة إلى أقسام: «ثم الاستعارة تنقسم: باعتبار الطرفين، وباعتبار الجامع، وباعتبار الثلاثة، وباعتبار اللفظ، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كله»³.

ثم أشار أن القسم الأول باعتبار الطرفين ينقسم إلى قسمين: وفاقية، وعنادية، وأما باعتبار الجامع فهي قسمان: أحدهما أن يكون الجامع فيه داخلا في مفهوم الطرفين، والثاني ما يكون فيه الجامع غير داخل في الطرفين، وينقسم أيضا باعتبار الجامع إلى عامية، وخاصة. وأما باعتبار الثلاثة: الطرفان، والجامع، فسته أقسام، وأقام الشواهد المختلفة على كل نوع من أنواع الاستعارة وقد أحاط بكل الجوانب المتصلة بالاستعارة.⁴

ولكن التطور التاريخي لهذا الفن يقتضي منا الإشارة إلى بعض هذه الأنواع حتى تتضح مسيرة هذا الضرب من البيان.

¹ - انظر: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مرجع سابق، ج1، ص: 143.

² - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 194.

³ - المصدر نفسه، ص: 202.

⁴ - انظر: المصدر نفسه، ص: 202، 205.

ونحن في هذه الدراسة رأينا هذه التقسيمات المختلفة والمتعددة التي يمكن الاعتماد عليها في المناهج التربوية حتى تتضح مسيرة هذا الفن، وأما في الدراسات المتخصصة فيكفي الاعتماد فقط على المنطلقات الأساسية لهذا الضرب من البيان.

وقد رأينا فيما شرحه عبد القاهر عند تقسيمه للاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة، أو قسم المفيدة: إلى ما سماه المتأخرون استعارة تصريحية ومكنية أي استعارة مفردة، واستعارة تمثيلية أي استعارة مركبة.¹

فقله: « اعلم أن الاستعارة هي في الحقيقة هذا الضرب دون الأول»² ويعني بذلك ما كان لنقله فائدة وهي عمدة هذا الفن ومداره، وأن أهم تقسيم للاستعارة هو من حيث الأفراد والتركيب، فنقسم إلى تصريحية ومكنية من حيث الأفراد، وإلى تمثيلية من حيث التركيب، ونحن نعتقد أن هذا التقسيم أفضل في دراسة الاستعارة، باعتبار أنه يوافق المنهج الذي أجريناه عند تقسيم التشبه إلى بسيط ومركب، وباعتبار أن الأنواع الأخرى تعود جميعها إلى الأصلين، التصريحية والمكنية، فإننا سنتناول بعض هذه الأنواع باعتبار أنها تساعد على الكشف عن الجوانب الفنية في مثل هذه الدراسة المتصلة بالحديث النبوي الشريف. وهذا في اعتقادنا أجدى في إدراك الجمال الفني الأدبي.³

¹ - انظر: محمد علي إبراهيم الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 2014، ص: 12-13.

² - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 39.

³ - انظر: أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد، ط1، عام: 1978م، ص: 35.

المبحث الثاني: الاستعارة بين الأفراد والتركيب في الخطاب النبوي الشريف

يقسم علماء البلاغة الاستعارة إلى أقسام وأنواع كثيرة ومتعددة، مما أفضى إلى تشعب في أقسامها، نظروا إليها من زاوية المستعار منه، فإذا ذكر كانت الاستعارة تصريرية وإذا حذف كانت مكنية، ثم نظروا أيضا إليها من حيث المتعلقات بطرفي الاستعارة، فإذا كانت خالية من ملائمت المستعار له، أو المستعار منه سموها مطلقة، وإذا ذكر معها ملائم المستعار له فقط، كانت مجردة، وإذا ذكر ملائم المستعار منه فقط، فهي مرشحة، ثم نظروا أيضا إلى اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة، فإذا كان اللفظ المستعار فيها اسم جنس، يدل على واحد غير معين من جنسه، أو بعبارة ثانية، جامد غير مشتق فهي أصلية، أما إذا كان اللفظ المستعار فيها فعلا، أو اسما مشتقا أو حرفا، فهي تبعية.¹

وقسمها الخطيب باعتبار مادتها، ما يدرك بالحس، أو بالعقل من الطرفين والعلاقة إلى ستة أقسام،²

ونحن في هذه الدراسة نواصل المنهج الذي اتخذناه عند تحليل الصورة التشبيهية حيث قسمناه إلى قسمين: مفرد ومركب، ومن خلال نفس النظرة ننظر إلى الاستعارة، باعتبار الأفراد والتركيب، وهو في نظرنا أفضل تقسيم للاستعارة.

ولذلك نقسم الاستعارة إلى قسمين: الاستعارة المفردة، ونتناول فيها التصريحية والمكنية، والاستعارة المركبة نتناول فيها، التمثيلية، على أن لا يخلو هذا التقسيم من الإشارة إلى الأنواع الأخرى المتصلة بالاستعارة التصريحية، أو بالاستعارة المكنية، لأنها تساعد على إظهار القيمة الفنية لصورة الاستعارة.

¹-انظر: أحمد مطلوب، المصطلحات البلاغية، مرجع سابق، ج1، ص: 134 وبعدها.

²- الخطيب القزويني، لإيضاح، مصدر سابق، ص: 207.

المطلب الأول: الاستعارة التصريحية في الخطاب النبوي الشريف.

وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به دون المشبه، أو أن: « يكون الطرف المذكور من طرفي التشبيه هو المشبه به »¹ أو كما قال الحلبي حتى وإن لم يسمها بقوله: «أن تعتمد نفس التشبيه، وهو أن يشترك شيئان في وصف، أحدهما أنقص من الآخر، فيغطي الناقص اسم الزائد مبالغة في تحقيق ذلك الوصف كقولك « رأيت أسداً»، وأنت تعني رجلاً شجاعاً، و "عنت لنا ظبية " وأنت تريد امرأة».² وهذا ما أشار إليه عبد القاهر الجرجاني في تعريفه حتى وإن لم يذكر اسمها المعروف بها عند علماء البلاغة فقال: « أن تنقله عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت معلوم فتجربه عليه وتجعله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف»³. وبهذا يكون المشبه به هو المذكور أو مصرحاً به، ويكون المشبه هو المحذوف.

وقد أشار أيضاً عبد القاهر الجرجاني إلى ذات الموضوع عندما كان في مقام تقسيم الاستعارة بوجه عام، إلى تصريحية ومكنية فقال: « فالاستعارة أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجربه عليه، تُريد أن تقول: رأيت رجلاً هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول: رأيت أسداً»⁴ والملاحظ في هذه الصورة أن المشبه محذوف ومطوي، والمشبه به، أو المستعار منه مذكور.

¹ - السكاكي، مفتاح العوم، مصدر سابق، ص: 604.

² - محمود بن سليمان الحلبي، حسن التوسل إلى صياغة الترسيل، المطبعة الوهبية، مصر، عام: 1298هـ، دون ذكر الطبعة ص: 24.

³ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 41.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 67.

وأما بهاء الدين السبكي فقد عرف الاستعارة التصريحية بقوله: « أن يذكر المشبه به مرادا دون المشبه »¹ أما الدسوقي في شرحه فقد أشار إلى « أن المراد بالاستعارة في كلام المصنف - أي الخطيب القزويني - الاستعارة التصريحية وهي التي يذكر فيها المشبه به دون المشبه »².

هذا المشبه به المذكور يمكن القول إنه يحمل رموزا ومعاني مشتركة بينه وبين المشبه، لذلك فإن الاستعارة التصريحية يذكر فيها المستعار منه صريحا، ويحذف المستعار له الذي يكتسب بحذفه من التعبير معاني جديدة وإيحاءات وجمالية نتيجة تفاعل طرفي الاستعارة.

وإذا كان عبد القاهر يظهر بوضوح عملية نقل الاسم المستعار إلى المستعار له فوجه الشبه بين الطرفين واضح وجلي وهو موجود في الشيء الذي استعرت له، كما يحتوي المستعار على المستعار له احتواء الصفة للموصوف « وعلى الرغم من بساطة علاقة التشابه بينهما ووضوحها حتى أنها لا تحتاج إلى إثبات أو ترجية، ولكن إيحاء الصورة تغمر المتلقي بفيض من الدلالة إذا أحسن المبدع تشكيل الصورة بناءً ووظيفة وذلك لما يمكن أن توحى به في سياقها الخاص وارتباطها»³.

وقد أشار السكاكي إلى شرط وأكده في الاستعارة التصريحية ،هو أن يكون الشبه بين المستعار له والمستعار منه جليا بنفسه أو معروفا سائرا بين القوم ، وإلا خرجت الاستعارة عن كونها استعارة، ودخلت في باب التعمية والألغاز⁴.

وأما من حيث مستوى الاستعارة التصريحية فقول محمد الهادي الطرابلسي: «لا شك أن مستوى الصورة الظاهرة يكون أقرب مأخذا وداله أبين أثرا في التركيب إذا ذكر المستعار بلفظه

¹ - بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح وتلخيص المفتاح، مصدر سابق، ص: 142

² - الدسوقي، حاشية الدسوقي على شرح التفتا زاني، مصدر سابق، ص: 346.

³ - فالح أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 204.

⁴ - انظر: السكاكي، مفتاح العلوم ، مصدر سابق، ص: 619.

في الاستعارة، ولذلك تعد الاستعارة التصريحية أبسط مظهر يخرج فيه هذا النوع من التصوير في الكلام. وأما درجة عمق المدلول ومدى بعد المرمى فيتحكم فيها المتعلقات خاصة»¹.

فعلى صعيد الاستعارة التصريحية في الحديث النبوي الشريف تتبلور تعاليم الدين الإسلامي من خلال توظيف الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا النمط من التصوير الفني فكان الشرح والإيضاح للمبادئ التي يقوم عليها الدين الإسلامي.

ولذلك فإن هذا الضرب من الاستعارة ورد في عدد من الأحاديث غير قليل حيث أظهرت الاستعارة التصريحية المعاني السامية والأفكار الإسلامية بصورة حيوية مؤثرة في المواضع التي وردت فيها، حيث لا يستطيع أي فن من الفنون البيانية أن يقوم بهذه الوظيفة التي تقوم بها الاستعارة التصريحية .

فقد حملت الاستعارة التصريحية « في طياتها أنواعا من الدلالات الفكرية تبلورت بها كثير من المفاهيم والمعاني وتحددت بها أدق الأحكام، إلى جانب ما تحمله الصورة التصريحية من دلالات نفسية عكست ألوانا مختلفة من الأحاسيس والمشاعر تجاه المواقف المختلفة»².

وقد تنوعت الاستعارة التصريحية في الحديث النبوي الشريف من حسية وعقلية وأصلية، وتبعية ووافقية، وعنادية، وبين مرشحة ومطلقة، وغيرها من الاستعارات التي تلحق بالاستعارة التصريحية باعتبار أنها تتفرغ عنها باعتبارات مختلفة، وسنقف عند البعض منها في مقامها، ومن الصور الاستعارية التصريحية التي جاءت في الحديث النبوي الشريف الحديث الذي قدمه البخاري وبدأ به صحيحه ، والذي يقول فيه الإمام ابن حجر

¹ - حمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دون ذكر الطبعة، عام: 1981م. ، ص: 163.

² - محمد علي إبراهيم علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 33.

العسقلاني:» وقد تواتر النقل عن الأئمة في تعظيم قدر هذا الحديث فاتفق الشافعي وأحمد بن حنبل، وأبو داود، والترمذي على أنه ثلث الإسلام واختلفوا في تعيين الباقي، وكلام الإمام أحمد يدل على أنه أراد بكونه ثلث العلم، أنه إحدى القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام وهي "ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" و"الحلال بين والحرام بين" وقال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: ينبغي لمن صنف كتاباً أن يبدأ فيه بالحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية¹.

فقد قدمه الإمام البخاري وغيره، كما ورد في ستة مواضع من كتابه الصحيح.

فقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على المنبر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هَجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»².

وفي قوله عليه الصلاة والسلام "إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ" وهو من مقابلة الجمع بالجمع وهذا التركيب المبدوء بإنما التي تفيد الحصر، أي أن كل عمل بنية، و" ما " في هذا المقام تفيد التوكيد وليست " ما " النافية وفي ذلك توكيد للخبر، لأن الحصر يفيد التأكيد على التأكيد³.

ومن هنا فإن كل الأعمال التي يقوم بها الإنسان تحتاج إلى نية، أو - العزم والقصد - وهي عزيمة القلب ورغبته، ثم إن الأعمال تتبع النيات « وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »

على أن تكون هذه النية خالصة لله، أو لغاية من غايات الدنيا فإنه ينال الجزاء عليها. ثم إن هذا والحديث جاء بروايات مختلفة منها: «....فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة يتزوجها،

¹ - العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 11.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 3، رقم الحديث: 1.

³ - انظر: العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق سابق، ج1، ص: 12.

فهجرته إلى ما هجر إليه»¹. قال ابن حجر: «الهجرة الترك، والهجرة إلى الشيء الانتقال إليه عن غيره. وفي الشرع: ترك ما نهى الله عنه، وقد وقعت في الإسلام على وجهين:

الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن، كما في هجرتي الحبشة وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

والثانية الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذلك بعد أن استقر النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين، وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالانتقال إلى المدينة، إلى أن فتحت مكة فانقطع الاختصاص وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقياً»².

ومن هذا المفهوم الذي أشار إليه ابن حجر جاءت الاستعارة " للهجرة "، والذي ينطلق من الهجرة في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم حتى قيام الساعة، يقول الكرمانى في شرحه: «إن لفظ " إلى " يتعلق بالهجرة إن كان لفظ " كانت " تامة، أو هو خبر " كانت " إن كانت ناقصة، وإن لفظ " كانت " إن كان للأمر الماضي فلا يعلم ما الحكم بعد صدور هذا القول في ذلك. وأجاب بأنه يجوز أن يراد بلفظ كان " الوجود " من غير تقييد بزمان، أو يقاس المستقبل على الماضي بسبب تضمن " من " لحرف الشرط إلى معنى الاستقبال، وأن حكم المكلفين سواء »³ وبناء على هذا الفهم تتضح الاستعارة في الهجرة.

ويكون المستعار منه هو المذكور "الهجرة"، وذلك في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من دار الخوف إلى دار الأمن، أو من دار الكفر إلى دار الإيمان، وذلك يعود إلى اعتبار النية

¹ - صحيح مسلم، م صدر سابق، ج3، ص 1016، رقم الحديث: 1907.

² - العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 16.

³ - الكرمانى ، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 19.

والمستعار له هو المحذوف، والمتمثل في مسيرة الإنسان في الحياة الدنيا، وكل الأعمال التي يقوم بها مخافة الله تعالى وابتغاء وجهه تعالى، أو لغرض من أغراض الدنيا.

وإذا نظرنا إلى هذه الاستعارة التصريحية باعتبار ذكر ما يخص المستعار منه والمستعار له فهي استعارة مطلقة.

وبالاستعارة أقحم المستعار له في المستعار منه وأصبحت « الهجرة كأنها هجرة الناس كافة من دار الكفر إلى الإيمان ابتغاء وجه الله ورسوله، وأصبح الإنسان بتركه الآثام والذنوب والمعاصي مهاجرا إلى الله سبحانه وتعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، يهجر الدنيا ومتاعها، وتصغر أمام عينه كل مغريات الحياة، وهذه هي الهجرة الشريفة المقترنة بهجرة المسلمين الأوائل، وإنه شعور عظيم أن يرى الإنسان نفسه قريبا من الرسول صلى الله عليه وسلم بهجرته إليه في كل أعماله».¹

ولعل المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: "ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه" ما ذكره الكرمانى: « فلا ثواب له عند الله، والمذكور مستلزم له دال عليه، أو فهي هجرة قبيحة خسيصة»². ويستدرك على هذا الحكم العسقلاني، لأنه يرى أن الهجرة قد تكون النية في مفارقة دار الكفر وتزوج المرأة معاً « أو القصور عن الهجرة الخالصة كمن نوى بهجرته مفارقة دار الكفر وتزوج المرأة معاً، فلا تكون قبيحة ولا غير صحيحة، بل هي ناقصة بالنسبة إلى من كانت هجرته خالصة، وإنما أشعر السياق بدم من فعل ذلك بالنسبة إلى من طلب المرأة بصورة الهجرة الخالصة».³

وفي النص أيضا استعارة تصريحية ثانية وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: "دنيا يصيبها" فقوله: "يصيبها" مستعار منه، والمراد إصابة الغاية بالسهم، والمستعار له هو

¹ - محمد علي إبراهيم علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 39.

² - الكرمانى، شرح الكرمانى، مصدر سابق، ج1، ص: 19.

³ - العسقلاني، فتح الباري بشرح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 17.

تحصيل الشيء ونيله، فتحصيل أي غرض من أغراض الدنيا هو كإصابة الهدف بالسهم، والجامع بينهما حصول المقصود وما يتبع هذا المقصود بعد تحصيله من نشوة ومنتعة « وفي هذه الاستعارة زيادة في الانتقال من شأن من كانت هجرته إلى هدف دنيوي "الإصابة" تشعر بمنتعة وقتية زائلة مثل باقي أهداف الدنيا لا تتصف بصفة الدوام إلا من قصد وجه الله تعالى ورضوانه».¹

والملاحظ في الاستعارتين التي اجتمعت في هذا الحديث الشريف أن الأسلوب التقريري لا يستطيع إظهار معنى قيمة الهجرة: الهجرة إلى الله، والهجرة إلى الدنيا إلا من خلال الأسلوب الفني القائم على الاستعارة، ثم إن قوله عليه الصلاة والسلام « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » يمكن اعتبار هذا من باب القرينة اللفظية الدالة على استعارة الهجرة حيث إظهار المعنى المجازي أنه يشمل جميع أهل الإسلام في كل عصر وزمان.

والحديث فيه دلالة أيضا إلى قوله عليه الصلاة والسلام «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وعابر سبيل هو المهاجر من دار الكفر إلى دار الإيمان. هو عابر سبيل في الدنيا رغم ما فيها من الدلالات وهذه الإيحاءات المختلفة كلها يمكن الوقوف عليها من خلال لفظ الهجرة²، هذه الدلالات النفسية تنبثق من لب صنيع الاستعارة وشريف فعلها حيث « توحى للمتلقى أن طرفي الصورة الاستعارية اتحدا حتى أصبح المستعار له كأنه المستعار منه نفسه، وهذا ما يفرق الاستعارة عن التشبيه، لأن في التشبيه يبقى المتلقى يشعر أن المشبه هو غير المشبه به مهما قويت العلاقة بينهما لوجود أداة التشبيه التي تشعر بالغيرية، سواء كانت مذكورة أو مقدرة».³

¹ - محمد علي إبراهيم حسن علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 38.

² - المرجع نفسه، ص: 38.

³ - المرجع نفسه، ص: 41.

ومن أمثلة الاستعارة التصريحية ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: بينما النبي عليه الصلاة والسلام في مجلس يحدث القوم، جاءه أعرابي فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: «أين -أراه- السائل عن الساعة؟»، قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قال: كيف إضاعتها؟ قال: إذا وُسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»¹.

ما أجمل البيان النبوي! وما أعظم مدرسة النبوة التي تلقى فيها أصحاب رسول الله علومهم، ونشأوا فيها تلك النشأة الفاضلة وتخرجوا منها يحملون للعالم مشاعل الهداية والنور.

لقد كان عليه الصلاة والسلام يجمع أصحابه، ويجلس إلى جانبهم يذكرهم ويرشدهم إلى ما فيه سعادة الدنيا والآخرة، وها هو أعرابي يرى رسول الله يحدث أصحابه فيقف مستمعا إلى هديه، ثم يسأل سؤالا، قبل أن يتم عليه الصلاة والسلام حديثه.

وبعد أن أتم عليه الصلاة والسلام حديثه التفت سائلا عن صاحب السؤال "أين أراه السائل؟" أو "أين السائل عن الساعة؟" فاستجاب الأعرابي قائلا: ها أنا يا رسول الله، فيجبه عليه الصلاة والسلام بتلك الكلمة الجامعة المانعة «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة». وهي كلمة لا يقولها إلا عظيم العظماء، كلمة هادفة، وحكمة بالغة من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام، فالأمانة إذا ضاعت، والمسؤولية إذا فقدت، والأمور إذا تقلدها الجهال، أصبحت الحياة فوضى وذلك أكبر برهان على قرب قيام الساعة.²

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: "ضيعت الأمانة فانتظر الساعة" استعارة تصريحية، حيث شبه عليه الصلاة والسلام التكاليف الشرعية بالأمانة، بجامع وجوب الحفظ والرعاية، ثم

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 33، رقم الحديث: 59.

² - انظر: محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: 150.

حذف المشبه وصرح بالمشبه به على سبيل الاستعارة التصريحية، واللفظ الذي جرت فيه الاستعارة ورد جامدًا وحينئذ تكون الاستعارة أصيلة.

وبالنظر إلى مادتها من حيث الإدراك بالحس أو العقل من الطرفين نلاحظ أنه شبه المعقول بالمحسوس، وذلك بغية توضيح المعنى وإظهاره وبيانه.

ومن الاستعارة الأصيلة أيضا ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة تبكي عند قبر فقال: «أتقي الله واصبري قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي، ولم تعرفه، فقيل لها: إنه النبي صلى الله عليه وسلم، فأنت باب النبي صلى الله عليه وسلم، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك، فقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»¹.

إن وقع المصيبة على النفس تكون شديدة خاصة إذا كان المفقود عزيزًا غالياً، من ولد أو زوج أو شقيق أو صديق، فالخطب حينئذ جلل والمصيبة عظيمة فيضيق الصدر ويخلفه الصبر، لأن النفس ليس لها من القدرة على التحمل.

ولكن على المؤمن أن يؤمن «بقضاء الله وقدره وأن ما يحدث في هذه الحياة من خير أو شر، ومن نفع أو ضرر، إنما هو بقضاء من الله وتقدير منه فيرضى بحكم الله صابراً محتسباً طمعا في مرضاة الله عز وجل»² وفائدة الإيمان بالقضاء والقدر فيه تخفيف من وقع المصيبة على القلب، لأنها بإرادة الله بينما الكافر ينفذ صبره ويضيع رشده، لأنه ليس لديه ما يخفف عنه أو يعزّيه عند المصائب، إن الصبر عظيم عند الله، لأنه حبس للنفس على ما تكره وصون لها عن فعل يغضب الله، ومقاومة ذلك بالصبر فيكون الثواب عظيماً عليه، والحديث فيه دعوة إلى الصبر وتقوى الله لتلك المرأة الباكية التي فقدت ولدها، فكان الخطب عليها عظيماً، لذلك خاطبت الرسول صلى الله عليه وسلم بالفاظ لا تليق بمقامه

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 431، رقم الحديث: 1223.

² - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: 134.

الشريف: "إليك عني" والمراد تتح عني، وقولها: إليك، اسم فعل أمر بمعنى اذهب وابتعد عني.

لكن عليه الصلاة والسلام قابلها بالسماحة والعفو، ولم تلبث أن جاءت تعتذر، خاصة بعد أن علمت أنه الرسول صلى الله عليه وسلم، فقبل عليه الصلاة والسلام اعتذارها وضرب لها أروع الأمثال في النصيح والإرشاد، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»، لأن وقعها على النفس أشد وأصعب إيلا، وأصل الصدمة ضرب الشيء الصلب بشئ مثله¹. ثم استعير للمصيبة الواردة على القلب، فهي استعارة لطيفة شبه فيها وقع المصيبة على الإنسان بالصدمة العنيفة. على سبيل الاستعارة التصريحية، وهي بحكم أن تكون في أسماء الأجناس غير المشتقة، ويكون معنى التشبيه داخلا في المستعار دخولا أوليا، ولذلك فإن الاستعارة أصيلة؛ لأن اللفظ الذي جرت فيه الاستعارة جاء جامدا غير مشتق، وإلى هنا أشار السكاكي «وهي أن يكون المستعار اسم جنس كرجل وكقيام وقعود. ووجه كونها أصيلة هو أن الاستعارة مبناها على تشبيه المستعار له بالمستعار منه»². وإلى ذلك ذهب القزويني والسبكي والسيوطي وغيرهم، وأما باعتبار مادتها في الطرفين فإنها من قبيل استعارة المحسوس للمعقول.

ومن روائع البيان النبوي الشريف ما جاء عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر قوماً، يعملون له عملاً يوماً إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوا، واستأجر أجيرين بعدهم، فقال لهما: أكملوا بقية يومكما هذا، ولكما الذي شرطت لكم من الأجر، فعملوا، حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهما: أكملوا بقية عملكما، ما بقي من النهار شيء»

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص: 310.

² - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 610.

يسير، فأبيا، واستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».¹

ومن الواضح أن ظاهر الحديث هو تشبيه تمثيلي حيث إن الله تعالى قال لليهود: آمنوا بي وبرسلي إلى يوم القيامة، فأمنوا بموسى إلى بعث عيسى، فكفروا به، فقولهم: لا حاجة لنا لأجرك إشارة إلى أنهم كفروا واستغنى الله عنهم، وكذلك القول في النصارى إلا أن فيه إشارة إلى أن مدتهم كانت قدر نصف المدة فاقتصروا على نحو الربع من جميع النهار، وقوله: «فإنما بقي من النهار شيء يسير، أي بالنسبة لما مضى منه وقوله: واستكملوا أجر الفريقين، أي بإيمانهم بالأنبياء الثلاثة فذلك مثل المسلمين الذين قبلوا هدى الله وما جاء به رسوله، ومثل اليهود والنصارى تركوا ما أمرهم الله».²

ففي قوله عليه الصلاة والسلام «ومثل ما قبلوا من هذا النور» و"النور" استعارة تصريحية والمقصود بها القرآن الكريم الذي أنار قلوب المسلمين وعرفهم «الحق من الباطل، وعرفهم بالأنبياء والرسل فأمنوا بهم جميعاً ولم يفرطوا بشيء منه، مثل ما فعل اليهود والنصارى بكفرهم بالرسل وتحريفهم للكتب المقدسة التي جاؤوهم بها».³

وبهذا تتضح الاستعارة، فالمستعار منه هو نور الله، والمستعار له القرآن الكريم وحينئذ يكون وجه الشبه بينهما هو الإشراف والضياء وتبديد الظلمات، «كما أن النور مصدر الطمأنينة والأمان على خلاف ظلمات الكفر التي ينعدم فيها البصر والبصيرة والذي كان في الظلمات وانتقل إلى نور الإسلام واتباع أوامر الله يشعر في نفسه أثر هذا النور وقيمته

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 792 رقم الحديث: 2151.

² - انظر: العسقلاني، فتح الباري صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 449.

³ - محمد علي إبراهيم حسن علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 43.

العظيمة، حيث إن الأشياء تزداد وضوحاً بالأضداد فلا يعرف معنى النور إلا الذي كان في الظلمات»¹.

وفي هذا السياق يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: «كما تطلع الشمس بأنوارها فتفجر ينبوع الضوء المسمى النهار، يولد النبي فيوحد في الإنسانية ينبوع النور المسمى بالدين وليس النهار إلا يقظة الحياة تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلها والشمس خلقها الله حاملة طابعه الإلهي، ورعشات الضوء من الشمس هي قصة الهداية للكون في كلام من النور، وأشعة الوحي في النبي هي قصة الهداية لإنسان الكون في نور من كلام»². واستعارة النور المحسوس للهدي المعقول، مما يوضح المعنى ويجعل الصورة جلية مأنوسة في النفس.

وألفاظ الحديث لها أثر كبير في الإيحاء بهذه المعاني، فلفظ "النور" المشار إليه باسم الإشارة "هذا" جعل المعنى أكثر وضوحاً، فهذا النور يبدد الظلام الحسي وينير الطريق مما يدعو إلى الأمن والطمأنينة في النفس، ويدعوها إلى الهدوء والاستقرار وإزالة الحيرة والاضطراب سواء كان الأمر في النفس أو الفكر.

وفيما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن عبداً أصاب ذنباً، وربما قال: أذنب ذنباً، فقال: ربّ أذنبت وربما قال: أصبت فاغفر لي، فقال ربه: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي. ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنباً، أو أذنب ذنباً، فقال: ربّ أذنبت -أو أصبت- آخر فاغفره؟ فقال: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنْ لَهُ رَبّاً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثم مكث ما شاء الله، ثم أذنب

¹ - محمد علي إبراهيم حسن علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 44.

² - مصطفى صادق الرافعي: وحي القلم، مرجع سابق ج2، ص: 1.

ذنبا، وربما قال: أصاب ذنبا، قال: قال: ربّ أصبت أو قال: أذنبت - آخر فاغفره لي فقال: أعلم عبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به؟ غفرت لعبدي ثلاثا، فليعمل ما شاء».¹

والحديث كما هو واضح على عظيم فائدة الاستغفار، إلى جانب أنه يفتح باب التوبة والأمل أمام العبد، وفي الحديث تذكير بسعة رحمته عز وجل في حق عباده إلى جانب سعة عفوه وعطفه عليهم، وفي ذلك إظهار للقيم الروحية عن طريق التصوير البياني من خلال الربط بين العبد والعالم الغيبي، وفي ذلك تقوية الصلة بين العبد وخالقه، حيث أن الاستغفار والذكر والحمد من الوسائل والقيم الروحية التي تسمو بالعبد وتقربه من الله عز وجل.

فإذا أصاب العبد ذنبا وبادر إلى التوبة والندم على فعله وطلب المغفرة، فذلك طريق العبد المؤمن، فهو حينئذ في مشيئة الله عز وجل إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه على ما فعل.

والصورة الاستعارية التصريحية التبعية تكمن في الأخذ للعقاب "يأخذ به" بجامع التمكن من الشيء في كل، وطريقها يقوم في تشبيه العقاب بالأخذ، ثم بولغ في التشبيه حتى ادعى أن المشبه من جنس المشبه به، ثم استعير لفظ الأخذ للعقاب، واشتق الأخذ بمعنى العقاب "يأخذ به" بمعنى يعاقب به على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية والتعبير بالاستعارة في مثل هذا المقام أبلغ في توكيد المعنى وأكثر دقة ودلالة فهو عز وجل واسع المغفرة، وشديد العقاب.

ومن الأحاديث النبوية الشريفة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج6، ص: 2725، رقم الحديث: 7068.

حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أخذ من خطاياهم فطرحته عليه، ثم يطرح في النار»¹

تناول عليه الصلاة والسلام كل الجوانب ولم يترك طريقا من طرق الهداية والرشاد إلا ودل عليه، ولم يترك أيضا سبيلا من سبل الشر إلا وحذر منه.

فالحديث فيه دعوة إلى من يسعى إلى تحصيل الجوانب الدنيوية وينسى آخرته فيكون مفلسا ومن يسعى إليهما جميعا فيما أمر الله به ونهى عنه فذلك هو النموذج الأسمى والأعلى، فكن في دنياك كأنك تعيش أبداً، وعش لآخرتك كأنك تموت غداً.

ففي هذا الحديث دعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضوان الله عليهم إلى أمر عظيم مهم وإلى ناحية دقيقة غفل كثير من الناس عنها ولم يتفطنوا لها هي صورة المفلس، أو مفهوم " الإفلاس " على حقيقته، فالناس ينظرون إلى الإفلاس على أنه إفلاس مادي، أي من فقد ثروته وماله، لذلك نجد العبد شديد الحرص على جمع المال. لهم قصور في نظرتهم لأنهم ينظرون إلى الإفلاس في الدينار والدرهم ومتاع الدنيا.²

والرسول صلى الله عليه وسلم يكشف الحقيقة التي تغيب عن أنظارهم، فهو ينظر إلى الإفلاس من زاوية أوسع، لأنه يهتم بالحقيقة دون الصورة، وبالواقع دون المظهر، فهو يخاطب أصحابه بأسلوب فيه إثارة إلى البحث والتفكير، وفيه تنبيه لهم إلى أن يغوصوا إلى أعماق الموضوع لتظهر لهم الحقيقة ناصعة جليلة، فليس المال والمتاع بالشيء المخيف، ولا بالأمر الخطير، ولكن «الإفلاس الحقيقي هو أمور تضيع في الدنيا، وفي الأعمال الصالحة، وفي الحسنات التي تقرب العبد من ربه وتجعله سعيدا في آخرته ودنياه هذا هو الشيء الخطير، فكم من أناس ملكوا الدنيا، وكدسوا الثروات الضخمة وعاشوا في هذه الحياة مترفين، ولكنهم

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1997. رقم الحديث: 2581.

² - انظر: محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: 179.

كانوا تعساء لأنهم أناس مفلسون، قد ذهب حساناتهم، وتلاشت خيراتهم، وذهبت إلى أولئك المظلومين الذين اعتدي عليهم»¹.

هذا المفهوم الذي أشار إليه عليه الصلاة والسلام مفهوم خطير إذا قيس بالمفهوم التقليدي القديم للإنسان.

فالمفلس هو المحروم من الإيمان، لأنه يؤذي الناس فيخسر أصحابه ورفاقه، لأنه لا يقبض يده عنهم، ولا يكف شره عن أحد فهو المفلس، لأنه يأتي يوم القيامة للحساب وقد شتم هذا وضرب وسفك دم هذا، مما يؤدي إلى كثرة ديونه، وقلة زاده فصودرت حسناته، وألقيت عليه سيئات دائنيه فقذف في النار.²

والواضح أن هذا الحديث جاء بنظرة جديدة إلى الغني، والمفلس، فالمفلس والغني كلاهما ينطوي على معنى جديد أحدثه عليه الصلاة والسلام كلاهما مقابل الآخر، حيث أن الناس عند الله لا يوزنون بالذهب والفضة، وإنما يوزنون بالأعمال الصالحة، وأساسها «غنى النفس بإيمانها بالله، والتزام حدوده، إن المال غرض يزول، والعمل الصالح للنفس المؤمنة خير أو أبقى»³.

ففي قوله عليه الصلاة والسلام " فطرح عليه " استعارة تصريحية، تبعية، وطريق إجراء هذه الاستعارة أن يقال: شبهت الخطايا والسيئات بشيء ثقل كالحمل مثلا الذي تحمله الدابة بجامع التعب والمشقة التي تعترى الحامل، ثم استعير لفظ "الطرح" للحمل الثقيل واشتق منه "طرح" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، فكأن الذنوب تطرح على ظهر المظلوم إلى ظهر الظالم فتزداد أثقاله وآصاره ثم يطرح في جهنم، وهي استعارة تقرب المعنى عن طريق الصورة المادية المحسوسة.

¹ - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: المرجع نفسه، ص: 180.

² - بكري شيخ أمين، أدب الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 225.

³ - المرجع نفسه، ص: 225.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنه قال: « من خير معاش الناس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هَيْعَةً! أو فرعة طار عليه يبتغي القتل والموت مظانه، أو رجل في غنيمة في رأس شَعْفَةٍ من هذه الشَّعَفِ، أو بطن وادٍ من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير»¹.

الحديث دعوة إلى الجهاد في سبيل الله، فمن خرج مجاهدا ابتغاء مرضاة الله تعالى وإعلاء كلمته ونشر مبادئ وتعاليم هذا الدين الحنيف ضمن الجنة، فإن عاد إلى أهله رجع بأجر وغنيمة، وإن استشهد كان حقا على الله أن يدخله الجنة، والجهاد فريضة مقدسة من أجل إعلاء الدين ورفع مناره، لذلك أكد عليه الصلاة والسلام حرص المسلم على الاشتراك في الجهاد وعدم التخلف عنه.

فقد شبه عليه الصلاة والسلام إقدام هذا المسلم الفارس المستعد المتأهب للقتال في سبيل الله بالطيران، بجامع التأهب والاستعداد وقطع المسافة بسرعة في الكل، واشتق من الطيران الفعل "طار" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، وهي صورة فيها من الدقة على إظهار حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على هذا الدين ونشره، إلى جانب إظهار حرص المسلم على الدفاع عن الإسلام والعمل على انتشاره.²

والاستعارة التبعية من بين الاستعارات الأكثر استعمالا في الحديث النبوي الشريف إلى جانب الاستعارة الأصلية، كما رأينا في النماذج السابقة، ومن أنواع الاستعارة التصريحية: الاستعارة المرشحة أو المجاز المرشح، وهي التي قرنت بما يلائم المستعار منه أو أن يدعي جانب المستعار « أن تراعي جانبه وتولييه ما يستدعيه وتضم إليه ما يقتضيه».³

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1504، رقم الحديث: 1889.

² - انظر: فالح حمد احمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 209.

³ - فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، مصدر سابق، ص: 124.

والاستعارة المرشحة هي التي يذكر معها صفات تلائم المستعار منه، وسميت استعارة تشريحية أو مرشحة لترشيحها وتقويتها الملائم، لأنها مبنية على تناسي المستعار له حتى كأن الموجود هو الأمر نفسه، المستعار منه.

وهذا الضرب من الاستعارة ورد في الحديث النبوي الشريف، ومنه ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى النبي صلى الله عليه وسلم على بعض نسائه ومعهن أم سليم فقال: « ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير »¹ وقيل « رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير ».

وأنجشة هو غلام النبي صلى الله عليه وسلم وحاد الإبل، وكان حسن الصوت، فكان يحد في السفر، فأمره النبي أن يتمهل في السير لأن النساء « لا يحتملن السرعة، فربما يقعن ويصببن بمكروه، أو ربما خاف عليهن من سماع نشيد أنجشة فيقع في قلوبهن ».²

وربما يكون الموضوع الثاني هو المدار من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث شبه النساء بالقوارير لسرعة تأثرهن بالغناء وغيره وقلة الاستمرار على العهد، وقد ذكر البخاري هذا الحديث في باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه.

فالمستعار منه: القوارير « والقارورة: واحدة القوارير من الزجاج، والعرب تسمي المرأة القارورة وتكني عنها بها، والقارورة ما قرّ فيه الشراب وغيره »³ والمستعار له: النساء، والجامع بينها سهولة التأثر والكسر، وبذلك فإن الاستعارة ترشيحية، لأنه ملائم المستعار منه. والقرينة حالية تدرك في سياق الكلام، وهذا ما يضفي ويزيد في الغموض بين طرفي الاستعارة « وعندما نتأمل هذه الاستعارة "القوارير" ونتعمق في وجه الشبه - الذي بلغ درجة كبيرة من الخفاء بين طرفيها- نجد أن القارورة على الأغلب يوضع فيها أنواع السوائل، فإذا كسرت ضاع وفسد ما فيها ويكون أمر ردها مستحيلا، أما المرأة فنفسها ضعيفة كما قال

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص2278: رقم الحديث: 5797.

² - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج22، ص: 186.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج11، ص: 101.

صلى الله عليه وسلم: « يا معشر النساء تصدقن فإني أريكن أكثر أهل النار، فقلن وبم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجال، قلن: بلى، قال: فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تُصل ولم تصم، قلن: بلى، قال: "فذلك من نقصان دينها".¹

وهذه النفس الضعيفة يوهنها الخفيف ويصرعها اللطيف وغيرها من المؤثرات، فتصبو إلى ما يكره من الأمور وتغلب صبوتها على إيمانها وحيائها، وبذلك تتكسر المرأة ويضيع ما في داخلها من حياء وإيمان وعفة². وهذا ما ذهب إليه الشريف الرضي فقال: «وهذه استعارة عجيبة، لأنه عليه الصلاة والسلام شبه النساء في ضعف النحائر، ووهن الغرائز بالقوارير الرقيقة التي يوهنها الخفيف ويصدعها اللطيف، فنهى عن أن يسمعن ذلك الحادي ما يحرك مواضع الصبوة وينقص معاهد العفة».³

والملاحظ أن لفظ القوارير فيه من الظلال والدلالات النفسية حيث يظهر ضعف النساء، ولذلك فإنه يقتضي شيء من المعاملة الخاصة من رفق وإحسان وعرفان. والرفق يشع في هذا الحديث من خلال اسم فعل الأمر "رويدك"، وفيه دعوة إلى التمهل.

ومن الاستعارة المرشحة أيضا ما جاء في دعوة تخص فئة معينة من الأمة الإسلامية، وأعني بذلك فئة الشباب المسلم، ففي الحديث عن علقمة قال: بينما أنا أمشي مع عبد الله رضي الله عنه فقال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا معشر الشباب. من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطيع فعليه

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 116، رقم الحديث: 298.

² - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 67.

³ - الشريف الرضي، المجازات النبوية، مصدر سابق، ص: 20.

بالصوم، فإنه له وجاء»¹، وفي رواية البخاري «من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»².

الحديث دعوة خاصة إلى فئة معينة، فئة الشباب، الغاية من هذه الدعوة تنشئة الأبناء على القيم والمبادئ الإسلامية، ومن أهم هذه القيم العفة والفضيلة والالتزام بالأحكام الإسلامية. فالزواج المبكر من أقوى الوسائل المعينة للعفاف وغض البصر وحفظ القلب من الانشغال عن ذكر الله والتأمل في خلقه.

وقوله "يا معشر الشباب" نداء فيه تخصيص لفئة دون غيرها من الناس؛ لأن مرحلة الشباب من أخطر مراحل عمر الإنسان، والشباب فيها في ذروة قوة عواطفه وعنفوان شبابه، ولذلك أشار عليه الصلاة والسلام إلى القدرة على الباءة، والمراد من قوله: "من استطاع الباءة: البلوغ والقدرة على الجماع إلى جانب مؤن النكاح والأرجح في ذلك مؤن النكاح، لأن عدم القدرة على الجماع لا يحتاج للصوم ليدفع الشهوة³.

وأما القادر على ذلك فالخير له الزواج؛ لأنه أغض للبصر وبذلك يترفع الإنسان فوق شهواته ورغباته الدنيوية.

ومن هذه الزاوية تأتي أهمية الاستعارة "أحصن" في التعبير عن قيمة الزواج المادية والروحية، وفيها «من الدلالات المؤثرة التي تنبعث من إقحام المستعار له في المستعار منه»⁴، وعلى هذا الإقحام يمكن إجراء الاستعارة على هذا النحو:

¹ - صحيح مسلم مصدر سابق، ج2، ص: 1019، رقم الحديث: 1400.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 673، رقم الحديث: 1806.

³ - الكرمانى: صحيح البخاري بشرح الكرمانى، مصدر سابق، ج19، ص: 57.

⁴ - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 69.

المستعار منه: في الاستعارة "أحصن"، والمراد منه «الوضع المنيع، وحصن المكان -حصانة- منع فهو حصين».¹

والمستعار له: هو الزوجان، الرجل حصن المرأة، والمرأة حصن الرجل، والجامع بينهما الستر والحماية والاستقرار.

ونعتقد أن الإحصان الرئيسي للإنسان هو التقوى والعفة، والإحصان استعارة لهذه المعاني أيضا والحديث يوحى بها، وإن كان التركيز الأكبر كان على الزواج، لأن من يتحلى بهذه الفضائل يكون محصوناً من نزوات الشيطان ووسوسته وتزين الخبائث، لأن هذه الفضائل هي الحصن وغيابها يوقع في الرذائل والمعصية والمنكر.

والاستعارة كما هو واضح استعارة مرشحة، لأن ذكر "الباء" من أهم شروطه المسكن، ولهذا يلائم المستعار منه، وهذه الاستعارة "الإحصان" استعارة قرآنية، وردت كثيراً في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾² والمراد بالمحصنات منهن ذوات الأزواج، لأن الأزواج أحصنوهن ومنعوا منهن.³

ومثل هذه الاستعارة لها من قوة التأثير خاصة وأنها لها من الدلالات المتنوعة مثل النصح والإرشاد، لأن الزواج الذي يقع على أساس الإيمان والتقوى والفضيلة يزدهر ويثمر، وتكون الذرية مؤمنة صالحة وتلك هي الفضيلة الحقة.

ومن الصور الجميلة أيضا في الحديث النبوي الشريف ما جاء عن عائشة رضي الله عنها: جاءت امرأة رفاعة القرطبي النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فأبَتَّ طَلَاقِي، فتزوجت عبد الرحمان بن الزبير، إِنَّمَا مَعَهُ مِثْلُ هُدْبَةِ الثَّوْبِ، فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك، وأبو بكر جالس عنده، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب ينتظر أن يؤذن له، فقال: يا أبا بكر ألا تسمع إلى هذه ما تجهر

¹ - إبراهيم أنيس، عبد الحليم المنتصر وعطية الصوالحي، المعجم الوسيط، ج2، ص: 180.

² - سورة النساء، الآية: 24

3 - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، مصدر سابق، ص: 511.

به عند النبي صلى الله عليه وسلم»¹. وفي رواية مسلم «جاءت امرأة رفاة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: كنت عند رفاة فطلقني فَبَتَّ طلاقى فتزوجت عبد الرحمان بن الزبير، وإن ما معه مثل هُدْبَةِ الثوب فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أتريدين أن ترجعي إلى رفاة؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك، قالت: وأبو بكر عنده، وخالد بالباب ينتظر أن يؤذن له، فنادى يا أبا بكر ألا تسمع هذه ما تجهر به عند رسول الله صلى الله عليه وسلم»². والملاحظ في قول امرأة رفاة "طلقني فَبَتَّ طلاقى" أو " فطلقني فأَبَتَّ طلاقى"، والبِت: القطع والمراد قطع عصمة النكاح، يقال: بَتَّ فلان طلاق امرأته وقد طلقها البتة»³ ويسمى هذا النوع من الطلاق البائن بينونة كبرى.

والاستعارة في هذا الحديث تظهر أثرا كبيرا في تقدير الحكم وتحديدده وبيانه، وهي في قوله عليه الصلاة والسلام «عسيلتك، عسيلته، حيث شبه حلاوة الجماع بحلاوة العسل، ويقال: " العسيلة ماء الرجل"، و ذلك يمكن إجراء الاستعارة حيث أن المستعار منه: هو حلاوة العسل. والمستعار له: هو حلاوة الجماع، على أن الجامع بينهما الشعور الحقيقي باللذة عند الطرفين، والاستعارة مرشحة وذلك لقوله "يذوق" وهذا هو ملائم المستعار منه.

والاستعارة الواردة في قوله عليه الصلاة والسلام: " يذوق عسيلتك وتذوقي عسيلته" فيه من التحديد والدقة والإفصاح ما يجب أن يتحقق مع الزوج الثاني حتى تحل مرة ثانية لزوجها الأول. فشبه عملية الجماع وحلاوتها بحلاوة العسل، والتمتع بهذه الحلاوة لا يكون إلا بالجماع الحقيقي، والدلالات النفسية توضح بدقة أكثر حيث إن الذوق وهو ترشيح الاستعارة، يستدل من إطلاق وجوده منهما على علم الزوجين، وأن كل منهما محب راغب للآخر وهذا عامل نفسي مهم ولا يقع إلا بنية خالصة وليس مخادعة⁴.

¹- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 933، رقم الحديث: 2496.

²- صحيح مسلم، مصدر سابق ج2، ص: 1056، رقم الحديث: 1433.

³- ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص: 307.

⁴- انظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 73.

والاستعارة من وجهة ثانية فإنها استعارة محسوس للمحسوس وفيها جانب نفسي كبير »
فضلا على أنه إذا وطئها نائمة، أو مغميا عليها، أو تحت تأثير معين، أو إذا حصل الذوق من
أحد الزوجين دون الآخر فلا يكف إحلالها للثاني»¹ وبذلك تكون الاستعارة قد أوضحت الحكم،
وأفادت هذه الدلالات الدقيقة في سياق المعنوي.

¹ - انظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 69-70.

المطلب الثاني: الاستعارة المكنية في الخطاب النبوي الشريف

يقول عبد القاهر الجرجاني في تعريفه للاستعارة المكنية: «أن يؤخذ الاسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء يشار إليه، فيقال: هذا هو المراد بالاسم، والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه الأصلي ونائباً، منابه ومثاله قول لبيد:

وغداة ريح قد كشفت وقرّة
إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

وذلك أنه جعل للشمال يداً، ومعلوم أنه ليس هناك مشار إليه، يمكن أن تجري اليد عليه... بل ليس أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال في تصريف الغداة على حكم طبيعتها كالمدير المصرف لما زمامه بيده، ومقادته في كفه»¹. وكما هو واضح أن الاستعارة المكنية تحصل في حالة غياب المستعار منه وعندئذ يتحمل المستعار له مهمات جديدة بإسهامه في التفاعلات السياقية مولداً الصورة لها.

ولا يختلف الخطيب القزويني كثيراً عما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني، وربما يكون متأثراً به حيث يرى أنه «قد يضمّر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به، من غير أن يكون هناك أمر ثابت حساً أو عقلاً أجري عليه اسم ذلك الأمر، فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنياً عنها، وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخيلية»². وبذلك فإن الاستعارة المكنية قسيمة الاستعارة التصريحية التي صرح فيها بالمستعار منه.

والواضح أن ما ذهب إليه الخطيب يوافق الجمهور في سبب تسمية هذه الاستعارة بالمكنية، هو عدم التصريح بالمشبه به والدلالة عليه بلازمه، ويوافقهم أيضاً في تحديد مفهوم الاستعارة التخيلية، وهي إثبات لازم المشبه به للمشبه، وليس للمشبه شيء محقق

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 42.

² - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 217.

حسا، أو عقلا استعير له هذا اللزم، ولذا كانت هذه الاستعارة تخيلية، وهي قرينة الاستعارة المكنية فهما متلازمان.

أما مخالفة الخطيب للجمهور في تحديد مفهوم الاستعارة المكنية فهي عنده فعل من أفعال المتكلم، وأما عند الجمهور فهي من قبيل الاستعارة التحقيقية، لأن لفظ المشبه به يستعار لشيء محقق وهو المشبه.¹

وهذا النوع من الاستعارة لها طاقة كبيرة على التصوير والإيحاء وفيها يزداد التشبيه خفاء وتصبح ميدانًا واسعًا للخيال، حيث أن عملية إثبات لازم المستعار منه للمستعار له هي عملية خيالية، ولذلك تسمى هذه العملية بالاستعارة التخيلية وهي التي لا يدرك في الوجود التشبيه الحاصل بها ويكون متصورًا في الخيال.²

وعلى هذا فإن الاستعارة المكنية تتميز بدرجة عالية في العمق مرجعها إلى خفاء لفظ المستعار وحلول بعض ملائماته محله، مما يفرض على المتقبل تخطي مرحلة إضافية في العملية الذهنية التي يكتشف أثرها حقيقة الصورة.³

وأما في ما يخص بلاغتها فإن الجميع يعدون الاستعارة المكنية أبلغ من الاستعارة التصريحية، لأن الاسم يؤخذ عن حقيقته ويحول إلى وضع آخر ليس بينه وبين وضعه الأول علاقة مشابهة واضحة مثل التصريحية، أو حوار وتقريب، بل ثمة تخط واختراق لذلك الوضع بحيث تبدو عملية الصيرورة الجديدة قد خلقت وابتدعت وضعًا لم يكن من قبل.

والجانب الآخر في سر بلاغة الاستعارة المكنية يكمن فيها من خلال التشخيص على إعطاء الحياة للأشياء المادية، وذلك يعود إلى قدرة الخيال، فهي أكبر في هذ

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 217-218.

² - انظر: العلوي، الطراز، تحقيق: عبد الحميد هنداي، مصدر سابق، ج1، ص: 134.

³ - محمد عبد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، مرجع سابق، ص: 166.

الجانب من الاستعارة التصريحية، ذلك أن الاستعارة «المكنية صورة خيالية أصلية ملحقة بها صورة خيالية فرعية هي قرينتها التخيلية، ويمكن القول بأن الخيال في الاستعارة المكنية مركب، أما في الاستعارة التصريحية فبسيط، هذه واحدة، والأخرى أن الاستعارة المكنية فيها الكناية عن المشبه به المحذوف بما استبقيناه منه دلالة عليه، وهذا يعني أنه قد اجتمع لنا في صورة بيانية واحدة هي الاستعارة المكنية مجاز وكناية معا¹.

وبناء على هذا فإن الاستعارة التخيلية والتي هي قرينة الاستعارة المكنية تتمثل في إضافة لوازم المشبه به المحذوف إلى المشبه المذكور وادعاء ذلك تخيلاً، «فهي منتزعة من عدة أمور متخيلة مفروضة، لا تتحقق في الخارج ولا في الذهن، وبذلك تكون الاستعارة المكنية من طرائق الأداء التي تقوم على التشخيص الإيحائي المنبثق عن صورة مادية حسية منتزعة من أفق البيئة»².

ومهما كان الأمر فإن الاستعارة المكنية تؤدي دوراً رئيساً في استنطاق الجمادات، وتشخصها نابضة بالحياة، وفي ذلك يقول عبد القاهر الجرجاني في وظيفة الاستعارة المكنية: «فإنك لترى بها الجماد حياً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مبينة، والمعاني الخفية بادية جلية، وإذا شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، و إن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون»³.

¹ - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 213.

² - ساهر عبد الكريم، الصورة البيانية قبل الإسلام وأثر البيئة فيها. رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة بغداد، 1984م، ص: 197.

³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 40.

والتشخيص « يتمثل في خلع الحياة على المواد الجامدة، والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية هذه الحياة التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية وتشمل المواد والظواهر والانفعالات تهب لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية »¹.

ومثل هذه النظرة إلى مظاهر الوجود، ومظاهر الطبيعة على هذا النحو الحي وهذه الصفات الإنسانية، دون شك تبعث مشاعر القارئ بالشعور بمعاني الجمال والانسراح، لأن طبيعة الإنسان تأنس بما حولها، تراهم شخوصا تدبّ و تتحرّك، وتتخلّهم أناسا حولها يتنفسون ويسيروا ويريدون ويتكلمون، ويمكن القول إنه استتطاق لكل هذه المظاهر، وأكثر ما يكون في الاستعارة المكنية «أحد جبل يحبنا ونحبه»² فتحول الجامد إلى كائن حي عاقل وديع ينبض الحب في قلبه والدفء في وجدانية، فهو يحب المسلمين ويحبونه.

وأما التجسيم فهو أيضا من سمات الاستعارة المكنية، وذلك عندما يكون الموضوع حسياً أو معنى داخليا تصيره الاستعارة إلى جسم مادي له شكل وأبعاد وسمات تميزه عن غيره من الأشياء التي يمكن مثلا رؤيتها وملاحظتها، ويتضح هذا في ثقل صلاة العشاء والفجر على المنافقين وأصبحت صلاة العشاء أو الفجر كأنها قطع كبيرة من الحجارة على كاهل المنافقين.³

وصورة الاستعارية المكنية بهذا الشكل وما تتضمنه من تشخيص وتجسيم تبلغ الغاية والجمال والدقة في الحديث النبوي الشريف، وذلك لتشمل أمور الدنيا والدين، والحياة الدنياوية، والحياة الخالدة.

¹ - صلاح عبد الفتاح الخالدي، التصوير الفني عند سيد قطب، دار الشهاب، باتنة الجزائر، دون ذكر الطبعة، عام: 1988م، ص: 135.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 3 ص: 1060، رقم الحديث: 2736.

³ - انظر: محمد علي إبراهيم حسين على الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 26-27.

هذا ما سنحاول الوقوف عنده في الحديث النبوي الشريف من خلال صور الاستعارة المكنية بكل أبعادها وإيحاءها و ظلالها المختلفة.

ومن صور الاستعارة المكنية تلك الصورة المعبرة بدقة عن دعائم الإسلام وأركانه، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»¹. والحديث يظهر أهم ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم من الواجبات العملية التعبدية، وهي الركائز الأساسية التي تظهر شخصية المسلم، وتثبت بها هويته كمسلم من خلال هذه التعاليم الإسلامية ومفرداته وأركانه، فكان لزاماً عليهم الإيمان بهذا الدين، والعمل بموجبه.

فقد عبر عليه الصلاة والسلام عن أهمية هذه الفرائض بأسلوب بليغ حيث صور لنا هذا المعنى الفكري، وبين خطورة هذه الأركان، بطريقة فنية رائعة في شكل صورة مادية محسوسة، فجاءت الصورة بأبلغ أسلوب، أسلوب الاستعارة المكنية وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام " بني الإسلام على خمس".

والملاحظ في هذا التركيب أن الفاعل محذوف وهو الله سبحانه وتعالى، وأما قوله "على خمس" فهو متعلق "ببني"، وتمييز العدد محذوف والتقدير خمسة أركان أو دعائم « فأسماء العدد إنما يكون تذكيرها بالتاء وتأنيتها بسقوط التاء إذا كان التمييز مذكوراً، أما إذا لم يذكر فيجوز فيها الأمران»². وهي صورة تظهر أهمية هذه الأركان، وأن ترك واحد من هذه الأركان يعني تصدع هذا البنيان ، وتعريضه للهدم. وقد أخذ عليه الصلاة والسلام الشبه الاستعاري من المحسوس إلى المعقول بغية تمكين السامع من استيعابه « فقد جعل للدين مثلاً يُشَبَّه به الضرورات الحيوية العظمى

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص12، رقم الحديث: 8.

² - صحيح البخاري، بشرح الكرمانلي، مصدر سابق، ج1، ص: 78.

التي لا بد منها للإنسان، هذا المثل هو البيت، البيت فيه سكون النفس وطمأنينتها، وفيه حمايتها من برد الشتاء القارس وحر الصيف الملهب ، والبيت كما هو معلوم يتكون من الجدران الأربعة والسقف، بها قوامه ووجوده، والبناء في البوادي في عصره عليه الصلاة والسلام كان عبارة عن خباء مرتفع على عمود متوسط وأربعة أوتاد، كذلك قوام الإسلام وثبات كيانه يقوم على هذه الأمور الخمسة¹. والاستعارة المكنية تكمن في قوله " بني " حيث شبه الإسلام بمبنى له خمسة أركان وحذف المشبه به، وأبقى لازما من لوازمه وهو قوله " بني " على سبيل التخييل .يقول العيني « وإلا ظهر أن تكون الاستعارة مكنية، بأن تكون الاستعارة في الإسلام ، والقرينة بني على التخييل ،بأن شبه الإسلام بالبيت ، ثم خيل كأنه بيت على المبالغة، ثم أطلق الإسلام على ذلك المخيل، ثم خيل له ما يلزم البيت المشبه به من البناء، ثم أثبت له ما هو لازم البيت من البناء على الاستعارة التخيلية، ثم نسب إليه ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة²».

وعلى هذا يمكن لنا إجراء الاستعارة على أن المستعار له: " الإسلام " وهو أمر معقول، والمستعار منه البيت، وقد حذفه وأبقى لازما من لوازمه وهو البناء، وهو أمر محسوس، وأما الجامع بين طرفي الاستعارة من مستعار له، ومستعار منه ،فهو يتمثل في القوة والمتانة والصيانة.

وأما القرينة في هذه الاستعارة التخيلية، والتي صرفت الأذهان إلى المعنى المجاز فهي إثبات لازم المستعار منه " الفعل بني " للمستعار له الإسلام، وهذه العملية كما هو واضح تخيلية ،لأن طبيعة استعارة الشيء المحسوس للأمر المعقول هي من وضع الخيال، والحديث من حيث البناء يقوم على مقطعين يشتبكان برابطة التكتيف، ثم التفصيل.

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 38.

² - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج1، ص: 120.

المقطع الأول في بناء هذا الحديث يكمن في قوله عليه الصلاة والسلام: " بني الإسلام على خمس"، والملاحظ أنه أجمل الإسلام كله في خمس خصال، حيث أشار إلى أركان الإسلام بالعدد خمسة، ولا يمكن أن يقوم بدونها، وفي ذلك تشويق القارئ لمعرفتها، ثم جاء بعد ذلك التفصيل في المقطع الثاني وهو عبارة عن شرح ما أجمله في المقطع الأول، وقد جاءت المفاصل فيه متوازنة في نغمها مما أعطى نص الحديث نغما يجذب إليه القلب ويشعره بالارتياح.¹

وجمال صورة الاستعارة في هذا الحديث وقيمتها الفنية تكمن في طريقة تقريب المفهوم الفكري «الإسلام بأركانه، إلى الذهن تقريباً مادياً، يكاد يكون ملموساً، وذلك عندما يرسم هذا الأركان جميعاً لبقائه ومنع الانهيارات من حوله، ومن خلال ذلك حض على التثبيت بهذه العناصر جميعاً وعدم التهاون، أو التفريق في أي منها؛ لأن ذلك يؤدي -لا محالة- إلى التفريط في باقيها كله، وكما أن زوال ركن يهدد باقي الأركان.. فإن تهدم لبنة واحدة هو أول الطريق لتهدم باقي الجدار كله الجانب الفكري على شكل بناء، والبناء لا بد له من أركان يقوم عليها ولا بد من تماسك هذه»².

ومن زاوية ثانية إذا نظرنا إلى استعارة البناء تكون حينئذ أيضاً الاستعارة ترشيحية، ذلك أن قوله عليه الصلاة والسلام "على خمس" يلائم المستعار منه "البيت"، والمراد بني على خمسة أركان، وهذه الأركان تقوم على حفظه من الهدم والزوال، وذكر هذه الأركان بالترتيب: الشهادة، ثم الصلاة، ثم الزكاة، ثم الحج، ثم صيام رمضان.

وكذلك أيضاً إذا نظرنا إلى قوله عليه الصلاة والسلام: " إقامة الصلاة "، فإنها أيضاً ترشيح آخر للاستعارة يدور في فلكها ويقوى معانيها ودلالاتها، التي تعبر جميعاً عن تماسك هذا الدين العظيم.³ ومن الممكن أيضاً أن تكون هناك استعارة مكنية أخرى أيضاً معانيها ودلالاتها، التي تعبر جميعاً عن تماسك هذا الدين العظيم.⁴ ومن الممكن أيضاً أن تكون هناك استعارة مكنية أخرى أيضاً

¹ - انظر: نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 39.

² - بكري شيخ أمين، أدب الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 135.

³ - انظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 99.

⁴ - انظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 99.

اباعتبار أنه بتشبيه هذه الأشياء الخمسة جميعها بدعائم، وقد حذف المشبه به، وبقي ما يلازمه في الفعل "بني"، وحرف الجر "على" الذي يدل على الاستعلاء والفوقية، وذلك لأن البناء يكون فوق الدعائم.¹

ومن الصور الاستعارية المكنية ما جاء في حديث عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان ، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذفَ في النار»².

وفي رواية ثانية: « ثلاث من كان فيه وجد طعم الإيمان، من كان يحب المرء لا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، ومن كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سِوَاهُمَا، ومن كان أن يُلقى في النارِ أحبَّ إليه من أن يرجعَ في الكفر بعد أن أنقذه الله منه »³. ولعلنا في هذا الحديث أمام ثمرة الإيمان الكامل والراسخ في قلب المؤمن، عندئذ يجد المؤمن طعم الإيمان وحلاوته والتلذذ به، وأصل لفظة الحلاوة، وهي ضد المرارة، وحلاوة الإيمان استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق في الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا إلى جانب محبة العبد لله تعالى بفعل طاعته وترك مخالفته وكذلك محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.⁴

والحديث فيه دعوة إلى الاتصاف بهذه الصفات السامية العالية، من خلال إثارة محبة الله ومحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام، والسعي في تحصيل مراتب الإيمان، لأن له حالة كامنة في النفس إذا « نشطت فإنه يجعل من الإنسان إنسانا كاملا يشعر

¹ - انظر: العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج1، ص: 120.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 66، رقم الحديث: 43.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص: 66، رقم الحديث: 43.

⁴ - عبد الفتاح لاشين، من بلاغة الحديث الشريف، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض السعودية، ط1،

عام: 1988م، ص: 73.

بالانشراف لإيمانه وطاعته حتى كأنه ذاق شيئاً مطعوماً حلواً، وقد عبّر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الأثر العظيم للإيمان وهو أمر روي صرف، تعجز العبارات عن وصفه، فعبر الحديث عن هذا الأثر بهذا الأسلوب الواضح¹.

ونعتقد أن محبة الله ورسوله هي محبة العقل السليم، أو المراد الحب العقلي الذي يقتضي العقل السليم ورجحانه، ذلك قد يأتي حتى على خلاف هوى النفس وما تذهب إليه لأن العقل يقتضي ذلك الجانب، المؤمن لا يطلب الإيمان بغية أن يتذوق الطعم الحلّ، ولكن طلب انشراح الصدر للإيمان، وفي ذلك متعة ولذة روحية بإقامة الطاعات في الدين، ودون شك حلوة تنسم بالبرودة والاعتدال ما دامت في الجانب المقابل للقذف في النار» والذي تذوق حلوة الإيمان يُشغل بالله فيخشاه، وتشغله خشيته سبحانه عن خشية مخلوق من مخلوقاته وهو النار، فقد يخشى القطيعة أكثر من خشيته من أن يقذف في النار والحلوة عادة تولد حريرات في الجسم، وكأن هذه الحلوة تولد الحرارة في الأطراف فتتطلق في السعي لرضا المولى، والحرارة هاهنا تعني النشاط والحياة كما تعني البرودة والجمود والموت، ولذلك قيل: حرارة الإيمان وبرد اليقين².

فقد شبه عليه الصلاة والسلام الإيمان بالشيء الحلّ الذي يُطعم، فقرب إلينا هذا المعنى، فحذف المشبه به وأثبت المشبه، وأبقى شيئاً من لوازم المشبه به "طعم" أو "حلّ"، وبذلك جعلنا ندرك هذا الأمر المعنوي الذي يُشعر فيه بالانشراف والسمو الإيماني وهو أمر لا يمكن التعبير عنه بالأسلوب التقريري، إلا من خلال هذا التصوير الفني الجميل، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية التخيلية، لأنه أسند الحلوة إلى الإيمان³.

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 41.

² - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 558.

³ - انظر: نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 42-43.

ومن صور الاستعارة المكنية أيضا صورة الاستعارة الترشيفية، وهذا الضرب من الاستعارة المكنية يذكر فيها صفات ثلاث المستعار منه وسميت استعارة مرشحة، أو ترشيحها لترشيحها وتقويتها بذكر الملائم، وهذه التسمية قد يكون الزمخشري أول من وضعها حيث درس الترشيح بطريقة تشعر بأن هذا الفن من أبلغ الفنون البلاغية، إن لم يكن أبلغها، وأن الاستعارة الترشيفية حين تقع موقعها قد لا نجد كلاما أحسن منها، ولا أكثر ماء ورونقا، وأنه من الصنعة البديعية التي يبلغ المجاز معها الذروة العليا.¹

والترشيح أبلغ من التجريد والإطلاق لما فيه من قوة في التأكيد والمبالغة التي تؤديها الاستعارة، إلى جانب الإغراق الذي نجده في تناسي التشبيه، وقد يستعيرون الوصف المحسوس للمعقول ويجعلون تلك الصفة كأنها لذلك الشيء حقيقة، وكأن الاستعارة لم توجد أصلا.² ونعتقد أن بلاغة الاستعارة الترشيفية هي التي جعلت أئمة الشعر يتجهون إليها في مدحهم أو هجائهم، لأنهم يعتقدون أن المستعار مستعمل في حقيقته.

وقد ورد هذا الضرب من الاستعارة في الحديث النبوي الشريف ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن الدين يُسرُّ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»³.

والملاحظ أن هذا الحديث ورد في باب الدين يسر وهذا يطابق معنى الحديث حيث يظهر سماحة الإسلام ويسره، فقله عليه الصلاة والسلام " إن الدين يسر"، فيه

¹ - نظر: محمد حسين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، دار الفكر العربي القاهرة، دون ذكر الطبعة والسنة، ص: 421.

² - انظر: محمد علي إبراهيم الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 19

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 23، رقم الحديث: 39.

التأكيد على من أنكر يسر هذا الدين، فهو دين يسر وليس دين عسر، و سمي الدين يسرا مبالغة بالنسبة إلى الأديان السابقة، وبذلك يكون الله تعالى قد رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم، ومن أوضح الأمثلة على ذلك أن توبة من قبلهم كانت بقتل أنفسهم وتوبة هذه الأمة المجيدة بالإقلاع عن المعاصي بالعزيمة والندم على ما فات.

وبالنظر إلى هذا الحديث نجد فيه استعارتين: الأولى مكنية في قوله عليه الصلاة والسلام: " ولن يشاد الدين"، والثانية تمثيلية في قوله عليه الصلاة والسلام: "استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة".

وما يهمننا في هذا المقام هي الاستعارة الأولى " لن يشاد الدين"، والاستعارة وردت في لفظة " يشاد"، وهي عكس اللين حيث جاء في لسان العرب: « وشاده مشادة وشدادا: غالبية وفي الحديث " ومن يشاد الدين يغلبه"، والمقصود يغلبه الدين: أي يقاويه ويقاومه ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته¹.

فقد شبه عليه الصلاة والسلام الدين الإسلامي بهيئة كائن ضخم عظيم لا أحد يمكن أن يقومه أو يغالبه، فحذف المشبه به وترك شيئاً من خواصه، ونعني بذلك المشادة التي تضمنتها الاستعارة " يشاد"، وأصل هذه الاستعارة مأخوذة من المشادة: أي المغالبة التي عادة تحصل بين العباد، حيث تكون الغلبة للقوي، وهذا ما أشار إليه الكراماني في شرحه حين قال: « أن من شاد الدين وتعمق انقطع وغلبه الدين وقهره ويصير الدين غالباً وهو مغلوباً»².

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مرجع سابق، ج7، ص:54.

² - الكراماني، شرح صحيح البخاري، مرجع سابق، ج1، ص: 161.

وعلى هذا النحو يمكن إجراء الاستعارة من حيث طرفي الاستعارة، فالمستعار منه هذا الكائن العظيم الذي لا طاقة لأحد في مغالبتة وهو المحذوف، وبقي شئ من لوازمه وهو يشاد.

المستعار له هو الدين الإسلامي وهو المذكور، على أن الجامع بين الطرفين المستعار منه المحذوف والمستعار له المذكور هو القوة العظمى التي لا يمكن غلبتها.

ومن هذه الزاوية فإن الاستعارة الترشيفية من قبيل استعارة المحسوس للأمر المعقول وهو أكثر الأنواع توضيحاً للمعنى وترسيخاً في الأذهان. إلى جانب ما له من إحياءات مختلفة ولعل الوظيفة الحقيقية التي حققتها الاستعارة الترشيفية في هذا المقام هي وظيفة التشخيص، حيث أظهرت الدين في هيئة شخص له من الصفات الإنسانية مثل المشادة والغلبة، وهذه الصفة الأخيرة هي ترشيح للاستعارة.¹

صورة رائعة حققتها الاستعارة الترشيفية، حيث وضع عليه الصلاة والسلام جانباً مهماً في الدين الإسلامي عن طريق هذه الصورة الفنية .

ومن صور الاستعارة الترشيفية ما جاء عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يَأْرُرُ بين المسجدين كما تَأْرُرُ الحية في جحرها»²

وفي هذا الحديث استعارة مكنية مرشحة، حيث شبه عليه الصلاة والسلام، الإسلام بالإنسان الذي يكون غريباً بعيداً عن أهله، وحذف المشبه به وهو الإنسان الذي يكون غريباً، ورمز إليه بشيء من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية الترشيفية، وهذا لازم في كلمة غريب، وإسناد الغربة إلى الإسلام تخيل ، وعلى الرغم مما جاء في

¹ - انظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 101.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 131، رقم الحديث: 146.

الحديث من تشخيص فإنه عليه الصلاة والسلام أضاف قوله: "فطوبى للغرباء" وفي ذلك دعوة إلى التمسك بالإسلام ونيل العزة في ظله أولا وأخيرا¹.

ومن صور الاستعارة الترشيحية أيضا ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أمتي يدعون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل»².

والحديث كما هو واضح يتناول الوضوء، وقد أورده الإمام البخاري في باب فضل الوضوء، والغر المحجلين من آثار الوضوء، والمراد باللفظ " غر " هو جمع أغر، أي ذو غرة وهي بالضم، وغرة الشيء: أوله وأكرمه، والغرة: بياض في جبهة الفرس والأغر الأبيض، ورجل أغر، أي شريف، وفلان غرة قومه، أي سيدهم³.

وأما التحجيل فهو بياض في قوائم الفرس، أو في ثلاث منها، أو في رجله قل أو كثر بعد أن يجاوز الأرساغ، ولا يجاوز الركبتين والعرقوبين، وإذا كان البياض في قوائمه الأربع، فهو محجل أربع، والمراد "أن أمة محمد صلى الله عليه وسلم: «إذا دعوا على رؤوس الأشهاد أو إلى الجنة كانوا على هذه العلامة، أو أنهم يسمون بهذا الاسم لما يرى عليهم من آثار الوضوء»⁴.

وفي الحديث استعارة، فقد استعار لأثر الوضوء في الوجه واليدين والرجلين من الإنسان بالبياض الذي يكون في وجه الفرس ورجليه، حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من خواصه " المحجلون " ، وذلك على سبيل الاستعارة المكنية، والتركيب "أن يطيل غرته" المراد غرته وتحجيتله، واقتصر على أحد الأمرين لدلالته على الآخر، والاستعارة ترشيح،

¹ - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 219.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 63، رقم الحديث: 136.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج10، ص: 43.

⁴ - الكرمانى: صحيح البخاري، بشرح الكرمانى، مصدر سابق، ج1، ص: 172.

لأنها مما يلائم المشبه به المحذوف، أي اقتصر على ذكر الغرة- وهي مؤنثة- دون التحجيل- وهو مذكر، وذلك لكون محل الغرة أشرف أعضاء الضوء وأول ما يقع عليه البصر والنظر من الإنسان، و" الغرة " في الموضعين استعارة حيث شبه النور الذي يكون على موضع الضوء بغرة الفرس وتحجيله.

ومن الاستعارة المكنية أيضا عن أبي هريرة رضي الله يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين »¹.

إن شهر رمضان فيه خير كثير، وهو مجال للتسابق إلى الخيرات والمسارة إلى أداء الرحمات، ولن ينال خير رمضان إلا إذا قدر الله قدره ، وعرف لرمضان حرمة فسان نفسه من سفاسف الأمور، وارتفع بها إلى أعلى درجات سمو ومنازل الملائكة.

فإذا جاء هذا الشهر المبارك جاءت معه الخيرات وفتحت أبواب السماء بالبركات والنعم ولذلك ينبغي على العبد أن يتدارك الأمر بالأعمال الصالحات ويبادر بالأعمال قبل انقضاء الأجل وقبل الرحيل، في رمضان تغلق أبواب جهنم وتقيد الشياطين في رمضان عالم المحبة والسلام والأمان.

والصورة البيانية تكمن في قوله عليه الصلاة والسلام " جاء " هذه اللفظة فيها من الإيحاء الكثير، والمجيء، هو الإتيان ويستعمل على حقيقته للأشياء المحسوسة التي لها صفة الذهاب والمجيء يقال جاء مجيئاً، وإنه لحسن الجيئة: أي الحالة التي يأتي عليها².

و أطراف هذه الاستعارة تتكون من، المستعار منه: الشخص العزيز المبارك الذي يكون لمجيئه وحضوره بين المؤمنين هيبة ووقار، وأمن وأمان، وهو محسوس، وقد حذف

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 672، رقم الحديث: 1800.

² - نظر: محمد علي إبراهيم علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 110.

وبقى شيء من لوازمه وهو المجيء، والمستعار له مذكور وهو رمضان وهو معقول، وأما الجامع بين الطرفين: فهو ما يترتب على مجيئه من خير وطاعة عظيمة. شبه عليه الصلاة والسلام مجيء رمضان بمجيء شخص عزيز مبارك له هبة

ووقار ومحبة يجله الناس ويسعدون بمجيئه وقدمه، لأنه يحمل الخير والبركة، ولذلك يستعد الناس إلى استقباله بالطاعات والعبادة والصبر في صيامه.¹

والوظيفة الأساسية التي حققتها الاستعارة، هي أنها شخصت شهر رمضان حيث خلع عنه الجانب المعنوي وظهر في طابع حسي، مما أعطاه صفة الإنسان التي ترتقي فتصبح حياة إنسانية تشمل المواد الظاهرة، والانفعالات، وتهبه كل العواطف الآدمية والخلجات وإذا برمضان شخص عزيز يستقبل بالصبر، والصيام والطاعة والعبادة و« المراد من فتح أبواب الجنة، كثرة الطاعات في شهر رمضان، فإنها موصلة إلى الجنة، ويقال المراد به ما فتح الله على العباد فيه من الأعمال المستوجبة بها إلى الجنة من الصيام والصلاة والتلاوة وأن الطريق إلى الجنة في رمضان سهل والأعمال فيه أسرع إلى القبول»².

ومن الاستعارة المرشحة قوله عليه الصلاة والسلام: « قيدوا القرآن بالدرس، فإن له أوابد كأوابد الوحش»³، شبه عليه الصلاة والسلام ما يقرأ من القرآن من آيات، بحيوان وحش شديد النفور، حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من خواصه ولوازمه وهو القيد على سبيل الاستعارة المكنية، وقد استعار صلى الله عليه وسلم المحسوس للمحسوس، وذلك زيادة في تثبيت المعنى وترسيخه في أذهان المتلقي.

وأما قوله عليه الصلاة " له أوابد كأوابد الوحش "، هذه الأمور مما يلائم المستعار منه المحذوف ولذلك فإن الاستعارة مرشحة وهي مقواة من أجل البيان والتوضيح

¹ - انظر: محمد علي إبراهيم علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 111.

² - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج10، ص: 266.

³ - العلوي، الطراز، مصدر سابق، ج1، ص: 113.

المطلب الثالث: الاستعارة المركبة في الخطاب النبوي الشريف

والاستعارة المركبة هي الاستعارة التمثيلية، سماها الخطيب القزويني المجاز المركب «وأما المجاز المركب فهو اللفظ المركب المستعمل فيما شبّه بمعناه الأصلي تشبيه التمثيل للمبالغة في التشبيه، أي تشبيه إحدى صورتين منتزعتين من أمرين، أو أمور بالأخرى، ثم تدخل المشبهة في جنس المشبه بها مبالغة في التشبيه فتذكر بلفظها من غير تغيير بوجه من الوجوه»¹.

وكان قد ألقى عبد القاهر الجرجاني عليها وضوحًا وذلك عند تناولها باعتبارها صورة مركبة لصورة مركبة أخرى فقال: «وأما التمثيل الذي يكون مجازًا لمجئك به على حدّ الاستعارة، فمثاله قولك: للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، فالأصل في هذا: أراك في ترددك كمن يقدم رجلا ويؤخر أخرى، ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة... وكذلك تقول للرجل يعمل غير مُعْمَلٍ: أراك تتفخ في غير فحم وتخط على الماء فتجعله في ظاهر الأمر، كأنه ينفخ ويخط، والمعنى على أنك في فعلك كمن يفعل ذلك...»².

وبناء على ذلك قال سعد الدين التفتازاني: «إن حاصل هذه الاستعارة أن تشبه إحدى الصورتين المنتزعتين من متعدد بالأخرى، ثم يدعي أن الصورة المشبهة من جنس الصورة المشبه بها فيطلق على الصورة المشبهة اللفظ الدال بالمطابقة على الصورة المشبهة بها»³.

والواضح من كلام سعد أن الاستعارة التمثيلية ما صرح فيها بالمشبه به المركب، وطوي ذكر هيئة المشبه، وعندئذ تكون الاستعارة التمثيلية من قبيل الاستعارة التصريحية.

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح، مصدر سابق، ص: 214.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 68.

³ - سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، سنة: 2001، ص: 604.

وهذه الرؤية هي ما ذهب إليها بعض الباحثين المعاصرين: « أن الاستعارة التمثيلية لا تكون إلا تصريحية... صرح فيها بلفظ المشبه به واستعمل في المشبه »¹. ثم قال أيضا: «أن التركيب الدال على الهيئة المشبه بها استعير للهيئة المشبه لها على طريق الاستعارة التمثيلية التصريحية»².

والاستعارة التمثيلية: «هي اللفظ المركب المستعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الحقيقي»³، وأن التركيب الذي توافر له كل هذه الحقائق يسمى استعارة تمثيلية.

وإن ما تم الوقف عنده في الاستعارة التصريحية والمكنية، إنما يمثل ما يعرف بالاستعارة في المفرد ، وأما الاستعارة التمثيلية، فإنها تمثل نوعا يجري في التركيب، وإذا كان وجه الشبه في الاستعارة التصريحية والمكنية يجري بين المفردات، فإن الجامع في الاستعارة التمثيلية يجري في التركيب، بحيث يكون الشبه فيها منتزعا من عدة أمور، أي من حالة، أو هيئة.

وقد تحدث عنها عبد القاهر حتى وإن لم يضع لها عنوانا ولم يفرد لها بابا مميزا، إنما ناقش أمثلة حولها خلال تناوله موضوعات أخرى، فهو يتحدث عنها من خلال الفرق بين الاستعارة والتمثيل مقارنا بينها وبين الاستعارة المفردة التصريحية فيقول: « اعلم أنك تجد الاسم وقد وقع من نظم الكلام الموقع الذي يقتضي كونه مستعارا ، ثم لا يكون مستعارا، وذلك لأن التشبيه المقصود منوط به مع غيره وليس له شبه ينفرد به»⁴، ثم يضيف قائلا: «أن الشبه إذا كان موجودا في الشيء على الانفراد من غير أن تكون نتيجة بينه وبين شيء

¹ - أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، مرجع سابق، ص: 379.

² - المرجع نفسه، ص: 103.

³ - أحمد فتحي رمضان، الاستعارة في القرآن الكريم ، مرجع سابق، ص: 148.

⁴ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق: 219.

آخر، فالاسم مستعار لما أخذ الشبه منه كالنور للعلم، والظلمة للجهل، والشمس للوجه الجميل، أو الرجل النبيه الجليل.

وإذا لم تكن نسبة الشبه إلى الشيء على الانفراد وكان مركبا من حاله مع غيره فليس الاسم بمستعار ولكن مجموع الكلام مثل «¹»، ثم يمثل على ذلك بقوله: «الآن أخذ القوس باريها»² مبينا ما في العبارة من تمثيل بقوله: «وإن كان القوس يقع كناية عن الخلافة والباري عن المستحق لها- فإنه لا يجوز أن يقال: إن القوس مستعار للخلافة على حد استعارة النور والشمس، لأجل أنه لا يتصور أن يخرج للخلافة شبه من القوس على الانفراد وأن يقال: "هي قوس" كما يقال: "هي نور وشمس" وإنما الشبه مؤلف بحال الخلافة مع القائم بها ومن حال القوس مع الذي براها».³

والواضح من هذا أن عبد القاهر يعد الاستعارة التمثيلية من باب التمثيل ويؤكد ذلك ما أورده في كتاب دلائل الإعجاز حيث ناقش عدة أمثلة من الاستعارة التمثيلية سماها التمثيل بالاستعارة، في المثال السابق "أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى" أو "أراك تنفخ في غير فحم وتخط على الماء" حيث يظهر الاستعارة في كل منها.

وبعد هذا نستطيع القول: إن عبد القاهر جعل الاستعارة التمثيلية جزءا من التمثيل ولم يفرق بينهما وجعلها استعارة على سبيل التمثيل، ولا عجب في ذلك، فالاستعارة التمثيلية في حقيقتها غالبا ما تكون جزءا من التشبيه التمثيلي الذي يعرف عند جمهور البلاغة بأنه تشبيه أخذ وجه الشبه فيه من متعدد.

وإذا نظرنا إلى الاستعارة التمثيلية على أنها واحدة من الفروع الرئيسية فهي تشارك شقيقتها "التصريحية والمكنية" في الأصل وهو الاستعارة، وبذلك يكون القاسم المشترك بين

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 221.

² - المصدر نفسه، ص: 220.

³ - المصدر نفسه، ص: 220.

الفروع الثلاثة هو الاستعمال المجازي القائم على التشبيه، ووجود قرينة تمنع ورود المعنى الأصلي.

وأما ما يميز الاستعارة التمثيلية عنهما أنهما يجريان في اللفظ المفرد، بينما تكون هي تجري في التركيب، إلى جانب أن القرينة التي تمنع ورود المعنى الحقيقي فيهما تكون لفظية، بينما تكون في التمثيلية غير لفظية، فهي تفهم من السياق، وعليه فإنها تكون حالية، ولعل وجه الخلاف أيضا أن الاستعارتين التمثيلية والتصريحية تجريان في المشبه به، أما المكنية فهي تجري في المشبه، وبذلك تكون صلة الاستعارة التمثيلية ضرب من الاستعارة التصريحية وفيها نصح بالمشبه به المذكور، وحينئذ لا فرق بين الاستعارة التصريحية والتمثيلية إلا أن الاستعارة التمثيلية تجري في المركب والتصريحية تجري في المفرد.

وكما أشرنا أن قرينة التمثيلية حالية؛ لأن الأمثال لا تتغير بعبارة أخرى؛ لأن ذواتها مصونة لا تمس، ولا نملك إزاءها إلا أن نقولها كما وصلت إلينا دون زيادة ولا نقصان، بل دون تغيير أو تحوير في النص.¹

ويذهب البعض أن الاستعارة التمثيلية ترتبط بقواعد فنية مثل كونها لا تكون إلا مصرحة، مع أن هذا من الناحية التطبيقية يمكن أن تكون مكنية، لأن الهيئة المركبة قد تكون مستعاراً منها، وقد تكون مستعاراً لها، ثم إن كونها مرتبطة بقرينة حالية تمنع إرادة المعنى الأصلي، وهي رؤية غير مختصة بالاستعارة التمثيلية فقط، بل هي ملحوظة في كل الأنواع.²

ولهذا الضرب من الاستعارة أبلغية خاصة من حيث القدرة على إفادة وزيادة التأكيد والمبالغة، فالتمثيل بما فيه الاستعارة التمثيلية على درجة عالية من البلاغة والإصابة في القول وحسن التلخيص والاختصار في الكلام، وما أروع وأجمل ما وصفه الجرجاني بقوله:

¹ - عبده عبد العزيز قلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، عام: 1987م، ص: 63.

² - انظر: بسيوني عبد الفتاح، علم البيان، مرجع سابق، ص: 182-184.

« إن تصوير الشبه بين المختلفين في الجنس مما يحرك قوى الاستحسان، ويثير الكامن من الاستظراف، فإن التمثيل أخص شيء بهذا الشأن، وأسبق جار في هذا الرهان، وهذا الصنيع صناعته التي هو الإمام فيها، والبادئ لها والهادي إلى كیفيتها، وأمره في ذلك أنك إذا قصدت ذكر ظرائفه، وعد محاسنه في هذا المعنى، والبدع التي يخرعها بحذقه والتأليفات التي يصل إليها برفقة ازدحمت عليك وغمرت جانبيك فلم تدر أيها تذكر ولا عن أيها تعبر».¹

وللتمثيل ضروب في الشعر العربي قبل الإسلام، زادت قوالبه روعة في القرآن الكريم في جمال وبيان.

أما في الحديث النبوي الشريف فقد شغل التمثيل حيزا واسعا منها، خاصة ما جاء منه على سبيل الاستعارة، « وحسبنا أن يكون ضارب المثل هو من أوتي جوامع الكلم واختصار الكلام، وقد جاءت الاستعارات التمثيلية مصورة لأنواع من الحوادث والمواقف في مختلف نواحي الحياة بما يتعلق بحياة المؤمن وعمله وآخرته، وتكمن فيها طاقة إيحائية كبيرة ولها التأثير البالغ في العقول وتحريك النفوس، وهي أقرب إلى الذاكرة من أن تنسى ومعانيها أكثر من أن تحصى»². ودون شك فإن تلك المجاميع النفسية من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم قد ملأت الأيام فسارت بين الناس سريعا وصارت بعد ذلك أمثالا.³

لذلك لا بدّ لمن يدرس الاستعارة التمثيلية في الحديث النبوي الشريف من الرجوع إلى الكتب التي احتوت على الأمثال في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، لِمَا للأمثال من قيمة كبرى، وأهمية عظيمة، فهي تمثل حكمة العرب وهي تمثل خلاصة تجارب كل أمة ومحصول خبرتها، والمرآة التي تنعكس على صفحاتها عادات الأمة وتقاليدها وأخلاقها وأفكارها ومظاهر حياتها في كلّ شيء من شؤونها، وإذا كانت أمثال سائر الناس وعامتهم

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 113.

² - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 139.

³ - مرجع نفسه، ص: 139.

بهذه المثابة، فلا غرابة أن تكون أمثال الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر أهمية وأكثر عظمة وأرفع منزلة وأبلغ حكمة وأنصح بيانا وأكرم معنى¹، لأن غايته الأولى والأخيرة توضيحية تعليمية، وسيتبين من خلال الاستعارة التمثيلية الدور البارز في إبراز المعاني والأفكار على نحو لا يدانيه فيه تعبير مهما كان مصدره من العباد.

ورد في الحديث النبوي الشريف الكثير من صور الاستعارة التمثيلية تتناول مواضيع مختلفة، منها ما يتناول صفات المؤمن الحميدة والتي يمكن اعتبارها دليلا على قوة إيمانه الذي يشكل حقيقة نفسه، فوجود مثل هذه الصفات دليل على حقيقة إيمانيه ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين»².

والحديث فيه دعوة إلى الحذر والانتباه حتى لا يقع في فخ، وهذا لا يقع إلا في النادر، لأن الإنسان بطبيعته يتعلم من تجاربه وتجاربه غيره، ولفظ "المؤمن" فيه من الدلالات على الوعي وشدة الحذر، لأن الإيمان الحقيقي طريق لمزيد من اليقظة والانتباه والحذر الشديد» ومهما بالغ الإنسان العادي في الحذر والحيلة، فإنه لا يملك أن يكون في مأمن من كل سوء، ولكن من شأنه أن يكون قادراً على الحد منه، في ضوء ما سبق له من عبرة وتجربة صدمة من الصدمات، لا يعود لأسبابها مرة أخرى، ولا يحوم حول حفرتها ولا قريباً منها لئلا يلدغ مرة أخرى»³.

قال معاوية: «لا حكيم إلا ذو تجربة»⁴. هذا القول أورده البخاري وهو مناسب لمعنى الحديث، ويعد هذا القول توضيحاً لمعنى الحديث والمراد منه «من جرب الأمور علم نفعه

¹ - انظر: فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق: 235.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2271، رقم الحديث: 5782.

³ - بكري شيخ أمين، أدب الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 239.

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2271، رقم الحديث: 5782.

وضررها فلا يفعل شيئاً إلا عن حكمة»¹. وقال الميداني: « يضرب لمن أصيب وأنكب مرة بعد أخرى، ويقال هذا من قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي عزة الشاعر أسره يوم بدر مَنْ عليه وأتاه، يوم أحد فأسره فقال: من عليّ فقال عليه الصلاة والسلام هذا القول أي لو كنت مؤمناً لم تعاود لقتالنا ».²

والحديث مما لم يسمع من أحد من قبل النبي صلى الله عليه وسلم: « سنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يسبقه إليه عربي ولا شاركه فيه أعجمي ولم يدع لأحد، ولا ادعاه أحد، مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً، مثل: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»³ واللدغ من فعل الحية، لدغته، عضته فهي لادغة وهو ملدوغ.

ولعل فكرة هذا المثل أن الرجل إذا أدخل يده في جحر لصيد أو غيره ولدغته حية عليه أن لا يعود إلى هذا الجحر حتى لا يلدغ منه ثانية، وإذا عاود الكرة انتفت منه صفة الحكمة والذكاء.

والرسول صلى الله عليه وسلم يشبه أبا عزة الشاعر بمن لدغ من جحر مرة فشفي وسلم، ثم لم يتعظ فيأخذ من الجحر حذره فعاد فلدغ أخرى فقضى عليه، وليس هذا شأن المؤمن، وكأنه عليه السلام يقول له: إذن فلست مؤمناً وإلا لما عاودت عذرك الذي أسرت فيه فأطلقت من قبل.⁴

وأما أطراف هذه الاستعارة التمثيلية ووجه الشبه بين الطرفين يتمثل في المستعار منه: "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"، وهذا الطرف هو المذكور دائماً في الاستعارة التمثيلية.

¹ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج10، ص: 53.

² - الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط3، 1973، ج2، ص: 276.

³ - الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص: 16.

⁴ - انظر: فلاح حمد احمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 239.

المستعار له: من جرب الأمور عرف تقديرها واتصف بالحكمة والذكاء، فلا يعود إليها مرة أخرى إذا كانت فيها المصائب.

وأما القرينة فهي حاله، تفهم من سياق الكلام.

وأما الجامع بين المستعار له والمستعار منه: هو الإيمان والحلم، والواضح أن هذه الاستعارة التمثيلية فيها من الدلالات الكثيرة حيث أنه عليه الصلاة والسلام عندما أراد أن يوضح هذا الجانب، أو هذه المسألة، قارنها بالصورة التي نجدها في هذا المثل " لا يلدغ من جحر"، « وقد أخفى عليه الصلاة والسلام هذه المسألة التي يمكن القول أنها تشكل المستعار له، وبقيت صورة المستعار منه، ولذلك تجسدت هذه المعاني في ذهن المؤمن، وأصبح الشخص الذي يخدع المؤمن لأول مرة صورة ثعبان سام لدغ فأوجع، وإذا ما لدغ مرة ثانية تكون لدغته أعنف وأقوى وأشد إيلاما وأقوى تأثيراً من الأولى، وربما تكون لدغة قاضية ومميتة ».¹

والصورة تظهر وتحذر أن المؤمن الحقيقي لا يخدع مرتين، ولهذا أصبح تأثير الاستعارة التمثيلية في المؤمن، مثل تأثير سم الحية في جسم الإنسان، مما يؤدي إلى عدم تكرار الخديعة إلا على غير المؤمن الذي لا يقدر الأمور، كما لا تتكرر اللدغات إلا على المغفل الذي تتوه عليه الجحور.²

هذه المعاني التي أظهرتها الاستعارة التمثيلية لا يمكن أن تتبين بأسلوب من الأساليب البلاغية الأخرى، مثل التشبيه والكناية مثلاً، ولهذا يمكن القول أنها خصوصية من خصائص الاستعارة التمثيلية.

¹ - انظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 147.

² - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق ، ص: 147.

ولا نبتعد كثيرا عن معنى الحديث السابق حتى نقف عند حديث جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب».¹

الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث يحذر من الغضب ومخاطره ،لأن الانصياع وراء أهواء النفس يؤدي إلى الهلاك ،لأن الشيطان دائما ويتربص به وينتظره ويزين له الأعمال، ويدفعه إلى الغضب وإظهار الشدة والقوة في وجه أخيه، خلال ما يوسوسه في نفوسهم.

ولذلك جاء هذا الحديث ليظهر حقيقة الإنسان القوي، وطرائق القوة عندما يملك زمام نفسية ويحكم عقله ، وفي ذات المعنى حديث آخر، جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال للنبي: أوصني، قال: "لا تغضب" فردد مرارا، قال: «لا تغضب» ،لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم علم اليقين نتائج الغضب وما يعقبه من ندم، فعندما يكون الإنسان في حالة عدائية معينة ،أو في موقف من المواقف قد ينتابه شعور عارم من الغضب ، فيكون الشيطان هو المستفيد من هذه الحالة فيستغل هذه اللحظة التي قد لا تأتية ثانية محاولا أن يشعل في النفس نار الحقد والبغض والكراهة، فإذا تمكن من السيطرة عليه وقع الإنسان في المهانة والخسران.

أما إذا تمكن الإنسان من نفسه أولا وأحكم السيطرة ،فإنه حتمًا يكون قد صرع الشيطان وتغلب عليه ،لأنه في هذه الحالة ينتقل الملك له على نفسه ويوجه كل فعل منه إلى الطريق الصحيح والرشاد، يقول ابن الأثير: « لما كان الغضبان بحالة شديدة من الغيظ وقد ثارت عليه شهوة الغضب فقهرها بحمله وصرعها بثباته كان كالصرعة الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه»². وهذا مثل ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلامه الشريف

1-صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5،ص:2267،رقم الحديث:5763.

2- ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، دار النشر الحلبي، ط1، عام: 1963، ص: 23-24.

هذا مثل على سبيل الاستعارة التمثيلية للدلالة على أهمية الحلم، وهي صفة المؤمن الذي يعرف كيف يواجه الحوادث ويخلص نفسه من مثل هذه المواقف وعدم الوقوع فيها، وبذلك تكون أطراف الاستعارة، المستعار منه، الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب.

المستعار له، الحالم الثبت، والقرينة مفهومة من سياق الكلام، والجامع بينهما المستعار منه، والمستعار له، هو التغلب النفس، وعلى الشيطان معا.

ومن صور الاستعارة التمثيلية ما جاء عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثلي ومثل ما بعثني الله، كمثلي رجل أتى قوما فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعه طائفة فأدلجوا على مهلم فنجوا، وكذبت طائفة فصبحهم الجيش فأجتاحهم»¹. وفي رواية مسلم «إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثلي رجل أتى قومه، فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه، فأدلجوا فانطلقوا على مهلم، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني، واتبع ما جئت به، ومثل من عصاني، وكذب ما جئت به من الحق»².

والحديث كما هو واضح من باب ضرب الأمثال لتوضيح المعاني وتقريبها للأذهان فقد ضرب لهم عليه الصلاة والسلام مثلاً للهدي الذي بعث به بحال رجل منذر بدت عليه «كل أمارات الصدق وجاء يحذر قومه ويدعوهم إلى النجاة فأسرعت طائفة إلى تصديقه واستعدت للنجاة بكل ما أمكن فنجت في سعة الوقت، وكذبت طائفة أخرى فصباحهم العدو وأغار عليهم فأهلكهم جميعاً»³.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2379، رقم الحديث: 6117.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1789، رقم الحديث: 2283.

³ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 249.

والاستعارة التمثيلية وردت في قوله عليه الصلاة والسلام: «إني أنا النذير العريان»، والنذير العريان أصله أنه كان من عادة العرب أن يجعلوا رجلاً على مكان عالٍ مشرف على المسالك، التي يمكن أن يأتي منها الأعداء، ليكون لهم عينا يراقب هذه المسالك فإذا أقبل غزاة من بعيد «أو قصدهم قاصد بسوء تجرد هذا الرجل من ثيابه وتعرى، وأخذ يلوح لهم بها من مكانه وهو متجرد عريان فينذرهم في حركته هذه بالخطر المحقق، وكان ذلك علامة عندهم على وصول الخطر إلى الدرجة القصوى التي لا تحتل التهاون ولا التباطؤ فتستعد لدرء الخطر، أو الفرار من وجهه في فرصة مواتية».¹

وهذا الرجل الذي يقوم بهذه المهمة يسمى عند العرب "ربيئة" لأنه يربأهم: أي يطلع لهم ، ويرقب لهم، وهو على مكان عالٍ مشرف ويسمى أيضاً "طليلة"، لأنه يطلع لهم حتى يعلمهم بالمخاطر فلا يدهمهم عدو، ويسمى أيضاً عينا، لأن العين أداة الإبصار.

وفي هذا الحديث نلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام زاد في الحرص على التبليغ، وذلك عندما أعقب الصورة القولية، إني رأيت بعيني، بصورة مرئية، وإني أنا النذير العريان.²

والصورة شبه فيها عليه الصلاة والسلام حاله وهو ينذر قومه ويعلمهم بما شرع الله، وما يترتب على المخالفة من الإثم والعقاب «بصورة عرفها العرب وهي صورة رجل كان ربيعة قومه وعينا لهم، فأراد إنذار قومه وإعلامهم بهجوم العدو عليهم فنزع ثوبه، وأشار إليهم ليحثهم للتأهب للعدو، ويسهل على الرائي أن يعرف الشر في عريه، ثم استعيرت هيئة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية».³

وبالنظر إلى جزئيات هذه الصورة الاستعارية يمكن أن تكون مجازية التعبير «فطاعة القوم هي طاعة الله والامتثال لمضامين الإسلام، وهلاكهم عذاب الآخرة والنذير هو الرسول

¹ - عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني، روائع من أقوال الرسول، دار القلم، دمشق، ط10، سنة: 2005، ص: 173.

² - كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 187.

³ - عبد الفتاح لاشين، من بلاغة الحديث الشريف، مرجع سابق، ص: 34.

عليه الصلاة والسلام، والرؤية العينية هي أصدق وسائل المعرفة تمثل الخبر الصادق الذي جاء به النبي الكريم».¹

والملاحظ على ما جاء في رواية مسلم: «فذلك مثل من أطاعني، واتبع ما جئت به ومثل من عصاني، وكذب ما جئت به من الحق» يمكن النظر إليه على أنه تذييل يغدو ظاهرة جمالية، لأنه «يوقظ الذهن إلى المقارنة بين حالين والتقاط عناصر التشابك، خشية أن يغرق المتلقي في سحر البيان وينسى الغاية الخلقية التي اختارت شكلا قصصيا مسهبا، ويمثل هذا التذييل: وجه الشبه بين الطاعة والعصيان، فهو موجود لإبعاد الإلغاز، ولربط كل جزئية من الصورة بالدعوة الإسلامية وعدّها تجسيما لها».²

الحديث النبوي الشريف وردت فيه أحاديث كثيرة يقوم بناؤه على التصوير خاصة الاستعارة التمثيلية التي تتناول مواضيع مختلفة تتصل جميعها بالدين الإسلامي، ومن الأحاديث النبوية التي تناولت الصدقة وفضلها، وتقوم على استعارة تمثيلية جرت مجرى الأمثال حيث كان توظيفها على أساس وسيلة فنية بغية تصوير المعنى وتوضيح المقصود خاصة الصدقة عن قدرة بحيث لا تؤثر في صاحبها، وهذا ما نجده فيما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى وابدأ بمن تعول».³ يقول الشريف الرضي: « وهذا القول مجاز، لأن المراد بذلك أن المتصدق إنما يجب عليه الصدقة إذا كانت له قوة من غنى، والظهر هاهنا عبارة عن القوة، فكأن المال للغني بمنزلة الظهر الذي عليه اعتماده، وإليه سنده، ومن ذلك قولهم: فلان ظهر لفلان إذا كان يتقوى به ويلجأ في الحوادث إليه».⁴

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق ، ص: 157.

² - مرجع نفسه ، ص: 158.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 518، رقم الحديث: 1360.

⁴ - الشريف الرضي، المجازات النبوي، مصدر سابق، ص: 45.

والملاحظ أنه عليه الصلاة والسلام أضاف الظهر إلى الغنى ليدل بذلك على أن ظهر الغنى قوي بارز، فإذا أخذت الصدقة من هذا الظهر فلا تؤثر فيه، ولا تؤدي إلى فقره ، فهو

يضعف لصدقة أخرجها.

ومما لاشك فيه أيضا أن المراد بالغنى لا يعني فقط غنى المال، ولكن الأهم في ذلك غنى النفس، لأن في ذلك دلالة تجعل المؤمن سباقا إلى الصدقات، وفعل الطاعات ليعين غيره، قال عليه الصلاة والسلام: « ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ، ولكن الغنى غنى النفس »¹. وأطراف الصورة الاستعمارية التمثيلية تتكون من:

المستعار منه: لا صدقة إلا عن ظهر غنى، والمستعار له: الإنسان المؤمن المقندر الصابر الذي يتصدق ولا يتصدق عليه لقناعته وحلمه ورضاه بالقليل. وأما القرينة الحالية تفهومة من السياق، والجامع بين المستعار منه، والمستعار له، هو قوة العزيمة والاعتدال والصبر والقناعة «والرسول صلى الله عليه وسلم هو الأسوة الحسنة يعجز اللسان عن وصف أخلاقه العظيمة ولا سيما في تصدقه ومساعدة الناس حيث كان لا يُبقي لنفسه شيئا، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه تخلص من ماله عن ظهر غنى، لأنه كان غنيا بقوة توكله، أي غنى يستظهر به على النوائب التي تتوبه »².

ومن الاستعارة التمثيلية أيضا ما جاء للدلالة على الصبر والثبات في ساحة المعركة لأن الصبر دليل النصر ودليل الوصول إلى الجنة. ومن ذلك ما جاء عن مولى عمر بن عبيد الله، وكان كاتبه، قال: كتب إليه عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف »³.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2368، رقم الحديث: 6081.

² - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، ص: 155.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1037، رقم الحديث: 2663.

يطلق عادة على السيف بارقة مثل قولهم: برق السيف بروقا، إذا تلأأ وقد تطلق البارقة ويراد بها السيوف، وقال بعضهم: الصواب البارقة وهي السيوف اللامعة «وكان البخاري أراد بالترجمة أن السيوف لما كانت لها بارقة شعاع كان لها أيضا ظل تحتها وترجم ببارقة يريد لمعان السيوف»¹.

وظل السيوف هذه تكون تحتها الجنة، ولذلك أختار عليه الصلاة والسلام هذا المثل بغية إظهار قتال المؤمنين في ساحة المعارك وهم رافعون سلاحهم في وجه العدو، وفي ذلك حث على القتال ودعوة إلى الاستشهاد في سبيل الله، دعوة إلى الصبر عند اللقاء والثبات أمام الأعداء، لأنهم هم الفائزون والجنة تحت ظلال سيوفهم، أي أن الثواب الأعظم والجزاء الأكبر يكون بالصبر والثبات، لأن ذلك هو السبيل الموصل إلى الجنة وهو من المجاز البليغ، لأن ظل الشيء لما كان ملازماً له، ولا شك أن ثواب الجهاد الجنة، فكأن ظلال السيوف المشهورة في الجهاد تحتها الجنة، أي ملازمها استحقاق ذلك وخص السيوف، لأنها أكثر آلات القتال التي تكون في ساحة المعركة.²

وعلى ذلك يمكن الوقوف على أطراف الاستعارة في هذا الحديث، فالمستعار منه: الجنة تحت ظلال السيوف، والمستعار له: الصبر والثبات في ساحة المعركة في سبيل الله الذي يناط النصر به، وأما القرينة فهي حالة تفهم من سياق الكلام.

ومن صور الاستعارة التمثيلية أيضا في الحديث النبوي الشريف ما يظهر دقة أعمال الشيطان مع العبد بغية تضليله وصدّه عن الحق والعبادة، ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقد مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت

¹ - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، شرح صحيح البخاري، ج14، ص: 114.

² - نظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 160.

عقدة، فإن توضع انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقده كلها، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان».¹

الحديث يكشف عن صورة الشيطان العدائية للإنسان عندما يكون نائماً، يقوم بالاعتداء عليه من خلال عقد ثلاث عقد تبعد العبد عن العبادة وتدفعه إلى الكسل. تلك العقد تجعله لا يستيقظ من نومه مما جعله تفوته فريضة الصلاة، خاصة صلاة الفجر، وفضل هذا الوقت بالذات الذي لا يمكن أن يعوضه المرء أبداً،

والمراد في الحديث بقوله عليه الصلاة والسلام "قافية الرأس"، هي مؤخرة الرأس والعنق، كأنها شيء يقفو الوجه وذات المكان يعقد الشيطان عليها، وقوله: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم"، هذه استعارة جاءت تنبيهاً للناس على أفعال الشيطان، ولذلك يمكن الوقوف على أطراف الاستعارة التمثيلية:

المستعار منه: يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم، والمستعار له: تخدير الإحساس وتنشيط العزيمة إلى جانب خسران العمل والثواب. والقرينة الحالية تفهم من السياق. وعقد الشيطان لا يمكن تصورهما إلا بالاستعارة، لأن أكثر أفعال الشيطان غير مرئية لكن الحس النفسي يكشف تأثيرها السلبي، هذا الحس النابع من نور البصيرة عند المؤمن، وهو الذي يثبتته قوله صلى الله عليه وسلم في نهاية هذا الحديث الشريف: " فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان " فالرجل الذي لم يستيقظ مبكراً وفاته صلاة الصبح وفضيلة هذا الوقت من العمل والأجر، فإنه بعد أن يستيقظ يشعر بثقل النفس وسوء الطبع فإذا كان مؤمناً عرف أن هذا من فعل الشيطان.² وبدون شك أن الاستعارة التمثيلية تجري في التركيب، فهي منتزعة من عدة أمور، وهذا الضرب من الاستعارة بلغ حدّاً من الإيجاز والشهرة وانتشرت بين الناس فأصبحت مثلاً سائراً،

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1193، رقم الحديث: 3096.

² - انظر: محمد علي إبراهيم علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 168.

وشاعت هذه الاستعارات بألوان من الدلالات الفكرية والنفسية مما يكون لها أثرها الخاص في النفس الإنسانية، فاستأنس الناس ببلاغتها في ضوء ما تعارفوا عليه من أمثال، خاص خاصة ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله في ضوء ما تعارفوا عليه من أمثال، خاصة ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.¹

¹-انظر: المرجع نفسه: 168.

الفصل الثالث: الصورة المجازية والكنائية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: الصورة المجازية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الثاني: الصورة الكنائية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول : الصورة المجازية في الخطاب النبوي الشريف

ويتضمن هذا المبحث ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: مفهوم المجاز بين اللغة والاصطلاح

المجاز في اللغة: لم يتحدد مصطلح المجاز عند اللغويين القدماء بمدلوله الذي عرف به فيما بعد واستقر عليه رأي المتأخرين.

فقد ورد في معجم العين أن « المجاز المصدر والموضع »¹ ولا نعتقد أن هذه الدلالة فيها ما يدل على المصطلح من الناحية اللغوية، أو البلاغية، وأمثلة الخليل في هذا المقام تعد ضرباً من الاتساع في استعمال اللغة، وبالرجوع إلى المعاجم اللغوية والبلاغية يمكن الوقوف على مفهوم المجاز حيث يتبين أن مادة: جوز، تعني الانتقال من حال إلى حال، وهي مادة تأتي مصدرًا، واسمًا.

وفي الاستعمال المصدر تدل على السير والسلوك، فقد جاء في اللسان قوله: « جوز: جُزْتُ الطريق وجازَ الموضعَ جُوزًا وجُوزًا وجوازًا ومجازًا ورازَ به وجاوزه جِوزًا وأجازه غيره وجازه: سار فيه وسلكه، وأجازه: خلفه وقطعه، وأجازه: أنفذه »²

وأما استعماله اسماً فمعناه: الموضع، ففي اللسان « والمَجازُ: الموضع، جزت الموضع سرت فيه »³

وأما الألفاظ المشتقة من هذه المادة، فهي تدل على دلالات مختلفة ترتبط جميعها من ناحية أو أخرى، بمعنى المجاز، سواء كان مصدرًا، أو اسمًا، وهذه الألفاظ قد تأتي مجردة أو

¹ - الخليل بن أحمد، معجم العين، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، عام: 2003م، ج1، 272.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج:2، ص: 416.

³ - المصدر نفسه، ج:2، ص: 416.

مزيدة، فقولهم: جازالموضع، سار فيه، وجزت الطريق وجاز الموضع وجاهه: سار فيه وسلكه، ،
وفي حديث الصراط: "فأكون وأمتي أول من يجيز عليه، ومنه حديث المسعى "لا تجيزوا
البطحاء إلا شداً".¹

والاجتياز: السلوك، والمجتاز: مجتأب الطريق، والمجازة: الطريق إذا قطعت من أحد
جانبه إلى الآخر، وقيل: إنه من جوز القطع والسير، وتجاوز في كلامه، أي تكلم بالمجاز²،
وقولهم: جعل فلان ذلك الأمر مجازاً إلى حاجته ، أي طريقاً ومسلكاً.

ومهما يكون الأمر فإن لفظ المجاز مشترك لفظي بين معانٍ، فهو يستعمل بمعنى
الحدث الذي هو الجواز، فيكون حينئذٍ مصدرًا ميميًا بمعنى الجواز، أي الانتقال من حال إلى
غيرها مبالغة في جوازه عن مكانه الأصلي حتى كأنه غير الجواز.

ويستعمل أيضا بمعنى المكان الذي وقع فيه الحدث، لأنه متعدد من محل الحقيقة إلى
محل المجاز

وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة، وصف بأنه مجاز على معنى جازوا به
موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولا ، في كلامه ،أي تكلم بالمجاز.³

المجاز عند علماء البلاغة

المجاز فن قديم عرفه علماء البلاغة واستعملوه في أساليبهم خاصة عندما تطورت اللغة،
وأصبحت ألفاظها الوضعية تضيق بالمعاني الجديدة، وربما يكون الخليل بن أحمد من الأوائل
الذين أشاروا إليه، فقد كانت إشارات تدل على وضوح الرؤية عنده فيما نقله عنه سيبويه، خاصة
عندما تناول بعض النصوص القرآنية مثل قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾⁴

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابقه، ج2، ص: 416.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 418.

³ - انظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة ، مصدر سابق، ص: 333.

⁴ - سورة يوسف ، الآية: 4

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّملُ ادْخُلُوا مَسَكِنَكُمْ﴾¹ فقال: «فرعم - يعني الخليل - أنه بمنزلة ما يعقل ويسمع، لما ذكرهم بالسجود، وصار النمل بتلك المنزلة حين حَدَّثَتْ عنه كما تُحَدِّثُ عن الأناس وكذلك ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾»² لأنها جُعِلَتْ، في طاعتها وفي أنه لا ينبغي لأحد أن يقول: مطرنا بنوء كذا، ولا ينبغي لأحد أن يعبد شيئاً منها بمنزلة من يعقل من المخلوقين ويبصر الأمور، فجاز هذا حيث صارت هذه الأشياء عندهم - يعني العرب - تؤمر وتطيع وتفهم الكلام وتعيه بمنزلة الآدميين»³ ومثل هذا الكلام، وهذا التأويل يمكن القول، أنه يمهد للاستعارة المكنية، ولعل سيبويه كان أكثر قرباً من الخليل إلى المجاز، حيث كانت له وقفات عند بعض النصوص أولها تأويلاً مجازياً بكل وضوح، حتى وإن هو لم يسمه فقد قال: «هذا باب جرى مجرى الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعولين في اللفظ لا في المعنى، وذلك قولك: يا سارق الليلة أهل الدار»⁴.

وأما أبو عبيدة فقد وظف اللفظة «مجاز» عنواناً لكتابه "مجاز القرآن" وإن كان يريد به الكشف عن معاني الألفاظ في مواضيعها من خلال النص القرآني سيراً على منوال أساليب العرب في كلامهم، وسننهم في وسائل الإبانة عن المعنى، ولا نعتقد أنه يعني بلفظ "مجاز" ما هو قسيم للحقيقة، بقدر ما يعني التعبير عن إبانة المعاني.

ومع ذلك يكون أول من يستعمل هذه التسمية من العلماء، إلى جانب أنه وظف بعض اللامحات الدالة حول الحقيقة والمجاز، فقد لمح إلى معنى المجاز في قوله تعالى حكاية عن الملائكة ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾⁵ ومعنى «نسبح، نصلي، نقول: قد فرغت من سبحتي، أي من صلاتي»⁶ وهذا ما نراه إشارة إلى العلاقة الجزئية، حيث أطلق التسبيح وهو جزء من الصلاة، على الصلاة بجميع أجزائها، وربما يكون أكثر وضوحاً في قوله

¹ - سورة النمل، الآية: 18.

² - سورة يس، الآية: 40.

³ - سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، عام: 1988، ج2، ص: 47، 48.

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص: 175.

⁵ - سورة البقرة، الآية: 30.

⁶ - أبو عبيدة، مجاز القرآن، تحقيق، محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون ذكر الطبعة والسنة، ج1، ص: 36.

تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾¹ فقال أبو عبيدة: «ومجاز أن ينقض مجاز يقع، يقال: انقضت الدار إذا تهدمت وسقطت، ومجازه: أن ينقلع من أصله».²

ولا نعتقد أن أبا عبيدة كان يقصد من لفظ «مجاز» وجه الكلام ومأخذه، وإذا كانت النظرة عند أبي عبيدة ومن سبقه بهذا الرؤية، فإن تطور مفهوم المجاز كان على يد الجاحظ، وابن قتيبة، حيث ظهر في كتابتهما مصطلح المجاز فشاع استعماله، واستعمال الاستعارة، مع أنهما لم يكونا أول من صرحا بالمجاز، «ويطلق الجاحظ هذا الاسم بمعناه العام على كل الصور البيانية - عند تناوله لكثير من نصوص القرآن - إذا لم يذكر الاستعارة أو التشبيه»³ غير أنه وضع بابا في كتاب الحيوان بعنوان «باب آخر في المجاز والتشبيه» وتناول في أوله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾⁴ وكذلك قوله عز وجل: ﴿أَكَلُوا لِلسَّحْتِ﴾⁵ وقد يقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحل وركبوا الدواب، ولم ينفقوا منها درهماً واحداً في سبيل الأكل، وهذا كله مجاز»⁶ ثم يذكر بعد ذلك شواهد مختلفة، وهي شواهد دالة على الاستعمال المجازي.

والملاحظ أن الجاحظ في تعريفه للمجاز، لا يفرق بين أنواعه المختلفة، فكله قد عدل به عن معناه الأصلي، إلى معنى آخر، فيه تحوير ومجاز، وتتضح رؤية الجاحظ أكثر عندما تناول قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ﴾⁷ حيث يقول: «فالعسل ليس بشراب، وإنما هو شيء يحول بالماء شراباً، أو بالماء نبيذاً، فسماه كما ترى شراباً إذ كان يجيء منه

¹ - سورة الكهف، الآية: 77.

² - أبو عبيدة، مجاز القرآن، مصدر سابق، ج1، ص: 411.

³ - محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي، مرجع سابق، ص: 84.

⁴ - سورة النساء، الآية: 10.

⁵ - سورة المائدة، الآية: 42.

⁶ - محمد زغلول سلام، أثر القرآن في تطور النقد العربي، مرجع سابق، ص: 84.

⁷ - سورة النحل، الآية: 69.

الشراب، وقد جاء في كلام العرب أن يقولوا: جاءت السماء اليوم بأمر عظيم وقد قال الشاعر:

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غاضبا

فزعمو أنهم يرعون السماء، وأن السماء تسقط ، ومتى خرج العسل من جهة بطونها وأجوافها فقد خرج في اللغة من بطونها وأجوافها، ومن حمل اللغة على هذا المركب لم يفهم عن العرب قليلا ولا كثيرا ، وهذا الباب هو مفخرة العرب في لغتهم، وبه وبأشباهه اتسعت، وقد خاطب بهذا أهل تهامة، وهذيل، وضواحي كنانة، وهؤلاء أصحاب العسل، والأعراب أعرف بكل صمغة سائلة وعسلة ساقطة، فهل سمعتم بأحد أنكر هذا الباب أو طعن عليه من هذه الجهة ؟ ¹ ولذلك فإن المجاز عند الجاحظ هو «استعمال اللفظ في غير حقيقته توسعا» ² ومهما كان أمر المجاز عند الجاحظ، فإنه أول من أسس البحث فيه وعمقه بالتحليل أعدَّ العقل العربي لدراسة الظواهر اللغوية.

وبالنظر فيما كتبه الجاحظ نجده سجل مجموعة من المصطلحات المجازية مثل: الاستعارة، التشبيه، الإيجاز، والتلاؤم، والمجاز.

هذه المصطلحات نجدها أكثر وضوحا عند ابن قتيبة، الذي عول كثيرا على أفكار الجاحظ، مما جعله من الأوائل في بحث البلاغة في ظلال القرآن، حيث وضع كتابه " تأويل مشكل القرآن" وقد أشار في مقدمة كتابه إلى فضل القرآن الكريم، وأن هذا الفضل لا يعرفه إلا « من كثر نظره واتسع علمه، وفهم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات، فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة، والبيان واتساع المجال ما أتيته العرب خصيصي من الله» ³.

¹ -الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج5، ص:426.

² - محمد زغلول، أثر القرآن في تطور النقد العربي، مرجع سابق، ص: 84.

³ - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، تحقيق إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، عام: 2007، ص: 17.

ويضيف قائلاً: « وللعرب المجازات في الكلام، ومعناها طرق القول ومآخذه ففيها: الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم والتأخير، والحذف والتكرار والإخفاء، والإظهار والتعريض والإفصاح، والكناية والإيضاح، ومخاطبة لواحد مخاطبة الجميع، والجميع مخاطبة الواحد، والواحد والجميع خطاب الاثنين، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم، ولفظ العموم لمعنى الخصوص».¹ ثم يشير بعد ذلك إلى أشياء كثيرة تأتي في أبواب المجاز.

وأما المجاز فقد توسع فيه كما هو واضح في النص، حيث أطلقه على جميع فنون الكلام، كما نجده أيضاً في مقدمة كاتبه يستعمله بالمعنى المقابل للحقيقة وذلك عندما تحدث عن بعض الصور «المجازية التي توهم التشبيه بين الله ومخلوقاته - في الكتب المقدسة كالإنجيل والتوراة والزبور وجدل اليهود والنصارى حول هذه الصور واختلافهم في فهمها فمنهم من صرفها إلى الحقيقة فوق في التشبيه والتجسيم، ومنهم من تأولها تأويلاً مجازياً وتفرقوا تبعاً لذلك إلى فرق وأحزاب».²

زعموا أنه كذب، لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تسأل، وهذا من أشنع جهالاتهم وأدلها على سوء نظرهم وقلة أفها مهم».³

ويُظهر ابن قتيبة دفاعه عن وقوع المجاز في القرآن واللغة العربية فقال: «كان المجاز كذباً، وكل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلاً - كان أكثر كلامنا فاسداً لأننا نقول: نبت البقل، طالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وأقام الجبل، ورخص السعر، ونقول: كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن، وإنما كون، ونقول: كان الله وكان بمعنى حدث والله جل وعز قبل كل شيء بلا غاية، لم يحدث فيكون بعد أن لم يكن».⁴

¹ - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، مصدر سابق، ص: 82.

² - عبد العزيز عرفة، قضية الإعجاز، مرجع سابق، ص: 225.

³ - المرجع نفسه، ص: 231.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 231.

وينتهي ابن قتيبة من الدفاع عن وقوع المجاز في القرآن الكريم بعد أن قدم نماذج متعددة عن مجاز القرآن الكريم.

وأما عبد القاهر الجرجاني فقد أخذ بحث المجاز على يديه صورة علمية دقيقة حيث بدأ دراسته لهذا النوع البياني بالإشارة إلى أن المجاز ضد الحقيقة حيث قال: «وأما المجاز فكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها لملاحظة بين الثاني والأول، فهي مجاز»¹ ثم أشار إلى الاستعمال الحقيقي فقال «كل كلمة أريد بها ما وقعت له في وضع واضع وإن شئت قلت: في مواضعه - وقوعاً لا يستند فيه إلى غيره فهي حقيقة».²

ثم قسم المجاز - بناء على أن المجاز ضد الحقيقة - إلى قسمين: مجاز لغوي، ومجاز عقلي مشيراً إلى أن النوع الأول، المجاز اللغوي يختص بالمفرد، وأما المجاز العقلي فيختص بالجملة.

ويقصد بالمجاز اللغوي استخدام اللفظ في معنى غير معناه الحقيقي «فإذا وصفنا بالمجاز الكلمة المفردة كقولنا: اليد مجاز في النعمة، والأسد مجاز في الإنسان وكل ما ليس بالسبع المعروف كان حكماً أجريناه على ما جرى مجاز في الإنسان، وكل ما ليس بالسبع المعروف، كان حكماً أجريناه على ما جرى عليه من طريق اللغة لأننا أردنا أن المتكلم قد جاز باللفظة أصلها الذي وقعت له ابتداء في اللغة وأوقعها على غير ذلك إما تشبيهاً وإما لصلة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقلها عنه».³

وبناء على النص فإن المجاز اللغوي عنده ينقسم إلى قسمين: مجاز مرسل واستعارة، على اعتبار أن الأصل في المجاز المرسل، وهو وجود صلة أو علاقة ما بين المعنى

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 297

² - المصدر نفسه، ص: 297

³ - المصدر نفسه، ص: 344.

الأصلي، والمعنى الفرعي كعلاقة السبب بالمسبب، أو الحال بالمحال، أو الجزء بالكل، أو العام بالخاص.

وأما الاستعارة فالعلاقة فيما بين الأصل والفرع قائمة على المشابهة، ومن ثم فهو يعتبر التشبيه أصلاً في الاستعارة، وسمة دالة عليها، ومميزة لها عن ألوان المجاز الآخر.

وإذا كان عبد القاهر لم يعقد فصلاً معيناً يتناول فيه المجاز المرسل، وإنما تناول بعض الجوانب التي تتعلق به، فهو يفرق بين حقيقته، وحقيقة الاستعارة، خاصة من حيث العموم والخصوص «إن المجاز أعم من الاستعارة وإن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز، وليس كل مجاز استعارة».¹

والأمثلة التي ساقها عبد القاهر الجرجاني كشفت عن طائفة من علاقات المجاز المرسل، وأظهرت اختلافها وتنوعها «.. نحو تسميتهم المزايدة، راوية وهي اسم للبعير الذي يحملها في الأصل، وتسميتهم البعير حفصاً وهو اسم لمتاع البيت الذي يحمل عليه - ولا كنحو ما بين الجزء من الشخص وبين جملة الشخص كتسميتهم الرجل عيناً إذا كان ربيّة والناقة ناباً - ولا كما بين النبت والغيث وبين السماء والمطر حيث قالوا: رعينا الغيث، يريدون النبت الذي الغيث سبب في كونه، وقالوا: أصابنا السماء يريدون المطر».²

ومن خلال النص يتضح أن علاقات المجاز المرسل متعددة وليست واحدة فإطلاق الراوية على المزايدة، وإطلاق اسم الحفص على البعير الذي يحمله من قبيل المجاوزة، وإطلاق العين على الربيّة الذي ينظر للقوم ويرعى أمورهم، ويحرسهم مجاز علاقة الجزئية، وإطلاق الغيث سبب في النبات يعتبر من علاقة السببية، كما ينبئ كلام عبد القاهر، لأن الغيث سبب في النبا

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 336.

² - المصدر نفسه، ص: 335.

وأما النوع الثاني من المجاز عند عبد القاهر الجرجاني فهو المجاز العقلي الذي سماه بالمجاز العقلي، أو الحكمي وتحدث عنه بالتفصيل واعتبره كنزا من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ حيث قال: « وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعا مصنوعا، وأن يضعه بعيد المرام قريبا من الإفهام، ولا يغرنك من أمره أنك ترى الرجل يقول: " أتى بي الشوق إلى لقائك"، و" سأربي الحنين إلى رؤيتك"، " وأقد مني بلدك حق لي على إنسان"، وأشباه ذلك مما تجده لسعته وشهرته يجري مجرى الحقيقة، التي لا يشكل أمرها، فليس هو كذلك أبداً، بل يدق ويلطف حتى يمتنع مثله إلا على الشاعر المفلق والكاتب البليغ، وحتى يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأنق بها».¹

ثم تحدث عبد القاهر الجرجاني عني القرينة الصارفة عن إرادة ظاهرة الإسناد في المجاز العقلي أو الحكمي فقال: «واعلم أنه لا يجوز الحكم على الجملة بأنها مجاز إلا بأحد أمرين: فإما أن يكون الشيء الذي أثبت له الفعل ممالا يدعي أحد من المحققين والمبطلين أنه مما يصح أن يكون له تأثير في وجود المعنى الذي أثبت له وذلك نحو قول الرجل: "محببتك جاءت بي إليك، وكقول عمرو بن العاص في ذكر الكلمات التي استحسناها: هن مخرجاتي من الشام، فهذا ما لا يشتبه على أحد أنه مجاز، وإما أنه يكون قد علم من اعتقاد المتكلم أنه لا يثبت الفعل إلا للقدر، وأنه ممن لا يعتقد الاعتقادات الفاسدة كنحو ما قاله المشركون وظنوه من ثبوت الهلاك فعلا للدهر»²، من الذين تناولوا فن المجاز السكاكي في كتابه مفتاح العلوم، في القسم الثالث منه تناول علوم البلاغة حيث أعطاهم الصبغة النهائية. هذه الصبغة عكف عليها العلماء من بعده يدرسونها ويشرحونها، غير أن ما أعطاهم للبلاغة ليس ابتكارا منه، وإنما هو تلخيص دقيق جمع بين أفكاره الخاصة، وأفكار البلاغيين من قبله.

¹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 228.

² - ، المصدر نفسه ، ص: 328 .

ومع هذا الجهد فقد خلا تلخيصه من تحليلات عبد القاهر التي أبهرت القارئ، أما السكاكي فقد تحولت البلاغة على يده إلى قواعد وقوانين على حساب روح البيان وومضاته التي تمتع النفس، ولأجل أن يصل إلى غايته وظّف المنطق بأصوله وألفاظه وأسلوبه الجاف، وما يعنينا في هذا المقام هو فن المجاز، الذي تناوله مباشرة بعد فن التشبيه، فتناول الحقيقة والمجاز، وعرف الحقيقة على أنها: «هي الكلمة المستعملة فيما هي موضوعة من غير تأويل في الوضع، أو هي المستعملة فيما تدل عليه بنفسها دلالة ظاهرة».¹

ثم عرف بعد ذلك المجاز بقوله: «وأما المجاز فهو الكلمة المستعملة في غير ما هي موضوعة له بالتحقيق، استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها، مع قرينة مانعة عن إرادة معناها في ذلك النوع».²

وفي قوله: " بالتحقيق " احتراز أن لا تخرج الاستعارة، لأن الاستعارة من باب المجاز وأما قوله: " استعمالاً في الغير بالنسبة إلى نوع حقيقتها " فيه احتراز عما إذا اتفق كونها مستعملة فيما تكون موضوعة له، لا بالنسبة إلى نوع حقيقتها، كما إذا استعمل صاحب اللغة لفظ «الغائط» مجازاً فيما يَفْضِلُ الإنسان.³

ثم بعد ذلك قسم المجاز حيث سار على منوال عبد القاهر الجرجاني، فقسم المجاز إلى قسمين: مجاز لغوي، ومجاز عقلي.

فالمجاز اللغوي في المفرد، وأما المجاز العقلي فهو في الجملة «أعلم أن المجاز عند السلف من علماء هذا الفن قسمان: لغوي، وهو ما تقدم، ويسمى مجازاً في المفرد، وعقلي ويسمى مجازاً في الجملة».⁴

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 588.

² - المصدر نفسه، ص: 589.

³ - 87. انظر: عبد المعتال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، مصر، دون ذكر الطبعة والسنة، ج3، ص: 87.

⁴ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 592.

ثم يفرع هذين القسمين إلى أقسام أخرى، منها المفيد الخالي من المبالغة في التشبيه وهو المجاز المرسل، ومنها المفيد المتضمن للمبالغة في التشبيه وهو الاستعارة «واللغوي قسمان: قسم يرجع إلى معنى الكلمة، وقسم يرجع إلى حكم لها في الكلام والراجع إلى معنى الكلمة قسمان: خال من الفائدة، ومتضمن لها، والمتضمن للفائدة قسمان: خال عن المبالغة في التشبيه، ومتضمن لها وأنه يسمى الاستعارة».¹

وقد أطلق السكاكي مصطلح المجاز المرسل بهذه الكيفية الدقيقة حيث قال: « والثاني هو المجاز المرسل»² وربما يكون قد استفاد من عبد القاهر من قبل حيث نجد عنده إشارة وكلمات توحى بذلك دون التسمية المباشرة مثل قوله: «وعليه المعول في كون التشبيه على حد المبالغة هو الفرق بين الاستعارة وبين التشبيه المرسل».³

ثم ذكر علاقات المجاز المرسل وصرح باسم بعضها أثناء إلقاء الضوء عليها ومن أهم هذه العلاقات السببية، فقد ذكرها صراحة في قوله: «ونحو أن يراد النبت بالغيث لما يقولون رعيناً غيثاً لكون الغيث سبباً فيه»⁴ فإطلاق الغيث على النبات مجاز مرسل علاقته السببية، لأن الغيث سبب فيه وكذلك قوله: «نحو أن تراد النعمة باليد، وهي موضوعة للجراحة المخصصة لتعلق النعمة بها من حيث أنها تصدر عن اليد ومنها تصل إلى المقصود بها»⁵ وكذلك أيضاً قوله «وقول القائل... يأكلن كل ليلة إكافاً، أي علفاً بثمرن إكافاً للتعلق بين ذلك العلف، وبين الإكاف، وقولهم أكل فلان الدم أي الدية وللتعلق بينهما»⁶ واضح أن إطلاق الإكاف على العلف من قبيل علاقة السببية، لأن الإكاف بيع واشترى

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 591.

² - أحمد هنداوي هلال، المجاز اللغوي مكتبة وهبة، مصر، ط1، عام: 2005م، ص: 33.

³ - المرجع نفسه، ص: 33.

⁴ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 595.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 595.

⁶ - أحمد هنداوي هلال، المجاز اللغوي، مرجع سابق، ص: 34.

بثمنه علف والدم الذي سفك من القتل سبب في الدية التي اشترى منها ولي القتل ما يقتات فإطلاق الدم على الدية، لأن سبب فيها من إطلاق السبب على المسبب.

وأشار أيضا إلى علاقة المجاوزة في قوله: « ونحو أن تراد المزايدة بالراوية وهي في الأصل اسم للبعير الذي يحملها وللعلاقة الحاصلة بينها وبينه بسبب حمله إياها، أو أن يراد البعير بالحفض وهو متاع البيت »¹ وكذلك أيضا العلاقة الجزئية فقد أوما إليها عندما قال: « ونحو أن يراد الرجل بالعين إذا كان ربيئة من حيث أن العين لما كانت المقصودة في كون الرجل ربيئة صارت كأنها الشخص كله ».²

وأما النوع الثاني من المجاز، فهو المجاز العقلي، أو مجاز الإسناد والتركيب أو مجاز الحكمي. «وهو المجاز الذي يكون في الإسناد أو التركيب، وقد سمي كذلك؛ لأنه متلقى من جهة الإسناد وهو المجاز العقلي، وهذا النوع من المجاز تستعمل فيه الألفاظ المفردة في موضوعها ويكون المجاز عن طريق الإسناد».³

سماه السكاكي مجازًا عقليا وسار في نهجه ابن مالك والقزويني وشرح التلخيص، وعلل المتأخرون هذه التسميات المختلفة «ومن الإسناد مطلقا مجاز عقلي، لأن حصوله بالتصرف العقلي، ويسمى مجازا حكما لوقوعه في الحكم المسند إليه، ويسمى أيضا مجازا في الإثبات لحصوله في إثبات أحد الطرفين للآخر، ويسمى أيضا إسنادًا مجازيا نسبة إلى المجاز بمعنى المصدر، لأن الإسناد جاوز به المتكلم حقيقته وأصله إلى غير ذلك»⁴

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 595.

² - المصدر نفسه، ص: 595.

³ - المصدر نفسه، ص: 595.

⁴ - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، مرجع سابق، ج3، ص: 199.

وقد عرفه السكاكي بقوله: « الكلام المفاد به خلاف ما عند المتكلم من الحكم فيه، لضرب من التأويل، إفادة للخلاف لا بوساطة وضع، كقولك: أنبت الربيع البقل، وشفى الطبيب المريض، وكسا الخليفة الكعبة وهزم الأمير الجند، وبني الوزير القصر».¹

والملاحظ في تعريفه رغم أنه أخرج المحترزات، وقسم المجاز إلا أنه أنكر هذا النوع من المجاز، واختار جعله من باب الاستعارة بالكناية «الذي عندي نظمه في سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة بالكناية في الفاعل الحقيقي»² ثم قسم المجاز العقلي إلى أقسام أربعة لا غير « أقسام المجاز العقلي باعتبار طرفيه - أعني - المسند والمسند إليه أربعة لا غير: لأنهما إما حقيقتان كقولنا: أنبت الربيع البقل، وإما مجازان كقولنا: أحيا الأرض شباب الزمان، وإما مختلفان: كقولك - أنبت البقل شباب الزمان. وكقولنا: أحيا الأرض الربيع».³

ثم أشار أيضا إلى القرينة وإلى تقسيمها فقال: « ولا بد له من قرينة: إما لفظية، أو غير لفظية كاستحالة صدور المسند إليه المذكور».⁴

ثم أشار أيضا أن المجاز يمهّد له فقال: « واعلم أنه ليس كل شيء يصلح، لأن تتعاطى فيه المجاز العقلي بسهولة، بل تجدك في كثير من الأمر تحتاج إلى أن تهئ الشيء وتصلحه له بشيء تتوخاه في النظم».⁵

ومن الذين تناولوا فنّ المجاز الخطيب القزويني في كتابه الإيضاح في علوم البلاغة حيث نظر إلى المجاز من زاويتين: ما يقوم على الإسناد فيدخله في علم المعاني، ومنه ما تناوله في علم البيان وهو المجاز اللغوي، وإذا كان الخطيب قد أنكر على السكاكي عدم وجود

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 627.

² - المصدر نفسه، ص: 636.

³ - عبد المعتال الصعدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مرجع سابق، ج1، ص: 63.

⁴ - المرجع نفسه، ج1، ص: 508.

⁵ - المرجع نفسه، ج1، ص: 67.

المجاز العقلي: « وأنكر السكاكي وجود المجاز العقلي في الكلام وقال: الذي عندي نظمه في سلك الاستعارة بالكناية، بجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه ¹».

فإن الخطيب يعتبره مجازاً بالإسناد لذلك أخرجه من علم البيان وأدخله في علم المعاني فقال: «إنما لم نورد الكلام في الحقيقة والمجاز العقليين في علم البيان كما فعل السكاكي ومن تبعه الدخول في تعريف علم المعاني، دون تعريف علم البيان» ².

والواضح من كلام الخطيب أن سبب اعتبار المجاز العقلي داخلاً في علم المعاني يعود أساساً إلى أن المجاز العقلي يقوم على الإسناد ويدخله فيه، ويحصل الإسناد بقصد المتكلم، وهذا ما أشار إليه عبد القاهر ³ ولذلك قد يكون الإسناد مجازاً عند شخص، وحقيقة عند آخر. قال: الخطيب « ولهذا لم يُحْمَلْ نحو قول الشاعر الحماسيِّ

أشَابَ الصغير وأفنى الكبير كَرَّ الغداة ومَرَّ العشي

على المجاز، ما لم يعلم أو يظنَّ أن قائله لم يرد ظاهره» ⁴ والذي نراه أن إدخال المجاز العقلي في الإسناد بهذا القياس الذي سار عليه الخطيب، كان ينبغي أيضاً أن يدخل المجاز اللغوي في أحوال المسند إليه، ولم نراه يفعل ذلك.

ثم عقد الخطيب فصلاً تناول فيه الحقيقة العقلية، والمجاز العقلي «الإسناد منه حقيقة عقلية، ومنه مجاز عقلي» ⁵ ثم بعد ذلك عرف الحقيقة العقلية: «فهي إسناد الفعل، أو معناه إلى ما هو له عند المتكلم في الظاهر، والمراد بمعنى الفعل نحو المصدر واسم الفاعل» ⁶، ثم

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 30.

² - المصدر نفسه، ص: 31.

³ - انظر عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 344.

⁴ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 25.

⁵ - المصدر نفسه، ص: 24.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 24.

عرف بعد ذلك المجاز العقلي: « وأما المجاز فهو إسناد الفعل، أو معناه إلى لايس له غير ما هو له بتأؤل».¹

ثم يذكر الخطيب أن « للفعل ملابسات شتى، يلابس الفاعل، والمفعول به والمصدر، والزمان، والمكان، والسبب ».²

وهذا ما جعل بهاء الدين السبكي يسمي هذا الضرب من المجاز «مجاز الملابس» ولا يقال: «مجاز إسناد».³

ثم بعد ذلك قسم الخطيب المجاز العقلي باعتبار طرفيه فقال: « ثم المجاز العقلي باعتبار طرفيه -أعني المسند والمسند إليه- أربعة أقسام لا غير: لأنهما إما حقيقتان، كقولنا "أنبت الربيع البقل، وإما مجازان كقولنا: أحيا الأرض شباب الزمان، وإما مختلفان كقولنا: أنبت البقل شباب الزمان وكقولنا: أحيا الأرض الربيع».⁴

وهذه الأقسام الأربعة « تأتي في الإسناد الحقيقي فقد يكون طرفاه حقيقتين مثل: "خلق الله زيداً"، وقد يكونان مجازين، كقولك: أحيا البحر زيداً، تريد أعطى الكريم زيداً، وقد يكون المسند مجازاً والمسند إليه حقيقة مثل: أحيا الله البقل وعكسه مثل: جاء فلا، يريد غلامه وإنما يجوز ذلك بقرينة ترشيد إلى المعنى».⁵

ثم أشار أيضا الخطيب إلى القرينة حيث قال: « ولابد له -أي المجاز العقلي- من قرينة إما لفظية، أو غير لفظية »⁶

¹ - المصدر نفسه ، ص: 25.

² - المصدر نفسه ، ص: 25.

³ - انظر بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مصدر سابق، ص: 150.

⁴ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 28.

⁵ - بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مصدر سابق، ج1، ص: 148.

⁶ - المصدر نفسه ، ج1، ص: 29.

ثم بعد ذلك أشار أيضا أنه ليس كل شيء يصلح، أن تتعاطى فيه المجاز بسهولة بل تجد في كثير من الأمر تحتاج إلى أن تهئ الشيء وتصلحه بشيء تتوخاه في النظم.¹

ولابد لهذا الضرب من المجاز من علاقات وأشهرها التي أشار إليها الخطيب مثل المفعولية، والفاعلية، والمصدرية، والزمانية، والمكانية والسببية وغير ذلك.²

وأما الضرب الثاني من المجاز الذي أشار إليه الخطيب وهو الضرب الذي ذكره في علم البيان فهو المجاز اللغوي.

وفي هذا الضرب من المجاز، هو المجاز اللغوي، ويسمى أيضا مجازا في المفرد وقد قسمه السكاكي إلى قسمين: حيث ينبغي أن يكون لغويا كله وهو مفيد وغير مفيد المفيد.

وقسمه الخطيب إلى قسمين أيضا: مفرد، ومركب

فقال في المفرد « أما المفرد فهو الكلمة المستعملة في غير ما وضعت له في اصطلاح به التخاطب على وجه يصح مع قرينه عدم إرادته ». ³

وهذا التعريف للمجاز المفرد يمكن القول فيه أنه يقوم على الحقيقة، لغوية وشرعية وعرفية «والحقيقة لغوية، وشرعية، وعرفية، خاصة، أو عامة، لأن واضعها إن كان واضع اللغة فلغوية، وإن كان الشارع فشرعية، وإلا فعرفية، والعرفية إن تعيّن صاحبها نسبت إليه، كقولنا: كلامية، ونحوية، وإلا بقيت مطلقة ». ⁴

¹ - بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، مصدر سابق، ج1، ص: 29.

² - المصدر نفسه، ج1، ص: 25.

³ - المصدر نفسه، ج1، ص: 187.

⁴ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 188.

وأما الضرب الأول من المجاز فهو المجاز اللغوي: فهو يأتي على ضربين: « والمجاز ضربان: مرسل، واستعارة، لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلا فهو مرسل ».¹

وأما المجاز المرسل فهو « ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وُضع له ملابسة غير التشبيه »²، ثم ذكر الخطيب العديد من العلاقات التي تتصل بضرب هذا المجاز مثل السببية وذكرها باسمها "كاليد في النعمة" إشارة إليها وكذلك علاقة المجاورة، والرواية في المزايدة إشارة إلى علاقة المجاورة ثم الجزئية تسمية الشيء باسم جزئه "أو الجزئية" كالعين في الربيئة لكون الجارحة المخصوصة هي المقصودة في كون الرجل ربيئة إذا ما عداها لا يغني شيئاً مع فقدتها فصارت كأنها الشخص كله».³

ومهما يكون الأمر فقد ذكر العديد من العلاقات أو لمح إليها « وهذا الضرب من المجاز يقع على وجوه كثيرة غير ما ذكرنا »⁴ وهذه إشارة منه على تعدد العلاقات سواء ذكرها، أو لم يذكرها، فهو لم يكن في مقام حصر العلاقات بقدر ما كان يشير إليها وإلى تعددها. مع أننا نلاحظ عدم اتفاق علماء البلاغة على عدد معين « وأنواع العلاقات المعتبرة كثيرة يرتقي ما ذكروه إلى خمسة وعشرين »⁵ ومنهم من يرى أكثر من ذلك، ومنهم من يرى أقل من ذلك.

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 189.

² - المصدر نفسه ، ص: 189.

³ - أنظر: المصدر نفسه ، ص: 189، 190.

⁴ - المصدر نفسه ، ص: 109.

⁵ - عبد احمد هنداي هلال، المجاز اللغوي، مرجع سابق، ص: 36.

المطلب الثاني: صورة المجاز العقلي في الخطاب النبوي الشريف

إذا ذهبنا نستقي هذا النوع من المجاز عند القدماء لا نجدهم يشيرون إلى اسمه، أو علاقاته، حتى وإن كانت في بعض كتبهم أمثلة تدلّ عليه، حتى جاء عبد القاهر، بدراسته العميقة لهذا النوع من المجاز، ولذلك ذهب الدكتور طه حسين إلى القول: إن المجاز العقلي من ابتكاره - يعني عبد القاهر الجرجاني - هذه الرؤية أشار إليها العلوي من قبل فقال: « اعلم أن ما ذكرناه من المجاز الإسنادي العقلي هو الذي قرره الشيخ النحرير عبد القاهر الجرجاني واستخرجه بفكرته الصافية، وتابعه على ذلك الجهابذة من أهل الصناعة كالزمخشري، وابن الخطيب الرازي وغيرهما».¹

وقد وصفه عبد القاهر الجرجاني بقوله: « وهذا الضرب من المجاز على حدته كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المُفْلِق، والكاتب البليغ... يأتيك بالبدعة لم تعرفها، والنادرة تأنق بها».²

ولهذا قالوا في تعريفه: « إنه إسناد الفعل، أو معناه، إلى ملابس له غير ما هو له بتأول»³، والمراد من ذلك أن يسند الأديب "الفعل" أو "معناه: أي المصدر واسم الفاعل واسم المفعول..، " إلى ملابس له " أي: إلى شيء بينه وبين الفعل أو معناه ملابسة وارتباط وتعلق - إلى غير ما هو له - أي إذا أسند الأديب الفعل أو ما دل على معناه - للفاعل النحوي - فإن كان مدلول ذلك الفاعل النحوي الذي أسند إليه الفعل أو معناه هو الفاعل الحقيقي كان الإسناد حقيقة، وإلا كان مجازاً كما إذا كان الفاعل النحوي مصدراً أو ظرفاً أو سبباً أو مفعولاً.⁴

¹ - العلوي، الطراز، مصدر سابق، ج3، ص: 143.

² - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 228.

³ - عبد العزيز المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، مرجع سابق، ص: 100.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 100.

وخلاصة القول، أن التجوز في الإسناد: « أن يسند الأديب الفعل أو ما دل على معناه إلى غير الفاعل الحقيقي، والبلاغيون يشترطون في التجوز أن تكون هناك علاقة وقرينة وفي المجاز العقلي إذا أسند الفعل إلى غير الفاعل الحقيقي فهم يحددون الأمور التي يسند الفعل أو معناه إليها، فالذي يقوم مقام الفاعل الحقيقي إما أن يكون مصدر الفعل، أو اسم فاعله، أو اسم مفعوله، أو زمانه، أو مكانه أو سببه، وهذه أمور يسميها البلاغيون ملايسات الفعل، أي أنها بينها وبين الفعل تعلق وارتباط وعلاقة»¹، لا يخلو الحديث النبوي الشريف من إسناد الفعل إلى غير ما هو له حقيقة وإن لم يكن بالكثرة التي نراها في الاستعارة، أوفي المجاز المرسل، لذلك فإننا نتناول منه قدرًا ملائمًا بحسب العلاقات بين الطرفين من خلال الأحاديث النبوية الشريفة، وأهم هذه العلاقات هي:

علاقات المجاز العقلي:

المفعولية: وفيها إسناد المبني للفاعل إلى المفعول به، كما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، في حديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالا من نخل، وكان أحب أمواله إليه بَيْرُحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها طَيِّبٍ، قال أنس: فلما أُنْزِلَت هذه الآية: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾² قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾³. وإن أحب أموالي إليَّ بَيْرُحاء، وإنَّها صدقة لله، أرجو برها عند الله، فضعها، يا رسول الله، حيث أراك الله، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « بخ، ذلك مال رايح، ذلك مال رايح ، وقد سمعت ما قلت، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين»⁴ فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عَمِّه، تابعه إسماعيل ، عن مالك، وقال:

¹ - عبد العزيز المعطي عرفه، من بلاغة النظم العربي، مرجع سابق ، ص: 100.

² - سورة آل عمران، الآية: 91.

³ - سورة آل عمران، الآية: 92.

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 530، رقم الحديث: 1392.

روح ، عن مالك: " رايح " وفي رواية ثانية « بخ ذلك مال رائح، ذاك مال رائح ، قد سمعت ما قلت فيها، وإني أري أن تجعلها في الأقربين ».¹

إن النفس البشرية شديدة الحب للمال، وتحرص عليه وتبخل به كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾² أي: وأنه لشديد الحب للمال حريص على جمعه، وهو لحب عبادة الله وشكر نعمه ضعيف متقاعس، وفيه مذهبان:

أحدهما: أن المعنى وأنه لشديد المحبة للمال، والثاني: وأنه لحريص بخيل، من محبة المال، وكلاهما صحيح.³

وما فعله طلحة من تصدق بأحب أمواله إليه معروف عظيم يستوجب الثناء والشكر عليه. ولذا قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «بخ» وهي كلمة تقال عند تفخيم الأمر وتعظيمه ومدحه وتفضيله والإعجاب والرضا به، وقد حصل هذا الشكر والثناء من النبي صلى الله عليه وسلم بأساليب متنوعة، منها المجاز العقلي وذلك حين أسند الربح إلى المال، وإنما المال يربح، وإسناد الربح إلى المال فيه تصوير لعظيم جزاء أبي طلحة حيث ينمو هذا المال بنفسه ويكثر ويتعاضم. ومثل هذا التصوير لا يتحقق إلا من خلال إسناد المجاز العقلي والعلاقة المفعولية.

2-العلاقة الثانية السببية: وفيها إسناد المبني للفاعل إلى السبب، أو هي التي يسند الفعل أو ما في معناه إلى سببه

والملاحظ أن هذه العلاقة أكثر العلاقات حضورا في الحديث النبوي الشريف، وفي حديث عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشا أهتمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صلى الله عليه

¹- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 814، رقم الحديث: 2193.

²- سورة العاديات، الآية: 8.

³-محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج3، ص: 593.

وسلم: « أتشفع في حد من حدود الله » ثم قام فاختطب ، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»¹ ومقام الحديث مقام إنكار على الشفاعة في الحدود، والتفريق بين الناس في إقامتها عليهم بحسب منزلتهم الاجتماعية.

فقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلوب التصوير بالمجاز العقلي ، وذلك حين أسند الفعل الإهلاك إلى ترك إقامة الحدود على الناس جميعا بغض النظر على منزلتهم ومكانتهم، وإنما الإهلاك في الحقيقة من الله تعالى، غير أن لما كان ترك إقامة الحدود سببا في الإهلاك أسند إليه لإشعار المخاطبين بخطورة الفعل الذي يهدفون إليه، وقد أخرج ذلك من خلال تصوير سرعة عاقبته؛ لأن المسبب يحصل بحصول السبب، فإذا وقع الترك، وقع الإهلاك، والمجاز عقلي علاقته سببية.

ومن حديث طويل عن صهيب، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «... ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني! أنت، اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليّ، وكان الغلام يُبرئ الأكمة والأبرص ويداوي الناس من سائر الأدواء...»².

والملاحظ أنه أسند الفعل إلى ضمير الغلام للمبالغة عن طريق الإسناد المجازي. وقام غير الفاعل الحقيقي مقام الفاعل وما هو في الحقيقة إلا سبب للفعل.

وتحليل ذلك أكثر أنه لما كان الغلام يعالج المرض، أجرى الله عز وجل الشفاء على يديه، وفي اعتقاد الناس أنه الشافي لهم، ولهذه العلاقة أسند الفعل إلى ضمير الغلام -الفاعل المجازي- لأنه سبب الفعل

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1282، رقم الحديث: 3288.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق ، ج4، ص: 2299، رقم الحديث: 3005.

ومن ذلك أيضا ماجاء عن عمرة بنت عبد الرحمن أن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أخبرتها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عندها، وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أراه فلانا، لِعَمِّ حفصة من الرضاعة، فقالت عائشة: يا رسول الله، هذا رجل يستأذن في بيتك. قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أراه فلانا» لِعَمِّ حفصة من الرضاعة، فقالت عائشة: لو كان فلانا حيا - لعمها من الرضاعة- دخل عليّ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم إن الرضاعة تُحرِّمُ مَا يُحرِّمُ من الولادة».¹

والحديث يقوم على تصوير مجازي حيث أسند التحريم إلى الرضاعة على سبيل المجاز العقلي. وذلك يعود إلى كون الرضاعة سببا في التحريم، وربما يعود إلى إثارة المجاز العقلي في هذا المقام، هو أن المخاطبة وقع في نفسها شيء في دخول الرجل الأجنبي بحكم الولادة، حتى وإن كان له في ذلك صلة بحكم الرضاعة، ثم إنها أيضا تساءلت عن مدى تساوي الناس في الحكم، فبين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بأن الرضاعة كالولادة في التحريم والتحليل، ولما كانت بتلك الحال أكد لها الخبر بأن، وبتقديم المسند إليه "الرضاعة" ومن التأكيد إسناد فعل التحريم إلى الرضاعة «بلاغة هذا المجاز شاخصة في تصوير الرضاعة بصورة صاحب القرار فهو الذي يحل ويحرم، فله من السلطان والنفوذ ما يجعله صاحب سلطان يجب احترامه والخضوع له، وهذا أدعى إلى الالتزام بهذا الحكم لما فيه من مبالغة في هذا المجاز».²

ويظهر لي أيضا أن الإسناد للدلالة على أن السبب متى وجد حصل المسبب لكونها تساءلت عن تنزيل الحكم عليها كما هو لحفصة، ولهذا جاء فعل التحريم مضارعا للدلالة على تجدد الحكم لكل الناس وفي كل زمان وعدم اختصاصه بأحد دون غيره.

¹- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 936، رقم الحديث: 2503.

²- سعيد أحمد جمعة، من بلاغة النبي في بيانه عن المرأة رسالة دكتوراه، بجامعة الأزهر، كلية اللغة العربية القاهرة، مخطوط، ص: 367.

ومن الشواهد لهذه العلاقة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم، ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: « ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالوا: الجوع، يا رسول الله، قال: "وأنا، والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، فقوموا، فقاموا معه، فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رآته المرأة قالت: مرحبا! وأهلا! فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أين فلان؟، قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرمَ أضيافا مني، قال فانطلق فجاءهم بعُذْقٍ فيه بُسْرٌ وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المذية، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أياك والحبوب» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العِدْق، وشربوا، فلما أن شبعوا ورووا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: « والذي نفسي يده لتسألنَّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجهم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم بهذا النعيم».¹

في هذا الحديث أسند النبي صلى الله عليه وسلم الإخراج إلى الذي أخرج صاحبيه "رضي الله عنهما" وهو الجوع، وإلا فإن الإخراج حقيقة عند الله والخروج من فعل النبي، ولكن لما كان السبب في الخروج هو الجوع أسند إليه الإخراج على سبيل المجاز العقلي الذي علاقته سببية.

وإثارة الصورة المجازية في هذا المقام تخفيف عنهما من حالة الجوع والمشقة حيث إن الشعور الدائم بالمشاركة يُهَوِّنُ من المعاناة والمصائب التي قد تنزل بالمرء والضيق والحزن في بعض الأحيان، وكيف يكون الموقوف والمشارك هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹ -صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1610، رقم الحديث: 2038.

وآخر نموذج نتوقف عنده في هذه العلاقة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احتج آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم ! أنت أبونا، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى، اصطافك الله بكلامه وخط لك بيده، أتكلمني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «فَحَجَّ آدَمُ موسى، فحجَّ آدم موسى».¹

ففي قوله عليه الصلاة والسلام «أخرجتك خطيئتك» فيه إسناد إلى غير الفاعل الحقيقي، فهو إسناد مجازي، لأن الخطيئة لم تخرجه في الحقيقة. وإنما الذي أخرجه من الجنة، هو الله عز وجل. ولما كانت الخطيئة سببا ودافعا ينهض ليحل محل الفاعل الحقيقي، لذلك أسند الفعل إليها على سبيل التصوير المجازي العقلي، والعلاقة أيضا سببية.

3- **العلاقة الثالثة المكانية:** ويراد بها ما بني للفاعل وأسند للمكان حيث يقال: نهر جارٍ، وطريق سائر، فيسند الجري إلى النهر، والسير إلى الطريق، والأصل: نهر جارٍ مأوّه فيه، لأن الجاري هو الماء لا النهر الذي هو مكان جريه، وطريق سائر أهله فيه، لأن الطريق لا يسير، وإنما الناس هم الذين يسرون.²

وهذا مجاز عقلي، وفي ذلك مبالغة في قوة النهر وفي قوة فيضان الماء فيه، وكذلك شدة ازدحام الطريق فيخيل للسامع، أن النهر هو الذي يجري، وأن الطريق هو الذي يسير، والعلاقة في ذلك مكانية، والقرينة التي أفادت هذا المجاز استحالة وقوع الجري من النهر، واستحالة السير من الطريق.

وفي الحديث النبوي الشريف ما يدل على العلاقة المكانية ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إِنْ أُحْدَا جَبَلٌ يَحْبُنَا وَنَحْبُهُ».³

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2042، رقم الحديث: 2652.

² - انظر: عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، مرجع سابق، ص: 104.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 1011، رقم الحديث: 1393.

يقول الدكتور كمال عز الدين « إن كثيرا من الأشياء الجامدة والأماكن وغيرها ترتبط بنا ارتباط الحب والصداقة، كما لو كانت أناس عاقلين، أو ارتباط البغض والعداوة كما لو كانت غرماء ظالمين، كثير من الصلات بينها وبيننا: أدركتنا عندها السعادة بالأمل الباسم والرجاء الحبيب... التقينا معها ذكريات وذكريات تصلنا بالأشياء، فإذا بنا نحدثها، ونزيد فنصغي إليها كأنها تحدثنا، ثم ننتقل عنها فنحكي حوارها معنا.

إنه فيض إحساسنا بها، انتقل إليها منا، آية الزيادة في الحب فنشخصها نابضة بالحياة جياشا بمثل ما نجد قبلها من عاطفة أو وجدان.

والمدينة أهلها ورباعها ودروبها، وشعابها وجبالها ورياحها - أوت الرسول ونصرته، وأعز الله بها الدين، وحمى الرسالة، وحصن الدعوة فكل ذلك منها حبيب إليه عليه الصلاة والسلام، وأحد جبل والجمال أول ما يطالع القادم، يتنزل عندها الشوق ويستهدف وجهها الحنين فتظل وإن نأى عنها أول ما أطفا الوجد وبشر بالوصول وشفى من التشوق فإذا أحب الرسول أحد لهذه المعاني الإنسانية، أو الأسرار سواها غيبية فلا عجب لهذا الحب».¹

وصورة المجاز في قوله: " هذا جبل يحبنا ونحبه " لأن الجبل على الحقيقة لا يصح أن يحب ولا يحب، إذ محبة الإنسان لغيره، إنما هي كناية عن إرادة النفع له، أو التعظيم المختص به، كلا الأمرين لا يطلقان على الجماد؛ لا التعظيم المختص به، ولا النفع العائد عليه، فمستحيل أن يعظم، أو يعظم، أو ينفع، أو ينتفع به، فالمراد إذا أن أحدا جبل يحبنا أهله، ونحب أهله، وأهله هم أهل المدينة من الأنصار، أو سهم وخزرجهم، وغير خاف حبهم النبي عليه الصلاة والسلام وحبهم لهم وتعظيمهم له، وأعظامه لقدرهم² ومما يدل على تعظيمه للأنصار قوله عليه الصلاة والسلام: «... ولو سلك الناس واديا وشعبا لسكنت وادي

¹ - كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 172.

² - الشريف الرضي، المجازات النبوية، مصدر سابق، ص: 12.

الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار..¹ إلى غير ذلك مما جاء في مدح الأنصار، والصورة مجازية عقلية علاقتها المكانية.

وكذلك من صور المجاز العقلي ما رَوِي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «احتجت النار والجنة، فقالت هذه: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله، عز وجل، لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء»، وربما قال: أصيب بك من أشاء"، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»² وفي الحديث إسناد عملية الاحتجاج إلى المكان، وأراد المتكلم عنهما وهما حارسا الجنة والنار، وهذا على سبيل المجاز العقلي وعلاقته المكانية. وهذا القول لا ينفي وجود المعنى الحقيقي في مثل هذه الأمور الغيبية.

وفي حديث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرتُ بقرية تأكل القرى، يقولون يثربُ، وهي المدينة، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد»³ والمراد أن عليه الصلاة أمر بالهجرة من مكة إلى المدينة، وأن المدينة التي تنطلق منها الجيوش التي تفتح القرى ويدخل الناس في دين الله أفواجا، ثم أشار أن المنافقين يسمونها يثرب وكأنه عليه الصلاة، كره هذه التسمية، وذكر الاسم المحبوب لها وهو المدينة، وأن هذه المدينة يخرج منها أشرار الناس فلا يتحملون المقام فيها، ويبقى فيها المؤمنون الصالحون، وشبه خروج الأشرار بخروج خبث الحديد.

ففي قوله: "تأكل القرى" إسناد الفعل إلى المحل وهو المدينة والذي يُأكل هم أهلها، وفي التركيب مجاز عقلي علاقتها مكانية .

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 1574، رقم الحديث: 4075.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2186، رقم الحديث: 2846.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 662، رقم الحديث: 1772.

4-العلاقة الزمانية: وهي أن يسند الفعل أو ما في معناه إلى زمانه وليس إلى فاعله الحقيقي، وذلك لغرض بلاغي، ومن ذلك ما ورد في حديث قصة النفر الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار، فقال بعضهم لبعض: أدعو الله بأفضل عمل عملتموه.

فقال أحدهم: «... فأتيت أهلي وأخذت محلي فحلبت، وغنمي قائمة فمضيت إلى أبي فوجدتهما قد ناما، فشق علي أن أوقظهما، وشق علي أن أترك غنمي، فما برحت جالسا ومحلي علي يدي حتى أيقظهما الصبح فسقيتهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا....»¹ وفي رواية البخاري «...حتى طلع الفجر...»².

وفي قوله: « أيقظهما الصبح » مجاز عقلي حيث أسند الإيقاظ إلى زمن الصبح إسناداً إلى غير الفاعل الحقيقي. والإيقاظ للشخص في الصباح والصبح زمن الاستيقاظ. لهذه العلاقة بينهما صح إسناد الفعل إلى الزمان اعتماداً على قرينة معنوية هي استحالة وقوع الفعل من الفاعل.

وجمال صورة المجاز يكمن في تحقيق الوظيفة الدينية والأخلاقية وذلك من خلال الاهتمام والحرص على بر الوالدين، فهو وحق عظيم اتجاه الوالدين.

والرجل صعب عليه إيقاظ والديه حتى لا يفسد تلك الراحة الجسدية والنفسية والعقلية لئلا يشق ويثقل عليهما، حتى وإن كان الغرض إطعامهما، فجلس يترقب حتى أيقظهما الصبح، فقد مكث بالقرب منهما مضحياً براحته، ساهراً متحيراً طوال الليلة ومحله بين يديه حتى استيقظا بفعل الزمان.

حديث آخر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلاً: « فِيمَنْ كَانَ سَلَفٌ أَوْ قَبْلُكُمْ، آتَاهُ اللَّهُ مَالاً وَوَلَدًا -يعني أعطاه- قال: فلما حُضِرَ

¹ - الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، دون ذكر السنة والطبعة، ج: 30، ص:

369، رقم الحديث: 18416.

- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج: 2، ص: 771، رقم الحديث: 2102.

قال لبيته: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يَبْتَنِرْ عند الله خيرًا - فسرّها قتاده: لم يَدَّخِرْ - وَإِنْ يَقْدَمُ عَلَى الله يَعْذِبُهُ، فانظروا فإذا مِتُّ فأحرقوني، حتى إذا صِرْتُ فحماً فاسْحَقُونِي، أو قال: فأسهكوني، ثم إذا كان ريح عاصف فأذروني فيها، فأخذ مواليقهم على ذلك - وربي - ففعلوا، فقال الله: كن، فإذا رجل قائم، ثم قال: أي عبي ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك، أو فَرَقٌ مِنْكَ، فما تلافاه أن رحمه الله».¹

وفي رواية ثانية للبخاري: «... فإذا كان يوم عاصف فأذروني فيها، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخذ مواليقهم على ذلك وربي، ففعلوا ثم أذروه في يوم عاصف...»²

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: " فإذا كان ريح عاصف " والعصف: اشتداد الريح، ففي ذلك إسناد الوصف "عاصف " إلى موصوفها -ضمير الريح- كان على الحقيقة والواقع، وفي قوله: " ثم أذروه في يوم عاصف " جُعِلَ العصف لليوم وهو زمن هبوبها على سبيل المجاز العقلي فأُسند الوصف -عاصف- إلى ضمير اليوم إسنادًا مجازيًا للمبالغة والتوسع في الكلام والأنباء - تنفيذًا لوصية والدهم- انتظروا ريحا شديدا عاصفة، فاستحوذت شدة الريح على حواسهم فخيّل إليهم أن هذه الشدة قد انفصلت انفصالا تاما عن جنس الريح، واتصلت اتصالا وثيقا بالزمن حتى أن العصف ينبثق من خلاله... ولذلك صح إسناد الوصف إلى الزمن.

العلاقة الفاعلية: تتم هذه العلاقة حين يُسند - الفعل المبني للمجهول- إلى الفاعل الحقيقي مثل قولهم: سِيلٌ مُفْعَمٌ، فالسيل في حقيقة الأمر واقعه يملأ النهر ويفعمه، ولكن جُعِلَ النهر مملوءًا للمبالغة، فأُسند ما هو بمعنى الفعل المبني للمجهول «مفعم» إلى ضمير السيل إسنادًا مجازيًا، وحقه أن يسند إلى المفعول به -نائب الفاعل- النهر - ولكنه أُسند إلى الفاعل الحقيقي.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2378، رقم الحديث: 6116.

² - البخاري: الجامع الصحيح المسند، تحقيق: محب الخطيب، مكتبة السلفية، القاهرة، ط1، عام: 1400، ج4، ص: 6481.

5-العلاقة الآلية: وذلك عندما يكون الفاعل الحقيقي آلة تحقيق الفعل وحينئذ ترفع الآلة إلى مرتبة الفاعلية وقد ورد ذلك في حديث النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إني رأيت في المنام كأن جبرئيل عند رأسي، وميكائيل عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك، إنما مثلك، ومثل أمتك كمثلك أنت، ثم بني فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدة، ثم بعث رسولا يدعو الناس إلى طعامه، فمنهم من أجاب الرسول، ومنهم من تركه، فالله هو الملك، والدار الإسلام، والبيت الجنة ، وأنت يا محمد رسول، مَنْ أجابك دخل الإسلام ، ومن دخل الإسلام دخل الجنة، ومن دخل الجنة أكل ما فيها».¹

في الحديث الشريف بناء إسنادي، ففي قوله عليه الصلاة والسلام « اسمع سمعت أذنك، واعقل عقل قلبك » فيه إسناد الفعلين « سمعت، وعقلت » إلى الأذن والقلب، وهذا الإسناد إسناد مجازي حيث أن السماع والتعلل لا يصدران على الحقيقة إلا من الشخص له قوة الإرادة بحيث يتحكم في ذلك بواسطة أذنيه وقلبه، فالأذن والقلب دور هما، دور الآلة التي يتم بها تحقيق الفعل، وبالعودة إلى هذه العلاقة التي تجمع بينهما جاز هذا الإسناد فجعل ما هو آلة للفعل فاعلا على سبيل المجاز العقلي والعلاقة علاقة الآلية، والغرض من ذلك المبالغة والتوسع في الكلام.

6-العلاقة المصدرية: تكون هذه العلاقة من خلال إسناد المبني للفاعل إلى المصدر. وذلك مثل قولهم: « شِعْرُ شاعر » فقد أسند شاعر إلى ضمير المصدر وحقه أن يسند إلى الفاعل أي الشاعر ،لأنه هو الفاعل الحقيقي، ولذلك قولهم: فلان ثارت ثورته الأصل: ثار فلان ثورة، فحذف الفاعل الأصلي وهو الثائر، وإسناد الفعل إلى الثورة إسنادا مجازيا للمبالغة في ثورته، والعلاقة في هذا الإسناد مصدرية.

¹ - الترمذي، سنن الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر: ط2 عام:

1978م، ج1، ص: 145، رقم الحديث 2860.

المطلب الثالث: صورة المجاز المرسل في الخطاب النبوي الشريف

المجاز اللغوي يكون من خلال نقل الألفاظ من حقائقها اللغوية إلى معان أخرى بينها صلة ومناسبة.

وهذا الضرب من المجاز يسمى المجاز المفرد، وقد قسمه الخطيب القزويني إلى مرسل واستعارة «والمجاز ضربان: مرسل واستعارة؛ لأن العلاقة المصححة إن كانت تشبيه معناه بما هو موضوع له فهو استعارة، وإلا فهو مرسل».¹

والمجاز المرسل عرفه الخطيب بقوله: «الضرب الأول: المرسل: وهو ما كانت العلاقة بين ما استعمل فيه وما وُضع له ملابسة غير التشبيه».²

وبتتبع هذا المفهوم في كتب علماء البلاغة القدماء نلاحظ أنّ كثيراً من البلاغيين لم يسموا المجاز المرسل بهذا الاسم، وإنما نلاحظ خلطاً كبيراً بينه وبين التشبيه، ولم نجد في كتبهم تعريفات واضحة لهذا الضرب من المجاز، إلى أن جاء السكاكي، فأطلق عليه مصطلح المجاز المرسل، وقد جاءت هذه التسمية في كلامه صريحة وهو يتحدث عن الحقيقة والمجاز، والكناية حيث يقول: «والأول هو الاستعارة، والثاني هو المجاز المرسل»³ ثم قال بعد ذلك: «وعرفنا تنوع المجاز إلى مرسل مفيد، وغير مفيد، وإلى استعارة مصرح بها، ومكنى عنها»⁴ وهذا القول ليس على الإطلاق، لأن الكثير من علماء البلاغة كانت لهم إشارة، إلى بعض العلاقات الخاصة بالمجاز المرسل من خلال تحليلاتهم للآيات القرآنية، وشروحهم لتلك العلاقات وإلقاء الضوء عليها، من خلال تحديد مدلول المجاز وإظهار حقيقته، وقد كان عبد القاهر الجرجاني قد لمس بعض الأمور التي تتعلق به عرضاً، وذلك عندما كان يفرق بين حقيقته وحقيقة الاستعارة وقد ذكر أن غرضه في هذا الفصل الذي

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 189.

² - المصدر نفسه، ص: 189.

³ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 636.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 636.

تطرق فيه إلى نبذ يسير من قضايا المجاز المرسل أن يبين أن المجاز أعم من الاستعارة، «والمقصود الآن غير ذلك، لأن قصدي في هذا الفصل أن أبين أن المجاز أعم من الاستعارة، وأن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة»¹ وقد كان له موقفا من الذين يطلقون الاستعارة على المجاز المرسل حتى وإن لم يذكره صراحة فقد أوماً إليه، خاصة عندما تحدث عن الآمدي الذي عد كلمة " المجلس " في قول المهلهل:

..... واستب بعدك يا كليب المجلس،

استعارة، فقال عبد القاهر: « فأطلق لفظ الاستعارة على وقوع المجلس هنا بمعنى القوم الذين يجتمعون في الأمور وليس المجلس إذا وقع على القوم من طريق التشبيه، بل على وجه وقوع الشيء على ما يتصل به، وتكثر ملابسته إياه، وأي شبه يكون بين القوم ومكانهم الذي يجتمعون فيه؟ إلا أنه لا يعتمد بمثل هذا، فإن ذلك قد يتفق حيث ترسل العبارة».²

ولا يخفى أن الملابس بين المجلس، والقوم الذين يجلسون فيه هي علاقة المحلية أو المكانية، ثم أشار إلى أن علاقات هذا الضرب كثيرة وليست على شاكلة واحدة في قوة ترابطها، ومثانة الأواصر بينها حيث قال: « واعلم أن هذه الأسباب الكائنة بين المنقول، والمنقول عنه تختلف في القوة والضعف والظهور وخلافه، فهذه الأسماء التي ذكرتها إذا نظرت إلى المعاني التي وصلت بين ما هي له، وبين ما ردت إليه وجدتها أقوى من نحو ما تراه في تسميتهم الشاة التي تذبج عن الصبي إذا حُلِقَتْ عقيقته عقيقةً، وتجد حالها بعد أقوى من حال العقيمة في وقوعها للصوت في قولهم: رَفَعَ عَقِيرَتَهُ. وذلك أنه شيء جرى اتفاقاً ولا معنى يصل بين الصَوْت وبين الرِجْل المعقورة »³ ومن خلال هذا الكلام يتبين أنه يريد أن

¹ - انظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 336.

² - انظر: المصدر نفسه، هامش، ص: 339.

³ - المصدر نفسه، ص: 335.

يقرر أن العلاقة بين الغيث والنبات ، وهي علاقة السببية، أقوى من العلاقة بين العقيقة التي هي شعر المولود وبين الشاة التي تذبح عند حلق هذا الشعر، وهي فيما يظهر لي سببية أيضا، إلا أن الارتباط بينهما أوهن من الارتباط بين الغيث والنبات.¹

ومهما كان الأمر عند عبد القاهر الجرجاني فإنه قد لمس جوانب متعددة من المجاز المرسل، حتى وإن هو لم يسمه مرسلًا، وإنما هو لغوي يقرنه بالاستعارة وإن كانت علاقته غير المشابهة وهذا واضح في قوله « وإمّا لصلّة وملابسة بين ما نقلها إليه وما نقله عنه »² وفي ذلك تمييز للمجاز المرسل عن الاستعارة، وبذلك يمكن لنا القول إن عبد القاهر قد لمس فعلا الفرق بين المجاز المرسل والاستعارة.

ودون شك فإن السكاكي - فيما نعلم - أنه أول من أطلق التسمية على هذا اللون البياني ثم سار على منواله كل من جاء بعده أمثال بدر الدين بن مالك ، والخطيب القزويني، وغيرهما من البلاغيين.

وقيل سمي مجازا مرسلًا، لأنه أطلق عن التقيد بعلاقة محددة، أو أنه أرسل عن دعوى الاتحاد المطلوبة في الاستعارة، إذ ليست العلاقة فيه بين المعنيين المشابهة حتى يدّعي اتحادهما، والإرسال في اللغة الإطلاق.

وللمجاز المرسل علاقات كثيرة تتميز بعضها عن بعض بأسماء تؤخذ من وصف الكلمة التي تذكر في الجملة، فإذا كانت الكلمة جزءا ما أريد بها، جعلت العلاقة الجزئية، وإن كانت كلاً له، جعلت العلاقة الكلية وهكذا.

ويذكر البلاغيون من العلاقات الكثير منها الجزئية، والكلية، والسببية، والمسببية، والمحلية، والحالية وغيرها وهي علاقات كثيرة لا تحد بما عن العرب « اختلف العلماء في

¹-انظر: أحمد هنداي هلال: المجاز اللغوي، مرجع سابق، ص: 27.

²-عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 344.

القياس على العلاقات الواردة في مجازات العرب فبعضهم يرى أنه يجب الوقوف عند حدّها، ولا يجوز لمن بعدهم أن يقيس عليها، وبعضهم يرى أنه لا يجب الوقوف عند حدّ هذه العلاقات، بل يجوز القياس عليها، ولهذا لا يجب عنده إلا مراعاة نوع العلاقة، وجمهور العلماء على أنه يجوز القياس في المجاز وأنه لا يجب مراعاة نوع العلاقة فيه...»¹.

— علاقات المجاز المرسل في الخطاب النبوي الشريف:

سنتناول المجاز المرسل في الحديث النبوي الشريف من خلال أشهر العلاقات التي تناولها علماء البلاغة وأهمها:

1 - العلاقة السببية: والمراد بها إطلاق السبب وإرادة المسبب: تسمية المسبب باسم السبب ، وهذه العلاقة قد جاءت فيما نعلم قليلة في الصحيحين، ومن صورها التعبير بالإرادة عن الفعل ، فقد جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء»² الأصل في استحقاق العذاب أنه لا يقع العذاب إلا إذا حدثت الإساءة. غير أن الأسلوب النبوي الشريف جعل العذاب يقع بمجرد إرادة السوء ولذلك نجد في هذا الكلام إطلاق السبب وإرادة المسبب، والدلالة بالإرادة على الإساءة أقرب لموضوع الحديث ووظيفته الترهيبية، وهذا لا يتأتى في الكلام البسيط أو من خلال الحقيقة، فإذا كان مجرد إرادة السوء يتسبب في الهلاك كما يصوره التشبيه «ذوبان الملح في الماء» فكيف يكون حال من وقعت منه الإساءة ذاتها، مما لا شك في ذلك أنه سيكون ساحقا لا يبقى ولا يذر «وهكذا فالمجاز المرسل يهدينا إلى جزاء أعلى من الجزاء الذي تهدينا إليه الحقيقة في نحو قولنا: "من أساء لأهل المدينة أذابه الله " ويهدينا كذلك إلى فضل أهل المدينة، وعلو مكانتهم عند الله، فهم في حماه، ومن ثم لا أحد من الخلق يستطيع أن يتناول عليهم»³.

¹ - عبد المعتال الصعدي، البلاغة العالية، مرجع سابق، ص: 73.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 1008، رقم الحديث: 1387.

³ - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 122.

ومن هذه العلاقة أيضا ما جاء عن أنس بن مالك في حديث معجزة المعراج وحديثه عليه الصلاة والسلام مع موسى عليه السلام، عن أنس بن مالك، أن رسول الله

ومن هذه العلاقة أيضا ما جاء عن أنس بن مالك في حديث معجزة المعراج وحديثه عليه الصلاة والسلام مع موسى عليه السلام، عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «.. فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة فنزلت إلى موسى عليه السلام فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة، قال: ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بليت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي، فقلت: يا رب خفف على أمتي، فحط عني خمسا»¹ فقد عبر النبي عليه الصلاة والسلام بلفظ البلاء عن العرفان، فأطلق السبب وأراد المسبب، فكأنه قال: عرفت بني إسرائيل وفي ذلك مجاز مرسل علاقته السببية.

ومن صور هذه العلاقة التعبير بالعمل عن الجزاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تسبوا الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا»² والذي أفضى إليه - هو دون شك - هو الحساب على ما قاموا به في الحياة الدنيا من أفعال وما ارتكبوه من الأعمال ، وليس إلى الأعمال ذاتها، غير أنه عليه الصلاة والسلام فضل التعبير بالجزاء عن العمل وهذا يعود إلى ما بينهما من علاقة وثيقة وهي علاقة السبب بالنتيجة، وفي ذلك دليل على أهمية الأعمال التي حصدها الإنسان في حياته الدنيوية فهو إما طريق إلى الجنة، وإما طريق إلى النار، وفي ذلك تنبيه إلى الأحياء على ضرورة الأعمال الصالحة في الدنيا قبل أن يأتي الأجل ، لأن الأعمال الصالحة تجر صاحبها إلى الجنة، وإن كانت شرا فطريقه إلى جهنم.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 146، رقم الحديث: 12.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 470، رقم الحديث: 1329.

2 - المسببية: وهي العلاقة الثانية التي نود الوقوف عندها، وهي: « فيما إذا ذكر لفظ المسبب وأريد السبب»¹

وهذه العلاقة يمكن القول أنها أكثر العلاقات وضوحا في الحديث النبوي الشريف، ربما يعود ذلك إلى الوظيفة التي تقوم بها هذه العلاقة خاصة فيما يتعلق بوظيفتي الترغيب والتهريب، وبالرجوع إلى الأحاديث النبوية نلاحظ أن أكثر صور هذه العلاقة توحى بالعذاب والنار نتيجة الاعتقاد الضال، والأفعال المنكرة، ومن ذلك ما جاء عن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى رهطا وسعد جالس، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا هو أعجبهم إلي، فقلت: يا رسول الله، مالك عن فلان؟ فوا لله إني لأراه مؤمنا فقال: " أو مسلما " فسكت قليلا، ثم غلبنى ما أعلم منه، فعدت لمقالتى فقلت: مالك عن فلان؟ فوا لله إني لأراه مؤمنا، فقال: " أو مسلما " ثم غلبنى ما أعلم منه فعدت لمقالتى، وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم قال: « يا سعد إني لأعطي الرجل، وغيره أحب إلي منه، خشية أن يكبه الله في النار».²

الرسول صلى الله عليه وسلم يظهر في هذا الحديث أنه يتألف بالعطاء قلوب من تزال حديثه عهد بالإسلام، و« الحكمة في إعطاء أولئك وحرمان جَعِيلٍ مع كونه أحب إليه ممن أعطاء، " يا سعد إني لأعطي الرجل" الضعيف الإيمان العطاء أتألف قلبه به خشية كب الله إياه لكفره إما بارتداده إن لم يعط، أو لكونه يُنسب الرسول الصلاة والسلام إلى البخل».³

و الملاحظ أن النبي لم يذكر الكفر في الحديث، وإنما أشار إلى ما تقضى إليه بقوله « مخافة أن يكبه الله في النار» وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد دل بالمسبب على السبب، لأن الردة عن الإسلام جزاؤها جهنم.

¹ - أحمد مطلوب، فنون بلاغية، مرجع سابق، ص: 113.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 19، رقم: 27.

³ - القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 112.

والصورة المجازية تخاطب النفس، نفس سعد، خاصة وأنه يرى أن الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي العطاء لمن هم أقل إيماناً من صاحبه " فوا لله إني لأراه مؤمن " ومثل هذا الموقف يحتاج إلى مخاطبة العقل قبل القلب بغية إقناعه بفعله، وأن من يطلب له العطاء لا عطاء له في هذا المقام ، لأن الإحسان وتأليف القلوب يمكن أن ينهض بالأمر ويمنع كب هؤلاء في النار، وإنما الذي ينهض به أحسن نهوض صورة الكب في النار، لأن أخوف ما يخاف المسلم على نفسه، وعلى إخوانه الكب في النار، بل هو يخاف الكفر مخافة النار، فهي الخوف الأول، والآخر¹ إن عَرَضَ الصورة المجازية بين يدي سعد كأنها تقع الآن وذلك بفعل دلالة الفعل المضارع " يكب " وبذلك يوحى عليه الصلاة والسلام إلى صاحبه سعد بأنه تسرع في الأمر، أو شيء من قصور النظر. وبذلك يكون سعد قد أدرك أن أحقية العطاء لمن أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن سعد دون شك لا يرضى أن يرى مسلماً يكب في النار، أو أنه لا يرضى أن يكون سبباً في كب أخ له في الإيمان في النار، وهي صورة مخيفة مرعبة ترهب النفوس والقلوب لا يمكن أبداً أن تحقق الحقيقة مستوى مثل هذا الذي تحدثه الصورة المجازية. ومن الصورة المجازية في الحديث النبوي الشريف أيضاً ما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه حج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أَحِلُّوا مِنْ إِحْرَامِكُمْ، فَطُوفُوا بِالْبَيْتِ ، وَبَيْنَ الصَّافَا وَالْمَرَّةِ، وَقَصَرُوا، وَأَقِيمُوا حَلَالاً حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّروِيَةِ فَأَهْلُوا بِالْحَجِّ، وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مَتْعَةً » قالوا: كيف نجعلها متعة وقد سميْنَا الحج؟ قال: «افعلوا ما أمركم به، فَإِنِّي لَوْلَا أَنِّي سَقَتُ الْهَدْيَ، لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ، وَلَكِنْ لَا يَحِلُّ مِنِّي حَرَامٌ، حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ » ففعلوا.²

¹ - انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق ، ج1، ص:112.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 885، رقم الحديث: 1216.

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: « واجعلوا التي قدمتم بها متعة » أي: اجعلوا الحجة المفردة التي أهلتكم بها عمرة تتحللون منها فتصيروا متمتعين. فأطلق على العمرة متعة مجازاً والعلاقة بينهما ظاهرة¹

وهي في هذا المقام علاقة المسببية ،لأن الحج يحصل له بالعمرة والتحلل منها بما حظر عليه حتى يهل بالحج.

ومن صور العلاقة المسببية في الصحيحين أيضا ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري، لعل الشيطان ينزع في يده فيقع في حفرة من النار »²

ليس من خلق المسلم أن يشهر السلاح في وجه أخيه المسلم، سواء كان الفعل هزلا، أو كان جدًا في ذلك، لأن الشيطان بالقرب منهما ويتربص بهما بغية الإيقاع بينهما، حيث « ينزع في يده فيقتل أخاه من حيث لا يحسب وخطر ذلك الهزل على المسلم وعلى المجتمع المسلم طوى عليه السلام ما يتسبب عنه من قتل وانتقل بالسامع إلى مشهد السقوط المرعب في النار، فدل عليه به كي يرعوي الهازل عن هزله »³

والواضح أنه عليه الصلاة والسلام أتى بالفعل « يقع » مسندا إلى القاتل بغية تنبيهه على أن من أوقعه في تلك المهلكة هو نفسه، والفعل «يقع» فيه اتساق مع حال القاتل، لأن «الفعل» يدل على أن الواقع في النار قد سقط بغتة على غير إرادة، وهذا يطابق حال الإنسان الهازل فإنه غير متعمد القتل، لكنه يقع فيه ولذلك وظف عليه الصلاة والسلام لفظ

¹ - العسقلاني، فتح الباري، مصدر سابق، ج3، ص: 431.

² -صحيح البخاري، مصدر سابق، ج6، ص: 2592، رقم الحديث: 6661.

³ -خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 116.

"الحفرة " لأنها تتناسب وتلائم بين السبب والمسبب ذلك أن القاتل يودي بالقتيل إلى حفرة في الأرض، ثم يودي بنفسه إلى حفرة من حفر النار.¹

وإذا كانت الصورة المجازية السابقة تدور حول "حفرة من النار"، فإن الصورة التالية تتحدث عن الجمر، جاءت هذه الصورة في حديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه وقال: « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده » ف قيل للرجل، بعدما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ خاتمك انتفع به، قال: لا، والله لا آخذه أبداً، وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم.²

وصورة المجاز جاءت في قوله عليه الصلاة والسلام « يعمد أحدكم إلى جمرة » فالمراد هو الخاتم وليس الجمر، لأن المراد في هذه الصورة يمثل العذاب هذا العذاب سبباً الخاتم فالصورة مجازية علاقتها المسببية والواضح في هذه الصورة أنها أشد حرّاً، وأكثر فتكاً، لأنها من النار وذلك لكون الرجل يعلم أن لبس الذهب بالنسبة للرجل حرام ثم طريقة خطابه عليه الصلاة والسلام والتعامل مع الموقف «فنزعه فطرحه»، ثم انصرافه عليه الصلاة والسلام بعد ذلك مما يوحي على غضبه عليه الصلاة والسلام، وأن الموقف عامة فيه من الحدة والحزم والحسم في الأمر من خلال إظهار الإنكار.

والذي لا شك فيه أن مثل هذا الأسلوب وهذا المنهج يخالف ما تعود عليه الصلاة والسلام نهجه في المواقف، ربما بلغ في حدته الإنكار التوبيخي³

وأسلوب الاستفهام " أيعمد أحدكم " غرضه الإنكار، لأن ما فعله المخاطب ربما كان شيء لا يعقل خاصة وأنه يعلم حرمة ذلك، لأنه لا يمكن أبد أن يكون مثل هذا الفعل من

¹ - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، لمرجع سابق، ص: 116.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1655، رقم الحديث: 2090.

³ - انظر: علي بن سلطان محمد القارئ، مرقاة المفاتيح، تحقيق جمال عيتاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 2001م، ج8، ص: 244.

طبع العقلاء « لأنه ليس من طبع العقلاء أن يقصد إلى الجمر مع علمه بكيه وإحراقه ومنها اختيار النبي عليه السلام للفعل "يعمد" مما يدل على العمد والقصد في الفعل مع العلم بحقيقة الحرمة¹ ».

ولا تبتعد هذه الصورة المجازية عما جاء أيضا في قوله عليه الصلاة والسلام عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سأل الناس أموالهم تكثرًا، فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثره²» قال القاضي معناه « أنه يعاقب بالنار، قال ويحتمل أن يكون على ظهر، وأن الذي يأخذه يصير جمرًا يكوى به كما ثبت في مانع الزكاة³ »

والحديث يقوم على التحذير من مسألة الناس أموالهم وذلك دون حاجة إلى هذه المسألة، فقد نبه عليه الصلاة والسلام على المصير المرعب، خاصة أن من الناس من يتخذ المسألة مال وكسب وريح، مثل هذه الرؤية ليس لها غير جمر، من جمر جهنم.

والرسول صلى الله عليه وسلم في تصدية لمثل هذا الاحتيال البشع لم يقف فقط عند القول: إن مثل هذه الممارسة وهذا الاحتيال عن طريق السؤال الذي يؤدي إلى جمع المال بغير وجه حق مال حرام، وإنما تجاوز ذلك إلى ما يترتب على مال الحرام من جزاء عند الحساب يوم القيامة حيث يواجه المرء ما أخذه من مال على غير حق « فإنما يسأل جمرًا » فطوى بذلك التعبير الدنيا، وما بعد الدنيا، وانتقل بالسائل إلى عالم الآخرة ليواجه ما أخذه من مال. فإذا هو يرى غير ما توقع، فقد انقلب المال جمرًا حارقًا محرقًا، ولعل في طي السبب - وهو المال الحرام - والانتقال في لمح البصر إلى ذلك المصير المرعب إحياء بأن الدنيا كأن لم تكن، وأن تمتع السائل بالحرام ما كان، وإنما الذي كان، ويكون هو الجمر فحسب⁴»

¹- خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 117.

²- صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 720، رقم الحديث، 1041.

³- القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 430.

⁴- خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 117.

وفي ذلك دعوة صريحة إلى الابتعاد عن المسألة لغير حاجة أشد البعد لأن الإنسان العاقل لا يسأل الناس الجمر يكتوي به، وفي دعوته هذه كان عليه الصلاة والسلام حرصاً أشد الحرص بدليل أنه عقب على ذلك بقوله: «فليستقل أو ليستكثر» وهذا التعقيب يجعل من المرء لا يسأل لغير حاجة، وإذا سأل لحاجة، فلا يطلب فوق حاجته.

3 - العلاقة الجزئية: وهي تسمية الشيء باسم جزئه مثل العين في الرقيب، أو هي أن يذكر الجزء ويراد به الكل كقوله عليه الصلاة والسلام: «واليد العليا خير من اليد السفلى» واليد العليا هي يد المعطي واليد السفلى هي يد السائل، ويدل على ما جاء عن ابن عمر رضي عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف والمسألة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة»¹ والحديث يسلك مسلك التصوير لحال المعطي والآخذ: فيد ممتدة للسؤال ذليلة منتظرة محتشمة، ويد ذاهبة بالعطاء، عزيزة مرضية عالية منسحرة.

غير أنه « لا معنى لمدح يد وذم أخرى، وإنما الممدوح والمذموم هو صاحب اليد، فالقصد من الحديث جعل الشخصين في منزلتين عليا وسفلى، وتقدير فضل الأولى على الثانية في الخير، وعلى ذلك فيكون من التعبير باليد -وهي الجزء- وإرادة صاحبها -وهو الكل- فالعلاقة بينهما الجزئية والكلية»²

وبالنظر إلى أسلوب المجاز في هذا الحديث وما يحمل من معان لا يمكن التعبير عنها بأسلوب آخر، لأن أسلوب المجاز في هذا الحديث يقوم على تصوير الحقيقة من الجانب القريب، إلى جانب تصوير الحقيقة في الجانب البعيد وفي ذلك يقول الدكتور كمال عز الدين « إن عبارة الحديث تصور الحقيقة في الجانب القريب منها: حقيقة الصورة المحسنة بين يد السائل ويد المعطي، وتصوير الحقيقة في الجانب البعيد منها: نقل المدح إلى المعطي ونقل الذم إلى بالسائل، لأن كليهما صاحب القصد وعمله مناط الجزاء، وإنما

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 519، رقم الحديث: 1362.

² - كمال عز الدين الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 196.

اختير التعبير باليد ،لأن الإعطاء والأخذ آلتهما اليد، فهي أخص الأعضاء من الكل بالفعلين، وأنت ترى إيجاز العبارة مع إحائها وتصويرها المعنى، صورة تنفر السائل من أن يسأل فيكون الأسفل. والجمع بين الإيجاز والصورة لا يتأتى وهو الفضيلة في مثل: المتصدق خير من السائل، ولا في مثل: صاحب اليد العليا خير من صاحب اليد السفلى، لأن في الأولى إيجازاً دون تصويره وفي الثانية تصويراً دون إيجاز فسبحان من اصطفى محمداً عليه الصلاة والسلام واصطفى معه بيانه ¹»

ومن الصور المجازية أيضاً في الحديث النبوي ذات العلاقة الجزئية ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن الآخر وقع على امرأته في رمضان، فقال: «أتجد ما تحرّر رقبة» قال: لا، قال: «فتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين» قال: لا، قال: «أفتجد ما تطعم به ستين مسكيناً» قال: لا، قال: فأُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِعَرَقٍ فِيهِ تَمْرٌ، وَهُوَ الزَّبِيلُ، قَالَ أَطْعِمْ هَذَا عَنْكَ ، قال: عَلَى أَحْوَجِ مَنْ، ما بين لا بَيْنَهَا أَهْلُ بَيْتِ أَحْوَجِ مَنْ، قال: فَأَطْعَمَهُ أَهْلَكَ ²»

والملاحظ في هذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أشار على السائل إلى طرق التكفير عما وقع فيه من خطأ، فأشار إلى تحرير رقبة، ثم إلى صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكيناً.

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: «أتجد ما تحرّر رقبة» والمراد إعتاق عبد؛ لأن الرقبة جزء من العبد، لا يمكن عتقها دون الجسد، فهذا الكلام من باب المجاز المرسل علاقته الجزئية حيث أطلق الجزء وأراد به الكل، ودلالة الرقبة بالنسبة للجسد راجع إلى ما للرقبة من مزيد تعلق بمعنى العبودية فهي تشعر «أن العبد المسترق مغلول بقيد مهين يسلبه إنسانيته، وينزل به إلى منزلة البهيم والدواب، وهو المخلوق الذي سواه الله بشراً حراً

¹ - كمال عز الدين الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 197.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 684، رقم الحديث: 1835.

كريماً»¹ والرسول صلى الله عليه وسلم في توجهه للمخطى إلى تحرير الرقبة، إنما فيه دلالة على عدم الرضى على الاسترقاق في الإسلام، لان الدين حرص على كرامة الإنسان ، ودعوته إلى ذلك إنما هي دعوة الدين الإسلامي ،حتى « يحطموا ذلك القيد ويدفعوا بإخوانهم إلى موكب الحياة الطبيعية التي منحها الله عز وجل لبني الإنسان».²

وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً..»³ والتعبير بقوله: نفساً مجاز مرسل علاقته الجزئية، لأن القتل لا يقع على النفس دون الجسد ، وإنما يقع في حقيقة على المقتول كله جسماً ونفساً، فجاء التعبير باسم الجزء، وفي ذلك أشار لما هذا الجزء من خصوصية مهمة في هذا الكل؛ لأن النفس تسكن ذلك الجسد، وبقتلها يكون القاتل كمن استباح الحدود وهدم الجدر للوصول إلى صاحبه المستكين فيه فيصيبه، ولذلك كان التعبير بالأسلوب المجازي أبلغ.

ومن العلاقة الجزئية أيضاً ما جاء عن عقبة بن عامر، قال: كانت عليّنا رعاية الإبل، فجاءت نوبتي فروّحتها بعشّي، فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يحدث الناس، فأدركت من قوله: « ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلّي ركعتين، مُقْبِلٌ عليها بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة ..»⁴ قال الطيبي: «قوله: " مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه " المراد بوجهه الذات. أي: مقبلاً عليهما بظاهره وباطنه، مستغرقاً خاشعاً هائباً»⁵ مجاز مرسل علاقته الجزئية.

¹ - عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني، دار المعارف، القاهرة، ط7، عام: 1968، ج1، ص: 187.

² - شفيع السيد، التعبير البياني، مكتبة الآداب، القاهرة، ط5، عام: 2003، ص: 201.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2118، رقم الحديث: 2766.

⁴ - مصدر نفسه، ج1، ص: 209، رقم الحديث: 234.

⁵ - محمد رفعت أحمد زنجير ، دراسات في البيان النبوي، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، عام: 2007م. ص: 242.

4 - **العلاقة الكلية:** فيما إذا ذكر الكل وأريد الجزء، أو يعبر عن الجزء بلفظ الكل، وقد وردت في الحديث النبوي الشريف بعض الصور تمثل هذه العلاقة ، وإن لم تكن كثيرة.

والملاحظ أن العلاقة الكلية أكثر صورها تأتي في اليد، ومن ذلك ماجاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله قال: « إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يَغْمَسُ يدهُ في الإناء حتَّى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدري أين باتت يدهُ »¹

في الحديث نهى للمسلم أن يغمس يده في الإناء قبل غسلها، لأنه لا يدري أين باتت، وفي ذلك مخافة أن تكون الكف قد أصابته نجاسة، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يذكر في كلامه لفظ الكف، وإنما ذكر اليد، فأطلق الكل وأراد الجزء، وهو في ذلك عليه الصلاة والسلام يهدف إلى غاية، وهي ما يصيب الإنسان وهو نائم، من النجاسة، فهو يصور اليد كلها وقد انغمست في النجاسة، وفي ذلك تنبيه، يدفع بالمسلم عند سماع هذا القول أن يتجه إلى الغسل ثلاثاً مباشرة بعد صحوه من النوم، من أجل التخلص مما قد يكون عالقا بيده من نجاسة والصورة مجازية علاقتها كلية.

ومجاز اليد أيضا جاء في حديث آخر يتناول المرأة المخزومية التي سرقت، فعن عروة بن الزبير: أن امرأة سرقت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة الفتح، ففرع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون ،قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « أتكلمني في حد من حدود الله ، قال أسامة: استغفر لي يا رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله خطيباً، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الناس قبلكم: أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»².

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 233، رقم الحديث: 278.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 1566، رقم الحديث 4053.

والواضح من الحديث أن المجتمع القرشي كَبُرَ عليه الأمر أن يقطع يد امرأة وفي ذلك إشارة « إلى نزعة الاستعلاء، التي بدت في موقف المأ من قريش، ومع المخزومية خصوصاً، وكأنه كبر عليهم أن تقطع يد المخزومية، وبنو مخزوم هم سراة قريش ومن أهل الشرف وأهل الاستعلاء واستعلاؤهم هذا هو الذي صنع أبا جهل ورفض الحق»¹

ولذلك نجدهم يستشفعون حبَّ النبي صلى الله عليه وسلم، أسامة رضي الله عنه في أن يشفع لها عند النبي حتى يعفياها من حد الله، وهذا ما أثار غضب الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: « أتشفع في حدٍّ من حدود الله » والاستفهام في هذا المقام استفهام إنكاري، وكأنه عليه الصلاة يقول لزيد: لا ينبغي أن يكون ذلك منك، ونص الرسول على حدود الله، وكأنه يشير إلى أنه لا يملك هذه الحدود، ولا يملك قبول شفاعة أسامة، وهذا الجو من الاستعلاء استدعى من الرسول صلى الله عليه وسلم إيقاع القطع على اليد لا على الكف وفي ذلك من الحزم والعزم والصورة المجازية في هذا الحديث تلتقي أيضاً مع ورد في القرآن الكريم في حد السرقة قال تعالى: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾²

وآخر صورة نقف عندها في هذه العلاقة إطلاق لفظ الأهل على الزوجة فقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أما إنَّ أحدكم إذا أتى أهله وقال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنَّبِ الشيطانَ مارزقتنا، فَرَزَقًا وَلَدًا لم يضره الشيطان»³ فالرجل لا يأتي أهله، وإنما يأتي زوجه، غير أن عليه الصلاة والسلام دل بالأهل على الزوج وذلك من باب إطلاق الكل على الجزء وفي ذلك تكريم للزوج حتى كأنها الأهل كلهم «والتعبير بالأهل فيه إشارة إلى ما يتطلبه المقام من اللطف والرقّة والمودة والرحمة

¹ - محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مكتبة وهبة - القاهرة ط1، عام: 2001م، ص: 329.

² - سورة المائدة، الآية: 40.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1193، رقم الحديث: 3098.

واللين بين الزوجين والتذكير بأن كلا منهما يتصل بصاحبه بصلة القرابة القريبة وإن لم يكن في الحقيقة كذلك، فلا ينبغي أن يتعامل معه في هذا المقام بالقسوة والغلظة»¹

5 - علاقة اعتبار ما يكون: أو اعتبار ما يؤول إليه في المستقبل، أو تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه ، وهذه العلاقة قليلة الحضور في أحاديث الصحيحين، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهادًا في سبيلي، وإيمانًا بي، وتصديقًا برسلي، فهو على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر، أو غنيمة..»²

ففي قوله عليه الصلاة والسلام « نائلاً ما نال من أجر و غنيمة » المقصود بذلك من خرج ومن سيخرج في سبيل الله ليس له عند الله إلا الجنة، وإن عاد منتصراً سينال الأجر والغنيمة. الجنة في الآخرة والغنيمة في الدنيا، كما هو واضح فإنه جاء باعتبار ما سيكون في المستقبل، ولذلك فإن التركيب مجاز مرسل علاقته باعتبار ما سيكون.

ومن صور هذه العلاقة أيضا إطلاق لفظ القتل على القتل فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتح الله على رسول صلى الله عليه وسلم مكة قام في الناس فحمد الله وأثنى ثم قال: «... ومن قُتِلَ له قَتِيلٌ فهو بِخَيْرِ النظرين...»³.

الحديث يتناول موضوعاً هاماً وهو من يقتل له قتيلاً، أو يقتل له عزيز، فهو مخير بين أن يقبل بالدية، وإما أن يطلب القصاص، ومن أجل ذلك الحق «وتأكيداً عليه فقد عمل عليه الصلاة والسلام على إشباع معنى القتل، وإبراز هول المصيبة على ذوي المقتول، فأتى كلامه على المجاز المرسل فجعل القتل يقع على القتل، مع أن القتل لا يقتل، وإنما الأمر

¹ - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 122.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1495 رقم الحديث: 1876.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 858، رقم الحديث: 2302

باعتبار ما سيكون، فدل بالمجاز المرسل على مبالغة في القتل، لأنه يصور القتل يقتل حتى بعد الموت، ولا ريب أن في ذلك تعذيباً شديداً لأهل القتل»¹ ولأن أهل القتل يتعذبون لحظة القتل، يستمر عذابهم مع استمرار القتل بعد الموت، وإذا اتضح قدر الأذى الذي يلحق بأهل القتل اتضح حينئذ حق هؤلاء أن تكون لهم الخيرة في تقرير الخيار لرد الأذى عن أنفسهم وعن قتلهم.

والصورة الأخيرة التي نود الوقوف عندها ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: صعد النبي صلى الله عليه وسلم أحدًا، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله وقال: «... اثبت أحد، فما عليك إلا نبي، أو صديق، أو شهيدان»²

الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر أحد أن يتوقف عن الرجفان، لأن عليه رجالاً عظاماً، هم محمد صلى الله عليه وسلم، وأبا بكر، وعمر، وعثمان رضي الله عنهم جميعاً.

وإذا نظرنا إلى ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم، فإننا نجد أنه لم يذكر عمر وعثمان رضي الله عنهما، وإنما أشار إليهما بلفظ "شهيديان" وهذا الأسلوب مجازي باعتبار ما سيؤول إليه حالهما، لأن الشهادة في زمن الكلام لم تقع بعد عليهما.

وبالنظر إلى هذا الأسلوب النبوي الشريف يتضح لنا عظمة قدر هذين الصحابييين، لأن المجاز يُظهر أن الشهادة صفة تلازمهما في الحياة وبعد الممات، ثم عدم التصريح ما سمي به عمر وعثمان ينسجم مع التكنية بالصديق عن أبي بكر رضي الله عنه « ولعل بناء الجملة المعللة بفاء التعليل على المجاز والتكنية مرده إلى أن المخاطب بالطلب جبل، ولا يمتثل الجبل إلا لكل عال رفيع ولذلك ابتدأ عليه السلام بصفة النبوة، ثم أتى بصفة الصديق

¹ - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 130.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1348، رقم الحديث: 3483.

فالشهادة، في تسلسل يبين رفعة السابق على التالي وأمام كل هذه الصفات العالية لا يمكن للجبل إلا أن يكف عن الرجفان»¹.

6 - علاقة باعتبار ما كان عليه: وهي أن يعبر عن الشيء باسم ما كان عليه من قبل، وهذه العلاقة لم نجد لها في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين إلا القليل جداً، فيما توصلنا إليه.

وصورة هذه العلاقة فيما روى عن أنس رضي الله عنه قال: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: « من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة ، قال: ألا أبشّرُ الناس؟ قال: لا، إني أخاف أن يتكلوا »²

وهذه الصورة المجازية باعتبار ما كان، لأن طبيعة النقاء من الشرك أو عدمه يكون من الناس بالإخلاص إلى الله في أعمالهم في الحياة الدنيا ولن يكون ذلك مع نهاية الدنيا، وإنما الإخلاص إلى الله سيرافق صاحبه في الآخرة حتى يمثل بين يدي ربه، وبذلك ينال رضاه ويدخله الجنة.

وبالنظر إلى الدلالة على المجاز بصيغة المضارع المنفى « لا يشرك » إلى جانب تنكير المفعول به " شيئاً " ففي ذلك دلالة على استمرار النقاء والصفاء والإخلاص إلى رب العالمين من الشك به أثناء الحياة الدنيا حتى ولو كان ذلك يسيراً يكاد لا يذكر.

والصورة الثانية التي يمكن الوقوف عندها أيضاً ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « تحاجت النار والجنة: فقالت هذه يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت هذه: يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله،

¹ - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 130.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 60، رقم الحديث: 129.

عز وجل، لهذه: أنت عذابي أعذب بك من أشاء: "وربما قال: أصيب بك من أشاء" وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء. ولكل واحدة منكما ملؤها»¹

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: الضعفاء والمساكين، مجاز مرسل أيضا، حيث سماهم بذلك على اعتبار ما كانوا عليه في الدنيا ضعفاء ومساكين، وكأن هذه الأوصاف ملازمة لهم ملازمة آثارها المترتبة عليها من النعيم والفوز بالجنة.

والواضح في هذا الحديث بلاغته عليه الصلاة في الألفاظ المتلائمة والمتناسبة في الجبابة والمتكبرون ، وقابلهما بما يلائمهما، الضعفاء والمساكين، ثم بلاغة المجاز المرسل في التصوير استمرار هذه الأوصاف وملازمتها لهم.

7 - العلاقة المحلية: وفيها يذكر لفظ المحل ويراد به الحال فيه، أو تسمية الحال باسم محله ومما جاء في هذه العلاقة في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن في عام فتح مكة قتلت خزاعة رجلا من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فركب راحلته، وقام في الناس فخطب، فقال: « إن الله حبس عن مكة القتلى، أو الفيل - شك أبو عبد الله - وسلط عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ألا وإنها لم تحل لأحد قبلي، ولم تحل لأحد بعدي، ألا وإنها حلت لي ساعة من نهار، ألا وإنها ساعتي هذه حرام، لا يختلي شوكها ولا يعضد شجرها، ولا تلتقط ساقطتها إلا لمنشد، فمن قُتل فهو بخير النظرين: إما أن يعقل، وإما أن يقاد أهل القتل، فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: "اكتبوا لأبي فلان"، فقال رجل من قريش: إلّا الإذخر يا رسول الله، فأبّا نجعله في بيوتنا وقبورنا؟ فقال: صلى الله عليه وسلم: "إلّا الإذخر إلا ذخرك"،² والحديث ورد في مقام التحذير والترهيب من انتهاك ما حرمه الله تعالى في مكة لعظم شأنها وعلو منزلتها ومكانتها عند الله عز وجل

¹ - صحيح مسلم ، مصدر سابق، ج4، ص:2187، رقم الحديث: 2876.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 53، رقم الحديث: 112.

ولما كان المقام كذلك عبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تحريم ما في مكة بتحريمها هي ذاتها من خلال إطلاق الحل وإرادة ما فيه، مبالغة في تعظيمها، ثم التحذير من انتهاك ما حرّمه الله فيها، وقد أظهر النبي صلى الله عليه وسلم ما يحرم منها.

قال الدكتور كمال عز الدين « يبين الرسول عليه الصلاة والسلام منزلة مكة وكرامتها عند الله ،لأنها محلة بيته الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين، فعبر عن ذلك بتحريم الله إياها، والتحريم لا يتعلق بالذات، وإنما يكون لأمر آخرى تتلبس بها، وقد بين بعض هذه الأمور المقصودة بالتحريم كسفك الدم فيها، أو قطع أشجارها بفأس أو سواه! وهذه أمور تحل "من الحلول" بالمكان، فمكة محلها، فالمجاز من إطلاق لفظ المحل وإرادة الحال فيه، ولكن فضل التعبير المجازي على التعبير بالحقيقة يدرك بأدنى مقارنة بين الحديث وبين قولنا: إن مكة حرّم الله سفك الدم فيها، وقطع شجرها... ،لأن التحريم الواقع على البلد يصورها بكل أجزائها وجميع ما فيها صورة المحرم، فيعم ما ذكر بالبيان وغيره، ويزيد من تصور الحرمة والقداسة».¹

والمقام مقام الحديث عن حرمة مكة، فإنه عليه الصلاة تناول حرمة المدينة المنورة فعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرّم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة»²

وصورة المجاز جاءت في جمل عدة، فقوله "حرمة المدينة" وقوله: "دعوت لها في مدّها وصاعها" مجاز مرسل من باب إطلاق المحل وإرادة الحال: لأن مكة مكان من الأماكن، وكذلك المدينة، بلد من البلدان، وأن التحريم لا يقع على الأماكن، وإنما يقع التحريم على ما في هذه الأماكن من بشر وشجر وحيوان، والتعبير بهذا الأسلوب المجازي

¹ - كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 198.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 749، رقم الحديث: 2022.

فيه مبالغة، الغاية منه تأكيد حرمة مكة والمدينة المنورة والتحریم الواقع على البلد یصورها بكل أجزائها وجميع ما فيها صورة المحرم، ونعتقد أن التحريم ليس محدودا بأسوار مكة، لأنه عليه الصلاة أشار إلى في الحديث السابق إلى الزرع والأشجار والصيد، وشأن هذه الأمور أن تكون خارج البلد.

والحديث الأخير الذي نقف عنده في هذه العلاقة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أُحِبُّ فلانًا فأحِبَّهُ. قال فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانًا فأحِبُّوه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القَبُولُ في الأرض، وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغِضْهُ، قال: فيبغِضُهُ جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانًا فأبغِضُوهُ، قال فيبغِضونه ثم توضع له البغضاء في الأرض».¹

والذي لا شك فيه أنه لا القبول، ولا البغضاء مما يوضع في الأرض، وإنما يوضعان على من يسكن الأرض من العباد، وبذلك يكون هذا الأسلوب مجازي، فقد دل النبي صلى الله عليه وسلم بالمحل على الحال فالعلاقة حينئذ محلية.

والملاحظ في هذا التصوير النبوي الشريف أنه لم يقتصر فيه البغض والقبول على البشر، وإنما امتدَّ ليشمل كل المخلوقات حيوان، نبات، جماد، حيث يقبل الكل على ما أحب الله، ويدبرون على من كرهه الله وكأن الجميع يفعل بالأحاسيس الإنسانية.

8 - العلاقة الحالية: وهي عكس العلاقة المحلية، حيث يذكر لفظ الحال ويراد به المحل، أو تسمية المحل باسم الحال، مما جاء في حديث سابق كيف تحاجت النار والجنة؟ ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: «.. فقال الله للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: أنت عذابي، أَعَذَّبُ بِكَ مَنْ أَشَاء من عبادي، ولكل واحدة منكم

¹-صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2030، رقم الحديث: 2637.

ملؤها..»¹، ففي قوله: " أنت رحمتي " مجاز مرسل علاقته الحالية، إذ أن رحمة الله ونعمه وآلاءه حالة في الجنة، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: " أنت عذابي " مجاز مرسل أيضا علاقته الحالية، إذ أن عقابه وسخطه وغضبه وانتقامه عز وجل حال في النار.

والحديث يوضح عدل الله وحمته من خلال حديثه إلى الجنة والنار، حين يقول لنار: "أنت عذابي، أعذب بك من أشاء" فهذا العقاب مصائب يسقطها الله عز وجل على من أخطأ الطريق وانصرف عن خيره العظيم، وفي مقابل هذا الكلام نجده يخاطب الجنة فيقول: " أنت رحمتي أرحم بك من أشاء " فهذه الرحمة واسعة شاملة يرحم بها من يشاء من عباده الصالحين، فهي واسعة تستوعب كل شيء.

والصورة الثانية في العلاقة الحالية ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج ، قيل: يا رسول، وما الهرج؟ فقال: هكذا بيده فَحَرَفَهَا، كأنه يريد القتل»² والحديث يتناول علامات آخر الزمان، حيث يشير عليه الصلاة إلى ما يوحى بالانقلاب وتغير الأحوال، من ذهاب أهل العلم، وظهور للجهال، غير أنه صلى الله عليه وسلم عندما عبر عن هاتين علامتين، لم يسلك الطريق المباشر في أسلوبه، وإنما اتخذ من الأسلوب المجاز المرسل وسيلة لتعبير حيث دل بالعلم على أهله، ودل بالجهل على أهله، وهذا من باب إقامة الحال مقام المحل «وذلك لما في الأسلوب المجازي من بلاغة تناسب ما يكون عليه الحال بين يدي الساعة في آخر الزمان، لأن التعبير بذهاب العلم، من أهله، لا يذهب أهل العلم فحسب، بل يذهب

العلم كله حتى الذي بين دفتي الكتب، وهذا يعني استئصال كافة العلماء فلا يبقى أحد منهم في ذلك الزمن»³

¹ -صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2186، رقم الحديث: 2846.

² -صحيح البخاري مصدر سابق، ج1، ص: 44، رقم الحديث: 85.

³ - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي الشريف بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 135.

المبحث الثاني: الصورة الكنائية في الخطاب النبوي الشريف

ويتضمن المبحث ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: مفهوم الكناية لغة واصطلاحاً عند علماء البلاغة

الكناية في أصل اللغة:

الكناية: هي عدول لفظ إلى آخر يقال: «كنى فلان عن الكلمة المستفحشة يكني: إذا تكلم بغيرها مما يستدل عليها نحو الجماع والغائط والرفث ونحوه»¹ وقال ابن فارس: «يقال كَنَيْتُ عن كذا بكذا: إذا تكلمت بغيره مما يستدل به عليه»² وقال الفيومي «الكناية: أن تتكلم بشيء يستدل به على المكني عنه»³ غير أن الجوهري يرى أن «الكناية: أن تتكلم بشيء وتريد به غيره»⁴. ومصدر الفعل كنى يكني مثل: رمى يرمي، وكنا يكنو مثل: دعا يدعو ولم يسمع المصدر كناية.

وقد حمل بعض البلاغيين على القول أن التزام الياء في المصدر يدل على أن لام الفعل ياء، وأن الواو في كنوت قلبت عن الياء سماعاً⁵. وأما صاحب لسان العرب فقد تناول معنى الكناية وذكر بعض الشواهد التي تدل على أن فعلها، واوي، أو يائي عند ما قال: «والكناية: أن تتكلم بشيء وتريد غيره، وكنى عن الأمر بغيره يكني كناية: يعني إذا تكلم بغير مما يستدل عليه نحو الرفث والغائط ونحوه، وفي الحديث. من تعزَّ بعزاء الجاهلية فأَعْضُوهُ بِأَيِّرِ أَبِيهِ وَلَا تَكْنُوا، وفي حيث بعضهم: رأيت علجا يوم القادسية وقد تكنى وتحجَّى أي تستر.. وكنوت بكذا عن كذا وأنشد.

¹ - انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، مصدر سابق، ج4، ص: 54.

² - ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، دون ذكر الطبعة، عام: 1972، ج5، ص: 139.

³ - الجوهري، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت. ط2، عام 1979، ج5، ص 2189

⁴ - الجوهري، الصحاح، ج5، ص: 2189.

⁵ - ابن يعقوب، مواهب الفتاح، شروح التلخيص، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص: 237.

وإني لأكني عن قذور بغيرها وأعرب أحيانا بها فأصارع

قال أبو عبيدة: يقال: كنيت الرجل وكنوته لغتان. وأنشد أبو زيد الكلابي

وإني لأكون عن قذور بغيرها

وقذور، اسم امرأة، قال ابن بري:

قد أرسلت في السر أن قد فضحتني وقد بحث باسمي في النسيب وما تكني¹ ومقابلة الفعل "أصارع" في بعض الشواهد التي ذكرت ينبئ أن الكناية ضد الصراحة والإبانة، وهذا ما ذكره صاحب اللسان حين قال: «والصریح الخاص من كل شيء وهو ضد الكناية»² وكذلك قوله أيضا: «وصرح فلان ما في نفسه، تصرحا إذا أبداه، وأظهره وفي المثل صدح الحق عن مَحْضِهِ أي انكشف»³.

فهو إذا نقيض الإعلان والإفصاح، ومقابل للصریح والإعراب الذي هو نقيض العجمة والبهمة، فكنته سترته في كنهه "بالكسر" وهو السترة، وأكننته "بالألّف" أخف في مختار الصحاح: «الكناية أن تتكلم بشئ وتريد غيره، وقد كنيت بكذا عن كذا وكَنَوْتُ أيضا كناية فيهما: ورجل كان وقوم كانوا والكنية بضم الكاف وكسرهما واحدة»⁴ قيل: هي من كنيت الشيء أكنيّه، إذا ستر بغيره، وقيل: كنانة «بنونين»، لأنها من لَكَنُوهُو السترة، وتعريف الكناية مأخوذ من اشتقاقها، واشتقاقها من السترة ويقال: كنين الشيء إذا سترته، وإنما أجرى هذا الاسم على هذا النوع من الكلام لأنه يستتر معنًى ويظهر غيره ولذلك سميت كناية⁵.

¹ - البيت ورد في كتاب لسان العرب ج12، ص: 175.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص: 316.

³ - المصدر نفسه، 72، ص: 316.

⁴ - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت طبعة مدققة، عام 1986، ص: 511.

⁵ - انظر: محسن محمد معالي، من روائع الكناية في اللغة، مؤسسة حورس الدولية، السكندرية، ط1، عام: 2012م ص: 14.

وبناء على ما تقدم فإن الكناية كيفما كانت، فإنها تعني الستر والإضمار والإخفاء، وهي أبعد ما تكون من السفور والوضوح.

الكناية في اصطلاح البلاغيين:

إذا كان لابد من الوقوف على مفهوم الكناية عند البلاغيين فإنني أقف عند من لهم الأثر على البلاغة عامة، وعلى الكناية خاصة، لذلك فإنني أقف عند عبد القاهر الجرجاني، والزمخشري، والسكاكي، والخطيب القزويني، لأن هؤلاء كان لهم يدًا فاعلة في مسار البلاغة عامة، والكشف عن عناصر الكناية خاصة.

ومن الذين تناولوها بالدراسة عبد القاهر الجرجاني حيث صاغ نظرية الكناية على ما استقرت عليه البلاغة، لذلك نجده يعرف الكناية بقوله: « أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميء به إليه ويجعله دليلاً عليه »¹

والواضح من هذا التعريف هو المساواة بين الكناية والتعويض والرمز والإشارة، وجعلها طريق إثبات الصفة، أو طريق الحكم والإسناد والعلاقة عنده من صور المجاز، وفصاحتها عقليه أو معنوية، لا لفظية « وإذ قد عرفت هذه الجملة فينبغي أن تنتظر إلى هذه المعاني واحداً واحداً وتعرف محصولها وحقائقها، وأن تنتظر أولاً إلى الكناية، وإذا نظرت إليها وجدت حقيقتها ومحصول أمرها إنها إثبات لمعنى، أنت تعرف ذلك المعنى من طريق المعقول دون طريق اللفظ² » ثم يقول: « ولا يكنى باللفظ عن اللفظ، وإنه إنما يكنى بالمعنى عن المعنى ».³

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 66.

² - المرجع نفسه، ص: 316.

³ - المرجع نفسه، ص: 323.

والملاحظ في كل مرة يتناول الكناية يؤكد على أن المعقول هو الطريق إلى فهم الكناية، لا اللفظ المجرد، وقبل الحديث عن أقسام الكناية عند عبد القاهر الجرجاني، فإنه من الضروري الإشارة أن عبد القاهر الذي جعل للكناية مزية على التصريح، حيث أرجعها إلى إثبات المعنى، لا إلى زيادته، إنما إلى إثبات المعنى يكون بالدليل فقال: «ليس المعنى إذا قلنا أن الكناية أبلغ من التصريح، أنك لما كنيت عن المعنى زدت في ذاته، بل المعنى أنك زدت في إثباته فجعلته أبلغ وأكد وأشد، فليست المزية في قولهم: " جم الرماد" أنه دل على قرى أكثر، بل المعنى أنك أثبت له القرى الكثير من وجه وهو أبلغ وأوجبته إيجابا هو أشد وأدعيته دعوى أنت بها أنطق، وبصحتها أوثق».¹

والواضح عنده أن إثبات المعنى بالدليل بخلاف التصريح الذي لا يقوم على دليل ولا برهان كان حكمه إثبات المعنى بالدليل أبلغ من إثباته عاريا منه.

وإذا كان القدماء قد تحدثوا عن الكناية وذكروا بعض أغراضها، فإنهم لم يقسموها كما قسمها عبد القاهر، وأن يكشفوا عنها كما كشفها.

فقد تحدث عن الكناية بأنها صفة يريد أن يثبتها للمتكلم معه ولكنه لا يثبت ذلك الحديث أو تلك الصفة مباشرة، بل يعمد إلى صفة أخرى قريبة منها وملازمة لها فيثبتها، ففي قولهم «هو طويل النجاد» يريدون أنه طويل القامة، فعمدوا إلى وصف طول حمالة سيفه، فلما كانت حمالة السيف طويلة، اقتضى ذلك أن يكون حاملها طويلا. وكذلك قولهم: «كثير رماد القدر» أرادوا أن يدلوا على كرمه وكثرة ضيافته، بكثرة الرماد الناتج عن كثرة الطبخ، وكذلك قولهم: «نؤوم الضحى» أن لها من الخدم من يكفيها مؤونة القيام ، فدل بهذا على أنها مدللة منعمة لا تحتاج إلى القيام مبكرة، لأنها مترفة مخدومة ،لها من يكفيها أمرها.²

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 69.

² -انظر: المرجع نفسه ، ص: 66.

يقول عبد القاهر في شرح هذه المعاني « فقد أرادوا في هذا كله كما ترى معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان، أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجا، وإذا كثر القوى كثر رماد القدر؟ وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أتنام إلى الضحى»¹

ومن الشواهد التي استدلت بها عبد القاهر عن الكناية عن صفة قول الشاعر شبيب بن البرصاء

رفعت له ناري فلما اهتدى زجرت كلابي أن يهر عقورها

عبد القاهر ذكر عجز البيت فقط، دون الصدر واستشهد به على أنه نظير قول الشاعر:

ومايك في من عيب فإني جبان الكلب مهزول الفصيل

ويعلق عبد القاهر على البيت الأول: «من حيث لم يكن ذلك الجبن إلا لأن دام منه الزجر، واستمر حتى أخرج الكلب بذلك عما هو عادته من الهرير والنباح في وجه من يدنو من دار هو مُرصدٌ، لأن يَعُسَّ دونها»² والملاحظ في قوله «جبان الكلب» أن الذهن ينتقل من جبن الكلب عن الهرير في وجه من يقصد دارا هو مقيم على حراستها إلى استمرار مشاهدته وجوها إثر وجوه، ثم إلى كون صاحبه ملجأ للقاصي والداني، ثم إلى أنه مشهور لحسن القرى الأضياف، وكذا فإنه ينتقل من هزال الفصيل إلى فقد الأم التي كانت تغذيه بلبنها، ومن هذا إلى نحرها إلى أنه كريم مضياف، وهكذا كل كناية عن صفة تكثر فيها الوسائط بين المعنى الحقيقي للفظ المذكور، وبين المعنى الكنائي المقصود فهي من الكناية البعيدة، يقول عبد القاهر الجرجاني «إن من شروط البلاغة أن يكون المعنى الأول الذي تجعله دليلا على

¹ - ١ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 66.

² - المصدر نفسه، ص: 223.

المعنى الثاني ووسيطا بينك وبينه متمكنا في دلالتة، مستقلا بواسطته، يسفر بينك وبينه أحسن سفارة، ويشير لك إليه أبين إشارة حتى يخيل إليك أنك فهمته من حاف اللفظ»¹.

ولما كان كل تركيب من التراكيب السابقة، "بعيدة مهوى القرط"، "طويل النجاد"، "كثرة الرماد"، كُنِيَ به عن صفة لازمة لمعناه، كان كل تركيب كناية صفة، حتى وإن هو لم يذكرها، إلا أنه أشار إليها من خلال الشواهد التي حللها وشرحها بكل وضوح.

وأما النوع الثاني من الكناية فهي كناية عن نسبة، ويكون عبد القاهر فيما نعتقد أول من وضع يده عليها، لم نجد ممن سبقه أشار إليها حتى، وإن كان عبد القاهر لم يدل عليها بالمصطلح «كناية عن نسبة» إلا أنها باتت واضحة كل الوضوح في ذهنه من خلال الشواهد التي ذكرها وحللها، حتى وإن لم يعرفها ويذكر حدودها.

لقد ذكر هذا الضرب من الكناية بقوله: «أنهم يرمون وصف الرجل ومدحه وإثبات معنى من المعاني الشريفة له، فيدعون التصريح بذلك ويكونون عن جعلها فيه بجعلها في شيء يشتمل عليه ويتلبس به، ويتوصلون في الجملة إلى ما أرادوا من الإثبات لا من الجهة الظاهرة المعروفة، بل عن طريق يخفى، ومسلك يدق»².

وقد استدل على هذا الضرب من الكناية بقول زياد الأعجم:

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

فقال عبد القاهر: «أراد كما لا يخفى أن يثبت هذه المعاني والأوصاف خلا لا للممدوح وضرائب فيه. فترك أن يصرح فيقول: إن السماحة والمروءة والندى مجموعة في ابن الحشرج، أو مقصورة عليه، أو مختصة به، وما شاكل ذلك مما هو صريح في إثبات الأوصاف للمذكورين بها، وعدل إلى ما ترى من الكناية والتلويح، فجعل كونها في القبة

¹-انظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق ص: 316-317.

²-المصدر نفسه، ص: 236.

المضروبة عليه عبارة عن كونها فيه إشارة إليه فخرج كلامه بذلك إلى ما خرج إليه من الجزالة وظهر فيه ما أتت ترى من الفخامة، ولو أنه أسقط هذه الواسطة من البيت لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا، فهذه الصنعة في طريق الإثبات هذه نظير الصنعة في المعاني جاءت كنايات عن معان أخر»¹.

وقد أشار إلى هذه الأقسام بقوله: إما أن تكون واقعة في نفس الصفة المراد إثباتها، وإما أن تكون لإثبات الصفة² وبذلك يكون لدينا نوعان من الكناية، كناية عن صفة، كناية عن إثبات الصفة، وفي كل من النوعين تأتي الكناية على صور مختلفة، قال عبد القاهر «كما أن من شأن الكناية الواقعة في نفس الصفة أن تجيء على صور مختلفة، كذلك من شأنها إذا وقعت في طريق إثبات الصفة أن تجيء على هذا الحدّ، ثم يكون في ذلك ما يتناسب كما كان ذلك في الكناية عن الصفة نفسها»³.

ثم أن عبد القاهر اشترط لحسن تصوير الكناية وجمالها أن يوجد فيها التناسب بين ألفاظها ومعانيها، ثم كشف عن مكان الكناية وجعله اللفظ، كما جعل الفصاحة فيها عقلية أو معنوية لا لفظية، وذلك بتقسيمه الكلام الفصيح إلى قسمين: قسم تعزى المزية فيه إلى اللفظ قسم تعزى المزية فيه إلى المعنى، وجعل عبد القاهر الجرجاني الكناية في الضرب الأول، ولذلك فإن مفهوم كلامه "في هذا المعنى، أن المعنى الكنائي لا يعرف من لفظ الكلام، وإنما يعرف بالنظر اللطيف، والحس الدقيق بالرجوع إلى العقل، وقد دلل على ذلك فقال: " ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: هو كثير رماد القدر " وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القرى والضيافة، لم تعرف ذلك من اللفظ، ولكنك عرفت من رجوعك إلى نفسك وقولك: إنه كلام قد جاء عنهم في المدح، ولا معنى للمدح بكثرة الرماد، فليس إلا أنهم أرادوا أن يدللوا بكثرة الرماد على أنه تنصب القدور

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق ، ص: 236.

² - انظر: المصدر نفسه، ص: 237.

³ - المصدر نفسه ص: 237.

الكثيرة، ويطبخ فيها للقرى والضيافة، فإذا ازدادت كثر الطبخ في القدر، كثر إحراق الحطب، وإذا كثر إحراق الحطب تحتها كثر الرماد لا محالة»¹. وبهذا يتضح أن عبد القاهر اكتمل على يديه وضع وتعريف الكناية وإظهار فضلها ومزيتها على التصريح، ويكون قد وضع فروعها وأقسامها وكشف النقاب عن حسنها وجمالها ووضع شروط لهذا الجمال والحسن، ثم بين موضعها.

و تبين كذلك لعبد القاهر وظيفة الكناية من خلال كونها تكمن في خلق تلك الصور المؤثرة في نفس المتلقي والمتذوق، و هذا التأثير لا يكون إذا كان الكلام مستعملا على التصريح، وإن هذا التأثير لا يدرك إلا بالنظر إلى المعاني واحدا واحدا وتعرف محصولها وحقائقها².

ومن الذين تناولوا الكناية بالدراسة والتحليل الزمخشري، فقد كانت له نظرة ثاقبة صائبة، وربما يكون نضج الكناية بين دفتي تفسيره، فقد كان من أكثر المفسرين عناية بالبيان خاصة.

إن عناية الزمخشري بفنون المعاني والبيان، كانت عظيمة ، لأنه يرى أن القرآن مختص بهما، ولما كانت الكناية واحدا من فنون البيان حظيت عنده بعناية وافية في تفسيره، وبالرغم أن الزمخشري كان مسبقا " بالجرجاني"، الذي شارفت الكناية عنده على النضج، إلا أن نضجها الحقيقي كان على يد الزمخشري، حيث أمسك بما غاب عن الجرجاني، فقد كان أول من ذكر أقسامها الثلاثة، لأن الكناية عن موصوف لم ينتبه إليه عبد القاهر ومن سبقه، إلى جانب قضايا جديدة توسع فيها الزمخشري، وبذلك وجدت الكناية متسعا رحبا وأدت دورها ببلاغة وإعجاز.

¹ - نائلة قاسم لمغون، الكناية في ضوء التفكير الرمزي، بحث لنيل درجة الماجستير، كلية اللغة العربية جامعة أم القرى، مكة، عام: 1984م، ص: 25-26.

² - انظر: أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، منشورات وزارة الثقافة، سوريا، ط2، عام: 200م، ص: 239 وما بعدها.

لقد ذكر الزمخشري الكناية بمعناها الاصطلاحي، وذكر أقسامها الثلاثة المشهورة، وفرق بينها وبين التعريض، إلى جانب أنه أول من أثار موضوع ضرورة إمكان المعنى الحقيقي في طريقة الكناية إلى غير ذلك من المواضيع البلاغية التي تناولها الزمخشري في تفسيره.

وقد عرف الكناية بقوله: « الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولك: طويل النجاد والحمائل، لطول القامة، وكثرة الرماد للمضياف..»¹

والواضح من هذا التعريف أنه يجعل الكناية أشبه بالمجاز الذي هو لفظ استعمل في غير ما وضع له، ولم لا يفرق بينهما، ففي شروح التلخيص أن تعريف الزمخشري للكناية على هذا الشكل تصريح بأنها نوع من المجاز.

لقد تناول أقسام الكناية الثلاثة، - وإن هو لم يسمها- بهذه التسمية ولم يضع في ذلك مصطلحا، وإنما أشار إلى مدلول كل منها.

فمن الكناية عن الصفة ما جاء في حديثه عن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾² حيث قال: « ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غمّا فتصير يده مسقوط ؛لأن فاه قد وقع فيها و"سقط" مسند إلى "في يدهم" وهو باب الكناية»³. وأما الكناية عن موصوف، فهو أول من تحدث عنها ، فلم نر من الأوائل - فيما اطلعت عليه - من تناولها ، فقد أشار إليها وكشف عن كل الجوانب المتصلة بها في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا يَفْتَرِيْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِمْ وَأَرْجُلَيْهِمْ﴾⁴ قال الزمخشري: « كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك، كنى بالبهتان المفتري بين يديها ورجليها عن

¹- انظر: محمد جابر فياض، الكناية، دار المنار للنشر والتوزيع، جدة، ط1، عام: 1989م، ص: 61.

²- سورة الأعراف، الآية: 149.

³- الزمخشري، تفسير الكشاف، تحقيق وتعليق الشيخ عادل أحمد عبد الحوار، علي محمد معوض مكتبة العبيكان بالرياض، ط1، عام: 1998م. ج2، ص: 510.

⁴- سورة الممتحنة، الآية: 12.

المولود الذي تلصقه بزوجها كذبا، لأن بطنها الذي تحمل فيه بين اليدين، وفرجها الذي تلد به بين الرجلين»¹.

أما الكناية عن نسبة فقد أشار الزمخشري إليها وبين أثرها وأنها أبلغ في الدلالة من التصريح، يقول في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾² فقل الزمخشري: «جعلت الشرارة للمكان وهي لأهلها وفيه مبالغة ليست في قولك: أولئك شر وأضل لدخوله في باب الكناية التي هي أخت المجاز»³.

والملاحظ أن الزمخشري يخالف عبد القاهر الجرجاني في النظرة إلى الكناية عن نسبة حيث يرجعها إلى بابها «نراه يخالف عبد القاهر في عدّ كناية النسبة من باب المجاز الحكمي أو العقلي، إذ ردها إلى بابها»⁴.

ومن الذين تناولوا الكناية أبو يعقوب السكاكي حيث يعرفها بقوله: «هي ترك التصريح بذلك الشيء إلى ذكر ما يلزمه لينتقل من المذكور إلى المتروك كما تقول: «فلان طويل النجاد، لينتقل منه، إلى ما هو ملزومه وهو طول القامة»⁵ ولعله يكون أول من أدخل اللزوم في ضوابط التعريف، مما عرضه إلى نقد كثير من بعض الكتاب المعاصرين.

ويشير إلى تسمية الكناية قائلا: «وسمي هذا النوع كناية لما فيه من إخفاء وجه التصريح، ودلالة: "كنى" على ذلك، لأن "ك، ن، ي" كيفما تركبت دارت مع تأدية معنى الخفاء، ومن ذلك "كنى" عن الشيء يكنى إذا لم يصرح به»⁶.

¹ - الزمخشري، الكشف، مصدر سابق، ج6، ص: 29.

² - سورة الفرقان، الآية: 34.

³ - الزمخشري، الكشف، مصدر سابق، ج4، ص: 349.

⁴ - شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، ص: 257.

⁵ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 512.

⁶ - المصدر نفسه، ص: 512.

والملاحظ أن استعمال الكناية يحمل الكلام على معنيين، معنى ظاهر، ويتضح في ظاهر الصياغة، ومعنى خفي، أو المعنى المقصود، ثم هناك تلازم بين المعنيين الظاهر والخفي، وليس هناك تناف بينهما على عكس ما يحدث في المجاز المرسل والاستعارة.

وقد قسم السكاكي الكناية إلى ثلاثة أنواع: «وإذ قد سمعت: أن الكناية ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم، فاسمع، أن المطلوب بالكناية لا يخرج عن أقسام ثلاثة: أحدهما طلب نفس الموصوف، وثانيها طلب نفس الصفة، وثالثها: تخصص الصفة بالموصوف، والمراد: بالوصف ها هنا كالجود، في الجواد، والكرم، في الكريم»¹.

والملاحظ أيضا أن هذه الأنواع منها ما ذكره من قبل عبد القاهر الجرجاني مثل كناية عن صفة، وكناية عن نسبة، وأما الكناية عن موصوف فقد ذكرها الزمخشري.

ثم إن تقسيم السكاكي نجده مبني على أساس المكنى عنه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: كناية مطلوب بها نفس الموصوف كذكر موصوف معين، ثم عدول عن ذكره، إلى ذكر صفة مختصة به بحيث يتوصل السامع من خلالها إلى الغاية وهي عنده في هذا المقام، قريبة وبعيدة.

النوع الثاني: كناية مطلوب بها نفس الصفة، وهي أن يريد المتكلم إلحاق صفة بموصوف معين فيترك التصريح بذلك إلى ذكر أمر يكون بينه وبين صفة أخرى تلازم، وارتباط، بحيث ينتقل الذهن بإدراك الصفة أو الصفات المذكورة إلى الصفة المكنى عنها المرادة، وهي أيضا عنده أيضا قريبة وبعيدة،

النوع الثالث: فهو كناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف التي يريد بها المتكلم إثبات صفة لموصوف معين أو نفيها عنه، فيترك إثبات هذه الصفة لموصوفها ويثبتها لشيء آخر شديد الصلة ووثيق الارتباط به فيكون ثبوتها لما يتصل به دليلا على

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 513.

ثبوتها له، وهي عند السكاكي تتفاوت في اللطف «في الكناية المطلوب بها تخصيص الصفة بالموصوف هي أيضا تتفاوت في اللطف فتارة تكون لطيفة وأخرى ألطف»¹ وذكر لها أمثلة منها قول: زياد الأعجم.

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشر

ثم أشار بعد ذلك على سبيل الاقتراح لجعل التعريض قسماً من الكناية، ورأى أن تقسيم الكناية أيضا إلى: تلويح، ورمز، وإيماء، أو إشارة ولذلك لم نجده يفرق بين الكناية والتعريض. والملاحظ أن هذه التقسيمات التي وقف عندها السكاكي إلى جانب التعريفات وجدت عند المتأخرين قبولاً، حيث لم نلاحظ خروجاً عنها، أو الاجتهاد في ذلك.

وأما الخطيب القزويني فقد دخلت البلاغة العربية على يديه عهداً جديداً يتمثل في عهد الشروح والتلخيصات لكتاب المفتاح، وكان للخطيب رأي خاص حيث رأى فيها من حشوا وتطويلاً وربما نقص، حتى وإن كانت رؤية الخطيب لا تختلف كثيراً عن رؤية السكاكي رغم ما أدخله من تعديلات في تصنيف الأبواب البلاغية إلى تقسيم البلاغة إلى ثلاثة فنون: علم المعاني، علم البيان، علم البديع.

و قسم علم البيان إلى قسمين: هما المجاز والكناية وأدخل التشبيه حيث قدمه على الاستعارة، ثم قدم المجاز على الكناية لنزول معناه من معناها منزلة الجزء من الكل، على أنه قد أخرج المجاز العقلي من علم البيان، وبحثه في المعاني على اعتبار أن الإسناد منه حقيقة عقلية، والمجاز العقلي منه.

¹ - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق ، ص: 517.

تتاول الخطيب الكناية سار فيها على منوال السكاكي، ولم يحاول الخروج عنه، غير أنه كان أكثر تركيزاً في دراسته، وأكثر سعة في شواهد المتنوعة.

فقد عرف الكناية على أنها « لفظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة معناه حينئذ »¹ مثل قولك: فلان طويل النجاد، أي طويل القامة، وفلانة نؤوم الضحى، أي مرفهة مخدومة غير محتاجة إلى السعي بنفسها، ثم أنه خالف السكاكي في مبنى الكناية من اللازم إلى الملزوم ومبنى المجاز على الانتقال من الملزوم إلى اللازم.

وقسم الخطيب الكناية إلى ثلاثة أقسام: «ثم الكناية أقسام، لأن المطلوب بها إما غير صفة ولا نسبة، أو صفة، أو نسبة، والمراد الصفة المعنوية كالجود والكرم والشجاعة».²

القسم الأول: المطلوب بها غير صفة ولا نسبة، منها ما هو معنى واحداً وهو أن يتفق في صفة من الصفات اختصاصاً بموصوف معين عارض تذكر تلك الصفة ليتوصل بها إلى ذلك الموصوف كقولك: المضياف كناية عن زيد، كناية عن موصوف، وقد استدل على ذلك يقول البحتري في قصيدته التي يذكر فيها قتله الذئب:

فأتبعْتُها أخرى، فأضللت نصلها * حيث يكون اللب والرعب والحق

فقله: «بحيث يكون اللب، والرعب والحق، ثلاث كنايات لا كناية واحدة.

أما القسم الثاني: المطلوب بها صفة: وهي ضربان قريبة وبعيدة.³

أما القسم الثالث: المطلوب بها نسبة، وهي التي يكون فيها المعنى المكنى عنه نسبة حاصلة بين الموصوف وصفته الملازمة له.⁴

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح، مصدر سابق، ص: 225.

² - المصدر نفسه، ص: 225.

³ - المصدر نفسه، ص: 226.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 229.

والملاحظ: أن الخطيب في دراسته للكناية تتفاوت إلى تعريض، وتلويح، ورمز وإيماء وإشارة قال: « الكناية تتفاوت إلى تعريض وتلويح ورمز، وإيماء وإشارة، فإن كانت عرضية فالمناسب أن تسمى تعريضا، وإلا، فإن كان بينهما وبين المكنى عنه مسافة متباعدة لكثرة الوسائط كما في كثرة الرماد، وأشباهه – فالمناسب أن تسمى تلويحا لأن التلويح هو أن تشير إلى غير عن بُعد، وإلا، فإن كان فيها نوع خفاء، فالمناسب أن تسمى رمزا، لأن الرمز هو أن تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية».¹

¹ - الخطيب القزويني، الإيضاح، مصدر سابق ، ص: 232.

المطلب الثاني: الكناية عن صفة في الخطاب النبوي الشريف

الكناية عن صفة هي التي يطلب بها نفس الصفة، والمراد بالصفة في هذا المقام، الصفة المعنوية، مثل الشجاعة والكرم والغنى والحلم والجمال والطول وغيرها من الصفات وليس المراد منها النعت المعروف في علم النحو، وضابطها كما حدده البلاغيون¹، أن يذكر الموصوف، وينعت بصفة لا تكون مرادة لذاتها «بل لتدل وتؤمى إلى صفة أخرى هي الغرض المقصود والهدف المنشور، كما قي قولهم: فلان كثير الرماد كناية عن كرمه، وكونه مضيافا، فقد نعت فلان بأنه كثير الرماد والمراد أنه كريم مضياف»².

وكذلك قولهم " فلان طويل النجاد" ذكر الموصوف وهو فلان، وذكرت صفته وهي طويل النجاد، ولكن هذه الصفة ليست هي المرادة، وإنما المراد صفة لازمة لها وهي طول القامة، لأن سبب طول النجاد هو طول القامة وهكذا.

والصفة المعنوية المرادة على نوعين: صفة قريبة، وصفة بعيدة، وقد حاول البلاغيون دراسة المراحل المختلفة فيما وراء المعنى الأصلي للوصول إلى المعنى الثاني المراد، وكذلك اختلاف هذه الوسائط من حيث الغموض، والوضوح مما جعلهم ينظرون إلى الكناية عن صفة أنها قريبة وبعيدة « لأنه أسقط هذه الوساطة من البيت لما كان إلا كلاما غفلا وحديثا ساذجا»³.

والكناية القريبة: وهي التي نتوصل بها إلى المعنى المراد بقليل من الوسائط، أو أن المعنى المراد يفهم من ظاهر اللفظ بحيث نتوصل إليه بغير واسطة.

¹-انظر: السكاكي، مفتاح العلوم، مرجع سابق، ص: 639.

²-أحمد هندawi هلال، الكناية في لسان العرب لابن منظور، مكتبة وهبة القاهرة، ط1، عام: 2003، ص: 44.

³-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق ص: 236.

وأما الكناية البعيدة :فإننا نجدها كثيرة الوسائط يتم الانتقال من خلالها إلى المعنى المراد « ما ينتقل منها إلى المطلوب بها بواسطة وهي واضحة كقولهم كناية عن الأبله: " عريض الوسادة" فإنه ينتقل من عرض الوسادة إلى عرض القفا، ومنه إلى المقصود «.¹

ونحن في هذا المقام ننظر إلى الكناية من حيث الدلالة على المعنى سواء كانت قريبة أو بعيدة، لأن الغاية المرادة هي هذه الصورة ومدى تأثيرها في المتلقي.

وهذا الضرب من الكناية ورد في الحديث النبوي الشريف حيث نجده عليه الصلاة والسلام يظهر فضل اليد المعطاة ،أو تفضيل المعطي على المستعطي ، ومن ذلك ما جاء عن حكيم بن حزام قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: « إن هذا المال خَصِرَةٌ خُلُوَّةٌ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى».²

والحديث يحض على عزة المسلم وإبائه وسيادته، لأن الإسلام يدعو إلى العمل والجد في طلب الرزق وعدم الاتكال على الغير، فهو يكره السؤال ويأباه « وينفر منه ويفضل اليد التي تتفق على اليد التي تسأل، ومن يستغف يعفه الله، ومن يستغن أغناه الله، والرسول صلى الله عليه وسلم كنى بالعليا عن المعطية، وكنى بالسفلى عن المستعطية «.³ وهو، يريد من المؤمن أن يكون عزيز النفس أبي القلب كاسباً، ولا يريده فارغاً يسأل الناس أعطوه أو منعوه والشريعة الإسلامية عادلة سمحة، ترى من الناس مَنْ يُحَرِّمُ الكسْبَ لعلِّه تمنعه، فأبيحت لهم الصدقة ما داموا عاجزين إذ هي محصورة في أنواع من الناس بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾⁴ وحرَّم الكتاب كما حرمت السنة الصدقة

¹- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 226.

²- صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 717، رقم الحديث: 1035.

³- القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 422.

⁴- سورة التوبة، الآية: 60.

على غيرهم فقال عليه السلام: «لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوى»¹ وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم أحبله، فيحتطب على ظهره، خير له من أن يأتي رجلا فيسأله، أعطاه أو منعه»².

وهي دعوة من الرسول صلى الله عليه وسلم ليحبب إلى الفقراء العمل وعمارة الأرض بكسب حلال، لا منة فيه ولا ضعة.

و أشار الشريف الرضي إلى كناية بقوله: «وإنما كنى عليه الصلاة والسلام عن هاتين الحالتين باليدين، لأن الأغلب أن يكون بهما الإعطاء والبذل، و بهما القبض والأخذ»³.

وصورة البيانية تظهر حال المعطى، والآخذ، يد للسؤال ذليلة محتشمة، ويد ذاهبة بالعطاء عزيزة منسرحة.

والواضح أن البعد بين اليدين جاء من خلال التعبير باسم التفضيل ليزداد بُعد ما بينهما، وحقيقة الأمر أن الممدوح والمذموم هو صاحب اليد، والغاية من الحديث هي الأهم، لأن القصد جعل الشخصين في منزلتين عليا وسفلى، وتقدير فضل الأولى على الثانية في الخير فهذه المعاني جميعها يؤكد عليها عليه الصلاة والسلام في حديث آخر عن أبي أمامة قال: قال رسول الله صل الله عليه وسلم: «يا ابن آدم! إنك أن تبذل الفضل خيرٌ لك، وأن تمسكه شرٌّ لك، ولا تُلأَمُ على كفافٍ، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»⁴.

¹ - الجامع الكبير "سنن الترمذي" ج2، ص:190، رقم الحديث:658. أنظر:كمال عز الدين السيد،الوجهة البلاغية، ص: 196.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص:535، رقم الحديث:1401.

³ - الشريف الرضي، المجازات النبوية، مصدر سابق، ص: 23.

⁴ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 718، رقم الحديث: 1036.

هذا الحديث والذي قبله فيهما حث على الإنفاق في وجوه الطاعات وفيهما دليل على أن اليد العليا هي المنفقة، والمتعفة «والمراد بالعلو علو الفضل والمجد ونيل الثواب»¹.

والواضح أن الحديثين كلاهما يجمع بين الإيجاز والتصوير الكنائي وتلك قدرة لا تتأتى إلا لمن أوتي جوامع الكلم.

وفي حديث آخر يكشف عليه الصلاة والسلام عن مهمة الآباء والأمهات في إعداد الأبناء، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، كان يُحَدَّثُ: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه، أو يُنصرّانه، أو يُمجسانه، كما تُنَّجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل نُحِسُّونَ فيها مِنْ جَدْعَاءَ » ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: « فطرة الله التي فطر الناس عليها »².

هذا الحديث نفحة من نفحات الجمال، وإشراق من اشراقات النبوة فقد وضح عليه الصلاة والسلام ببيانه العذب وأسلوبه اللطيف الرصين ناحية علمية هامة « يعنى بها علماء الاجتماع، ويهتم بها الفلاسفة والمفكرون وهي: هل الدين فطرة في الإنسان؟ وهل الخير أصل فيه أم الشر؟ وهل يكون الطفل عند ولادته مزودا بطاقة روحية تلهمه السداد والرشاد؟؟ فالنبي الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - وضع أصلا من أصول التربية الخلقية الكريمة يعتبر نبراسا مضيئا لكل مرب ينشد السعادة »³.

وكما أشرنا أن الكناية عن صفة من أكثر الأنواع ورودا في الحديث النبوي الشريف ومن ذلك خطابه عليه الصلاة والسلام للأنصار في يوم فتح مكة بعد غزوة حنين، حيث ظنوا به غير ما يريد، أو ربما خشوا أن يتركهم ويبقى في مكة مع قومه.

¹ - كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 196.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 456، رقم الحديث: 1292.

³ - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: 16.

وعند فتح مكة قال الرسول صلى الله عليه وسلم: « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، فقالت الأنصار: أمّا الرجل فقد أخذته رافة بعشيرته، ورغبة في قريته، ونزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: قلت: أمّا الرجل فقد أخذته رافة بعشيرته ورغبة في قريته، ألا فما اسمي إذا! » ثلاث مرات « أنا محمد عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم، قالوا: والله! ما قلنا إلا ضيقاً بالله ورسوله، قال: فإن الله ورسوله صدقانكم ويعذرانكم».¹

وأما حديث غزوة حنين فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: للأنصار: «.. لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض»² والظاهر من الحديثين أن الأنصار قلوبهم لينة ونفوسهم مرهفة وشدة حُبهم لرسول الله عليه الصلاة والسلام، فقالوا ما قالوا.

وكان على النبي عليه الصلاة والسلام أولاً: أن يعاتبهم على قولهم، وثانياً: أن يطيب قلوبهم ويطمئنهم كما يحبون، ومن أجل ذلك سلك عليه الصلاة والسلام مسلكاً بلاغياً عن طريق الكناية في قوله: " هاجرت إلى الله ، وإليكم فالمحيا محياكم، والممات مماتكم " .

والمراد في ذلك أنه يحيا معهم حيثما كانوا، ووفاته تكون بينهم، وهذه كناية عن ملازمته وعدم المفارقة، قال النووي: «معناه أنني هاجرت إلى الله، إلى دياركم لاستيطانها، فلا أتركها، ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى، بل أنا ملازمكم: "المحيا محياكم والممات مماتكم" أي لا أحيأ إلا عندكم، ولا أموت إلا عندكم»³ وفي ذلك تأكيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يفارقهم أبداً حتى بعد وفاته.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1408، رقم الحديث: 1780.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 1574، رقم الحديث: 4075.

³ - إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، هامش صحيح مسلم بشرح النووي، مصدر سابق، ج7، ص: 407.

وأما الحديث الثاني فقد سلك فيه عليه الصلاة والسلام مسلك التصوير الكنائي أيضا، فقد كنى عن رغبته وملازمته الأنصار في قوله: "لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، لو سلك الناس واديا وشعبًا، لسلكت وادي الأنصار وشعبها، والأنصار شعار والناس دثار " فقد ساعد على تحقيق الجانب الفني في الكناية هذه المقابلة بين الناس والأنصار إلى جانب الصورة البليغة " الأنصار شعر والناس دثار".

قال العيني: «وهو كناية عن فرط قربهم منه وأراد أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم»¹.

وقد سلك عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث مسلك الكناية عن صفة لما في الكناية من قدرة على التصوير وإظهار رغبته فيهم وملازمته لهم حتى يصل إلى أعماق وجدانهم، وفي ذلك مبالغة في تظمنهم، وإزالة الشكوك من قلوبهم وأنفسهم.

وبحكم أن الكناية عن صفة وردت بشكل واسع في الحديث النبوي الشريف ، لأنها من أروع المسالك البيانية، والطرق الأسلوبية التي يعبر بها المنشئ عن المعنى تعبيرًا هادفًا موجزًا، ويخفي تحت ظلاله لطائف مراده، ولذلك فإنها أبلغ من الحقيقة والتصريح ، لأن الانتقال فيها من الملزوم إلى الملازم، كدعوى الشيء ببينه.

وهذه الأمور جعلت منه عليه الصلاة يسلك مسلك الدلالة على المعاني الكثير باللفظ القليل، إلى جانب أن الكناية دعوة إلى التفكير والتأمل والاستحسان، فهي أقرب إلى العقل، وأقرب أيضا إلى النفس والوجدان، وأمور الدين تقتضي مثل هذا الأسلوب وهذا التعبير الموجز الواضح القريب من النفوس والوجدان.

ومن الكنايات النبوية اللطيفة ما جاء عن معاوية قال: سمعت رسول الله صلى الله

¹-العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج 17، ص: 309.

عليه وسلم يقول: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»¹ والحديث يظهر شرف المؤذن وكرامته وعظيم أجره عند الله يوم القيامة، غير أنه ترك التعبير باللفظ الصريح، واتجه إلى الأسلوب غير المباشر عن طريق الكناية عن صفة، حيث عبر عن مراده بطول أعناق المؤذنين، وطول العنق فيه رفع الرأس، وفي ذلك إشعار بالكرامة إلى جانب حسن الثواب عند الله، وهذه الدلالة شاعت بين الناس فقل لمن أنال أهله شرفاً، أطلت أعناقنا، ورفعت رؤوسنا، ويقال العكس للمسيء: قصرت رقابنا.

والتعبير بالأسلوب الكنائي أوجز مما يفسر به لو قيل مثلاً: المؤذنون أكرم الناس وأشرفهم بدليل طول أعناقهم برفعة رؤوسهم يوم القيامة «كما أنه ذكر الدليل على صحة الحكم المفهوم من وراء العبارة فيُشبه الجمع بين المعنى ودليل صحته، وفهم المدلول الكنائي إنما يأتي بحركة تخيلية تكسب العبارة قيمة فنية رائعة، لأن الكلام في مقام المدح بحسن المجازاة، وطول العنق في ذاته - وخاصة على سبيل المبالغة بصيغة التفصيل - قد لا يكون جميلاً، وإذ يفتقر المقام باللفظ المظل يحرك ذهن إلى ما هو الأنسب من المعاني الملزومة، فتساعد الصورة التي يستحضرها الخيال من تجارب الحياة المماثلة فيصل إلى المراد بعد هذه الحركة النفسية فيكون ذلك سرّاً من أسرار التقرير والتوكيد»².

ومن الكنايات النبوية ما جاء أيضاً عن النعمان بن بشير يقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لتسوّن صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم»³ ومن ذلك أيضاً قوله: « أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسُدّوا الخلل ولينوا بأيدي إخوانكم، ولا تذروا فرجات الشيطان، ومن وصل صفا وصله الله، ومن قطعه قطعه الله»⁴.

¹ -صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 290، رقم الحديث: 387.

² -كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 212.

³ -صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 253، رقم الحديث، ص: 685.

⁴ - سنن أبي داود، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 عام: 1389هـ، ج1، ص: 10 .

والتعبير باللين، أو لين المناكب كناية عن سهولة الانقياد وذلك عند ملامسة يد المسلم كتف أخيه المسلم وهو في الصلاة وذلك بغية الطلب بالتقدم أو التأخر «أو تدعوه ليسد فرجة بينهما ليكونوا في الصف كالبنيان المرصوص، وليرتسم هذا النظام في قلوبهم فيمكن من تشكيلهم في القتال بلا كلل أو عناء، فالمعنى الكنائي الذي يستتر وراء التعبير معنى عقلي يحوج إلى الدليل الحسي ليزيد تقريراً في النفس، والمعنى الوضعي للتعبير هو هذا الدليل»¹

وإذا كان من دواعي الأسلوب الكنائي في الحديث النبوي الشريف الإيجاز والاختصار فإن ذلك يتجلى في الصورة الكنائية في هذا الحديث الشريف ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلى ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه».²

الحديث يقوم على تقسيم لطيف وبيان شافٍ مجيد لأولئك السعداء الأبرار الذين نالوا الكرامة الإلهية، والسعادة الأبدية في دار الخلد والنعيم بسبب ما قدموا في الدنيا من صالح الأعمال، واتصفوا به من جميل الخصال «فالرسول الكريم -عليه أفضل الصلاة والتسليم- يحدثنا عن شمول العناية الإلهية والرحمة الربانية تحت ظل عرش الله الكريم من اتصف بواحدة من تلك الخصال الحميدة، التي يحبها الله ورسوله، وقد أوضحها عليه الصلاة والسلام في أجمل عرض وأقوى بيان ليلهب نفوس المؤمنين ويحرك فيهم روح الجد والإخلاص والعمل الصالح ليسيروا على المنهج القويم».³

¹ - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 272.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 234، رقم الحديث: 629.

³ - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: 22.

والإشادة بفضل ذلك الرجل الصالح الذي عمر الإيمان قلبه، وتعلقت نفسه وجوارحه وقلبه بحب الله والاستجابة لأوامره، فكانت الاستجابة من خلال المحافظة على الصلاة وفي أوقاتها، فعبر عليه الصلاة والسلام بقوله « رجل قلبه معلق في المساجد » وهي كناية لطيفة جميلة فقد كنى عن ملازمته للمسجد والتردد عليه ومحافظة على الصلوات فيه ، لأن صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذ عند الله، والرسول صلى الله عليه وسلم يحذر الذين يتخلفون عن صلاة الجماعة في المسجد حيث جاء عن أبي هريرة رضي الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً فيؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم، والذي نفسي بيده، لو يعلم أحدكم: أنه يجد عرقاً سميناً، أو مَرَمَاتَيْنِ حسنتين لشهد العشاء».¹

وتعلق قلبه في المسجد كناية عن صفة، وهي كناية تظهر أن هذا الرجل لا يطيب له عيش إلا أن يكون فيه، ولا يخرج منها إلا وهو يتمنى أن يعود إليها، لأنه يجد فيها السبيل لمناجاة ربه في ذكره والتوجه إليه، بدون شك من تكون صفته هذه ينعم في ظل الرحمن ويحميه من كل شر، لأنه الظل الوحيد يوم القيامة.

وقد أشرنا إلى هذا النوع من التصوير البياني ورد كثيراً في الحديث النبوي خاصة الكناية عن صفة، ومن ذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام لأزواجه مشجعا على الصدقة والعطاء كثيراً، فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها: أن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قلن للنبي صلى الله عليه وسلم: أينا أسرع بك لحوقاً؟ قال: «أطولكن يداً» فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سَوْدَةٌ أطولهن يداً فعلمنا بعد أنما كانت طول يدها من الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقاً به، وكانت تحب الصدقة»² والواضح أنه عليه الصلاة يقصد الصدقة، ويريد كثرتها ، لذلك نجده

¹ -صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 231، رقم الحديث: 618.

² -المصدر نفسه ج2، ص: 516، رقم الحديث: 1354.

كنى عن هذا المعنى بطول اليد ،لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيره من أنواع البر أن يعطيه بيده فسمى النيل، قال الشريف الرضي: « والحديث

انهن لما سمعن منه أطول يدا إلى أن توفيت زينب بنت جحش بن رئاب الأسدي أول من توفي منهن وكانت كثيرة المعروف فعلمن حينئذ أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بطول اليد كثرة البر وبذل الوفر، كناية عليه الصلاة والسلام عن هذا المعنى بطول اليد مجاز واتساع»¹.

قال النووي: «قال أهل اللغة: يقال فلان طويل اليد، طويل الباع أنه كان سمحاً جواداً وضده قصير الباع واليد»².

وجمال الكناية في هذا الحديث جعل المتقدمون من أهل البيان يهتمون به فقد أشار عبد القاهر الجرجاني أنه « يريد السخاء والجود وبسط اليد بالبذل، إن تضع موضع اليد شيئاً مما أريد بهذا الكلام»³.

ومن الكنايات أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام عن أبي بكر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، فقلت يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»⁴ فالرسول يكني عن الاقتتال بقوله التقى المسلمان بسيفهما، وذلك بترك اللفظ لما هو أجمل، لأن الكناية أسلوب مهذب يلجأ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم للتعبير عما لا يحسن ذكره والتصريح به ،لأنه يتنافى مع الذوق وذلك لأمر المسلم عند الله عظيم.⁵

¹ - الشريف الرضي، المجازات النبوي، مصدر سابق، ص: 40.

² - النووي، شرح النووي على صحيح مسلم، بيت الأفكار الدولية ، السعودية ،دون ذكر الطبعة والسنة، ص: 2453.

³ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 301.

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 20، رقم الحديث: 31.

⁵ - فالح حمد احمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 258.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قام خطيباً قال: «أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلّوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف. ثم قال: اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»¹.

ففي قوله لا تتمنوا لقاء العدو كناية عن حب السلم والابتعاد عن الشر جملة وتفصيلاً وهكذا، وكذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»² ففي قوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت» كناية عن السلم والسلام والابتعاد عن الشر ودفعه، لأنه قد يأتي الشر بسبب قول إذا جانب الخير.. وكذلك أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام في حديث سابق: «...ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه..»³ كنى بقوله حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه عن شدة إخفائه النفق، وكذل أيضاً في ذات الحديث قوله عليه الصلاة والسلام: «رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله، ففي قوله "دعته امرأة كناية عن المراودة عن النفس من أجل فعل الفاحشة وهي أيضاً كناية عن صفة وهي كناية تظهر أسمى ما تصوّرت البشرية من طهارة وسمو، إنه طهارة الوجدان وصفاء الإيمان الذي يعصم صاحبه من الانزلاق» في مزالق الرذيلة، فهي الفتن والإغراء تنزّياً بصورة واقعية في صورة "امرأة جميلة" ذات حسب ونسب تدعو الرجل إلى نفسها وتراوده على عمل الفاحشة بها، ولكنه تجنب كل ذلك خوفاً من الله»⁴.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1082، رقم الحديث: 2804.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 68، رقم الحديث: 74.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 234، رقم الحديث: 620.

⁴ - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: 24.

لهذه المعاني الجميلة واللطيفة يرى علماء البلاغة أن الكناية أبلغ من التصريح، حيث في العدول إلى الكناية، لابد من فائدة، قد تكون المبالغة، أو الرغبة في العدول عما يفحش ذكره صريحا، أو التعبير عن حال معينة.

المطلب الثالث: صورة الكناية عن موصوف في الخطاب النبوي الشريف

والكناية عن موصوف هي التي يطلب بها نفس الموصوف، أو هي التي يكون مطلوب بها غير صفة ولا نسبة، فمنها ما هو معنى واحد كقولنا: المضيايف كناية عن زيد.¹ أو أن يذكر في الكلام صفة أو عدة صفات لها اختصاص ظاهر بموصوف معين، ويقصد بذكرها الدلالة على الموصوف.

وقد ذكر بعض علماء البلاغة أن هذا الموصوف يكنى عنه بمعنى واحد مثل قولهم: " المضيايف " كناية عن إنسان معين واحد زيد أو عمرو مثلاً² ، وذكروا أيضاً أنه يكنى عنه بأكثر من معنى، وقد مثل الخطيب القزويني لهذا النوع بقوله كناية عن الإنسان: حيّ مستوي القامة عريض الأظفار فقال: « ومنها ما هو مجموع معانٍ كقولنا كناية عن الإنسان: حي مستوى القامة عريض الأظفار، وشرط كل واحدة منهما أن تكون مختصة بالمكنى عنه لا تتعداه ليحصل الانتقال منها إليه »³

وهذا النوع من الكناية تذكر فيه الصورة ويستتر الموصوف، مع أنه هو المقصود، وقد كان الزمخشري أول من وقف عند هذا النوع من الكناية وبذلك تكتمل أقسام الكناية، حيث وقف عبد القاهر من قبل على الكناية عن صفة ونسبة، وقد مثل الزمخشري لهذا الضرب بقوله تعالى: ﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴾⁴ فقال: « أراد السفينة، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوف، فتتوب منابها، وتؤدي مؤداها، بحيث لا يفصل بينهما وبينه ».⁵

وإذا نظرنا إلى الكناية عن موصوف من حيث الحضور في الحديث النبوي الشريف بالنسبة إلى الكناية عن صفة، فإنها أقل حضوراً، لأنه عليه الصلاة والسلام في منهجه

¹- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 225.

²- انظر: أحمد هنداي هلال، الكناية في لسان العرب، مرجع سابق، ص: 24.

³- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مصدر سابق، ص: 226.

⁴- سورة القمر، الآية: 13.

⁵- الزمخشري، تفسير الكشاف، مصدر سابق، ج5، 657.

التربوي يقوم على الوضوح والإيضاح، وإظهار المعنى في صورة حسية ليتمكن المخاطبين من استيعابها، خاصة المعاني المتعلقة بالجانب الديني « أو بالدين الإسلامي والعقيدة الإسلامية التي هي بحاجة ماسة إلى الشرح والتوضيح والتقريب إلى الإفهام».¹

أما الكناية عن موصوف في الحديث النبوي الشريف « فهي عبارة جاءت بحكم التعبير الذي ينتهي في كثير من الأحيان إلى معنى من المعاني فتعد كناية عن صفة»²

ومهما كان الأمر فإن الكناية عن موضوع تبدو خالية من العمق المعنوي الذي يؤدي إلى هدف معين، وإذا كان هذا الهدف، فهو لا يخدم المعنى بشكل مباشر، وإنما من خلال ما يخفي وراءه من صفات معنوية تعد أساس البيان النبوي الكريم.³

ومع هذا فقد وجدنا بعض الكنايات عن موصوفات معينة، حتى وإن كانت قليلة، إلا أنها كافية للدلالة على هذا الضرب من الكناية في الحديث النبوي الشريف، ومن هذه الكنايات ما جاء في حديث المعراج، وهو حديث طويل نأخذ منه قوله عليه الصلاة والسلام: «.. ثم أُتِيْتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبْنَ فَقَالَ: هِيَ الْفَطْرَةُ أَنْتَ عَلَيْهَا وَأَمْتِكَ، ثُمَّ فَرَضْتُ عَلَيَّ الصَّلَاةَ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ..».⁴

ففي قوله عليه الصلاة والسلام، "هي الفطرة" ورواية أخرى " اخترت الفطرة " كناية عن العقيدة الإسلامية السليم، وهي عقيدة التوحيد الخالص بمعنى اخترت علامة الإسلام والاستقامة.. وجعل اللبن علامة، لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة.

أما الخمر فإنها أم الخبائث، وجالبةٌ لأنواع الشر في للعقل والمال وهي كناية عن موصوف، حيث عدل عن ذكر العقيدة السليمة، وفي هذا الحديث ما اشترطه البلاغيون في

¹ - فالح حمد احمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 283.

² - المرجع نفسه، ص: 284.

³ - انظر: المرجع نفسه، ص: 284.

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، 1410، رقم الحديث: 3674.

الكناية عن موصوف من الاختصاص بالمكنى عنه حيث أن المعنى عنه مختص بالمكنى عنه ومن ثم وقع الانتقال المقصود ببسر وسهولة.

ومما يؤكد العقيدة السليمة واختيار الفطرة التي تمثل عقيدة التوحيد ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أتيتكم بالحنيفية البيضاء ليلها كنهارها»¹ ففي قوله عليه الصلاة والسلام: الحنيفية البيضاء كناية عن الدين الإسلامي الحنيف فعدل صلى الله عليه وسلم عن ذكر الدين الجديد الذي اعتزل فيه عبادة الأصنام والأوثان، إلى «ما تخفيه عبارة الحنيفية البيضاء من طهر ونقاء وصفاء وسلام للمجتمع العربي والإنساني في ظل الإسلام، فضلاً عما تحمله هذه العبارة من أسلوب مهذب، يفعل فعله المؤثر في قلوب العرب آنذاك وهذا يعد سبباً من الأسباب الداعية إلى استعمال الأسلوب الكنائي»².

وأما ما جاء عن أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في سفر، وكان غلام يحدو بهن يقال أنجشة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «رويدك يا أنجشة سوقك بالقوارير»³ قال أبو قلابة: يعني النساء. والحديث فيه روايات «أرفق يا أنجشة، ويحك بالقوارير»⁴ أو «رويدك يا أنجشة لا تكسر القوارير»⁵ أو «ويحك يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير»⁶ وبكل هذه الروايات المختلفة لفظاً، والمتفقة من حيث المعنى، فهو يقوم على كناية، كناية، كنى عليه الصلاة والسلام عنهن، بالقوارير وهي كناية عن موصوف لطيفة.

¹ - العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج13، ص: 353.

² - فالج حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 284.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5: 2294، رقم الحديث: 5857.

⁴ - المصد نفسه، ج5، ص: 2294، رقم الحديث: 5856.

⁵ - المصد نفسه، ج5، ص: 2294، رقم الحديث: 5797.

⁶ - المصد نفسه، ج5، ص: 2278، رقم الحديث: 5797.

يقول النووي في شرحه: « إن أنشجه كان حسن الصوت، وكان يحدو بهن، والمراد الرفق في السير، لأن الإبل إذا سمعت الحداء أسرع في المشي واستلذته فأزعجت الراكب واتعبته فنهاه عن ذلك، لأن النساء يضعفن عند شدة الحركة ويخاف ضررهن وسقوطهن».¹

وقيل أنها كناية عن النساء لضعف عزائمهن ، وقال العلوي: « وإنما كنى عنهم بالقوارير لأمر ثلاثة: أما أولاً: فلما هن عليه من حفظ الأجنة، والوعاء كالقارورة تحفظ ما فيها، وأما ثانياً: فلاختصاصهن بالصفاء والصقالة والحسن والنضارة، وأما ثالثاً: فلما فيهن من الرقة والمسارة إلى التغير والانتلام، كما يتسارع إلى القارورة لرققتها، وهذا الوجه هو الذي يومئ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: «رفقا بالقوارير»² وربما تكون هناك كناية ثانية لأن: التعبير المباشر تبدو فيه كناية عن موصوف، كما هو واضح، غير أن المراد منه هو الرقة واللفظ، وهما كنياتان عن صفة تتفرد بها النساء.

ومن ضرب الكناية في اللطف والرقة، إلى ما يبني الأمم والحضارات، ويشيد المجتمعات، ويهذب الخلائق، ويقوي الإيمان، ويحبب الإسلام ويشرحه إنها دعوة إلى حفظ القرآن وإلى قراءته، لأن هذا الكتاب الإلهي تذكرة للنفوس الحائرة وإنقاذ القلوب الجامدة البائسة التي لا تفهم إلا لذائذ الدنيا وشهواتها، لذلك جاءت هذه الدعوة إلى تعلم القرآن. فقد جاء عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « خيركم من تعلم القرآن وعلمه»³، فهم السادة لأنهم يقرأون القرآن ويعلمون ما جاء فيه.

وفي حديث آخر قوله عليه الصلاة والسلام: « يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارفق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»⁴ والكناية في هذا الحديث

¹ - شرح صحيح مسلم على حاشية إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج9، ص: 174.

² - العلوي، الطراز ، مصدر سابق ، ج1، ص: 206.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق ، ج4، ص: 1919، رقم الحديث: 4739.

⁴ - أبو داود: سنن أبي داود، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة دون

ذكر الطبعة، عام: 1952، ج2، ص: 199.

عن منزلة قارئ القرآن والحديث يعد كناية عن منزلة قارئ القرآن، لأننا نسمع فيه الصوت المترع بالإكرام، فيقال: اقرأ وارفق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا.. ولنا أن نتصور من ذلك هذا القارئ يرتل بصوته الجميل وكلما قرأ آية ارتقى وصعد في منزلة الجنة. إنها صورة تتميز بالحركة والتشخيص المعنوي الرائع فالقارئ يتدرج فوق سلم الإيمان آية آية، حتى يصعد إلى الغاية القصوى إلى الجنة».¹

والصورة الكنائية عن موصوف تظهر منزلة هذا القارئ الذي يقرأ القرآن الكريم ويتدرج علواً في سلم الإيمان مع كل آية يقرأها.

ومن الكنايات النبوية التي تحت المجتمع الإسلامي على القيم النبوية أن يتربى عليها، وأن يبني فكره وقناعاته على هذه المبادئ التي جاء بها الإسلام ومن ذلك الحوار الذي دار بين النبي صلى الله عليه وسلم و أبي ذر رضي الله عنه، عن المعرور قال: لقيت أبا ذر بالريذة ، وعليه حلة، وعلى غلامه حلة، فسألته عن ذلك، فقال: إني ساببت رجلاً فغيرته بأمه، فقال لي النبي صلى الله عليه وسلم: « يا أبا ذر، أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم ».²

والحديث كما هو واضح يترفع عن ذكر الخادم، أو غير ذلك من الألفاظ التي يمكن أن تخذش شعور إنسانية الإنسان، أو أن يكون هناك من يشعر بأنه أقل من غيره من الناس.

لذلك فإن عليه الصلاة والسلام يدرك ذلك، ويعرف أن الآثار السلبية التي قد تنتج في نفوس الآخرين، لذلك نجده ترك تلك الألفاظ وعدل عنها، إلى ما هو أجمل وأحسن أناقة ووضوحاً حيث عبر عن كل المعاني التي يريد أن يبلغها، فكفى بقوله "من كان أخوه تحت

¹ - فالح حمد احمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 287.

² - صحيح البخاري ، مصدر سابق، ج 1، ص: 20، رقم الحديث: 30.

يده" وهو يريد بذلك الخادم أو المملوك، لأنه مهما كانت الأوضاع الاجتماعية لمثل هؤلاء، فهو إنسان، وأخوه في الإسلام، وهذه هي طبيعة الحياة، ولذلك وضح عليه الصلاة والسلام أن الناس درجات ومستويات منهم من هو في الأعلى ومنهم من هو دون ذلك وهذا سر من الأسرار الإلهية في إدارة الكون.¹

والملاحظة في صورة الكناية السابقة المهدبة "تحت يده" قد عبرت عن المعنى بأتم التعبير وأصدقه وكشفت عن رعاية الإسلام وتكريمه للإنسان المؤمن بالله ورسوله، وهذا التكريم يتجلى في أحكامه وتشريعاته المختلفة، وموقف الإسلام من الرق من أكثر البحوث إبرازا لهذه الأهمية، هذا التكريم نجده في الصورة الكنائية عن الصفة المعنوية التي قد اختفت وراء الكناية عن موصوف، تلك الصفة التي هي المقصودة وهي أساس الصورة وعليها تعتمد.²

ومن الصور الكنائية عن موصوف ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه، والموت قبل لقاء الله»³ وفي الحديث روايات مختلفة لفظا ومتفقة في مضمون الحديث منها رواية لأبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه».⁴

يقول النووي « هذا الحديث يفسر آخره أوله ويبين المراد في الأحاديث المطلقة من أحب لقاء الله ومن كره لقاء الله، ومعنى الحديث أن الكراهة المعتبرة هي التي تكون عند النزاع في حالة لا تقبل تويته ولا غيرها، فحينئذ يبشر كل إنسان بما هو صائر إليه وما أعد له ويكشف له عن ذلك فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله لينتقلوا إلى ما أعد لهم ويحب الله لقاءهم، أي: فيجزل لهم العطاء والكرامة. وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه لما عملوا من سوء

¹ - انظر: فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 290.

² - انظر: المرجع نفسه، ص: 296-297.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2066، رقم الحديث: 2684.

⁴ - المصدر نفسه، ج4، ص: 2065، رقم الحديث: 2684.

لقاءه لما عملوا من سوء ما سينتقلون إليه ويكره الله لقاءهم، أي يبعدهم عن رحمته وكرامته ولا يريد ذلك لهم، وهذا معنى كراهته سبحانه لقاءهم»¹.

وفي الحديث عدول عن استعمال لفظ إلى ما هو أفضل منه وأحسن وأكثر دقة وإيضاح وبلاغة.

فقد كنى عليه الصلاة والسلام بقوله " لقاء الموت"، عن الموت وفي ذلك انتقال من لفظ إلى آخر أبلغ منه، لأن ذكر الموت مخيف للناس، ففي رواية أن أحد الصحابة قال: فأتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين! سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً، إن كان كذلك فقد هلكن، فقالت: إن الهالك من هلك بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وماذا؟ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أحب لقاء الله أحب لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه»² وليس منا أحد إلا وهو يكره الموت، لذلك كنى عليه الصلاة والسلام بقوله " لقاء الله " وهو أمر محبوب في نفس العبد، وهذا جانب نفسي مهم بالنسبة للمتلقي، لأنه عليه الصلاة لم يقل «من أحب الموت أحبه الله، ومن كره الموت كرهه الله، وإنما اتخذ أسلوباً غير مباشر من خلال الانتقال من لفظ إلى ما هو أفضل منه وأقرب إلى النفوس، مع أن الموت حق وحقيقة لا خلاف فيها، ومع ذلك نجده عليه الصلاة ينتقل ويعدل عن ذكرها بالتصريح إلى ما يدل عنها دون تخويف » وهذا كله مراعاة للجانب النفسي يخفف صلى الله عليه وسلم من خلاله بشاعة الموت ويزيل الخوف على قلوب المؤمنين »³.

وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضْحى، أو فطر إلى المصلين، فمر على النساء فقال: « يا معشر النساء تصدقن فإني

¹ - حاشية النووي على إرشاد الساري لشرح البخاري، مصدر سابق، ج10، ص: 119.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2066، رقم الحديث: 2685.

³ - فالج حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 296.

أريتكن أكثر أهل النار» فقلن: ويم يا رسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن..»¹

لا خلاف أن النساء شقائق الرجال وعلى كواهلهن تبنى الأجيال وتقوم المجتمعات، والإسلام أول من نادى بتحرير المرأة من الظلم والطغيان، وأقامها إلى جانب الرجل معزة مكرمة، موفورة الكرامة، ومن كرمه عز وجل على الإنسان بأن خلق له من جنسه شريكة الحياة، تواسيه في السراء والضراء، وتبادل له الحب والعطف، وتدفع عنه قسوة العيش، ومرارة العذاب.

وإذا كان هناك شبه إجماع عند علماء البلاغة على أن الكناية أبلغ من التصريح، ففي العدول إليها فائدة، قد تكون هذه الفائدة المبالغة، أو الإيجاز، أو الرغبة في العدول عما يفحش ذكره صريحا، أو التعبير عن حال معينة.

فقد خص المبرد الكناية أنها تأتي على ثلاثة أضرب، وذكر منها التعبير عن اللفظ الخسيس الفحش إلى ما يدل على معناه من غيره، وقد اعتبر هذا الضرب من التعبير أحسنها.

وابن سنان يرى أن أفضل أنواع الكناية وأحسنها عندما نكون في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح وذلك أصل من أصول الفصاحة، وشرط من شروط البلاغة، وإنما قلنا في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح، بما لا يحسن ذكره صراحة² ومن أمثلة ذلك: ما يرويه سهل بن سعد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ يضمن لي ما بين لحييه، وما بين رجليه أضمن له الجنة»³.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 116، رقم الحديث: 298.

² - انظر: ابن سنان، سر الفصاحة، مصدر سابق، ص: 163.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2376، رقم الحديث: 6109.

ففي قوله صلى الله عليه وسلم كنايةتان عن موصوف: "ما بين لحبيه" « و قوله: "ما بين رجليه" فالكناية الأولى كناية عن اللسان، والثانية عن الفرج (وهاتان الكنيتان تتضمنان الإيمان فيسلمان إلى الأمان: ضمان ما بين اللحيين، وضمان ما بين الرجلين.

الحيان جانباً الوجه اللذان هما منبت الشعر من الرجل، وما مائلها من الأنثى فأى شيء بينهما؟ بينهما منجاة المرء أو هلاكه: بينهما الفم ثلاثة أصابع أو أقل، ولكنه أوسع من الدنيا وأعرق! كني عنه بالموصول الأول "ما" بين لحبيه أما الموصول الثاني "ما" بين رجليه، والأدب النبوي الكريم ينأى بحيائه عن كشف العورة باللفظ تأكيد لسترها الواجب!¹

هاتان الكنيتان ما أوجزهما من لفظ، وما أوسعهما من مدلول ليس له جزء دون أن يضمن الصادق لفاعلهما الجنة، وهكذا يجمع البيان النبوي بكناية خفيفة من اللفظ ما تملأ الميزان، ويدخل المؤمن دار الإيمان².

والملاحظ من خلال الكناية عن موصوف أنها حتى وإن كانت أقل من الكناية عن الصفة من حيث الاستعمال في الحديث النبوي الشريف إلا أنها من أساليب البلغاء البارعين لكثرة تأثيرها وقلة ألفاظها وكثرة معانيها، فهي من الأساليب الغنية بالاعتبارات والمزايا، فهي تضيف على المعنى جمالا وتزيده قوة، وتحقق العديد من المقاصد والأهداف البلاغية، فهي أداء للمبالغة وهي وسيلة لتجسيد المعاني وإظهارها في صورة محسوسة، وبواسطة الكناية يمكن التعبير عن المعاني غير المستحسنة بألفاظ لا تعافها الأذواق ولا تمجها الآذان.

¹ - انظر: كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 218.

² - انظر: المرجع نفسه، ص: 218-219.

المطلب الرابع: الكناية عن نسبة في الخطاب النبوي الشريف

الكناية عن نسبة هي التي يطلب بها تخصيص الصفة بالموصوف، أو هي إثبات أمر لأمر، أو نفيه عنه فيتترك إثبات هذه الصفة لموصوفها، ويثبتها لشيء آخر شديد الصلة ووثيق الارتباط به، فيكون ثبوتها لما يتصل به دليل على ثبوتها له كما يقال: المجد بين ثوبي فلان، والكرم بين برديه، كناية عن إثبات المجد والكرم له، لأن المجد، والكرم من المعاني التي لا تستقل بالوجود، والمراد إثبات هذين الوصفين لمن يرتدي الثوبين والبردين.¹

وقد استدل الخطيب على هذا الضرب من الكناية بقول زياد الأعجم :

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشر

فقال: « فإنه حين أراد أن لا يصرح بإثبات هذه الصفات لابن الحشر جمعها في قبة، تنبيهها بذلك على أن محلها ذو قبة وجعلها مضروبة عليه، لوجود ذوي قباب في الدنيا كثيرين، فأفاد إثبات الصفات المذكورة له بطريق الكناية».²

ولهذا فإن الكناية عن النسبة تسلك مسلكاً آخر نذكر الصفة والموصوف، إلا أننا بدلاً من أن ننسب هذه الصفة لصاحبها، فإننا ننسبها لشيء آخر، ولذلك فإن العدول في هذا المقام يكون بالعدول عن الصفة إلى الموصوف مباشرة، وإنما نسبناها إلى ما له اتصال به.

وهذا الضرب من الكناية في الحديث النبوي الشريف قليل، بالنسبة إلى الكناية عن صفة أو عن موصوف.

ونعتقد أن السبب يعود إلى طبيعة الجانب التعليمي التربوي في الحديث النبوي الشريف، لأن « في هذا النوع من الكناية إيهاماً في نسبة الصفة إلى الموصوف، فالصفة لا

¹ - انظر: بسيوني عبد الفتاح فيود، علم البيان، مرجع سابق، ص: 205.

² - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، مرجع سابق، ص: 229.

تتسبب إلى الموصوف مباشرة، وإنما تتسبب إلى شيء آخر مما له علاقة به، وذلك ربما يكون بعيدا عن تصور المخاطب، لأن النسبة هذه تحتاج إلى كد الذهن وأعماله»¹.

ومهما كان الأمر بالنسبة إلى قلة الكناية عن نسبة في الحديث النبوي الشريف، فإننا وقفنا عند بعض الأمثلة تصلح أن تكون تفسيراً لذلك بمقتضى الحال الذي هو جوهر البلاغة العربية، والرسول صلى الله عليه وسلم خير من يعمل بالقاعدة البلاغية التي تقول: لكل مقام مقال، فضلا عما يقصده عليه الصلاة والسلام من مبالغات كنائية تفيد في إصلاح النفس البشرية واستقامتها»².

ومن هذه الأمثلة القليلة ما جاء عن عائشة، أن امرأة قالت: يا رسول الله أقول: إن زوجي أعطاني ما لم يعطيني؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور»³.

والواضح أن هذه المرأة ادعت أن زوجها أعطاها ما لم يعطها ترغب أن تغيض ضررتها على أن زوجها يعطيها من الحظوة والمكانة والمنزلة أكثر من الواقع لتغيضها، فكان جوابه عليه الصلاة والسلام: إن الذي يدعي ويتظاهر بما ليس فيه، أو ليس عنده كمن يلبس ثوبين مستعارين، أو مود وعين عنده يتظاهر أنهما ملكه، وهو في ذلك يسعى إلى تفتير المرأة مما ذكرت خوفا من الفساد بين زوجها وضررتها فتورث بينهما البغضاء، ولا ينبغي للمسلم أن يدعي ما ليس فيه، ولا أن يتظاهر بغير الحقيقة.

فقول المرأة: «تشبعت» أي: أظهرت أكثر مما يعطيني، وقوله عليه الصلاة والسلام: «المتشبع» المتزين بأكثر مما عنده يتكرر بذلك ويتزين بالباطل، وفي هذا استعارة حال الذي

¹ - فالج محمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 300.

² - المرجع نفسه ص: 300.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1681، رقم الحديث: 2129.

يظهر الشبع، وليس كذلك الحال من يظهر أكثر مما عنده، قال الزمخشري: استعير للمتحلي بفضيلة لم ترزق وليس من أهلها».¹

وشبه المتشبع بما لم يعط بلبس ثوبي زور والثوبان: الإزار والرداء، وقيل غير ذلك، وأضاف الزور إليهما، وإنما الزور صفة لابسهما فهو كناية عن نسبة الزور إليه، فشبه المتشبع بالمزور الكاذب المتلبس الباطل.

قال الزمخشري: «شبه بلبس ثوبي زور، أي ذي زور وهو الذي يزور على الناس بأن يتزيا بزي أهل الصلاح رياء، وأضاف الثوبين إليه لأنهما كانا ملبوسين لأجله وهو المسوغ للإضافة وأراد أن المتحلي من لبس ثوبي من الزور وقد ارتدى بأحدهما وانتزر بالآخر، كما في قوله: " إذا هو بالمجد ارتدى وتآزرا " إشعاراً بأن الإزار والرداء زور من رأسه إلى قدمه».²

والواضح من ذلك أن صورة الكناية أظهرت شناعة التزوير والرياء وتصنع الحق بالباطل. ولذلك اتخذ عليه الصلاة والسلام أسلوب الكناية دون التصريح، لأن المقام كما هو واضح من الحديث يدعو إلى التنفير من هذا السلوك الذي قامت به هذه المرأة، وذلك بغية، أن لا تعود إلى مثله لأن ذلك هذا السلوك الذي قد يؤدي للبغضاء وفساد الحياة الزوجية.

وحتى تتجسد الصورة واضحة، وظف عليه الصلاة والسلام التشبيه والاستعارة والكناية مما أعطى للصورة قوة التأثير والإيحاء وإيصال المعاني التي يرغب في تبليغها إلى المخاطب.

ومن صور الكناية عن نسبة في الحديث النبوي الشريف ما جاء عن عقبة بن عمرو أبي مسعود قال: أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده نحو اليمن، فقال: «الإيمان يمانٍ ها هنا ألا إن القسوة وغلظ القلب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل

¹ - العيني، عمدة القارئ لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج: 20، ص: 204.

² - العيني، عمدة القارئ لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج: 20، ص: 204.

حيث يطلع قرنا الشيطان، في ربيعة ومضر»¹ والواضح من الحديث أنه فيه إشارة إلى جهة اليمن «والإيمان يمان» والأصل فيه «الإيمان يمانى» بياء النسب، وفي ذلك نسب الإيمان إلى أرض اليمن، وفي هذا التعبير كناية عن نسبة، لأنه عليه الصلاة والسلام نسب الإيمان إلى مكان وهو اليمن، ولم ينسبه إلى أهل هذا المكان وهم " اليمانيون " أهل اليمن مباشرة، وذلك لوجود علاقة بينهما، لأن التعبير بأسلوب الكناية عن نسبة في هذا المقام أبلغ من التعبير المباشر، و أن الرسول صلى الله عليه وسلم إنما أراد من هذه الصورة أبعادا ومعاني لها أثرها النفسي على أهل اليمن وهذه البلاد، وفي ذلك قوة للإسلام والمسلمين لأن «تعظيم شأن هؤلاء الناس الساكنين في هذه البقعة من الأرض والشدة على أيديهم لاتصافهم بحسن إسلامهم وبيان فضلهم فيه، ومقارنتهم بغيرهم في ربيعة ومضر»².

ومن ذلك أيضا ما جاء في حديث فتح مكة حيث قال عليه الصلاة والسلام يوم فتح مكة: «... لا قريش بعد اليوم، ثم قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»³ والحديث كما هو واضح نسب فيه صلى الله عليه وسلم الأمان إلى من يدخل الدار مباشرة «ونسبة إلى ما له علاقة بها، وهو من دخلها، ويبدو، أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يشعر الناس عامة، وأبا سفيان خاصة أن الإنسان في ظل الإسلام يزداد عزا أكثر مما كان في مجتمع ما قبل الإسلام، فضلا عن ذلك فقد أراد صلى الله عليه وسلم أن يؤكد للرؤساء والأكابر من ذوي المنزلة العالية في قبائلهم أن الإسلام، لا ينتقص من مكانتهم، وإنما يعزها ما دامت تسعى لعزة الإسلام والمسلمين، وفي ذلك ترغيب لهؤلاء القوم ولرؤسائهم في اعتناق هذا الدين الجديد بغية انتشاره وانتصاره»⁴ وفي حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»⁵ وفي رواية ثانية عن ابن عمر رضي الله

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1202، رقم الحديث: 3126.

² - فالج حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 300.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ص: 1406، رقم الحديث: 1780.

⁴ - فالج محمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 302.

⁵ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1332، رقم الحديث: 3443.

عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الخیل فی نواصیها الخیر إلى یوم القیامة»¹ وفي رواية ثالثة عن أبي التیاح قال: سمعت أنسا، عن النبی صلى الله عليه وسلم قال: «الخیل معقود فی نواصیها الخیر».²

یرید النبی صلى الله عليه وسلم أن یبین للناس أن اتخاذ الخیول وإعدادها للجهاد فی سبیل الله فضل لا یدانیه فضل، وثواب لیس بعده ثواب، فالخیر كله ملازم للخیل ملازمة شديدة فلا یكون الخیر إلا حیث تكون الخیل، وفسر النبی صلى الله عليه وسلم: «البركة فی نواصی الخیل»³ وفي رواية ثانية للبخاری: «الخیل معقود فی نواصیها الخیر إلى یوم القیامة: الأجر والمغنم»⁴ وفي حدیث آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه یقول: قال النبی صلى الله عليه وسلم: «من احتبس فرساً فی سبیل الله، إیماناً بالله تصدیقا بوعده، فإن شبعه ورّيه وروثه وبوله فی میزانه یوم القیامة»⁵ هذه الأحادیث جمیعها تبین الأجر فی الآخرة والمغنم فی الدنیا، فكنی فكنی النبی صلى الله عليه وسلم بقوله: «الخیل معقود فی نواصیها الخیر» عن ثبوت الخیر وملازمته للخیل، والصفة هنا مذكورة بلفظها الصریح، وإنما وقعت الكناية فی نسبتها، وفي عقد الخیر بناصیة الخیل إشارة إلى إقدامهما على العدو، وتظهر بلاغة الكناية فی تصویر فی هذه الصورة الحسیة، علاوة على ما فی اللفظ من البلاغة والعذوبة مع المجانسة بین الخیل والخیر.

¹ - صحیح البخاری، مصدر سابق ، ج3، ص: 1047، رقم الحدیث: 2694

² - المصدر نفسه ، ج3، ص: 1332 ، رقم الحدیث: 2445.

³ - المصدر نفسه ، ج3، ص: 1048، رقم الحدیث: 2696.

⁴ - المصدر نفسه ، ج3، ص: 1048، رقم الحدیث: 2697.

⁵ - المصدر نفسه ، ج3، ص: 1048، رقم الحدیث: 2698.

الباب الثاني: وظائف التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف

الفصل الأول: الوظيفة النفسية، بين الترغيب والترهيب

الفصل الثاني: الوظيفة الأخلاقية والتربوية في الخطاب النبوي الشريف

الفصل الثالث: الوظيفة الدينية في الخطاب النبوي الشر

الفصل الأول: الوظيفة النفسية بين الترغيب والترهيب

**المبحث الأول: أثر الصورة البيانية في الترغيب على فضائل الأعمال في
الخطاب النبوي الشريف**

المبحث الثاني: صورة الترهيب في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: أثر الصورة البيانية في الترغيب على فضائل الأعمال في الخطاب النبوي

المطلب الأول: مفهوم الترغيب .

الترغيب في اللغة: هو تحبيب الشيء والحث على نيته، وهو من رغب يرغبيا، إذ حرص على الشيء وطمع فيه وأراده، ورغب فيه رغبا، وأراده، والرغبة، إرادة الشيء، يقول ابن منظور: «رغب الرَّغْبُ، والرُّغْبُ، والرَّغْبُ، الرغبة، والرَّغْبُوتُ والرُّغْبَى، والرَّغْبَى، والرغباء: الضراعة والمسألة، والمراغب الأطماع»¹

والرغبة: هي إرادة الشيء، يقال: رغبت في الشيء إذا أردته قال تعالى:

﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۖ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۚ ۝٨ ﴾²، ويقال أيضا: رغب عن الشيء، زهد فيه ولم يردده، قال تعالى: ﴿ أَوْ مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٣٠ ﴾³

الترغيب في الاصطلاح: تنوعت عبارة أهل الاختصاص في تعريفه، منها:

أن الترغيب: «هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق»⁴ وعرفه آخر بقوله: «جميع ما يجذب الناس ويدفعهم إلى الإقبال على الدخول في الحق والسير على أساسه والتفاني في سبيل نصرته»⁵.

ويرى آخر بأنه « تحبيب الإنسان في عبادة الله وفعل الخير وعمل الصالحات، ومكارم الأخلاق والقيام بكل ما أمر الله تعالى به وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص: 254-255.

² - سورة الشرح، الآية: 7.

³ - البقرة، الآية: 130.

⁴ - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، دار عمر بن الخطاب، مصر، ط، عام: 1976م، ص: 437.

⁵ - عبد الخالق إبراهيم، الدعوة إلى أصولها ومبادئها، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط1، ص: 1407، ص: 206.

وقيادته إلى ذلك بزمام الرغبة فيما رتب الله على ذلك من حسن الجزاء وجزيل المثوبة في الدنيا والآخرة»¹

ويمكن القول: إن الترغيب وسيلة استرضاء واستعطاف لما لدى الإنسان من طمع بمنافع ولذات وخبرات معجلة أو مؤجلة، فمتى استرضيت النفس بشيء من ذلك سكنت عن الإنسان الصوارف له عن طريق الخير وغدا سهل الانقياد وانفتحت نفسه للإقتناع به والتعلق الشديد بأسبابه²

والأصل في الترغيب أن يكون في نيل رضا الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة وكسب ثوابه ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿ أَفَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَمُمِدِّكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ ﴾³

ولذلك فإنه قد يكون الترغيب بما يصيبه الإنسان في الدنيا من الخير العميم والهداية العامة من أجل الاستقامة في الحياة يقول تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾⁴

وربما يكون الترغيب فيما يناله من النصر والفوز في الدنيا عزة وكرامة، وفي الآخرة فيما عند الله من جنات النعيم، والترغيب يؤثر في النفس وينعكس ذلك على سلوكه في الحياة.

وإذا كان الترغيب في القرآن والحديث النبوي الشريف يكثر فيهما ذكر الجنة والعمل لها، فإننا أيضا نجد في الحديث ما يدعو إلى العبادات والترغيب في فضائل الأعمال، لأن هذه الأمور من السبل التي تؤدي إلى الجنة وهذا ما سيتضح من خلال المطالب التالية،

¹ - يوسف القرضاوي، المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذر، دارا لوفاء للطباعة والنشر، مصر، دون ذكر الطبعة، عام: 1993 م، ص: 9.

² - جابر سالم بن سعيد، الإقناع في التربية الإسلامية، دار الأندلس الخضراء، السعودية، ط2، عام: 1996م، ص: 125.

³ - سورة نوح، الآية : 10، 11، 12.

⁴ - سورة ، النحل ، الآية: 97

المطلب الثاني: أثر الصورة البيانية في الترغيب على أداء العبادات

يرجع أصل العبادات إلى معنى التذلل والخضوع والطاعة، أو هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال، الباطنة والظاهرة، ودين الله: عبادته وطاعته والخضوع له.

والعبادة لا تكون صحيحة كاملة إلا إذا جمعت بين التذلل، وصدق المحبة لله بحيث يكون الله عز وجل أحب إلى العبد من كل شيء سواه، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم¹، والعبادات عند علماء الشرع لها مدلولان خاص وعام.

والمراد بالمدلول الخاص هو المدلول الاصطلاحي وهذا ما ذهب إليه العلماء عند تقسيم الفقه إلى عبادات ومعاملات.

فالعبادات عندهم بهذا المعنى تشمل بعد الإيمان بالله تعالى، الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج بيت الحرام، وغيرها من العبادات.

أما المدلول العام فإنه يشمل كل الفضائل، وجميع الأعمال النافعة التي يقوم بها الإنسان لمعاشه ومعاده لصالحه ولغيره، ولذلك فهي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال².

ولهذا رأينا في هذا المقام التركيز على أهم العبادات من صلاة وزكاة وصوم وحج

¹ - انظر: وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، ط3، عام: 1989م، ج1، ص: 81.

² - انظر: المرجع نفسه، ج1، ص: 81.

أولاً: الترغيب في أداء الصلاة :

الصلاة عماد الدين، وهي الدعاء بخير، قال تعالى: ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾¹ وهي أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

ومن الأحاديث النبوية التي تحبب الصلاة وترغب فيها، ما ورد عن عثمان بن عفان قال: سمعت ر.سول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « من صلى العشاء في جماعة فكأنما أقام نصيف الليل، ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله»²

الحديث يحتاج إلى وقفة تركيز، لأن قوله عليه الصلاة والسلام " من صلى العشاء في جماعة فكأنما قام نصف الليل " شبه في هذه الصورة من صلى العشاء في جماعة، بقيام نصف الليل، وليس بمن قام نصف الليل، وبالنظر إلى المطابقة بين طرفي التشبيه ندرك أن الصورة من التشبيه التمثيلي ، وأما الصورة الثانية فقد جاءت في قوله: " ومن صلى الصبح في جماعة فكأنما صلى الليل كله " والصورة تقارب الأولى، إلا أنه جعل المشبه به صلاة الليل كله.³

إن فضل أداء الصلوات الخمس في جماعة معلوم، بل قد بلغ من الصحابة على المحافظة على صلاة الجماعة أن قاله أحدهم: « ولقد رأيتنا وما يتخلف عن الصلاة إلا منافق قد علم نفاقه، أو مريض، إن كان المريض ليمشي بين رجلين حتى يأتي الصلاة وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم علمنا سنن الهدى، وإن من سنن الهدى الصلاة في المسجد الذي يؤذن »⁴.

¹ - سورة التوبة، الآية: 103

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 454، رقم الحديث: 656،

³ - انظر: عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 94.

⁴ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 453، رقم الحديث: 654

والحديث كما هو واضح يخص صلاة العشاء، وصلاة الصبح، بهذا الفضل العظيم حيث يشبه المصطفى من يؤدي صلاة العشاء في جماعة، بمن قام نصف الليل، ويشبه من يصلي صلاة الصبح في جماعة، بمن قام يصلي الليل كله.

والصورة تظهر فضل صلاة الجماعة، خاصة في صلاتي العشاء والصبح، وهي صورة تدفع على الدوام والاستمرار، لأنها تكسب المؤمن الأجر العظيم والثواب الكبير.

وعلى هذا تكون صورة التشبيه قد ربطت المؤمن بالصلاة من حيث صلاتها في المساجد وجعلت الثواب العظيم لمن يقوم بها مع جماعة المسلمين، وتلك هي الوظيفة الأساسية لهذه الصورة حيث ترغب النفوس على الإقبال على صلوات الجماعة خاصة، لأن فيها الثواب والعطاء وحسن العاقبة، ومن الطبيعي السعي إلى الأفضل والزيادة فيما يحقق نعيم في الآخرة.

ويتضح الترغيب في قوله عليه الصلاة والسلام: «... ولو يعلمون ما في العتمة والصبح لأتوها ولو حبوا»¹ ولفظ حبوا فيه من الإيحاء على أن الأجر في ذلك عظيم، لأن الحبو المشي على اليدين والبطن، حبا الصبي حبوا: مشى على استئه وأسرف بصدرة²

وفي ذلك إيحاء بالإقبال ولو عند عدم القدرة على المشي نظراً للأجر العظيم في هذه الصلاة، صلاة العشاء ، والصبح، أكثر من قيام نصف الليل وأكثر من قيام الليل كله.

وبذلك تكون صورة التشبيه قد أدت الغرض المقصود وهو الحث والترغيب في المحافظة على أداء صلاة في جماعة، وإن يصرح بذلك عليه الصلاة والسلام: " ولو يعلمون ما في العتمة والصبح " من أجر وفوائد تعود على من يحرص على صلاة الجماعة، أكثر بكثير مما صرح به، في الحديث مما يرفع بالمؤمن على الإقبال على صلاة الجماعة حتى يجمع المعلوم وغير المصرح به.

¹ - صحيح مسلم ، مصدر سابق، ج 1، ص:325، رقم الحديث:437.

² - ابن منظور ، لسان العرب، مصدر سابق، ج3، ص:36

فهو يظهر عليه الصلاة والسلام أن صلاة الجمعة مغنم عظيم وثواب كبير وأي عوض، فهي مغفرة له ما بينه وبين الجمعة الأخرى، وفي حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح، فكأنما قرَّبَ بَدَنَهُ، ومن راح في الساعة الثانية، فكأنما قرَّبَ بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة، فكأنما قرَّبَ كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرَّبَ دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حَضَرَتِ الملائكة يستمعون الذكرى».¹

فإذا كان يوم الجمعة تقف الملائكة على باب المساجد يكتبون الأول فالأول، ولكل ثوابه وأجره حسب، إقباله وقدمه إلى المساجد.

فالحديث يبين ذلك من خلال صور متعددة متلاحقة ومتفاوتة في الدلالة على الثواب، فالرسول عليه الصلاة والسلام يظهر هذا التفاوت في الفضل، فأشار إلى فضل المبادر في الساعة الأولى، على المبادر إلى المسجد في الساعة الثانية، كفضل من تصدق ببذنه على من تصدق ببقرة، ثم من جاء في الساعة الثالثة كمن تصدق بكبش أقرن والساعة الرابعة بدجاجة، وأما الساعة الأخيرة كأنما تصدق ببيضة.

هذا التصوير يظهر تباينا وتفاوتا واضحا في الأجر والثواب خاصة بين الساعة الأولى والأخيرة، فالمسافة واسعة وشاسعة بينهما في الفضل مع أنه كان يمكن للنبي صلى الله عليه وسلم الاكتفاء بالساعة الأولى والأخيرة أو بالساعتين الأولى والثانية والساعة الأخيرة، وتفهم الساعات الأخرى ضمناً، لكنه عدل عن هذا النحو المجمل إلى التفصيل؛ لما في التفصيل وإلحاح على التفاوت وبيان له مرة بعد أخرى، ولا يخفى أن في ذلك ترغيباً شديداً في فضيلة السبق وتحصيل الصف الأول والاشتغال بالذكر والتتقل.²

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 301، رقم الحديث: 841.

² - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص: 16.

والملاحظ في التشبيهات السابقة، وفي بنائها اللغوي شيوع البناء الاسمي وغلبة أسلوب الشرط، والسبب في شيوع الجمل الاسمية في التشبيهات السابقة أنها تقدم حقائق ثابتة للمتلقي، وكون التعبير جاء بأسلوب الشرط، لأن عليه الصلاة والسلام لم يكن في أغلب الأحيان يوجه الأمر توجيهاً مباشراً إلى الفرد المسلم بأن يفعل كذا أو يبتعد عن كذا «إنما كان يوضح الحقيقة المجردة، يبين الحكم العام لكي يتيح للإنسان حرية الرأي واستقلال التفكير ليسأل كل فرد عن عمله، ويتيح لكل مرئ مسؤوليته، وأسلوب الشرط من أكثر الأساليب التي تساعد على ذلك»¹ إلى جانب أنها من أكثر الأساليب رغبة وشوق إلى معرفة الجواب وفي ذلك من الترغيب ودعوة إلى الإقبال إلى المساجد خاصة في يوم الجمعة وصلاة الجمعة.

وفي ذلك شوق رغبة إلى الثواب والأجر العظيم، يدفع بالمؤمن إلى الإقبال على المساجد لصلاة والذكر، وثمة الثواب الأعظم والفوز الأكبر.

والدعوة إلى الصلاة والإقبال عليها مغفرة أي مغفرة فهي تغسل الذنوب كل يوم خمساً. «أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول: ذلك يبقى من درنه قالوا: لا يبقى من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا»² صورة تثير انتباه السامعين وتحرك شوقهم، لاسيما وقد اقترنت بالاستفهام التقريري الذي يطلب منهم جوابه ليطيل الشوق ويزيد الانتباه "أرأيتم لو أن نهراً" والمراد أخبروني، وأصل هذا التركيب استفهام عن الرؤية، ثم استعملت الرؤية بمعنى الإخبار، لأنها سبب يؤدي إليه واستعمل الاستفهام بمعنى الأمر فصار المعنى أخبروني من باب المجاز المركب.³

¹ - عودة أبو خليل عودة، بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف، دار البشير، عمان ط1، عام: 1991م، ص: 509.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 197، رقم الحديث: 505.

³ - انظر : كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 156.

ويمكن اعتبار هذا من باب التمهيد بغية إظهار الصورة أمام المتلقى مرئية في بصيرته جاثمة في خياله، ولذلك صاغ الإخبار بهذه الطريقة الفنية، وهو في ذلك يهدف إلى تحريك فكر المتلقي والسامع وإثارة الانتباه والترغيب فيه «فإذا بالقضية قد فكر فيها وحققها فكان الجواب ما تضمنته الاستفهام نفسه وهو الموافقة» لا يبقى من درنه شيئاً " وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد أخرج هذه الصورة الحسية بأقوى تعبير وأجمل أسلوب وكأنه يقول: «الأمر واضح مرئي للعين فأخبروني عما سألتكم، وبذلك أثار الانتباه إثارة عظيمة بهذا الذي يُكْنُهُ ويرمي إليه من ذلك التمهيد»¹.

والذي لاشك فيه أن أسلوب الاستفهام من أقوى وسائل الترغيب الناجحة، وربما كان أقوى في تحقيق الغاية من صيغة الأمر ذاتها، والرسول عليه الصلاة والسلام من جل تحقيق غاية الترغيب في الصلوات والحث عليها في أوقاتها، قدم المشبه به عن المشبه وفي ذلك شد انتباه السامعين وتشوقهم، كما هو واضح من اقتران الاستفهام التقريري الذي يراد منه الجواب، ثم إن هذا التقديم في ذاته يُحدثُ مسرةً وفي ذلك إطالة الشوق وزيادة في الانتباه.²

وأما قوله عله الصلاة والسلام فيمن تطهر واتجه إلى بيت من بيوت الله فله الأجر الكبير، فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تطهر في بيته ثم مشى إلى بيت من بيوت الله، ليقضى فريضة من فرائض الله، كانت خطوتاهُ إحداهما تحط خطيئة والأخر ترفع درجة»³، والخطوة تحط الخطيئة، وترفع درجة، إنها كائن حي مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «... فإذا دخل المسجد كان في الصلاة ما كانت الصلاة هي تحبسه والملائكة يصلون على أحدكم مادام في مجلسه الذي صلى فيه»⁴، وهي أيضا ها هنا كائن حي

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 155.

² - المرجع نفسه، ص: 156.

³ - صحيح مسام، مصدر سابق، ج1، ص: 462، رقم الحديث: 666.

⁴ - صحيح مسلم، ج1، رقم الحديث: 663.

والواضح أن الرسول صلى الله عليه وسلمي فضل في هذا المقام التأثير والترغيب عن طريق التصوير، بالصورة الاستعارية لما لها من قدرة التأثير في النفس، والترغيب في الأجر العظيم، رجل تحط الخطيئة عنه، ورجل ترفع إليه الأجر الكبير.

والصورة البيانية في البيان النبوي الشريف تتحول إلى أمور مرئية تدرك بالبصيرة والبصر مما يدفع بالمرء إلى الاستجابة والإقبال على المساجد.

ثانياً: الترغيب على أداء الزكاة

الزكاة ركن من أركان الإسلام، وهي عبادة مالية، عني النبي صلى الله عليه وسلم بها ودعا إليها، واتفق الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعها، فمن أنكر فرضيتها كفر وارتد، وتجري عليه أحكام المرتدين.¹

وهي تعني في اللغة النمو والزيادة، وتأتي بمعنى الطهارة، وقد تأتي بمعنى المدح وتزكية النفس.² وتأتي بمعنى النفقة وكذلك الصدقة، وفي حديث معاذ بن جبل حين بعثه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، فقال له: «... فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم..»³ وقد حث الشارع عليها ورغب في إخراجها، وحذر من التهاون فيها وجعل منها نوافل كنوافل العبادات تقريباً إلى الله كالصدقة ومساعدة المحتاجين والتبرع في أبواب البر والخير وغير ذلك مما يقرب العبد إلى الله تعالى.

فالزكاة تربية نفسية على البذل والعطاء، والإحساس بحاجة للآخرين، وإيجاد روح التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع، ومحاربة جشع الأغنياء، الذين لا همّ لهم سوى أنفسهم وملذاتهم وفي هذا الإطار جاءت الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف ترغيب في الزكاة، لأنها

¹ - انظر: وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، مرجع سابق، ج2، ص: 734.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج6، ص: 65.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 544، وقم الحديث: 1425.

طهارة النفس من الشح والبخل، ولذلك نجده عليه الصلاة يرغب فيها وفي إخراجها ومن ذلك ماجاء في حديث طويل عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي أبا القاسم

صلى الله عليه وسلم دعاني فأجبتة فقال: «أترى أحدا» فنظرت ما عليّ من الشمس، وأنا أظن أنه يبعثني في حاجة له، فقلت: أراه فقال: «ما يسرني أن لي مثله ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير»¹، والصورة تظهر النفقة في سبيل الله فقد شبه عليه الصلاة والسلام الذهب الكثير بجبل أحد، وهو من أعظم جبال المدينة.

والصورة من تشبيه المحسوس بالمحسوس والغاية منه بيان مقدار الأجر العظيم ، وأنه مهما بلغ الحب للمال، فإن الإنفاق في سبيل الله أعظم منه، وفي ذلك ترغيب على النفقة والصدقة في سبيل الله أعظم منه، ، وقد أقام أسلوبه على التشويق عندما قال: «أترى أحدا» ويمكن القول إنه في مقام التمهيد والتهيئة وإعداد لعرض المعاني التي ستعرض على النفس، وفي ذلك أيضا لفت الانتباه.

أما قوله عليه الصلاة والسلام: فيما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربّيها لصاحبها، كما يربّي أحد قلوة، حتى تكون مثل الجبل»²

والواضح من الصورة أنها تدل على تثمين العمل وتعظيم الأجر وتضعيف ثوابها، أي مضاعفة الثواب وفي ذلك ترغيب على الصدقة وإخراج المال. وفي حديث السبعة الذي يظلم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله قال عليه الصلاة والسلام: «ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»³ والصورة في قوله "لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه " والصورة من مجاز التشبيه فقد شبه اليد اليمنى بإنسان واليد

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 690، رقم الحديث: 992.

² - صحيح البخاري، ج2، ص: 511، رقم الحديث: 1344.

³ - صحيح البخاري، ج2، ص: 235، رقم الحديث: 629.

اليسرى بإنسان آخر وحذف المشبه به، وهو الإنسان وأشار إليه بشيء من لوازمه وهي اليد عل سبيل الاستعارة المكنية.

والملاحظ في هذه الصورة أن اليد كائن حي مستقل فهي تدري وتعرف والرجل الساهر هو الذي يستطيع إخفاء الصدقة عن تلك اليد، فنرى في هذا التصوير دقة وإصابة المعنى في أفضل صورة من صورهِ عليه الصلاة والسلام، صورة ذلك الرجل الذي تصدق بصدقة خفية عن أعين الناس ابتغاء مرضاة الله، فأخفت يده صدقته حتى عن أقرب ما يتصل به ألا وهي شماله، وتلك هي أخلاق المسلم التي يجب أن ينشأ عليها أبناء المجمع الإسلامي.

وصورة الترغيب في هذا الحديث تأتي على وجهين، أحدهما هو الحث على الصدقة والترغيب فيها، والوجه الثاني حرصه عليه الصلاة في دعوته على إخفاء هذه الصدقة رافة ورحمة بالعباد وكرامتهم وهذا يعني الترغيب في الصدقة، وكذلك الترغيب في إخفاء هذه الصدقة حفاظا لكرامة العبد. وفي حديث سمع عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل البخيل والمنفق، كمثّل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق: فلا ينفق إلا سبغت، أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيل: فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يُوسّعها ولا تتسع»¹.

في هذا الحديث يضرب لنا النبي صلى الله عليه وسلم مثلا للبخل والمتصدق فشبههما برجلين عليهما جبتان ، والجبة ثوب مخصوص ، ولا يطلق عليه الدرع، من ثديهما إلى تراقيهما، فجعل المنفق كمن لبس درعا سابغة فلا ينفق إلا سبغت ، وغطت جسمه حتى تخفى بنانه، وبذلك تستر وتستر أثره ، وأما البخيل فقد شبهه برجل غلت يداه إلى عنقه

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 523، رقم الحديث: 1375.

والبخيل إذا حدث نفسه بالصدقة شحت نفسه فضاقت صدره وانقبضت يداه ، وضيق الله عليه وملاً قلبه خوفاً من الفقر ويأساً من الخلف. وأما المتصدق فإنه كلما بسط يده بالخير بسط الله عليه فضله حتى يخلف عليه أضعاف ما ينفق.

وإذا كان عليه الصلاة والسلام تناول في مواضع عديدة الزكاة والنفقات بأنواعها وضرب الأمثلة المتعددة لبيان ذلك، فإنه عليه الصلاة والسلام، بين أن الصدقة لا تصح ولا تكون مثمرة كاملة إلا إذا كانت فائضة عن حاجة معطيها، وحاجة أهله وعياله بحيث أنه إذا أعطاها تظهره غنيا لا يحتاج لأحد أبداً.

ومن ذلك ما سَمِعَ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غني وابدأ بمن تعول»¹

والحديث اتخذ صورة الاستعارة لتعبير وتصوير المعاني التي يهدف إليها وتوضيح الغاية والمقصود لكون الاستعارة وسيلة فنية لها من القدرة على التعبير والتأثير في المتلقي ولها من طاقات فنية وقدرة بيانية تتميز بها، فلا تقتصر مهمتها على نقل اللفظ إلى معنى آخر، فهي تضيف على المعنى قوة ووضوحاً وتعطى المعنى انطباعاً خاصاً من خلال مخاطبة النفس والوجدان والتأثير فيهما مما يحقق الرغبة في الشيء.

والصورة من قبيل الاستعارة المركبة «التمثيلية»، وعليه فإن أطراف هذه الصورة تتكون من:

المستعار منه: خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى.

والمستعار له: الإنسان المؤمن المقتدر الصابر الذي يتصدق، ولا يُتصدق عليه لقناعته وحلمه ورضاه بالقليل، وأما القرينة في ذلك فهي مفهومة من السياق.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 518، رقم الحديث: 1360.

والجامع بين المستعار منه والمستعار له هو قدرة العزيمة والاقتدار والصبر والقناعة، وقد كان عليه الصلاة والسلام يمثل الأسوة الحسنة خاصة في الصدقة في تصدقه ومده يدا العون والمساعدة وكان لا يبقى لنفسه شيئاً وكذلك الصديق وعمر.

فالمؤمن من يتصرف ويساعد الناس على قدر ما يستطيع بحيث يبقى قوي الإرادة والعزيمة لا يهتز إذا نابته نائبة أو أصابته مصيبة.

والحديث في جميع معانيه دعوة وترغيب وتحلي بهذه الصفات الإسلامية وهذه الأخلاق النبوية يقول أبو هلال العسكري عن هذه المعاني العظيمة التي انبثقت من هذه الكلمات القليلة الشريفة التي غدت مثلاً بليغاً وهذا من جماليات الاستعارة التمثيلية التي تحولت مثلاً «من عجائبها أنها مع إيجازها تعمل عمل الإطناب ولها روعة إذا برزت في أثناء الخطاب، والحفظ موكل بما راع من اللفظ ونذر من المعنى»¹ وهذه الصورة الاستعارية النبوية بقدر ما فيها من معان كثيرة بقدر ما تكون سهلة في الحفظ قوية في الإسماع مؤثر في الوجدان ترغب في الصدقة وحب العطاء.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفف والمسألة: «اليد العليا خير من اليد السفلى، فاليد العليا هي المنفقة، والسفلى هي السائلة»²، والصورة في هذا الحديث أيضاً استعارة تمثيلية والتي غدت مثلاً يضرب للإنسان الغني المعطي للصدقة «بحيث تكون يده عالية بالفضل والكرم والجود، وللإنسان الفقير السائل حيث تكون يده السفلى بالحاجة والأخذ»³ فطرفا المكان " العليا والسفلى " الذي جاءت الاستعارة بلفظها «ليس المقصود منها حقيقتها من استعلاء مكانة المعطي العليا فوق مكانة

¹ - هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 1988، ج1، ص: 10.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 519، رقم الحديث: 1362.

³ - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 156.

السائل السفلى، وإنما علاء المجد والكرم يريه الترفع عن المسألة والتعفف عنها فكان المراد أن هذه اليد التي علت وقت العطاء على يد السائل هي العالية في باب الفضل».¹

وعليه تتكون أطراف هذه الاستعارة التمثيلية من: المستعار منه اليد العليا خير من اليد السفلى، و المستعار له الرجل المنفق الكثير الخير والرجل السائل ، والقرينة حالية تفهم من السياق.

وقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم اليد بالذكر، لأن العطاء والأخذ يكونان بها «وللاستعارة دلالات فكرية ونفسية كثيرة، نابعة من خصوصيتها في التعبير عن المعاني، وهذه الدلالات تنبثق من المتضادين العلو، والسفل، فهناك أياد سفلى ولكنها تعلو علوا كبيرا».²

وفي الحديث إشارة إلى عزة المسلم وإبائه وسيادته، لأن الإسلام يكره السؤال ويأباه وينفّر منه، ويرغب في اليد المنفقة على اليد التي تسأل.

وفي الحديث إحياء بالكناية فقد كنى بالعليا عن اليد المعطية، وبلفظ السفلى عن اليد المستعطية، قال: «إنما كنى عليه الصلاة والسلام عن هاتين الحالتين باليدين، لأن الأغلب أن يكون بهما الإعطاء والبذل وبهما القبض والأخذ»³

ثالثا: الترغيب على أداء الصوم

الصوم لغة: الإمساك والكف عن الشيء⁴، يقال: صام عن الكلام، أي: أمسك عنه، يؤكد قوله تعالى إخبارًا عن مريم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾⁵، أي صمتًا وإمساكا.

¹ - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 156.

² - المرجع السابق، ص: 156.

³ - الشريف الرضي، المجازات النبوية، مصدر سابق، ص: 23.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب ، مصدر سابق، ج7، ص: 445.

⁵ - سورة مريم، الآية: 26.

و يعرفه علماء الشرع بقولهم: هو الإمساك نهاراً عن المفطرات بنية من أهله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، أي أن الصوم امتناع فعلي عن شهوتي البطن والفرج، وعن كل شيء حسي يدخل الجوف من دواء ونحوه في زمن معين.¹

فالصوم طاعة لله تعالى يثاب عليها المؤمن ثواباً مفتوحاً لا حد له ،لأنه الله سبحانه وتعالى، وكرمه واسع، ينال به العبد رضوان الله واستحقاق دخوله الجنان من باب خاص أعد للصائمين يقال له :«الريان».

هذه المعاني وغيرها نجدها في التصوير البياني في الحديث النبوي الشريف جميعها تحت على الصيام والإقبال عليه ،لأن الله تعالى هو الذي يجازي العبد على صيامه، ومن ذلك ما جاء عن أبي صالح الزيات، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يَسْخَبْ، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله ،يوم القيامة، من ريح المسك، وللصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه».²

ويظهر من هذا الحديث أن بعضه قدسي، وبعضه نبوي وهو يرغب في الصيام. ففي قوله عليه الصلاة والسلام: «الصيام جنة» صورة يشبه فيها عليه الصلاة والسلام الصيام بالجنة: بضم الجيم، أي السترة ، والمانع ، وقاية، فهو مانع من الرفث والآثام وحماية ووقاية من ارتكاب المعاصي والآثام بحيث يقي الإنسان ويصونه مما قد يكون سبباً في دخوله

¹ - وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي، مرجع سابق، ج2، ص: 566.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 807، رقم الحديث: 1151 مكرر.

النار؛ لأن الإمساك على المعاصي والشهوات سبب في دخول الجنة: قال عليه الصلاة والسلام: «حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»¹

الصيام جنة كما تمنع في الدنيا من ارتكاب المعاصي، فهو أيضا جنة تقي صاحبها من العذاب يوم القيامة فتأكد معنى الصيام بالتكرار وقاية من الاستثارة والوقوع في المعصية.²

والتشبيه بهذه الصورة غاية الروعة والبيان فالنفس تذهب في كل مذهب، فكلما تذكرت معصية حال الصيام بينها وبين المعصية، فهذا وصف عظيم خاصة عند ما ندرك ما بين الصائم والجنة، من تقارب.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك».

فإن في هذا القول أفضلية خلوف الصائم على رائحة المسك «وفي ذلك دلالة على أن طيب الرائحة قد جمع بين المسك وخلفة فم الصائم، وأن ما اتفق الناس على علوه في استطابة النفوس إليه وانشراحها به وأنسها وانتشائها، إنما هو أدنى منزلة في هذا عند الله تعالى من خلفة الصائم، تلك الخلفة التي قد تنفر منها بعض النفوس فتري فيما ما يقبضها ويدخل الوحشة فيها، وفي هذا تعليم للأمة ألا تنتظر في الأشياء على ما يبدو منها ، وإنما تنتظر إلى منازعها ومبعثها والغاية التي رمى بها إليها، فليست العبرة في الإسلام وموازينه بما تحس النفوس وتذكر الحواس من ظواهر الأشياء، بل بما تعيه القلوب وتذكره الأبواب من كنه الأشياء وحقائقها»³

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2174، رقم الحديث: 2822.

² - محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 355.

³ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 164.

ولا يفي أثر هذه المعاني على قلوب من يهوى حب الله في الإقبال على الصيام وقلوبهم راغبة في كرمه عز وجل من الثواب والأجر العظيم.

ومما يدل على أهمية رمضان ما جاء عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستا من شوال، كان كصيام الدهر»¹

صورة من صور الترغيب من خلال الثواب العظيم في صيام رمضان ، ثم ستة أيام من شهر شوال، وهي صورة تظهر أهمية الصيام، فرمضان - مع أنه فرض - بعشرة أشهر، والستة أيام بشهرين، وهذا فضل من الله وكرمه يؤتيه من يشأ والله ذو الفضل العظيم.

وحقيقة العبادات وأندبها في اتباع العبادة تلو العبادة، ما يدل على ذلك صيام رمضان الفرض ثم يتبع بستة من شوال وبذلك تكون العبادة دائمة ومستمرة، عبادة تتبعها عبادة، ففي حديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عبد الله، أَلَمْ أُخَبِّرْ أَنْكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ، فَقُلْتَ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: فَلَا تَقْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنْ لَجَسَدَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لَعَيْنَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لَزَوْجَكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنْ بِحَسَبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنْ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَةٌ أَمْثَالُهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامَ الدَّهْرِ كُلِّهِ، فَشَدَّدْتَ فَشَدَّدَ عَلَيَّ، قُلْتَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً؟، قَالَ: فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ، قُلْتَ: وَمَا كَانَ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟، قَالَ: " نَصَفَ الدَّهْرَ، فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبُرَ: يَا لَيْتَنِي قَبِلْتُ رَخْصَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" ²، ففي قوله عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنهما: " فَإِنْ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَةٌ أَمْثَالُهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامَ الدَّهْرِ كُلِّهِ " فهي صورة ترغب في الصيام وتحث عليه.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 822، رقم الحديث: 1164.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 697، رقم الحديث: 1874.

والذي لاشك فيه أن اللفظ المجرد لا يحدث في النفس ما تحدثه الصورة البيانية من تأثير وترغيب، لأن طبيعة الصورة البيانية تقوم على الأسلوب غير المباشر مما يساعد على إثارة الشوق لدى الإنسان، وهذه الرغبة تدفع بالإنسان إلى الصيام والإقبال عليه، لأن طبيعة الثواب والأجر يتضاعف الواحدة بعشرة أمثالها وهذا يدفع إلى العمل وبذل الجهد في الطاعات والعبادات خاصة الصيام.

وطبيعة صورة التشبيه في أغلب النماذج السابقة تميل إلى الجانب الحسي، لأن ميل النفس إلى هذا الجانب الحسي كان أكثر من المعرفة الفكرية.¹

ومن الصور التي تخاطب الفطرة الإنسانية وما فيها من طاقة نفسية ووجدانية خاصة عندما تقوم الصورة على أمور غيبية، غير أنها تكاد تكون ملموسة حسية لكون الخيال الإنساني يطوف حولها ونفوس المؤمنين تتوق إليها مثل الجنة التي تفتح أبوابها في شهر رمضان. عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة»² وقد تأتي لفظ الشهر دلالة على رمضان، ومن ذلك ما جاء أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل شهر رمضان فُتحت أبواب السماء، وغُلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين»³.

وإذا نظرنا إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا جاء رمضان» نلاحظ أن طبيعة المجيء هو الإتيان عادة يستعمل على حقيقته للأشياء المحسوسة التي تتسم بصفة الذهاب والمجيء. «يقال: جاء جيئاً ومجيئاً. جاء يجيء جيئةً تقول: جئت مجيئاً حسناً، وإنه لحسن الجيئة»⁴.

¹ - انظر: عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم دار فُصِّلَتْ للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط1، سنة: 2001م، ص: 427-428.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 671، رقم الحديث: 1799.

³ - المصدر نفسه، ج2، ص: 672، رقم الحديث: 1800.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج2، ص: 431.

ويستعمل المجاز للأشياء المعقولة كما قال الزمخشري: سألت جَائِيَةَ الْقَرْحَةِ وهي ما يجيء من مدتها، وجاء ربك¹ وعلى هذا تتكون صورة استعارة من أطراف هي: المستعار منه: الشخص العزيز المبارك الذي يكون لمجيئه وحضوره بين المؤمنين هيبة ووقار وأمن وهو محسوس وقد حذف وبقي شيء من لوازمه وهو المجيء، والمستعار له: رمضان وهو أمر معقول. أما الجامع بين المستعار له والمستعار منه، فهو ما يترتب على مجيئه من خير واحترام وطاعة عظيمة.

ولذلك يمكن القول أن الرسول عليه الصلاة والسلام شبه مجيء شهر رمضان بمجيء شخص عزيز مبارك له من الأهمية العظيمة والوقار يحبه الجميع ويجله و يستعد له بالصبر والصيام والقيام.

والوظيفة النفسية التي حققتها هذه الصورة الاستعارية، هي الترغيب والاستعداد لاستقبال هذا الضيف الكريم، الاستعداد له من خلال الصيام والعبادات والطاعات.

فالاستعارة شخصت هذا الأمر المعنوي وجعلته كائنا حيا عزيزا يستقبل بالفرحة «فهذه الصورة التي كونتها الاستعارة المكنية لرمضان والتي تتسم بالحركة والحياة تزيد من قوة الانفعال النفسي مع أجوائه الطاهرة فهو مبشرٌ للمؤمنين بالجنة، ومبشر للكفار بالنار، وجعلت رمضان كأنه شخص مبارك حاضر بين المؤمنين يحثهم ويلهمهم على الصبر والطاعات»²

ومما يزيد الترغيب في هذا الضيف العزيز أنه يحمل إلى المؤمنين بشائر لا تكون إلا فيه، وفيه تفتح أبواب الجنة

تفتح أبواب الجنة. وهنا تكمن عظمة هذا الشهر ففي قوله: «فتحت أبواب الجنة» كناية والأمر يحتمل أن يكون حقيقة أو مجازيا: «والمراد من فتح الجنة حقيقة الفتح، وذهب

¹ - انظر: الزمخشري، أساس البلاغة، مصدر سابق، ص: 161.

² محمد علي إبراهيم حسين الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 111

بعضهم إلى أن المراد بفتح أبواب الجنة كثرة الطاعات في شهر رمضان فإنها موصلة إلى الجنة فكفى بها على ذلك ويقال: المراد به ما فتح الله على العباد فيه من الأعمال المستوجبة بها إلى الجنة من الصيام والصلاة والتلاوة وأن الطريق إلى الجنة في رمضان سهل والأعمال فيه أسرع إلى القبول»¹

ومهما كان الأمر فإن شهر رمضان من مواسم الخير والغفران، ففيه عبادة الصوم وفيه ليلة القدر أشرف ليالي العام، ومن فضله كما في هذا الحديث أنه إذا دخل الشهر فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين، أي منعت من الوصول إلى بغيتها من إفساد المسلمين بالقدر الذي كانت تفعله في غير رمضان، إلى جانب أن الله خص هذا الشهر بتنزل الرحمات والغفران.

« ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو، وأن الشياطين يقل إغوائهم فيصيرون كالمصفيين: ويحتمل أن يكون فتح أبواب الجنة عبارة عما يفتحه الله لعباده من الطاعات وذلك أسباب لدخول الجنة وغلقت أبواب النار عبارة عن صرف الهم عن المعاصي والآلية بأصحابها إلى النار، وتصفيد الشياطين عبارة عن تعجيزهم عن الإغواء وتزيين الشهوات»²

وأما الرواية الثانية التي فيها فتح أبواب السماء فتح أبواب السماء فإنه كناية عن تنزل الرحمة وإزالة الغلق عن مصاعد أعمال العباد تارة ببذل التوفيق، وأخرى بحسن القبول، وغلقت أبواب جهنم كناية عن تنزه أنفس الصوام عن رجس الفواحش والتخلص من البواعث عن المعاصي بقمع الشهوات، وقال الطيبي: «فائدة فتح أبواب السماء توقيف الملائكة على استحسان فعل الصائمين وأنه من الله بمنزلة عظيمة»³

¹ -العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج10، ص: 266.

² - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 114.

³ - المصدر نفسه، ج4، ص: 114.

ولذلك فإن فتح أبواب السماء هو فتح للغفران والبركة وفتح الأعمال المستوجبة بها الدخول إلى الجنان وهي العبادات التي تكثر في شهر رمضان وجميع هذه الأمور مما تهفو إليه النفوس وترغب فيه القلوب، والترغيب أسلوب يهذب النفس ويصقلها ويوجهها إلى فضائل الأعمال والعبادات مثل الصيام.

رابعاً: الترغيب على أداء فريضة الحج

ومن أهم العبادات التي تناولها البيان النبوي الشريف الحج، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام فرضه الله تعالى في أواخر سنة تسع من الهجرة وآية، فقد فرضه بقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾¹ قيل نزلت الآية عام الوفود، وهو رأى العلماء، ولم يؤخر عليه الصلاة والسلام الحج بعد فرضه عاما واحداً.²

والحج فريضة عظيمة، عمودها يوم عرفة، وقد ورد الحج إلى جانب الأماكن المقدسة في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي أحاديث تقوم على قدر كبير من التصوير البياني، من أجل إجلاء المعاني والترغيب فيها، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من حج لله، فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه».³

يقول العسقلاني: «قوله: "رجع كيوم ولدته أمه" أي بغير ذنب وظاهره غفران الصغائر والكبائر والتبعات، قال الطيبي، الفاء في قولهم "فلم يرفث" معطوف على الشرط وجوابه رجع أي صار، والجار والمجرور خبر له ويجوز أن يكون حالا، أي صار مشابهاً لنفسه في البراءة عن الذنوب في يوم ولدته أمه»⁴

¹ - سورة آل عمران، الآية 97.

² - وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي، مرجع سابق، ج3، ص: 52.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 553، رقم الحديث: 1449.

⁴ - العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 383.

والحديث من أوله يقوم على الترغيب، وهو حديث الأمل للإنسان الباعث على السرور والفرحة، لأنه النجاة من العذاب وميلاد جديد لحياة جديدة خالية من المعاصي سواء كانت صغيرة أو كانت كبيرة.

ولأجل ذلك فإننا أمام صورة من التمثيل النبوي وهي صورة كلية تقوم على حركة الزمان وهي تتحول وترجع إلى الوراء في حركة ثانية يكون فيها محو لكل الماضي وأخطأ السنن التي يدل عليها الفعل " رجع " إلى الماضي، وهنا يكمن طرف المشبه، ثم تظهر صورة أخرى يظهر فيها وليد جديد يستقبل لحينه الحياة ، خارجاً من رحم أمه المرتبطة به الحانية عليه، صورة مولود لم يكتسب بعد إثماً ولا ذنباً، تشبيهه باعث على الأمل والبهجة والفرحة، انفتاح باب الرجاء والأمل، في ميلاد ثان جديد، لأن أمره بيد الله سبحانه وتعالى، ففي " رجع " إعلان ووعد بغفران الذنوب جميعاً غفران الصغائر والكبائر والتبعات.¹

والحديث في بنائه يقوم على جملة الشرط من جزأين متصلين يربط بينهما اسم الشرط العام الجامع "من" وهو الصالح في إطلاقه على الأفراد والجماعات من الجنسين جميعاً.²

والملاحظة الثانية أن جملة الشرط «قد بدأت بالفعل الماضي " حج " المنبئ عن توكيد تام فعل الحج، وهو صالح للاستقبال المعطوف عليه في جملتي "لم يرفث" و"ولم يفسق" بفعليهما المضارعين»³ ثم أن شبه الجملة من الجار والمجرور في "الله" وهو قيد في غاية من الأهمية «وهو قيد في غاية الخطر، إذ الميلاد الجديد قرين الإخلاص، وقصد الله سبحانه بالعبادات»⁴

¹ - العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 383.

² - انظر: خالد فهمي إبراهيم، تطبيقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، سنة: 2013، ص: 145.

³ - المصدر نفسه، ص: 145.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 125.

وأما الجزء الثاني من الحديث ففيه استثمار للفعل الماضي "رجع" و "ولدت" ليعتد في نفوس الحاجين غير الملبسين لرفث ولا فسق اطمئنانا وبقينا في الخلوص من الذنوب جميعا، والانتقال إلى اليوم الجديد والصفحة البيضاء، لأن الماضي بجمعة دليل اليقين المستقبل.

ثم إن الجزء الثاني جاء خال من القيود التي أثقلت الجزء الأول، من الحديث وعدم وجود القيود دليل على انفتاح باب والرجاء في الميلاد الجديد وهذه الأمور جميعها تدعو إلى الحج وترغب فيه، لأنه الأمل والنجاة من العذاب.

ولذلك فإن الصورة البيانية في هذا الحديث توحى بتعلق نفس العابدين بمقاصد العبادات خاصة فريضة الحج، يريد من الحاجين ألا يتورطوا في أي نوع من أنواع الفحش، ولا في أي نوع من المعصية، إذ الرفث في الحديث عام جامع لكل فحش.

وفي الحديث كنايات متراكبة خلقت جوا من «البيان المكتنز الذي أحال اللغة وسيلة وغاية جمالية معا، ففي "لم يرفث" كناية عن طهارة سابغة، وفي "لم يفسق" كناية عن الترقى في مدارج الملائكة، وفي "ولدت أمه" كناية عن الميلاد الجديد غير المكتسب إثما، وكناية عن البهجة وكناية عن الرزق، والكفالة في حضن الأم»¹

وأخيرا فإن الحديث آية في الترغيب والحث على الحج فهو باب الأمل إذا تعلق العبد بما افترضه الله تعالى عليه.

ومهما كان الأمر فإنه ينبغي على المرء أن يقيم حياته الجديدة القادمة على غير الذي كان عليه، وكأن الله عز وجل يعطيه فرصة ليضع حياته على غير ما كان عليه من قبل ولا يتم له ذلك إلا الحج.

¹ - خالد فهمي إبراهيم، تطبيقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية، المرجع سابق، ص: 147.

وفي حديث عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما جعل الطواف بالكعبة، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار، لإقامة ذكر الله عز وجل»¹، الطواف صلاة وذكر، والسعي بين الصفا والمروة عبادة حركية وقولية، وكذا رمي الجمار نشاط إيماني وإظهار للعزيمة في مواجهة كيد الشيطان، إنما يندحر الشيطان بذكر الله ويصغر عندما يرى المسلم ذاكر الله، والذكر يكون في كل مناسك الحج، منذ دخوله الحرم الشريف، وفي الطواف، وفي السعي يذكر ويدعو في صعيد عرفات، يذكر ويدعو في مشعر منى، يواصل الدعاء هكذا الحج.²

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: لإقامة ذكر الله، كناية من اتحاد المقاصد في أعمال الحج، فالطواف والسعي والرمي اجتمعت على كونها ذكراً لله تعالى، والجديد في كلمة "إقامة" التي توحى بوجود مستويات للذكر وتفاضل الحجيج في ذلك على قدر إخلاصهم في الذكر والتسبيح والتكبير في أثناء الحج.

والقائمة أيضاً توحى أن الحاج في حالة جهاد ومتابعة على الذكر حتى يقيم العبادات الحركية على أخير وجه .

أما في قوله عليه الصلاة والسلام "رمي الجمارات كناية عن رمي الحصى الصغير الذي يكون سبعا صباح يوم النحر والتي يرميها الحاج وهو يقول: الله أكبر.

ومهما كان الأمر فإن الحج يكفر عن الذنوب ويطهر النفس من شوائب المعاصي، وجزاء الحاج لا يتوقف على غفران الذنوب فقط، وإنما يدخل الجنة من لم يرفث ولم يفسق.

¹ - مسند الإمام أحمد، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 2008م، ج10، ص: 129، رقم الحديث: 25202.

² - أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1، عام: 2013م، ص: 195.

وفي حديث آخر عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، قيل: وما برّه؟ قال «إطعام الطعام، وطيب الكلام وإفشاء السلام»¹

والحديث يرغب في الحج، لأن الحج المبرور إن أدّاه الحاج على أتم وجه واجتهد في بلوغ المراد في المناسك، ولم وقع في لغو، ولا إثم، ولا فسق، كان من أهل الجنة.

والصور البيانية من الكناية ففي قوله: «إطعام الطعام» كناية عن ذبح الهدى والتصدق على الفقراء، أما طيب الكلام، كناية عن ذكر وحمد وشكر الله، وأما قوله "إفشاء السلام"، فهو كناية عن التحاب والتآخي بين المسلمين وترغيب المودة بينهم.

¹ - مسند الإمام أحمد، مصدر سابق، ج6، ص: 130، رقم الحديث: 14956.

المطلب الثالث: أثر الصورة البيانية في الترغيب على فضائل الأعمال

لقد منَّ الله على هذه الأمة أن بعث الله فيها نبيا خاتم النبيين، محمد صلى الله عليه وسلم، وأنزل عليه شريعة هي خاتمة الشرائع وجعلها كاملة شاملة: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾¹ وقال تعالى أيضا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾².

لقد اهتم الإسلام بجميع مناحي الحياة الدنيا والآخرة، وعلم المؤمنين حقيقة لا إله إلا الله، فكانت منهجا للبشرية جمعاء، هذا المنهج يقوم على فضائل كثيرة ومتعددة ومتنوعة، ومن الصعب على بحث أن يجمعها، لذلك رأينا في هذا المقام الوقوف عند بعض هذه الفضائل والأعمال التي نعتقد أنها من أجل الأعمال التي وردت في الحديث النبوي الشريف.

والفضائل في اللغة: جمع، مفردة فضيلة، وهي الدرجة الرفيعة في الفضل، والفاضلة الاسم من ذلك، والفضال والتفاضل: التمازي في الفضل. وفضله: مرآه، والتفاضل بين القوم: أن يكون بعضهم أفضل من بعض³ ومنه قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا قَاصِيًا﴾⁴.

ولذلك فإن من الأعمال والأفعال ما يحبه الله تعالى ويحث على القيام بها والسعي إليها والاجتهاد في طلبها، ومن دعاء داود عليه السلام قوله: «اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي ومن الماء البارد»⁵.

¹ - سورة المائدة، الآية: 3.

² - سورة النحل، الآية: 89.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج 10، ص: 280.

⁴ - سورة الإسراء، الآية: 70.

⁵ - محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، تحقيق: زهير الساويش المكتب الإسلامي، بيروت،

ط2، سنة: 1408، ج6، ص: 7، رقم الحديث: 3670.

ومن رحمته تعالى وحكمته أن جعل لكل غاية يحبها ويرضاها وسيلة توصل إليها، وقد جعل الله تعالى أشرف الغايات وأعلاها - القرب منه وبلوغ مرضاته - وجعل لها وسائل وسبل تحقق ذلك، فقد سئل عليه الصلاة والسلام عن فضائل الأعمال، أي الأعمال؟ أفضل؟ قال: «الإيمان بالله، ثم قال: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور»¹.

والملاحظ في الحديث أنه حصر أفضل الأعمال فيما هو قول، وفعل.

ونحن سنحاول إن شاء الله الوقوف عند بعض هذه الأعمال والأقوال فيما ورد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحت و ترغب في هذه الفضائل من خلال التصوير البياني، وأول هذه الفضائل قراءة القرآن الكريم.

أولاً: ترغيب في قراءة القرآن

من الفضائل التي بدأ الإسلام بالدعوة إليها القراءة، فكان أول ما بدأ به الوحي قوله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝۱ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝۲ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝۳ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝۴﴾² وقوله تعالى عندما أقسم بالقلم الذي يكتب به الناس، والقلم أخو اللسان: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝۱﴾³ أي: أقسم بالقلم وما يكتبه الكاتبون على صدق محمد صلى الله عليه وسلم.⁴

لأن القراءة والكتابة من أهم الوسائل لاكتساب المعارف والعلوم، وأعظمها، لذلك نجده صلى الله عليه وسلم يحث على قراءة القرآن الكريم وتدبره، في أحاديث كثيرة يبين فيها فضائل قارئ القرآن على غيره، ويرغب في قراءته، ومن هذه الأحاديث ما جاء عن أبي

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص:88، رقم الحديث:83.

² - سورة العلق، الآيات: 1-2-3-4.

³ - سورة القلم، الآية: 1.

⁴ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج3، ص: 424.

موسى الأشعري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجة ريحها طيب، وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة، لا ريح لها، وطعمها حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن، مثل الريحانة، ريحها طيب، وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن، كمثل الحنظلة، ليس لها ريح وطعمها مر»¹.

والملاحظ في هذا الحديث أن المسلمين قسمان: مسلمون صادقون بإسلامهم وهم المؤمنون، ومسلمون كاذبون بإسلامهم وهم المنافقون، وكل من هذين القسمين إما قارئ للقرآن، أو غير قارئ له، وبذلك تكون الأقسام في هذا الحديث النبوي الشريف أربعة أقسام.

ثم أنه عليه الصلاة والسلام أقامه على ثنائية التقابل بين الأضداد في قراءة القرآن، بين المؤمن الذي يقرأ، والذي لا يقرأ، وبين المنافق الذي يقرأ، والذي لا يقرأ، ثم يقيم الثنائية الكبرى، بين المؤمن الذي يقرأ القرآن والذي لا يقرأ القرآن، وبين المنافق الذي يقرأ القرآن والمنافق الذي لا يقرأ القرآن وذلك من خلال عطف جمل المنافق على جمل المؤمن بواو العطف.

وكانت بدايته عليه الصلاة والسلام بالمؤمن، ثم المنافق وفي ذلك إشارة وتنبه على فضل المؤمن، وعلو مكانته ومنزلته، وفي ذلك ترغيب في قراءة القرآن وتدبر معانيه، ثم أشار بعد ذلك إلى المنافق وفي ذلك التأخير دلالة على تدني حاله ومنزلته.

فقد جعل المؤمن الذي يقرأ القرآن في صدر التمثيل، لأنه الأحق بالتقديم وشبهه بالأترجة ريحها طيب وطعمها طيب وفي ذلك ترغيب في قراءة القرآن؛ لأن الأترجة «أفضل ما يوجد من الثمار في سائر البلدان وأجدى لأسباب كثيرة جامعة للصفات المطلوبة منها والخواص الموجودة فيها فمن ذلك كبرها وحسن منظرها وطيب مطعمها ولين ملمسها تأخذ الأبصار صبغة ولونا، فاقع لونها تسر الناظرين تتوق إليها النفس قبل التناول، تفيد أكلها بعد الالتذاذ بنوقها طيب نكهة ودباغ معدة وهضم، واشتراك الحواس الأربع، البصر والذوق

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2070، رقم الحديث: 5111.

والشم واللمس في الاحتذاء بها، ثم إن أجزاءها تنقسم على طبائع قشرها حار يابس، ولحمها حار رطب، وحماضها بارد يابس»¹ ويررها حار مجفف، وفيها من المنافع ما هو مذكور.

ومن هنا تتضح رؤية الترغيب في قراءة القرآن الكريم من خلال تشبه المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة في طيب الباطن وطيب الظاهر، لكونه يحوي في باطنه جوهرة الإيمان، إلى جانب أنه ينفح بقراءته للقرآن عطر المعرفة وشذا التلاوة، فهو طيب الظاهر إلى جانب أن الأترجة طيبة الباطن إذا شق عن باطنها وطُعم لبّها وطيبة الظاهر، لأن قشرتها تتفح بعطر زكي.²

والصورة الثانية تتمثل في المؤمن الذي لا يقرأ القرآن، فهو مثل التمرة، جمع طيب الباطن، لأن الإيمان يملأ قلبه، وأما في الظاهر فإن التمر لا ربح له فقد خسر هذا الجانب لعدم قراءته القرآن، خسر نفحات زكيات كان من الممكن لو قرأ القرآن أن تتضرع منه.

وأما الصورة الثالثة فهي صورة المنافق الذي يقرأ القرآن، إلا أن باطنه خال من الإيمان فقد شبهه عليه الصلاة والسلام بالريحانة طيبة الرائحة إلا أن طعمها مر فذلك المنافق.

وأما الصورة الأخيرة فهي صورة المنافق الذي لا قرأ القرآن فقد خسر كل شيء الباطن والظاهر، لذلك شبهه عليه الصلاة والسلام بالحنظلة ليس في ظاهرها رائحة وطعمها مر مثل العلقم، ولذلك فإنه عليه الصلاة والسلام يرغب في قراءة القرآن ويحث عليه من خلال هذا الحديث الذي يبين فيه الرسول صلى الله عليه وسلم «فضل قارئ القرآن على غيره، في صورة تشبيهات بأمور محسة ويقسم فيها المسلمون إلى أربعة أقسام يشبه كل قسم بثمر من ثمرات الأشجار مناسبة له، مأخوذة من واقع البيئة العربية»³

¹ - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج20، ص: 38.

² - انظر: عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني، روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص: 95.

³ - المرجع نفسه ، ص: 95.

ويكن لنا القول إن الصورة البيانية أظهرت فضل قارئ القرآن على غيره وحثت على قراءته ورغبت فيه من خلال هذا الفضل العظيم للقراءة، ومثل هذا التصوير يحدث أثرا في نفس المتلقي والسامع، لأن القراءة تمثل مظهرا من مظاهر فضائل الأعمال و حلاوتها

ومن صور الترغيب في حفظ القرآن الكريم ما جاء عن زيد، أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني أبو أمامة الباهلي: قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه، اقرأوا الزهراوين، البقرة وسورة آل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»¹ قال معاوية: بلغني أن البطلة السحرة وفي رواية ثانية عن جبير بن نفير قال: سمعت النّوّاس بن سمعان الكلابي يقول: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران، وضرب لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث أمثال ما نسيتهن بعد، قال: «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان، بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف تحاجان عن صاحبهما»²

فإذا كان الترغيب في بعض الأحاديث يقوم على التقابل بين صورتين فيهما ترغيب وترهيب فإن هذا الحديث يقوم على صورة واحدة غايتها الترغيب في قراءة القرآن خاصة سورة البقرة وآل عمران «الزهراوين»، لأن القرآن يأتي يوم القيامة شفيعا لأصحابه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى بقلب سليم.

وفي الرواية الثانية أن الذين يستحقون الشفاعة يوم القيامة هم الذين لا يكتفون بمجرد القراءة، بل القراءة وتدبر معانيه ويعلمون بما فيه " يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 553، رقم الحديث: 804.

² - مصدر نفسه، ج1، 554، رقم الحديث: 805.

يعلمون به " ثم بعد ذلك خص سورتي البقرة وآل عمران دون غيرهما بفضيلة فيها دعوة إلى الإكثار من قراءتهما وتدبرهما، والعمل بما فيهما سميتا الزهراوين لما فيهما من نور أو لنورهما وهدايتهما وعظيم أجرهما.

ثم ضرب لهما ثلاثة أمثال في مجيئهما يوم القيامة تحاجان عن صاحبهما: كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما ظلتان سوداوان.

والمشبه في هذه الصورة سورة البقرة وآل عمران، المشبه به متعدد ففي بداية الأمر كأنهما غمامتان، ثم كأنهما غيايتان، ثم كأنهما ظلتان سودوان، والمعنى متقارب بين الروايتين كأنهما فرقان من طير صراف أو كأنهما حزقان من طير صواف.¹

تصوير يظهر فضل هاتين السورتين الكريمتين، لما فيهما من صور غيبية تقرر فضل قراءة القرآن الكريم وترغيب في الإقبال عليه، لأن يوم القيامة المرء فيه يحتاج إلى شفيع، لذلك جاء الترغيب قراءة القرآن، لأن أصحاب القرآن الذين يكون لهم مثل هذا الفضل العظيم هم الذين يعملون به لأن التلاوة قد لا تكفى إن لم يكن هناك عمل

ولعل أن تعدد المشبه به لمشبه واحد جاء نتيجة اختلاف حال القراء فطائفة تكون السورتان غيايتين، وطائفة ثانية تكونان لهما ظلتين، وثالثة تكونان لهما فرقين. فالناس ليسوا على درجة سواء في القراءة والتدبر فحال السورتين مع كل مختلف.

ثم أن فهم القرآن وتدبره هو الذي يثمر الإيمان، وأما مجرد التلاوة من غير فهم ولا تدبر، فإن ذلك يفعله الجميع، حتى الفاجر، والمنافق. واختصاص سورة البقرة وآل عمران دون سواهما من سور القرآن، إشارة واضحة إلى ما فيهما من حماية للعقيدة من الزيغ والضلال، إلى جانب بناء الإنسان المسلم على أساس سليم ومتمين، وأن دورهما في هذا التصوير البياني يشبه الغاية في التظليل والحماية من وقع سهام الشمس الحارقة.

¹ - انظر : فالح احمد حمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 138.

وفي حديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: " الحال المرتحل" قال: يا رسول الله من الحال المرتحل؟ قال: «صاحب القرآن يضرب في أوله حتى يبلغ آخره، وفي آخره حتى يبلغ أوله».¹

وذلك ترغيب في استمرار تلاوته القرآن والمداومة عليه وتعهده، لسرعة نسيانه، ولا سبيل لتثبيته إلا بالقراءة الدائمة حتى يعيش المؤمن في رحاب القرآن ينعم بظلاله ويرتشف من رحيقه تلاوة وتدبرًا واستمتاعًا وفهما.

والحديث دعوة إلى الاستمرار في تلاوة القرآن الكريم وترغيب فيه فقله "يضرب في أوله حتى يبلغ آخره، وفي آخره حتى يبلغ أوله" والكلام فيه مجاز، فالضرب هنا ليس المراد منه إصابة الشيء وتحركه، إنما هو تصوير بالاستعارة الدالة على مداومة القراءة، ويزداد المعنى بهذه المقابلة "يضرب في أوله حتى يبلغ آخره" وكذلك قوله "وفي آخره حتى يبلغ أوله".

وعند الجمع بين الاستعارة والمقابلة تتضح لنا بلاغته عليه الصلاة والسلام ومدى دعوته في ترغيب قراءة القرآن الكريم، فهو أرض نفيسة يضرب فيها صاحبها ما يكاد يبلغ آخرها حتى يجد نفسه في أولها ، وبذلك فهو في عمل متواصل ومداومة اغتنام لأوجه الخير ، لا يشبع من خيره، إنما فهو في شوق مستمر إلى فيضه ونوره.

¹ - الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، دون ذكر السنة ج12، ص:

118، رقم الحديث: 12783.

ثانيا: الترغيب في العلم وفي تعليمه

يقول تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾¹، ومن صفات الله عز وجل العليم والعالم والعلّام ويقول تعالى ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾².

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾³ فهو الله العالم بما كان وما يكون قبل كونه، وبما يكون ولما يكن بعد قبل أن يكون⁴ ولفظ العلم « نقيض الجهل، عِلْمٌ عِلْمًا وَعِلْمٌ هو نفسه، ورجل عالم وعليم من قوم علماء جميعًا فيهما، قال سيبويه: يقول، علماء من لا يقول إلا عالمًا، قال ابن جني: لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزولة له وطول الملابس صار كأنه غريزة، ولم يكن على أول دخول فيه، ولو كان كذلك لكان متعلما لا عالمًا، قال ابن بري: وتقول عِلْمٌ وَفَقَةٌ: أي تعلّم وتفقه، وعِلْمٌ وفقه أي ساد العلماء والفقهاء»⁵.

وفي الاصطلاح: قال بعض أهل العلم، هو المعرفة، وهو ضد الجهل، وقال آخرون: إن العلم أوضح من أن يعرف.

ونحن نسعى إلى الوقوف عند الرؤية النبوية الشريفة في توصيف العلم والترغيب فيه، وقد وجدنا أحاديث كثيرة تحت على العلم وترغب فيه بالأسلوب المباشر، أو عن طريق التصوير البياني، ومنها التي ترغب في العلم وتحت عليه كقوله عليه الصلاة والسلام: « وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقا يطلب به علما سهل الله له طريقا إلى الجنة »⁶ و قوله عليه الصلاة والسلام: « من يرد الله به

¹ - سورة المجادلة، الآية: 11.

² - سورة الأنعام، الآية: 73.

³ - سورة يس، الآية: 81.

⁴ - ابن منظور ، لسان العرب، مصدر سابق ، ج 9 ، ص: 370

⁵ - المصدر نفسه ، ج 9، ص: 370.

⁶ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، 37، رقم الحديث: 67.

خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله».¹

و العلم من أفضل الأعمال، لأنه نوع من الجهاد في سبيل الله، خاصة إذا قام على الحجة والبرهان.

ولهذا رأينا الوقوف عند بعض هذه الأحاديث النبوية التي ترغب في تحصيل العلم وتحت عليه، إلى جانب إظهار فضل العلماء وبيان منزلتهم ومكانتهم عند الله عز وجل، وهي جميعها تدل على عناية نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بالعلم والعلماء، أحاديث حفلت بالأساليب البيانية التي تساعد على الترغيب العلم ودراسته،

إلى جانب إظهار المنهج النبوي الشريف في توجيه الأمة وإعدادها للقيام بالدور الكوني الأعظم والأضخم، ومن هذه الصور صورة العلماء ومكانتهم عند الله عز وجل، يقول عليه الصلاة والسلام في حديث عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بيننا أنا نائم، أتيت بقدر لبن، فشربت حتى إنني لأرى الرّي يخرج في أظفاري، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: "العلم"».²

بهذا الحديث يفتح الإسلام طريقًا جديدة لإعادة الاعتبار إلى العلم ويرغب فيه لكونه خير وافر، ونفع يعم الناس عامة. خاصة، وربما كانت الثقافات السابقة ترى في العلم بابًا مفتوحًا على الأحزان³، و الحديث أعاد للعلم مكانته وفضله، حيث لا يرى فيه سلبية في الزيادة منه. لذلك نجد الإمام البخاري يضع هذا الحديث تحت باب «فضل العلم» ولأجل ذلك يوظف عليه الصلاة والسلام جملة من الأساليب البلاغية بغية تحقيق الوظيفة منه، فقد

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 39، رقم الحديث: 71.

² - المصدر نفسه، ج1، ص: 43، رقم الحديث: 82.

³ - انظر: خالد فهمي إبراهيم، تطبيقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 57.

صمم الحديث في صورة تمثيلية كلية مكونة من عنصرين ظاهرين هما: النور الغامر المستفاد من العلم، في مواجهة الجهل المطبق المستفاد من ظلام الليل والمنام.

والرسول عليه الصلاة والسلام كان شديد الحرص على تجسيد المعاني المعنوية في صورة حسية وذلك من أجل تيسير الفهم وإدراك الغاية، وهذا واضح من خلال تصوير العلم في صورة اللب، وهي صورة تشبيه يعتمد على نقل كل الفوائد ومنافع اللب إلى العلم، مما يجعل العلم فعلاً غذاء نافع، لا يمكن للإنسان الاستغناء عنه والصفة الجامعة بين الطرفين تدل على اشتراكهما في كثير من المنافع، وهذا ما يجعل المعنى في الحديث مكتنزا وافرا غنيا تتزاحم فيه المعاني مما يجعل الحقيقة التي يتناولها الحديث يقيناً إلى جانب «أن الحديث مجموعة من الملامح المهمة المخدمة لغويا وبلاغيا فالحديث يقرر أن التوسع في طلب العلم وتحصيله نافع جداً في متانة البناء الإنساني وهو بعض ما يستفاد من التعبير النبوي: "حتى إني لأرى الري يخرج أظفاري" وهو تعبير كنائي يشير إلى صفة المتانة والقوة والصحة السابغة التي يتركها العلم على بناء الإنسان والوجود».¹

والواضح أن الحديث النبوي يسعى، لأن يكون العلم واحداً من المشاغل الرئيسة لأبناء الأمة، ولذلك نجده عليه الصلاة والسلام يرغب في طلب العلم ويرى فيه بناء للإنسان، وبناء للأمة والحضارة الإنسانية وفي حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام: «قيدوا العلم بالكتاب»² يقول الشريف الرضي: «وهذه استعارة لأنه عليه الصلاة والسلام جعل ضروب العلم بمنزلة الإبل الصعاب التي تشرد إن لم تعقل، وتند إن لم تقيد، وجعل الكتاب لها بمنزلة الأقياد المانعة والعقل اللازمة».³

¹ - خالد فهمي إبراهيم ، تطبيقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية، مرجع سابق ، ص: 58.

² - محمد ناصر الدين الألباني ، صحيح الجامع الصغير، تحقيق، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ، بيروت، ط3، عام: 1988م، ص: 816، رقم الحديث: 4434..

³ - الشريف الرضي، المجازات النبوية، ص: 103.

والواضح أن الحديث فيه استعارة تبعية حيث شبه العلم وعدم نسيانه بالتقييد بالعقل وعدم انفلاته، واشتق من القيد بمعنى الإثبات فقيدوا بمعنى اثبتوا على طريقة الاستعارة التبعية.

ويمكن أيضا إجراء الاستعارة على المكنية حيث يمكن القول إنه شبه العلم بحيوان يقيد، حذف المشبه به «الحيوان» وأشار إليه بشيء من خواصه، وهو القيد على سبيل الاستعارة المكنية، وفي كلتا الحالتين وهو قيد «على سبيل الاستعارة من عالم المعنويات إلى عالم المحسوسات، لأن العلم أو إثبات العلم شيء معنوي، استعير لتوضيح ما في الطبيعة من أشباه معروفة ومألوفة وهو القيد أو الحيوان زاد من استعاب الصورة المعبرة عن معناها الحقيقي»¹.

ثالثا: الترغيب في أداء الصدقات

إن من أفضل الفضائل وأحبها إلى الله تعالى الصدقة، لأنها دليل على صحة إيمان العبد وصلته بربه، ويقينه بأن الرزق بيد الله تعالى وحده لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾².

والصدقة لغة: جميع صدقات، وتصدقت، أعطيته صدقة، أو ما أعطيته في ذات الله للفقراء، المتصدق، الذي يعطي الصدقة، والصدقة: ما تصدقت به على المساكين.³

وفي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّجَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾⁴

¹ - محمد رفعت أحمد زنجير، البيان النبوي، دار اقرأ، سوريا، ط1، عام: 2007م، ص: 403.

² - سورة سبأ، الآية: 24.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج7، ص: 309.

⁴ - سورة يوسف، الآية: 88.

وفي الاصطلاح: العطية التي يبتغي بها الثواب عند الله تعالى، يعرفها الأصفهاني بقوله: «الصدقة ما يخرجها الإنسان من ماله على وجه القرية كالزكاة، لكن الصدقة في الأصل تقال للمتطوع، والزكاة للواجب، وقد يسمى الواجب صدقة إذا تحرى صاحبها الصدق في فعله».¹

والتطوع ما تبرع به المسلم من ذات نفسه ومما لا يلزمه فرضه وهي مستحبة في جميع

الأوقات، و بدليل الكتاب والسنة ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾² وفقد جاءت أحاديث كثيرة تناول الصدقة وتحت عليها ولها معان كثيرة مثل تطفئ الخطايا وتكفرها، من أسباب الدخول إلى الجنة والعنق من النار، ولو بشق تمر، إلى جانب أنها من أسباب النصر، والرزق، وتعود الجود، وجلب البركة والزيادة والخلف.

هذه المعاني وغيرها جاءت في الأحاديث النبوية الشريفة وسنحاول الوقوف عند بعض هذه المعاني من خلال تحليل الجوانب البيانية التي ترغب في الصدقات وتحت عليها.

ومن هذه الصور ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمر، فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله»³ وفي رواية ثانية: « لا يتصدق أحد بتمر من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فلوه، أو قلصوه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم»⁴.

وبالنظر إلى الحديث بروايته ينكشف لنا مدى رحمة الله بعباده وفضله عليهم فهو يضاعف الصدقة التي يتصدق بها العبد من مال طيب مهما كانت هذه الصدقة قليلة، حتى

¹ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داود دار القلم، سوريا، ط4، عام: 2009م، ص: 480.

² - سورة البقرة، الآية: 245.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 702، رقم الحديث: 1014.

⁴ - المصدر نفسه، ج2، ص: 702، رقم الحديث: 1014 مكرر.

وإن كانت ثمرة، فإن الله يأخذها بيمينه ويربها لصاحبها حتى تصير أعظم من الجبل، بل إن هذه الصدقة اليسيرة إن كانت من مال طيب وتحقق فيها الإخلاص كانت سببا في نجاة صاحبها من النار فعن عدي بن حاتم قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق ثمرة فليفعل».¹

وإذا نظرنا إلى الرواية الأولى في قوله عليه الصلاة والسلام: " فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه، أو فصيله" والرواية الثانية: " فيربها كما يربي أحدكم فلوه، أو قلسوه حتى تكون مثل الجبل أو أعظم " والواضح أن أصل المعنى واحد في الروایتين، حيث أن المشبه فيهما: تربية الرحمن للصدقة التي من مال طيب، والمشبه به فيهما: تربية الإنسان فلوه "مهرة" أو فصيله أو قلسوه، وهذه الأمور تكاد تكون بمعنى واحد، وأما وجه الشبه فهو يتمثل في حسن الرعاية وكمال الإهتمام والعناية الواضحة "أخذها الله بيمينه" واليد اليمن فيها دلالة على الإهتمام فما تزال تنمو وتكبر حتى تصير أعظم من الجبل.²

والحديث فيه دقة في اختيار الألفاظ الدالة الموحية المعبرة عن المعاني المتفاضلة فقوله عليه الصلاة والسلام: " الفلّو " أي المهر دقة، لأن العربي يهتم بتربية المهر، والعناية به في الغالب تكون خاصة «والحقيقة أن في التمثيل بتربية المهر لتربية الأجر براعة فائقة ودقة متناهية، لأن المَهْرُ يبذل من الجهد في تربيته ما لا يبذل في غيره من الحيوان، إذ لا يكاد يخلو بيت من بيوت العرب من الفصيل، أما المهر فربما لا يتوافر للناس جميعا»³ والملاحظ أنه عليه الصلاة والسلام آثر أن يذكر الله سبحانه وتعالى باسم الرحمن، لأن ذكر الرحمن ينسجم تماما مع مضمون الحديث المفعم بالرحمة، حيث أن التمرة تكون أعظم من الجبل، والصورة الثانية حيث الرعاية والعناية والاهتمام البالغ، فالتمر اليسير من كسب طيب

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 703، رقم الحديث: 1352.

² - انظر: عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 134.

³ - محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 92.

تكون بفضل الرعاية والعناية من الله سبحانه وتعالى مثل الجبل أو أعظم و ذلك ترغيب وحث على الصدقة.

ومن الأحاديث التي تتناول الصدقة، حديث طويل عن أبي ذر رضي الله عنه قال إن خليلي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم دعني فأجبتة فقال: «أترى أحدا؟»، فنظرت ما علي من الشمس، وأنا أظن أنه يبعثني في حاجة له، فقلت: أراه، فقال: ما يسرنى أن لي مثله ذهباً أنفقه كله إلا ثلاثة دنانير».¹

والصورة تكشف عن كثرة المال، وأنه لو كانت هذه الكثرة مثل جبل أحد من الذهب لأنفقها كلها في سبيل الله، لذلك كان المشبه الذهب الكثير والمشبه به، جبل أحد وهو أعظم جبال المدينة، وهو جبل يحب النبي صلى الله عليه وسلم ويحب الصحابة، ويحبه النبي وأصحابه «جبل يحبنا ونحبه» بل إنه جبل يحب المسلمين جميعاً ويحبونه.²

والصورة التشبيهية ترغب في الإنفاق والصدقة مهما كانت كثرة المال، إلا ما هو في حاجة خاصة إليه، فإن المرء يبقيه لقضاء ما هو عليه، وإلى جانب الترغيب في الصدقة، فإنه أيضاً يقوم على عنصر فني هو التشويق «أترى أحداً» والتشويق من أهم الظواهر الفنية في بلاغة الحديث النبوي ومن أهم عناصر التأثير والترغيب في السامع.

ومن الصور التشبيهية التي ترغب في الصدقة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، قال: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع عليها متعه صدقة، قال: والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتُطيئ الأذى عن الطريق صدقة»³

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 690، رقم الحديث: 992.

² - انظر: عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 130.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص: 699، رقم الحديث: 1009.

والحديث يتناول في صورته النعم الكثيرة التي أنعم الله سبحانه وتعالى على عباده، وهي نعم تستحق الشكر والتوجه إلى الله بالحمد على هذه النعم والحرص على دوام الشكر إلى الله، لأن الإنسان كله مدين للخالق سبحانه وتعالى.

ومن لطفه سبحانه وتعالى بعباده أن خفف عليهم فجعل للمسلم أبواباً كثيرة للشكر والحمد، لا تكلف الإنسان إلا الشيء اليسير منها ما جاء في هذا الحديث من صور تحت الإنسان على القيام بهذه الأعمال الصالحة، لذلك فقد ذكر الحديث العديد من الفضائل والأعمال التي تماثل في أجرها بالصدقة، أو هي كالصدقة في الثواب والأجر مثل الصلح بين الناس، مساعدة العبد لأخيه في ركوب دابته في رفع متاعه، الكلمة الطيبة المشي نحو المساجد، إمطة الأذى من الطريق.

صور جميعها فيها ترغيب على الفضائل والأعمال الصالحة الحسنة وأجر من قام بها مثل أجر المتصدق، جميعها تشبه الصدقة في الثواب والأجر العظيم، وفي ذلك دعوة بالقيام بها والترغيب فيها، وصور هذا الحديث لا تختلف كثيراً عن ما جاء في حديث سعيد بن أبي برده عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «على كل مسلم صدقة، فقالوا: يا نبي الله، فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده، فينفع نفسه ويتصدق، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر، فإنها له صدقة».¹

والظاهر أن الصدقة ليست قاصرة على نوع معين من أعمال البر، بل القاعدة العامة: أن كل معروف صدقة، فتسبيح والحمد، والتهليل، والتكبير، والأمر بالمعروف، جميعها صدقة، وهذا ما جاء عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة،

¹ -صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 524، رقم الحديث: 1376.

وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى»¹.

والتصوير النبوي الشريف يضع المخرج لمن لم يتح له القدرة على صدقة من الصدقات المذكورة ومن أمثالها كما ذكر الحديث أن يصلي ركعتي الضحى، وفي هذا التصوير وإيضاح وترغيب في الإقبال على الفضائل، إلى جانب التيسير على عباده، وهذه نعم من الله تستحق الشكر من عباده.

وفي حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا يظل إلى ظله، يقول عليه الصلاة والسلام: «.. رجل تصدق ، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»².

وفي رواية مسلم : « ..ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله..»³ صورة تمثل المتصدق الذي يخفي معروفة عن أعين الناس وهي كناية لطيفة سواء كانت النفقة من يده اليمنى، أو من اليد الشمالية ، فهي تظهر لون من ألوان الخير، وشأن الصدقة في هذا المقام كشأن الزكاة.

وطبيعي أن الذي يتصدق ويسعى إلى فضائل الأعمال والخير أقوى مالا، أوجاها أفضل من الذي يتلقى المساعدة، على أن لا تقترن هذه المساعدة على تشهير أو من، أو تبجح، أو كسر خاطر، حينئذ تكون قد فقدت روحها ونضب ماؤها وربما انقلبت شراً على صاحبها.

وأما صدقة السر وعمل الخير المكتوم عن عيون الناس وآذانهم، فإنه يجبر الخواطر ولا يكسرهما، ويرفع القدر الإنساني عند الضعفاء، ويقبله الله ويحتسبه ويظل صاحبه في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، 499، رقم الحديث: 720.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 235، رقم الحديث: 629.

³ - صحيح مسلم ، مصدر سابق، ج2، ص: 715، رقم الحديث: 1031.

ولهذه المعاني أثر النبي صلى الله عليه وسلم التعبير بالصورة الكنائية في دعوته إلى إخفاء الصدقة عن أعين الناس، وبلاغة الكناية في عدم التصريح.

والتركيب يمكن حمله على الاستعارة المكنية "لا تعلم شماله ما تنفق يمينه" أو "لا تعلم يمينه ما تنفق شماله" فقد شبه اليد اليمنى أو اليد اليسرى بإنسان، واليد اليسرى أو اليمنى بإنسان آخر، وحذف المشبه به وهو الإنسان في الصورتين، ورمز إليهما بشيء من لوازمهما وهي اليد، فاليد في الحديثين كائن مستقل فهي تدرى وتعرف، «والرجل الساهر هو الذي يستطيع إخفاء الصدقة عن تلك اليد، فنرى دقة التصوير البياني في أفضل صورة تصورهما الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الرجل المحق الذي تصدق بصدقة خفية عن أعين الناس ابتغاء مرضاة الله، فأخفى صدقته حتى على أقرب ما يتصل به، ألا وهي شماله، و كذلك لو تصورنا أن يمينه تصدقت بشيء لما شعرت يده تَعَلَّمَ يمينه اليسرى فيما أنفقت في سبيل الله»¹ وفي ذلك أيضا حرص على عدم الإشهار والتشهير بالصدقة. والحديث دعوة وترغيب على الصدقة وإخفاء ذلك عن أعين الناس وهذه هي أخلاق المسلم والتي ينبغي أن يتربى عليها المجتمع الإسلامي.

رابعا: الترغيب في المحافظة على صلة الرحم

صلة الأرحام والإحسان إليهم من أهم المهمات، وأوجب الوجبات وأعظم القربات، ومن أفضل الأعمال الصالحات، وأفضل الفضائل عند الله سبحانه وتعالى، لأن في ذلك طاعة لله ولرسوله.

إن التواصل والتراحم ينشأ عن ذلك أسر متماسكة وبناء اجتماعي متين قوي أمام كل الهزات التي قد تصبه، وذلك يعود أساسا إلى الرؤية الإسلامية وشموليتها للإنسان، فهو لا يدع شاردة ولا واردة في حياة الإنسان إلا وتناولها بالتنظيم وحث الناس على القيام بها

1- فالج حمد أحمد الحمداني الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 219.

والترغيب فيها، لأن ما من عمل من أعمال البر إلا وله فضائل في الدنيا والآخرة. وصله الرحم من أبرز أنواع البر.

مفهوم الصلة:

الصلة في اللغة: من الوصل، مصدر «وصل» وهو ضد القطع، والفصل والهجر، ووصل الشيء بالشيء يصله وصلا وصلته.¹

قال أيضا: «الواو والصاد واللام: أصل واحد يدل على ضم شيء حتى يعلقه، ووصلته به وصلاً والوصل: ضد الهجران»² وفي المصباح المنير: «وصلت الشيء بغيره وصلاً، فاتصل به، ووصلته وصلاً وصلته ضد: هجرته، ووصلته مواصلة ووصلاً، وهو مصدر وصل الشيء بالشيء ضمه إليه وجمعه معه»³ وفي لسان العرب «وصلت الشيء وصلاً وصلته، والوصل ضد الهجران». ابن سيده: «الوصل خلاف الفصل. وصل الشيء بالشيء يصله وصلاً وصلته وصلته»⁴ وقال أيضا: «قال الليث: كل شيء اتصل بشيء فما بينهما وصلته. أي اتصال وذريعة، ووصله توصيلاً إذا أكثر من الوصال».⁵

مفهوم الرحم:

الرحم والرحم في اللغة «بكسر الحاء وتسكينها» بيت منبت الولد ووعاؤه في البطن «موضع تكوينه» ثم أطلق على القرابة وأسبابها.⁶

¹ - ابن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج6، ص: 115.

² - المصدر نفسه، ج2، ص: 115.

³ - أحمد محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، دار المعارف، القاهرة، تحقيق، عبد العظيم الشناوي، ط2، دون ذكر السنة، ج2، ص: 662.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج: 15، ص: 316-317.

⁵ - المصدر نفسه، ج15، ص: 317.

⁶ - ابن فارس، مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج6، ص: 115.

وقيل «الرَّحِمُ: رحم الأنثى، وهي مؤنثة، والرحم أيضا: القرابة»¹ قيل: «الراء، والحاء، والميم، أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك: رَحِمُهُ، إذا رَق له وتعطف عليه، والرحم والرحمة والرَّحمة، بمعنى، والرحم: علاقة القرابة سميت رحم الأنثى رَحِمًا من هذا، لأن منها ما يكون ما يرحم ويرق له من ولد»².

مفهوم صلة الرحم اصطلاحًا:

«ذو الرحم: هم الأقارب، ويقع على كل من يجمع بينك وبينه نسب، ويطلق في الفرائض على الأقارب من جهة النساء، يقال ذو رَحِمٍ مَحْرَمٌ ومُحَرَّمٌ، وهم من لا يحل نكاحه كالأم، والبنات والأخت والعمة والخالة»³.

وقال آخر: «الرحم عموم في كل ذي رحم محرماً كان أو غير محرم»⁴ والواضح عنده أنه يطلق على الأقارب وهم من بينه وبين الآخر نسب سواء كان يرثه أم لا، سواء كان ذي محرم أم لا، وقيل: هم المحارم فقط، والأول هو المرجع، لأن الثاني يستلزم خروج أولاد الأعمام وأولاد الأخوال من ذوي الأرحام وليس كذلك.

أما الشوكاني فإنه يرى: «الأرحام: اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المَحْرَم وغيره، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع ولا بين أهل اللغة»⁵ ويضيف ابن الأثير في حديثه عن صلة صلة الرحم فقال: «تكرر في الحديث صلة الأرحام: وهي كناية عن الإحسان إلى الأقربين من ذوي النسب والأصهار والتعطف عليهم والرفق بهم والرعاية لأحوالهم، وكذلك إن بعدوا، أو أساءوا، وقطع الرحم ضد ذلك كله. يقال: وصل رحمه، يصلها وصلاً وصلة، والهاء فيها

¹ -ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ص: 174.

² -ابن فارس، مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج2، ص: 498.

³ -ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، مصدر سابق، ج2، ص: 210.

⁴ -القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة

الرسالة، بيروت، ط1، عام: 2006م، ج3، ص: 170.

⁵ -محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير، دار الوفاء، ط1، عام: 2015، ج1، ص: 675.

346

ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي جاءت تتناول صلة الرحم، بأسلوب فني رفيع يقوم على الحوار بين الرحم وبين الله تبارك وتعالى، حوار طريف يثير الأذهان ويشوق النفوس ويرغب في صلة الرحيم، ويظهر منزله الرحم عند الله تعالى، ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخُلُقَ، حَتَّى إِذَا فَرَّغَ مِنْ خَلْقِهِ قَالَتْ الرَّحِمُ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مِنْ وَصْلِكَ، وَأَقْطَعَ مِنْ قِطْعِكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ، قَالَ: فَهُوَ لَكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ، وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ»¹

وفي رواية ثانية: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال له: مه، قالت: هذا مقام العائد بك من القطيعة، قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك، قالت: بلى يا رب، قال: فذاك، قال أبو هريرة: اقرؤا إن شئتم "فهل عسيتم أن توليتم تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم"»² والحوار الدائر بين صلة الرحم، وبين الله تبارك وتعالى يكشف عن منزلة صلة الرحم عند الله تعالى وتبارك. وللكشف عن هذه المنزلة استخدم عليه الصلاة والسلام أساليب بلاغية متنوعة. فالرحم، كائن حي يتكلم ويحاور ويتصف بكل الصفات الإنسانية إنها تستعيز بالله من القطيعة فيعيذها ويعد من يصلها بالوصال، ومن يقطعها بالقطع.

وحتى يتم تحقيق الترغيب في صلة الرحم وظف أساليب بيانية متنوعة ففي قوله: «حتى إذا فرغ من خلقه» يقول العيني: «مجاز عن قضائه وإتمامه، فإن الله تعالى لا يشغله شأن، أو يطلق عليه الفراغ الذي هو ضد المشغل، ونوع هذا المجاز استعارة تبعية حيث شبه القضاء والإتمام بالفراغ بجامع الانتهاء في كل»³.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2232، رقم الحديث: 5641.

² - العيني، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج19، ص: 172، رقم الحديث: 325.

³ - مصدر نفسه، ج19، ص: 172.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: "قالت الرحم" وفي هذا التركيب أيضا صورة بيانية تقوم على تجسيم صلة الرحم في شكل مادي له أبعاده وسماته التي تمكن من الرؤية وهذا الشكل يحقق الوجود لذلك الموضوع.

فهي إذن كائن حي تتسم بالصفات الإنسانية، فقد أسند القول إلى الرحم وهذا الإسناد يحتمل أن يكون بلسان الحال، ويحتمل أن يكون بلسان المقال تتكلم كما هي، أو يخلق الله لها عند كلامها حياة وعقلا، وقيل: هو في الحقيقة ضرب مثل استعارة إذ للرحم معنى وهو إيصال القربى بين أهل النسب، وهي استعارة تمثيلية، وهي التي والوجه فيها منتزع من أمور متوهمة للمشبه المعقول بما كانت تابعة للمشبه به المحسوس.¹

ولذلك يمكن القول شبهت حالة الرحم وما هي عليه من الافتقار إلى صلة والذب عنها من القطيعة بحال مستجير يأخذ بذيل المستجار به وحق إزاره ثم أدخل صورة حال المشبه في جنس المشبه به، واستعمل في حال المشبه به من الألفاظ بدلائل قرائن الأحوال.²

ويجوز أن تكون الصورة استعارة مكنية بأنه شبه الرحم بالإنسان يستجير بمن يحميه ويذب عنه ما يؤذيه، ثم انعقد على سبيل الاستعارة التخيلية ما هو لازم المشبه به من القيام، ليكون قرينة مانعة من إرادة الحقيقة، ثم رشحت الاستعارة بأخذ الحقو وذلك لكون الرحم التي توصل وتقطع إنما هي معنى من المعاني ليست بجسم، وإنما هي قرابة ونسب يجمعه رحم والده ويتصل بعضه ببعض فسمي ذلك رحمًا، والمعاني لا تأتي منها القيام ولا الكلام فيكون ذكر قيامها هنا وتعلقها بالعرش ضرب مثل، وحسن استعارة على عادة العرب في استعمال ذلك شأنها وفضيلة أصلها وعظم إثم قاطعها بعقوبه.³

¹ - انظر: أحمد عبده عوض بلاغة الرسول، مرجع سابق، ص: 845.

² - المرجع نفسه، ص: 845.

³ - انظر: المرجع نفسه، ص: 845.

ولك من الاستعارة في هذا الحديث قوله عليه الصلاة «أصل من وصلك وأقطع من قطعك» في هذا التركيب استعارتان ،لأن الوصل والقطع من الأمور المحسوسة، فالوصل خلاف القطع، يقال: وصل الشيء بغيره فاتصل، ووصل الحبال وغيرها توصيلاً: وصل بعضها ببعض وكذلك أيضا "قطع" يستخدم لتفريق الشيء المحسوس المتصل يقال: أقطعتَه قضباً من الشجرة أذنت له في قطعها» ولذلك يكون الوصل والقطع مستعملين في غير معناهما الحقيقي، فقد استعير الوصل لعظيم إحسان الله ورعايته لعبده، واشتق من الوصل الذي هو أساس الفعل المضارع "أصل" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ويكون القطع كذلك قد استعير لحرمان الإحسان والرعاية من عمل الله سبحانه وتعالى، واشتق من القطع الذي هو مصدر الفعل المضارع "أقطع" على سبيل الاستعارة التصريحية».¹

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «أن أصل من وصلك» يمكن اعتبار الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه، والقطع منه كناية عن حرمان الإحسان.

والواضح أن أسلوب هذا الحديث العجيب في مبناه البلاغي ينبئ بعظيم خطأ القطيعة وخسارة القاطع، وفضل الوصل والترغيب فيه.

وفي حديث آخر، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لي قرابةً أصلهم ويقطعونني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: «لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك».²

والصورة التشبيهية جاءت في إطار تقويم خطأ قطيعة الرحم والترغيب في الاتصال، أو الترغيب في صلة القاطعين.

¹ - أحمد عبده عوض بلاغة الرسول، مرجع سابق ، ص: 845.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 1982، رقم الحديث: 2558.

والملاحظ أن جواب الشرط « فكأنما تسفهم المل » و المل: الرماد الحار، قال النووي: « ومعناه كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الألم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن، بل ينالهم الإثم العظيم في قطيعته وإدخالهم الأذى عليه، وقيل: معناه: إنك بالإحسان إليهم تخزيهم، وتحقرهم في أنفسهم لكثرة إحسانك وقبيح فعلهم من الخزي والحقارة عند أنفسهم، كمن يسف المل، وقيل: ذلك الذي يأكلونه من إحسانك كالمل يحرق أحشاءهم».¹

وأثر الترغيب في الصلة وإيصالها، واضح من خلال ذكر ما يلحق قاطع الرحم، ثم أنه عليه الصلاة والسلام وظف أسلوب الشرط في إطار تقويم الخطأ فقال: «لئن كنت كما قلت، فإنما تسفهم المل» وتوظيف أسلوب الشرط بهذه الكيفية يفيد تعميم الحكم حتى لا يقيد بشخص معين، وإنما يتعدى ليشمل كل من كانت هذه الحالة في كل زمان.

و كذلك تعليق الجواب على الشرط، لكونه عليه الصلاة والسلام لا ينطق على الهوى، ولو كان على غير ذلك الحكم بتصدق الرجل، ولذلك جاء الجواب معلقا على الشرط، إن كنت كما قلت.

ومن الأحاديث النبوية التي تحت على إيصال صلة الرحم والترغيب فيها ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « من أحب أن يُبْسَطَ له في رزقه ويُنْسَأَ له في أثره فليصل رحمه»² وفي رواية ثانية: «من سره أن يبسط عليه رزقه أو ينسأ في أثره فليصل رحمه».³ والحديث في الروايتين مبني على أسلوب الشرط " من " حيث

¹ - أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، إرشاد الساري، مصدر سابق، ج9، ص: 451.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1982، رقم الحديث: 2557.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1982، رقم الحديث: 2557 مكرر.

ضمنه عليه الصلاة والسلام من وسائل التشويق والإثارة بغية متابعة الخبر، وهي "من" « التي تتادي بكل عاقل ليحوز الخبر العاجل مع ما ينتظره من الثواب الآجل، ثم

تعبيره بلفظ السرور الذي يداعب الوجدان ويمني النفس بكل محبوب وبكل ما يحقق لها السرور والسعادة»¹ وفي ذلك أعلى درجات الترغيب والحث على ربط صلة الرحم

خامسا: الترغيب في الجهاد في سبيل الله:

الجهاد في سبيل الله من الأعمال والفضائل التي يحبها الله تعالى، لأن العبد يبيع نفسه رخيصة من أجل إعلاء كلمة الله، فهي تجارة رابحة ثمنها الجنة لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾² فالله سبحانه وتعالى يخبر خبراً صدقاً ويعد وعداً حقاً بمبايعة عظيمة ومعاوضة جسيمة، وهو أنه اشترى بنفسه الكريمة من المؤمنين أنفسهم وأموالهم، بأن لهم الجنة التي فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، وذلك هو الفوز العظيم، وفي ذلك السعادة الأبدية والنعيم المقيم، ورضاء الله أكبر نعيم.

والجهاد في اللغة: «من الجُهد، والجُهد: الطاقة، وقيل: الجهاد: المشقة، الليث: الجُهد ما جهَدَ الإنسان من مرض أو أمر شاق، فهو مجهود وجُهد، يَجُهدُ، جهداً، واجْتُهدَ، كلاها: جدٌّ»³ وعند علماء الشرع: «بذل الجهد من المسلمين في قتال الكفار المعاندين المحاربين والمرتدين والبلغاة ونحوهم لإعلاء كلمة الله»⁴. وهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي عن المسلمين سقط الإثم عن الباقيين.

¹ - أحمد عبده، عوض، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص: 835 .

² -سورة التوبة، الآية: 111.

³ -ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج، ص: 395.

⁴ -ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج6، ص3.

ويكون الجهاد فرض عين في ثلاث حالات إذا حضر المسلم المكلف القتال والتقى الزاحفان، وتقابل الصفان، أو إذا حضر العدو بلدا من بلدان المسلمين تعين على أهل البلاد قتاله، وكذلك إذا استنفر إمام المسلمين وطلب منهم ذلك.

والجهاد ذروة سنام الدين وهو أفضل الأعمال التي يتقرب بها العبد إلى ربه، فهو تجارة رابحة وهو «ليس استعلاء على الناس، ولا استعباداً للأمم، ولا سيطرة على الأموال والثروات، ولا احتلال للأرض والمواقع الاستراتيجية، إنما هو جهاد في سبيل الله، ولذلك جاءت كلمة "الجهاد" مقرونة بالمصطلح الإسلامي " في سبيل الله"، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل المجاهد في سبيل الله، والله أعلم بمن يجاهد في سبيله، كمثل الصائم القائم، وتوكل الله للمجاهد في سبيله بأن يتوفاه: أن يدخله الجنة، أو يرجعه سالماً مع أجراً وغنيمة»¹

والملاحظ أن الجهاد في سبيل الله طاعة عظيمة لا تعادلها طاعة أخرى، فقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبيح عن ما يعادل الجهاد فقال: «دلني على عمل يعدل الجهاد قال: "لا أجده" قال "هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تدخل مسجداً، فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر، قال من يستطيع ذلك، قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد ليتسنى في طوله فيكتب له حسنات" وهذه حجة مقنعة على أن الجهاد لا يعدله أمر مستطاع.

والصورة التشبيهية تظهر ذلك حيث شبهه الصائم الدائم ، والقائم الدائم فلا ينام ، إلى جانب القنوت بآيات الله، فهو خاشع ساجد راعع لله تعالى، لا يفتر من صيام ولا صلاة ولا صدقة حتى يرجع المجاهد، من يستطيع من العباد القيام بذلك؟ لذلك قال: عليه الصلاة والسلام: «لا أجده»³

¹- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1027، رقم الحديث: 2636.

²-المصدر نفسه، ج3، ص: 1026، رقم الحديث: 2633.

³-القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 34.

والصورة تظهر مكانة ومنزلة المجاهد في سبيل الله، فقد مثله بالصائم ممسك لنفسه عن الأكل والشرب واللذات، ولذلك فهو لا يتوقف ساعة من العبادة مستمر الأجر، كذلك المجاهد لا يضيع ساعة من ساعاته بغير أجر

هذا الفضل الكبير وهذه المنزلة العظيمة وهذا الأجر الأعظم الذي يناله المجاهد في سبيل الله، ولهذه الدوافع، وهذه المكانة العالية تدفع بالعبد إلى الجهاد وترغب فيه، لأنه سبيل الله، وقد أظهرت الصورة التشبيهية هذا الجانب النفسي والإقبال على الجهاد.

ومن الصور ترغب في الجاهد في سبيل الله ماجاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «..أناس من أمتي عُرِضُوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَجَ هذا البحر ملوكا على الأسرة، أو: مثل الملوك على الأسرة...»¹

والتشبيه يكشف عن حال المجاهدين، وهم يركبون ثبج البحر، وذلك، لأنهم غزاة في سبيل الله، والأصح أنهم يركبون مراكب الملوك لسعة حالهم واستقامة أمرهم، أوهم يركبون ثبج البحر مثل الملوك على الأسرة. ،الصورة فيها دعوة إلى الجهاد وترغب فيه بلفظ "الملوك" دلالة على الأبهة والعظمة وفي ذلك ترغيب لنفس بالتشبه بهم من خلال الإقبال على الجهاد، وكذلك قوله: ا "الأسرة" فيها من الدلالة على الفخامة والعظمة وسعة الحال، وتلك جميعها مما ترغب النفس إليه².

وفي حديث آخر نجده عليه الصلاة والسلام يصور أجر الغازي والمجاهد في سبيل الله تعالى، صورة الإنسان الذي يضحى بماله ونفسه نصره لدين الله وإعزاز لكلمته، وأي أجر أعظم عند الله تعالى من تلك المكانة والمنزلة الرفيعة التي خص بها المجاهدين فهم ،عن أبي هريرة

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1027، رقم الحديث: 2636.

² - انظر: القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 36.

رضي الله عنه قال: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو

على ضامن أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه، نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والذي نفس محمد بيده ما من كَلِمٍ يُكَلَّمُ في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كَلِمٍ، لونه لون دم وريحه مسك، والذي نفس محمد بيده، لولا أن يشق على المسلمين، ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أجد سعةً فأحملهم، ولا يجدون سعةً، ويشق عليهم أن يتخلفوا عني، والذي نفسي محمد بيده لوددت أني أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل»¹.

والحديث يقدم صورة تمثيلية لهذا الشهيد الذي يأتي يوم القيامة على حالته التي مات عليها لونه لون دم وريحه ریح مسك، والحديث يرسم صورة للمجاهد في سبيل الله في الدنيا وفي الآخرة، فهو في الدنيا خرج من بيته تاركاً ما وراءه محتسباً مؤمناً مصداً، وقد ضمن الله له الجنة. وإذا عاد إلى بيته منتصراً فقد عاد بأجر وغنيمة.

والصورة البليغة في قوله: «كهيئته حين كَلِمٍ لونه لون دم وريحه ریح المسك، وفي ذلك ترغيب للجهاد في سبيل الله، لأنه يظهر شرف الشهيد «لأهل المشهد والموقف بما فيه من رائحة الطيب الشاهدة بالطيب فإن الدم قد انتقل بطيب رائحته من حكم النجاسة إلى الطهارة، ومن حكم القذارة إلى التطيب بتغير رائحته، وحُكِمَ له بحكم المسك، والطيب للشهيد»².

وإذا كانت الصورة التشبيهية قد أظهرت قدرة في ترغيب الجهاد في سبيل الله فإن الصورة الاستعارية قد جاءت في الأحاديث النبوية خاصة الاستعارة المركبة التي تناولت الجهاد وفضل الجهاد ومكانة المجاهدين عند الله سبحانه وتعالى، وهذه الاستعارات التي جرت مجرى الأمثال

¹ -صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1496، رقم الحديث: 1876.

² - أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق 478، ص: 478.

كان لها الوقع الكبير والتأثير البالغ في النفوس في دفعهم إلى الجهاد في سبيل الله، وقد تناولت الاستعارة مواضيع كثيرة تتصل بالجهاد في سبيل الله مثل الصبر

والثبات في المعركة ومن ذلك ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»¹

والواضح من الحديث أنه دعوة إلى الصبر والثبات في المعركة، لأنه بهما يكون النصر والجنة وقد أورده البخاري في باب الجنة تحت بارقة السيف. والواضح أن السيوف لها لمعان وبريق في المعركة، وإذا لمع وجه شيء ما يكون في الوجه المقابل له الظل «وكأن البخاري أراد بالترجمة أن السيوف لما كانت لها بارقة شعاع كان لها أيضا ظل تحتها وترجم ببارقة يريد لمع السيوف»² وإذا نظرنا أيضا لفظ الظل فإنه يدل على ستر الشيء والظل ظل الإنسان وغيره ويكون بالغداة والعشي.³

وظل السيوف هذه تكون تحتها الجنة «فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المثل ليصور فيه قتال المسلمين في المعارك، رافعين أسياфهم بوجه الكفار مقبلين غير مدبرين وقد أظلتهم السيوف لشدة اقتحامهم واندفاعهم في المعركة فإذا استشهدوا وهم في موقف الثبات والصبر هذا، فهم صائرون إلى الجنة، وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم: الجنة تحت ظلال السيوف»⁴.

ويقول القسطلاني: «أي أن ثواب الله والسبب الموصل إلى الجنة وهو الضرب بالسيوف في سبيل الله وهو من المجاز البالغ لأن ظل الشيء لما كان ملازمًا له، ولاشك أن ثواب الجهاد الجنة فكأن ظلال السيوف المشهورة في الجهاد تحتها الجنة أي ملازمها استحقيق ذلك، وخص

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1037، رقم الحديث: 2336.

² - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج14، ص: 114.

³ - انظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج3، ص: 461.

⁴ - محمد علي حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 160.

السيوف، لأنها أعظم آلات القتال وأنفعها، لأنها أسرعها إلى الزهوق»¹ وبذلك يمكن إجراء الاستعارة من خلال أطرافها.

المستعار منه: الجنة تحت ظلال السيوف، والمستعار له: الصبر والثبات في سبيل الله الذي يناط النصر به، وأما القرينة الحالية تفهم من سياق الكلام.

والحديث فيه حث على الصبر والثبات في المعركة، لأن الجنة التي هي الغاية تحت ظلال السيوف وفي ذلك رفع الروح المعنوية عند المقاتلين وبث مشاعر الحماس للقتال، لأن المسلم نفسه تشنق إلى الجنة، فهو يتحين الشهادة في سبيل الله لعله يفوز بها، لأن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض.

وأما حاله فهو كالصائم القائم القانت بآيات الله، وفي هذه المعنى نجد دعوة منه عليه الصلاة والسلام إلى الجهاد في سبيل الله، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «... طوبي لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة وأن كان في الساقاة كان في الساقاة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع له.»²

ففي قوله عليه الصلاة والسلام " أشعث رأسه مغبرة قدماه " كنايةان عما يلقاه المجاهد في سبيل الله عز وجل في المعارك، أو في الأسفار لأن هؤلاء يمثلون خيرة الناس من خلال الاعتزاز بربهم وثبتوا بإيمانهم أمام الأعداء فطوبي لهم جنة الخلد أعدها الله تعالى لهم. الحديث يؤسس على براعة الاستهلال المتمثلة في قوله عليه الصلاة والسلام "طوبي" حيث استهل بذكر الجزاء قبل الشروع في تفضل العمل وذلك قمة الترغيب في الجهاد في سبيل الله.

¹ - القسطلاني، إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 53

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1056، رقم الحديث: 2730.

المبحث الثاني: الترهيب في الخطاب النبوي الشريف

ويتضمن هذا المبحث أربعة مطالب هي:

المطلب الأول: مفهوم الترهيب.

الترهيب في اللغة: الترهيب مصدر رَهَبَ، يَرْهَبُ، رَهْبَةً وَرَهْبًا، وَرَهَبًا أَي: خاف

وأرهبه، أخافه وترهب غيره إذا توعدده والرهبه الخوف والفرع.¹

ومن حديث عن ابن عمر، قال: حضرت أبي حين أصيب، فأتوا عليه، وقالوا: جزاك الله خيرا، فقال: « رَاغِبٌ وَرَاهِبٌ. » قالوا: استخلف، فقال: أَتَحْمَلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا؟ لوددت أن حظي منها الكفاف، لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، فَإِنْ أَسْتَخْلَفَ فَقَدْ اسْتَخْلَفَ مِنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي. "يعني أبا بكر"، وَإِنْ أَتْرَكْتُكُمْ فَقَدْ تَرَكْتُكُمْ، مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «² وقوله: "راغب وراهب" أي، راج وخائف، ومعناه: الناس صنفان أحدهما يرجو والثاني يخاف، أي راغب في حصول شيء مما عندي أو راهب مني، وقيل: راغب في الخلافة فلا أحب تقديمه لرغبته، وراهب لها فأخشى عجزه عنها³

وقيل الترهيب من الفعل: رَهَبَ ترهيبًا، ومجرده: رَهَبَ رَهْبَةً وَرَهْبًا، والرهبه والرَّهْبُ: مخافة

مع تَحَرُّرٍ، واضطراب قال تعالى: ﴿لَأَتُنَبِّئَنَّ أَشَدَّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾⁴ وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾⁵.

والمقصود بالترهيب: كل ما يخيف المدعو ويحدث في نفسه وجلا واضطرابًا في حال عدم الاستجابة، أو رفض الحق، أو عدم الثبات عليه بعد قبوله

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج 5، ص: 337.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 3، ص: 1454، رقم الحديث: 1823.

³ - انظر: هامش صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 3، ص: 1454،

⁴ - سورة الحشر، الآية: 13.

⁵ - سورة البقرة، الآية: 4.

الترهيب في الاصطلاح: هو « وعيد وتهديد بعقوبة تترتب على اقتراف إثم أو ذنب مما نهى الله عنه، أو على التهاون في أداء فريضة مما أمر الله به، أو تهديد من الله يقصد تخويف عباده وإظهار صفة من صفات الجبروت والعظمة الإلهية ليكونوا دائماً على حذر من ارتكاب المعاصي».¹

وأما القرضاوي فإنه يعرفه بأنه: « تخويف الإنسان من البعد عن الله تعالى، وإطاعة فرائضه والتفريط في حقه سبحانه، وحقوق عباده وارتكاب ما نهى الله تعالى عنه من الشرور والردائل في أي مجال من مجالات الحياة، وسوق الناس إلى الوقوف عند حدود الله بسوط الرهبة مما أعد الله لمن عصاه وخالف عن منهجه من عذاب في الدنيا والآخرة».²

والملاحظ : أن الترهيب في الأحاديث النبوية الشريفة قد يعبر عنه بكلمة " الإنذار " وهذه الصفة من صفات الرسل والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. فهم يندروا من عصا الله وكذب رسله بسوء العاقبة في الدارين، والرسل دعاة إلى الله اختارهم الله لهداية الناس وقيادتهم للحق وإخراجهم من الظلمات إلى النور فيحثون الناس على العمل، والذكر والمحبة لله فمن أخذ بذلك كان على باب الرجاء، ومن لم يكن كذلك كان على باب الخوف، ولذلك فإن الترهيب توجيه دعوة إلى المعرضين عن دين الله تعالى بالعذاب العاجل في الدنيا إذ ظلموا على إصرارهم في الإعراض والتكذيب والاستكبار عن قبول الحق بعد وضوحه، ولزوم الحجة. ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾³، ولذلك يمكن القول أن صور الترهيب كثيرة ومتعددة في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأكثر صيغ الترهيب نار جهنم، فقد جاءت الترهيب بها بصيغ مختلفة وبألفاظ متعددة وتراكيب متنوعة النار جهنم السعير سقر،

¹ - النحلوي عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، ط1، عام 1979، ص257.

² - يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة، ط1، عام 1983، ص9.

³ - سورة فصلت، الآية:13.

الحريق وغيرها من الألفاظ، قد يأتي التهيب بلغته إلى إثثار الدار الباقية على الفانية، حيث أن هناك نفوسا يغيرها المتاع الدنيوي والشهوة على فضائل

الأعمال والأقوال وقد يكون التهيب بالتحذير من غضب الله سبحانه وتعالى، وقد يكون التحذير من عماء البصيرة وفساد الفطرة وخوف الختم على القلوب والخروج عن طريق المؤمنين، وربما يكون التخويف والتهيب من فساد الذرية في الدنيا أو قد يأتي التهيب بالتخويف من تبدل الحال من خير إلى شر ومن نعيم إلى بؤس ومن رخاء إلى قحط وفقر شديد.

وبحكم كثرة صور التهيب وتعددتها فإننا نتناول بعض هذه الصور على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر.

المطلب الثاني: صورة الكفر والنفاق في الخطاب النبوي

لقد كان هناك خلق من خلق، يرى عينا قدرة الله « ويعلم أن الله هو الخالق، المالك الرزاق، المدبر، الذي لا يقع شيء إلا بإذنه »¹.

ولكنه مع ذلك عصى ربه سبحانه وكفر به مع العلم ومع الاعتقاد، وهذا هو الذي يهدم أصل الإيمان يتجه إلى الكفر بالله سواء كان ذلك باللسان أم القلب، أم الأفعال، أم بهن جميعا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُعْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾^(٢)

معنى الكفر في اللغة:

الكفر في اللغة: وهو ما يدل على الستر والجحود، ويطلق في مقابل الإيمان «الكفر بالضم» ضد الإيمان ويفتح ، كالكُفُور والكُفْران بضمهما، وكفر نعمة الله وبها كفورا وكفرانا جحدها وسترها»³ وقيل: « الكُفْر نقض الإيمان، آمنا بالله، وكفرنا بالطاغوت، كفر بالله يَكْفُر كفراً وكفوراً وكفرنا، والكفر: كفر النعمة، وهو نقيض الشكر، والكفر: جحود النعمة، وضدها الشكر، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ نَتَقَبَّلُ﴾⁴، ويقال لأهل دار الحرب « قد كفروا، أي عصوا وامتنعوا، الكفر: جحود النعمة، وهو نقيض الشكر، وكفر نعمة الله: جحدها وستره»⁵ ، كافر، جاحد لأنعم الله، وكفر عليه يكفره: غطاه تقول: « كفر الشيء إذا ستره، وكفر الليل بظلامه، والكافر، الليل المظلم، لأنه يستر بظلمته، وكفر الليل الشيء غطاه»⁶، أي غطى نور النهار ، وبهذا المعنى، فإن أصل كلمة الكفر: من كفر الشيء إذا غطاه، وجاء أيضا بمعنى الإنكار والجحود، بمعنى جحود النعمة وعدم شكرها، و لهذا سمي الكفر الذي هو ضد الإيمان كفراً،

¹ - سيد قطب ، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط7، عام 1978، ج3، ص1266.

² - سورة النساء، الآية 137.

³ - الفيروز آبادی، القاموس المحيط، مصدر سابق، ص: 605.

⁴ - سورة القصص ، الآية: 48.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج12، ص:118.

⁶ - المصدر نفسه، ج 12، ص: 118.

لأن في كفره تغطية للحق بجحود أو غيره، ،لأن الكافر لما دعاه الله إلى التوحيد، فقد دعاه إلى نعمة أحبها له، إذا أجابه إلى ما دعاه إليه، فلما أبى ما دعاه إليه من التوحيد كان كافرًا نعمة الله. ولعل الكفر بكونه ضد الإيمان أقرب إلى المعنى الاصطلاحي:

وفي الاصطلاح: قال بعضهم: «عدم التصديق بالله ورسوله»¹ أو هو «جحود الوجدانية أو الشريعة أو النبوة»² ويرى ابن حزم أن الكفر «وهو في الدين: صفة من جحد شيئاً مما افترض الله تعالى الإيمان به بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه بقلبه دون لسانه ،أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معاً، أو عمل عملاً جاء النص بأنه مخرج له بذلك عن اسم الإيمان»³ وأما أبو حامد الغزالي فإنه يرى الكفر «هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام في شيء مما جاء به»⁴.

والظاهر من هذه التعريفات هو وجه التقارب على أن الكفر جحود وإنكار أحد مبادئ الإسلام، أو أحد أركان الإسلام، أو الإصرار على مخالفة أحكام العقيدة.

غير أن هناك أوجه اختلاف في تفصيل مبادئ الإسلام، أو في الأركان والمخالفات.

وإذا كان العلماء يفرقون بين الكفر ابتداءً، والكفر ردة، فإننا نحن هنا في هذه الدراسة البلاغية نقف عند الجانب التصوري للكفر، كما نجدها في الأحاديث النبوية.

أولاً: صورة الكافر في الخطاب النبوي الشريف.

وأول حديث نقف عنده هو حديث يبشر أمة محمد صلى الله عليه وسلم بأنها نصف أهل الجنة، ثم كشف بطريقة محسوسة عن قلة عدد المسلمين بالنسبة لغيرهم من الكفار عن عبد الله

¹ - غريال أشرف، الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، عام 1987، ج2، ص1465.

² - الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص434.

³ - علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، الأحكام في أصول الأحكام، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط1، عام 1983، ج1، ص49.

⁴ - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الفیصل بین الإسلام والزندقة "مجموعة رسائل الإمام الغزالي"، تحقيق إبراهيم أمين محمد، طبعة خادم الحرمين، ج1، ص128.

رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما ترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة، قال: فكبرنا. ثم قال: «أما ترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة» قال: فكبرنا، ثم قال: «إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، وسأخبركم عن ذلك، ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض»¹.

وفي رواية ثانية عن عبد الله قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قبة نحو من أربعين رجلاً. فقال: «أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قال فقلنا: نعم، فقال: "أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟" فقلنا: نعم. فقال: "والذي نفسي بيده! إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر»².

والصورة في قوله: "ما المسلمون في الكفار إلا كشعرة بيضاء في ثور أسود، أو كشعرة سوداء في ثور أبيض" وفي الحديث الثاني: "في جلد الثور الأحمر" صورة يراها الناس كثيراً، فالشعرة البيضاء تمثل المسلمين وكيف أنهم قليلون بالنسبة إلى الأمم الأخرى يوم القيامة، ثور أسود فيه شعرة بيضاء واحدة، أو ثور أبيض فيه شعرة سوداء، أو شعرة سوداء في جلد الثور الأحمر³. صورة في غاية من الأهمية والروعة وذلك عند تحليلها حيث «يظهر أن هذا التشبيه في غاية الدقة واللفظ حيث يكشف بطريقة محسوسة عن قلة عدد المسلمين، وفي نفس الوقت أوضح أنهم ظاهرون متميزون وسط هذا الغناء من الناس، فهم كرام والكرام قليلون فالشعرة البيضاء في ثور أسود، أو الشعرة السوداء في ثور أبيض، لاشك في أنها تكون ظاهرة واضحة تلفت الأنظار»⁴.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص200، رقم الحديث: 221.

² - المصدر نفسه، ج1، ص202، رقم الحديث: 222.

³ - انظر: عبد الباري سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص64.

⁴ - المرجع نفسه، ص65.

ولعل الميزة الواضحة أيضا في دقة اختيار الألفاظ المناسبة للمقام ووضعها في مكانها، فاختيار الشعرة ووصفها بأنها بيضاء ثم الإرشاد إلى أن الثور لونه أسود، أو اختيار الشعرة ووصفها بأنها سوداء، ثم الإشارة إلى أنها في ثور أبيض، هذا الاختيار يظهر بشدة التمايز بين المسلمين والكفار وذلك اختيار اللون الأسود للدلالة على الكفر وأهل الشرك وهذا ما يوحي بالظلمة والضلال، والكفر والظلمة ضلال مما يرهب النفس ويخيفها ويجعلها تبتعد عنه وفي ذلك قمة الترهيب.

ومن الصور المخيفة والمرعبة لصورة الكافر ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ضرس الكافر، أو ناب الكافر، مثل أحد، وغلظ لده، مسيرة ثلاث»¹ صورة في غاية من البشاعة لمنظر الكافر، إلى جانب ما يوحي بشدة العذاب والألم الذي يعانيه، اعتماد عليه الصلاة والسلام على التصوير فيه غاية من الدقة، لأن في ذلك تقريب لصورة الكافر يوم القيامة فقد تغير حاله، فضرسه مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث، فجبل أحد من أعظم وأضخم جبال المدينة، وفي ذلك دلالة على أن العضو الواحد منه قد زاد ملايين المرات، مما يكشف عن صورة مخيفة مرعبة لا يتصورها العقل الإنساني لأن «الذي يضع في فمه حصاة صغيرة يضيق بها ذرعاً إن طال وضعها، فكيف يكون الحال لو أن ضرسه تحول إلى جبل؟»، فيصور صلى الله عليه وسلم مدى قبح وشناعة الكافر التي ليس بعدها شناعة، لأننا إذا رأينا رجلاً أسنانه كبيرة شيئاً ما عددنا هذا من عناصر القبح الشديد، وليس ضرسه هو الكبير فقط، بل كذلك جلده وما بين منكبيه وفخذه وعضده»². والملاحظ أن الجلد الرقيق الذي لا يبلغ سمكه ملم يصبح مسيرة ثلاث، ومع سمك وغلظ جلده يوم القيامة، فإن الله عز وجل يقوم بتبديله وتجديده حتى يتجدد العذاب والألم، العذاب الذي سيلاقه الكافر يوم القيامة فقد صورته في صورة محسوسة، فضرسه مثل جبل أحد،

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص2189، رقم الحديث: 2851.

² - فالج حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص119.

وهذه صورة تكشف عن الثقل والمعاناة ،لأن طبيعة الإنسان تضيق بالشيء الصغير، فكيف يكون الحال إذا كان الشيء مثل أحد؟.

فهذه صورة « تتجلى لنا فيها دقة التشبيه وحكمته فكلمها كبرت المساحة المعرضة للعذاب زاد الإحساس به، وقد شبه صلى الله عليه وسلم أعضائه التي ستضخم في يوم القيامة بمواضع يعرفها المخاطبون، فجبل أحد يعرفه الجميع، والتصوير هذا يزيد من بشاعة العقاب بضخامتها حتى تبدو هذه الصورة رسماً خيالياً بالغ التأثير. »¹.

فهي صورة مفزعة مخيفة تصور بشاعة منظر الكافر إلى جانب العذاب والألم الذي يعانيه. وهي صورة غيبية لا ينتهي تعجبنا منها ودهشتنا.

وصورة الكفر صورة مكروهة، خاصة إذا منى الله على العبد وأنقذه منه وهذا ما جاء عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان... وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »²

يقول الدكتور نور الدين عتر « والمعنى أن يتحدد موقف المسلم من العقائد الأخرى وهو حد فاصل بين الهلاك والفناء والنجاة والفوز. فكما أنه لو رأى الفناء أمام نفسه ابتعد عنه كل البعد، كذلك يبتعد عما سوى الحق وهو ما سوى الإسلام »³.

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: " وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار " صورة وجه الشبه فيها وجود الألم وكراهة القلب إياه وهي صورة من قبيل التشبيه المعقول بالمحسوس، وهذا ما يجعل الصورة تتمكن في النفس وتقر في العقل كراهة الكفر مثل كراهة أن يقذف في النار وفي ذلك ترهيب من الكفر ،لأنه سبب الوقوع في النار وفي ذلك يكون التشبيه قد أظهر بشاعة الكفر وفضاعته، لأنه السبيل إلى جهنم.

¹ - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق ، ص119.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص14، رقم الحديث: 16.

³ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص43.

فالكفر ليس من الأمور المحسوسة ولا مما يجسد حتى يحذر منه «إلا إذا انغمس في عقاب محسوس يعانيه في الدنيا كما يعاني لهيب النار، التي تحرقه ويتفحم بها جسده إنها في الآخرة ستكون أشد عذاباً وأنكى ما لأن صفة المشبه به - وهو كراهة النار - أبلغ وأقوى في الحس من المشبه، وكراهية الكفر ليدرك العبد فظاعة الكفر والنار وبشاعة الضلال والعذاب فيهما»¹.

وفي ذات الحديث صورة بالغة التأثير ففي قوله " يعود في الكفر استعارة تمثيلية، ولما كان الاستباق في معنى التقدم إلى الأمام « والتنافس على عمل الخير، والطاعات فالعودة هي انسحاب من هذا الميدان وهذا التنافس والسير بالطريق المعاكس هذا الطريق الذي يزرعه الشيطان بأنواع الملذات والشهوات حتى يستهوي العباد، ولا يتبعه ويرجع في طريقه هذا إلا أصحاب النفوس الضعيفة والمنافقون خاصة، والعودة هي شر فعلة يفعل الرجل ولو فضل القذف بنار الدنيا لكان خيراً له من الرجوع إلى الكفر»².

وما يؤكد ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: «...وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله»³ وهذا يوضح أن الوقوع في نار الدنيا أولى من الكفر الذي أنقذه الله منه بالخروج من نار أخرى وهي نار جهنم، لأن الكافر مصيره إلى جهنم، وعليه فإن أطراف الصورة الاستعارية التمثيلية تتكون من: المستعار منه، يعود في الكفر، والمستعار له: الفسوق بعد الإيمان والسير في طريق الشيطان، على أن القرينة حالية.

وبذلك يمكن القول شبه عليه الصلاة والسلام الذين يكفرون بعد إيمانهم بالذي يسير في الطريق الصحيح وفجأة يرتد عنه ويرجع إلى الوراء ويضل سعيه، ويكون الشيطان اختلس إيمانهم وأعادهم من الإسلام إلى الكفر صورة تحذر من الكفر وترهب منه، لأن جهنم معود الكافرين.

¹ - علي صبح، التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث النبوي، المكتبة الأزهرية تراث، ط1، عام 2002 ص12.

² - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح البخاري، مصدر سابق، ج1 ص68.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص2246، رقم الحديث: 5694.

وإذا نظرنا إلى بناء الجملة في قوله: " يعود في الكفر " فإننا نلاحظ أنه عليه الصلاة والسلام عبر بحرف "في" بدلا من الحرف "إلى" لأن الأمر في الفعلين "يعود ويقذف" يتعديان بحرف الجر إلى "لا" بفي الظرفية التي جاءت في هذا المقام على سبيل الاستعارة للدلالة على الاستقرار في أعماق النار، وذلك حين يتمكن الظرف من المظروف. وفي ذلك أكبر وأعظم تنفيها منها، وأشد ترهيباً من عواقبها الوخيمة.

ولذلك نجده عليه الصلاة والسلام يحذر المؤمنين من التراجع والعودة حين قال في خطبة حجة الوداع: « فلا تَرْجِعَنَّ بعدي كفارا (ضلالا) يضرب بعضكم رقاب بعض¹ ».

والتمثيل في هذا المقام بالرجوع يأتي أيضا بمعنى العودة يقول العسقلاني: «لا تفعلوا فعل الكفار فتشبهوهم في حالة قتل بعضهم بعضا²» والتشبيه بأفعال الكفار هو كفر وعصيان ورجوع من الإيمان إلى الكفر، وكأنني بالرسول يرى ويعلم علم اليقين ما سيحدث بعده، وهو ما حصل بالفعل بعد وفاته عليه الصلاة والسلام من ارتداد بعض الأقباط ورفضهم دفع الزكاة وعادوا من الإيمان إلى الكفر، وإذا كان هذا حال الكافر في البيان النبوي، فما هو حال المنافق في التصوير النبوي الشريف؟.

ثانيا: صورة المنافق في الخطاب النبوي الشريف

إن الحديث عن النفاق في الحديث النبوي الشريف طويل وشاق تعود بواده إلى بداية الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، أو قبلها بقليل، وربما كان أكثر وضوحا مع تأسيس القواعد الأساسية لبناء الدولة التي تدين بدين الإسلام وتعمل على نشره.

كان المنافقون في بداية الأمر أيام الرسول صلى الله عليه وسلم يتقلبون بين إظهار الإيمان، وإخفاء الكفر، ويتلاعبون بالعقيدة، فهم يؤمنون بالدين في حال عزته وانتصاراته

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1306 ، رقم الحديث: 1679.

² - العسقلاني، فتح الباري بشرح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 228.

ويرتدون إذا ما ابتلي المؤمنون، وأحدقت بهم الشدائد والمخاطر، ارتدوا عن دينهم ورجعوا إلى كفرهم، ومنهم من لا يؤمن إطلاقاً بالإسلام، في أي حال من الأحوال إيماناً حقيقياً وإنما يتظاهرون بالإيمان أمام المؤمنين في حال قوتهم خوفاً على أنفسهم وفي حال الشدة ارتدوا عنه وعادوا إلى الكفر.

مفهوم النفاق في اللغة:

النفاق، فعل المنافق يقال: نافق ينافق منافقة ونفاقاً، «وأما أصل النفاق في اللغة: فقد اختلف فيه علماء اللغة: قيل: إن ذلك نسبة النفق وهو السرب في الأرض، لأن المنافق يستتر كفره ويغيبه فتشبه بالذي يدخل النفق ويستتر فيه.

وأما القول الثاني: سمي به نفاقاً اليربوع، فإن اليربوع له جحر يقال له: النفاقاء، وآخر يقال له: القاصعاء، فإذا طلب من القاصعاء خرج من النفاقاء وقُصَعَتِ اليربوع، أن يحفر حفيرة ثم يسد بابها بترابها، والنَّفَقَةُ والنفق فلا ينفذها، ولكنه يحفرها حتى ترق فإذا أخذ عليه بقاصعائه عدا إلى النفاقاء فضربها برأسه ومرق منها»¹.

وهي صورة المنافق يخرج من الإيمان من غير الوجه الذي يدخل منه ونعتقد أن نسبة المنافق إلى نفاقاء اليربوع أرجح من النسبة إلى النفق، لأن النفق ليس فيه إظهار شيء وإبطال شيء آخر، كما هو حال المنافق، وكونه مأخوذاً من النفاقاء باعتبار أن المنافق يظهر خلاف ما يبطن أقرب إلى طبيعة المنافق وكذا المعنى الاصطلاحي.

مفهوم المنافق في الاصطلاح :

يقول الجرجاني: أن النفاق: « هو الذي يضمّر الكفر اعتقاداً ويظهر الإيمان قولاً »² ولذلك فإن النفاق مخالفة الظاهر للباطن أو الفعل وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص243.

² - علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة القاهرة، ط1، عام2004م، ص198.

فيضطر إلى النفاق والتظاهر بخصال حميدة هو خال منها وذلك هو عين النفاق فهو عند ابن كثير: « النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ومدخله مخرجه ومشهده مغيبة »¹.

ويبدو جلياً أنّ الآراء متفقة في المعنى حول طبيعة المنافق على أنه إظهار الإيمان وكتمان الكفر، وهو بهذا المعنى لفظ إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل الإسلام.

ومن خلال هذه الآراء أيضاً يتضح أن هناك توافقاً بين المدلول اللغوي والمفهوم الاصطلاحي، فهو الشخص الذي يدعي الإيمان كذباً وزوراً يظهره أمام الناس، وفي نفس الوقت يبطن الكفر ومعاداته لله ورسوله وللمؤمنين.

وقد شكل المنافقون في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم خطراً عظيماً على أهل الإسلام، حيث كان هدفهم تفتت وحدة المسلمين، وزرع بذور الفرقة والتخاذل بين صفوفهم، وربما كان خطر المنافقين أشد من خطر الكفار المشركين، لأنهم يعتمدون وسيلة التدليس والكذب لزرع بذور الفرقة بين المؤمنين ومحاربة النبي صلى الله عليه وسلم.

ولذلك كان خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أمته من النفاق والمنافقين وحذر وأذّر من سلوكهم ورهب من أفعالهم وغاياتهم، إلى جانب الحث والحرص على الانتباه إلى مكائدهم وعدم الوقوع في حيلهم.

هذه المعاني وغيرها نجدها في التصوير النبوي الشريف بأشكال ووجوه متنوعة ومتعددة جميعها تدل على خبثهم وفساد سرائرهم، وأن الله تعالى أعد لهم عذاباً أليماً في انتظارهم يوم القيامة جزاء بما كانوا يفعلون.

ومن هذه الأحاديث النبوية الكاشفة عن بعض صفاتهم ما يرويه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن

¹ - محمد علي الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير، دار القرآن، بيروت، ط7، عام: 1981م، ج1، ص: 33.

كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا أوتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»¹ ففي هذا الحديث يظهر عليه الصلاة والسلام الخصال التي تتعلق بالمنافقين هي من أخلاقهم، ومن شأن هذه الصفات أنها إذا فشت في مجتمع من المجتمعات فشت العداوة وزالت الثقة بين الناس وعم الفساد، ثم بعد ذلك انهيار المجتمع وسقوطه في الرذيلة وتلك بغية النفاق. لذلك كان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على إظهار هذه الصفات والترهيب منها.

والملاحظ في هذا الحديث أنه يتناول جوانب متعددة تشكل جميعها التصرف الإنساني، اختلال الأخلاق، والنوايا القلبية، والأفعال، ثم المعاملة، إلى جانب السلوك الاجتماعي.

والتصوير البياني في النبوي الشريف تتجلى فيه صورة المنافق بكل أبعادها الخبيثة وتأتي حسية ومجسمة، أو مشخصة، وتعرض المعاني عرضاً، يظهر خطر النفاق وتكشف عن حالهم يوم القيامة، ومن ذلك حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما وهو يتحدث عما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: سمعته يقول: «يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَيَتَدَلَّقُ أَقْتَابَهُ فِي النَّارِ، فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فُلَانٍ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟ قَالَ: كُنْتُ أَمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَأُكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»²، صورة بشعة رهيبة تقشعر لها الأبدان، صورة بلغت حدها الأقصى من الفظاظة وإثارة التقزز في النفس، كشف عنها التمثيل النبوي الشريف، صورة رجل في النار قد خرجت أمعاؤه من بطنه يدور بها على مرأى ومسمع من أهل النار، شبه ذلك المنظر الرهيب بصورة حمار وهو يدور بالرحى، المنظر شنيع ومشهد بشع لهذا الرجل الذي يؤتى به يوم القيامة ويلقى في النار، فهذه الصورة التمثيلية البشعة «تبدأ بمقدمة عامة، ثم

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص21، رقم الحديث: 34.

² - مصدر نفسه، ج3، ص1191، رقم الحديث: 3094.

تتخصص بالإلقاء في النار، ثم تصعد في الإثارة والهول باندلاق الأقتاب من البطن، ثم تزداد ارتفاعاً في القبح والشناعة

بالدوران بها دوران الحمار بالرحى، فإذا تناهت الصورة إلى هذا الحد الملفت - حتى لأهل النار مع ما هم فيه من هم شاغل ناصب - نظروا إلى صاحبها فإذا هو إنسان عرفوه في الدنيا من الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر فيزداد عجبهم لما ناله من المنظر القبيح والمثلة الشنيعة فيسألونه سرّ ذلك فيكشف لهم إذ ذاك ما ستر عنهم في الدنيا، من مخالفة أقواله وأعماله رياء وسمعة»¹.

إن المناسبة بين الجريمة والعقاب فيها تتناسب حيث أنّ الجزاء من جنس العمل، ألم يكن الرجل يبطن الجرائم ويسرّ المنكرات، وهو ظاهر الصلاح والتقوى؟ فاليوم يفتضح وينكشف الداخل حتى يعجب لافتضاحه من لاحق له أن يعجب ويتساءل عن ذنبه من لا وجه له أن يتساءل، إذ هم شركاؤه في الدار وقرناؤه في النار.

ثم إن اختيار الحمار بين أنواع الحيوان يتناسب أيضاً مع حال هذا الرجل مما يزيد ويعمق في تحقيره وتقبيح صورته، وترهيب الناس من النفاق، وأفعال المنافق.

وإذا كانت صورة المنافق يوم القيامة بهذا الشكل، فإن حاله في الدنيا لا يقل عن حاله في الآخرة، ففي حديث عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة، وإلى هذه مرة »².

فهذا حال المنافق لا يستقر على وجه، فهو لا إلى أهل الإيمان ينتمي فترتاح نفسه ويهدأ باله، ولا إلى أهل الكفر يظهر انتماءه فيبقى مذنباً منبوءاً لا يثق فيه أحد ولا يألفه فهو مثل الشاة الشاردة التي لا يقبلها القطيعين من الغنم، فإذا ذهبت إلى القطيع الأول نطحت، وإذا

¹ - كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص 257.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 4، ص 2146، رقم الحديث: 2784.

ذهبت إلى الثاني طردت فهو منبوذ في الدنيا والآخرة ويكون مآله الأبدى الدرك الأسفل من النار.

صورة تمثيلية آية في البراعة والجمال في اختيار الألفاظ الدالة على حال المنافق ففي قوله عليه الصلاة والسلام "العائرة" اختيار دقيق ففي لفظ "تعير" تبين أنه فقد نفسه واستهزأ بها وذاب في الآخرين، وكأن ذاته مجرد وعاء يعار « وإخراص المنافق وفق البهيمة يبين أنه يفعل به بصمت منه من قبل عدد كبير إيغالا في إبراز تدينه، وهذه البهيمة تحار بين مجموعتين من الأغنام، كما أن المنافق يحار في سلوكه في ذبذبة محرقة لنفسه، إذ لا ينكر في قرارة نفسه أن الأفضلية في جنب المؤمنين، ومع هذا يعمل في مصلحة الكفار، وقد سلب التصوير منه الرجولية كما ذكر في الشرح وتبين في لفظ الإعارة، فلم يؤخذ من هذا الحيوان نهمه أو غباؤه، بل أخذت شهوته البهيمية الدنيئة »¹.

ولفظ "العائرة" لفظ دال على المنافق يسير تبعاً لهواه بحثاً عن شهواته مثل « العائرة المترددة بين قطيعين من الغنم، وهي التي تطلب الفحل فتتردد بين قطيعين ولا تستقر مع أحدهما، والمنافق مع المؤمنين بظاهره، ومع المشركين بباطنه تبعاً لهذه وغرضه الفاسد فصار بمنزلة تلك الشاة، وفي ذلك سلب الرجولة من المنافقين »².

ولعل توظيف البهائم في مثل هذه المواقف، إنما لغرض التنفير والترهيب من مثل السلوكات الخبيثة التي يتصف بها المنافقين بغية التشنيع وتقبيح صورتهم، لذلك فإنها تأتي من أجل تقرير المعاني المجردة في الغالب وحينئذ تكون بمنزلة الحجة « فتخر عن الجمال والقبح لتكون وسيلة تقرير فكرة، يبقى الجمال قرين التشكيل الفني الذي مزج بين عالمي التجربة والحيوان »³.

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص 322.

² - المرجع نفسه، ص 322.

³ - المرجع نفسه، ص: 323.

ومن صفات المنافق كذبه خاصة إذا كان في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم. ففي حديث سَلَمَة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: « من يقل عليّ ما لم أقل فليَتَّبِعْهُ من النار »¹ فتقول الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يقل هو كذب على الله سبحانه وتعالى ولا يقوم به إلا المنافق، والمنافقون ضعاف النفوس والعقول ينشرون الكذب الذي يوصلهم إلى الفجور فيتمادون في الفجور حتى يوصلهم إلى النار « وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا »² ففي قوله: "الهداية" استعارة والغاية منها التهكم والاستهزاء من أعمال المنافقين وأفعالهم، والمنافق من أشرار الناس، لأنهم يعتقدون أن كذبهم ونفاقهم يهديهم ويفتح أبواب الدنيا في وجوههم، لكنهم في حقيقة الأمر يقودهم إلى المعاصي وإلى جهنم وبئس المصير، وبذلك تكون الصورة البيانية قد كشفت حقيقة المنافق والترهيب منه والتشجيع والتقبيح لأفعاله وأعماله، والحث على الاتصاف بصفات الإسلام والابتعاد عن النفاق لأنه طري

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص52، رقم الحديث: 109.

² - المصدر نفسه، ج5، ص2261، رقم الحديث: 5743.

المطلب الثالث: الترهيب من النبوي الشريف الشيطان في الخطاب

إن أول عداوة وأشدّها هي عداوة الشيطان وإبليس لآدم عليه السلام وبنيه، وهي عداوة قديمة منذ عهد آدم عليه السلام إلى غاية اليوم وستبقى بقاء الإنسان إلى يوم القيامة.

هذه العداوة يشير إليها القرآن الكريم محدّراً منذراً ومرهباً منها، ومن اتباع خطوات الشيطان ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾¹ وأمام غفلة الإنسان عن هذه المخاطر وعدم إدراك مسالكها وطرقها ومعرفة سبل غوايته والضلال التي تتبعها الشياطين في إبعاد الإنسان عن جادة الصواب والحق.

لذلك فقد كان لزاماً علينا الوقوف عند هذه الجوانب وإظهار أهمية الترهيب من الشياطين وذلك من خلال ما جاء في البيان النبوي الشريف، وقبل ذلك حبذا التوقف عند مفهوم الشيطان في اللغة والاصطلاح.

مفهوم الشيطان في اللغة:

اختلف أهل اللغة في الأصل الذي يرجع إليه اشتقاق هذه الكلمة، وهم في ذلك على رأيين:

الأول: أنها ترجع في اشتقاقها إلى الأصل "شَطَنَ"، ومعناه الحبل الطويل الشديد الفتل يستقى به، وشطنت الدار إذا بعدت، وغزوة شطون، أي بعيدة.

والشطن مصدر شطنة يشطّنه شطنا، إذا خالفه عن نيته ووجهه. وبئر شطون إذا استقى ماؤه بحبلين لعوج فيها، وحرب شطون عسرة شديدة، ورمح شطون طويل أعوج وأشطن أبعد.

¹ - سورة البقرة، الآية: 208.

والشيطان: « معروف كل عاتٍ متمرّد من الإنس والجن والدواب، والعرب تسمي الحية شيطاناً، وقيل الحية ذو العرف القبيح، ورؤوس الشياطين من النبات هو الشفّاح ينبت على سوق، وتشيطن الرجل فهو شيطان وشاطن، والشاطن الخبيث»¹.

وأما الثاني: "شَيْطَ" قيل: «الشيطان فعّان من شاط يشيط إذا هلك واحترق، شاط الشيء شيطاً، وشياطة وشيطوطة احترق، وشاطت القدر شيطاً احترقت، وقيل: احترقت ولصق بها الشيء، وتشيط الدم إذا علا بصاحبه واشتاط غضباً التهب في غضبه، وشاط الرجل هلك والإشاطة الإهلاك»².

ويقال تشيطن الرجل، فعّال فعل الشياطين وقال تعالى: ﴿طَلَعَهَا كَأَنَّه رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾³. وقال الزجاج: « وجهه أن الشيء إذا استقبح شبه بالشياطين فيقال: كأنه وجه شيطان وكأنه رأس شيطان، والشيطان لا يرى، ولكنه يستشعر أنه أقرب ما يكون من الأشياء، ولو رُئي لرُئي في أقرب صورة »⁴.

ومن هذه الآراء المختلفة يمكن القول: إن الشيطان سواء كان من "شطن" أو من "شيط" فإنه أصل مضطر في أصل معناه لدلالة على البعد، أو لدلالة على الهلاك والبطلان.

وبالنظر إلى اشتقاق لفظة الشيطان من أحد الجذرين يكشف عن خلاف قائم منذ القديم بين علماء اللغة، ربما كانت نشأته مع نشأة مدرستي البصرة والكوفة⁵.

فقد ذهب البصريون إلى ترجيح اشتقاقها من لفظة "شطن" في حين خالفهم الكوفيون مرجحين اشتقاقها من لفظة "شيط" ولعل أغلب علماء اللغة الذين جاءوا من بعد أقرب إلى رأي أهل البصرة حيث لم يؤيد الرأي الثاني "الكوفيون" إلا القليل من المفسرين وأهل اللغة.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص120-121.

² - نفس المصدر السابق، ج7، ص121.

³ - سورة الصافات، الآية 65.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص221.

⁵ - انظر: أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوّس، روح معاني تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: محمد حسين العرب، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط1، دون ذكر السنة، ج1، ص157.

ولقد وردت في القرآن الكريم لفظة الشيطان وتصريفاتها المختلفة "شيطانا" و"شياطين" و"شياطينهم" ثماني وثمانين مرة، وقد وردت هذه اللفظة وتصريفاتها في ثلثين سورة من سور القرآن، واحتلت سورة الواقعة في أول المصحف القدر الأكبر¹.

ومهما كان مرجع هذه اللفظة سواء كان "شطن" بمعنى البعد عن الحق والخير، أو من "شيط" التي تعني احترق، أو الاحتراق والهلك، فإن كلا المعنيين قريب من مفهوم هذه اللفظة، حيث أن البعيد دائما وأبداً عن الحق والخير هو الهلك الباطل المحترق.

الشيطان في الاصطلاح:

لم أتجه في هذا إلى التسمية والعنونة بالمعنى الاصطلاحي، لأن الاصطلاح تدل على خصوصية ارتضاها أهل علم من العلوم لكلمة ذات معنى عام.

ونحن هنا فإن كلمة الشيطان في معناها لا تحمل اصطلاحاً عند قوم دون قوم بل هي باقية على معناها اللغوي مع بعض القيود البسيطة.

ولقد جاء في كثير من الكتب قولهم: « الشيطان: هو كل عات متمرّد من الجن والإنس والدواب »²، وهذا التعريف عليه بعض من الاحترازات الخفيفة التي أضافها الشرع فقالوا: «هو كل عات متمرّد على أوامر الله من الجن والأنس »³ وبهذا تم أيضا إخراج لفظة الدواب، حيث لم ترد هذه اللفظة "شيطان" في القرآن الكريم أبداً بمعنى الدواب.

ومن الأسماء التي تقارب الشيطان وتدل عليه لفظ "الطاغوت"، وهذا الاسم معلوم عند غالبية أمم الأرض بنفس اللفظ كما يذكر العقاد في كتابه إبليس: وإنما سمي طاغوتا لتجاوزه حده وتمرده على ربه وتنصيبه نفسه إلهاً يعبد.

¹ -انظر: محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث، القاهرة، ط1، عام1994، ص485.

² - عمر سليمان الأشقر، عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الكويت، ط4، عام1984، ص16.

³ - مرجع نفسه، ص16.

ومن الأسماء التي تقارب الشيطان لفظ إبليس، والبعض يجمع بينهما، وإبليس هو المخلوق من النار، وكان يجالس الملائكة ويتعبد معهم وهو ليس من جنسهم، فلما أمر الله ملائكته بالسجود لآدم خالف أمر ربه بتكبره على آدم لادعائه أن النار التي خلق منها خير من الطين الذي خلق منه آدم عليه السلام، وكان جزاء ذلك الطرد من رحمة الله وسماه إبليس إعلما له بأنه قد أبلس من الرحمة وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض.

وقد أطلق عليه القرآن اسم الشيطان في مواضع مثل قوله تعالى: ﴿وَسَوَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَائِينَ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝﴾¹ والمراد من هذه الآية الشيطان، لأن القرآن يتحدث عن قصة إغوائه لآدم وحواء عليهما السلام.

صورة الشيطان في الخطاب النبوي:

هذه الصور التي نجدها لشيطان، أو لإبليس في القرآن على أنها مصدر الشر للإنسان ونحاول الوقوف عند هذه الصور من خلال الأحاديث النبوية الشريفة في دعوته إلى الترهيب والحذر منه ومن أساوسه ومن ذلك ما جاء عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان مع إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه، فجاء فقال: " يا فلان! هذه زوجتي فلانة " فقال: يا رسول الله! مَنْ كُنْتُ أَظُنُّ بِهِ، فلم أكن أظن بك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم"².

وفي حديث آخر عن صفية بنت حُيٍّ قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم معتكفا فأتته أزوره ليلاً فَحَدَّثَتْهُ. ثم قمت لأنقلب. فقام معي لِيَقْلِبَنِي وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فمر رجلان من الأنصار فلما رأيا النبي صلى الله عليه وسلم، أسرعاً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: " على رسلكما، إنها صفية بنت حُيٍّ " فقالا: سبحان الله! يا رسول الله!، قال: " إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرّاً " أو قال:

¹ - سورة الأعراف، الآية 20.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص1712، رقم الحديث: 2174.

«شيئا»¹ وفي رواية أخرى: " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا «².

والصورة في قوله عليه الصلاة والسلام " إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم" أو "إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم" والمعنى واحد، جاء تنبيه لما ينبغي أن يعلم من ملابسة الشيطان للإنسان، لأن طبيعة الشيطان شديد الاتصال بالإنسان لا يفارقه أبداً مثل عدم مفارقة الدم الذي يسري في عروقه، وحينئذ يكون وجه الشبه هو شدة الاتصال وعدم المفارقة بينهما، وفي ذلك دقة تصوير في دقة ملازمة الشيطان للإنسان ولهذا نجده عليه الصلاة يحذر ويهرب من هذه الملازمة التي يبلغ فيها الشيطان مبلغ الدم للإنسان والدم مركزه القلب ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: "إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا"، وعندما يكون الشيطان ملاصقا للإنسان ويجري منه مجرى الدم يكون قريبا منه شديد التأثير عليه حتى أنه يدخل على الإنسان في كل أمر بخفاء ومكر وفتنة، إنها صورة معبرة، فيها البيان والتحذير والترهيب من دسائس الشيطان.

وقيل أيضا في قوله: « إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم" هو "على ظاهره وأن الله تعالى جعل له قوة وقدرة على الجري في باطن الإنسان مجرى دمه، وقيل: هو على الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته فكأنه لا يفارق الإنسان كما لا يفارقه دمه، وقيل: يلقي بوسوسته في مسام لطيفة من البدن فتصل الوسوسة إلى القلب»³. ومن هذا التحذير والترهيب من الشيطان ووسوسته أن جعل عليه الصلاة والسلام "الحمو الموت" عن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إياكم والدخول على النساء" فقال رجل من

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص1712، رقم الحديث: 2175.

² - المصدر نفسه ، ج4، ص1712، رقم الحديث: 2174.

³ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 237.

الأنصار: يا رسول الله أفرأيت الحَمَوَ، قال: الحَمَوُ المَوْتُ¹ ومن المعلوم تحريم الخلوة بالأجنبية فما اجتمع رجل وامرأة أجنبية في خلوة إلا والشيطان ثالثهما.

والمراد بالحمو في هذا المقام أقارب الزوج غير آبائه وأبنائه، فمع أنهم ليسوا بمحارم الزوجة إلا أن عادة الناس مبنية على التساهل في دخولهم ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: "الحمو الموت" فقد شبه عليه الصلاة والسلام هؤلاء بالموت، لأن الخوف منه أكثر من غيره والشر يتوقع منه والفتنة أكثر لتمكنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن ينكر عليه فهذا هو المعنى المراد بالموت هنا والذي من أجله شبه الحمو بالموت وقال ابن الأعرابي: « هي كلمة تقولها العرب كما يقال: الأسد الموت، أي لقاءه الموت وقال القاضي: معناه الخلوة بالأحماء مؤدية إلى الفتنة والهلاك في الدين فجعله كهلاك الموت»².

والشيطان في هذا المقام سبب تحريم الخلوة أو سبب جعل الحمو الموت لأنه يقذف في القلوب الشر ويجرُّ إلى المعصية ويثير الشهوات والرغبات الخبيثة.

والبيان النبوي الشريف يحذر ويهرب من مثل هذه الخلوة من خلال الصورة البليغة التي تصور حقيقة دخول الحمو وخلوته في صوره الموت « ذلك الذي يخشى كل واحد وينفر من الاقتراب منه، وهو تصوير مستمد من الاقتدار النبوي على النفوذ في حقائق الأشياء وإدراك ما بينها من اتفاق وافتراق، وهذا التشبيه لو تمسك الناس بمضمونه وأهدافه لعالج مشكلة اجتماعية خطيرة تظهر مآسيها كل يوم هنا وهناك »³.

استحوذ الشيطان على الإنسان يعني هلاكه، لذلك نجده عليه الصلاة والسلام يحذر من هذا الجانب خاصة إذا تعلق الأمر بالصلاة حيث التحذير الشديد من عدم الصلاة في البيت لأن البيت الذي لا يصلي فيه أحد يفقد الحياة وهذا ما جاء عن ابن عمر عن النبي صلى الله

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص1711، رقم الحديث: 2172.

² - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 235.

³ - المرجع نفسه، ص236.

عليه وسلم قال: « اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبورًا »¹ ويكون ذلك عندما يستحوذ الشيطان على الإنسان ويقف منه موقف المانع: للصلاة عامة والصلاة في المنازل خاصة. وعندما تتعدم فيه الصلاة تتعدم الحياة ولذلك شبه عليه الصلاة والسلام حال البيت الذي تهجر فيه الصلاة بحال المقبرة، بل يكون موحشا رهيباً مخيفاً لانعدام الحياة فيه لأنه خال من العبادة خال من الحياة أم عندما تخلو من العبادة فإنها تصبح موتاً وقبوراً، وهذا ما يحذر ويرهب منه عليه الصلاة والسلام.

ومن صور الشيطان التي تناولها الحديث الشريف أو من يتشكل فيها خاصة المرأة المتبرجة فإنها تتشكل في صورة شيطان، فعن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب وهي تمعس منبئة لها فقضى حاجته ثم خرج إلى أصحابه فقال: « إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدهم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه »² والصورة في قوله: " إن المرأة تقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان " حيث شبه المرأة المتبرجة بصورة الشيطان وفي ذلك دلالة على أن مثل هذه المرأة باب واسع من أبواب الفتنة والضلال، ولم يتوقف عليه الصلاة والسلام عند حد إظهار الفتنة من خلال الصورة التشبيهية وإنما راح "يطعم تشبيهه بكل وسيلة لإبراز معالم هذه الفتنة حتى لا يظن السامع في لحظة من الزمان أن خطر هذه المرأة يقصر عن خطر الشيطان ولذلك لم يخرج التشبيه إخراجاً ساكناً يخف معه معنى الفتنة والإغواء، وإنما أخرجه إخراجاً متحركاً من خلال استعمال الأفعال المضارعة "تقبل" و"تدبر" فأبرز بذلك المرأة في أوج فتنتها، فهي فتنة تمشي، وتتحرك، وليست مجرد شيء ساكن هامد، وكرر عليه السلام إضافة إلى ذلك المشبه به « صورة شيطان » في حالي الإقبال والإدبار توكيداً لصلة المرأة بالشيطان والإغواء والإثارة وكذلك للدلالة على أن هذه المعاني لا تغادرها في إقبال، ولا في إدبار، وإنما هي

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 1، ص 538، رقم الحديث: 777.

² - المصدر نفسه، ج 2، ص 1021، رقم الحديث: 1403.

ملازمة لها لا تتفك عنها، ويتعزز هذا التلاقي ببناء التشبيه من غير رابط، لأن هذا يعني أن المرأة صارت هي الشيطان، وأن الشيطان صار هو المرأة»¹.

والواضح من صياغة المشبه به أن الترهيب قد انصب على صورة المرأة، فهو قرن المرأة بصورة الشيطان، ليس بالشيطان وهذا أمر طبيعي وبديهي، لأن صورة المرأة المتبرجة هي منبع الإثارة والإغواء، إلى جانب اختيار صورة الشيطان وما فيها من قبح مؤدية، وفي ذلك إشارة إلى أن ما يظهر من حسن المرأة وجمالها يخفي وراءه الكثير من القبح، لأن الصورة الحسنة ما هي إلا صورة وراءها مهالك كثيرة.

ومن الصور التي ترهب من الشيطان وتحذر من أفعاله الخبيثة التي تضل الإنسان المسلم ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يعقد الشيطان على قافيه رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب كل عقدة: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»² وهذه صورة من صور الشيطان العدائية للإنسان وهي في وقت الليل إذا نام الإنسان يقوم الشيطان بعقد تلك العقد عند رأسه حتى لا يستيقظ من نومه وبذلك تقوته فريضة صلاة الفجر وأجر هذه الصلاة وفضلها.

و الاستعارة في قوله عليه الصلاة والسلام: "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم" صورة جاءت تنبيهًا وتحذيرًا وترهيبًا للناس من أعمال الشيطان هذا الذي يثبط عزائمهم ويطفئ أنوارهم والصورة الاستعارية التمثيلية تتكون من المستعار منه: يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم، والمستعار له: تخدير الإحساس وتنشيط العزيمة وخسران العمل والأجر والثواب، وقرينة الاستعارة حالية تفهم من سياق الكلام.

¹ - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص 29.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص 384، رقم الحديث: 1091.

وطبيعة عمل الشيطان من عقد عقده لا يمكن تصويره إلا من خلال الاستعارة وذلك من خلال عقد المتشابهات، لأن طبيعة أفعال الشيطان غير مرئية إلا أن الحس النفسي يكشف تأثيرها السلبي « هذا الحس النابع من نور البصيرة عند المؤمنين وهو الذي يثبت قوله صلى الله عليه وسلم في نهاية الحديث النبوي الشريف فأصبح نشيطا طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»¹.

ولذلك يلاحظ أن من فاتته وقت صلاة الصبح وفضيلة هذا الوقت من العمل والأجر فإنه يشعر بتقل النفس وسوء الطبع، والمؤمن يدرك بحسه أن هذا من عمل الشيطان وعقده التي يعقدها، وعندما نحاول تصور هذه العقد « فقد اختلفوا فيه فقال بعضهم هو على الحقيقة بمعنى السحر للإنسان ومنعه من القيام كما يعقد الساحر من سحره وأكثر ما يفعله النساء تأخذ إحداهن الخيط فتعقد منه عقداً وتتكلم عليها بالكلمات فيتأثر المسحور وعند ذلك كما أخبر الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾² والنفث شبيه بالنفخ، والنفثات، النفوس أو الجماعات السواحر اللائي يعقدن عقداً في خيوط وينفثن عليها ويرقن ليلحق الضرر بالناس واختلاف القلوب»³.

يقول القسطلاني: « يضرب الشيطان بيده كل مكان عقدة تأكيداً وإحكاماً لما يفعله قائلاً: باق عليك ليل طويل فارقد ولا تعجل في القيام الوقت متسع أي تثقله في النوم وإطالته فكأنه قد شد عليه شداداً »⁴ هذه المعاني جميعها توضحها الصورة الاستعارية وتكشف عن تلك العقد عندما يعقدها الشيطان، وكأنه يوثق بها الجسد كله، لأنه يعقدها عند الرأس بالقرب من مركز الحس المسيطر على كل أفعال الجسم، وينفثه فيها من كلماته الخبيثة، فإنه يخدرها ويشغلها عن العمل لذلك عندما يستيقظ يشعر وكأنه مقيد، لا يستطيع النهوض، وهو فعلاً

¹ - محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص 168.

² - العيني، عمدة القارئ، مرجع سابق، ج 7، ص 193.

³ - حسين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، اللجنة الوطنية لاحتفالات القرن الخامس الهجري، الإمارات العربية المتحدة، ط 1، عام 1982م، ص 833.

⁴ - القسطلاني، إرشاد الساري، مصدر سابق، ج 2، ص 231.

ما زال مقيداً، وبذلك تكون الاستعارة توضح أفعال الشيطان وترهب منه وتحت الناس إلى عدم الخضوع لأفعاله وأعماله الخبيثة.

ومن الصور الترهيب من الشيطان أعماله ما جاء عن عبد الله رضي الله عنه قال: « ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فقيل: ما زال نائماً حتى أصبح ما قام إلى الصلاة، فقال: بال الشيطان في أذنه»¹، والصورة ترهب من أفعال الشيطان التي تمنع الإنسان من فضيلة صلاة الصبح، والأجر العظيم الذي يناله المسلم عند صلاته صلاة الصبح، يوضح ذلك عليه الصلاة من خلال الصورة الاستعارية "بال الشيطان في أذنه" يفعل الشيطان الخبيث بمسامع العباد ومواطن الحس التي ينفث فيها بالكلمات الخبيثة التي تجعل العبد يستغرق في نومه فكلامه عليه الصلاة والسلام « تمثيل شبه تناقل نومه وإغفاله عن الصلاة بحال من يبال في أذنه فيثقل سمعه ويفسد حسه»².

وأطراف الاستعارة في المثل النبوي الشريف تتكون من المستعار منه: بال الشيطان والمستعار له: ثقل الحس الناتج عن تحكم الشيطان بالعبد وانقياد هذا الأخير له واستغراقه في النوم والقرينة الحالية تفهم من السياق وفي توظيف لفظ البول دون غيره « وخص البول من بين الأخبثين ،لأنه مع خباثته أسهل مدخلا في تجاوزيف الخروق والعروق ونفوذه فيورث الكسل في جميع الأعضاء »³.

والملاحظ أن حذف المستعار له في التركيب التمثيلي يزيد من الترهيب والتخويف من أعمال الشيطان الخبيثة، ولذلك فإن الترهيب من هذه الأعمال يرفع من اليقظة ويزيد من الإيمان والخشوع في الصلاة والحرص عليها وعلى أوقاتها وتجنب الالتفات أثناء الصلاة فإنه يفسد أعمال الشيطان، ومن ذلك ما جاء عن عائشة رضي الله عنها، قالت: سألت رسول الله

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص384، رقم الحديث: 1093.

² - صحيح البخاري بشرح الكرمانى، مصدر سابق، ص198.

³ - القسطلاني، إرشاد الساري، مصدر سابق، ج2، ص323.

صلى الله عليه وسلم، عن الالتفات في الصلاة، فقال: « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد »¹ وهي أيضا استعارة تمثيلية توضح كيف يأتي الشيطان في أثناء الصلاة بغية إزالة عن المصلي بركة الصلاة التي يقف فيها العبد بين يدي الله خاشعاً متضرعاً طالبا العفو والرحمة.

الشيطان لا يروقه مثل هذه المواقف التي يقفها العبد في صلاته، فهو يبقى ينتظر الفرصة حتى يخطف فيها الخشوع من المصلي فإذا التفت المصلي من دون عذر يستوجب الالتفات انتهز الشيطان هذه الفرصة السانحة ليخطف منه الخشوع فلما كان الالتفات فيه ذهاب الخشوع استعير لذهابه اختلاس الشيطان تصويرا لقبح تلك الفعلة بالمختلس.

وأركان الاستعارة تتكون من المستعار منه: اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد، والمستعار له: نقص الخشوع وذهاب بركة الصلاة وفضيلتها بالالتفات وبذلك تكون القرينة حالية تفهم من سياق الكلام.

وهذه الصور المختلفة والتي تحذر وترهب العبد من سبل الشيطان في محاولة إضلالهم وإفسادهم والحيلولة دون عبادتهم لربهم، ومع هذا البيان الواضح والتحذير والترهيب والتخويف الذي أظهر التصوير النبوي الشريف بغية أن يحرص المسلم على دينه، وأن يستعيز بالله من شر الشيطان وشركه وأن يكون على بصيرة من أمره ودينه. البيان النبوي قد أدى وظيفته النفسية في الترهيب من الشيطان.

وبعد هذه الصور المختلفة التي تحذر وترهب العباد من سبل الشيطان، و هذا البيان النبوي الواضح وهذا التحذير والترهيب والتخويف، دلالة على حرصه عليه الصلاة والسلام ، وخوفه على أمته، وعلى دينهم من الشيطان الرجيم.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص261، رقم الحديث: 718.

المطلب الرابع: صور الفتن والمعاصي في الخطاب النبوي الشريف

موضوع الفتن والمعاصي يتصل اتصالاً مباشراً بالشیطان، لأنه وراء كل الأ كدار والمصائب التي تنزل على المؤمن كالسحب المتراكمة وتتواتر عمياء صماء مطبقة كقطع الليل المظلم، أو كالأمواج المتلاطمة تطيش فيها العقول وتموت فيها القلوب إلا من عصم ربي.

ولهذا فإننا نتناول الموضوع في شكله العام، لأن الفتن والمعاصي متنوعة وليس فيها تخصيص، حيث يمكن لشیطان أن يتسرب إلى كل الجوانب المتصلة بالمؤمن «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم».¹

مفهوم الفتن والمعاصي:

الفتنة في اللغة: من الاختبار والامتحان والابتلاء و«فتن: الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار ومن ذلك يقال: فتن: أفتن فتناً، وفتنت الذهب بالنار: إذا امتحنته».²

ويرد استعمالها بمعنى الاحتراق مطلقاً للذهب ولغيره، وربما يكون الأكثر وروداً وتداولاً في تعريفات اللغويين، ولهذا نجد في كتاب العين معاني فتن حيث قال: «والفتن إحراق الشيء بالنار كالورق الفتن، أي المحترق»³، ومنه قوله تعالى ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾⁴ والفتنة بالكسر: الخبرة كالمفتون ومنه قوله تعالى ﴿بِأَيِّكُمْ أَلْمَفْتُونُ﴾⁵.

والفتنة تشمل، الضلال، والإثم والكفر، والفضيحة، والعذاب وإذابة الذهب والفضة والإضلال والجنون، المحنة، والمال والأولاد، واختلاف الناس في الآراء.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص1712، رقم الحديث: 2175.

² - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج4، ص472.

³ - الخليل بن أحمد، كتاب العين، مصدر سابق، ج3، ص301.

⁴ - سورة الذاريات، رقم الآية13.

⁵ - سورة القلم، الآية6.

والواضح من هذه المعاني جميعها أن مدلول الفتنة في كلام العرب كثير المعاني ومتداخل، غير أن هذه المعاني ليست متباعدة، بل مراميها قريبة بعضها من بعض وجميع معانيها لها صلة بالنفس الإنسانية الممتحنة بالخير والشر، وهذا ما يذهب إليه الجرجاني في التعريفات بقوله: «هي ما يُبينُ به حال الإنسان من الخير والشر»¹.

وإذا كانت المعاني تتجه نحو حال الإنسان، فإنه لا عجب أن يكون الشيطان وراء ذلك، لأنه يوسوس هذه النفوس لتحديد عن سبل الحق وتسلك طريق الغواية، فكثير من معاني الفتنة شديدة الصلة بإبليس، ومنه سمّت العرب في كلامها الشيطان فتانا.

هذه المعاني المتنوعة تظهر أصالة جذرها في كلام العرب، فهي مشترك لفظي لعدة معاني تدور في مجملها حول الابتلاء والاختيار، ونعتقد أن التعريف الذي أورده ابن منظور أكثر اتصالاً بطبيعة الفتنة حيث قال: «وفتن إلى النساء فتونا، وفُتِنَ إليهن: أراد الفجور بهن والفتنة الضلال والإثم والقاتن: المضل عن الحق، والقاتن، الشيطان لأنه يضل العباد، صفة غالبية، الفتان الشيطان الذي يفتن الناس بخداعه وغروره وتزيينه المعاصي، فإذا نهى الرجل أخاه عن ذلك فقد أعانه على الشيطان»².

ثم أورد معان أخرى للفتنة منها «الكفر والفضيحة والعذاب، وما يقع بين الناس من القتال والاختبار والإحراق»³.

والفتن جمع فتنة وأصل الفتنة الاختبار، ثم استعملت فيما أخرجته المحنة والاختبار إلى المكروه، ثم أطلقت على كل مكروه أو آيل إليه كالكفر والإثم والتخريق والفضيحة والفجور وغير ذلك.

¹ - الشريف الجرجاني، مصدر سابق، التعريفات، ص138.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج10، ص180.

³ - انظر: المصدر نفسه، ج10، ص179-182.

الفتنة اصطلاحًا:

تناول العديد من العلماء لفظة الفتنة بالتعريف بغية الإحاطة بهذا المفهوم المتعدد المعاني فيعرفها الزمخشري بقوله: « الفتنة الامتحان بشدائد التكلف من مفارقة الأوطان ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة وهجر الشهوات والملاذ بالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال وبمصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم وضرارهم »¹.

ويعرفها ابن حجر أيضا بقوله: « ومعنى الفتنة في الأصل: الاختبار والامتحان، ثم استعملت في كل أمر يكشفه الامتحان عن سواء»² وهذا التعريف ربما كان أقرب إلى المعنى اللغوي منه إلى التعريف الاصطلاحي.

وأما الراغب الأصفهاني فقد يعرفها ا بقوله: « أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾³ ثم بعد ذلك أخذ في تفصل معنى الفتنة واستعمالاتها ووجودها في القرآن وقد أسهب في ذلك فقال: « والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد كالبلية والمصيبة والقتل والعذاب وغير ذلك من الأفعال الكريهة، ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك »⁴ وقد بين مشابهة الفتنة للبلاء من حيث الاستعمال فقال: « وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يرفع إليه الإنسان من شدة ورخاء وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالا »⁵.

أما في القرآن الكريم ، فقد وردت لفظة الفتنة فيه ، أربعاً وثلاثين مرة بمعان مختلفة، وإذا أخذ في الحسبان ما اشتق منها مثل "المفتون" و"يفتنون" فإن العدد يزيد على ذلك.

¹ - الزمخشري، الكشاف، مصدر سابق، ج3، ص439.

² - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق ، ج2 ص8.

³ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ج1، ص482.

⁴ - المصدر نفسه، ص482.

⁵ - المصدر نفسه، ص482.

غير أن المفهوم الغالب في استعمالات القرآن يتمثل في الابتلاء والاختبار والامتحان والتمحيص، وهذه المفاهيم تقارب الأصل اللغوي للفتنة، ثم أن السياق والقرائن اللفظية يخصصان أحياناً بمعاني دقيقة ولذلك لابد من الرجوع إلى تفاسير القرآن الكريم لفهم مفهوم الفتنة في القرآن الكريم، قد جعلها البعض اثني عشر معنى¹

وأما في الحديث النبوي الشريف فقد وردت هذه اللفظة، ولها حضور متعدد ومتنوع ومعانيها لم تخرج في مجملها عما جاءت عليه في كلام العرب، الدال على الابتلاء والامتحان، غير أنه يبقى السياق اللفظي والقرائن المصاحبة لها في تحديد المعنى المراد، ومن هذه الأحاديث ما جاء عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في كل الصلاة: « اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا وفتنة الممات اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم ، فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيز من المغرم؟ فقال: إن الرجل إذا غرم، حدث فكذب، ووعد فأخلف ».²

وأسلوب الحديث النبوي الشريف يقوم على التحذير والتخويف والترهيب من الفتنة، والحث على اجتناب الدخول فيها، لأن شرها يكون بحسب التعلق وهذا ما سيتضح من خلال الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف والترهيب من أشكال الفتن.

ومن الأحاديث التي تناولت بيان الفتن وأنواعها ما جاء عن أبي إدريس الخولاني كان يقول: قال حذيفة بن اليمان: والله! إني لأعلمُ الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، ومابي إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرَّ إليَّ في ذلك شيئاً لم يُحدِّثهُ غيري، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال، وهو يحدث مجلساً أنا فيه عن الفتن، فقال

¹ - انظر: الفيروز آباد، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، تحقيق محمد علي النجار، وزارة الأوقاف جمهورية مصر العربية، دون ذكر الطبعة، 1992، ج4.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص286، رقم الحديث: 798.

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعد الفتن: « منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً، ومنهن فتن كرياح الصيف، منها صغار ومنها كبار»¹.

والحديث فيه بيان للفتن وأنواعها، ومن هذه الأنواع ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً إلا وأتت عليه وفي ذلك خطر عظيم منها ومن أمرها، وحتى « يتصور خيالنا الفتن التي لا تكاد تذر شيئاً أتت عليه...إنها صورة تترك للخيال أن يذهب في تصور هذه الفتن مذاهب شتى في التدمير والإفساد والإغواء، لا تذر شيئاً إلا أتت عليه لا تذر حياً إلا قتلتها ولا نباتاً إلى قطعته ولا بناياً إلى هدمته »² والصورة التشبيهية في قوله: " ومنهن فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار، وهو تشبيه حالة بحالة على سبيل التمثيل.

هذه الصورة التمثيلية استمد عليه الصلاة والسلام عناصرها من الطبيعة والبيئة العربية، لأن العرب يعرفون تمام المعرفة الرياح وأنواعها فقد تكون « ريحا لا يحس الناس بها إلى بصعوبة، وقد تكون ريحا تملأ الرحب الكبير والفضاء الواسع وتثير الغبار الذي يحجب الرؤية ويدخل كل بيت، ويضيق على الناس سبيل التنفس، إنها صورة مأخوذة من الحياة في الجزيرة العربية »³.

إن مثل هذا التصوير له من القدرة على التأثير النفسي، لأن المؤثرات النفسية باختلاف أشكالها وانعكاساتها ودرجة قوتها ووضوحها تتغلغل في النفس الإنسانية وتثير انفعالات اتجاه الأشياء، ومن الطبيعي أن يكون هذا الأثر في التصوير النبوي الشريف من خلال الترهيب من الفتن والدعوة إلى الحيطة والابتعاد عن الشبهات ومكامن الفتن، ولذلك لابد من الحزم وسد طريق الشيطان من الوهلة الأولى، وعدم التساهل في الأمور سواء كانت صغيرة أو كبيرة.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص2216، رقم الحديث: 2891.

² - محمد الصباغ، مرجع سابق، التصوير الفني في الحديث النبوي، ص263.

³ - المرجع نفسه ، ص263.

ومن الأحاديث التي تناولت الفتنة ما جاء عن أسامة رضي الله عنه قال: أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أطم من آطام المدينة فقال: «هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر»¹ قال النووي: «والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي أنها كثيرة، وتعم الناس، لا تختص بها طائفة، وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بينهم كوقعة الجمل، والصفين والحرّة ومقتل عثمان، ومقتل الحسين رضي الله عنهما، وغير ذلك»² فالتمثيل النبوي في هذا الحديث يعرض لمواقع الفتن خلال بيوت المسلمين ويدلّل عليها من خلال مواقع القطر، وهي مواقع لا عد لها، ولا حصر، لأن القطر يضرب كل بيت ويصيب كل زاوية، وهذا يدل على كثرة الفتن وعمومها المسلمين كافة، وأن لا رد لها، والتشبيه بمواقع الفتن بمواقع القطر بين البيوت يتناغم مع دلالة الفتن على الخراب والدمار، لأن مواقع القطر هنا سبب للخراب والهلاك، وكذلك البناء الصرفي للتمثيل مع معنى الكثرة يتناغم مع المشبه والمشبه به في صيغة الجمع "مواقع الفتن، كمواقع القطر" والوظيفة من ذلك إشباع معنى الكثرة والعموم مما يعني حتماً إشباع معنى الخراب وما أشبه هذه الصورة بالواقع العربي اليوم.

ومن الأحاديث التي تناولت الفتنة والترهيب منها ما جاء عن حذيفة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا فأى قلب أشربها نُكِتَ فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نُكِتَ فيه نُكْتَةٌ بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مزبأً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً، إلا أشرب من هواه»³.

والظاهر من الحديث أن الفتن تتوالى واحدة بعد الأخرى حيث تكرر عرض الفتن واحدة بعد الأخرى، ولذلك سأل عمر وهو في مجلسه قائلاً: أيكم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص:664، رقم الحديث:1779.

² — شرح النووي على صحيح مسلم، مصدر سابق، ص:1674، رقم الحديث:2885.

³ — صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص128، رقم الحديث:144.

يذكر الفتن التي تموج موج البحر، والمراد منها أنها تضطرب ويدفع بعضها بعضاً، حيث شبهها بموج البحر لشدة عظمها وكثرة شيوعها.

وبالعودة إلى الحديث يتضح أن بناء الحديث يعتمد على ظاهرة فنية من خلال تكثيف المعنى، ثم يأتي بعد ذلك التفصيل من خلال جزئيات، وهذه الظاهرة الفنية تحدث رغبة عند المتلقي وتجعله في شوق إلى ما يلقي عليه، إلى جانب الظاهرة الثانية وهي ظاهرة التضاد بين الطرفين مما يعطي وضوحاً أكثر للمعاني.¹

حديث عظيم تناول فيه عليه الصلاة والسلام جانب متعددة تتصل بحياة الإنسان سواء كانت مادية، أو معنوية، أو روحية نفسية، يظهر الحديث المؤمن وما حوله من ظروف الحياة، فقد يمتحن في حياته من خلال ما يعرض عليه من المغريات وهي كثيرة ومتنوعة « والنفس قد تميل إلى بعض نظنها قليلة الخطر، ولذلك جاء هذا الحديث في دعوته إلى الحذر وأخذ الحزم وغلق الطريق أمام الشيطان ووسوسته من البداية وعدم التساهل في الصغائر، لأن ذلك يجر إلى التساهل في الكبائر». ²

والحديث قطعة فنية بيانية يقوم على التصوير والتجسيد والتشخيص من خلال التشبيه والكناية والاستعارة وهي صور ترهيب من الفتن والمعاصي التي تجعل القلب يصدأ

و يسود حتى يطبع عليه، فالذنوب عندما تكثر وتحيط بقلب صاحبها تغشاه وعندئذ تتسلل إليه متتابعة متلاحقة واحدة بعد الأخرى، كما ينسج الحصار عوداً عوداً، وأما قلب المؤمن العامر بحب الله ورسوله فإنه كالصفا، أي الحجر الأملس في صلابته وتماسكه ونقاوته فلا تضره فتنة ولا تستهويه معصية، ولا يرضى بديلاً عن حلاوة الإيمان في قلبه،

وأما غيره ممن لم يتمكن حب الله ورسوله في قلوبهم فإن سهام الفتن وشهوات الدنيا تؤثر فيه خاصة على قلبه حتى يكون مرابداً متغيراً عن لونه فإذا انساق العبد أكثر فأكثر وراء هواه

¹ - انظر: نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص51.

² - أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص637.

اختفى أثر البياض، واسود قلبه وأظلم » وتبدو القلوب في بداية النص مشبهة بالحصير لحرصها على النظام والترص والتكاثر، فلا خلل ولا اعوجاج، ثم تكون الفتنة شراباً يُشرب بالقلب، وهي صورة متحولة من الخارج إلى الداخل، والمراد بالفتنة كل ما يُغري الإنسان بمخالفة الشرع من مناصب وتعصب وأطماع اجتماعية ومالية، وكذلك تعني الشهوات والرغائب على أنواعها¹.

هذه المعاني يظهرها التصوير البياني النبوي الشريف حيث شبه عرض الفتن على القلوب بعرض قضبان الحصير على صانعها واحداً بعد واحد، وفي ذلك إظهار أن الفتن تتوالى، حيث إذا انتهت فتنة، جاءت أخرى مثل توالي قضبان الحصير في النسيج والصورة من التشبيه التمثيلي، لأنها أقدر على الوصف بدقة «وقد عرض الحديث هذا التحليل النفسي بطريقة التمثيل فقد شبه عروض هذه الفتن والمحن بالحصير، وكيف يتجمع وينسج بالعود بعد العود حتى يصير حصيراً، كذلك الفتن تتجمع حتى تغير قلب الإنسان وتغلبه فيصبح مليئاً بالشر بدلاً من الخير»².

وفي هذا التركيب أيضاً " تعرض الفتن على القلوب " صورة كناية عن لصاقة الفتن بالقلوب، مثلما يلصق الحصير بجنب النائم عليه ويؤثر فيه شدة التصاقها، وفي ذلك زيادة في المعنى وإيضاحه وتأكيده من خلال قوله: "عوداً عوداً" والدلالة على الالتصاق الحاد لهذه الفتن بالقلب لذلك فإن الصورة تعمق المعنى وترهيب النفس من هذه الفتن³.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام " وأي قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة " والصورة تمثل القلب الذي أنكر الفتن ولم يتقبلها وهو القلب الثابت الذي لم يتغير أمام كل المغيرات بالمرمر الصلب "الصفا" الذي يسر الناظر

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص610.

² - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص81.

³ - انظر: أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص638.

إليه لجمال لونه وصفائه واستقامته حيث أن هذا الحجر الأملس لا يعلق به شيء، فهذا القلب، قلب لا يتأثر بالفتن فهو صلب في إيمانه مطمئن، لأنه يدرك حلاوة الإيمان، فهو ظاهر ينكر المنكر ويدرك المعروف لا تؤثر فيه الفتن ولا تضره.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: " فأَيُّ قلبٍ أشربها نُكِّتَتْ فيه نُكْتة سوداء وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء " صورة كناية أيضا في "أشربها" كناية على أنها دخلت فيه دخولا تامًا وألزمها وحلت منه محل الشراب، وتلمس منه أيضا صورة كناية مدعمة بالجناس في قوله عليه الصلاة والسلام: "نكت فيه نكتة سوداء" والمراد أنه نقط نقطة كأنك تمسك بالقلم وتضع نقطة متتابعة تخالف اللون الأصلي الذي كان عليه القلب، والمقابلة الظرفية الدالة بين القبول والرفض في "أشربها" وبين "أنكرها" وبين "نكتة سوداء" و"بيضاء" وكأن القلوب بناء على ما تقدم على قلبين: "على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة" فهو عليه الصلاة والسلام لم يشبه به هنا بياضه، وإنما لشدته على عقد الإيمان وسلامته من الخل.¹، لأن الفتن لا تلصق به، ولا تؤثر فيه مثل الصفا الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

والقلب الثاني: "أسود مربادًا كالكوز مجخيًا لا يعرف معروفًا" فهو متغير بين السواد والغبرة ومنكوسًا مقلوبًا، وهذا يمثل "حال المفتون الذي توسعت في قلبه النكتة السوداء فيتبين لنا تراكم الضلالات لديه والصدود عن الخيرات وقد شبهه بالكوز وهو من المكونات الصناعية على حين شبه قلب المؤمن بالصفا وهو من المكونات الطبيعية ووصفه بكونه "مُجَخِّيًا ليعبر عن الحالة القلقة التي يعيشها أهل الفتن والضلالات".²

ويختم عليه الصلاة والسلام تصويره البياني بصورة آية في الدقة، صورة استعارية حين شخص الهوى الذي يتسرب شرابا إلى قلوب "يخالط ذراته كما تسربت الفتنة في بداية الحديث، وقد استعير الشراب بفعل مبني للمجهول للتعتيم على الفاعل ولفت الاهتمام إلى هول الفعل وضخامته والانشغال به".³

¹ - انظر: أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص 639.

² - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص 84.

³ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص 617.

ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الصورة وغيرها في المؤمنين وترهبهم من خلال الدعوة إلى الابتعاد عن الفتن وكل السبل المؤدية إليها والواضح ومن جميع المعاصي وما ينكر من قول أو فعل أو اعتقاد ،أن الفتنة لها طرائق متعددة تكون في الخير، وتكون في الشر، قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْهُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾¹ وذلك حين يدعو الإنسان أحيانا على نفسه أو ولده أو ماله بالشر وذلك عند الغضب، مثل ما يدعو بالخير وهذا من جهل الإنسان.

فتنة الدجال في الخطاب النبوي:

يعد خروج الدجال من علامات الساعة، حيث يمثل أعظم فتنة تحدث على وجه الأرض شخصية يبتلي الله بها الناس، حيث يمكنه من خوارق كثيرة فيرسل معه الخصب وزهرة الدنيا، يمنحه قدرة على القتل، ثم الإحياء، وفي ذلك استدراجا وامتحانا للغير.

يتدرج الدجال في دعواه، فيدعي الصلاح، النبوة، ثم الإلهية ويظهر بعضا من الخوارق وقد اقتضت حكمة الله أن يكون تكذيب دعواه بحالته ونقص صورته، وعجزه عن إزالة العيب الذي في عينيه كلاتهما، لتقوم الحجة على العامة والخاصة بأنه كذاب.

فتنته عظيمة تدهش العقول وتحير الأذهان، إلى جانب سرعة انتقاله في الأرض فيقع رعا ع الناس في هواه، فهو لا يقيم بينهم حتى لا يكتشف نقصه وعيوبه، ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم منه ورهب الناس من أعماله، لأنه خارج في أمته لا محالة.

مع أن هذه الشخصية الغيبية ولم يأت التصريح بها في القرآن الكريم، وأما في حديث النبوي الشريف، فقد ذكره عليه الصلاة والسلام ، ومن ذلك ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا : طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض»².

¹ - سورة الأنبياء، الآية 25.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص138، رقم الحديث158.

وفي أحاديث كثيرة ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أوصافا يتصف بها الدجال بغية أن يتعرف عليه الناس إذا ظهر فيهم، ويتعرفون عليه أن هذا هو الدجال الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم.

وسوف نحاول الوقوف عند بعض أوصافه وأعماله التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما جاء عن نافع قال: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بين ظهراي الناس المسيح الدجال فقال: « إن الله تبارك وتعالى ليس بأعور، ألا إن المسح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنبه طافية»¹. وفي رواية ثانية: « أراني الليلة في المنام عند الكعبة، فرأيت رجلا آدم كأحسن ما أنت راء من أدم الرجال، له لمة كأحسن ما أنت راء من اللّم، قدّر رجّلاً فهي تقطر ماء ، متكئا على رجلين "أو على عواتق رجلين" يطوف البيت، فسالت: من هذا؟ ف قيل: هذا المسيح بن مريم، ثم إذا أنا برجل جعدٍ قَطَطٍ ، أعور العين اليمنى، كأنها عنبه طافية، فسألت: من هذا؟ ف قيل: هذا المسيح الدجال»².

كما أشرنا وردت أحاديث كثيرة تتناول فتنة الدجال، وتشكل جزءاً كبيراً لو جمعت في بحث فإنها ستعطى صورة واضحة وكاملة عنه، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصافا متعددة تجعل من هذه الشخصية الغيبية واضحة المعالم، فهو رجل شاب جسيم هجان أحمر البشرة قطط، أي شديد جعودة شعر الرأس، كأن رأسه وشعره غضى شجرة، وكأن رأسه أصله "والأصله الأفعى"، وقيل حية ضخمة عظيمة قصيرة الجسم تثبُ على الفارس فتقتله فشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس الدجال بها لعظمه واستدارته، وفي الأصله مع عظمها استدارة»³.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص155، رقم الحديث 169.

² - المصدر نفسه ، ج1، ص155، رقم الحديث 169.

³ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج1، ص156.

وهو أجلى الجبهة عريض النحر، وفي رواية أخرى قصير وأفجح المتباعد ما بين الفخذين، وفيه انحناء في ظهره أعور العين اليمنى، وفي رواية أخرى أعور العين اليسرى وفي روايات أن إحدى عينيه ممسوحة، وعينه اليسرى عليها ظفرة غليظة مكتوب على جبهته كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، إلى غير ذلك من الأوصاف التي نجدها ماثلة في الأحاديث النبوية الشريفة، وهي أوصاف ترهب بمنظرها المخيفة وتكشف عن الدجال، وقد رأينا بعد ذكر أهم الأوصاف التي وردت في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم الوقوف عند بعض الصور البيانية التي تكشف عن هذه الشخصية، وحتى نتمكن من ذلك اعتمدنا على الصورة التشبيهية، لأنها أكثر وروداً في إظهار صفات الدجال، ثم أن الصورة التشبيهية لها من القدرة على توصيف معالم هذه الصورة الخبيثة.

ومن ذلك ما جاء عن عبد الله بن عمر: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال فقال: "إن الله تبارك وتعالى ليس أعور، ألا إن المسح الدجال أعور عين اليمنى كأن عينه عنب طافية"¹ وفي رواية ثانية «كأن عينه عنب طافئة»².

فعلى رواية "الهمزة" يكون المعنى ذهب ضوئها، وعلى رواية عدم الهمزة يكون المعنى «ناتئة ويمكن أن تكون لفظة واحدة بمعنى واحد والاختلاف لهجي»³.

وأما ما ذكر في بعض الروايات «فقد جاء وصف الدجال في بعض الروايات بأنه ممسوح العين وأنها ليست حجراً ولا ناتئة بل مطموسة، وهذه صفة حبة العنب إذا سال مأوها وهذا يصحح رواية الهمزة»⁴.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص155، رقم الحديث 169.

² - المصدر نفسه، ج1، ص155، رقم الحديث 169.

³ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص45.

⁴ - المرجع نفسه، ص46.

ويمكن لنا الجمع بين هذه الصفات « بأن تكون المطموسة والممسوحة والتي ليست بحجاء ولا ناتئة هي العوراء الطافئة بالهمزة وهي العين اليمنى، وتكون الجاحظة والتي كأنها كوكب وكأنها نخاعة هي الطافية بغير الهمزة وهي العين اليسرى.. »¹.

والصورة التشبيهية جاءت دقيقة في مدلولها، وذلك يعود إلى اختيار الألفاظ الدالة على ذلك والمعبرة عن المعنى المناسب والملائم ففي قوله عليه الصلاة والسلام: « كأن عينه عنب طافئة " فالصورة دقيقة مطابقة للحقيقة وفي ذلك تقبيح المشبه وإظهار أن العقل السليم لا يرضى أن يكون إله قبيحا بهذه الصورة المطابقة للحقيقة والمعروف عند الناس أن أشد ما يكون القبح يكون في الوجه عامة وفي العين خاصة. " فلو كان المسيح الدجال إلها لكان أولى بأن يكون في هيئة حسنة فإن فاقد الشيء لا يعطيه»².

ومن الصور التي يحذر فيها عليه الصلاة والسلام من الدجال ما جاء عن أبي سلمة قال سمعت أبا هريرة قال: « ألا أخبركم عن الدجال حديثا ما حدثه نبي قوم؟ إنه أعور، وإنه يجي معه مثل الجنة والنار، فالتى يقول إنها الجنة هي النار، وإنى أنذرتكم به كما أنذر به نوح قوم »³.

هذا الحديث يحمل من التحذير والتخويف وترهيب من الدجال الكذاب والمصطفى عليه الصلاة والسلام يحذر أمته ويكشف أكاذيبه، ونحن هنا نود الوقوف عند تشبيهين وأول هذه الصور التشبيهية ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: " وإنه يجي معه مثل الجنة والنار... " فقد شبه الأعمال والأكاذيب التي يقوم بها الدجال من الأدلة والبراهين بغية تصديقه واتباعه في دعواه، شبه ذلك كله بمثل الجنة يضع فيها من يتبعه ويؤمن به ومثل النار يجعلها لمن يخالف هواه، فيخيل للناظرين أنها نار يرمي فيها من عصاه وكذب بألوهيته.

¹ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق ، ص46.

² - المرجع نفسه، ص47.

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص2250، رقم الحديث 2137.

ووجه الشبه هي الحال الوهمية لما جاء به فكأنها جنّة، وكأن الأخرى نار في وجود نعيم وعقاب وهمي مخالف للحقيقة. صورة تكشف لنا حقيقة هذا الدجال وأساليبه الوهمية بغية خداع الناس وإقناعهم بألوهيته «وهذا التعبير يدل دلالة واضحة على أن ما مع الدجال هو تخيل فليست الجنة على الحقيقة، وليس النار على الحقيقة، ويدل أيضا على أن قدرته على الإغواء والإغراء كبيرة ولذلك أتبع المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا التعبير بقوله " فالتى يقول إنها الجنة هي النار " وهذا من جملة الفتن التي تظهر مع الدجال امتحان من الله تعالى لعباده، ليحق الحق ويبطل الباطل، ثم يفضح الدجال ويظهر للناس عجزه»¹.

وفي حديث آخر عن عقبة بن عمرو، أبي مسعود الأنصاري، قال: انطلقت معه إلى حذيفة بن اليمان، فقال له عقبة: حدثني ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدجال: قال: « إن الدجال يخرج، وإن معه ماء ونارا، فأما الذي يراه الناس ماء، فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس نارا فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه نارا، فإنه ماء عذب طيب»² وفي رواية ثانية « لأننا بما مع الدّجال أعلم منه، إنّ معه نهراً من ماء ونهرا من نار، فأما الذي ترون أنه نار، ماء، وأما الذي ترون أنه ماء، نار، فمن أدرك ذلك منكم فاراد الماء فليشرب من الذي يراه نار، فإنه سيجده ماء»³.

وهذا الإيضاح الذي أظهر عليه الصلاة والسلام يؤكد حقيقة القول أن الدجال يعتمد على الأساليب الواهية والتخيل من خلال محاولة تغيير حقيقة الأشياء بغية إيهام الناس بألوهيته عن طريق الكذب والخداع والتضليل والنفاق.

ولذلك نجده عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على إبانة الأمور وإيضاحها من خلال كشف المكر والخداع ومحاولة الإيقاع بالناس في شرك الكفر والهلاك.

¹ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص309.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص2250، رقم الحديث 2934.

³ - المصدر نفسه، ج4، ص2250، رقم الحديث 2935.

وفي إيضاحه وبيانه عليه الصلاة والسلام للفتنة العظيمة، دعوة إلى الصبر والثبات على الإيمان حتى يرمي بالعبد في ناره الواهية، والتي ستكون حالة حقيقية في جنة رب العالمين.

هذا الإغواء يتضح في حديث آخر عن النواس بن سمعان في حديثه الطويل عن المسيح الدجال يرفعه للنبي صلى الله عليه وسلم قال: «...قلنا: يا رسول الله! وما إسرأه في الأرض؟ قال: كالغيث استدبرته الرِّيحُ، فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتتبت، فتروح عليهم سارِحَتُهُمْ، أطول ما كانت ذُرًّا، وأسْبَغُضُهُ ضُرُوعًا وأمدّه خَوَاصِرَ، ثم يأتي القوم، فيدعوهم فيردّون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمَحْلِينَ ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمرّ بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتنبّعه كُنُوزُها كيَعَاسِيِبِ النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئًا شبابًا، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلّل وجهه يضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق بين مهرودتين، واضعا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قَطَرَ، وإذا رفعه تحدّر منه جمانٌ كاللؤلؤ....¹» هذا الحديث جاء طويلا أخذنا منه هذا المقطع، ونحن مضطرون إلى ذلك مع أننا نعتقد أنه يخل بالمعنى في بعض الجوانب، ومع هذا أخذنا هذا المقطع الذي ورد فيه العديد من الصور التشبيهية التي توضح جوانب من هذه الشخصية الخبيثة واتصافه بالسرعة الفائقة فكان جوابه عليه الصلاة والسلام " كالغيث استدبر به الريح " صورة دقيقة جدًا تم اختيار المشبه به بكل عناية ويدرك مدى دقتها من كان على دراية بالبيئة العربية ويعرف مسار الرياح والأمطار فقوله: "كالغيث" ثم نعته بمن استدبرته الريح، وفي ذلك دلالة على شدة السرعة وذلك بيان حال المشبه وتصويره تصويرًا دقيقًا كاشفاً².

والصورة الثانية التي أود الوقوف عندها في هذا الحديث قوله عليه الصلاة والسلام " ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك فتنبّعه كنوزها كيَعَاسِيِبِ النحل " والمراد ببعاسيب

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص2252، رقم الحديث 2937.

² - أنظر: عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص314.

النحل: قيل ذكور النحل، وقيل أن المراد جماعة النحل لا ذكورها وعبر عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها لأنه متى طار تبعته جماعته حيث شبه الكنوز التي تتبع الدجال في خداعه باليعاسيب في سرعة لحوقها والصورة تتصل بالمعنى وتحقق التناسب، ثم أنها أيضا مأخوذة من البيئة العربية. وفي إظهار وظيفتها يقول الجاحظ " يقال: « بكر بكور اليعسوب " يريد أمير النحل لأنها تتبعه عدوة إلى عملها " ... لأن الرئيس هو الذي يوردها ويصورها، وتنهض بنهوضه، وتقع بوقوعه واليعسوب هو فحلها »¹.

والصورة الأخرى التي نود الوقوف عندها في هذا الحديث ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام: « ثم يدعو رجلا ممتلئاً شاباً فيضربه بالسيف فيقطعه حزلتين رمية العرض " ففي قوله " ممتلئاً شاباً" صورة تعرض الشباب كأنه شيء مادي يلمس ويمأ الرجل. والصورة الأخرى في هذا التركيب النبوي قوله: " رمية العرض " تشبه للرجل بأنه كالعرض المقصود بالرمي، وهذا " بناء على قول القاضي عياض الذي قال: " وعندي أن فيه تقدماً وتأخيراً وتقديره فيصيبه إصابة رميه العرض فيقطعه حزلتين»².

ومهما كانت شخصية الدجال الغيبية، فإنه شخص ابتلى الله به عباده، وأقدره على أشياء من قدرات الله تعالى مثل إحياء الميت الذي يقتله، ومن ظهور زهرة الدنيا والخصب معه، وجنته وناره وكنوز الأرض، وأمره السماء أن تمطر فتمطر. هذه الأمور جميعها تقع بقدرة الله تعالى ومشئته، ثم يعجزه الله تعالى بعد ذلك ويبطل أمره ويقتله عيسى عليه السلام، ويثبت الله الذين آمنوا، إن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم وأوامره ونواهيها كلها حق وصدق إخباره بالدجال، والترهيب منه والدعوة إلى التعوذ بالله من فتنة الدجال أمر نافع للأمة، ولذلك لابد، ولذلك لابد من الحذر من كل الأعمال الأفعال التي تغضب الله سبحانه والحذر من الدجال عند ظهوره.³

¹ - انظر: الجاحظ، الحيوان، مصدر سابق، ج5، ص417-419.

² - محمد الصياغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص252.

³ - انظر: ابن تيمية، بغية المرئاد، تحقيق: موسى بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم، المملكة العربية السعودية، ط1.

الفصل الثاني: الوظيفة الأخلاقية والتربوية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: الأخلاق في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الثاني: التربية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: الأخلاق في الخطاب النبوي الرفيف

ويتضمن هذا المبحث ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: مفهوم الأخلاق ومصادرها

الأخلاق في اللغة: جمع خُلُق، والخلق: هو السجية، والطبع والمروءة والدين، وهو مأخوذ من مادة: " خ ل ق "، وقد جاء معناها « الخلق التقدي،... والخلِقة: الطبيعة والخلقة بالكسر: الفطرة...، والخُلُق الخُلُق: السجية »¹.

وقال ابن منظور: « الخُلُق هو الدين والطبع والسجية، وحقيقته: أن صورة الإنسان الباطنة - وهي نفسه - وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها »².

وفي القاموس المحيط: « الخلق: التقدير والخُلُق بالضم وبضميتين: السجية والطبع والمروءة والدين »³.

وعليه فإن أصل مادة "خلق" تدل على تقدير الشيء، يقول ابن فارس: « ومن هذا المعنى الخُلُق، وهو السجية، لأن صاحبه قد قدر عليه...، والخلّاق: النصيب لأنه قد قدر لكل أحد نصيبه »⁴.

وأما الراغب الأصفهاني فإنه يرى: « أن الخَلْق أصله: التقدير المستقيم، وأن الخَلْق والخُلُق والخُلُق في الأصل واحد، ولكن خُصَّ الخَلْق بالهيئات والأشكال والصور المدركة

¹ - الجوهري، الصحاح، مصدر سابق، ج4، ص: 1470-1471.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص: 194.

³ - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، مصدر سابق، ص: 880.

⁴ - ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج3، ص: 214.

بالبصر، وخصَّ الخُلُق بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة قال: والخُلُق لا يستعمل في كافة الناس إلا على وجهين: أحدهما في معنى التقدير، والثاني في الكذب ¹.

وأما الفيومي فقد قال: « وأصل الخُلُق: التقدير، يقال: خلقت الأديم للسقاء: إذا قدرته له، خلق الرجل القول خلقاً، افتراه واختلقه » ².

وأما القرطبي فقد أشار إلى: « حقيقة الخُلُق في اللغة: هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الأدب يسمى خلقاً لأنه يصير كالخلقة فيه » ³، وهذا ما أشار إليه أيضاً الماوردي حين قال: « وحقيقة الخُلُق في اللغة هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب سمي خلقاً، لأنه يصير كالخلقة فيه » ⁴، وأما ما طبع عليه من الآداب فهو الخيم، فيكون الخلق الطبع المتكلف، والخيم هو الطبع الغريزي، ويمكن أن يكون مرادفاً لكلمة "الخلق" في الدلالة المعنوية مثل لفظ "الخيم" «الخيم الشيمة والطبيعة والخُلُق والسجية، قال ابن سيده: الخيم بالكسر، الخلق، وقيل: سعة الخلق» ⁵، وكذلك من الألفاظ التي يمكن أن تكون مرادفاً للفظ "الخلق" الملاً بفتح الميم واللام وآخره وهمزة « والملاً مهموز مقصور: الخُلُق، وفي التهذيب: الخلق وما أحسن ملاً بني فلان، أي أخلاقهم وعشرتهم والملاً في كلام العرب: الخلق، يقال: «أحسنوا أملاءكم، أي: أحسنوا أخلاقكم» ⁶.

فالخلق حال في النفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير وشر من غير حاجة إلى فكر وروية، وجمعه أخلاق، والأخلاق: «علم موضوعه أحكام قيمة تتعلق بالأعمال التي توصف بالحسن والقبح ولذلك فإن الخلق يراد به معان متعددة منها:

¹ - الراغب الأصفهاني، المفردات، مصدر سابق، ص: 296-297.

² - الفيومي، المصباح المنير، مصدر سابق، ص: 69.

³ - القرطبي، جامع الأحكام القرآن، مصدر سابق، ج 18، ص: 149.

⁴ - أبو الحسن الماوردي، النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود، دارالكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1992، ج 6، ص: 62.

⁵ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج 4، ص: 270.

⁶ - المصدر نفسه، ج 4، ص: 166.

أنه يراد به الطبع وهو الصفة الراسخة التي جبل عليها الإنسان دون إرادة منه، ودون قصد إليها، أو السعي في طلبها، إلى جانب أنه يراد بالخلق العادة وهي الصفة الراسخة التي يكتسبها الإنسان عن طريق الممارسة والتدريب، بذلك تكون العادة إرادية تكتسب عن قصد.¹

ومن المعاني التي تأتي أيضا بمعنى الخلق، السجية وهذه الأخيرة واسعة الدلالة تشمل المطبوع والمكتسب، ثم تأتي أيضا حكمة الخلق بمعنى المروءة والدين « الخلق بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها ولهما أوصاف حسنة وقيحة »².

وفي الاصطلاح: وأما الأخلاق في الاصطلاح فقد جاءت فيه تعاريف كثيرة ومتنوعة وسأكتفي في هذا المقام ببعض هذه التعريفات التي جاءت عند علماء الإسلام، ومن هذه ما جاء على لسان ابن مسكويه حيث يرى أن « الأخلاق حال النفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية، وهذه الحال تنقسم: منها ما يكون طبيعياً في أصل المزاج، مثل الإنسان الذي يحركه أدنى شيء نحو غضب ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب وربما كان مبدؤه بالرؤية والفكر ثم يستمر عليه أولاً: حتى يصير ملكة وخلقاً »³.

وربما يكون هذا التعريف ناقصاً، لأن طبيعة الفعل الخلقى فيما نعتقد لا بد أن يتصف بصفتين أساسيتين هما: الإرادة والقيمة الجمالية؛ حيث إننا لا نستطيع أن نطلق على فعل ما بأنه فعل خلقى إلا إذا كان منبعثاً من إرادة حرة حكيمة، على جانب أن هذا الفعل لا بد أن يقوم أو أن يحتوي على الحكم بأنه خير أو شر، وهذا هو الأساس الذي لا يقوم عليه التعريف فيما نعتقد.

¹ - إيمان عبد المؤمن سعد الدين، الأخلاق في الإسلام، مكتبة الراشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام: 2002م ص: 23.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج4، ص: 194.

³ - مسكويه، تهذيب الأخلاق، تحقيق، عماد الهلالي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، عام: 2011، ص: 265.

ولذلك فهو ينظر إلى ولأخلاق على أنها أسلوب معين من السلوك يرمي إلى تحقيق الخير في الحياة الإنسانية وتحقيق الانسجام بين الفرد وربه، وبين الفرد ومجتمعه، وبين الفرد وذاته، دون إخلال بعامل الإرادة الحرة المستتيرة، وصلاحيّة الفعل للحكم عليه بأنه خير ويستحق المدح أو شر ويستوجب الذم¹، ربما يكون هذا المفهوم أقرب إلى وظائف الفعل الخلقي المتصف بالإرادة والقيمة الجمالية.

وأما الغزالي فقد تناول الخلق حيث قال: «فالخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسرٍ، من غير حاجة إلى فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً. وإن كانت الصادرة عنها الأفعال القبيحة، سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً، وإنما قلنا: إنها هيئة راسخة؛ لأن من يصدر منه بذل المال عن النذور لحاجة عارضة، لا يقال خُلِّقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشتربنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية؛ لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خُلِّقه السخاء والحلم»²

والواضح فيما ذهب إليه الإمام الغزالي أن الخلق عنده ليس هو الفعل الحسن، أو القبيح، أو التمييز بينهما، إنما الهيئة التي تستعد بها النفس لأن يصدر عنها الحسن والقبح.

والملاحظ أن هذا التعريف الذي ذكره الإمام الغزالي نجده عند علي بن محمد الجرجاني وربما يكون قد نقله عنه حيث يقول: «الخلق عبارة عن هيئة راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سميت الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً. وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر منه بذل المال على النذر لحالة عارضة لا يقال خُلِّقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه كذلك

¹ - انظر: مسكويه، تهذيب الأخلاق، تحقيق، عماد الهاللي، المصدر نفسه، ص: 303، 304 .

² - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المنهاج للنشر والتوزيع، السعودية، ط1، عام: 2011 م، ج5، ص: 191.

من تكلف في السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال خلقه الحلم، وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء، ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء»¹.

لاشك أن هذا التعريف منقول عن الغزالي وهو تعريف ورد ذكره في كتابه " إحياء علوم الدين" وهو أيضا مذكور في كُتب الغزالي عامة، وهذه الرؤية لا تخرج عن ما ذهب إليه الغزالي ، ثم إن هذه الرؤية لا تميز بين الحكم على الشيء بأنه خير أو شر، ولا بالحكم بالجميل أو القبيح.

ومن القدماء الذين تناول موضوع الأخلاق الجاحظ الذي ذهب إلى القول: «الخلق هو حال النفس بها يفعل الإنسان أفعاله لا روية ولا اختيار، والخلق قد يكون في بعض الناس غريزة وطبعاً، وفي بعضهم لا يكون إلا بالرياضة والاجتهاد كالسخاء قد يوجد في كثير من الناس من غير رياضة ولا تعمل كالشجاعة والحلم والعفة والعدل، وغير ذلك من الخلق المحمودة»².

وأما محمد الطاهر بن عاشور فإنه ينظر إلى الخلق على أنه سجية فقال: «الخلق السجية المتمكنة في النفس، باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، وتشمل طبائع الخير، وطبائع الشر، ولذلك لا يعرف أحد النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه فيقال: خلق حسن، وفي ضده: خلق قبيح، فإذا أطلق عن التقيد انصرف إلى الخلق الحسن»³

1 - علي بن محمد الشريف الجرجاني، التعريفات، مصدر سابق، ص:106.

2- الجاحظ، تهذيب الأخلاق، قراءة وتعليق، أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث للنشر والتحقيق والتوزيع بطنطا، مصر، ط1، عام: 1989، ص:12.

3 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، دون ذكر التاريخ والطبعة، ج19، ص:171.

وقد حاول أيضا بعض المعاصرين تعريف الأخلاق مع محاولة تخلص وتسهيل العبارة عند التعريف الاصطلاحي مثل قول أحدهم: «الخلق: صفة مستقرة في النفس فطرية أو مكتسبة ذات آثار في السلوك محمودة أو مذمومة»¹.

ومن خلال الآراء المختلفة السابقة يمكن القول بأن المنهج الأخلاقي يقوم على مجموعة من الصفات والقواعد التي تنظم حياة الإنسان، هذه التعريفات بعضها يقوم على الرؤية العلمية في الأخلاق والبعض الآخر يهتم بالناحية النظرية، وأن بعضها يجمع بين الناحيتين النظرية والعلمية.

¹ - عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، الأخلاق في الإسلام، مرجع سابق، ج1، ص:7.

المطلب الثاني: مصادر الأخلاق في الإسلام

الأخلاق في الإسلام عبارة عن مبادئ وقواعد منظمة للسلوك الإنساني وهي قواعد يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده، في هذا الوجود، ولهذا فإن النظام الإسلامي يتميز بطابعين:

الطابع الأول إلهي مرده الله سبحانه وتعالى، والطابع الثاني: يمكن القول أنه إنساني يكون من خلال الجهد المبذول من طرف الإنسان من أجل تجديد هذا النظام.

وعلى هذا فإن مصدر الأخلاق في الإسلام يتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة إلى جانب الصحابة والتابعين.

أولاً: الأخلاق في القرآن الكريم

ومن خلال العودة إلى القرآن الكريم نجد مادة "خلق" وردت في القرآن الكريم في: 260 موضعاً، وجاءت هذه الألفاظ في معان مختلفة نذكر في هذا المقام بعضاً منها للدلالة منها:

1 - الدلالة على الإيجاد من العدم وذلك مثل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾¹ والمراد بالخلق الإيجاد والإبداع من لا شيء، وهذا النوع من الخلق لم يجعله الله إلا لنفسه².

2 - الدلالة على إيجاد الشيء من الشيء، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾³. أي خلق هذا الجنس البشري من نطفة مهينة ضعيفة هي المني⁴.

¹ - سورة الأنعام، الآية: 1.

² - انظر: الجرجاني، المفردات، مصدر سابق، ص: 16.

³ - سورة النحل، الآية: 4.

⁴ - انظر: محمد علي الصابوني صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص: 119.

3 - **التقدير:** وهو أصل المعنى اللغوي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾¹ والمراد، فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعا²، والتقدير: أي أحسن المقدرين.

4 - **الكذب:** ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾³ أي تصنعون كذبا باطلا، قال ابن عباس: تتحتون وتصورون إفكا، وكذا كل موضع استعمل في وصف الكلام فالمراد به الكذب.⁴

5 - **السجية والطبع:** وهذا المعنى هو المتصل بموضوع البحث وقد ورد ذلك في سورة القلم حين وصف عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁵ فقد كان عليه الصلاة والسلام من خلقه العلم والحلم وشدة الحياء، وكثرة العبادة والسخاء، والصبر والشكر والتواضع والزهد، والرحمة والشفقة وحسن المعاشرة والأدب إلى غير ذلك من الخلال العلية والأخلاق المرضية ولقد أحسن القائل:

إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليك فما مقدار ما تمدح الورى

6- **النصيب:** ومنه قوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ﴾⁶ وال مراد ليس لهم حظ من رحمة الله ولا من الجنة لأنهم آثروا السحر والنصب على كتاب الله تعالى.

7- **الدين والعبادة،** وقد ورد ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾⁷ أي دينهم وعاداتهم كما رجحه الطبري⁸ ، أي: ما هذا الذي جئتنا به كذب وخرافات الأولين.⁹

¹ - سورة المؤمنون، الآية:14.

² - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير ، مرجع سابق، ج1، ص:304.

³ - سورة العنكبوت، الآية:17.

⁴ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص:454.

⁵ - سورة القلم، الآية:4.

⁶ - سورة البقرة، الآية: 102.

⁷ - سورة الشعراء، الآية: 137.

⁸ - انظر: الطبري: تفسير الطبري، مؤسسة الرسالة، ط1، عام 1994، ج5، ص:522.

⁹ - انظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص:389.

ومن خلال هذه المعاني وغيرها جاء تأصيل المنهج الأخلاقي في القرآن الكريم، فقد وردت نصوص قرآنية كثيرة تضمنت صفات مهمة وقواعد ومبادئ أساسية تهدف إلى تنظيم حياة الإنسان من حيث علاقته بغيره إلى جانب أن هذه النصوص القرآنية تظهر ارتباط المنهج الأخلاقي الإسلامي بالعقيدة والعبادة والمعاملات وكل هذا التأصيل متكامل في الرؤية القرآنية. هذا التأصيل يمثل دستوراً كاملاً ومتكاملاً للأخلاق الإسلامية تأتي في صورة متعددة في شكل نصائح وتعاليم، وإما في شكل نماذج قصصية ذات دلالة أخلاقية، وإما في شكل أوامر ونواهٍ تستوجب التنفيذ.

وميزة الخطاب الأخلاقي في القرآن الكريم أنه محكم الآيات مفصل المعاني متنوع المستويات، لا يخاطب جانباً واحداً من جوانب الإنسان؛ وإنما يتجه إلى كيانه كله، العقل والحس والوجدان، لكي يطلعه على حقيقة وجوده والهدف من خَلْقِهِ، ويرشد إلى السبيل الصحيح الذي ينبغي له أن يسلكه، ويحذره من المسالك التي تؤدي إلى التهلكة.

لقد وردت العديد من الآيات القرآنية تضمنت قواعد تأسس لمفهوم الأخلاق في الإسلام، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾¹

فهذه الآيات الكريمات تشتمل على العديد من الصفات تؤسس لقواعد تنظم حياة الإنسان في علاقته مع غيره وهي بذلك ترسم المنهج الأخلاقي، وبالنظر لهذه الآيات نجد الآية

1— سورة المؤمنون، الآية: 1-11.

الأولى جاءت في صيغة الإجمال " قد أفلح المؤمنون " حيث جاء الإخبار بصيغة الماضي لإفادة التحقيق، وكذلك لفظ " قد".

وبعد هذا الإجمال جاء التفصيل حيث تضمنت الجانب التعبيري إقامة الصلاة والمحافظة عليها، مع الخشوع الذي يقوم على التواضع والخوف من الله، قال ابن عباس: «خاشعون: خائفون ساكنون متذللون في صلاتهم لجلاله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم»¹ مع أن الصلاة علاقة بين العبد وربّه، إلا أن أدائها على ما رسمه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يحقق غايات أخلاقية عظمى، فالصلاة مانعة للفحشاء والمنكر إلى جانب ما تحققه من روابط الأخوة بين الأفراد، ثم إن أدائها في أوقاتها يعلم الإنسان الالتزام والانضباط، فالحرص على الوقت ودقة المواعيد ونحو ذلك من الصفات الخلقية الحميدة.

وأما الجانب الثاني فهو ما تضمنته الآيات من أداء الزكاة، والزكاة عبادة عملية مادية تتصل بالجانب الاجتماعي الإحسان إلى الفقراء والمساكين.² وكذلك الجانب الأخلاقي فهي تقوم على تقوية الروح الجماعية، إلى جانب تركية النفس من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال قال تعالى: ﴿حُذِّمْ أَمْوَالَهُمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾³، إلى جانب ما تحمله الزكاة من قيم مثل الإحسان، والبذل، والعطاء، والبر والإنفاق ثم ما يكتسبه الإنسان من هذه العبادة من رحمة ومودة وأخوة والتخلص من الشح والبخل والتقتير وغير ذلك من المفاصل الاجتماعية والأمراض النفسية مثل حب المال.

والجانب الآخر في هذه الآيات يمثل العلاقات بين الأفراد الحث أداء الآمانات وحفظ العهود والوفاء بالوعود. وأما الجانب الشخصي فإنه يتضمن الإعراض عن الكذب والشتم والهزل قال ابن كثير: اللغو الباطل: وهو يشمل الشرك والمعاصي، وما فائدة فيه من الأقوال والأفعال.⁴

¹ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص:203.

² - نظر: المرجع نفسه، ج2، ص:203.

³ - سورة التوبة، الآية: 103 .

⁴ - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص:559.

وأما الوصف الرابع في هذه الآيات فهو الدعوة إلى العفاف "والذين هم لفروجهم حافظون" والدعوة فيها إلى الحفاظ على فروجهم من الحرام فلا يقعون فيما نهاهم الله عنه من الزنا واللواط، ولا يقربون سوى أزواجهم التي أحلها الله لهم.

والملاحظ أن هذه الآيات ترسم منهاجا أخلاقيا رفيعا فريدا لنظام حياة الإنسان والعلاقة بين أفراد المجتمع ومع غيره من البشر. وكذلك من الآيات الكريمات التي رسمت منهاجا أخلاقيا متكاملًا ما ورد في سورة الفرقان حيث قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ٦٤ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ٦٦ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٦٧ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ٧٠ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ٧١ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ٧٢﴾¹.

وهذه الآيات تتناول جملة من الصفات والمبادئ الحميدة التي تقوم عليها الأخلاق الإسلامية، فقد أشار عز وجل في بداية الآيات إلى العباد الذين يحبهم الله، وهم جديرون بهذه المحبة والانتساب إليه في قوله: "وعباد الرحمن" للتشريف: «أي العباد الذين يحبهم الله لأنهم اتصفوا بالمبادئ والقيم الأخلاقية الحميدة التي تنظم العلاقة بين المسلم وبغيره، هذه المبادئ تتمثل في وصفهم بالوقار والسكينة، ومنهم من أشار إليهم بالحلم والصبر وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء قالوا قولاً يسلمون من الإثم، قال الحسن: لا يجهلون على أحد وإن جهل عليهم حلموا مقابل المسيء،² وإلى جانب الحلم والعفو عن الجاهلين، فقد وصفهم القرآن الكريم بالرزانة والعقل والعدل والتوازن وحفظ النفس

¹ - سورة الفرقان، الآيات: 63-72.

² - انظر: محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج2، ص: 369.

والأعراض مع العفاف، وعدم سفك الدماء التي حرم الله سفكها إلا بالحق ولا يزنون، ثم أشار عز وجل أيضا أنهم يجتنبون كل موقع أو مجلس يشتمل على قول أو فعل محرم مثل الغيبة والنميمة والكذب والجدال بالباطل والسب والقذف والاستهزاء وشرب الخمر وشهادة الزور وغير ذلك من الأفعال والأقوال التي نهى عنها القرآن الكريم، لأنها لا تتنظم مع القيم الجديدة التي جاء بها الإسلام.

والجانب الآخر الذي نراه متمم ومكمل لما تمت الإشارة إليه، هو جانب الخلق بالمعنى الاصطلاحي، وفي هذا المقام ورد العديد من الآيات الصريحة التي تدل على ذلك مثل ما جاء في قوله تعالى في وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ١﴾. يقول محمد علي الصابوني: «وإنك يا محمد لعلی أدب رفیع جم وخلق فاضل كريم فقد جمع الله فيك الفضائل والكمالات، يا له من شرف عظم، لم يدرك شأوه بشر، فرب العزة جل وعلا يصف محمدا بهذا الوصف الجليل العظم "وإنك لعلی خلق عظیم" لأنه قد كان من خلقه العلم والحلم وشدة الحياء، وكثرة العبادة، والسخاء والصبر والشكر والتواضع والزهد والرحمة، والشفقة، وحسن المعاشرة والأدب إلى غير ذلك من الخلال العلية والأخلاق المرضية»² ومثل هذا الكلام يقودنا إلى الحديث عن المصدر الثاني من مصادر الأخلاق في الإسلام:

ثانيا: السنة النبوية

والمراد من السنة ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال وتقريرات، لذلك تعتبر السنة هي المصدر الثاني للأخلاق في الإسلام وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الْعِقَابَ ٧﴾³ وقال أيضا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ٢١﴾⁴ وقال تعالى أيضا: ﴿فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَذُكُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ٥٩﴾⁵

¹ - سورة القلم، الآية: 4.

² - محمد علي الصابوني، صفوة التفسير، مرجع سابق، ج3، ص: 425.

³ - سورة الحشر، الآية: 7.

⁴ - سورة الأحزاب، الآية: 21.

⁵ - سورة النساء، الآية: 59.

وقال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم حُسن الأخلاق»¹ وفي رواية ثانية "«لأتمم صالح الأخلاق»²، وكان عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله سبحانه وتعالى قائلاً: «واهدني لأحسن الأخلاق ولا يهدي لأحسنها إلا أنت»³.

وإذا نظرنا إلى الوصف الذي أطلقه القرآن الكريم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁴، نجده لا يتجه إلى تلك المعايير الخلقية المتعارف عليها بين الناس، ولا تلك التي نجدها في فلسفة الأخلاق ونظرياتها المختلفة، وإنما هو وصف يتجه إلى الخلق المطلوب لله سبحانه وتعالى، فهو خلق رفيع المستويات وأعظمها مكانة، لا بين البشر فحسب، وإنما حتى عند الله سبحانه وتعالى، وربما كانت هذه الأخلاق مدعاة لكثير من الناس إلى الإيمان بالرسالة المحمدية، و كان ذلك من معجزته الأخلاقية، فخديجة رضي الله عنها آمنت قبل أن يبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بالإخبار بالغيوب، آمنت قبل أن يبدأ التحدي بالقرآن الكريم، وقبل كل المعجزات، فقد قالت: «والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»⁵ هذه هي أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم التي جعلت من السيدة خديجة تؤمن به وتصدقها وتقف إلى جانبه في السراء والضراء وعندما بعثه الله تعالى وحمله عبء الرسالة ازدادت إيمانا وقوة. فأخلاقه عليه الصلاة والسلام، وأقواله وأفعاله، جميعها تعتبر مصدراً تشريعياً للأمة في كل ما يتصل بحياة المسلم، وبالجانب الأخلاقي خاصة.

¹ - أ بوعبد الله مالك بن أنس، شرح موطأ الإمام، شرح محمد صالح العثيمين، تحقيق: صلاح الدين محمود العسير، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، عام: 2011م، ج4، ص: 259.

² - عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف لمواسم العام من الوظائف، دار ابن كثير، ط6، عام 1421هـ، ص: 305.

³ - محمد بن أحمد عثمان الذهبي، تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق، تحقيق مصطفى أبو الغيط، دارالوطن، ط1 عام 1421هـ، ج1، ص: 197.

⁴ - سورة القلم، الآية: 4.

⁵ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص141، رقم الحديث: 160.

وشمائل المصطفى عليه الصلاة والسلام، لا يمكن الوقوف عليها أو الإحاطة بها لأنها رحمة تسع العالمين بالحياء، والعدل، والأمانة، والحلم، والصدق، والصبر، والتواضع، والرحمة، وغير ذلك من الخصال التي أضحت دستوراً للأخلاق ومنهج حياة للإنسانية؛ لذلك نالت الأخلاق في الدين الإسلامي - عقيدة وشرعاً - مكانة كبيرة، وتتصل الأخلاق بأدق ما تتضمنه العقيدة من إيمان وعمل قلبي، وكذلك ما تتضمنه التشريعات المرتبطة بالعقيدة من عبادات وآداب ومعاملات.

ولقد كان عليه الصلاة والسلام أول من تخلق بأخلاق القرآن وألزم نفسه بآداب القرآن، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن»¹

قال الحافظ ابن كثير: « ومعنى هذا أنه قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمر به القرآن ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن، فصار امتثال أمر ربه خلقاً له وسجيه صلوات الله عليه وسلامه إلى يوم الدين»²،

ومن خلال تتبع العديد من الأحاديث النبوية رأينا أن أخلاقيات الإسلام تكمن في أمرين:

الأول: يظهر عقيدة التوحيد التي حددها الإسلام ونادى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلى الشريعة التي أنزلها الله تعالى على رسوله فهي الأساس الضروري للحياة الإنسانية الطيبة، لأنها تجسد النظم الملائمة لحياة الفرد وحياة الجماعة وفقاً للقيم الخلقية العليا لكافة.

¹ - سنن أبي داود، مصدر سابق، ص: 1342.

² - الحافظ بن كثير، الفصول في سيرة الرسول، تحقيق، محمد العيد الخطراوي، ومي محي الدين، مؤسسة علوم القرآن دمشق، سوريا، ط3، عام 1403 ، ص: 264.

والأمر الثاني: يكمن في الإيمان باليوم الآخرة « كضرورة توجيه سلوك الإنسان؛ إذ يزوده باستعداد نفسي للتضحية بالمتاع الزائل وتحمل الصعوبات والمشاق لبلوغ جنة الله تعالى ورضوانه ».¹ ونرى أن الاستعداد لا يملكه إلا من كان يؤمن إيماناً قاطعاً وعميقاً، بأن كُلاً منا سيقف أمام الله تعالى يوم القيامة ليحاسبه عما عمل في حياته الدنيوية وبخلاف العقيدة والإيمان، فإن كل الأنظمة والقواعد الأخلاقية التي قطعت صلتها بمصدر الوحي الإلهي فإنها حتماً تتجه إلى التدهور والفوضى المؤدية إلى فساد الفرد والمجتمع.

ونجد ذلك في شمائل النبي صلى الله عليه وسلم متصلة اتصالاً وثيقاً بالوحي الإلهي، هذا الاتصال يتجسد في الواقع الإنساني من خلال تعاليم القرآن الكريم، ومن خلال السيرة النبوية الشريفة، فقد كان عليه الصلاة والسلام هو المقصد الأول بالتأديب والتهذيب ثم منه يشرق نور الأخلاق على الخلق كافة، فإنه أدب بالقرآن وأدب الخلق به. ولذلك قال: "بعثت لأتمم حُسن الأخلاق"، ثم رغب الخلق في محاسن الأخلاق، وأظهر للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها.

فقد كان عليه الصلاة والسلام أفضل عباد الله وأحبهم إلى الله جل وعلا، فهو خليله ومصطفاه ومجتباؤه، وأكمل عباد الله وأزكاهم خُلُقاً وأطيبهم نفساً، وأحسنهم معاملة وأعظمهم معرفةً بالله سبحانه وتعالى وتحقيقاً لعبوديته، اصطفاه الله عز وجل ليكون سفيراً بينه وبين عباده، وواسطة بينه وبين الناس في الدلالة على الخير والدعوة إلى الهدى، واختاره سبحانه وتعالى - على علم - من أفضل وأعرق البشرية نسباً وخصه بأكمل صفات البشر من حيث الخلق والخُلُق، وخصه بأجمل الصفات في هيئته البهية وطلعته الجميلة، خصه بأكمل الخلال وأجمل الأخلاق وأطيب الآداب، وجعله سبحانه وتعالى أسوة للعالمين وقدوة لعباد الله أجمعين.

¹ - مصطفى حلمي، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دارالكتب العلمية، بيروت، ط1، عام2004م، ص:241.

ولهذا كان من الواجب على كل مسلم أن يُعنى بدراسة سيرة الرسول الكريم وشمائله عناية مقدمة على العناية بغيره من البشر، لأنه أزكى البشرية وخير العباد وقدوة العالمين.

والشمائل هي خصال الإنسان، وأوصافه، وخلائله، وأخلاقه وآدابه، ودراسة شمائل المصطفى عليه الصلاة من واجبات أهل الإيمان، ولا يكون ذلك إلا بمعرفته، ولأن محبته عليه الصلاة فريضة افترضها الله على عباده، بل يجب أن تقدم محبته على محبة الوالد والولد والناس أجمعين، إلى جانب أن الله جعله قدوة للعباد وأسوة للناس، وأمر بالسير على منهجه، فقد جعله الله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، « ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤوا، إن: "سُئِلَ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ" ¹، ثم أن الله أقسم في القرآن الكريم على كمال خلق النبي ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ².

ومن هذا كله سنحاول الوقوف عند بعض هذه الشمائل والصفات بالتحليل والدراسة من خلال فاعلية الصورة البيانية في توجيه الخطاب الأخلاقي في البيان النبوي الشريف

¹ — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص:845، رقم الحديث: 2269

² — سورة القلم، الآية: 4

المطلب الثالث: أثر الصورة البيانية في توجيه الخطاب الأخلاقي

التصوير البياني في الأحاديث النبوية يتسم بالجمال وقدرة النفاذ في الطبيعة الإنسانية، وذلك من خلال توجيه استعداداته الفطرية نحو الخير والصلاح، والذي لا شك فيه أن الإبداع الأدبي يعكس بصدق صورة الأديب « وعلى قدر الإيجابيات الخلقية في الأديب يكون الأثر في المجتمع، ولقد علم الجميع غاية كمال خلقه صلى الله عليه وسلم، ولذلك تجد في الفن النبوي الوضوح، ذلك، لأنه يدرك ما يقول، ولا يخرج الكلام عن حالات لاشعورية خاصة، أو انفعالات ممزقة، بل تجد الصراحة الخالصة والعبارات العفوية الخالية من التكلف، والسهولة نابعة من خلقه السمع وصدق البائع أقصى غاية »¹

ولذلك كانت وظيفة الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف آية في التوجيه، وصدق في الخطاب، تخاطب الطبيعة الإنسانية المزدوجة من مادة وروح، ولا تهمل جانباً من جوانب الإنسان، فهي تخاطب الطبيعة البشرية وما يتفرع منها من مشاعر واتجاهات متقابلة في النفس الإنسانية تثيرها الصورة البيانية وتحرك كوامنها، ولا تكتفي الصورة النبوية الشريفة بإثارتها فقط لتعمل بدون نظام، أو انضباط، وإنما تثيرها وتعمل على توجيهها بما يليق بكرامة الإنسان وسيادته في هذا الكون.

وحين نتحدث عن الصورة البيانية في الأحاديث النبوية الشريفة فإننا « نتحدث عن لون من ألوان الإبداع النبوي، جاد على أكمل تمامه، وأبهى أصباغه وأورف ظلاله، وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب من قبل، ولا من بعد، والمتتبع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إلى النفوس من قول، ولما فطر عليه صلى الله عليه وسلم من معرفة عناصر التأثير في البيان وأوجه الجمال في اللسان، فجاء حديثه النبوي من البلاغة العالمية في موضع تتطلع نحوه الأبصار وتتقاصر دونه الأعناق »²

1- نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 420.

2- محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، مرجع سابق، ص: 237.

فالصورة البيانية في الأحاديث النبوية الشريفة تزداد رفعة ، لأنها تتبوأ بخطابه عليه الصلاة والسلام منزلة سامية ومكانا عاليا، فهي ليست زينة أو حلية، أو شيئا من فضول الكلام يسهل حذفه ويهون إسقاطه، بل هي الأصلُ الثابت الذي يحمل الخطاب، والمحور الأساسي الذي تدور عليه المعاني.

فالصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف تؤدي وظائف كثيرة ومهام متنوعة عديدة، فهي كالماسة المتألئة الأصلية في أثناء الخطاب لا غنى عنها، ولا جمال بدونها.

وحين ترد الصورة البيانية في الأحاديث النبوية للتأثير والتوجيه واستثارة المشاعر فهي توحى بالمعنى وتخلص الكلام من طبيعته التقريرية الخطابية الجافة، مما له أكبر الأثر في نفوس سامعيه، وكأن مهمة النبي في خطابه أن يجعل المتلقي يتأثر قبل أن يفهم، فيتخطى بذلك الدلالة الأولى للكلمة إلى قراءة ما وراءها،¹ واستشراق ما فوقها وما تحتها والنفوذ إلى أعماقها، ثم تأمل ما تمده من أفياء وظلال.

وحتى تتضح لنا الرؤية أكثر ومدى تأثير الصورة البيانية في المتلقي وتوجيه أخلاقه نحو الخير نتوقف عند بعض الصور البيانية المختلفة بغية إيضاح هذه الظاهرة الفنية.

وأول ما نتوقف عنده هو الحديث الذي جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثّل رجلين عليهما جبتان من حديد، من نديهما إلى تراقيهما، فأما المنفق: فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده، حتى تخفي بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل: فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها ولا تتسع».²

الصدقة تظل صاحبها يوم القيامة، وتقويه من عذاب الله ومن نار جهنم، إلا أنه هناك ما يقابل ذلك، حيث النفس الشحيحة الحريصة على المال وجمعه، وكثير من الناس من يحرص على جمع الأموال ويخصّونه كل يوم، بل يندفع نحو الزيادة كالعطشان الذي يزيدُهُ شرب

¹ - محمد زكرياء الزعيم، فنون في الأدب النبوي، مرجع سابق، ص: 415.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 523، رقم الحديث: 1375.

المال عطشا، هؤلاء يغفلون عن أن الله هو واهب المال، وأنه يرزق من عباده من حيث لا يحتسب، وأنه قادر على أن يخسف بالمال وبصاحبه الأرض، وأنه الأمر بالصدقة، وأنه الذي يثيب على الإعطاء بغير حساب¹

ولهذا ضرب عليه الصلاة والسلام هذا المثل ليخرج المعقول إلى المحسوس، ويقر به إلى الفهم حتى تدركه العقول.

والملاحظ في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام جعل البخل مقابلا للمنفق، وكان من المفروض أن يقابله السخي وهو الأصل، ولكن عليه الصلاة والسلام أراد من ذلك وضع المنفق موضع السخي إشعارا منه أن مجرد الإنفاق فيما أمره به الشارع وندب إليه يزيل البخل ويقابله، وليس شرطا لإزالة البخل العطاء الزائد، وإجراء الصورة التشبيهية التمثيلية في هذا الحديث يكمن في تشبيه هيئة بهيئة، والحاصل في هذا المقام، تشبيه هيئتين بهيئتين.

الهيئة الأولى: تشبيه هيئة المنفق الذي عود نفسه على البذل والسخاء من ماله إلى المستحقين في وجوه الخير، حيث كلما بذل المال انشرح صدره للبذل فزاد ذلك في نفسه حتى يصبح السخاء طبيعة ويطغى على سلوكه وأفعاله، لأن طبيعة الكريم إذ هم بالنفقة انشرح صدره واتسع وطاوعته يداه، فامتدتا بالعطاء، لذا فإن أي صدقة نفقة تكفر ذنوبه وتمحوها، وعليه فإن المنفق يستره الله بنفقته ويستر عوراته في الدنيا والآخرة، فالصدقة تظل صاحبها وتقيه من العذاب.

شبه ذلك بهيئة من يلبس ثوبا من حلقات حديدية يتجمع عند اللبس على أعلى صدره، فيحرك يديه وجوارحه، ويوسعه ويفرده ويمده ويبسطه ويشد أطرافه حتى يغطي الثوب جميع جسده من أنامل يديه إلى حافة قدميه، بل يزيد حتى يزحف على الأرض، بهذا يأمن المنفق

– انظر: العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 306-307.

السخي من العذاب ويتقي النار، كما يتقي من يغطيه درعه أذى عدوه، ووجه الشبه الاتساع وسهولة الحركة والحماية للمنفق السخي المتصدق¹

وأما الصورة الثانية، فهي تمثل البخيل الذي غلبه الشح، فلم يستطع أن يتغلب على نفسه فأظهرته الصورة حرصا كل الحرص على المال، وعدم الرغبة في إنفاقه، وهذا وجه من وجوه هلاكه، فكان كلما همّ أو فكر في الصدقة غلبه بخله ضاق صدره وزاد خوفه وحرصه على نفاذ ماله، شبه تلك الهيئة بمن يبدأ لبس ثوب حلقاته من حديد، يتجمع الثوب حول رقبته وعلى صدره، فهو كلما همّ أن يقوم بتوسعه أو مده أو بسطه لا يقوى على ذلك، بل تزداد الحلقات انكماشاً وضغطاً على صدره، والتصاقاً بجسده، فهو في عذاب، ووجه الشبه في ذلك هو الضيق وصعوبة الحركة وعدم الحماية في البخيل.

وبذلك تكون الصورة البيانية قد أظهرت المعاني العقلية في صورة حسية « وهكذا انتهت بنا الصورة البيانية في الحديث إلى قطعة فنية من التشبيه والبيان، وصور النتائج المادية من عذاب في يوم القيامة أو سلامة منه ثم أكد هذه المعاني وبهذه الطريقة، حتى استقرت في النفس عوامل الإيمان بحيث يتصور المسلم أن الزكاة والصدقة منجيتان له من عذاب يوم القيامة²، ثم تبين لنا الصورة التمثيلية كيف أن البخل مركز في طباع البشر وأخلاقهم، وهو من أشد خصال النفس صلابة وقوة واستحكاما، وأما الإنفاق والكرم والجود فإنه يبسط النفس ويلينها وينمي المال، لأن نماء المال بالإنفاق، وكساده بالبخل والإمساك.

ومزية هذا التصوير أنه قد جرد هذه الصفة الأخلاقية المذمومة عن كل لبوس قد يعتذر به الناس، مثل لبوس حسن التدبير وخشية الإملاق؛ وذلك عندما أظهر حقيقة الشح عارية أمام المخاطبين، وكشف أضرارها، وبين في مقابل ذلك حسنات التصديق وعواقبه الحميدة على صاحبه وعلى مجتمعه، لأن الإنفاق سبب من أسباب السرور والطمأنينة، لأن الله

¹ - أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول، مرجع سابق، ص: 689.

² - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 165.

تعالى يعوض نفقة المنفق فيفرح، بما قدمه الله له، ثم إن المتصدق يفرح عند فرح الآخرين الذين لا يفتأون يدعون له بالخير.

وأما البخل فهو خلق مذموم، لذلك فإن الصورة ترهيب من البخل والشح، وتظهر أن الجزاء من جنس العمل، إذ أن البخيل تضيق عليه جبته جزاء بخله، والمتصدق تتسع عليه جبته جزاء إنفاقه، وما أصدق الصورة التمثيلية في حق البخيل، وما يعاني منه من ضيق الصدر، محروم من الانشراح، صغير النفس، قليل الفرح، كثير الهم والغم والحزن، لا تكاد تقضى له حاجة، ولا يعان على مطلوب، فكان درعه ضيقا، لأنه بأخلاقه المذمومة ضيق على نفسه وعلى الآخرين، ببخله وامتناعه عن الإحسان والبر والخير.

وجمال الصورة ماجاء في حق المنفق الكريم، فإن درعه واسع مريح، لأنه وسع على نفسه وأهله، ووسع على غيره، وأن أحق الناس بالنفقة، هم الأهل، حيث أظهرت الصورة أن الدرع أقرب ما تكون إلى الجسد، وأقرب الناس للشخص أهله وذووه، فهم الجسد.

والجود والكرم خلق عظيم وهو على مراتب، ولكل مرتبة مزيد لها من التأثير على القلوب، الله سبحانه تعالى ضمن المزيد للجود، والإتلاف للمسك، والصورة العظيمة للجود ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم، عن أنس رضي الله عنه، قال: « ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام إلا أعطاه، قال: جاءه رجل فأعطاه غنما بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قومي! أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة »¹، وهذا الموقف الحكيم يدل على سخاء النبي وغزارة جوده وكرمه.

وتعد الأحاديث النبوية الشريفة حلقة من حلقات التوجيه الأخلاقي والتربوي من أجل تربيته الفرد ليكون لبنة صالحة في بناء المجتمع الإسلامي، فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصا دائما على أن ينقي القلوب والنفوس ويربّيها تربية أخلاقية في ضوء الأحداث والوقائع والمناسبات التي كانت تجدّ بين حين وآخر، فقد كان المجتمع المدني يتكون من المسلمين وهم الأغلبية والمنافقين وهم الأقلية، وأهل الكتاب وبعض المشركين، وكان الفرد المسلم

1— صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص:1806، رقم الحديث:2312.

يختلط بهم ويتعامل معهم ويجالسهم بحكم البيئة والظروف والمعاملات فكانوا يتأثرون بهم، كما كان بعضهم يشيع البلبلة في أفكار بعض المسلمين كلما سنحت لهم الفرصة، فأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يضع معالم ومقاييس ليكون المسلم في مأمن من ذلك كله فقد روى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مثل الجليس الصالح وجليس السوء كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك، إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد: يحرق بدنك أو ثوبك، أو تجد منه ريحا خبيثة »¹

هذا الحديث يمثل أحد أساليب الإعداد الأخلاقي حيث بين النبي صلى الله عليه وسلم أن الجلساء صنفان: أولهما الصالح الكريم يعلمك من الأخلاق ما ينفعك في دينك ودنياك، ويحثك على طاعة الله ومكارم الأخلاق؛ ومحاسنها قولاً وعملاً، وهذا الصنف من الناس يجب الحرص على مجالسته.

وأما الصنف الثاني فهو جليس السوء، وهو شر على من صاحبه وخالطه لأنه يكون عوناً للنفس الأمارة بالسوء فيؤدي بصاحبه إلى الهلاك وغضب الله، ولذلك فإن المؤمن مطالب بانتقاء أصحابه وجلسائه.

والحديث من التمثيل النبوي الشريف يبين فيه أثر الجليس على جليسه وما ينتقل من طباع، فالجليس المؤمن الصالح تطمئن إليه النفوس وترتاح إليه القلوب، فهو رمز للدين والأخلاق والآداب الحميدة، ومن جالسه لا يعدم إحدى المنافع، كلامه عبق حكم ونصائح ووعظ تجد النفس السوية بغيتها، فهو طيب مشرق الوجه حسن الخلق.

1— صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص:741، رقم الحديث:1995.

فقد شبه عليه الصلاة والسلام حال الجليس الصالح بحال الجليس الطيب الذي يدخل عليه الإنسان فيشتري منه أو يهديه البائع، أو يشم الرائحة الزكية كما يشبه حال جليس السوء، وهذا النوع من التشبيه يسمى أيضا التشبيه الملفوف، لأنه قد عاد عليهما بالترتيب.¹

والحديث صورة فنية تحت على «الترغيب في مجالسة الأخيار الصالحين، والترهيب في تجنب رفاق السوء، وذلك في لوحة فنية ذات مشهدين:

المشهد الأول يتكون من صورة شمسية تتناثر فيها رائحة المسك الطيبة، وثمة صداقة حميمة تم التعبير عنها بالشراء، ومجالسة سريعة تم التعبير عنها بالشم من بعيد.

أما المشهد الثاني: فهو يتكون من صورة حرارية نتكئ في تشكيلها على المشاهدات الصناعية، وكان الجليس الطالح ينفخ في أعماق جليسه فيشعل نيران الغضب والحقد والحسد والشهوة، وينفث في روعه كل المشاعر الحامية التي عبر عنها بالنار أو الجمر الذي ينفخه الحداد، وهذا يشير إلى العذاب الأخروي في نار جهنم»²

وبالنظر أيضا إلى بعض الإضاءات اللفظية نجد في قوله: "إنما مثل" قصر إضافي وهو هنا قصر موصوف على صفة؛ والمراد منه الحصر، وقوله: "مثل الجليس" المراد منه الصالح الصديق الفاضل المتحلي بالأخلاق الكريمة، وأما قوله "ريحا خبيثة" هذا تشخيص قائم على الاستعارة «حتى كأن هذه الريح تمتلك طوية فاسدة كالإنسان، ثم إن الجليس الصالح يذهب وتظل رائحته، لأن المسك يتجاوز مكانه، وحرفة الحدادة تدل على القسوة والسواد وترتبط بالدخان الخانق»³، ولفظ الخبيثة فيها دلالة كراهة تنفر منها النفس، يقال أنتن الطعام إذا فسد وانتشر منه رائحة خبيثة وفي الحديث "دعوها فإنها منتنة".

والحديث أيضا فيه دعوة عن عدم مجالسة المغتاب الخائض في الباطل، ثم دعوة إلى مجالسة أهل الخير والصلاح، وهي دعوات أخلاقية من أجل تكوين مجتمع سليم يقوم

¹ - انظر: فالج حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 157-158.

² - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 539.

³ - المرجع نفسه، ص: 539.

على القيم النبيلة التي يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أخلاق مبنية على الإيمان يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا»¹، وكذلك قوله: «إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحسانكم أخلاقا»².

والأخلاق الحسنة التي يدعو إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي التي تقوم على التواد والتراحم والتعاطف، ومن ذلك ما جاء عن النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تري المؤمنين: في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوا، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»³؛ صورة تبين حال المؤمنين في علاقتهم مع بعضهم البعض وما يدور بينهم من تعاون وتراحم وتعاطف وترابط.

هذه قيم أخلاقية تعمل على ربط بين أفراد المجتمع من خلال: التراحم، التواد والتعاطف، وهي من باب التفاعل الذي يقتضي المشاركة من الجميع، أو «اشتراك الجماعة في أصل الفعل، وهي وإن تقاربت في المعنى فبينها فرق لطيف، فالتراحم رحمة بعضهم بعضا بأخوة الإيمان لا بسبب آخر، والتواد والتواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، والتعاطف وإعانة بعضهم بعضا كما يعطف الثوب على الثوب تقوية له»⁴ وهذه الألفاظ من حقل معنوي للرحمة، وهي ألفاظ توالى على سبيل الإشباع "توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم" وهي على وزن واحد يدل على التفاعل والمشاركة الحيوية.

هذا الحديث برواياته المتعددة من باب ضرب المثال لتوضيح المعاني الأخلاقية وتقريبها للإفهام «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»⁵ أو «المؤمنون كرجل واحد، إن

¹ - الترمذي، الجامع الكبير، مصدر سابق، ج3، ص: 545، رقم الحديث: 1162.

² - المصدر نفسه، ج3، ص: 545، رقم الحديث: 2018..

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2238، رقم الحديث: 5665.

⁴ - محمد عبد العزيز الخولي، الأدب النبوي، دار كرم، دمشق، ط4، عام: 1955م، ص: 122.

⁵ - صحيح مسلم، مصدر سبق، ج4، ص: 2000، رقم الحديث: 2586.

اشتكى رأسه، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»¹ أو « المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عينه اشتكى كله، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله »²، يقول الدكتور محمد الصباغ « وفي هذا التشبيه أن أعضاء البدن كلها و إن لم تكن متساوية في الأهمية لكنها متساوية من حيث تألم الجسد لحلول الضرر عليها فالأصابع والظفر والعين واليد والرأس كل أولئك إذا حصل مكروه تألم صاحبها وسهر من أجل ذلك، وهكذا؛ فليس هناك عضو في المجتمع الإسلامي مهما كان شأنه هيئاً لا تتأثر به الأمة من أجل ضرر أصابه، إنهم لا بد أن يتألموا لأنهم جسد واحد، وهذا يدل على أنها أمة حية، أما إن لم يبالوا فذلك دليل على أنهم مصابون بشلل، أو هم أموات أحياء»³.

إن القوة الحقيقية التي تعمل على شد روابط الأمة تكمن في قوة الإيمان، لأن هذه القوة هي التي تنظم قلوب المؤمنين «الإيمان في قلوب المؤمنين كالدم المتدفق في الجسد به حياتها وتماسكها، كما بالدم حياة الأعضاء وترابطها ومعه وجود الروح وفعلها، وأظهر المظاهر المرشدة إلى الإيمان بذل المؤمن وده وحمته وعطفه للمؤمنين تألماً بما يؤلمهم، وتداعياً لما يصيبهم، فمن فقد هذا التداعي فلم تعطفه العواطف، ولم تبكه البواكي فليتحسس قلبه وليسأل نفسه: أين أنا من دلائل الإيمان..؟»⁴

وهكذا تكون القيم الأخلاقية جزء من الإيمان، ومن هنا يتضح أن القيم الأخلاقية جزء من العقيدة لأن شرط الإيمان تعاقد المؤمنين ومساعدة بعضهم البعض في المواساة والصدقات، والتضحيات فالألم واحد، وليس من أخلاق المؤمن الأنانية والتفرد والتغلب على رقاب الآخرين، هم جماعة ولكن حقيقة الأمر كشخص واحد في تماسكهم " مثل الجسد".

والغاية من صور التشبيهية حث المسلمين على التحلي بالقيم الأخلاقية، التواد والتراحم والتعاطف وغيرها من القيم الأخلاقية وبذلك تكون الصورة التشبيهية قد رسمت

¹ - المصدر نفسه، ج4، 2000، رقم الحديث: 2586.

² - المصدر نفسه ، ج4، 2000، رقم الحديث: 2586.

³ - محمد الصباغ، التصوير البياني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 449.

⁴ - كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغة، مرجع سابق، ص: 160.

الطريق الذي يجب على المسلم السير فيه، وإلى الصفات التي يجب الاتصاف بها لأنها جزء من الإيمان ومن جماليات اللفظ النبوي في هذا المقام قوله عليه الصلاة والسلام " تداعى " عجيب هذا المعنى في دلالاته فهو يصور لنا الحركة المتسارعة إلى النجدة، بل «جعلت أعضاء الجسد شخوصا متعاونة متآزرّة يدعو كل واحد منهم الآخرين ويهيب به لمساعدة المصاب إسعافا عمليا، ليس بالنداء والصراخ فحسب، بل " بالسهر والحمى " بالجواب العملي الذي يحقق الواجب الإيمان»⁽¹⁾ وبذلك تكون الصورة الاستعارية قد أظهرت أهمية الأخلاق في ربط أفراد المجتمع وكذلك أيضا من الصور الاستعارية في النص قوله عليه الصلاة والسلام "إذا اشتكى منه عضو« حيث أضيفت الشكوى إلى هذا العضو المصاب، وهذا الإسناد جعله واعيا يحمل الأناة من صاحب العضو ولكن التشخيص يتضح أكثر في الحركة الجسمانية الحسية بعد حركة الشكوى النفسية، وذلك أن الأعضاء الصحيحة تهرع إلى هذا المصاب وتشاركه في آلامه مما يجسم التكافل الاجتماعي في الإسلام «⁽²⁾ فالخلق الحسن من أعظم الأساليب التي تجمع وتجذب الناس إلى بعضهم إلى بعض، وإلى الإسلام، وإلى الهداية والاستقامة.

وإذا كان التعاون والتآزر والتواد والتعاطف والتراحم من أهم الشمائل التي يتسم بها المؤمن، لأن من أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا، فالخلق الحسن يجعل المؤمن من خيار الناس مطلقا، ولا يكون كذلك إلا بالتحلي بالخلق العظيم، إن من خياركم أحسنكم أخلاقا.

ومن معالم الصبر؛ لأنه من كمال اليقين الإيمان ودلائل الهيمنة النفسية على ما حولها، ولذلك كان الصبر من أسماء الله الحسنى فهو يتمهل ولا يتعجل، حتى وإن أسرع الناس إلى المعاصي، فالصبر من سمات الثبات والعزيمة القوية، وأثقال الحياة لا يتحملها الضعاف، لأن لا ينهض برسالتها الكبرى إلا الصابرون من الرجال والنساء، فالإنسان على قدر دينه وثباته، ومن رضي بهذا بلغ منزلة الرضا، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي

(1) - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 297.

(2) - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 492.

الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أُنْتُها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء، والفاجر كالأرز، صماء معتدلة، حتى يقمصها الله إذا شاء»¹

والحديث الشريف الذي معنا من الأمثال النبوية يقوم على التمثيل الذي هو نوع من التشبيه، وهذه الصورة التمثيلية قد لا تراها إلا في التصوير النبوي الشريف، فالمؤمن القوي أشبه بالخامة الغضة الطرية من الزرع تتحرك مع الريح تجذبها وتحركها بشدة، هكذا المؤمن إن جاءه أمر الله أطاعه، ومضى به، وإن جاءه خير فرح به، وإن وقع به مكروه صبر وتحمله ورجأ الأجر العظيم.

وأما المنافق فهو عكس ذلك، أفراده دنيوية يزهو بمتاعها ويلهو، فهو أشبه بشجرة الأرز، وهي شجرة قوية لا تهتز في مواجهة الرياح فهي ثابتة منتصبة مما جعلها أقرب إلى انقلاعها أو انكسارها من وسطها، بحكم أنها لا تمتلك القدرة على تصريف الرياح بقدر ما تمتلك قوة المواجهة وهذا ما يجعلها أقرب إلى الانكسار.

أما المؤمن القوي له القدرة على تصريف الرياح التي تفيئها فتميلها مرة وتعديلها أخرى، «فقد شبه عليه الصلاة والسلام المؤمن في تصرف الأيام به وما يناله من بلائها بالخامة من الزرع تقلبها الريح مرة كذا وكذا»²

هذا المثل ضرب للمؤمن وما يلقاه من عواصف البلاء والأوجاع وغيرها، فلا يزال بين عافية وبلاء، ومحنة ومنحة، وصحة وسقم، وأمن وخوف، وغير ذلك فيميل تارة ويعتدل أخرى.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص:2138، رقم الحديث:5320.

² - ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق، عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام:1983م، ج3، ص:5.

وأما الكافر فهو كله خشب، لا يصلح إلا للوقود، فليس في إصابته في الدنيا بأنواع البلاء من الحكمة والرحمة ما في إصابة المؤمن فهذه حال المؤمن في الابتلاء وما عليه إلا الصبر والإيمان القوي أمام مثل هذه الشدائد التي قد يصاب بها.

وبلاغة هذا التصوير التمثيلي هنا أن من علامات المؤمن التقى المقبول عمله أن تمر عليه المحن، ويزداد طاعة بها والصبر لها، رغم أنه قد يكون عرضة للمرض والصحة للفقر والغنى، وهكذا من فتن في الدنيا، ليكثر ثوابه وإقباله على ربه مهما أصيب بالصبر والتحمل والرجوع إلى الله في كل المحن، وأن يحمد الله دائماً لينال أجره وافراً جزيلاً في الآخرة.

وأما الكافر والعاصي تزهو له الدنيا، وتبتسم له الحياة فينعم عيشه ويصفو، ويرى نفسه في حالة زيادة، ويعتقد أنه في خير مع الله تعالى، وأن من علامات التقوى والتوفيق من الله له، وهذا غير صحيح، لأن الله يمتعه في الدنيا ويحاسبه في الآخرة.

ومن بلاغة الحديث أيضاً مقابلة بين حالة المؤمن الذي يتحرك مع المصائب ويصبر لها، وحالة الكافر أو المنافق الذي لا يصيبه شيء من هذا، وهو أشبه بالشجرة القوية التي يكون انجرافها مرة واحدة أي قلعتها، وهكذا كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل البلاء وخفف آلامهم وواسى قلوبهم بالصبر وإلى إيمانهم بالله عز وجل¹

من سمة الأحاديث النبوية الشريفة أنها متعددة القيم خاصة إذا كان بينها صلة معنوية، وهي رؤية غالبية على الطرح النبوي الشريف، ولذلك نجد البيان النبوي الشريف يحاول الربط بين هذه القيم الأخلاقية في نسق فني يتم من خلاله توجيه المتلقي إلى فضائل الأعمال وأحسنها.

ومن أجمل التصوير البياني، صورة الاستعارة وطريققتها في إظهار المعاني وتوجيه السامع إلى فضائل الأعمال، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى

1- أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص: 767.

الله عليه وسلم: « تقيئ الأرض أفلاذ كبدها، أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول: في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول: في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول: في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً»¹.

ففي هذا الحديث تصوير لفئة من الناس عندما يتكالبون على متاع الدنيا ويجرم بعضهم على بعض نتيجة الانحراف عن القيم الأخلاقية الإنسانية.

صورة دميمة تمثل حالة الغثيان، تشمئز منها الطباع، صورة غيبية تتناول جانباً من جوانب نهاية الحياة، يصور فيها الرسول الأرض بعد تشخيصها في صورة إنسان وقد اكتملت كل الملامح الإنسانية فيها: التقيؤ، أفلاذ الكبد، وهي تطرح من فمها ما يؤذيها حتى تقيء قطعاً من كبدها، هذه الأفلاذ من الكبد مثل الأسطوان من الذهب والفضة، والسر في ذلك أن يرى الطامع ويقر ما أخبر به الدين صدقاً، وما كذب به من الحق حقاً.

يقول الدكتور كمال عز الدين « إننا الآن عمي، عمي عن هذه الرؤيا، ستتكشف تماماً في الغد، حين يذوب الرواء الكاذب والبرق الخادع الذي يلقيه الشيطان ليغشي أبصارنا فتغشى عن الحقيقة، ليقتل القاتل طمعاً في غير محيي، ويقطع القاطع رحماً في غير واصل، ويسرق السارق خلسة ما يببّد، وهناك عندما يبطل السحر والساحر فتتحبس نفثات الشيطان، ستخرج الأرض أثقالها، ويظهر منبؤاً ومبتذلاً ما كانوا به يجرمون، فلا يرى سوى الذنب قد فعلوه، والإثم قد اقترفوه، في هذا الحطام الذي يغادرونه ولا يمسونه، لأنهم به من الشيطان قد ظلّموا، وفيه للناس قد ظلّموا»².

فالعمل البشري المنحرف عن القيم الأخلاقية والإنسانية والتكالب على المتاع الدنيوي وقطع صلة الرحم، والسرقة وغيرها من الأفعال التي تشمئز منها الطباع السليمة، يحذرنا منها الرسول من خلال هذا التصوير الفني، والصورة فيها استباق زمني يضعنا في عالم الآخرة،

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج2، ص:701، رقم الحديث:1013.

- كمال عز الدين، الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص:179.

في صورة منفرة مرهبة مخيفة، صورة تدل على فساد ما دخل الجوف، صورة فساد الأخلاق وطبائع الإنسان.

و«الاستعارة المشخصة توحى بصبر الأرض على فساد دخائل الأموات الذين تعلقوا بالذهب والفضة حتى أذن لها ربها بإصدارهما، فَلَقُبِحَ أعمالهم وشناعتهما اختير مشهد التقبؤ، وعبرة أفلاذ كبدها، توحى بالقرب الشديد، فهي كانت تضم الذهب والفضة كما يضم الإنسان كبده، وهذه الكبد الحري تشير إلى حرارة الرغبة في الحصول على المال، وما بشر به، وما يؤديه من ملذات»¹

وإذا كان فساد دخائل الموات الذين تعلقوا بمتاع الدنيا مما أخرجهم عن قيمهم الأخلاقية حبا في متاع الدنيا ، فإن الحديث يرسم لنا صورة مغايرة حيث الحسرة والندم في نهايته، وذلك من خلال ما تتم به عبارة: " ثم يدعونه، فلا يأخذون منه شيئا " ، حسرة مؤلمة على ما فاتهم عندما تعلقوا بالأمور الزائلة وانحرفت طبائعهم وفساد أخلاقهم جريا وراء لذة الحياة الدنيا «فالاكتئاب النفسي هو المقصود في النص، فليس يقصد هنا استنفاد الطاقة الوجدانية في استيعاب القرف والاكتفاء به، بل القرف هنا قنطرة إلى المعاني السامية، وهذا شأن القبيح في المفهوم الديني»².

والحديث مشتمل على صورة جامعة تتكون من استعارتين وتشبيه، فهي صورة مركبة من أكثر من صورة استعارة القيء، واستعارة أفلاذ الكبد، ثم أتبع ذلك بصورة تشبيهية تعطي كمال المشخص في لحظته النهائية، فهي تصور القيء يخرج كالأسطوان من الذهب والفضة» وامتداده إلى الأعلى يدل على شدة نفور الأرض من المتاع وأصحابه، وشدة حنقها من أعمالهم الدنيئة، حتى دفعت مباهمهم في الفضاء فيئنا صار يظهر أسطوانا هائلا»³ استعارتان مكنيتان شبه القيء وأفلاذ الكبد للمشبه وهو الأرض، تخيل يذهب فيه الذهن ما

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 480.

² - المرجع نفسه، ص: 482.

³ - المرجع نفسه، ص: 483.

يذهب، يقرر المعنى ويؤكد الغاية، وقد يأتي التعبير عن المعاني الأخلاقية عن طريق الإيحاء حين يطلق القول ويراد به معنى آخر، سواء كان المعنى الحقيقي ممكناً أو غير ممكن.

فالكناية كما يقول عبد القاهر « أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوحي إليه ويجعله دليلاً عليه»¹.

فالكناية لون من ألوان الغموض الفني، إذ يترك فيها التصريح بذكر الشيء إلى ذكر ما يلزمه، فهي لا تدل على الغرض من خلال الدلالات المباشرة للألفاظ، بل بما يلزمها، ولذلك يتجلى فيها نوع من الإنزياح عن اللغة المباشرة، إذ تومئ إلى المعنى المقصود بحسب السياق بألين لفظ وأرقى تعبير، لغاية أدبية خلقية وتوجيه السلوك الإنساني، إلى جانب إثراء اللغة، والتوسع في العبارة مع التأثير الفني.

وإذا نظرنا إلى الكناية في الحديث الشريف على أنها لون من ألوان التصوير الذي يثري اللغة بالتوسع في معانيها، فإنها أيضاً ضرورة اجتماعية ودينية وأخلاقية لطابعها التهذيبي الفاعل في توجيه السلوك الإنساني، ولذلك فإنها وسيلة من وسائل التأثير القوي، إلى جانب أنها منجز سلوكي أخلاقي يحقق الغاية الأخلاقية، أو التربوية في الواقع الفعلي في حياة المسلمين، ومن ذلك ما جاء عن سهل بن سعد، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»²

والحديث يقوم على كنايتين " بين لحييه " كنية عن الفم وآلته اللسان، و "وما بين رجليه " كناية عن الفرج، وقد عبرت الكناية بالعدول إلى اللفظ الأكثر تهذيباً ولباقةً أخلاقيةً وارتياحاً، وفي ذلك مراعاة للعرف الاجتماعي والأخلاقي، ولذلك فإن من أهم وظائف الصورة الكنائية التهذيب الأخلاقي، اتكاؤها على الظل والتلميح والتوقع أكثر من التصريح، لأن طبيعة

¹ - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، مصدر سابق، ص: 66.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 5، ص: 2376، رقم الحديث: 6109.

الكناية في الأصل تعبير عن اللباقة والذوق الرفيع، أو التي يعبر بها المتكلم عن المعنى القبيح باللفظ الحسن وعن الفاحش بالظاهر¹

وإذا نظرنا إلى الفعل "يضمن" فإنه من ضَمِنَ الشيءَ وبه، ضمنا وضمانا: كفل به، والضمين: الكفيل ولذلك يكون الضمان بمعنى الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه وهو أداء الحق الذي عليه، ولا يتحقق إلا بالحفظ للجوارح التي من أبرزها الفم والفرج، وهي من أعظم البلاء على المرء في الدنيا، وفي شرهما أمن من الشر كله.

والذي لا شك فيه أن الضمان الأول هو "ما بين لحييه" واللحيان هما العظمان بجانبي الوجه وهما منبت الشعر من الرجل، وبينهما الفم وهو الطريق الحسي الذي تمر ومن خلاله كل أنواع اللذائذ التي قد تكون حلالا، أو حراما، إلى جانب اللسان الذي هو أداة الفم فقد يستعمل للخير والفضائل وقد يستعمل للشر والردائل، فما بين اللحيين عبارة عن حصائد الأطعمة وحصائد الألسنة وسائر ما يتأتى بالفم من الفعل، وهو ما فيه منجاة المرء أو هلاكه.

ونلاحظ في الشطر الأول من الحديث دعوة إلى حفظ المرء للفم واللسان من خلال تجنب كل أنواع الحرام، سواء ما يأتي عن طريق الفم من خلال المأكل والمشرب، أو عن طريق اللسان من الأقوال مثل الكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق وغيرها من آفات غير الأخلاقية، وما يأتي منها من فساد وإفساد، وفي هذا أحاديث كثيرة تدعو إلى حفظ اللسان، لأنه طريق إلى الكب على المناخر أو على الوجه في جهنم.

وأما الضمان الثاني فهو "ما بين رجليه" والمراد من ذلك تجنب الرجل والمرأة كل أنواع الزنا من خلال حفظ الفرج، حتى لا تلم به الفاحشة والالتزام بالعفة والطهارة⁽¹⁾.

¹ - ابن أبي الأصبع المصري، تحرير التحبير، تحقيق، حنفي محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر، ط1، عام: 1963م، ص: 143.

(1) - انظر: محمد جدوع، البلاغة في القرآن والسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 351.

و هذه المعاني جميعها جاءت الكناية في لفظ موجز ومدلول واسع وعميق يشمل العنصرين المهلكين للإنسان، الفم والفرج.

كنايتان عن موصوف الأولى في قوله "ما بين لحييه"، وهي كناية عن الفم واللسان، والثانية في قوله: "ما بين رجليه" وهي كناية عن الفرج والزنا، هاتان الكنايتان أو «هاتان اللفظتان تتمتعان بالوجازة مع الكناية الجميلة، ولا شك أن مجرد ذكر ما يتصل بالجماع في الترغيب بالجنة "أضمن له الجنة" يعني تنفيرا للأذان والقلوب، وتلك نقيصة ما أرادها فن الحديث النبوي الشريف الذي كانت غايته في الشكل والمضمون هي التواصل بين المبدع والمتلقي»⁽²⁾.

ولعل من أولى غايات الكناية حسن اختيار الألفاظ الفاضلة التي يرغب فيها السامع ويتشوق إليها، ولا يخجل منها المتكلم، ومن ثم يترك كل ثقل على الأسماع ولا يخجل منها المتكلم، ومن ثم يترك كل ثقل على الأسماع ولا تخجل منه الطباع السليمة.

ونعتقد أن حسن اختيار الألفاظ يعطي اللغة مميزات خاصة في جميع مظاهرها: في المفردات، والدلالة، والأساليب، فيما يكون عليه الأفراد من حشمة وأدب في شؤونهم ومعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض.

لذلك ترى الكناية في الحديث النبوي الشريف تمتاز بالحشمة والأدب في التعبير النبوي الشريف يكني عن الفرج بلفظ "ما بين رجليه"¹

ولذلك كانت الكناية في الحديث النبوي الشريف أبلغ من التصريح، ففي العدول إليها لا بد من فائدة المبالغة، أو الرغبة في العدول عما يفحش ذكره صريحا، أو التعبير عن حال معينة أو التعبير عن الفاحش بالظاهر أو المعنى القبيح باللفظ الحسن.

(2) - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 267.

¹ - محسن محمد معالي، من روائع الكناية في اللغة العربية، ط1، عام: 2012م، ص: 29.

ومن أساليب الكناية في الحديث النبوي الشريف التي تناولت العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة، وحق المرأة المشروع في ذلك ما جاء في شكوى امرأة رفاعه عندما طلقها وتزوجت غيره وما أشارت إليه من تقصير زوجها الجديد في حقها في اللقاء وعجزه عن ذلك مما يؤثر تأثيرا شديدا عليها، فقد جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة رفاعه القرظي النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: كنت عند رفاعه فطلقني فأبى طلاقي، فتزوجت عبد الرحمان بن الزبير، إنما معه مثل هدبة الثوب، فقال: «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعه؟ لا، حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك»، وأبو بكر جالس عنده، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب ينتظر أن يؤذن له، فقال: «يا أبا بكر ألا تسمع إلى هذه ما تجهر به عند النبي صلى الله عليه وسلم»¹

إذا نظرنا في الحديث ندرك أن امرأة رفاعه تقول: " فطلقني فبى طلاقى " والمقصود من قولها أنه طلقها، ثم راجعها، ثم طلقها، ثم راجعها، وأما قولها " مثل هدبة الثوب " هدبة بضم الهاء وسكون الدال، هو طرف الثوب الذي لم ينسج، وهو مأخوذ من شعر الجفن، والمراد من قولها: "أن ما معه مثل هدبة الثوب" أرادت متاعه، وأنه رِخْوٌ مثل طرف الثوب لا يعني عنها شيئا²، أي أنه يشبه الهدبة في الضعف، وأما قوله: "عسيلته" المراد حلوة اللقاء الزوجي.

والملاحظ في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قد أدرك مراد المرأة وهو العودة إلى زوجها رفاعه، لذلك توجه إليها مباشرة بسؤال "أتريدين أن ترجعي إلى رفاعه؟ ثم أشار بعد ذلك مباشرة إلى الحكم الشرعي "لا حتى تذوقي عسيلته، و يذوق عسيلتك" فالمرأة في حديثها إنما تطلع إلى الطلاق، والرسول يدرك ذلك ويدرك أيضا أنها لم تستكمل الواجب في هذا الأمر، حيث لم يقع ما حل به مرة ثانية لزوجها الأول، إذ التحليل لا يقع بمجرد العقد، وإنما يكون بالجماع والوطء الذي يشعر باللذة والاستمتاع وهو من أهم شروط التحليل.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص:933، رقم الحديث:2496.

- ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج15، ص:46،

والواضح من خلال اللغة أن الحديث يقوم على التلميح الذي تكتنفه الظلال والتوقعات، لأن ثمة دوافع اجتماعية تعبر عن الذوق العام والخلق الكريم في الكنايتين في "إنما معه مثل هدية الثوب"، تعبير كنائي عن عدم قدرة زوجها عن اللقاء، وهو ما يطلق عليه "العنّاء" لأنه اعترضه ما يحبسه عن النساء، وامرأة عنيّنة كذلك لا تريد الرجال ولا تشتهيهم¹.

وأما الكناية الثانية فقد جاءت في قوله: " حتى تذوقي عسيلته ويذوق عسيلتك"، فالكناية هنا عن لذة الجماع، فلو عبر عنه بأسلوب الحقيقة لجاءت الصياغة بكلام يُستَحْي من ذكره، وقد جاء هذا التلميح بلفظ النبي صلى الله عليه وسلم، حيث جاء بالمستوى الخلقي، الذي لمسّه عليه الصلاة والسلام عند المرأة عندما عبرت عن العنة بالتشبيه بطرف الثوب الرخي، وهذا يجعلنا نقول: ثمة موازنة فنية، وضرورة خلقية، وهو التعبير عن المعاشرة الزوجية بتصغير كلمة "عسل" وهذا الاشتقاق جديد في اللغة العربية، أُلْع به العلماء فصنفوه في غريب الحديث، في حين تقتصر غرابته على الانحراف عن اللغة المعجمية على طريق الاستعارة، والجامع لذة المعاشرة ولذة العسل، يحتاج إلى تدبر، إذ لا نجد تطابقاً ولا تماثلاً، بل تشابهاً يدعو إلى ربط عالمين، ولا نظن أن الصحابة استجملوا هذه المفردة وذلك بدليل النص².

وهذا التلميح الذوقي الأخلاقي قد نجده حتى في مواقف الإقرار بحكم فقهي مثل ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جلس بين شعبها الأربعه ثم جهدها، فقد وجب الغسل»³.

والكناية في قوله "بين شعبها الأربعه"، والشعب الأربع في هذا المقام هي الرجلان واليدان للتعبير عن الاتصال الجنسي بطريقة عفيفة دالة على أدب وخلق عظيم ولسان وذوق فني جميل.

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج9، ص:439.

² - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص:268.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص:111، رقم الحديث:287.

وهذا التلميح المعبر عن خلق عظيم نجده أيضا في حديث الثلاثة الذين خرجوا يمشون فأصابهم المطر، فدخلوا في غار في جبل فانحطت عليهم صخرة، قال بعضهم لبعض: ادعوا الله بأفضل عمل عملتموه، وقال أحدهم: « اللهم إن كنت تعلم أنني كنت أحب امرأة من بنات عمي كأشد ما يحب الرجل النساء، فقالت: لا تتال ذلك منها حتى تعطيهما مائة دينار، فسعيت فيها حتى جمعتها، فلما قعدت بين رجلها قالت: اتق الله ولا تقض الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركتها، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فأفرج عنا فرجة، قال: ففرج عنهم الثلثين.»¹ ففي قوله: " اتق الله، ولا تقض الخاتم " كناية عن الجماع الذي يفيض البكرة، أو المراد إزالة لبكارتها.

يقول العلوي: « ومن ذلك ما ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: كانت امرأة ممن كان من قبلنا، وكان لها ابن عم يحبها فراودها على نفسها فامتنعت منه، فأصابها سنة جذبة، فجاءت إليه تسأله، فراودها فمكنته من نفسها، فلما قعد منها مقعد الخائن قالت له: اتق الله ولا تقضض الخاتم إلا بحقه، فقام وتركها، وهذه كناية قد وقعت موقعها في اللطافة والرقّة، وكُنْتُ بالخاتم عن بكارتها، وأنها بمنزلة الشيء المختوم الذي لم ينكسر ختمه»²

وبهذا الوصف الدقيق يمكن القول إن أسلوب الكناية قد حقق التواصل التبليغي في الخطاب النبوي بما يضمن تمكين المعنى في نفس المتلقي وتوجيه السامع إلى فضائل الأعمال من خلال أسلوب التلميح والابتعاد عن اللغة الاصطلاحية الظاهرة الصريحة إلى ما يدل على المعنى بلغة راقية تستسيغها الأذواق وتتشوق إليها النفوس، وثم تتحول الأقوال إلى أفعال منجزة في سلوك المتلقي، وذلك هو البعد الوظيفي الجوهرى للبلاغة النبوية وغايتها الأخلاقية.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص:771، رقم الحديث:2102.

² - العلوي، الطراز، مصدر سابق، ج1، ص:206.

فقد كانت صورة الكنائية وسيلة تصويرية متفردة بطابعها التهذيبي الواضح حسب ما يقتضيه المقام حتى أصبح لها الأثر العميق في تحقيق الوظيفة الأخلاقية التوجيهية التي هي أهم روافد الوظيفة الدينية التي تعتبر الغاية الأساسية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الثاني: البعد التربوي في الخطاب النبوي الشريف

في هذا المبحث نتناول الجانب التربوي، ومدى أثر الصورة البيانية في تعليم السامع من خلال ما تحدثه من رغبة في تحصيل المعارف العلمية والدينية، وإن كان الموضوع يحتاج إلى دراسة موسعة، لأنه من الصعوبة إيجاد الفوارق بين الرؤية الأخلاقية والفعل التربوي، وذلك يعود في المقام الأول إلى الغاية المشتركة، وإلى التداخل الحاصل بينهما.

ومهما يكن الأمر فإننا نحاول إيجاد بعض الجوانب التي تميز الجانب التربوي في البيان النبوي الشريف، ولتلك الغاية فإننا نتناول الموضوع من خلال مطالب ثلاثة:

المطلب الأول: مفهوم الخطاب التربوي ومكانته.

مفهوم التربية في اللغة:

وردت لفظة التربية في اللغة بعدة معان منها الدلالة على الزيادة « ربا الشيء يربو رباءً: زاد ونما، وأَرْبَيْتُهُ: نَمَيْتُهُ وفي التنزيل العزيز ﴿ وَيُرِي الصَّدَقَاتِ ﴾¹، ومنه أخذ الربا الحرام، فقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمْ مِنْ رَبِّكَ لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ ﴾²، وفي حديث الصدقة قوله عليه الصلاة والسلام: " وتربو في كف الرحمان حتى تكون أعظم من الجبل"³. وقد تأتي للدلالة على التنشئة والترعرع وتولي الأمر، أو قام على رعايته « ربوت في بني فلان، أربو: نشأت فيهم، وربيت فلانا أربيته تربية ورببته وربيت به بمعنى واحد، الجوهري: رَبَّيْتُهُ تَرْبِيَةً وَتَرْبِيَّتَهُ: أَي غَدَوْتُهُ، قال: هذا لكل ما ينمي كالولد، الزرع ونحوه »⁴.

¹— سورة البقرة، الآية: 176.

²— سورة الروم، الآية: 39.

³— ابن منظور لسان العرب، مصدر سابق، ج5، ص: 126-127.

⁴— المصدر نفسه ج5، ص: 127-128.

ويمكن القول إن مفهوم التربية قد ورد في القرآن بمعناه العام الشامل، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا﴾¹ والمراد ادع لهما بالرحمة، وقل في دعائك يا رب ارحم والدي برحمتك الواسعة كما أحسنا إلي في تربيتهما عندما كنت صغيرا، ومهما يكن فإن مصدر الفعل ربّ بتضعيف الباء فإنه له أصول في اللغة جاء في كتاب مقاييس اللغة «رب: الراء والباء تدل على أصول: فالأول إصلاح الشيء والقيام عليه، فالرب هو المالك والخالق والصاحب، والرب المصلح للشيء، يقال: رب فلان ضيَعْتُهُ، إذ قام على إصلاحها، والأصل الآخر لزوم الشيء والقيام عليه، وهو مناسب للأصل الأول، يقال أربت السحابة هذا البلدة إذا دامت، والأصل الثالث: ضم الشيء، إلى الشيء وهو أيضا مناسب لما قبله، ومتى أمعن النظر كان الباب كله قياسا واحدا»².

وأما الراغب فقد أشار إلى أن «الرب في الأصل التربية وهي إنشاء الشيء حالا فحالا إلى التمام، فالرب مصدر مستعار للفاعل»³.

ومهما يكن القول فإن التربية في اللغة تدور حول معان مختلفة، مثل الزيادة أو النمو، وكذلك التنشئة والملازمة إلى جانب إصلاح الشيء والقيام عليه، وفي الأخير الحفظ والرعاية.

مفهوم التربية في الاصطلاح:

للتربية تعريفات متعددة، وهذا يعود إلى تعدد النظر، وإلى الأهداف والوظائف المتوخاة منها، وما يعيننا هو ما ذهب إليه علماء الإسلام، لأننا في مقام دراسة التوجيه التربوي في البيان النبوي الشريف، ومن هذه التعريفات تعريف البيضاوي، حيث قال: «التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله شيئا فشيئا»⁴، وتناولها أيضا صاحب المعجم الفلسفي

¹— سورة الإسراء، الآية: 24.

²— ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة، المصدر نفسه، ج2، ص: 381-382.

³— الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مصدر سابق، ص: 336.

⁴— البيضاوي ناصر الدين سعيد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الجيل، بيروت، ط1، دون ذكر السنة، ج1، ص: 3.

صليبان جميل بأنها « تبليغ الشيء إلى كماله أو هي كما يقول المحدثون تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئاً فشيئاً»¹.

وأما محمد عطية الإبراشي فقد ذكر تعريفات كثيرة للتربية، وأهمها ما استخلصه عبد الرحمان الباني من الجوانب الرئيسية التي تتناولها التربية من المحافظة على فطرة الناشئ ورعايتها، ثم تنمية مواهبه واستعداداته، ثم توجيه هذه النظرة والمواهب نحو صلاحها وكمالها والتدرج فيها.²

مكانة الخطاب التربوي في البيان النبوي:

السنة النبوية هي الأصل الثاني من الأصول الإسلامية للتربية، فالقرآن الكريم مقدم، وهي تالية له، لذلك كانت السنة النبوية في المقام الثاني للتربية الإسلامية وأساسها، فهي غنية بالأسس والقواعد التربوية، زاخرة بالتوجيهات النبوية، وثرية بالحكمة والوعي في فهم النفس البشرية.

والسنة في حقيقتها بيان للكتاب، ولا شك أن البيان مؤخر عن المبين³، وبحكم هذا الاتصال بالقرآن الكريم كانت لها مكانة عظيمة في قلوب الصحابة رضوان الله عليهم ومن جاء بعدهم إلى يوم الدين، هذه المكانة العظيمة للتربية النبوية الشريفة تقوم على روافد متعددة أهمها:

أولاً: القرآن الكريم مصدر الخطاب التربوي النبوي التربوي.

الخطاب التربوي في البيان النبوي مصدره الأساسي القرآن الكريم، لذلك فإن نسبة السنة إلى القرآن من جهة ما ورد فيها من قضايا عامة والتربوية خاصة فإنها لا تعدو واحداً من ثلاثة:

¹ - صليبان جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، عام: 1982، ص: 12.

² - محمد عطية الإبراشي، روح التربية والتعليم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباني وشركاه، مصر، دون ذكر التاريخ والطبعة، ص: 6-7.

³ - على حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط5، عام: 1976م، ص: 37.

أولاً: أن تكون السنة مقررة مؤكدة رأياً ورد في القرآن الكريم، فيكون حينئذ الرأي له مصدران وعليه دليلان، دليل مثبت من آيات القرآن، ودليل مؤيد من السنة النبوية الشريفة، ومن ذلك الأمر بالإيمان بالله وعدم الشرك به، وبإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والنهي عن الشرك بالله وغير ذلك من الأمور الدينية التي جاء فيها النص القرآني.

ثانياً: أن تكون السنة النبوية بياناً لما ورد في القرآن، وإظهاراً للمراد منه وإزالة لما فيه من خفاء، بالتوضيح والشرح لكل ما هو غامض.

ثالثاً: والجانب الأخير كان يتعلق ببعض القضايا التي قد لا يكون لها أصل في القرآن الكريم، وهذا رأي فريق من العلماء حيث مثلوا له بتحريم الحمر الأهلية، وكل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطيور، وكذا تحريم الذهب والحريير للرجال¹.

ويرى آخرون أن كل ما جاءت به السنة له أصول في القرآن الكريم وأن هذه الأحكام التي يظن البعض أنها جديدة، هي نتيجة إلحاق فرع بأصله، الموجود في القرآن يخفى إلحاقه به، ولهم أمثلة على ذلك أن الله تعالى يقول: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾² فألحقت السنة اليمين مع الشاهد بشهادة الشاهدين، لأن لليمين في إثبات الحقوق مكاناً.

لذلك فإن ما جاءت به السنة من هذا القبيل واجب الاتباع، وهذا ما يقول به الفريقان، مع اختلاف وجهة نظرهما في كونه مندرجاً تحت ما جاء في كتاب الله، أو جديداً لم ينص عليه، ولذلك فإن أهمية الخطاب التربوي نابعة من النبي صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق إلا بالوحي، وما جاء من الله تعالى.

لقد كان عليه الصلاة مثالا للصدق والتحدي في نقل القرآن أو تبليغ ما أمره الله بتبليغه، يقول محمد الطاهر بن عاشور « ونفي النطق عن هوى يقتضي نفي جنس ما

¹-انظر: زكريا البري، أصول الفقه الإسلامي، مكتبة الجامعة الأردنية، ط1، دون ذكر السنة، ص: 47.

²- سورة البقرة، الآية: 282.

ينطق به عن الاتصاف بالصدور عن هوى سواء كان القرآن أو غيره من الإرشاد النبوي بالتعليم والخطابة الموعظة والحكمة»¹

ثانيا: رغبة الصحابة في تلقي الخطاب التربوي النبوي.

التفاف الصحابة حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبتهم في التعلم جعلتهم أشد الناس اهتماما واستماعا للخطاب النبوي وهذا الاهتمام دليل على أهمية حرص الصحابة رضوان الله عليهم على تقبل الخطاب وملازمة الرسول صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بن عباس عن عمر رضي الله عنه قال: « كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ينزل يوما وأنزل يوما، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»²

إن الظروف والأحوال التي كان الصحابة يتقلبون فيها من خلال السعي في طلب الرزق لم تكن مانعة لهم عن تحصيل الخطاب التربوي، فقد كانوا يبذلون كل الوسائل المتاحة لديهم من أجل حضور مجالس الرسول صلى الله عليه وسلم ومتابعة نزول الوحي على رسول الله، لقد كان عليه الصلاة والسلام يعيش بين أصحابه دون أن يكون بينه وبينهم حجاب، فقد كان إلى جوارهم يخالطهم في المسجد والسوق والبيت والسفر، وكانت أفعاله وأقواله محل عناية منهم وتقدير، فقد كان محور حياتهم الدينية والدنيوية منذ أن هداهم الله به وأنقذهم من الضلالة والظلام إلى الهداية والنور.³

لقد كانت نظرة الصحابة إلى رسول الله نظرة اتباع واسترشاد وتعلم والأخذ برأيه وأعماله، وذلك لما ثبت عندهم من يقين وجوب اتباعه والنزول عند أمره ونهيه، ولذلك نجد

¹ - محمد الطاهر بن عشور، تفسير التحرير والتوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، دون ذكر الطبعة والسنة، ج27، ص:93.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص:46، رقم الحديث:89.

³ - انظر: مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط2، عام:2000م، ص:74.

القبائل العربية النائية والبعيدة عن المدينة ترسل إليه بعض أفرادها ليتعلموا ويأخذوا عنه العلم مباشرة، ثم يرجعون إلى قبائلهم معلمين مرشدين بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم¹، بل كان الصحابي يقطع المسافات الواسعة ليسأل رسول الله عن أمر من الأمور، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن عقبة بن الحارث: أنه تزوج ابنة لأبي إهاب بن عزيز، فأتته امرأة فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج، فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني ولا أخبرتي، فركب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فسأله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف وقد قيل» ففارقها عقبة، ونكحت زوجا غيره².

والصحابا لم يكونوا جميعا على مستوى واحد من العلم بأحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله ، فقد كان منهم الحضري والبدوي، ومنهم التاجر والصانع والمنقطع للعبادة، ومنهم المقيم في المدينة، ثم إنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يجلس للتعليم مجلسا عاما يجتمع إليه الصحابة كلهم إلا أحيانا نادرة، وإلا أيام الجمعة والعيدين وفي الوقت بعد الوقت، وقد أخرج البخاري عن ابن مسعود قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالموعظة تلو الموعظة في الأيام كراهة السأم علينا»³.

لقد كان الصحابة يتلقون الخطاب التربوي من النبي بكل اهتمام من خلال الحضور لمجالس التعليم مع الإنصات التام، إلى جانب السؤال والاستفسار عما لم يفهموا، أو المراجعة في الأمور المشككة للمعرفة والفهم، لقد كانت المعايشة الدائمة بالقرب من النبي صلى الله عليه وسلم، أو المكث عنده فترة زمنية، أو بصفة دائمة من أجل التربية والتعليم، وإذا ما فاتهم أمر من الأمور تقربوا من أقرانهم والسماع ما فاتهم وحفظه منهم، بغية التعمق في جانب من الجوانب التربوية⁴.

¹ — مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص: 74.

² — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 46 ، رقم الحديث: 88 .

³ — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 38، رقم الحديث: 68 .

⁴ — محمد بن صالح بن علي العلوي، خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للطفل المسلم، مخطوط بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية، جامعة أم القرى، كلية التربية.

إن اهتمام الصحابة بالتعلم على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان واضحا من خلال حرصهم أن يتربى أبناؤهم على هذه القيم التربوية، فكانوا يصطحبون الأبناء معهم إلى مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم، ليسمعوا من النبي مباشرة الوحي غضا طريا، ويشاهدون التنزيل، فيكون لذلك كله أثر في حياتهم وسلوكا تهم.

إن هذا الحرص الشديد من الصحابة على الحضور الدائم لمجالس الخطاب النبوي لمؤشر ظاهر على مكانته عند الصحابة الكرام، فظهر بينهم التنافس في حفظ أحاديثه وتبليغ سنته امتثالا لما دعا إليه من التنافس في اخذ رسالته وتبليغها للناس، فعن عبد البن عمرو أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»¹

ثالثا:توثيق الخطاب التربوي النبوي:

إذا كان حرص الصحابة رضي الله عنهم على التنافس للسمع منه وحفظ الخطاب التربوي منه حيث حظي عدد كبير إلى الأخذ منه مباشرة خاصة من تفرغ إلى ذلك والمجالسة المستمرة والدائمة، كأبي هريرة رضي الله عنه الذي أخذ لكثيرا من أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد شهد بذلك الصحابة رضي الله عنهم، عن ابن عمر أنه قال لأبي هريرة: يا أبا هريرة أنت كنت ألزمتنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأحفظنا لحديثه²، ولما أدرك النبي صلى الله عليه وسلم حرص الصحابة على التوثيق والاهتمام بالأمر، أذن لهم في الكتابة معللا ذلك بأنه لا يقول إلا الحق، وفي ذلك إشارة إلى أن الخطاب النبوي قرين القرآن الكريم.

عن عبد الله بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم أريد حفظه فنهتني قريش، وقالوا أكتب كل شيء تسمعه ورسول الله

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص:1275، رقم الحديث:327.

² - الترمذي، سنن الترمذي، مصدر سابق، ص:864، رقم الحديث:3836.

صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأولماً بأصبعه إلى فيه فقال: « اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا الحق»¹.

وإذا كانت الأحاديث لم تدون رسمياً، كما دون القرآن الكريم، وإنما كانت محفوظة في الصدور نقلها صحابة الرسول إلى من بعدهم من التابعين مشافهة وتلقيناً، وإن كان عصر النبي لم يخل من كتابة بعض الأحاديث كما قدمناه عن ابن عمر؛ قيل لقد فكر عمر رضي الله عنه بتدوين السنة ولكنه عدل عن ذلك كما أشار البيهقي في "المدخل"، وبذلك انقضى عصر الصحابة رغم الاهتمام والحرص إلا أنها لم تدون إلا قليلاً²

وتكاد تجمع الروايات أن أول من فكر بالجمع والتدوين من التابعين هو عمر بن عبد العزيز، إذ أرسل إلى أبي بكر بن حزم عامله وقاضيه على المدينة « أنظر ما كان من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم فاكتبه فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء»³.

وطلب منه أن يكتب له ما عند عمرة بنت عبد الرحمان الأنصاري، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وقد أرسل إلى ولاة الأمصار كلها وكبار علمائها يطلب منهم مثل هذا، وبذلك يكون عمر بن عبد العزيز قد نفذ رغبة جده عمر بن الخطاب، هذه الرغبة جاشت في نفسه مدة ثم عدل عنها خوفاً من أن تلتبس بالقرآن، أو ينصرف الناس إليها، ثم شاع التدوين في الجيل الذي يلي جيل الزهري، وكان أول من جمعه بمكة ابن جريج، وفي المدينة سعيد بن أبي عدوة والإمام مالك وغيرهم، وبذلك أثمرت هذه الجهود الموفقة بتوطيد دعائم السنة النبوية وإنزالها مكانتها، فهي ثاني مصادر التشريع الإسلامي⁴.

¹ - أبو داود، سنن ، مصدر سابق، ص: 656.

² - انظر: مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مرجع سابق، ص: 122.

³ - المرجع نفسه، ص: 123.

⁴ - انظر: المرجع نفسه، ص: 123.

المطلب الثاني: أساليب التربية في الخطاب النبوي الشريف.

يتناول هذا المطلب أساليب الخطاب التربوي النبوي الشريف، لأن طبيعة البشر تختلف في مستوى تفكيرهم وتعاملهم فيما بينهم، لذلك يتطلب الأمر أساليب متنوعة لمخاطبة النفس البشرية واستمالتها إلى منهج الحكمة الذي يقتضي بالتمييز بين الصائب والمقبول من الرأي والعمل، وبين المخالف للصواب منهما، واتخاذ هذا المنهج سبيلا لإقناع المتعلم والتأثير فيه بغية تحقيق الأهداف التربوية التي يسعى إليها الخطاب.

ولأجل ذلك تنوعت الأساليب التربوية التي اعتمدها عليه الصلاة والسلام، وهدفنا توضيحها، لذلك نستعرض فيما يلي أهم الأساليب التربوية بشيء من الإيضاح في الأسلوب النبوي الشريف في التربية.

أسلوب القدوة الحسنة:

وقال ابن منظور: « الاقتداء، يقال: قدوة وقدوة لما يقتدى به، القدوة والقدوة: الأسوة، يقال: فلان قدوة يقتدى به، يقال: فلان لا يقاديه أحد، وذلك إذ برز في خلال كلها »¹

القدوة في الاصطلاح: « هي المثل الواقعي للسلوك الخلقي الأمثل، وهذا المثل الواقعي قد يكون مثالا حيا مشاهدا ملموسا يقتدى به، وقد يكون مثالا حاضرا في الذهن بأخباره وسيره وصوره مرتسمة في النفس بما أثر عنه من سير، وقصص، ومن أنباء، وأقوال، أو أفعال »².

¹ لـ ابن منظور، لسان العرب، ج11، ص: 70

² — الميداني عبد الرحمن، الأخلاق الإسلامية وأسسها، ج1، ص: 214.

وتعتبر "القدوة" من أهم الأساليب المؤثرة في تربية وتوجيه الراشدين، فالفرد يتأثر بمن يراه "قدوة له" ونموذجاً للكمال، لذلك تعد التربية بالقدوة من أقوى أساليب التوجيه الإسلامي وأعمقها أثراً في نفس الإنسان، لأن « أي تعليم أو إقناع أو منهج، مهما يبلغ من الدقة، والصحة، والروعة، والإعجاب، لا يؤتي ثماره إلا إذا ترجم إلى واقع محسوس، بواسطة من يمثله بعمل جارٍ متقن، ويدعو إليه بسيرة عطرة فاضلة، لكي يعرف الناس أن هذا التعليم أو المنهج حق فيقتنعوا به ويتبعوه»⁽¹⁾.

وقد جاءت القدوة الحسنة توجيهاً ربانياً متمثلة في خير البرية محمد صلى الله عليه وسلم، حيث قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾⁽²⁾.

وقد جعل الله تعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسول بكماله في الخلق والشخصية قدوة حسنة لكل أتباعه وأصحابه الذين عاصروه، أو الذين جاءوا من بعدهم، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها، وقد أكد عز وجل على مدى أهمية القدوة أو الأسوة في التربية والتنشئة والتوجيه.

وكما هو موضح، أن الأسوة الحسنة تعني القدوة، والاختيار الرباني يعكس فعلاً مدى فعالية وأهمية القدوة وأثرها القوي على الفرد والمجتمع، ولذلك لم يكن بالإمكان لأي رسالة من الرسالات السماوية أن تلقى قبولا وانتشاراً لولا اختيار الله سبحانه وتعالى للرسول لتبليغ الخطاب إلى الأمم.

والواضح من هذا منزلة القدوة وما تكتسبه من أهمية في التربية، لأنها تلبي حاجة الفطرة الإنسانية للقدوة، لترسم لها الحدود وتضيء الطريق لأنها تقدم سلوكاً عملياً تتيح الفرص لاكتساب خبرات جديدة. وطبيعة القدوة أن تأثيرها ينتقل إلى المقتدى بأحد الشكليين:

(1) - سالم جبار، الإقناع في التربية الإسلامية، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط1، عام: 2001م، ص: 77.

(2) - سورة الأحزاب، الآية: 21.

الأول: « التأثير العفوي غير المقصود، وهنا يتوقف تأثير القدوة على مدى اتصافه بصفات تدفع الآخرين إلى تقليده كتفوقه العلمي، أو الأخلاقي، أو الاجتماعي، وفي هذه الحالة يكون تأثير القدوة عفويا وغير مقصود »¹.

والأمر الثاني: « يكون تأثير القدوة مقصودا، وهو أن ينوي بفعله اقتداء الآخرين به »² وهذا النوع نجده في الخطاب النبوي فقد قال عليه الصلاة والسلام: « صلوا كما رأيتموني أصلي فإذا حضرت الصلاة، فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم »³، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «..صلوا صلاة كذا في حين كذا، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم وليؤمكم أكثركم قرآنا»⁴، وكذلك أيضا قوله عليه الصلاة والسلام: « لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلني لا أحج بعد حجتي هذه »⁵

وتتضح الصورة أكثر من خلال قوله صلى الله عليه وسلم: « إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحا خبيثة »⁶

فالخطاب التربوي فيه دعوة وحث على لمجالسة القدوة الصالحة وأهل الخير والورع والعلم، فقد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم الجليس الصالح بحامل المسك الذي ينفحك بعطره ويغمرك بنشره وأريجيه، فهو إما أن يهديك، وإما تجد عنده ريحا طيبة فأنت دائما مع القدوة رابح، لأن من يجالس القدوة الحسنة سيستفيد من علمه، وأخلاقه، وصدقه وإيمانه، فهو شامل لكل المكارم الحميدة، وذلك هو حال الجليس الصالح بحال الجليس الطيب القدوة.

¹ - عبد الرحمن النحلاوي، مرجع سابق، ط1، عام: 1979م، ص: 234.

² - المرجع نفسه، أصول التربية الإسلامية، ص: 234.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج: 1، ص: 227، رقم الحديث: 605.

⁴ - المصدر نفسه، ج: 4، ص: 1565، رقم الحديث: 4051.

⁵ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج: 2، ص: 943، رقم الحديث: 1297.

⁶ - المصدر نفسه، ج: 4، ص: 2026، رقم الحديث: 2628.

والقدوة «الحسنة هي التي ترتاح إليها نفسك، ويطمئن فؤادك وتنتعش روحك، فأنت تطرب لحديثهن وتتعم بمجالسته، وتسعد بصحبته، إنه عدة في الرخاء، وزينة في الشدة، ويلسم الفؤاد، وراحة النفس»¹.

فهذه صورة من التمثيل النبوي، ترسم لنا صفات القدوة التي يجب اتباعها والسير على هديها والعمل على منهجها، وبصحبة أصحابها.

لقد كان ومازال رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهو معلم البشرية ومنقذها من الضلالة إلى الهدى - يرى أن «القدوة الخيرة أكثر تأثيراً في النفوس والعقول من الدعوة بالقول أو الاقتصار على مجرد النصيح أو الوعظ، وإن كان مُهمّاً في حد ذاته، فكان الأسوة الحسنة التي تجسد دعوتها القولية بتطبيقاتها العملية، فجذب النفوس وأقنع العقول، فالتفت حوله قلوب المؤمنين الصادقين، وامتصوا من معين خلقه الكامل ما استحقوا به أن يكونوا الأمناء على رسالته الخاتمة بعد التحاقه بالرفيق الأعلى، وأن يكونوا واسطة نقل التراث الروحي والخلقي الذي تلقوه في مدرسة النبوة من جيل إلى جيل»².

أسلوب الحوار في الخطاب التربوي النبوي:

وهو من أهم أساليب التربية النبوية، مأخوذ من مادة "حور" وهي تدور حول المراجعة والتردد، يقول الراغب: «الحوار: التردد إما بالذات وإما بالفكر»³، فهو حديث بين شخصين، أو فريقين يتم فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر به أحدهما دون آخر، والحوار عرفه العرب منذ الجاهلية في حُطَب المفاخرات والمنافرات، فلما جاء الإسلام حرم هذه الأساليب التي كانت تقوم على المفاخرة والمنافرة، وقضى عليها شيئاً فشيئاً، ويمكن القول بأنه هذبها بالتدريج، وهذب أساليب الحوار عامة، ويمكن التمييز بين الحوار، والجدل، بالنظر إلى المادة اللغوية لكل منهما: فدلالة الحوار بين المراجعة والتردد، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ

¹ - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، مرجع سابق، ص: 39.

² - عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ط1993، م2، ص، 1565.

³ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص: 134.

ظَنَّ أَنَّ لَن يَحُورَ ﴿١٢﴾¹ أي إنه ظن أن لن يرجع إلى ربه، ولن يحييه الله بعد موته للحساب والجزاء فذلك كفر وفجر².

وأما الجدل فمأخذه من مادة: " جدل " وهي تدور حول المغالبة وما تستلزمه من قوة وإحكام التدبيرن يقول الراغب: « المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل أي أحكمت فتله، وقيل الأصل في الجدل الصراع وإسقاط الإنسان صاحبه على الجدالة، وهي الأرض الصلبة»³.

أما في الاصطلاح فالجدل: دفع المرء خصمه عن إفساد قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به كلامه وهو الخصومة في الحقيقة⁴، وهناك فرق بين الحوار والجدل، حتى وإن اشتركا في مراجعة القول، إلا أن الغاية فيهما تختلف فغاية المجادل الغلبة والانتصار للرأي حقا كان ذلك أو باطلا، وأما الحوار فغايته تربوية من خلال إبراز الحقيقة بغية الأخذ بها بعد الاقتناع بها، لأنه وسيلة لعرض الفكرة في غير تعصب ومحاولة الإقناع بالتي هي أحسن فالحوار النبوي التربوي « يكتسب أهميته من كونه وسيلة للتآلف والتعاون، وبدلا عن سوء الفهم والتوقع والتعسف والفرقة والصراع، وبذلك يصبح الحوار ضرورة طالما تفاعل الناس وتدافعوا واختلفت انتماءاتهم، ومصالحهم وأفكارهم ومشاعرهم تجاه الأشياء والأشخاص من حولهم»⁵.

فالحوار له قدرة على التخير والانتقاء واستغلال عنصر المفاجأة، وقدرته على خلق عنصر التوتر لدى السامع، وله أثر فاعل في التغلغل في النفس البشرية بإيقاظ مشاعرها، وإثارة دواعي التفكير، وأسباب الوعي بما يدور حوله، ولما له من جدة في عرض الفكرة بالخروج عن الأسلوب السردى، ثم يقوم على تشويق وشحن لذهن وتقريب المعاني، وتشخيص للحقائق وتشجيع على المشاركة الذاتية في عملية التعليم والتربية، فهو: « وسيلة تستخدم الإقناع الذاتي لتمحيص الأفكار والمعلومات السابقة، واختبارها بطريق غير مباشر للتأكد من صحتها، أو خطئها، لذا فهي لا تعتمد التلقين المجرد القائم على الأمر والنهي، أو

¹ - سورة الانشقاق، الآية: 14، ص: 134.

² - انظر: محمد على الصابوني، صفوة التفاسير، مرجع سابق، ج3، ص: 538.

³ - الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، مصدر سابق، ص: 101. 538.

⁴ - المصدر نفسه، ص: 101.

⁵ - منى إبراهيم اللبوادي، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليبه تعليمه، مكتبة هبة، القاهرة، ط1، عام: 2003م، ص: 20.5.

على مجرد الإلقاء والسماع المطلقين، فالحوار طريقة تقوم على المناقشة المتبادلة بين طرفين وتتخللها أسئلة وإجاباتها.¹

لقد كان الحوار من أساليب الخطاب التربوي النبوي الفاعل في الدعوة إلى الله، وقد استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في محاوراته مع المخاطب، إذ كان وسيلته الفعالة في إظهار حجته الإقناعية التأثيرية، لأنه في مقام دعوة الفكر للتأمل والتدبر، ومن أجل الوصول إلى استمالة القلوب وتغيير المفاهيم الخاطئة، كانت للرسول صلى الله عليه وسلم طرق إثارة الحوار فمن هذه الطرق، أسلوبية حكيمة أجملها الدكتور محمد الصباغ في نقاط أهمها:

أن يأتي بجملة تبدو غريبة لأول وهلة، فتستثير أسئلتهم.. إنهم جيل مثالي ربوا تربية إسلامية فاضلة، فهم لا يسكتون على أمر يرونه غريبا أو متعارضا مع ما فهموا من أحكام دينهم، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: مثل قوله: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما فقال رجل: يا رسول الله؟ أنصره إذا كان مظلوما، رأييت إن كان ظالما كيف أنصره».²

أو أن يورد السؤال بشكل مشوق يرغبهم في الجواب، كأن يذكر لهم أمرا عظيما ومقصدا هاما، وهدفا مرجوا، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: " ألا أنبئكم بأكبر الكبائر" أو أن يوجه عليه الصلاة والسلام إلى الصحابة سؤالا ويستمع إلى أجوبتهم، ثم يناقشهم فيها ويبين الصواب لهم، مثل قوله صلى الله عليه وسلم: " أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع" وآخر هذه الطرق أن يجري حوارا بين النبي صلى الله عليه وسلم، وبين الصحابة رضي الله عنهم ويكون حوارا عاديا لم يتعمده الرسول صلى الله عليه وسلم ولكن الوقائع أملت، وكان النبي يرحب بمثل هذه الحوارات.³

وهذه الأمور اتصف بها أسلوب النبوي الشريف في حوارهم مما أكسبه صفة الإقناع ومن ثمة التأثير في نفوس متلقيه، لأن الحوار يتطلب مهارات وقواعد وآدابا بغية تحقيق الغاية،

¹ — عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية، مرجع سابق، ص: 1565.

² — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 863، رقم الحديث: 2312.

³ — انظر: محمد لطفي الصباغ، الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته، مكتبته، المكتبة الإسلامية، ط8، عام: 2003م، ص: 29.

وقد كان عليه الصلاة والسلام يهتم بالحوار ويعطيه أهمية بالغة في المواقف التربوية التعليمية، وجعله الأسلوب الأمثل لتوجيه الناس وتعليمهم وإرشادهم، واستخدامه في تعامله مع القضايا الهامة، ولذلك تميز الحوار النبوي بالقوة والدقة وحسن والتوازن في الخطاب.

ولهذا كان الحوار من الوسائل المحببة إلى النفس، لأنه يدفع الملل وشرود السامع، فاتخذته وسيلة تربوية لنشر تعاليم الإسلام، وتبليغ الرسالة، ومن هذا الحوار التربوي التعليمي ما جاء عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان في المسجد، فدخل رجل فصلى، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم فرد عليه الرسول، وقال: «ارجع فصل، فإنك لم تصل»، فرجع يصلي ما صلى، ثم جاء، فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "ارجع فصل فإنك لم تصلي"، ثلاثاً، فقال: "والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني؟ فقال: "إذا قمت إلى الصلاة فكبر، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن، ثم اركع حتى تطمئن راكعاً، ثم ارفع حتى تعتدل قائماً، ثم اسجد حتى تطمئن ساجداً، ثم ارفع حتى تطمئن جالساً، وافعل ذلك في صلاتك كلها»¹.

ومن خلال هذا الحوار في الخطاب النبوي الشريف يمكن الوقوف على مواقف تربوية تعليمية، تتمثل في الصبر على المتعلم، وقد ظهر ذلك واضحاً من خلال توجيه المتعلم ليدرك خطأه بنفسه، فقد ترك النبي صلى الله عليه وسلم الرجل يمارس خطأه، وفي ذات الوقت كان عليه الصلاة يأمره بأداء الصلاة أكثر من مرة " ارجع فصل فإنك لم تصل" ثلاثاً، والحكمة تقتضي إعادة الفعل من المخطئ لعله يدرك الخطأ فيصح خطأه بنفسه، وإذا كان المرء جاهلاً فعليه أن يسأل ويطلب المزيد حتى تكتمل المعرفة، ثم إنه عليه الصلاة والسلام استعمل أسلوب التشويق، لأنه أرسخ في بقاء المعلومة، وقد اتضح ذلك من خلال تأخير الإجابة حتى يشتاق المتلقي إلى الجواب، وإذا اشتاق إلى الجواب كانت المعلومة أثبت في ذهنه.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص:264، رقم الحديث:724.

والجانب الآخر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان رفيقا رقيقا بالمتعلم، وهذا واضح في معاملته عليه الصلاة والسلام الرجل، فلم يعنفه أو يشدد في الإنكار عليه، رغم خطئه في أهم ركن في الإسلام، فاتسم الحوار بالهدوء واللين.

ومن بين المواقف التربوية في هذا الحديث فعل التكرار، وذلك بغية معرفة كنه المشكلة، فأمره عليه الصلاة بإحسان صلاته لمعرفة مواطن الخلل. هذا التوجيه التربوي عام لكل الصحابة، ولكل الأمة إلى يوم الدين، وقد يكون الحوار يتناول علاقات اجتماعية، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، من أحق بحسن صحابتي؟ قال: « أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك"، قال: ثم من؟ قال: "أمك"، قال ثم من؟ قال: "أبوك"»¹.

ونلاحظ في هذا الخطاب التربوي النبوي حوارا موجزا، سهل العبارة، دقيق المعنى، هذا الحوار جاء نتيجة سؤال رجل يود معرفة أحق الناس بالمصاحبة، فهو في مقام من يتعلم واجبا تجاه المقربين إليه: " يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟" أو من أولى الناس بالبر والإحسان؟ ومثل هذا الحوار النتيجة فيه قطعية عند من هو أدري بأحوال العباد ومعادن الناس، فكان جوابه عليه الصلاة والسلام جوابا قاطعا "أمك" قال: "أمك" قال: "أمك" فكانت الأم أولى العباد بالبر والإحسان، وكرر ذلك ثلاثا، وذلك تأكيد قاطع بحقها في الإشادة بقدرها ومنزلتها، وهذه الوصية أعظم مكافأة لها.

ومن خلال هذا الحوار التربوي النبوي نعلم أن البر بالوالدين أجمل الطاعات وأعظم الأعمال الصالحة التي يجب أن يقوم بها العبد، والغاية منه توضيح الأمور ورفع الغموض، ثم إنه وسيلة تؤدي إلى الإقناع بمنزلة الأم، وأنها أولى بالأفضلية في الصحبة والقربة والإحسان والبر ولا شك أن هذا السائل وغيره، قد أدركوا ما جاء في هذا الحوار أنه الحق الذي لا يقبل الشك.

1— صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2227، رقم الحديث: 5626.

ونرى أن ما تظهر السنة النبوية من مواقف تربوية عن طريق الحوار يتسم بالفاعلية في عملية التعليم والتربية، وأن ما نتعلمه عن طريق الحوار يتصف بالثبات والاستمرار، لأن المتعلم يشارك في العملية التربوية، والمشاركة الذاتية تهيئة لتلقي الفهم، واستعداد ذهني والتركيز على الموضوع الذي يتناوله الحوار، وقد أشاد القرآن الكريم بأسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾¹ فكان أسلوبه عليه الصلاة والسلام في الإقناع والتأثير التلطف في التعامل والرفق واللين في كل ما كان يأمر به، أو ينهاهم عنه، لأن أسلوب الشدة والغلظة، والغضب والعنف أسلوب ينفّر منه الطبع البشري، «لقد تميز أسلوب الرسول صلى الله عليه وسلم باللطف في وعظ مخالفه والتهديب في الخطاب فكان يبصرهم بالحق ويذكرهم بحق الله عليهم ويتيح لهم فرصة التفكير، أملا في هدايتهم وإقناعهم بما فيه صلاحهم وفلاحهم في أمور دينهم»²

أسلوب القصة:

لقد اعتمد عليه الصلاة والسلام أسلوب التربية بالقصة لما لها من تأثير نفسي في الأفراد، وخاصة إذا ما وضعت في قالب مشوق يشد الانتباه، ويؤثر في العواطف والوجدان، ويجذب الذهن إلى محتواها فيتفاعل معها، وربما يتقمص بعض شخصيات القصة، وبذلك يرتبط نفسا بالمواقف التي تواجهها فيسعد بسعادتها، ويحزن بحزنها، بل إنهم كثيرا ما يقدون أقوال ما تجري في القصة، وما فيها من أحداث وأخلاق وسلوك في حياتهم العملية اليومية، وهذه الآثار للقصة تصاحب المتعلم في جميع مراحل النمو النفسي والتربوي، وحتى الاجتماعي، وقد أبرز القرآن الكريم أهمية القصص الإيجابية وتأثيرها النفسي والأخلاقي في التربية وتهذيب النفوس، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَفُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِلِينَ﴾³ ثم أبرز دور القصة في التدبر والتفكير والاعتبار، قال تعالى: ﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁴.

¹— سورة آل عمران، الآية: 159.

²— جنان محمد مهدي، لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي، مجلة العميد، مجلة فصلية محكمة، جامعة بغداد، العدد الخاص، السنة

2013م، ص: 240

³— سورة يوسف، الآية 3.

⁴— سورة الأعراف، الآية: 176.

وقد وردت في القرآن الكريم عدة قصص: كقصة موسى والخضر عليهما السلام، وقصة قابيل وهابيل، وقصة قارون وفرعون، وقصة ذي القرنين، وقصص عدد من الأنبياء عليهم السلام وغيرها

وقد ركز القصص القرآني على الجوانب الروحية والخلقية التي تزكي الأرواح وتهذب النفوس وتسمو بالوجدان وتطهر الأبدان، وترسخ الفضائل وتدعو إلى الصلاح في الدارين

وكان عليه الصلاة والسلام أول من سلك المنهج التربوي القرآني، فترسم خطاه في توظيف القصة أسلوباً تربوياً مهماً في التربية النبوية الشريفة، يحملها قيم الإسلام ومعانيه ويربي عليها الصحابة من رعي الإسلام الأول، ويوجههم من خلالها إلى استلهام هذا الدين «عقيدة في الفكر والتصور، وطريقة في السلوك وواقع الحياة، وفق ذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقى طلباً من الصحابة وغيرهم بأن يقص عليهم، فقد كان المشركون مثلاً، يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقص عليهم بعض الأخبار الماضية لتعجيزه أو صدق نبوته، كما يوحي لهم بذلك أهل الكتاب فكان -عليه الصلاة والسلام- يقص عليهم من القرآن كما كان يفصل أحياناً بعض قصص القرآن»¹.

وقد اهتمت السنة النبوية بأسلوب القصة كوسيلة تربوية فعالة في طريقة توجيه المتعلم من خلال الإرشاد والموعظة الحسنة والعبرة بما جرى من أحداث لأبطال القصة، ولعل ميزة القصة النبوية أنها ركزت على جانب التأثير الروحي، والخلقي، والاجتماعي والإنساني، والغاية من ذلك غرس قيم وفضائل ومثلٍ عليا في نفوس المتعلم إلى جانب ترقية الوجدان وتهذيب السلوك. وشواهد القصص النبوي كثيرة، ولعل قصة أصحاب الغار تساعد كثيراً على إيضاح المنهج التربوي النبوي الشريف، وذلك لما تتوافر عليه من أهم خصائص القصة، ثم ما تتضمنه من قيم خلقية تربوية.

1- عبد الحميد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، مرجع سابق ص: 218.

فقد جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر، فأووا إلى غار في جبل، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله، فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم، قال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران، ولي صبية صغار، كنت أرعى عليهم، فإذا رحت عليهم حلبت، فبدأت بوالدي أسقيهما قبل بني، وإني استأخرت ذات يوم فلم آتي حتى أمسيت فوجدتهما ناما، فحلبت كما كنت أحلب فقامت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما، وأكره أن أسقي الصبية، والصبية يتضاغون عند قدمي حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أنني فعلته ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء، ففرج الله فرأوا السماء، وقال الآخر: "اللهم إنها كانت لي بنت عم، أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، فطلبت منها فأبى حتى أتيتها بمائة دينار، فبغيت حتى جمعتها، فلما وقعت بين رجلها قالت: " يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه، فقامت، فإن كنت تعلم أنني فعلته ابتغاء وجهك فانفرج عنا فرجة، ففرج"، وقال الثالث: " اللهم إني استأجرت أجيورا بفرق أرز فلما قضى عمله، قال: أعطيني حقي فعرضت عليه فرغب عنه، فلم أزل أزرقه حتى جمعت منه بقرا وراعيها، فجاءني فقال: "اتق الله، قلت: " اذهب إلى ذلك البقر ورعاتها فخذ، فقال: اتق الله و لا تستهزئ بي"، فقلت: إني لا أستهزئ بك فخذ، فإن كنت تعلم أنني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج ما بقي ففرج الله»⁽¹⁾.

فهذه القصة تجسد فعلا الأهداف التربوية والتعليمية والتوجيهية مما يدل على أن أسلوب القصة أفضل أنواع الأساليب تربويا، وأكثرها في تجسد الخطاب النبوي التربوي، فقد اتخذ عليه الصلاة والسلام أسلوب القصة وسيلة تربوية لنشر تعاليم وقيم الدين الإسلامي من خلال تثبيت العقيدة وتهذيب السلوك وتركيز النفوس إن قصة أصحاب الغار كما هو واضح في النص النبوي الشريف تجسد العناصر الفنية التي يقوم عليها أسلوب القصص، ويمكن لنا أن نذكر أهم العناصر الفنية في هذه القصة.

(1) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 828، رقم الحديث: 2208.

وأهم هذه العناصر عنصر التشويق والإثارة وذلك من خلال إثارة انتباه المتلقي واهتمامه بما يلقي إليه وتركيز ذهن وإثارة المشاعر بما يشد السامع إلى مجريات القصة حتى يستوعب أحداثها ويتعرف على نتائجها، والقصة النبوية عامة، وقصة أصحاب الغار خاصة قمة عالية في التشويق والإثارة، تدفع بالسامع إلى الاتعاظ وأخذ العبرة من أبطال القصة الثلاثة، والتأثر بالأعمال الخيرية التي هي النجاة، فقد توسلوا بهذه الأعمال وصدقوا في القيام بها، لأنها كانت أعمالاً خالصة لوجه الله تعالى، وكانت تلك الأعمال سبب نجاتهم من المحنة باستجابة الله تعالى إلى دعائهم.

ومما لا شك أن الغاية التربوية تدعو إلى أعمال الخير وأن هذه الأعمال هي السبب في النجاة»¹

ثم إن القصة رسمت الأبطال الثلاثة رسماً إيجابياً من خلال الصفات الإيجابية، كل الأعمال التي قاموا بها كانت لوجه الله تعالى وخشية منه دون سواه ومراعاة لمرضاته، دون غاية أخرى، فكانت أعمالهم تجسداً لأوامره ونواهيه، وهذا ما يدفع المتلقي إلى اتخاذ هؤلاء الثلاثة قدوة حسنة في حياتهم، وتقليداً لمثل هذه الأعمال، لأنها من أسمى الأعمال الصالحة التي ترفع إلى الله.

القصة منذ البداية تقوم على جلب الانتباه للسامع وجب الاطلاع والميل إلى معرفة ما يجله، لأن سياق القصة يدفع في هذا الاتجاه، اتجاه الكشف عن حقائق الأشياء وأسرارها، من خلال معرفة ما جرى لأبطالها الذين انطبق عليهم الغار، ويزداد حب الاطلاع أكثر عندما انتهى الشخص الأول من دعائه، حيث انساحت الصخرة قليلاً، ويرتفع التأثير النفسي عند نهاية الشخص الثاني من دعائه فتتساح الصخرة ويرى السماء إلى أن يصل الخاتمة المؤثرة والسعيدة بالانسراح التام عندما ينهي الشخص الثالث دعاءه لله تعالى².

¹ - عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، مرجع سابق، ص: 220.

² -- انظر: المرجع نفسه، ص: 220.

وبالنظر إلى عنصر الإيحاء في القصة نجده قد كان له الأثر الأكبر المؤثر، مما يجعل المتلقي يتأكد عن قناعة تامة أن الأعمال الخيرية هي مفتاح النجاة والنجاح، وأن السبب الوحيد الذي أخرج أصحاب الغار من محنتهم يعود إلى أعمالهم الخيرية، هذه الأعمال كانت منطلق الدعاء والتوسل إلى الله بغية النجاة. إن مثل هذه المواقف التربوية تغري المتعلم فيجعلها سلوكا خاصا ويكون أشد الناس حرصا على هذه السلوكات والتماثل بها قولاً وعملاً، وهذه نتيجة إيجابية من خلال التحلي بمثل هذه القيم الخيرة. لذلك فإن القصة النبوية عالجت مواضيع عميقة ذات أهداف سامية، لأنه طالما كانت القصة جزءاً من الرسالة التي نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي إحدى أهم الوسائل التربوية لإبلاغ هذه الرسالة التي تهدف إلى بناء عقيدة المتعلم، وتعليمه أصول هذه الرسالة، وتربية النفوس عليها. لذلك كانت القصة النبوية من أهم أساليب التربية لما لها من تأثير نفسي في الأفراد، فإذا كانت القصة القرآنية هي كلام الله فإن القصة النبوية هي وحي من الله.

وأخيراً، فإن القصة النبوية تكسب المتعلم الكثير من القيم الدينية والروحية والأخلاقية والاجتماعية، ثم تنمي الميول والاتجاهات الإيجابية دون تأثير خارجي، فيقف المتعلم على المعاني والمغزى بطريقة فنية جذابة قوامها الإيحاء التأثيري الذاتي كما هو واضح في قصة أصحاب الغار.

أسلوب التكرار في الخطاب النبوي الشريف:

يعد التكرار مكوناً جوهرياً للخطاب النبوي، وعنصراً أساسياً من أهم عناصره الأسلوبية، نظراً لكونه واحداً من أبرز آليات التوجيه التربوي في الحديث النبوي الشريف، فهو وسيلة من وسائل الدعوة، وطريقة من طرائق تبليغ أسسها، وتعليم مبادئها، فهو يأتي في المواضع التي تقتضيه، وتدعو الحاجة إليه، من خلال تعميق الفكرة المقصودة في نفس المتلقي، ثم التوكيد الذي يفيد لفت أنظار السامع، لأهمية القضية، فقد كان النبي يستعمله في الأمور التي تهم

المسلمين، وتعظم العناية بها، فيرى ضرورة توكيدها، وترسيخها في الأذهان، وهو ما أشار إليه الخطاب حين قال: «..إنما يحتاج إلى التكرار، ويحسن استعماله في الأمور المهمة التي قد تعظم العناية بها، ويخاف بترك التكرار وقوع الغلط والنسيان فيهان، الاستهانة بقدرها»¹.

وهذه الغاية التربوية التي يقصدها النبي صلى الله عليه وسلم أشار إليها أنس بن مالك رضي الله عنه عندما وصف منطق الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: «أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثاً»².

وقد ذكر الخطابي العلة في إعادة الكلام ثلاثاً بقوله: «إعادة الكلام ثلاثاً إما: لأن من الحاضرين من يقصر فهمه عن وعيه، فيكرر ليفهم، وإما أن يكون القول فيه بعض الإشكال، فيتظاهر بالبيان، وقال أبو الزناد: أو أراد الإبلاغ في التعليم والزجر والموعظة»³، ومن هذا المنطق كانت بواعث الإعادة والتكرار في الحديث النبوي الشريف.

والتكرار شكل من أشكال الإطناب في علم المعاني، والإطناب زيادة اللفظ بعبارات إضافية، إلى اللفظ الأصلي لغاية الفائدة، وقد حرص البلاغيون على إظهار وظائف التكرار ورصدها، لأنه إذا لم تكن له وظيفة دلالية في النص فهو عندهم عيب، أو هو "الخذلان بعينه" كما عبر عنه ابن رشيق، الذي حاول رصد التكرار اللفظي العديد من الوظائف مثل: التوكيد، وزيادة التنبيه، والوعد والوعيد، والتوجع، والهجاء، والتهكم، والتعظيم، والتشويق، والتلذذ بذكر المكرر، والتوبيخ⁴.

وقد أشار علماء النفس إلى أهمية الأثر الذي يتركه التكرار في السامع «إنه متى كثر تكرار أمر، تولد تيار فكري وعاطفي، يتلوه ذلك المؤثر العظيم، في الأفراد، والجماعات

¹ - الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق، محمد خلف الله، محمد زغول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، دون ذكر السنة، ص: 48.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 48، رقم الحديث: 95.

³ - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج2، ص: 115.

⁴ - انظر: ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر، مصدر سابق، ج2، ص: 73.

هو العدوى، إذ لا يكفي لتحول الانفعال إلى عاطفة، أن يحدث مرة واحدة، ولكن لا بد لحصول ذلك حدوثه، فالتكرار هو السبيل الوحيد لربط الانفعال به، وتركزه حوله، إلى جانب ما يثيره من انفعالات أخرى تدخل في تركيب العاطفة»¹.

ولهذا فإنه تكرار القول لا يقل تأثيرا في إثارة الانفعال، وتكوين العواطف، عن تكرار الفعل، بل إن تكرار القول حافظ هام لحدوث الفعل، هذا بالإضافة إلى الحديث عن تكرار اللاشعوري في القول الذي يعكس نفسية المتكلم ومشاعره.

ولذلك فإن عليه الصلاة والسلام يوظف أسلوب التكرار على أساس تقنية فنية تساعد في الوصول إلى عقل المتعلم وقلبه، فالتكرار من أساليب التوكيد التي وظفها عليه الصلاة والسلام بغية تبليغ الرسالة وتعليم معالم الدين، وهو يجسد بذلك حرصه على أن تصل المعلومة واضحة جلية إلى الأذهان .

والرسول عليه الصلاة والسلام كان يدعو إلى تكرار عبارات معينة محددا عددا معينة، ولعل هذا التحديد له دلالاته وطاقاته التأثيرية في نفس السامع الذي سيلتزم تكرار العبارة له، فقد جاء عن عثمان بن أبي العاص الثقفي، أنه شكا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعا، يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ضع يدك على الذي تألم من جسدك، وقل: باسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»².

وقد نظر البلاغيون إلى التكرار على أنه يأتي مذموما معيبا، ومقبولا وحسنا، أما المذموم المعيب، فهو ما كان مستغنى عنه غير مستفاد به زيادة معنى، مثل اللغو والخلط من القول، وقد أشار علماء البلاغة إلى أن هذا النوع من التكرار لا يوجد في القرآن الكريم، وهذا مقتضى إعجازه وبلاغته، وكذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو يخلو من اللغو والخلط وغير ذلك.

¹ - مصطفى فهمي، الدوافع النفسية، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، عام: 1960، ص: 101.
² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 1728، رقم الحديث: 2202.

وأما التكرار المقبول والحسن فهو « ما ورد في المواضع التي تقتضيه وتدعو الحاجة إليه فيها، وكان له أثره الحسن في الكلام، سواء من حيث المعاني والأفكار، أو من حيث المباني والألفاظ، أما من حيث المعاني والأفكار، فإن ما يستحسن ويقبل من التكرار ما كان وثيق الارتباط بالمعنى، إما بتأكيده أو توضيحه أو تقويته أو استغراق تفاصيله وأجزائه، وأما من حيث المباني والألفاظ: فإن التكرار المقبول أيضا يعد ركنا أساسيا من أركان الرنين والانسجام، فضلا عن ما يضيفه من العناية والدعوة إلى الاهتمام به والتنبيه عليه ¹ .

والذي نراه أن التكرار في الحديث النبوي الشريف لا يخرج من هذا التقسيم المشار إليه، فهو إما تكرار بالمعنى دون اللفظ، وإما تكرار باللفظ والمعنى.

ونرى أن توظيفه عليه الصلاة والسلام لهذا الأسلوب، يعود بالدرجة الأولى أنه صاحب مهمة أساسية، تتمثل في التبليغ والتعليم، والتبليغ والتعليم يقتضي مثل هذا الأسلوب، لأن طبيعة المتلقي تختلف ومستوياتهم، وقدراتهم العقلية والذهنية، تختلف في التحصيل والاستيعاب والفهم. التكرار باللفظ: ونعني به إعادة اللفظ نفسه، أو العبارة نفسها لأغراض مختلفة، وذلك أمر طبيعي عند علماء البلاغة، لأن البواعث متعددة تستدعي مثل هذا التكرار، ثم طبيعة الرسالة المحمدية تدعو إلى مثل هذه الأساليب، بغية وقوف السامع أو المتلقي على الغاية والمرادة، ومثل ذلك في الأحاديث النبوية كثير ² .

والتكرار اللفظي عنده صلى الله عليه وسلم أنواع، قد يكون المكرر حرفا واحدا في كلمة واحدة، وقد يكون كلمة، أو عبارة أو صيغة أو أداة.

أما على مستوى الحرف في الكلمة الواحدة فقد أشار ابن جني قديما إلى هذا عندما تناول لفظ الزعزعة، والقلقلة، والصلصلة فقال: «ومنه صل، وصلصل، ومنه وعج وعجج،

¹ -- أميمة بدر الدين، التكرار في الحديث النبوي الشريف، مجلة جامعة دمشق، المجلد: 26، العدد الأول والثاني، عام: 2010م، ص: 78.

² -- المرجع نفسه، ص: 79.

ومنه ثرة وثرثارة، وقالوا تكمكم من الكمّة، وحثث، ورقرت ورققت، قال تعالى: ﴿فَكَبَّوْا فِيهَا هُمٌ وَالْعَاوُونَ﴾¹ وهذا باب واسع جدا ونظائره كثيرة² وربما يكون أثر ذلك في المعنى أكثر وضوحا باعتبار أن أصل اللغة عند كثير من علماء اللغة محاكاة أصوات الطبيعة.

ومن ذلك ما جاء عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على أمّ السائب أو أمّ المسيّب، فقال: «مالك؟ يا أمّ السائب! أو يا أمّ المسيّب ترفزين؟ قالت: الحمى لا بارك الله فيها، فقال: "لا تسبي الحمى فإنها تذهب خطايا بني آدم، كما يذهب الكير خبث الحديد»³، ففي قوله عليه الصلاة والسلام: " ترفزين"، تكرار « فلهذا التكرار مزيّتان هنا منها ما يعود على الجرس، ومنها ما يعود على المعنى، وقد ساعد تكرير الحرف في تشخيص المعاني وتقريبها من الإدراك الحسي»⁴

والملاحظ في هذه اللفظة "ترفزين" أنها قدمت توصيفا لحالة الحمى، لأن الإنسان قد يصل حالة الهذيان الذي يرافقها والرعدة التي تأخذ صاحبها، مع أن هذه اللفظة لها استعمال آخر عند العرب مثل تقربب الخطر، أو الإسراع، إلا أنه عليه الصلاة والسلام منحها دلالة جديدة مثل الكثير من الألفاظ.

ومن ذلك أيضا ما جاء في حديث أشكال الوحي أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحيانا يأتيني مثل صلصلة فيكلمني فأعي ما يقول»⁵.

فقد حكى بتكراره لحرف الصاد صوت الصلصلة التي كانت ترافق الوحي فيسمعها أثناء تلقيه، فأحدث تكرار الصاد صوتا يماثل، أو يصور الضجة التي كانت ترافق نزول الوحي.

¹ -- الشعراء، الآية: 94

² -- ابن جني، الخصائص، مصدر سابق، ج2، ص: 52.

³ -- صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 199، رقم الحديث:

⁴ -- أميمة بدر الدين، التكرار في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 21.

⁵ -- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 4، رقم الحديث: 81.

وقد يكون التكرار كلمة واحدة مثل ما جاء في حديث أن معاذ بن جبل كان يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يرجع فيؤم قومه، فصل العشاء، فقرأ بالبقرة، فانصرف الرجل فكان معاذًا تناوله منه، فبلغ النبي فقال: «فتان، فتان، فتان، ثلاث مرارٍ، أو قال: «فاتتا، فاتتا فاتتا»¹ وأمره بسورتين من أوسط المفصل، قال عمرو: لا أحفظهما.

والملاحظ أنه عليه الصلاة والسلام قد كرر لفظة "فتان" ثلاث مرات، ودون شك أن الغرض تربوي تبليغي، لأن عليه الصلاة والسلام في مقام تعليم كل من يؤم المسلمين أن يخفف على المأمومين مراعاة لأحوالهم، وفي ذلك فائدة عظيمة تتمثل في المحافظة على الصلاة، خاصة صلاة الجماعة، والتكرار ثلاثا دال على التأكيد، وفي ذلك إشارة واضحة على أن الأمر يجب أن ينفذ، والذي لا شك فيه أيضا أن القراءة في الصلاة إنما يكون الانتقال فيها من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المركب.

وقد يكون الخطاب النبوي بأكمله مبني على التكرار التام المتلاحق، وقد جاء عن عقبة بن عامر يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو على المنبر، يقول: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي»² وفي حديث آخر عن ابن عمر، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل المشرق يقول: «ألا إن الفتنة ها هنا، ألا إن الفتنة ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان»³.

وهذا من أساليب البيان بما فيه من التكرار الذي أفاد التوكيد، ولو نظرنا في العبارات السابقة المكررة تكررًا تامًا في الحديثين لوجدنا فيها أدوات الإقناع "ألا" و "إن" وهذا ما يجعل التأكيد حاضرا واضحا، والواضح أن توظيف "ألا" تتبعها "إن" ليلفت انتباه السامعين إلى أهمية الموضوع الذي سيلقى عليهم، وبعد ذلك يأتي الخبر وقد تهيأت النفوس لاستقباله وفهمه واستيعابه وحفظه.

¹ — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص:248، رقم الحديث:669..

² — صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص:1522، رقم الحديث:1917،

³ — المصدر نفسه، ج4، ص:2228، رقم الحديث:2905.

وبعد هذه الوقفة مع أسلوب التكرار في الحديث النبوي الشريف، الذي وظفه عليه الصلاة والسلام لتحقيق أغراض متعددة ولغايات متنوعة، وجميعها يصب في نهر واحد ومشرب واحد، وهو تعليم الأمة ونصحها وإرشادها.

والذي لا شك فيه أيضا أن توظيف أسلوب التكرار بهذا المستوى في الحديث النبوي الشريف لم يكن إطلاقا ناجما عن فقر لغوي، ولم يكن عجزا في التعبير، وإنما كان مقصودا متعمدا جاء ليحمل جزءا من المعنى المراد، فكان وسيلة فنية بلاغية من وسائل الدعوة وطريقة من طرائقها، فقد أدرك أبو هلال العسكري الغاية منه حيث أشار إليه بقوله: «وكلام الفصحاء مشوب بالإيجاز بالإطناب، والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد التوسط ليستدل بالقصد العالي، وليخرج السامع من شيء إلى شيء فيزداد نشاطه وتتوفر رغبته فيصرفه في وجوه الكلام، إيجازه و إطنابه حتى استعملوا التكرار ليتأكد القول للسامع، وقد جاء في القرآن الكريم وفصيح الشعر منه شيء كثير»⁽¹⁾.

والرسول صلى الله عليه وسلم على دراية تامة بالمواقف التي تحتاج إلى توظيف هذا الأسلوب وذلك بغية توكيدها أو إلى ترسيخها في الأذهان، فيستعمل التكرار ليدل به على ذلك، ولا يكون التنبيه إلا على الأمور التي تهم الأمة وتعظيم العناية بها، وقد أشار إلى ذلك عبد الكريم الخطيب حين قال: «إن داعية التكرار قائمة في المواقف التي يكون فيها الأمر ذا شأن وخطر في الحياة الروحية والنفسية، فتقتضي الحال أن يقابل هذا الموقف بما ينبغي له الحضور النفسي والعقلي، وهذا لا يكون إلا بالتنبيه على هذا الموقف والدعوة له والهاتف به، والتكرار أداة فعالة من أدوات الإيقاظ والتنبيه»⁽²⁾.

ولهذا، فإن التكرار ليس حلية لفظية، ولا حلية لغوية، وإنما أسلوب تربوي تعليمي له أهدافه وفائدته، ولم يخرج التكرار النبوي عن هذا المنهج التربوي، بل جاء ليحقق هذه الغاية إلى جانب الغاية البلاغية، ونظرا لكون التكرار صار منهجا متبعا لدى رسول الله في تعليمه

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصنائع، مصدر سابق، ص: 193.

(2) الخطيب عبد الكريم، الإعجاز في دراسات السابقين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، عام: 1974م، ص: 406.

لصاحبه، فإن البخاري عقد بابا كرسه لتأكيد هذا المعنى، وقد ترجم له بقوله: «باب: من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم»¹.

وهنا يلاحظ ابن حجر أن «الثلاث ليست شرطا، بل المراد التفهم فإذا حصل بدونها أجزأ»².

ونعتقد أن تنبه البخاري في هذا المقام يكون بمثابة الرد على من كره إعادة الحديث، وأنكر على الطالب الاستعادة وعدّه من البلادة. حيث إن هذا «يختلف باختلاف القرائح، فلا يجب على المستفيد الذي لا يحفظ من مرة واحدة إذا استعاد، ولا عذر للمفيد إذا لم يعد»³.

¹-- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص:48.

²-- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص:200.

³-- المصدر نفسه، ج1، ص:189.

ضرب الأمثال في الخطاب النبوي:

يعد المثل من أوسع أساليب التربية والتعليم انتشارا، وأكثرها تأثيرا لما فيه من قدرة على الإقناع وتوجيه السلوك الإنساني، فهو وسيلة شائعة تستخدم لتقريب الأفكار وتوضيح المفاهيم، وإزالة الغموض والتعتيم عن بعض المعاني.

والأمثال في اللغة: «المثل، ما يضرب من الأمثال، وهو من المماثلة والمشابهة

ومَثَل الشيء بالشيء: سَوَّاهُ به وشَبَّهَهُ وجعله مثله، وعلى مثله»،⁽¹⁾ يقول أيضا ابن منظور: «المثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلا فيجعل مثله، وفي الصحاح: "ما يضرب به من الأمثال"، وقال الجوهري: "ومثل الشيء أيضا صفته"، وقال ابن سيده: وقوله عز من قائل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾⁽²⁾ قال الليث: مثلها هو الخبر عنها، وقال ابن اسحاق: معناه صفة الجنة»⁽³⁾.

وللمثل معان أخرى متقاربة، أشار إليها اللغويون والمفسرون منها: الشبه، النظير، الحجة، والآية، والعبرة، والقصة ذات الشأن، والصفة الغريبة، وهناك من يرى أنه يمكن إرجاع هذه المعاني إلى معنى واحد أو مفهوم واحد، وتكون المعاني الأخرى صورا لهذا المعنى، بحيث ترتبط بالمعنى الأصلي برابط ما، أي أنها معان تعود في أصلها إلى شيء واحد هو المشابهة.

المثل عند البلاغيين:

تناول الأمثال جمع كثير من علماء المسلمين فتحدث عنها اللغويون والمفسرون والنحاة والبلاغيون، وجماع الأمثال وغيرهم، ومع هذا لم يتهيا لأي منهم الوصول إلى تحديد

(1) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج13، ص:22.

(2) سورة محمد، الآية: 15.

(3) ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج13، ص:22.

جامع يقف عنده الجميع، وربما يعود ذلك إلى اللفظ، فقد أطلق على معان متعددة متباينة أحيانا، ومقاربة في جوانب.

ولذلك فإننا لا نطمح أن نصل إلى تعريف جامع مانع، ولكن مع هذا نحاول الاستئناس لما جاء عند البلاغيين، حيث ذهبوا في تعريف الأمثال مذهباً خاصاً فأدخلوا فيه ما جاء على سبيل الصورة البيانية مثل التشبيه والاستعارة، إلا أنهم لم يخرجوا عن المشابهة والمماثلة.

فمنهم من فسر المثل بالتمثيل كالجرجاني، فهو عنده التمثيل مطلقاً، «وكل ما لا يصح أن يسمى تمثيلاً فلفظ المثل لا يستعمل فيه»⁽¹⁾، وقال أيضاً «وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو الأولى بأن يسمى تمثيلاً لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجد لا يحصل لك إلا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر»⁽²⁾.

وأما ما جاء منه على سبيل الاستعارة فقد قال: «وأما التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيبك به على حد الاستعارة فمثاله: قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فالأصل في هذا أراك في ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ثم اختصر الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة»⁽³⁾.

وهناك فريق من علماء البلاغة يحصرون الأمثال في الاستعارة التمثيلية ومن هؤلاء السكاكي، ثم إن التشبيه التمثيلي متى فشا استعماله على سبيل الاستعارة لا غير سمي تمثيلاً «وهذا هو الذي نسميه التمثيل على سبيل الاستعارة ولكون الأمثال كلها تمثيلاً على سبيل الاستعارة لا يجد التغيير إليها سبيلاً»⁽⁴⁾.

وعلى نهجه سار أصحاب المختصرات والشروح والحواشي وغيرهم، ومهما ارتبط المثل بالتشبيه والتمثيل، فإنه لا يمكن حصره في الاستعارات التمثيلية فقط، فالدارس في كتب

(1) - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مصدر سابق، ص: 91.

(2) - المصدر نفسه، ص: 91.

(3) - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الأعجاز، مصدر سابق، ص: 68.

(4) - السكاكي، مفتاح العلوم، مصدر سابق، ص: 349.

الأمثال يلحظ عددا كبيرا من الأمثال لا يمكن اعتبارها بحال من الأحوال من باب الاستعارات التمثيلية، مثل قولهم: ترى الفتیان كالنخل وما يدرك ما الدخل، وكذلك قولهم:

إنه لا شبه به من التمرة بالتمر، غير ذلك¹، وإذا كان مصطلح المثل تقلب عند علماء البلاغة بين التشبيه والتمثيل والاستعارة، فإنهم لم يخرجوا به عن المشابهة والمماثلة.

ويعتبر أسلوب ضرب الأمثال، والتشبيه، من أهم الأساليب في عملية التربية وخاصة في التوجيه العقدي والخلقي، لما له من تأثير إيجابي في العواطف والمشاعر وفي تحريك نوازع الخير في النفس البشرية إذا استعمل بحكمة ووعي، وفي ظل الظروف المناسب نفسيا لحالة الفرد الذي يجعله مهياً للتأثر بعمليتي الاستهواء والإيحاء اللتين تتضمنها التشبيهات والأمثال المضروبة لغرض تربوي.

وقد ضرب القرآن الكريم كثيرا من الأمثال وأورد العديد من التشبيهات والاستعارات التمثيلية مما يؤكد أهمية ضرب الأمثال في الدعوة والتوجيه والتعليم والتربية.

وكذلك السنة النبوية قد أولت لأسلوب ضرب الأمثال والتشبيه أهمية كبيرة من حيث كونه أسلوبا فعالا ومؤثرا في عملية التوجيه والإرشاد والتعليم والتربية، وقد استخدمت هذا الأسلوب مرارا عديدة في تقريب المعاني والمجردات للأذهان، وشرح الحقائق التي قد يغمض على العقول فهمها وخاصة المتعلقة بالأمور الغيبية.

لذلك فإن السنة النبوية الشريفة تتضمن كثيرا من التوجيهات التربوية التي ترتبط في بعض الأحيان بمواقف معينة تعليمية قصد ترسيخها وتركيزها، وربط التعاليم والآداب بالوقائع حتى تكون أكثر ثباتا في ذهن المتعلمين والناشئين، والشواهد على ذلك كثيرة في السنة النبوية التي تظهر أهمية التعليم والتربية عن طريق ضرب المثل، ومن الأمثال النبوية التي تهدف إلى تربية وتعليم المتلقي ما أراد من توجيهات وإرشادات هي صالح الناس جميعا، ما جاء عن النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ترى المؤمنين في

1- انظر: الميداني، مجمع الأمثال، مصدر سابق، ص: 270.

تراحمهم وتوادهم، وتعاطفهم كمثّل الجسد، إذا اشتكى عضواً، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى»⁽¹⁾.

هذا مثل قياسي يبين فيه عليه الصلاة والسلام القيم الأخلاقية والاجتماعية التي تسهم في التكافل الاجتماعي على أساس تلك القيم، وهي أمور معنوية بأمر حسي مشاهد، وهو الجسد القوي الذي إذا اعتل فيه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

يقول العيني: « فأما التراحم فالمراد به أن يرحم بعضهم بعضاً بأخوة الإيمان لا بسبب شيء آخر، وأما التواد فالمراد به التواصل الجالب للمحبة كالتزاور والتهادي، وأما التعاطف فالمراد به إعانة بعضهم بعضاً كما يعطف الثوب عليه ليقويه»⁽²⁾.

والواضح أنه عليه الصلاة والسلام يربي المسلم على قيم أخلاقية واجتماعية، قيم يحتاج العبد إلى فهمها وإدراك معانيها مثل، هذه الوسيلة الفنية، فالمثل يقرب الأشياء المعنوية إلى ما هو حسي مادي يفهمها المتلقي ويدرك معانيها، فتشبيه المؤمنين بالجسد الواحد تمثيل قوي يجعل المعاني صورة مرئية يسهل على المتلقي إدراك الغاية منها بكل يسر.

وبالنظر إلى النص النبوي الشريف نجده يغرس في نفس المتلقي قيماً روحية إنسانية تعمل جميعها إلى ربط أفراد المجتمع في إطار المودة والتآخي "توادهم، تراحمهم، تعاطفهم" قيم معنوية روحية وظيفتها بناء النفس المؤمنة.

ونعتقد أن الغاية التربوية في هذا النص غاية سامية تعلم الإنسان حقيقة الحياة، وحقيقة حياة القلوب والأرواح، لأنه ليس من صفات المؤمن الأنانية والتفرد والتغلب على رقاب الآخرين، إنما هم جماعة، ولكنهم كشخص واحد في تماسكهم، لذلك قال: "مثل الجسد"، وفي ذلك تأكيد على الوحدة الحاصلة من تماسك الأعضاء ففي قوله: "اشتكى"

(1) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 5، ص: 2238، رقم الحديث: 5665.

(2) العيني، عمدة القارئ لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 3، ص: 40.

توحي بالتشخيص، وهذا يتأكد أيضا في قوله "تداعى" فيه دلالة على المشاركة الوجدانية المشخصة في دعوة الأعضاء لبعضها وحثها لبعضها من أجل المشاركة في الإسعاف، هذه هي القيم التربوية التي يسعى عليه الصلاة والسلام إلى تعليمها وغرسها في نفس المؤمن، وهذه هي حياة القلوب والأرواح.

هذه القيم جسدها من خلال ضرب المثل غايته تربوية تعليمية، ومثل هذه المثل نجدها أيضا في الاستعارات التمثيلية، أو الاستعارة المركبة، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»⁽¹⁾.

يصف الجاحظ هذا الحديث بأنه مما لم يسمع من أحد من قبل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «سنذكر من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم مما لم يسبقه إليه عربي، ولا شارك فيه أعجمي، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد، مما صار مستعملا ومثلا سائرا مثل «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين»⁽²⁾.

والحديث مثل مشهور، وقد استخدم كثيرا قديما وحديثا ويضربه الناس كلما توفرت المناسبة، والحدث اللازم له، حيث يعد واحدا من معايير الإيمان المهمة، ثم إن المثل يدل على أن الحلم مطلقا غير محمود.

فالرسول صلى الله عليه وسلم عندما عفا عن أبي عزة مرة أخرى لقتال المسلمين في أحد جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يقتله بعد أن قال كلمته المشهورة: «لا يلدغ المؤمن من الجحر مرتين»، وقتله كان انتقاما لحرمة الإسلام والمسلمين، وليس انتقاما لنفسه، فهو منزّه عن الأمور الدنيوية الرخيصة.

(1) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2271، رقم الحديث: 5722.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، مصدر سابق، ج2، ص: 15، 16.

والصورة الاستعارية تتكون من المستعار منه "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين" وهذا الطرف هو المذكور دائما في الاستعارة التمثيلية.

أما المستعار له فهو من جرب الأمور عرف تقديرها واتصف بالحلم والذكاء، فلا يعاود إليها مرة أخرى إذا كانت فيها المصائب.

ولهذه الاستعارة دلالات كثيرة تشيع منها، فهو عندما أراد توضيح أهمية هذه المسألة التي تشكل في حقيقة الأمر المستعار له، وبقيت صورة المستعار منه " لا يلدغ المؤمن مرتين"، فتجسدت هذه المعاني في نفس المؤمن وأصبح الشخص الذي يخدع المؤمن لأول مرة كأنه ثعبان سام لدغ فأوجع، وإذا ما لدغ مرة ثانية تكون لدغته أقوى تأثيرا من الأولى، وربما تكون مميتة، لذلك لا يدخل الرجل يده في جحر كان قد لدغ منه مرة، وهو أمر معروف عند العرب» (1).

وقد ذكر عليه الصلاة والسلام المؤمن دون سواه فلم يقل: النصراني أو اليهودي، أو غيرهما، لأن هؤلاء لا يتصفون بالإيمان الحقيقي بالله، ولم يقل أيضا لا يلدغ المسلم، لأن المسلمين متساوون في إسلامهم، لكن منهم من لم يصل حد الإيمان، وهذا ما جعل الخطاب للمؤمن دون سواه.

والحديث كما هو واضح لنا يقوم على مثل مشهور عرفه العرب وضربوه في مواقف مماثلة، وكذلك أيضا من صور الاستعارة التمثيلية التي جرت مجرى الأمثال وكان التعبير بها وسيلة تربوية ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وأبدأ بمن تعول» (2).

(1) محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 147.

(2) صحيح البخاري، مصدر سابق، ج2، ص: 518، رقم الحديث: 1360.

والرسول صلى الله عليه وسلم يضرب مثلاً حياً ليظهر أن الصدقة لا تصح ولا تكون مثمرة كاملة تعود على صاحبها بالأجر والثواب إلا إذا كانت فائضة عن حاجة مخرجها وعن أهله وعياله، بحيث لا تؤثر عليه إذا أعطاها، تظهره غنيا لا يحتاج لأحد أبداً.

والأداة في الحديث " لا " ليست للنفي على الحقيقة وإنما « النفي فيه للكمال لا للحقيقة، والمعنى لا صدقة كاملة إلا عن ظهر غني، وأفضل الصدقة ما أخرجه الإنسان من مال بعد أن يستبقي منه قدر الكفاية لأهله وعياله، ولذلك يقول وأبدأ من تعول»¹.

وكذا حديث سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي، وليس فيها علم لأحد»²، يعرض الحديثان صورة تبدل معالم وجه الأرض يوم القيامة، حين تصبح كهيئة خبزة واحدة بيضاء من الدقيق الخاص، مستوية لا بناء فيها ولا أثر سكن، يأخذها الله ويقلبها بين يديه كيفما يشاء مثل ما يقلب أحدنا خبزة السفر.

والملاحظ في هذا التصوير هو ضرب المثل في هذا الحديث بغية تعليم المتعلم، لأن ضرب المثل في هذا المقام فيه إيضاح وشرح وبيان للهيئة التي تكون عليها الأرض يومئذ، والوجه الثاني إظهار الخبزة التي يهيئها الله تعالى نزلاً لأهل الجنة إلى جانب إظهار عظم مقدارها ابتداءً واختراعاً، صورة حسية توضح أموراً غيبية عن طريق ضرب المثل من أجل تقريب المراد وتفهم المعنى للمتلقى المتعلم.

وربما تأتي الصورة عن طريق أمثال الكناية، حيث نجد البعض قد خصص في كتابه أمثال الحديث، باباً للأمثال الكناية، من صور أمثال الكناية، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»³، وفي ذلك حث على الجهاد، والمراد أن حامل سيفه في سبيل الله مطيعاً لله به يصل إلى الجنة، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: « من

¹ - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج 8، ص: 293.

² - المصدر نفسه، ج: 3، ص: 1037، رقم الحديث: 2663.

³ - المصدر نفسه، ج 5، ص: 2376، رقم الحديث: 6109.2

يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»¹، فكنى عن اللسان بقوله: لحييه، وكنى عن الفرج بقوله: ما بين رجليه.

ومهما كان الأمر فإن الأمثال شكل من أشكال الأدب ووسيلة من وسائل التربية والتعليم بغرض تجسيد المعاني وتقريبها إلى أذهان المتعلم، فهي أمثال تأتي في الغالب في ألفاظ سائغة وتراكيب مختلفة، حيث اتسمت بالإيجاز المتضمن للمعنى الصائب، ثم إنها أمثال خلت من الإسهاب والإطناب.

فالأمثال النبوية لها وظيفة تربوي في المقام الأول، لكونها تجعل من الأشياء غير المادية وغير المنظورة، أشياء منظورة في متناول المتعلم ليفهمها ويتدبر معانيها، فهي وسيلة إيضاح وتقريب المعاني.

1- العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج 5، ص: 2376، رقم الحديث: 6109.

المطلب الثالث: دور الصورة البيانية في توجيه الخطاب التربوي النبوي

حين نتناول الصورة البيانية في الخطاب النبوي الشريف، فإننا نتناول أدبا جادا في أهدافه وغاياته، فهو خطاب يهدف إلى تمكين الحقائق التربوية في نفس السامع عن طريق نصوص الحديث وما تحمله من وسائل التمكين والتأثير والإقناع.

ومن يتتبع نصوص الأحاديث النبوية الشريفة يجدها في أبهى الصور وأورف الظلال المعنوية، وفي ذلك بلغ الأسلوب النبوي ما لم يصل إليه بشر من قبل: « والمنتبج للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تتجذب إلى النفوس من القول، لما فطر عليه صلى الله عليه وسلم من معرفة عناصر التأثير في البيان وأوجه الجمال في اللسان، فجاء حديثه النبوي من البلاغة العالية في موضع تتطلع نحوه الأبصار وتتقاصر دونه الأعناق»¹.

لذلك كانت الصورة البيانية النبوية لها طريقتها الخاصة في عرض المعنى وتأثيرها في المتلقي، باعتبارها مظهرًا من مظاهر الفاعلية ووسيلة من وسائل الكشف وتقديم المعنى، إلا أنها لا تقود المتلقي إلى الغاية مباشرة مثلما تفعل العبارات الحرفية، وإنما تتحرف به عن الغرض وتحاوره وتداوره بنوع من التمويه، فتبرز له جانبا وتخفي جانبا آخر حتى تثير شوق وفضوله، فيقبل المتلقي على التأمل في الصورة، وعندئذ ينكشف له الجانب الخفي من المعنى ويظهر العرض كاملاً²، وبهذه الطريقة تفرض الصورة على المتلقي نوعا من الانتباه واليقظة،

وهكذا ينتقل المتلقي « من ظاهرة المجاز إلى حقيقته، ومن ظاهرة الاستعارة إلى أصلها، ومن المشبه به إلى المشبه، ومن المضمون الحسي المباشر للكناية إلى معناها الأصلي المجرد، ويتم ذلك كله خلال نوع من الاستدلال، ينشط معه ذهن المتلقي، ويشعر إزاءه بنوع من الفضول، يدفعه إلى تأمل علاقات المشابهة أو التناسب، التي تقوم عليها الصورة حتى

¹ - محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، مرجع سابق، ص 237.

² - انظر: جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص: 323.

يصل إلى معناها الأصلي السابق في وجوده عليها وعلى قدر الجهد المبذول في هذه العملية، وعلى قدر قيمة المعنى الذي يتوصل إليه المتلقي»¹.

وهذا المفهوم يظهر أهمية الصورة في الخطاب التربوي النبوي ويحوّله إلى منجز فعلي في السلوك البشري، لأن التأثير بمختلف أنواع التصوير البياني يخاطب القلب والوجدان، يخاطب في الإنسان إنسانيته، ومشاعره المختلفة، من الخوف، والحب، والحذر والإشفاق، وغيرها من المشاعر.

ولا يتوقف التصوير البياني في الخطاب التربوي النبوي عند حد التأثير في المتعلم وإنما يتجه إلى الإقناع من خلال عرض الأشياء وتوضيح المعاني، وتقريبها للفهم وكشف حقائق تبصرة للبصيرة، لأن الصورة تخاطب في الإنسان عقله المفكر، الذي يختبر الأشياء ويتفحصها حتى إذا اقتنع بها استقرت حينئذ يقينا، وتحولت بعد ذلك إلى سلوك فعلي متبع، والتصوير البياني النبوي في نهجه التربوي لا يبعد كثيرا عن هذا النسق الفني.

وإن كنا نرى أن التصوير النبوي يحقق غايته بقدر ما يؤدي من تمكين المادة في النفس، وبقدر بعدها عن التصوير الذي مرده إلى المبالغة، أو المبالغة لغاية فنية لذاتها، لأن الغاية الجمالية دون وظيفة، لا تتناسب عادة مع الخطاب الجاد الهادف مثل الخطاب النبوي الشريف.

ونحن عندما نتناول الصورة البيانية في الخطاب التربوي النبوي فإننا سنركز أكثر على الصورة المركبة، لأنها أكثر إيفاء وتحليلا من الصورة المفردة، وهذا لا يعني أننا نضائل من القيمة الفنية للصورة المفردة، فإننا لا نهملها، وإنما نرى أن الصورة المركبة أكثر تحليلا للظواهر التربوية، ومن هذه الصور ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، فحدثوني ما هي؟

¹ - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، مرجع سابق، ص 323.

" فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبد الله: وقع في نفسي أنها النخلة فاستحييت ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: " هي النخلة «¹ وفي رواية مسلم، قال ابن عمر: فذكرت ذلك لعمر، قال: لأن تكون قلت هي النخلة أحب إلي من كذا وكذا»².

إن طبيعة أصل المؤمن، أو المسلم، تتسم بكل ما يدل على الخير، وأنه مصدر عطاء دائم في أقواله، وأفعاله، حتى بعد مماته، حيث تبقى ذكراه، خاصة إذا كان من أهل العلم النافع الذي ينتفع به وترتوي منه النفوس وتستظل بطلبه القلوب.

إن الغاية التي يهدف إليها البيان النبوي في هذا الحديث هي بيان وصف المسلم ووضعه بين العباد، فهو بحكم إيمانه وأهدافه يمثل إشعاعاً نورانياً يضيء للناس سبل الخير مصدره في كل أقواله، وأفعاله، وفي كل أحواله وشؤونه، هذه المعاني السامية التي يريد عليه الصلاة والسلام إيصالها إلى المتلقي، وغرسها في أذهان المتعلمين، فاتخذ لها وسيلة فنية رائعة، من خلال الصورة التشبيهية، التي استهلها بالسؤال، إن من الشجر شجرة... مثل المسلم، إنها مثل المسلم فحدثوني ما هي؟.. " وهو بهذا الطرح قد أثار انتباه المتعلم، وقد أخذ بمجموع مداركه، ثم ألقى إليه الجواب.

والصورة تبدأ منذ البداية، بعرض المشبه به على الأنظار، وتقدمه بطريقة فنية، على المشبه، فالنخلة تسبق وجود المسلم، وترتكز الغاية التربوية في النص على معرفة النخلة، بعد أن طرح السؤال بما يناسب الطابع التعليمي « بأسلوب لطيف جذاب، فبعد أن تشغل الأذهان بالبحث والتفكير تتم المعرفة بالجواب الصريح، ومن ثم ترسخ في الأذهان تلك الصورة اللونية الرائعة، وهي صورة خضراء تملأ النص خصوصاً في الخاتمة، لأن النص يختتم بذكر النخلة فلا يبقى غيرها من شجر «³.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص62، رقم الحديث: 61.

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص2166، رقم الحديث: 2811.

³ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق، ص70.

ويمكن أيضا قراءة تَمَيُّز المسلم وتفردّه من خلال تفرد النخلة بين الشجر، "من الشجر شجرة"، فهو كائن منتقى بين الآدميين كما تنتقى شجرة النخيل؛ وتميزها بين باقي الأشجار لأنها تتميز « بكثرة خيرها " ودوام ظلها وطيب ثمرها، ووجودها على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى يبيس ويتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها وسعفها وجريدها يستعمل جذوعا وحطباً وعصياً ومخاصر وحصرًا وحبالاً، ثم آخر شيء منها نواها فينتفع به علفاً للإبل ثم جمال نباتها، وحسن هيئة ثمرها، فهي كلها منافع وخير وجمال»¹.

ونفس الكلام يقال عن المشبه « كذلك المؤمن خير كله، من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه، فيواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة وسائر الطاعات »².

ونرى هذا أنه وجه الشبه الصحيح بين المشبه وهو المسلم، والمشبه به وهي النخلة هي هذه الصفات المشتركة بينهما، لأن البعض يرى أن وجه الشبه يتمثل أن النخلة إذا قطعت رأسها ماتت بخلاف باقي الشجر، وقال بعضهم: لأنها لا تحمل حتى تلقح، وقال بعضهم: ،لأن طلعها له رائحة المني، وقال بعضهم: لأنها تعشق كالإنسان، غير أن هذه الصفات يشترك فيها في الغالب المؤمن والكافر، وأما صفات المؤمن لا تتعدى إلى الكافر.

ومثل هذا التصوير تدريب من النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، على عمق التفكير والتركيز لتقريب البعيد مما أثار ذهول الصحابة رضوان الله عليهم ووقعوا في شجر البوادي، وذهلوا عن النخلة القريبة منهم وحياتهم، وفي ذلك عبرة للمربين والمعلمين أن يروضوا أذهان المتعلمين.

والملاحظ في التصوير تنوع أساليب الرسول صلى الله عليه وسلم، من طرح السؤال، إلى أسلوب السرد القصصي، إلى الحوار، إلى الاستفسار، بغية الإثارة وتنبيه السامع إلى جانب ضرب المثل، وهي جميعها وسائل تربوية يوظفها المعلم.

¹ - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج2، ص14.

² - المصدر نفسه، ج2، ص14.

وفي حديث آخر، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمساً، ما تقول ذلك يبقى من درنه، قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذاك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا »¹.

والحديث يكشف عن قدرة تربوية لا تنهياً للجميع، حيث نستشف من خلال هذا الأسلوب التربوي كيف أراد عليه الصلاة والسلام أن يقرب الصورة إلى ذهن المتلقي، فابتدأه بسؤال: " أرأيتم لو أن نهراً " ، وفي ذلك إثارة دعوة إلى حسن الإدراك لدى السامع، ويزيد في لفت انتباهه، ثم يمهّد لهذه الصورة بهذا الاستخبار، وقد اختار هذا التركيب دون سواه، من أجل استحضار الصورة أمام المخاطب يراها أمامه، فصاغ الإخبار بهذه الصيغة الاستفهامية، وفي ذلك تحريك فكر المتعلم والسامع ويستثير انتباهه ، " فإذا القضية قد فكر فيها وحققها، فكان الجواب ما تضمنه الاستفهام نفسه، وهو الموافقة " لا يبقى من درنه شيء ، وهكذا أخرج النبي صلى الله عليه وسلم هذه الصورة الحسية بأقوى أسلوب، وكأنه يقول : « الأمر واضح مرئي للعين فأخبروني عما سألتكم، وبذلك أثار الانتباه إثارة عظيمة »².

إن هذا الأسلوب التربوي عظيم الأثر في النفس، وعلى المربي أن ينوع طرائقه التعليمية ويلون أساليبه في الأداء، فيخبرها أحياناً، ويستفهم أخرى.

والصورة من التشبيه التمثيلي، شبه عليه الصلاة والسلام المؤمن الذي يعد نفسه للصلاة فيصليها، ثم يعد نفسه للصلاة الثانية فيصليها، وهكذا حتى يتم فرضه اليومي، شبه بذلك بحال المؤمن الذي يمر ببابه نهر فهو يغتسل فيه كل يوم خمس مرات.

تظهر بلاغة الصورة وقوتها في توضيح المعنى وتقريبه من الأذهان، لأن الباء توحى بالتصاق النهر بالباب، وذلك لا يكلف جهداً أو زمناً، هذا النهر يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، ثم يستفهم استفهاماً تقريرياً فيقول: هل يبقى من درنه شيئاً؟ فيقر الجميع: لا يبقى من

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص197، رقم الحديث 505.

² - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص155.

درنه شيء، والصورة « شبهت الصلاة بالنهر، لأنها تتقي صاحبها من الذنوب كما ينقي النهر البدن من الأوساخ التي تعلق به بالاغتسال فيه، وشبه قرب تعاطي الصلوات وسهولتها بكون النهر قريباً من مجاورته على باب داره، وشبه الذنوب بالأردان للتأذي لملاستها، وشبه محو السيئات عن المكلف بنقاء البدن وصفائه »¹.

والصورة التمثيلية تساعد على إدراك المعاني الذهنية المجردة وتقريبها إلى العقول ليكون التأثير أقوى والاستجابة أسرع، خاصة في تحفيز المتعلم على التعليم.

فضرب الأمثال وسيلة تربوية تساعد على التعليم، ولها أثر فعال، خاصة وأنه قد جاء في شكل فني تشبيهي مشوق، ثم إن الحديث جمعت فيه وسائل تربوية متعددة مثل الحوار وهو أسلوب رفيع من أساليب الاتصال اللغوي، ووسيلة من وسائل الدعوة العملية لها غايات وأهداف محددة، إلى جانب أسلوب الاستفهام "أرأيتم" والمراد منه أخبروني، وأصل التراكيب استفهام عن الرؤية، ثم استعملت الرؤية بمعنى الإخبار وذلك بغية الانسجام.

ومهما يكن الأمر فإن التمثيل النبوي الشريف يشتمل على أغراض تربوية عدة، حتى إن الباحث فيها يجد أغراضاً متعددة في الحديث الواحد، وفي ذلك دلالة واضحة على حرصه صلى الله عليه وسلم على إيصال دعوته للناس، وحرصه على فهمهم لها.

ومن الأحاديث التي تتناول الحياة الأبدية وأهل الجنة والنار ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: « بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »².

¹ أبو الطيب صديق حسن علي الحسيني، عون الباري لحل أدلة البخاري، دار الرشيد، حلب، سوريا، ط1، عام 1984 ص620.

² — صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص1188، رقم الحديث 3083.

والحديث يظهر « أن هناك درجات في الجنة على حسب أعمال أهلها في الحياة الدنيا فهناك منازل عالية ، ومنازل دونها، وفي أعلى الجنة غرف، هذه الغرف يراها أهل الجنة ويرون سكانها، في أي مكان كانوا في الجنة، ولتقريب هذا الأمر الغيبي شبه عليه الصلاة والسلام رؤية أهل الجنة، لأصحاب تلك الغرف، برؤيتهم في الدنيا للكوكب المضيء، في كبد السماء، سواء كان في الأفق الشرقي أو الغربي »¹، وفائدة ذكر المشرق والمغرب، فيه إظهار وبيان الرفعة وعلو المكانة، وشدة البعد، والتعبير بلفظ يتراءون، يدل على المشاركة، فكما أن أهل الجنة يرون أصحاب تلك الديار، من أي موضع من الجنة، فكذلك سكان الغرف يرون أهل الجنة، وهذه الغرف هي منازل الأنبياء، ورجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين.

والواضح أنه عليه الصلاة والسلام من خلال هذه الصورة، يود أن يظهر أمرا غيبيا بعيدا عن أذهان السامعين، فاتخذ من صورة الكوكب المضيء، وسيلة إيضاح وتقريب المعنى إلى أذهان السامعين، خاصة وأن الأمر الذي يتناوله يتعلق بالخفي لا تدركه الأبصار، ولتحقيق الغاية اعتمد عليه الصلاة على الصورة التشبيهية المبنية على شيء مألوف في حياة الناس من خلال الرؤية البصرية، رؤية الكواكب، أو « إرشادهم إلى تجربتهم اليومية في النظر إلى الكواكب، الذي صار في الحديث إيماءة إلى البهاء، ونضارة الوجوه، وعلو المقام، والسعادة في الجنة، إنه الإشراق النفسي مع النعيم، بل إن الصيغة الجمعية في "تتراءون" ترسخ حتمية هذه المقارنة، لا يَشِدُّ عنها واحد من الناس، كما دل التعبير بالجمع »².

والملاحظ أن النجوم في الأحاديث النبوية عادة ما ترد لدلالة على اللامعان والكثرة، ففي حديث عبد الله بن عمرو العاص رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء،

¹ - محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 160-161.

² - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 341.

من شرب منها فلا يظماً أبداً»¹ والصورة التشبيهية تقوم على اللمعان، وربما يشار بها أيضاً إلى العدد، مثل ما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء من اليمن، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء»²، والواضح أن المراد هنا أولاً: الكثرة العددية إلى جانب الإضاءة، لأنه لولا الإضاءة والإنارة ما عرف عددها وكثرتها.

وقد يوظف عليه الصلاة والسلام الصورة الاستعارية، عندما يتناول المعاني الكبرى في الدين مثل "الإيمان، الدين، الكتاب"، فهو في حاجة إلى مستويات فنية أكثر بلاغة وتأثيراً في المتعلم، لأن هذه المستويات الرفيعة، تساعد المتلقي على الوقوف على كل جوانب الموضوع وإدراكه، ومن ذلك ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»³. فالإسلام بوصفه ديناً واعتقاداً تجرّيداً، إلا أنه مع استعارة الفعل "بني" بناءً يتشكل من لبنات، ويقوم على عمْد، وتعني هذه الاستعارة أول ما تعني أن العمْد التي أتى على ذكرها الحديث النبوي هي قلب الإسلام والأساس الرئيسي، الذي ينهض عليه ومن دونها لا دين ولا إسلام، وتعني كذلك أن الإسلام كل واحد بعمده ولبناته، فإذا كان ضياع مصير الإسلام بذهاب تلك العمْد، فإن ذهاب بعض اللبنات أو كلها يؤدي إلى تشويه الإسلام، والإساءة له، وتدل استعارة البناء أيضاً على أن الإسلام مصدر كل خير وراحة نفسية يشعر بها الإنسان، حيث ما كان وفي أي زمان» فالإسلام عمارة في القلب وفي الأرض كما أن الله استخلف الإنسان في عمارة الأرض، وتوَجَّ رسالاته السماوية المقدسة بالإسلام، ليكون تتبعا حضارياً، ولفظ البناء المستعارهنا، يقرب إلى الذهن أركان الإسلام فيتصور المرء حينئذ كل

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص1188 رقم الحديث: 3083.

² المصدر نفسه، ج5، ص2406 رقم الحديث: 6209.

³ المصدر نفسه، ج1، ص12 رقم الحديث: 8.

ركن ديني بمنزلة جدار، ولا حياة في بيت ينقصه جدار واحد على الأقل، وهذا هو التكامل في أركان الدين»¹.

وإذا كان لفظ "بني" يؤدي مهمة القرينة الدالة على أن الكلام قد سلك مسلك المجاز بالاستعارة، ولتدني الصورة المطلوبة إلى ذهن المتعلم، فالمعاني الكبرى التي أشار إليها عليه الصلاة والسلام، فإنه تخير لها اللفظة "بني" تجسيماً للإسلام، على الرغم أن في البوادي في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، كان البناء عبارة عن خباء، مرتفع على عمود متوسط، وأربعة أوتاد: الخيمة، وهي الغالبة في ذلك الزمان، ولفظ البناء فيه دلالة على إدراك عميق من الرسول صلى الله عليه وسلم، لقيمة البناء الكبرى في حس الإنسان المسلم، لأنه عليه الصلاة والسلام يهدف إلى تعليم وترسيخ في العقول، أن الإسلام لا بد أن يكون رغبة كل إنسان، وطموح كل عاقل، لأن فيه الأمن والهناء والطمأنينة.

وصور الاستعارة تكمن في الفعل "بني" حيث شبه الإسلام ببيت له خمسة أركان، حذف المشبه به، وأبقى على شيء من لوازمه، وهو قوله "بني" و قرينة صرفت الأذهان إلى المعنى المجازي إثبات لازم المستعار منه الفعل "بني" للمستعار له "الإسلام" على سبيل الاستعارة التخيلية. هكذا يعلم المعلم الأول أهمية هذه الفرائض، وعظيم خطرها « تفهيماً واضحاً، ينطبق في ذهن البدوي الخالي الذهن من المعارف السامية وهو طابع العرب إذ ذاك، ويمس مشاعر الحضري وبلائم ذوقه، وقد جاءت هذه المعاني اللطيفة الدقيقة في هذا الحديث مع غاية الاختصار والوضوح وقوة الإقناع والتأثير»². بهذه الأساليب الرفيعة، كأنه عليه الصلاة والسلام، يعلم ويشرح ويقرب للأذهان الأمور الغيبية، بواسطة صورة اعتمدت على تقريب المعنى وتجسيمه بحسّي، يلصق بذهن كل إنسان يدركه كل من يتلقى هذا الحديث، حيث موضع اطمئنانه وسعادته، وبذلك تعطي

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، المرجع سابق، ص 429.

² - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، مرجع سابق ص 38.

، يدركه كل من يتلقى هذا الحديث، حيث موضع اطمئنانه وسعادته، وبذلك تعطي الصورة الرغبة في تحقيق هذه الأركان والحفاظ عليها بالدوام، رغبة النفس في تحقيق أمنها واطمئنانه وسعادتها.

لقد تناولت الاستعارة في الحديث النبوي هذا الدين العظيم "الإسلام" بالوصف من عدة وجوه تناولت كما رأينا أركان الإسلام، ثم تناولت وصف سماحة الدين الإسلامي وعدم الإسراف فيه، وفي هذا المقام جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا واستعنوا بالغدوة والروحة وشيءٍ من الدلجة »¹.

هذا الحديث جاء في باب « الدين يسر، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: " أحب الدين إلى الله الحنيفة السمحة »².

والحديث يظهر سماحة الدين الإسلامي ويسره « دين الإسلام ذو يسر، أو سمي الدين يسرا مبالغة بالنسبة إلى الأديان قبله، لأن الله رفع عن هذه الأمة الإصر الذي كان على من قبلهم ، ومن أوضح الأمثلة له أن توبتهم كانت بقتل أنفسهم، وتوبة هذه الأمة بالإقلاع والعزم والندم»³.

الدعوة من وسائل تثبيت المعاني في ذهن السامع، وتلك الغاية تربوية وهي أخذ هذا الدين باليسير، ومما يؤكد هذه الرؤية أن الحديث بدأ بجملة خبرية مؤكدة، خالية من عناصر الزمنية، تمثل نصا صريحا للدلالة على يسر الشريعة، وجاء ما يمنع أي معنى يثير الشك فيها وهو بعض وظيفة التوكيد ب:إنّ، والغرض من الجملة الخبرية هو الأمر، أي التزموا جانب اليسر وعدم التشدد في الأمر، وبلاغيا استعمال الخبر في غرض الأمر باب واسع في البلاغة العربية.⁴

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص23 رقم الحديث: 39.

² - المصدر نفسه ، ج1، ص23، رقم الحديث: 39.

³ - العسقلاني، فتح الباري، مصدر سابق، ج1، ص: 93.

⁴ - انظر: خالد فهمي إبراهيم، تطبيقات التحليل البلاغة للسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 39.

وعدم التشدد في الأمر، وبلاغيا استعمال الخبر في غرض الأمر باب واسع في البلاغة العربية.¹ والجملة الثانية "ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه"، يمكن اعتبارها جملة تقوي الجملة الأولى وتدعمها في تأكيد المعنى الأول، أو القول نوع من العطف المحقق للتوكيد، وهي أيضا جملة خبرية تقرر يسر الإسلام وعدم العسر فيه.

وأما من حيث الصور البيانية، ففي الحديث استعارات متتابعة عن الاستعانة بالصلاة في ابتداء النهار وابتداء الليل وهو المعنى المفهوم من قوله "الغدوة" والذي يعني السير في طرفي النهار ابتداء، وفي "الروحة" السير في النهار أيضا لكن انتهاء، وفي "الدلجة" التي هي السير في الليل وقد استعير بها عن الصلاة في هذه الأوقات.

ونركز في هذا المقام على الاستعارة المكنية في قوله عليه الصلاة: "ولن يشاد الدين" وبالضبط في قوله "يشاد" وهذه اللفظية يمكن اعتبارها نقض اللين "شادَّ مشادَّةً وشدادًا: غالبه في الحديث: « يشاد هذا الدين يغلبه، أراد يغلبه الدين، أي من يقاربه ويقاومه ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته، والمشادَّة: المغالبة »². فقد شبه عليه الصلاة والسلام الدين بهيئة كائن ضخم عظيم لا طاقة لأحد في مغالبتها، حذف المشبه به وأبقى على شيء من لوازمه وهو المشاددة التي تضمنتها الاستعارة "يشاد"، وأصل الشبه الاستعاري لهذه الاستعارة مأخوذ من المشاددة والمغالبة التي تحصل بين الرجال فيغلب القويُّ الضعيفَ. فالدين بهذه الاستعارة أضحي كائنا ذا قوة وسلطان، لا يتعرض له أحد بغير الرفق إلا غلبه. ولذلك أراد عليه الصلاة أن يعلمنا حقيقة مفادها أن الدين يسر، لتأتي بعد ذلك الاستعارة من خلال أسلوب القصر ليقرر من خلال هذا الأسلوب حقيقة أخرى، وهي أن من يخالف الحقيقة الأولى فيتشدد في الدين ويضيق على نفسه ما وسع الله هالك مغلوب، وانسجاما مع هذه المغالبة نلاحظ تقديم المفعول به "الدين" على الفاعل "أحد" لأن من حق الغالب أن يتقدم على المغلوب الذي من حقه أن يتأخر، وتوظيف اللفظ "غَلَبُهُ" بدلا من غير

¹ - انظر: خالد فهمي إبراهيم، تطبيقات التحليل البلاغة للسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 39.

² - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج7، ص: 54.

من الألفاظ مثلا: الترك ترشيح، وهذا ما جعل خيال المتلقي يعتقد أننا فعلا أمام مشادة حقيقية بين الدين والمتشدد فيه، ونهاية هذه المشادة بعلو الدين وانهزام المتشدد فيه¹. إن توظيف الاستعارة في لفظ المشادة تكشف فعلا عن طابع المتشدد الحاد، وعن طبيعته الانفعالية، مما يوحي عن غياب الدراية والعقل والابتعاد عن المنطق والحكمة والتعامل مع الأشياء.

والحديث فيه تصوير يكشف لنا عن المنهج التربوي وتهذيب أخلاق الناس فكريا، لأن المغالاة والتشدد في الدين يأتي أصلا من نقص فكري وعدم سعة الاطلاع، و أخذ الأمور بظواهرها، مما يؤدي إلى التشدد في الدين، فالرسول صلى الله عليه وسلم يعلمنا كيف نأخذ الأمور عن دراية وفكر وعن سعة اطلاع بأمور الدين، وقد عبر عن هذه المعاني من خلال التصوير الاستعاري، وأطراف هذه الاستعارة تتكون من: المستعار منه: وهو الكائن العظيم الضخم محذوف وبقي لازم من لوازمه وهو "يشاد"²، والمستعار له: وهو الدين الإسلامي وهو مذكور، والجامع بين المستعار منه والمستعار له هو القوة والعظمة.

والاستعارة من قبيل الشيء المحسوس للأمر المعقول، وهذا الضرب من الاستعارة هو الأكثر توضيحا للمعنى وترسيخا في أذهان المتعلم، وذلك لما فيه من دلالات إيحائية متعددة، إلى جانب أن الاستعارة قد حققت وظيفتها وهي التشخيص وذلك من خلال إضافته للدين من صفات الأشخاص وهي "المشادة" و"الغلبة"، وهذه الصفة الأخيرة هي التي جعلت الاستعارة ترشيفية وتؤكد لمعانيها.

وفي الحديث صورة ثانية، وهي الاستعارة التمثيلية، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: " استعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة"، وهي تظهر للإنسان كيف يخوض في هذا الدين، إلى جانب إظهار أوقات العبادة الصحيحة التي لا تغلب الإنسان ولا تمنعه عن أداء وظائفه الأخرى، التي هي من واجباته الدنيوية، يقول محمد علي الصابوني: « هذا الحديث

¹ - انظر: خليل محمد أيوب، لفة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، مرجع سابق، ص159.

² - انظر: محمد علي إبراهيم حسين علي الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص100.

فيه تمثيل معناه استعينوا على طاعة الله عز وجل في الأعمال الصالحة والعبادات التي تقرّبكم من الله في وقت نشاطكم وفراغ قلوبكم بحيث تستلذون بالعبادة ولا تسأموها وتبلغوا مقصودكم، كما أن المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها فيصل المقصودة من غير تعب ولا نصب»¹.

وأما العسقلاني فإنه يضيف للموضوع إيضاحاً أكثر حين قال: « ليس المراد منع طلب الأكمل في العبادة فإنه من الأمور المحمودّة، بل منع الإفراط المؤدي إلى الملل أو المبالغة في التطوع المفضي إلى ترك الأفضل، أو إخراج الفرض عن وقته، كمن بات يصلي الليل ويغالب النوم إلى أن غلبته عيناه في آخر الليل فنام عن صلاة الصبح في الجماعة، أو إلى أن طلعت الشمس فخرج وقت الفريضة»².

والصورة الاستعارية تمثل حالة المسلم بحالة المسافر الذي عليه السير في الغدوة، أي السير في النهار والروحة أي السير بعد الزوال، وشيء من الدجلة وهذا السير آخر الليل، حتى لا يمل ويتعب ويغلبه الدين، وينقطع عن المداومة في العبادة وبضيع أجره.

وجمال الصورة أنها تعلم الإنسان أنه مسافر في هذه الدنيا، ونهاية سفره الآخرة، لذلك يجب عليه السير في هذه الأوقات المناسبة "الغدوة والروحة وشيء من الدجلة"، لأنه إن كان سيره في هذه الأوقات المنشطة يمكن له مداومة السير والسفر دون تعب أو عجز ويصل إلى المقصود ويفوز بالآخرة. والصورة تعلمنا كيف نأخذ هذا الدين « إن لربك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً وإن لأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه»³، نتعلم كيف نستلذ بالعبادات ولا سأمها، وحتى نبلغ الغاية والمقصود، مثل المسافر الحاذق يسير في هذه الأوقات ويستريح في غيرها، فيصل من غير تعب ولا نصب.

¹ - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص 187.

² - العسقلاني، فتح الباري، مصدر سابق، ج 1، ص 94.

³ صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص 387 رقم الحديث: 1102.

فالدعوة إلى العبادات دون التشدد فيها على النفس، ولا إرهاق لها، وفي الحديث صور كنائية من خلال استعمال أفعال الأمر في الحديث كله يحمل كنايات متضافرة عن شفقة النبي صلى الله عليه وسلم على الخلق إذ يعلمهم كيفية أخذ الدين على الوجه الصحيح، فهو ينصح ويرشد إلى عدم التشدد على النفس، بالتعمق في أمر الدين بما لم يجب عليهم.

ويمكن أيضا اعتبار في الحديث كناية أخرى، عن تجنب سلوك الرهبة، والدعوة إلى رعاية وحظ النفس والجسد من المتع والراحة وطلب المعاش في إعمار الأرض، ثم فيه تعميم الرحمة بالخلق جميعاً، ويتضح ذلك في إثارة أمر الجميع باستعمال واو الجماعة، فسدّدوا، وأبشروا واستعينوا"، ويمكن أيضا استثمار التضاد في "الغدوة والروحة" لأن في ذلك طلب للتنويع والتوزيع، وذلك تحقيق لصورة كنائية عن قطع مادة الإملال الذي عادة ينشأ من التزام الشيء نفسه في الأوقات المتكررة، وغاية الحديث الحث على التنويع والتوزيع في الزمان.

« إن الحديث يؤسس للعماد الذي يقوم عليه أمر الدين، وهو اليسر، ويستعمل مفردات باعثة على التفاؤل في ألفاظها ومعانيها، فألفاظ السداد والمقاربة والبشرى، تتحدر من معجم داعم للقدرة الإنسانية متعاطف مع ما تتحقق جاذبية النفوس به وارتياحها ¹، وهو مثال فريد في توظيف الألفاظ في النصوص، بغية إشاعة روح البهجة والانبساط ولعل أهم قاعدة تعليمية يدعو إليها هذا الحديث هي ضرورة العناية بمحددات التيسير والسماحة في الخطاب الدعوي والفقهي، ثم ضرورة اعتماد أبعاد التيسير في الشؤون المتعلقة بالشرعية الإسلامية في فتاوى المفتين، ولاسيما فيما يتصل بحقوق الله تعالى، إذ هي مبنية على التسامح، وبذلك تكون الصورة البيانية في البيان النبوي لها طريقتها الفاعلة في عرض المعنى وتأثيرها في السامع، فهي تخاطب القلب والوجدان، وتحول سلوكه إلى ما يتفق والتوجه الإسلامي.

¹ - خالد فهمي إبراهيم، تطبيقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية، مرجع سابق، ص 40.

الفصل الثالث: الوظيفة الدينية في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: أثر التصوير البياني في بيان الإيمان في الخطاب النبوي الشريف

المبحث الثاني: أثر الصورة البيانية في بيان القضاء القدر والجنة والنار في

الخطاب النبوي الشريف

المبحث الأول: أثر التصوير البياني في بيان الإيمان في الخطاب النبوي الشريف

ثبت في صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل عليه السلام، أن جبريل سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أخبرني عن الإيمان، قال: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » .

هذه هي أهمام الأصول التي يقوم عليها الإيمان، بل لا إيمان لأحد إلا بها، وهي أصول مترابطة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض، فالإيمان ببعضها مستلزم للإيمان بباقيها، والكفر ببعضها كفر بباقيها ولهذا رأينا ضرورة الوقوف في هذه الوظيفة عند الإيمان، باعتبار أن الوظائف السابقة جميعها تصب في هذا النهر العظيم، وفيه يجري الدين، وعليه يقف أمر العبد اتجه ربه سبحانه وتعالى.

وانطلاقاً مما سبق ارتأينا أن نحصر هذا الموضوع في ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: الإيمان والإسلام

الإيمان والإسلام من المسائل التي أطال العلماء في بيانها في كتب العقائد على أنهما يجتمع فيهما الدين كله، لذلك كثر الكلام في حقيقة الإيمان والإسلام وكثر الحديث والتأليف فيهما ، بل صنف في ذلك كتب ومجلدات، ويرى البعض أنه لا بد من إعادة الأمر إلى ما يستفاد من كلام الله ورسوله، وأنه خير وأحسن تأويلاً، وأحسن عاقبة في الدنيا والآخرة.

وقد اتجه في هذا الاتجاه ابن تيمية فيقول: « قد فرق النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام بين مسمى " الإسلام " ومسمى " الإيمان " ومسمى " الإحسان " فقال: "الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً".

وقال: « الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره »¹

ثم أشار أيضاً و "الفرق" المذكور في حديث عمر الذي انفرد به مسلم وفي حديث أبي هريرة الذي اتفق البخاري ومسلم، وكلاهما فيه: أن جبرائيل جاءه في صورة إنسان أعرابي فسأله، وفي حديث عمر: أنه جاءه في صورة أعرابي.

وكذلك فسر " الإسلام"، في حديث ابن عمر، قال: « بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت، وصوم رمضان»²

¹- أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تیمیة الحرانی تقي الدين ، مجموع فتاوى ابن تیمیة، مجمع الملك فهد لطباعة

المصحف الشريف، السعودية، مصدر سابق ط1، عام: 2004، ج7، ص: 6- 7 .

²- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 12، رقم الحديث: 8.

ويرى أنه إذا ذكر الإيمان يذكر معه الإسلام ، وإذا جاء هذان اللفظان معا في سياق واحد فالإيمان يراد به، الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله واليوم الآخر، أي الأعمال الباطنة وهي أعمال القلوب، مثل حب الله والخوف منه، ورجائه والإخلاص له، أما الإسلام، فيراد به الأعمال الظاهرة: الشهادتان والصلاة والزكاة والحج.

أما إذا ذكر اسم الإيمان مجردا، دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة مثل قوله عليه الصلاة والسلام في حديث الشعب: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الأيمان»¹

فعلم أن القلب إذا صلح بالإيمان، صلح الجسد بالإسلام، وهو من الإيمان، وهذا ما يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام في حديث جبرائيل: "هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم" فجعل الدين هو الإسلام، والإيمان، والإحسان « فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة لكن هو درجات ثلاث: مسلم، ثم مؤمن، ثم محسن»²

وغايتنا نحن من الإيمان والإسلام والإحسان هو الوقوف على أثر الصورة البيانية في إظهار هذه المعاني، وهو ما سنحاول إظهاره من خلال الأحاديث النبوية الشريفة التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية، وهذه الأصول يمكن الوقوف عليها في حديث أبي هريرة الذي يقول فيه: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: « أن تؤمن بالله وملائكته وبلغائه ورسوله وتؤمن بالبعث ، قال: ما الإسلام ؟ قال: الإسلام: أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان، قال: ما الإحسان؟، قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك" قال: متى الساعة؟، قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، وسأخبرك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربها، وإذا تطاول رعاة الإبل لبهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله ، ثم تلا

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 63، رقم الحديث: 35 .

² - ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، مصدر سابق، ج7، مصدر سابق، ص: 10

النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله عنده علم الساعة ، ثم أدبر فقال: ردوه " فلم يروا شيئاً.
فقال: هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم»¹

هذا الحديث من الأحاديث المتواترة ،لأنه ورد من رواية ثمانية من الصحابة الكرام
وهم: أبو هريرة، عمر، وأبو ذر، وأنس، وابن عباس، وابن عمر، وأبو عامر الأشعري، وجبرير
الجلبي، رضي الله عنهم.

والواضح من الحديث ستة أصول: الإيمان بالله، الإيمان بالملائكة، والإيمان بالكتب
السموية، والإيمان بالرسول، ثم الإيمان باليوم الآخر، وفي الأخير الإيمان بالقضاء والقدر.

فهو يشتمل على شرح العبادات الظاهرة والباطنة « من عقود الإيمان، وأعمال الجوارح،
وإخلاص السرائر، والتحفظ من آفات الأعمال ،حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة
منه... »²

والذي يعيننا في هذا المقام هي الصورة التشبيهية الواردة في قوله عليه الصلاة والسلام
ردا على سؤال جبريل عليه السلام: "فأخبرني عن الإحسان" فأجابه عليه الصلاة والسلام: «أن
تعبد الله كأنك تراه ،فإن لم تكن تراه فإنه يراك » والصورة توضح حالة عبادة العبد لربه كما
يجب أن تكن، على أن يعبد الله في جميع أحواله كعبادته حال العيان.

وبالاستقصاء والتحليل لهذا التركيب " أن تعبد الله كأنك تراه" نجد أن هذا الكلام من
جوامع الكلم التي أوتيها عليه الصلاة والسلام، لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين
ربه سبحانه وتعالى، لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمات
واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتبعها على أحسن وجوها.³

¹ - صحيح البخاري،، مصدر سابق، ج1، ص: 28، رقم الحديث: 50

² - القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 184

³ - انظر: عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 16

وغاية الصورة البيانية هي الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربه تبارك وتعالى في إتمام الخشوع والخضوع ، وفي رواية ثانية: « أن تخشى الله كأنك تراه، فإنك إن لا تَكُنْ تراه فإنه يراك »¹

ولعل الفرق بين الروایتين كما يقول العيني في أثناء شرحه لهذا الحديث « الإحسان على مقامين: الأول كمال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أن تعبد الله كأنك تراه" فهذا مقام، والثاني قوله: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" ² قد أشار العيني إلى شرح النووي: لقول: " كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" قال النووي: « هذا أصل عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصادقين وبغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين، وتلخيص معناه أن تعبد الله عبادة من يرى الله تعالى ويراه الله تعالى، فإنه لا يستبقى شيئاً من الخضوع والإخلاص ، وحفظ القلب والجوارح ومراعاة الآداب ، ما دام في عبادته وقوله: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك" يعني أنك إنما تراعي الأدب إذا رأيته ورآك لا لكونك تراه، وهذا المعنى موجود وإن لم تره ،لأنه يراك، وحاصلة الحديث على كمال الإخلاص في العبادة ونهاية المراقبة فيها، وقال: هذا من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعاً من تلبسه بشيء من النقائص احتراماً لهم واستحياء منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلعاً عليه في سره وعلا نيته... »³

وصورة تشبيهه من التمثيلي تشبه حال المخاطب في العبادة بحالة في الرؤية، والمراد من ذلك بيان الحال والمقدار معاً، فهو لا يريد تبين حال أمره في العبادة فحسب بل ومقدار تلك الحال من الخشوع والمهابة والإجلال، وفي توظيف الأداة كأن دلالة على الإتحاد بين الحاليين ومحاولة الارتقاء في مقام الاستحضار القلبي لمهابة العبد من ربه.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 40، رقم الحديث: 10

² - انظر: العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج1، ص: 289

³ - العيني، عمدة القارئ، ج1، مصدر سابق، ص: 289

وأما توظيف لفظ " تعبد " دون سواها تكشف على أن العلاقة بين العبد وربّه علاقة عبادة بالمفهوم الواسع، الذي يشمل كل الأعمال التي يقوم بها العبد بصدق النية والإخلاص والتزام هدى نبيه صلى الله عليه وسلم.¹

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: " فإن تكن تراه " دون قول: " فإن لم تراه " فإنه إشارة أن هناك إعداد على عدم الرؤية، أو هو مهيب على عدم الرؤية في الدنيا بصريا، ولكن تكون الرؤية بواسطة البصيرة، وذلك من خلال إدراكه أن الله قريب منه، وأنه يراه "فإنه يراك" هذه المعاني وغيرها مما يدعو إلى الإيمان بالله، جاءت نتيجة الصورة التشبيهية، مما يؤكد علاقة الصورة البيانية في ربط العبد بربه باطنيا وظاهرا.

ومن الأحاديث النبوية التي تناولت الإيمان ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»²

وفي رواية البخاري: « الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء من الإيمان»³

هذا الحديث العظيم فيه بيان خصال الإيمان على أنها بضع وسبعون ،أو بضع وستون شعبة، والبضع: من ثلاثة إلى سابعة، وبداية الحديث كانت بالأصل الأساسي لكل شيء "أفضلها قول: " لا إله إلا الله" وذلك مع اليقين القلبي بتوحيد الله.

هذا الحديث العظيم فيه بيان ارتباط أعمال الإنسان بالإيمان، حيث أن الإيمان يمثل نقطة انطلاق وتوجيه الإنسان إلى الخير، سواء تعلق بالجانب الدنيوي ،أو الأخروي وهذا يقتضي من الإنسان سلوكا معينا عمليا يتفرع عن الإيمان وينبثق عنه، ففي قوله عليه الصلاة

¹ - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 16

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 63، رقم الحديث: 35.

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 13، رقم الحديث: 9

والسلام: " الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة " المراد بذلك خصال الإيمان التي لا تخرج عن هذا العدد، وإنما هي متفاوتة منها ما يدخل فيها أعمال القلوب، أو أعمال الجوارح وأعمال اللسان ، وعنها يتفرع شعب أخرى من أعمال البدن مثل النفع المتعدي من الصدقة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، إلى جانب أنه يتفرع إلى نواحي أخرى ، مثل الأخلاق ،أو الجوانب الاجتماعية نأو الفكرية وربما بعض الجوانب الاقتصادية.

والحديث يظهر أن الإيمان يقتضي التحقيق، وظهور تلك المظاهر المختلفة على المرء المؤمن بالإسلام، أن يجسدها وتحققها، وهي التي سماها الحديث شعبا، لأنها تنبثق عن الإيمان. هذه المعاني صورها رسول الله صلى الله عليه وسلم ،حين جعل الإيمان كالشجرة التي تطلق على الجذع، والساق، وكما تطلق على الأغصان والأوراق والأزهار والثمار، كذلك يطلق الإيمان على التصديق بالقلب، وعليه مع الأعمال الصالحة « كما أوضح لنا الحديث قضية الإيمان وحقيقة وأنه يقتضي اتجاهها عقيد يا وسلوك عمليا تتفرع عنه هذه الأعمال كما تتفرع الشجرة، فالجذع " لا إله إلا الله محمد رسول الله، ثم الفروع كالصدق والأمانة وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والجهاد في سبيل الله، والإحسان إلى الناس، ودفع الأذى عنهم ،حتى تصل إلى إمطة الأذى عن الطريق،وكلما نقصت الفروع بأن أخل الإنسان بشيء من فروضه وواجباته، نقصت الشجرة حتى لا يبقى إلا الجذع، وهو الأمل والرجاء الأخير الذي يرجى بسلامته عودة النمو من جديد فيها إذا ظل الجذع حيا لم يمّت »¹.

فقد شبه عليه الصلاة والسلام، الإيمان بما يقتضيه من السلوك العملي، وما يوجب على المسلم في أخلاقه ومعاملاته ودينه، شبه ذلك بالشجر تتألف من جذور، وما يتصل بها

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 58

من جذوع وأغصان وأفنان وفروع تتشعب « وترتفع حتى تؤتي ثمارها يانعة جنية، وكلنا يرى الشجرة يألّفها ويحبها، ويرى منافعها، فليس ثمة أيسر من إدراك المعنى الذي أراده النبي صلى الله عليه وسلم وتصوره صورة واضحة، غير أن الحديث قد أكد لنا وقوى هذا التصوير»¹ فقد حذف عليه الصلاة والسلام المشبه به، وهو اسم الشجرة من الكلام وذكر شيئاً من لوازمها، التي تدل عليها، وهي قوله عليه الصلاة والسلام "شعبة" على سبيل الاستعارة المكنية، هذه الصورة تأكد وتقوي الصورة السابقة، وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد قرب إلا أذهاننا معنى الإيمان وذلك من خلال تصويره عن طريق المحسوس الذي نراه بأعيننا، وهي شجرة الإيمان نراها وقد تفرعت أغصانها واخضرت أوراقها.

إنها صورة تجسد الإيمان، وهو أمر معنوي في صورة حسية ومن الأحاديث التي أوردها البخاري في باب "دعائكم إيمانكم" ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»² لقد كان عليه الصلاة والسلام يدعو إلى التوحيد والإيمان بالله ونبذ الأوثان، ثلاثة عشر عاماً في مكة، وهي مرحلة يمكن اعتبارها مرحلة تأسيسية، وكانت أطول مدة من المرحلة الثانية، والتي كانت تمثل فروع الشريعة، وكانت في المدينة حيث دامت عشرة أعوام، وكل ما نزل من القرآن في مكة، كان يدعو إلى التوحيد وإلى الإيمان بالله تعالى.

هذا الحديث الشريف يبين أهم ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم « من الواجبات العملية التعبدية، وهي الركائز التي بها تتحقق شخصية المسلم، وتثبت بها هُويّته كمسلم، فهي بمنزلة البطاقة التي تثبت شخصية صاحبها »³.

¹ - المرجع نفسه، ص: 58

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 12، رقم الحديث: 8

³ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 37

وقد جاء حديث " بني الإسلام " بأسلوب الاستعارة المكنية في قوله: " بُنِيَ الإسلام على خمس " والفاعل محذوف وهو الله سبحانه وتعالى وتكمن صورة الاستعارة بالتحديد في الفعل "بني" حيث شبه الإسلام بمبنى له خمسة ركائز، أو أركان، وحذف هذا المشبه به وأبقى لازماً من لوازمه وهو قوله عليه الصلاة والسلام " بُنِيَ " على سبيل التخييل.

يقول العيني: « الأظهر أن تكون الاستعارة مكنية، بأن تكون الاستعارة في الإسلام والقرينة بني على التخييل بأن شبه الإسلام بالبيت، ثم خيل كأنه بيت على المبالغة، طلق الإسلام على ذلك المخيل، ثم خيل له من البناء على الاستعارة التخيلية، ثم نسب إليه ليكون قرينة مانعة من إدارة الحقيقة »¹

وأطراف الاستعارة تتكون من: المستعار منه، البيت وقد حذفه، وأبقى لازماً من لوازمه وهو البناء، المستعار له، الإسلام وهو أمر معقول، وأما الجامع بين المستعار منه والمستعار له فهو القوة الصيانة والحفظ.

وأما القرينة التي صرفت الأذهان إلى المعنى المجازي، فهي إثبات لازم المستعار منه الفعل " بنى " للمستعار له " الإسلام " وهذه عملية تخيلية، لأن الاستعارة كما يرى عبد القاهر الجرجاني أن استعارة الشيء المحسوس للأمر المعقول، هي من صنع الخيال والذي يمكن قوله إن كل حقيقة عقلية تزداد رسوخاً في القلب إذا اتضحت شاخصة أمام العين، ولهذه الاستعارة دلالة فكرية عظيمة ينبعث معناها من حرف الجر " على " من قوله: " بني الإسلام على خمس " فمعنى "على، فوق الشيء" وهذه الحقيقة الفوقية تدل على أن الإسلام قديم بوصفه واحداً من الأديان السماوية، لأنه يمثل الإيمان والعمل الصالح ، وهذا كله موجود منذ القدم ، ثم أن لهذه الاستعارة دلالة نفسية تشع منها، حيث أن دلالة البيت تبعث الطمأنينة في نفس الإنسان المقبل على الإسلام « المنقاد لله ظاهراً وباطناً ومخلصاً له

¹ - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق ، ج1، ص: 120

فيها»¹ وبذلك يتأكد الإنسان أنه ليس هناك ما يحفظ دمه وماله وعرضه إلا الإسلام، وكل شيء سواه مضلة وزائلة تفقد الإنسان نفسه.

وقد نقل ابن تيمية عن محمد بن نصر المروزي: « ومثل الإيمان والإسلام أيضا كفسطاط قائم في الأرض له ظاهر وأطنا ب ولها عمود في باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركان العلانية والجوارح هي الطناب التي تمسك أرجاء الفسطاط والعمود الذي وسط الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به »²

والواضح من هذا القول أن محمدا بن نصر يشبه الإسلام بالخيمة الكبيرة ويجعل الأركان هي الحبال التي تشدها وتثبتها، أما العمود الذي يتوسط هذه الخيمة فهو الإيمان، وهو الذي لا تقوم الخيمة إلا به ولو سقط أو زال تسقط الخيمة وتتهار.

فالإسلام عمارة في القلب وفي الأرض، لأن الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في عمارة الأرض، وتوَج رسالاته السماوية المقدسة بالإسلام، ليكون تتبعا حضاريا « ولفظ البناء المستعار هنا يقرب إلى الذهن أركان الإسلام فيتصور المرء حينئذ كل ركن ديني بمنزلة جدار، ولا حياة في بيت ينقصه جدار واحد على الأقل، وهذا هو التكامل في أركان الدين»³

وفي هذا الحديث اعتمد عليه الصلاة والسلام على أسلوب التصوير بالاستعارة وذلك من أجل تقريب المعاني العقلية وجعلها في صورة حسية، لأن الحس أقرب من الإنسان ولا تستقيم الحياة بدونه، لأن البيت، أو الخيمة مأمن وموضع الأمان وسعادة، وبذلك تعطى الصورة الاستعارية الرغبة في تحقيق ذلك، وشوق إلى هذه الأركان، التي يقوم عليها الإسلام وتلك، هي الوظيفة الدينية التي يسعى إلى تحقيقها الحديث.

¹ - عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية "تعليق: محمد الصالح رمضان، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، الشارقة، 1 هـ، عام: 1995، ص: 36

² - ابن تيمية، كتاب الإيمان، المكتب الإسلامي، بيروت، ط5، عام: 1996، ص: 283-284

³ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 429

ومن الأحاديث التي ترغب وتشوق إلى الإيمان ما جاء عن العباس بن عبد المطلب، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً »¹

من النعم التي يمن الله تعالى بها على من أراد سعادته، ويحرم منها من كتبت عليه الشقاوة، وأما من يريد إبعاده، فهو ذلك الذي رضا بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا، وذلك هو جوهر السعادة ودليل الفلاح وفي ذلك نجد حلاوة الإيمان، كما قال في حديث أنس: « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يُحِبُّه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار »²

هذا الحديث وما سبقه نجد فيهما ما يجد المؤمن المحقق في إيمانه، المطمئن قلبه به، من انشراح صدره، من خلال معرفه الله تعالى، ومعرفة رسوله، ثم معرفة منة الله عليه، في أن أنعم عليه بالإسلام، وجعله في أمة خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم، وحبب إليه الإيمان والمؤمنين، وبغض إليه الكفر والكافرين.

وعند « معرفة هذه المنن والوقوف على تفاصيل تلك النعم تطير القلوب فرحا وسرورا وتمتلئ إشراقا، وحينئذ يشعر المرء بحلاوة وطعم الإيمان، لا يخلو عن إدراك تلك الحلاوة وذلك الطعم، إلا من أراد الشقاء، وكفر بالنعم، وسلك مسلكا غير الإيمان، غير أن المؤمنين في تذوق طعم الإيمان وتمكنها ودوامها متفاوتون حسب ما أشار إليه في الأمور الثلاثة: "من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً" »³

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 62، رقم الحديث: 34

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 14، رقم الحديث: 16

³ - القرطبي، المفاهيم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محي الدين ديب مستور، وأحمد محمد السيد، ويوسف على بدوي، ومحمود إبراهيم بزال، دار ابن كثير، دمشق، ط1، عام: 1996، ص: 210.

ونعتقد أن الرضا بالشئ هو القناعة ،لأن الرضا بالله تعالى ربا، وبالإسلام ديناً وبمحمد نبيا ورسولا، هو الرضا الأعظم ، وفيه الخير كله، حيث يجد من رضي بالله تعالى ربا، حلاوة في طاعته ولذة في البعد عن معصيته، وأما من رضي بالإسلام ديناً وجد حلاوة وذاق طعمها ، من خلال إتباع خير دين أخرج لناس، ولا يكتمل ذلك إلا بالرضا بالرسول صلى الله عليه وسلم نبيا، ورسولا، وعندئذ يجد حلاوة في إتباع سنته والتزام بهديه.¹

هذه المعاني جسد التصوير البياني من خلال إظهار شعور المؤمن وارتياحه عندما يرتوي قلبه بالإيمان، حيث أعطى للإيمان مذاقا، لا يجده إلا من رضا بهذه الأمور الثلاثة.

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: "ذاق طعم الإيمان" استعارة مكنية ،لأن الطعم إنما يكون في المطعومات، شبه الإيمان بنحو العسل، ثم طوى ذكر المشبه به، الذي هو من جنس المطعومات، وفي ذلك إحياء، على أن المشبه من جنس المشبه به، ووجه الشبه هو الالتذاز وميل القلب.

فالمشبه هو الإيمان أمر معنوي، والمشبه به من المطعومات نحو العسل محسوس، وعندما أشار إلى المشبه أضاف إليه من خواص المشبه به ولوازمه " ذاق طعم" على سبيل التخيل، وبذلك تكون الاستعارة أيضا تخيلية، وقد قربت المعاني إلى المتلقي وأثارت انتباهه وشوقه مما جعلها تكن في النفس وتستقر في الأعماق، خاصة عند تذكر تلك النعم والمنن لا يخلو عن إدراك الحلاوة من خلال استلذذ الطاعات، والله تعالى قد جعل العبد ميلا إلى اللذة ،لأنه جُبِلَ على الميل إلى الحسن والجمال والكمال، ولذلك فإنه بقدر ما ينكشف للعاقل حسن الشئ وجماله إلا وتعلق قلبه به، واستلذ طعمه، حتى يفضى ذلك إلى أن يستولى ذلك المعنى فلا يجد صبرا عنه، ولا ينشغل بشئ دونه.²

¹- انظر: القرطبي، المفاهيم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 210 وبعدها

²- انظر: المصدر نفسه ، ص: 113

واللذة في هذا المقام روحانية نجدها في العادة عند ذكرنا الأنبياء والعلماء والفضلاء والكرماء، حتى وإن كنا لا نعرف صورهم، ومع ذلك فإن الميل والأنس والشوق إليهم موجود فينا.

إن مثل هذا التصوير البياني ينشئ في القلب والعقل الاستقامة، لأن الإنسان الذي رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولا يدرك حقيقة ربه وماله من صفات، وحقيقة رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لا شك أنه سيستقيم في التعامل بقلبه وعقله مع ربه، لأنه لا سبيل في ذلك إلا الرضا والإيمان والتصديق والاستقامة على منهجه.

الإحياءات بهذه المعاني نجدها في الصورة البيانية من خلال قوله: "ذاق طعم الإيمان" وذلك بغية تقريب المعاني الذهنية في صورة حسية تهفو إليها النفوس، وتميل إليها القلب تستلذ بحلاوتها وتميل إليها، والله تعالى ورسوله، أحق بهذا الميل والإسلام ديناً دون غيره من الأديان.

يقول الدكتور أحمد ياسوف: «ومما يتصل بالنص أن الإيمان عند العلماء على مراتب ثلاث: إيمان عقلي يعتمد على المقدمات والنتائج كما في كثير من الآيات الدالة على وجود الخالق، وأعلى منه إيمان ذوقي عبر عنه هذا النص، وحينئذ يقنع المؤمن ولا يقلق، والأعلى إيمان شهودي تصبح لديه الأرواح خفاقة إذ يعمل المؤمن وكأنه يرى الجنة والنار، وتلك مرتبه ذكرت لبعض الصحابة رضي الله عنهم»¹

وعلى هذا يمكن لنا القول: إن الحديث يكشف أهمية الإيمان في حياة المؤمن وكيف يكون كامناً في نفسه، بحيث إذا تحرك في أعماقه يجعل من الإنسان، إنساناً كاملاً يشعر بالانشرح للإيماني وطاعاته حتى كأنه ذاق شيئاً مطعوماً حلواً، وقد عبر النبي عن هذا الأثر العظيم للإيمان وهو أمر معنوي صرف تعجز العبارات عن وصفه، فعبر عن هذا الأثر بهذا الأسلوب البياني الجميل عن طريق الاستعارة المكنية.

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 557

المطلب الثاني: صورة الملائكة في الخطاب النبوي الشريف

الإيمان بالملائكة أحد أصول أركان الإيمان الستة، ورد ذكرها في الحديث: « أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث »¹

وفي صحيح مسلم: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره »²

والإيمان هو الاعتقاد الجازم بوجود الملائكة، فهم عالم غيبي لا يعلم حقيقته إلا الله سبحانه، وأهم خلق من خلق الله تعالى، يعبدونه سبحانه وتعالى ولا يفترون، وأن الله عز وجل كلفهم بأعمال يقومون بها في طاعة كاملة، خلقهم الله سبحانه من نور، كما خلق الجان من مارج من نار.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال الرسول الله صلى الله عليه وسلم: « خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم ممّا وصف لكم »³

وقد جاء ذكر الملائكة في آيات كثيرة في القرآن الكريم، والعديد من الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة، وتواترت أخبار الأنبياء بوجودهم مما يؤكد أن وجودهم ثابت بالدليل ، ولذلك فإن من أنكر وجودهم كان كافرا بنص القرآن الكريم: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾⁴

الملائكة في اللغة والإصلاح: ومعنى كلمة "الملائكة" لغة: الملائكة، جمع، مفردة ملك وفي اشتقاقه قولان القول الأول: أصله مألِك مشتق من "ألك" مهموز الأصل، والميم فيه زائدة

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق ، ج1، ص:27، رقم الحديث: 50

² - صحيح مسلم، مصدر سابق ، ج1، ص: 37، رقم الحديث: 8

³ - المصدر نفسه، ج4، ص:2294، رقم الحديث: 2996

⁴ - سورة النساء، الآية: 136

فيكون: "ملائكة" على وزن " مفاعلة " وهذا قول جمهور أهل العلم، فلفظ الملائكة أصله من "الألوك" وهو الرسالة.¹

وعلى هذا الاشتقاق سميت الملائكة بهذا الاسم للرسالة، لأنها رسل الله عز وجل بينه وبين أنبيائه، ورسله لتنفيذ أوامره في تدبير الكون.

القول الثاني: إنه مشتق من "ملك" غير مهموز الأصل، والهمزة فيه زائدة فيكون "ملائكة" على وزن فعائلة" فلفظ الملائكة على هذا الأصل: "الملك" هو الأخذ بالقوة من الفعل "ملك" الذي يدل على قوة في الشيء وشده²، ومنه قولهم: ملكت العجين، أي شددت عجنه، وسمت الملائكة به، لأنهم أولوا قوة وشدة، وقد وصفهم الله بذلك في كتابه العزيز قال تعالى: ﴿مَلَائِكَةُ غِلَاطٍ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾³ والمعنيان مجتمعان مؤتلفان في الملائكة، فهم رسل الله، يرسلهم الله إلى عباده، وما شاء من أمر يدبرونه، وقد سماهم الله رسلا .

المراد بالملائكة اصطلاحاً: لم نجد عند السلف وأهل السنة تعريفاً اصطلاحاً عليه للملائكة، بل أمرؤه على ما جرت عادتهم به في الألفاظ الشرعية، أن يطلقوا على ما أطلق عليه الشرع من غير تكلف، ولذلك نجد أقوالاً كثيرة في معنى الملائكة وهي جميعها تحمل معانٍ متقاربة منها: « إن الملائكة أجسام علوية لطيفة أعطيت قدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السماوات»⁴ وعلى هذا جمهور العلماء، و نقل ذلك الحافظ بن حجر رحمة الله ، وأما النفثا زاني فقد عرفها بقوله: « إن الملائكة أحسام لطيفة تظهر في صور مختلفة وتقوى على أفعال شاقة هم عباد مكرمون يواظبون على الطاعة والعبادة، ولا يوصفون

¹ - الفيروز آبادي، قاموس المحيط، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط8، عام: 2005، ص: 932

² - أنظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق ، ج1، ص: 184

³ - سورة التحريم، الآية: 6

⁴ - العسقلاني، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، ، مصدر سابق، ج1، ص: 21

بالذكورة والأنوثة ومسكنها السماوات هم رسل الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام وأمناءه علة وحيه يسبحون الليل والنهار، لا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»¹

وأما ابن قتيبة فقد قول: «إنها أرواح لطيفة تجرى مجرى الدم تصل إلى القلب وتدخل في الثرى وترى ولا ترى»²

والملاحظ أن ما يمكن أن يطلق عليه تعريفا هو ما جاء في كتب المتكلمين واشتهر عندهم فاصطلحوا على تعريف الملائمة بأنهم: «أجسام لطيفة نورانية لها القدرة على التشكل بأشكال مختلفة ومسكنها السماوات»³

وقد نقله عنهم العسقلاني في كتابه فتح الباري، وللعلماء آراء مختلفة حول هذا التعريف ليس هذا مقام إيرادها.

وأما خلق الملائكة فقد أظهرت السنة النبوية أن الله تعالى خلق الملائكة الكرام من نور، أما من حيث كثرة الملائكة وعددها فإن ذلك يعلمه الله وحده، وقد صورهم الله فأحسن صورهم بالشكل الجميل، المنظر الحسن، وقد تعود الناس على تصوير الملائكة تصورات تعددهم أصحاب أشكال جميلة حتى أنهم يشبهون من له نصيب من الجمال من البشر بالملك، فقلد شبهت النسوة-على سبيل المثال- يوسف بالملك لما رأين جماله.

و الذي أودّ الإشارة إليه في هذا المقام هي وظائف الملائكة، فقد جعل الله تعالى للملائكة وظائف ومهام محددة في مواضع مخصوصة في السماوات ومقامات العبادات، لا يتجاوزها ولا يتعداه أي ملك من الملائكة كل ذلك يجري بقدر من الله تعالى.

¹ - سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق، عبد الرحمن عمير، عالم الكتب، بيروت، ط2، عام: 1998م، ص: 62.

² - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 278

³ - العسقلاني، فتح الباري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص: 2294، رقم الحديث: 2996

صورة الملائكة في الخطاب النبوي الشريف:

وعلى هذا فإن التصوير البياني في الأحاديث النبوية الشريفة لا تخرج عن إطار الوظيفة والمهام، فهي صورة للقيام بالأعمال التي أمر الله بها في شكل نموذجي غاية في الدقة والصرامة في التنفيذ ، ومن هذه الصورة ما جاء عن جابر بن سمرة، قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: « ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذنان خيل شمس، اسكنوا في الصلاة" قال: ثم خرج علينا فرآنا حلقا فقال: « مالي أراكم عزين، قال ثم خرج علينا، فقال: ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها، فقالنا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصفوف الأول ، ويتراصون في الصف »¹

الحديث يبين فيه عليه الصلاة والسلام فضل تسوية الصفوف في الصلاة وكيفيةها، وذلك كما تصف الملائكة عند ربها جل وعلا، وبحكم أن الخبر من الأمور الغيبية التي لا يمكن للعبد أن يدركه بالحواس، وهذا ما جعل الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يتوجهون إليه بالسؤال بغية الوقوف على الخبر، كيف تصف الملائكة عند ربها؟، فكان جوابه عليه الصلاة والسلام « يتمون الصفوف الأول، ثم الذي يليه، ويتراصون في صف » وعلى هذا النحو سار المسلمون في صلاتهم إلى هذا اليوم.

والحديث صورة فنية آية في البلاغة والجمال، وغاية في التوجيه والتقويم بغية الارتقاء بمستوى الموقف البشري لموقف الملائكة حين التعبد، وفي ذلك تحقيق مراتب الانتظام، لأن الملائكة مطيعون على طاعة الله، ليس لديهم القدرة على العصيان فتركهم للمعصية وفعلهم للطاعة جبلة لا يكلفهم أدنى جهد في ذلك. والرسول الله صلى الله عليه وسلم يريد من المسلمين هذه الصفة، لأنها طريق إلى الخشوع، والاستشعار لحظة وقوف العبد بين يدي ربه، لذلك نجده عليه الصلاة والسلام يحثهم على بلوغ هذه المنزلة، منزلة اليقين بين يدي الله رب العالمين.

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 322، رقم الحديث: 430

والحديث فيه تقويم دقيق نقف عليه في بداية النص « مالي أراكم عزين؟ » وهذا

تضمنين، حيث ضمن معنى قوله تعالى عن فعل الكفار مع الرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿

عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴾¹ وهي إشارة إلى أن هذا التفرق من صفات الكافرين، والتي

يجب أن يتجنبها المؤمنون وهذا يؤكد أسلوب الإنكار الوارد في التركيب "مالي أراكم عزين"

استفهام غرضه الإنكار، إلى جانب لفظ "عزين" التي تصور المخاطبين في مجموعات صغيرة "

ثم خرج علينا فرآنا حلقا " متناثرة في جنبات المكان، ولذلك جاء أسلوب الإنكار.

وأما الصورة الأولى فقد جاءت في قوله: "مالي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذن خيل

شمس؟ اسكنوا في الصلاة" والصورة فيها تأنيب وتأديب لأصحابه في موضوع السلام عند

الخروج من الصلاة، حيث كانوا يشيرون بأيديهم إلى من عن أيمنهم وإلى من في شمالهم،

ولذلك نهاهم الرسول عن هذا الفعل وأمرهم بالاعتصار على السلام على منهم في اليمين

والشمال من إخوانهم.

والصورة فيها من الدقة وحسن التصوير وجماله فالمشبه به وهو الخيل ،لأن الخيل

الشمس عادت لا تتوقف عن تحريك أذناها، ولا تكاد تستقر وفي ذلك تشبيه أيدي المصلين

عند نهاية الصلاة بأذن الخيل الشمس، تتفير وتحقير لهذه العادة².

وأما الصورة الثانية في الحديث فقد جاءت أيضا في قوله عليه الصلاة والسلام: «ألا

تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ » صورة من التشبيه التمثيلي حيث شبه الحالة التي

يجب أن يكون عليها المصلون في إقامة وتسوية الصفوف بحال الملائكة حين يصفون عند

ربهم تعالى ووجه الشبه هو تمام الاستقامة والاستشعار جلال الموقف، والمسلم بين يدي ربه في

صلاته.

¹ - سورة المعراج، الآية: 37

² - انظر: محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، مرجع سابق، ص: 321

ولعل الربط بين حال المصلين وحال الملائكة بالصورة التشبيهية إشارة إلى ما يجب أن يكون عليه المصلي، من الانقطاع عن جميع الشواغل الدنيوية والتعلق، بالذكر والتسبيح والدعاء كما هو حال الملائكة في عبادتها، حيث يعد التسبيح أفضل وسائل ذكر الله تعالى لذا فإن الملائكة تسبح وتذكر الله في عبادتهم لربهم، يمجّدونه ويعظمونه ويقدّسونه وينزّهونه عن النقائص، والجور، وهذا ما يجب أن يقوم به المصلون حق القيام بين يدي الرحمن بالاستقامة في الصفوف وسكون الجوارح، وباطنا بالانقطاع عن شواغل الدنيا وتفرغ القلب إلى ذكر الله والخشوع بين يديه.

ولعل عنصر التشويق وإثارة الانتباه من أبرز الأساليب في هذا الحديث، فالإجمال الذي ورد في قوله صلى الله عليه وسلم: "كما تصف الملائكة عند ربها" أثار انتباه الصحابة، لأن الأمر من الأمور الغيبية "كيف تصف الملائكة عند ربها؟" فجاء بعد الإجمال توضيح وبيان لما أبهم عليهم فقال عليه الصلاة والسلام: "يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف"¹

ونعتقد أن أسلوب التشويق في النص بلغ الذروة درجة بعد درجة بالمخاطبين بداية بأسلوب التحضيض في قوله "ألا تصفون" ومرورا بالصورة التمثيلية، وما تحمله من جدة، وانتهاء بالإيضاح بعد الإجمال.

وأما جملة "يتمون الصفوف الأول ويتراصون في الصف"، فهو تحديد للصواب الذي يجب أن يكون عليه المصلون، من انتظام في الصفوف وإتمام لها واستحضار لعظمة الموقف بين يدي ذي الجلال والإكرام²

¹ - انظر: أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص: 298-299

² - المرجع نفسه، ص: 299

والملاحظ في هذا التصوير هو صورة الملائكة التي تمثل النموذج المثالي في العبادة والاستقامة، لذلك حثّ الرسول على الاتصاف بها والعمل على طريقها حتى يؤدي العبد حق العبادة على أتم وجه.

هذا الوصف للملائكة، إنما هو وصف يحدد طبيعة عملهم الدال على الخير، والدالة على ما أمر الله به فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه وسلم: «إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض، إذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض»¹

والملاحظ لا القبول أو الرضاء، والبغضاء مما يوضع في الأرض، وإنما يوضعان فيما يسكن الأرض من البشر، وبذلك يكون عليه الصلاة والسلام قد دل بالمحل على الحال، وفي هذا التعبير ما يدل على المبالغة في القبول والبغض، لأن الصورة النبوية لم تجعل من البغض والقبول قصرا على الناس فقط، وإنما جعلته يمتد ليشمل الأرض بكل ما فيها من جماد وحيوان ونبات وحي وغير حي، فهؤلاء جميعا يقبلون على من أحب الله، ويدبرون عن كره الله، حتى أن هذه الكائنات في هذا الوجود بشرا من البشر تتفعل بأحسيس الحب والبغض، وبذلك تكون هذه الصورة من المجاز المرسل حيث دل بالمحل على الحال.

ومن الأحاديث التي نجد فيها الملائكة تشعر بالرضاء واطمأنينة على العبد ما جاء في حديث عن حنظلة، قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت فضا حكت الصبيان، ولا عبت المرأة، قال فخرجت فلقبت أبا بكر فذكرت ذلك له، قال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2030، رقم الحديث: 2637

فقلت: يا رسول الله نافق حنظلة، فقال: "مه" فحدثته بالحديث، فقال: أبو بكر، وأنا قد فعلت مثل ما فعل، فقال: يا حنظلة ساعة وساعة، ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر، لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق»¹

إذا كان هذا الحديث يبين فضل الدوام واستمرار المرء على الذكر والتفكير في أمور الدين وما يتعلق بالآخرة حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم يجدون الراحة والطمأنينة عندما يكونون في حلقات الذكر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن هذه الراحة النفسية قد تقل إذا خلط المرء الأمور الدنيوية ومتاعها من الأهل والأولاد والأموال فيشكو حنظلة هذه الحالة لأبي بكر رضي الله عنه، فيجد نفس الحالة عنده فيذبان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره حنظلة بقوله: نافق حنظلة فيأتي الاستفسار " مه " قال القاضي عياضي: « أي معناه الاستفهام، أي ما قوله؟، والهاء هنا هي هاء السكت، قال: ويحتمل أنها للكف والزجر والتعظيم لذلك »²

ثم يذكر عليه الصلاة والسلام لهما حقيقة الأمر، وأن هذا خارج عن إرادتهما « ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق ».

والملاحظ هنا المشبه هو حالة القلوب بعد الذكر، وأن المشبه به حالة القلوب عند الذكر، ووجه الشبه هو الراحة والطمأنينة وحب الموت واستشعار عظمة الله وقدرته، والصورة من التشبيه المرسل، لأن الأداة مذكورة، وكذلك فهو مجمل، لأن وجه الشبه محذوف والغاية من الصورة التشبيهية بيان حال المشبه، والصورة تدل على الحث والإكثار من الذكر ومجالسة الصالحين.

¹ - صحيح مسلم، المصدر نفسه، ج4، ص: 2106، رقم الحديث: 2750

² - انظر: هامش، صحيح مسلم، المرجع نفسه، ج4، ص: 2030، 2031

وقد اتضح ذلك من خلال " لصافحتكم الملائكة في الطرق " وتسلم عليكم وإذا كانت الملائكة ليست جزءا من أركان الصورة التشبيهية، إلا أنها لها الأثر الأكبر في إظهار الراحة والطمأنينة ، والحث على كثرة المذاكرة الدائمة فيما يتعلق بأمور الدين.

وبحكم أن الملائكة تؤدي وظيفتها بسرعة ودقة وتحكم، وأن هذه الوظيفة تنفيذ أوامر الله عز وجل فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إذا قضى الله الأمر، في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كالسلسلة على صفوان - قال علي: وقال غيره: صفوان - ينفذهم ذلك - فإذا فُزع عن قلوبهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟، قالوا: للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر... »¹

والحديث يتناول صورة من صور الاستجابة إلى أمر من أمور الله سبحانه وتعالى، فإذا حكم بأمر من الأمور ضربت الملائكة بأجنحتها خفقاناً.

ففي قوله عليه الصلاة والسلام: "ضربت الملائكة بأجنحتها" هذا الضرب ليس ضرب من المجاز، وإنما هو ضرب من الحقيقة.

ولهذا فإنه في كثير من الأحاديث يصعب الحكم على التركيب بأنه مجاز، لأن الملائكة موصوفة بقدرة التشكل بكل الأشكال والنفاز في ما لا يستطيع العقل الوصول إليه « إنها أواح لطيفة تجري مجرى الدم تصل إلى القلب وتدخل في الثرى وترى ولا ترى»² ولهذا لا يمكن حمل مثل هذه التراكيب على المجاز، لأنها حقيقة. وأما الصورة البيانية في هذا الحديث فقد جاءت في قوله: "كالسلسلة على صفوان" أي لها صوت كصوت السلسلة على الحجر الأملس، وهذا الصوت يؤدي إلى ذهاب الذهن من شدة هذا الصوت الذي يصدر من الأجنحة، وفي ذلك يقول الدكتور أحمد يا سوف « وهذا

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج4، ص:1736، رقم الحديث: 4424

² - ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، مصدر سابق، ص: 278

الحديث المحذر من فساد العقيدة يشتمل على صورة صوتية استعانة بالصخرة الملساء مع السلسلة لتقريب الصوت الذي تصدره الأجنحة والملحوظ هنا أن هذا التقريب قرن بين الصوت والصخرة التي نعرفها معبرة عن قسوة فحسب ،ففي هذه الصورة فرادة وغرابة مما يناسب الجانب الغيبي لما يصدر من الملائكة وهو لا يحط به الذهن»¹

وفي حديث آخر عن عائشة رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول»²

قالت عائشة رضي الله عنها: « لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقا »³ وأما الصلصلة، قيل أنها صوت الملك بالوحي، وقيل صوت حفيف الملك ،

والصورة البيانية في قوله: "مثل صلصلة الجرس" وفي ذلك تشبيه هذا الصوت ،صوت الملك، أو صوت حفيف أجنحة الملك بالجرس، لأن في ذلك قرع « لسمعه فلا يبقى فيه متسع لغيره، وفي ذلك من الشدة ما يترتب على المشقة، أما في قوله: "يفصم

عني" المراد قطع الشدة، أي: يقلع وينجلي ما يغشاني من الكرب والشدة، وقد يكون المراد القطع من غير بينونة فكأنه قال أن الملك يفارقني ليعود إلي »⁴ فكان عليه الصلاة والسلام يعي ويفهم ما يقوله، لأنه في حالة فصم بحيث لم يبق في سمعه مكان لغير صوت الملك، ولا في قلبه، ولفظ "يفصم" فيه دلالة على الانقطاع عن كل شيء إلا ما يلقي عليه من الوحي يقول ابن حجر: « لا يلزم التشبيه تساوي المشبه

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق،ص: 353

² - صحيح البخاري، مصدر سابق ، ج1، ص:4، رقم الحديث: 2

³ - القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق،ج1، ص: 58

⁴ - المصدر نفسه، ج1، ص: 58.

بالمشبه به في الصفات كلها، بل ولا في أخص وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس فذكر ما ألف السامعين سماعه تقريبا لإفهامهم بالطمأنينة»¹

وإذا كانت غاية الصورة التشبيهية أظهر قوة هذا الصوت، مما يدل أنه عليه الصلاة والسلام كان علي أشد ما يكون، وما يدل على هذه الشدة ما نجده في الحديثين من ارتباط الصوت بالحديد، ففي الحديث الأول "كالسلسلة" وفي الثاني "كالجرس" وهذا يظهر معاناة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا ما أشرت إليه عائشة أم المؤمنين « لقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه لينفصد عرقا »²

وعلى هذا يمكن القول إن الإيمان بالملائكة يعني الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى وبوحدانيته في الألوهية والربوبية، وأن الإيمان يتضمن بوجد الملائكة وبأنهم خلق من خلق الله، يعبدونه سبحانه وتعالى، ولا يفترون عن عبادته ليلا ونهارا، ولا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وأن لهم أعمالا كلفهم الله بها وهم يؤدونها في طاعة كاملة لله ومن بينها التنزل بالوحي على رسول الله وأنبيائه، وكتابة أعمال البشر، إلى جانب إنزال الطمأنينة على قلوب المؤمنين والراحة، هذه الوظائف المختلفة هي التي حاولت الصورة البيانية إظهارها وكيفية أدائها في دقة وسرعة ونظام

¹ - ابن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج23، ص: 113

² - القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 60.

المطلب الثالث: أثر الصورة البيانية في بيان الإيمان بالرسالة المحمدية

الإيمان بالرسول عليهم السلام ركن من أركان الإيمان، لا يتحقق إيمان العبد إلا بالإيمان بهم، والاعتقاد الجازم بأن الله رسلا اصطفاهم لتبليغ رسالاته، فمن اتبعهم فقد اهتدى، ومن عصاهم فقد غوى، وأنهم قد بلغوا ما أنزل الله إليهم من ربهم البلاغ المبين، وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة وجاهدوا في الله حق جهاده، وأقاموا الحجة ولم يبدلوا، أو يغيروا، أو يكتموا شيئا مما أرسلوا به، والإيمان يكون بمن سمى الله لنا، ومن لم يسم، وكل رسول يبشر بمن يأتي بعده والمتأخر منهم يصدق من قبله.

والإيمان برسول الله متلازم، من كفر بواحد منهم فقد كفر بالله تعالى وبجميع الرسل عليهم السلام ، وذلك مصدقا لقوله تعالى: ﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝﴾¹ والإيمان بالرسول هو التصديق الجازم بأن الله بعث في كل أمة رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، والكفر بما يعبد من دونه وأن جميعهم صادقون، بارون، راشدون، كرام بررة، أتقيا، أمنا هداة، مهتدون وبالبراهين الطاهرة والآيات الباهرة من ربهم مؤيدون ، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلهم الله به ولم يكتموا حرفا، ولم يغيروا ولم يزيدوا فيه من عند أنفسهم حرفا ولم ينقصوه.

ثم أن الإيمان يكون بكل الرسل والأنبياء ،لأنهم يشكلون وحدة متلاحمة وجوها واحد، ثابتا في توحيد الله وإفراده بالعبادة، وتخصيصه بالربوبية، والألوهية ، لذلك فإن خطاب الله تعالى لرسله، وخطاب الرسل لأقوامهم وأممهم، خطاب واحد، قوامه الدعوة إلى التوحيد، نؤمن بهم جميعا لا نفرق بينه، والإيمان بالرسول والذين أوحى الله إليهم بالشرائع وأمرهم بتبليغها، وأولهم نوح عليه السلام، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم .

¹ - سورة البقرة، الآية : 285

والغاية من الرسول هي الدعوة إلى ترشيد وتوجيه الإنسان، واستخلافه في الأرض، بما يوصل الإنسانية إلى إقامة عالم إنساني متوازن، في عقيدته وفكره وسلوكه، متناغما مع حركة الكون والحياة.

وبعد هذا لا بد من الوقوف عند الأنبياء والرسل من حيث الدلالة اللغوية.

النبي في اللغة: مشتق من النبا وهو الخبر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾¹ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ² وإنما أطلق اسم النبي نبيا ، لأنه مخبر ، أي أن الله أخبره وأوحى إليه، ﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾³ وكذلك أيضا: "النبي من النبوة والنباوة، هي الارتفاع عن الأرض لارتفاع قدره ، ولأنه شرف على سائر الخلق"⁴ وقال الكسائي: النبي الطريق، والأنبيا، طرق الهدى قال أبو معاذ النحوي: سمعت أعربيا يقول: من يدلني على النبي، أي على الطريق.⁴

وهذه المعاني اللغوية جمعها تدل على أن النبي ذو رفعة وقدر عظيم، والأنبياء هم أشرف الخلق، هم الأعلام التي تهتدي بها الناس فيما يصلح دنيا هم، وآخرهم.

وأما الرسل، أو الإرسال في اللغة: التوجيه، فإذا بعثت شخصا في مهمة فهو رسولك، قال تعالى: حاكيا قول ملكة سبأ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾⁵ وقد يأتي بمعنى متابع ، من قولهم: جاءت الإبل رسلا، أي متتابعة.

والفرق بين الرسول والنبي، ما ورد في عدد الأنبياء والرسل، فقد ذكر رسول الله أن عدة الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، وأما عدة الرسل فقد أشار أنهم ثلاثمائة وبضعة عشر رسول، وذكر الله تعالى في القرآن الكريم في حديثه عن بعض الرسل حيث وصفهم

¹ - سورة النبا، الآية: 1-2

² - سورة التحريم، الآية: 3

³ - ابن منظور، لسن العرب، مصدر سابق، ج14، ص: 30

⁴ ،المصدر نفسه، ج14، ص: 30

⁵ - سورة النمل، الآية: 35

بالنبوة والرسالة مما يدل على أن الرسالة أمر رائد على النبوة، والشائع عند العلماء «أن الرسول أعم من النبي، فالرسول هو من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحى إليه ولم يؤمر بالبلاغ و لذلك فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا»¹ إلا أن البعض يقف متحفظا من هذا الرأي، وحسب قولهم أنه سبحانه وتعالى أرسل الأنبياء كما أرسل الرسل، وإذا كان الفرق هو الأمر بالبلاغ، فالإرسال يقتض من النبي البلاغ، ثم أن ترك البلاغ كتمان لوعي الله تعالى، والله لا ينزل وحيه ليكنم ويدفن في صدر واحد من الناس، ثم أنه جاء في حديث النبي الشريف قوله عليه الصلاة والسلام: «..عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرُّهَيْطُ، والنبي ومعه الرّجل والرّجلان، والنبي ليس معه أحد...»² وفي الحديث ما يظهر أن النبي مأمور بالبلاغ وأنهم يتفاوتون في مدى الاستجابة لهم، ثم أن أنبياء بني إسرائيل جمعهم مبعوثون بشريعة موسى وهم مأمورون بالبلاغ³.

ومهما كان الأمر وأصل الخلاف بين علماء أصول الدين، فإن الثابت عندهم جميعاً، أن الإيمان بالأنبياء والرسل من أصل الإيمان .

ولذلك نتناول الصورة البيانية في الأحاديث النبوية من خلال الرؤية النبوية إلى الرسل والأنبياء، ومقام الرسالة المحمدية باعتبارها آخر الرسائل السماوية، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بني بيتا، فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين »⁴

¹ - محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، مؤسسة الخافقين، دمشق، ط2، عام: 1982م، ص: 49

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 199، رقم الحديث: 220

³ - عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، دار النفائس، بيروت، ط2، عام: 1983، ص: 13 وما بعدها

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1300، رقم الحديث: 3342

هذا الحديث النبوي الشريف يبين لنا موقع الرسالة المحمدية بين الرسل ،أو موقع النبوة المحمدية بين النبوءات، إلى جانب صلة الرسالة وما جاء به الرسل السابقون عليهم الصلاة والسلام، هذه الصلة التي تقوم على الدعوة إلى الله الواحد الأحد، إلى جانب أنها تكمل الدعوات السماوية السابقة لها وتصححها، لأنه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين فقد اكتمل به بناء صرح الأنبياء والشرائع "لتكن الشريعة الإلهية الخاتمة على أكمل وضع « إن الصفة النبوية العجيبة التي حلاه الله بها - صفته تلك التي بلغت في الكمال أن تكون مضربا للمثل - منزلتها من صفة النبوة العظيمة التي اتصف بها أنبياء الله السابقون، هي منزله إنسان بنى بنيانا، فأحسن العمل فيه وفي إحكامه، ثم زينه بأجمل الزينة والحُلِيِّ من جميع الجهات والجوانب ،إلا موضعا واحدا مهماً، هو موضع لبنة في زاوية ،لا شك أن مثل هذا الوضع عجيب، فكل من رأى البنيان سرّه وأعجبه، ثم ازداد عجباً حتى يبلغ العجب أقصاه، إذ ينتهي به المطاف إلى موضع اللبنة فيجد خالياً من لبنته، التي يُكْمَلُ بها البنيان، كذلك مَنْ عَلِمَ ما اشتملت عليه النبوات السابقة، ثم تأمل المرحلة التي وصل إليها البشر في عصر بعثته صلى الله عليه وسلم علم حاجة الناس، وضرورة العالم إلى رسالة تُنَمِّمُ ما وضعته الرسالات السابقة»¹

ولهذا الحديث روايات عدة ذكر منها مسلم وكذلك البخاري، غير أن هذه الروايات متقاربة في هدفها، وهو إظهار حاجة الإنسانية في تلك المرحلة، إلى من يكمل ويصلح العقيدة، فكان ذلك النقص هو الرسالة المحمدية ،التي أكملت الرسالات، وبه أتم الصرح العظيم وكان عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين، فالإسلام هو دين الله للناس جميعاً وهو الدين الذي أنزله على كل الأنبياء والمرسلين، فكان الله عز وجل يبعث رسله اللاحقين بأسس ما بعث به « رسله السابقين نفسها مضافاً إليها ما اقتضته حكمته تكميل بناء الدين مع ملاحظة أن التغييرات في بعض الشرائع التعبدية أمور جانبية لا تؤثر مطلقاً في وحدة الدين

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 31

وتكامله، لأنها كما ظهر لنا قد تحدث في الرسالة الواحدة إذ الغاية الأصلية منها امتحان الطاعة فقط دون ربط التكليف بمصلحة المكلف منه»¹

والحديث في صورته التمثيلية، غاية في الدقة والجمال الفني، فقد شبه عليه الصلاة والسلام الأنبياء، وما بعثوا به من إرشاد الناس إلى مكارم الأخلاق وحميد الصفات، شبه ذلك بدار أسست قواعدها ورفع بنيانها وبقي موضع لبنة، فالرسول عليه الصلاة والسلام بعث ليتم مكارم الأخلاق، وكأنه هو تلك اللبنة التي بها إكمال الصرح العظيم، أو ذلك النقص الذي كان في البنيان بحاجة إتمام فكان بعثه محمد صلى الله عليه وسلم مصدقا لكل الأنبياء، لأنه ليس بعده نبوة، والصورة مركبة، لأنها قائمة على صور متعددة الأجزاء والعناصر بصور أخرى متعددة الأجزاء أيضا، فهو يشبه الأمر المعنوية بأمر حسية.

والصورة الجزئية الثانية في هذا الحديث تكمن في قوله: "مثلي ومثل الأنبياء من قبلي" والمراد مثل رسالتي، ومثل رسالة الأنبياء من قبلي، وهذا مجاز مرسل، إما من قبيل حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، وإما هو من قبيل تنزيل الرسول منزلة رسالته، لأنه يمثلها تمثيلا كاملا في أقواله وأعماله وأخلاقه، وتقديراته وسائر تصرفاته.²

وإذا نظرنا إلى الحديث من حيث البناء اللغوي، فإننا نجد يقوم على التوازن في جملة ففي قوله: "إن مثلي ومثل الأنبياء" جملة اسمية يقوم النص جميعه حولها، وأما قوله: "أحسنه وأجمله" فيه أيضا توازن فهما على وزن واحد، وتقديم أحسنه، لأنه في الغالب يقوم على الإتيان الذي يظهر عادة في البنيان من جمل وقوة.

وأما الجمل الفعلية في النص فإنها تدفع بالنمو والارتفاع في الطلب إلى درجة التحضيض حيث قوله "هلا" أداة من أدوات الطلب بشدة إلى ضرورة هذه اللبنة في هذه الزاوية، أو إلى ضرورة هذه الرسالة التي هي رسالة الإسلام.

¹ - عبد الرحمن حنيفة الميداني، روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، مرجع سابق، ص: 274.

² - انظر: المرجع نفسه ص: 280

ثم أن توظيف هذه اللفظة "اللينة"، كان توظيفاً موفقاً يعطي أسس متينة وعلو شاطئ تتراص لبناته ليكون هذا الدين، أو هذه الرسالة المحمدية تحمل كل الخير للبشرية

والجانب الآخر في هذا النص هو الجانب القصص، حيث يأخذ التصوير منحى قصصي في قوله: "بني بيتاً فأحسنه، لأن طبيعة اللفظ "فأحسنه" في هذا المقام دال على المفاجأة مما يزيد في إثارة التشويق

ومهما يكن، فإن الرسالة المحمدية "اللينة" مصدقة للدعوات السماوية السابقة، لأن طبيعة اللينة أن تكون قوية بكل عناصر الجدر والبيت، وأن تكون منتظمة ومتناغمة وموافقة للبنات الأخرى، فالأنبياء السابقون أتوا بالدعوة الإلهية مشتملة على العقيدة وعلى الشريعة.

ومن الأحاديث التي تناولت الرسالة المحمدية ما جاء عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكان منها نقية، قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجاديب، أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تتبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »¹

والحديث كما هو واضح مبني على المثل حيث بدأ بكلمة مثل "مثل ما بعثني الله به" وانتهى بها "ومثل من لم يرفع بذلك رأساً" والأمثال تختلف من حيث المعنى عن غيرها من الأساليب من جهة الوضوح وتحديد وضبطه، لأن طبيعة اللغة الخالية من التمثيل تقدم الخبر مباشر مثل قوله عليه الصلاة والسلام "الحلال بين والحرام بين" حيث لا نجد أي لبس للمعنى ولا ظلال تتراءى من هذا التركيب، لأنه لا يقوم على ظلال بيانية، لأن

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ح1ن ص: 42، رقم الحديث: 79

طبيعة الأمثال فيها خروج عن الدلالة المباشرة مما يجعله يحمل دلالات وأوجه مختلفة وباب مفتوح لتحليل والاجتهاد والآراء، وهذا لا يعني أنه ليس له ضوابط تحيط بالمعنى، غير أن هذه الضوابط لا تصل إليها إلا بعد تجاوز الستائر التي تقف دونه، خاصة الطرائق والأساليب الفنية»¹.

ولنبداً في الوقوف عند بعض الدلالات اللفظية والتراكيب اللغوية، فقله عليه الصلاة والسلام: " مَثَلُ ما بعثني الله به" أي: صفة ما بعثني به الله، وأما قوله: "من الهدى والعلم" والمراد أن تهدي الآخر إلى الطريق الذي يصل به إلى المقصود، فهو الدلالة والعلم هو المقصود، أي المدلول عليه ولذلك أشار العيني في عطف العلم على الهدى « أنه من عطف المدلول على الدليل»² وهذا واضح ويعني أن صريح المراد من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم العلم والطريق الموصل إليه، يعني المنهاج الذي نسلكه حتى نصل إلى المعرفة.

وأما الأجادب: فهي جمع جذب، وهي الأرض الصلبة التي تمسك الماء فلا ينضب منها حيث ينفع الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وربما يراد منه أيضاً حفظ العلم وضبطه ونقله إلى من هو أقدر على الاستنباط والفهم، وأما قوله: " فُقَّةٌ" بضم القاف، أي صار فقيها وعالماً والمراد منه صار الفقه والعلم له سجية وخلقا، وفقه: بكسر القاف بمعنى فهم وعلم، والمراد: فهم المادة العلمية الشرعية ومنهج الوصول إليها فهما دقيقا عميقا، وهذا ما يجب أن يكون عليه المسلم، وذلك هو ما ضرب له المثل بالغيث الذي يصيب الأرض.

ولعل هذا الحديث جاء ليوضح حال الناس وأقسامهم بالنسبة إلى الدعوة المحمدية، وما بعث الله به رسوله من الهدى إلى الصراط المستقيم» والعلم بأصول الدين وأحكامه الشريعة التي

¹ - انظر: محمد محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مرجع سابق، ص: 169-170

² - العيني، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج2، ص: 79

اصطفاها الله، وختم بها رسالاته للناس»¹، وذلك في صورة بالغة الروعة أبرزت أصنافا ثلاثة من الناس، وأصنافا ثلاثة من الأرض.

والذي نلاحظه في البيان النبوي أنه اتبع طريقة الف والنشر المرتب إذ قسم الأصناف تقسيما حسنا، ثم أتبع كل قسم ما يخصه، فذكر اختلاف الأراضي في تقبل الماء، ثم أتبعها باختلاف الناس في قبول الهادية، حيث شبهت أثر الهدي والعلم على الناس، وما ينتج عنه من تفاوت واختلاف في الإفادة منه، فكان من أفاد منه عملا، وأفاد غيره به توجيهها وإرشاد فعلم وعمل، فهو عالم ويعمل بما علم، ومنهم من أفاد منه، ولم يتفقه فيه، بل بلغه للناس كما حصله، فهو عالم قليل العمل، ومنهم من أعرض ونأى، فلم يفد منه، فهو لا يعلم، ولا يعمل، وذلك هو موضع الذم القادح من هؤلاء الثلاثة.

وهذه الصورة الذهنية العقلية تمثل أحوال الناس واختلافهم فيها يفيدون من علوم الدين تشبه « الصورة الحسية الملموسة التي نراها ماثلة أمام الأعين، وتمس أوتار القلوب مسًا حيًا وهي حالة الأرض عندما ينهمر عليها المطر وتتفاوت في تقبله، والانتفاع به، فيكون منها ما يقبل الماء ويرتوي به، فتخصب تربتها وتنبت، ومنها ما يمسك وحفظ الماء، ولا ينبت، ومنها ما يضيع الماء، ويبدده، فلا ينبت ولا يمسك»²

ومن هذا التقابل بين أحوال الناس ومظاهر الطبيعة تكشف صور التشبيهية عن مدى تعامل الناس مع رسالة المحمدية، كما يتعامل الغيث مع الأرض، فهي صورة ذهنية حاصلة من بعث الرسول صلى الله عليه وسلم بوحى الله وانقسام الناس حول ما جاء به، ما بين مؤمن به، عامل بكل ما فيه حسب طاقته، ومؤمن مقصر عالم قليل العمل وكافر معرض عن الحق لا يعلم ولا يعمل.

¹ - انظر: عزة محمد جدوع، البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 336

² - المرجع السابق نفسه، ص: 338

وعلى هذه الأصناف الثلاثة ينقسم العباد، حول ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فجاءت الصورة الحسية التي توضح هذه الصور الذهنية عن طريق التجسيم، هذا التجسيم جاء في شكل « لوحة ذات ثلاثة مشاهد: مشهد الأرض التي انتفعت بالغيث، وهي تمثل المؤمن المذعن للأوامر الإلهية، فثمة تطهير داخلي ذاتي واتساع في تطهير الآخرين هو انتقال من التثقف إلى التثقيف.

ومشهد الأرض الجذباء التي نفعت غيرها بالماء بعد اختزانه وهي تمثل من يوصل المعارف الدينية من غير إيمان منه، فهو مجرد وسيلة ناقلة، ومشهد القيعان التي لا تستفيد ولا تفيد غيرها، وهي تمثل الجمود البشري إزاء النفحات الربانية ¹ « وقد سلك عليه الصلاة والسلام في عرض هذه المشاهد الأسلوب القصص ففي قوله عليه الصلاة والسلام " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث أصاب أرضاً... " نلاحظ فيه إجمال، ثم يتبعه عرض وتفصيل، وغاية الإجمال إثارة الانتباه وإدراك التفصيل وهذا ما يؤكد حقيقة ترابط النص، « أن الحديث الشريف صار كله جملة واحدة، لأن جملة بني بعضها على بعض لو اقتطعت منه كلمة لسقطت الفائدة التي يحسن السكوت عليها كآية سورة يونس التي ذكر عبد القاهر، أنها عشر جمل تضامنت وتداخلت وصارت جملة واحدة، وهو النمط العالي والباب العظم، وأن العلاقات بين الجمل سواء منها علاقات التداخل، كجمل الصفات والأحوال، والعطف الذي تأخذ فيه الجملة حكم المفرد ² « ويتضح هذا الترابط بين الهدى والماء، لأنهما ضروريان لحياة الإنسان والملاحظ أنه عليه الصلاة والسلام قدم الهدى وهو الأهم، على المهم وهو العلم، وفي ذلك دلالة على الإسلام يصل بالإنسان إلى أعلى مراقي الصلاح والفلاح. وأما القسم الثاني من هذا المشهد القصصي فقد بدأ قوله عليه الصلاة والسلام " فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير وكانت منها أجاديب أمسكت الماء فنفع الله به

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 419

² - محمد محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مرجع سابق، ص: 173

الناس فشربوا وسقوا وزرعوا وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً... " والواضح من هذا المقطع القصصي أنه امتداد للقسم الأول في تكرار "الماء" لكنه جاء هنا لنتيجة من حيث تقبل الأرض وجمعه لنفع الناس والحيوان في تدرج على سبيل التصعيد من الأعلى إلى الأسفل في التقبل وعدمه.¹

ومن خلال ذلك نجد صورة أرض قبلت الماء فانبتت الكلاً والعشب الكثير، هذه الأرض التي تشخصت في صورة إنسان فهي تقبل وترفض، وذلك بعد تناسي التشبيه وادعاء أن المشبه من جنس المشبه به، وحذف المشبه به وذكر بعض خواصه على سبيل الاستعارة المكنية، لأن القبول والرفض من خصائص الإنسان، وقد أثبتت هذه الخصائص الإنسانية للأرض وفي ذلك مبالغة في نقائها وسرعة الاستجابة في امتصاصها للماء، وحقيقة التشخيص في هذا المشهد يمتد إلى عملية الإنبات حيث تم اسند الإنبات إلى ضمير الأرض، غير أن حقيقة ذلك أن المنبت الحقيقي هو الله تعالى، وهذه مبالغة أيضاً في نقاء الأرض وجودتها حتى كأنها هي التي تنبت.² وهكذا سلك الحديث في أسلوبه القصصي حيث نجد القسم الثالث من هذه المشاهد يبدأ من قوله عليه الصلاة والسلام "فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به" وهذا المقطع يبدأ بما يجب أن يكون عليه المسلم وذلك من خلال الاسترجاع واستحضار ما في المشاهد السابقة فوظف اسم الإشارة "ذلك" وفيه من الاستحضار وفي ذلك استهدف تحقيق درجة عالية³، وأما قوله عليه الصلاة والسلام: "ومثل من لم يرفع بذلك رأساً" ولم يقبل هدي الله الذي أرسلت به، والحديث في هذا المقام يتناول طائفة لا ينهاهم عن غيهم واعظ ولا تُجدي

¹ - محمد محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مرجع سابق، ص: 173

² - انظر: أسماء الخطاب، وعلي يونس، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد 27، 8، 2013،

ص: 1722

³ - انظر: عزة محمد جدوع، البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مرجع سابق، ص: 343

فيهم الزواجر والمواعظ، رأوا الغواية فسلكوها طريقا لهم والشيطان كان لهم خليلا، هؤلاء لا حجة لهم ولا برهان إلا التقليد الأعمى، ومهما أُلقيت إليهم من العلم والهدى والآيات، بغية إقناعهم، غار الكلام عندهم في الآذان كما يغور الماء في الأرض لشدة عنادهم، فهم ليسوا مستعدين للسمع، ولا تتحرك منهم جارحة، أو تظهر منهم للخير بادرة.¹

هذه المعاني أخرجها عليه الصلاة والسلام في صورة كنائية عن عدم استجابة هذا المعرض لما جاء به الرسول من الهدى والعلم، وعدم الإصغاء إليه، أو عدم الاهتمام بما يجب الاهتمام به، وهو هداية الله تعالى، لأن من اهتم بشيء توجه بحواسه إليه ورفع رأسه ناظرا ومصغيا له، والرأس شرف أضواء الجسد وفيه ما يميز الإنسان على الحيوان « وقالوا هو كناية عن التكبر، أو أنه لم يلتفت إليه ولم يرفع رأسه لينظر إليه، أو أنه لم يعتقده ويرفع به رأسه، لأن من اعتقد الشيء استقر في نفسه ورفع به رأسه وتحدث به وخص الرفع من أحوال الرأس للإشعار بأن قبول الحق رفعة، وقد يكون وجه الكناية أنه لم ينظر فيه ولم يقلب فيه الرأي ويبدئ ويعيد في براهينه ودلائله وعلاماته، وإنما رفض من غير مراجعة»²

وشبه هؤلاء، أو هذا الصنف بالقيعان وهي الأرض المستوية الميتة لا تحفظ الماء لاستوائها ولا تثبت الكأ لموتها.

والبلاغة النبوية تحقق الغاية التمكينية، في الخطاب النبوي بالتركيز وتوضيح جوانب الصورة عبر المعاني والدلالات الإيحائية التي تتجلى في الألفاظ والجمل والتراكيب فتلقي بظلالها على أبعادها المتنوعة ففي قوله: "الغيث" وهي لفظة قرآنية ودلالة الغيث دون دلالة المطر، دلالة على أنه مطر لطيف جاء بعد الحاجة الشديدة قال العيني: «وقد كان الناس

¹ - انظر: نور الدين عير، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 28
² - محمد محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مرجع سابق، ص: 181

قبل المبعث قد امتحنوا بموت القلوب ونضوب العلم حتى أصابهم الله برحمته من عنده»¹
وهذا الغيث هو غيث الدعوة الإسلامية بخيره الوافر وعطائه العميم ،لأن الإنسانية كانت في
حاجة شديدة إلى هذه اللبنة.

وأما قوله: "فأنبتت الكأ والعشب الكثير" ففي ذلك دلالة على التحول إلى حياة ونماء
مما يعني أن الدعوة قد بلغت الغاية ،لأن لفظ الكأ والعشب الكثير تعبير بالصورة عن الخضرة
الكثيفة "وهذا التجسيم قدم لوجه ذات ثلاثة مشاهد: الأرض التي انتفعت بالغيث ،وهي تمثل
المؤمن المذعن للأوامر الإلهية ومشهد الأرض الجداء التي نفعت غيرها بالماء بعد اختزانه
وهي تمثل من يوصل المعارف الدينية من غير إيمان فهو مجرد وسيلة ناقلة، مشهد القيعان
التي لا تستفيد ولا تفيد غيرها وهي الجمود البشري إزاء النفاحات الربانية"² وأما قوله: "فشربوا
وسقوا وزرعوا"، ففيها من العموم.

وأما بناء النص فهو في حقيقة الأمر «"يقتضي مراجعة النص كلمة كلمة وجملة جملة وحرفا
حرفا لمعرفة روابط الكلمات وروابط الجمل وأنواع ترتيبها وتلاقيها، والحديث الشريف كله جملة
واحدة وهذه الجملة الواحدة لها جذر تفرعت عنه كل الفروع واستمدت منه حتى طالت، وسخت،
الجملة الأم التي بمثابة الجذر قوله عليه الصلاة والسلام: "مثل ما بعثني الله به من الهدى
والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا"»³ وهي كما هو واضح جملة اسمية وقد تداخلت فيه
جملة الصلة "ما بعثني" وجملة الحال "أصاب أرضا" ثم تفرعت عنه باقي الجمل.⁴

ومهما يكون الأمر فإن الحديث اعتمد على أسلوب التصوير في أداء مهمة الإبداع فكان
التشبيه التمثيلي وهو من أهم الأساليب البيانية في الإيضاح والتعليم لما له من تأثير بالغ على
المتلقي في توضيح الغامض وتقريب الغاية من العقول وتصويرها تصويرا حسيا.

¹ - العيني ، عمدة القارئ، مصدر سابق، ج2، ص: 80

² - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 419 بتصرف

³ - محمد محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مرجع سابق، ص: 170

⁴ - انظر: المرجع نفسه، ص: 170

وأما من حيث دلالة التشبيه التمثيلي في هذا الحديث فهو يدل على فضل العلم والتعليم عن طريق الهداية النبوية الشريفة، لأن البشرية في حاجة إلى دعوة محمد صلى الله عليه وسلم كالأرض العطشى التي أصابها الملح واشتد بها الظمأ « فهي بأمس الحاجة إلى مطر كثير ينقذها من القحط واليبس، وهذا الغيث هو ما بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم من الهاديات المُعرّفة بالله واليوم الآخر، وأمور الإيمان وما جاعنا به من علم ننظم به دنيانا وحياتنا لتحيا هذه البشرية »¹.

ومن الأحاديث التي تناولت الرسالة المحمدية ما جاء عن أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إنّما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثّل رجل أتى قوما فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العزّيانُ، فالنّجاء، فأطاعهُ طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم، فصباحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، فذلك مثل من أطاعني فأتبع ما جئت به، ومثل من عصاني وكذّب بما جئت به من الحقّ »².

وهذا الحديث كما يتفق مع الحديث السابق في قوله: " مثل ما بعثني الله به " فقد تكرر هذا في المثلين معا، غير أن هذا الاتفاق لا يشمل كل الجوانب، لأننا نلاحظ اختلافا بينهما، وهذا واضح في بناء المثل ومعناه والمقصود منه « لأن هذا الحديث لم يكن مضروبا للذي بعثه الله به فحسب، وإنما يشاركه قوله عليه السلام " مثلي " ومثل ما بعثني الله به »³ وهذا ليس مذكورا في الحديث السابق ولذلك فإن المشبه في هنا مركب من هذين الأصلين " الرسول والرسالة، وهذا هو الذي جعل للتشبيه طريقا آخر يخالف الطريق في الحديث السابق.

1 - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 23

2 - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج6، ص: 2656، رقم الحديث: 6854

3 - محمد محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مرجع سابق، مرجع سابق، ص: 182

ولهذا يمكن القول إن المثل في هذا الحديث مضروب للرسول والرسالة ولذلك فإنه يتجه نحو التصديق، والتكذيب «إذا كان موقف القوم الذين خطبوا بالرسالة هناك - الحديث السابق- كان منهم كذا ومنهم كذا في شأن وعين الرسالة، فإن المخاطبين هنا لا ينظر في أحوالهم من هذه الزاوية، وإنما ينظر إليها من زاوية التصديق والتكذيب»¹

والملاحظ في هذا الحديث أنه ليس فيه أي ذكر لشيء من الرسالة، وإنما فيه أمر واحد هو تأكيد مصدرها، وأنه عليه الصلاة والسلام مُبَلَّغ عن ربه، وأن هذا المصدر لا شك فيه أبداً، وأن ما يندركم به حق وواقع لا محالة، وأنه كالذي رأى الجيش بعينيه، وقال إني أنا النذير العريان فالنجاه النجاه، ولذلك نجد هذا التأكيد من الرسول صلى الله عليه وسلم حول هذا الأصل - مصدر الرسالة- وأنه رسول الله إليهم، وما أشار به إليهم حق، وأن النجاة ليس لها طريق إلا الإيمان، وأن الأعراض طريق الهلاك لا محالة.²

هذه المعاني جسدها عليه الصلاة والسلام من خلال الصورة البيانية، ومن خلال المثل فجاءت صورة حية لحاله عليه الصلاة والسلام "مثلي" في الإنذار، ولأحوال السامعين لإنذاره، حيث شبه نفسه مع قومه بصورة "النذير العريان" الذي تجرد من ثيابه، وفي ذلك دلالة على الصدق، ودلالة على قرب الخطر فأخذ يهتف فيهم، وهذه عناية الشديد في تأكيد هذه الحقيقة التي هي الأصل أنه رسول الله إليهم، وأن ما يحدثهم به حق، وأنه يضع بين أيديهم البرهان القاطع الذي لا يقبل الشك، وهو أن النجاء ليس له طريق إلا طريق واحد، هو الإيمان بالرسالة، وأن الرفض والتكذيب طريق إلى الهلاك. ومن أجل تحقيق تلك الغاية اتجه عليه الصلاة والسلام إلى ما هو مألوف عند العرب ودليل الصدق وتوثيق الأمر في نفوسهم وإقناعهم، بأنه نذير من خطر مخيف قادم ينبغي الحذر منه وهو خطر يوم القيامة، وهو أمر عظيم جليل في غاية من الأهمية و الخطورة « لذلك عني بجلائه وإبانة أمره فصور الإنذار به بحالة من واقع الحياة الملموسة،

¹ - ١ محمد محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مرجع سابق، ص: 183

² - انظر: لمرجع نفسه، ص: 183

ليقر به لأذهانهم وهذا أمر معروف في التشبيه، وتفسير هذا المثل أن رجلاً لقي العدو فسلبوه ثيابه فأسرع إلى قومه وهو بهذا الحال يحذرهم، أو أنه كان من عادة العرب في الجاهلية أن الرجل إذا داهم الخطر قومه خلع ثوبه ولوح به لقومه قائلاً: واصباحاه أي: صبحكم الجيش، ليحذرهم وينذرهم الخطر المحقق»¹

ففي قوله عليه الصلاة والسلام "مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال "إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان..." وقد وظف عليه الصلاة والسلام لتأكيد تلك الحقيقة، الكثير من الأساليب مثل "إن" وهي أم باب التوكيد، إلى جانب تكرار "أنا" ثم تعريف الخبر "النذير" أما قوله: العريان، هذه الكلمة أكثر تأكيداً من كل الأساليب السابقة، فهي تمثل ذلك الرجل وأسر الذي العدو واستلبه ، فذهب إلى قومه عريانا لينذرهم من الخطر العظيم.

وهذا التأكيد في صدق هذا العريان وحرصه على قومه وحبهم لهم ومخاطرته بنفسه من أجل نجاتهم، كل ذلك يراد به تأكيد نبوة، ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم، وحرصه على قومه وحبهم لهم، وأن نفسه عليه الصلاة والسلام لشديدة الحسرة عليهم، إن لم يؤمنوا بهذه الرسالة، وكأننا ننظر إلى ذلك النذير وهو يتحدث والخوف مسيطر عليه والصدق ملء عينيه، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم واضح، لا شك فيه ويؤيد صدق النذير تلك المؤكدات التي جاءت في النص.

والموقف يتعدى إلى موقف كل قوم مع نذيرهم فالنتيجة من النصح والندارة فريقان: فريق استمع وصدق وتأهب فرحل فنجا، وفريق عارض وكذب وتهاون بالخبر والرسالة فأصبح، فداهم العدو فأهلكهم جميعاً.

¹ - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 62

فالنذير هو النبي صلى الله عليه وسلم «والذين قبلوا هدى الله هم المدلجون الذين صدقوا النذير فأولجوا، أما العصاة الكفرة فهم الذين كذبوا خبر النذير، والخبر الذي ينقله هو الغيب الذي يأتي به الأنبياء، والجنة هي الخلاص، والنار هي اجتياح الجيش الغازي»¹

وعلى هذا يمكن الوقوف على جوانب الصورة التي تناولت هذه المعاني فقوله عليه الصلاة والسلام: "مثلي" ومثل ما بعثني الله به" هو المشبه، وهو مركب ، والمشبه به "كمثل رجل أتى قوما فقال: يا قومي إني رأيت الجيش بعيني، ووجه الشبه صورة أمر أكدته الشواهد وصدقته الأدلة ففاز من صدقه، وخسر من كذبه.

والتمثيل مأخوذ من البيئة العربية التي يعيش فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، والصحابة رضوان الله عليهم، إلى جانب أن المثل مأخوذ أيضا من الفكر العربي المستوحى من الحروب والاستعداد لها باتخاذ أساليب الانتصار والفوز.. والمراد في هذا المقام إتباع الرسالة المحمدية، وتصديق كل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.²

و يمكن الوقف على صورة ثانية تتمثل في الاستعارة التمثيلية وذلك في قوله: "إني أنا النذير العريان" حيث شبه الرسول صلى الله عليه وسلم « حاله وهو ينذر قومه ويعلمهم بما شرع الله ، وما يترتب على المخالفة من الإثم والعقاب بصورة عرفها العرب، وهي صورة رجل كان ربيئة قومه، وعينا لهم، فأراد إنذار قومه وإعلامهم بهجوم العدو عليهم، فنزع ثوبه وأشار به إليهم ليستحثهم للتأهب للعدو ويسهل على الرائي أن يعرف الشر في عريه، ثم استعيرت هيئة المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التمثيلية»³

وفي هذا السياق نجد قوله عليه الصلاة والسلام في حديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل

1 - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 368

2 - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى، مرجع سابق، ص: 250

3 - عبد الفتاح لا شين، من بلاغة الحديث النبوي الشريف،، مرجع سابق ص: 35

استوقد نارا، فلما أضاعت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحمون فيها»¹

والصورة في هذا الحديث تقترب من حيث المعنى بالحديث السابق، لأنها تتناول حاله عليه الصلاة والسلام مع الناس، وحرصه الشديد على نجاتهم، ومبالغته في زجرهم عن الإقدام على المعاصي، فالحديث يظهر هذا الجانب في صورة فنية تعتمد على مشهد يتكرر كثيرا في حياة القوم، ويروونه كل مساء وحقيقة الأمر في عمقه ودقته فاق حد التصور، لأن المعاصي والشرك، ومخالفة أمر الله نار محرقة، والمقبلون عليها فراش لا عقول لهم وجنادب لا تعي والرسول صلى الله عليه وسلم يدفع الناس ويشدهم عن لوقوع في الهلاك، وهم ماضون في الاقتحام في النار والوقوع فيها، معرضين عن النصح غير ملتفتين للمنذر الذي يبصرهم بعاقبة أعرافهم، شبه حالته هذه مع الناس بحال رجل أو قد نارا فانجذبت الفراشات والحشرات إليها فسعت إليها وألقت بنفسها فيها دون هواده وتبصر، ولكن الرجل قد منحه الله بصيرة وعقل يدرك تماما نهاية هذا التهور، لذلك فهو يمنعها ويحجزها ويدفعها، حيث يحول بينها وبين أن تلقي بنفسها، غير أن جهلها وحمقها يدفعها، واستهواء الضوء يغريها إلى أن تلقي بنفسها إلى التهلكة.

وجميع عناصر هذه صورة توحى بمزيد من الصفات والدلالات التي تثري الصورة وتبعث فيها الحياة والحركة، والحديث كله تشبيه تمثيلي» فقد شبه صفة الرسول وحاله في دعائه الناس إلى الإسلام المنقذ لهم من النار، وما تزين لهم أنفسهم من التماذي في الباطل، كمثّل رجل عالج أيقاد النار وسعى في تحصيل كل ما به اشتداد نارها ونورها، ولكن بدل أن يهتدي بها الضال ويسترشد بها الحائر أقبل عليها الفراش والدواب الصغيرة، تنهاوى فيها وتتساقط»²، ولعلنا بعد هذا نؤكد أن الصورة البيانية قد أظهرت معنى الرسل، والرسالة المحمدية وكشف عن كل الجوانب المتصلة بالدعوة من خلال النصح والإرشاد.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 5، ص: 2379، رقم الحديث: 6118

² - عبد الفتاح لاشين، من بلاغة الحديث النبوي الشريف، مرجع سابق، ص: 86

المبحث الثاني: أثر الصورة البيانية في بيان القضاء والقدر والجنة والنار في الخطاب النبوي الشريف

ويتضمن هذا المبحث ثلاثة مطالب هي:

المطلب الأول: الإيمان بالقضاء والقدر في الخطاب النبوي الشريف

يعدّ القضاء والقدر من بين أهم أركان الإيمان، حيث أجمع العلماء على وجوب الإيمان به، وقيل: أصل القدر سرّ الله تعالى في خلقه، هذا السر، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبيّ مرسل، فإن الله طوى علم القدر عن خلقه ونهاهم عن مرامه¹، فمن سأل لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين، ولذلك يجب الإيمان بالقدر خيره وشره، وحلوه ومزّه، وقليله، وكثيره، ظاهره وباطنه « ولا يجاوز قضاء، بل هم كلهم صائرون إلى ما خلقهم له، واقعون فيها قدر عليهم لا محالة، وهو عدل من ربنا عز وجل، فأراد الطاعة وشاءها ورضيها وأحبها وأمر بها، ولم يأمر بالمعصية، ولا أحبها، ولا رضيها، بل قضى بها وقدرها² »
والذي لا شك فيه أن موضوع القضاء والقدر، يشكل في حقيقته جزء من موضوع وجود الله تعالى ذاته، على اعتبار أنه يختص بالمشيئة الإلهية، ويدور حول علاقة الله بمخلوقه فمن يؤمن بالله تعالى إيمانا صحيحا، يتوجب عليه أن يعتقد أن الله يتصف بأكثر من مائة صفة، ومن جملتها كونه قديرا. « هو الذي له القدرة الشاملة، وهي صفة قائمة بذاته، تام القدرة لا يمتنع عليه شيء³ » ومعنى قديرا: أنه سبحانه وتعالى قادر على كل شيء، ومتمكّن من كل شيء مهيمن على كل شيء، وقد خلق كل شيء فقدره تقديرا، وفق ما شاء، وبعد هذا يمكن الوقوف على معنى القضاء والقدر من الناحية اللغوية.

¹ - انظر: العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، مصدر سابق، ح: 11، ص: 582
² - البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية إلى سبل الرشاد، تحقيق، أحمد موسى دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام، 1999م، ص: 31.

³ - المصدر نفسه، ص: 55

أولا القضاء في اللغة: ممدود يقصر، من قضى « فالقاف والصاد والحرف المعتل أصل صحيح يدل على إحكام أمر وإتقانه وإنفاذه لجهته»¹

والقضاء: « الحكم وأصله قضايٌّ ،لأنه من قضيت ،إلا أن الياء لما جاءت بعد الألف همزت، والجمع الأ قضية والقضية مثله، والجمع القضايا »² ،ثم قال أيضا « القضاء، وأصله القطع والفصل، يقال: قضى يقضى قضاءً فهو قاض إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء: إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه، فيكون بمعنى الخلق، قال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه مرجعها انقطاع الشيء وتمامه، وكل ما أحكم عمله، أو أتم، أو ختم، أو أدّى أداء، أو أوجب، أو أعلم، أو أنفذ، أو أمضي، فقد قضى»³

وقد جاءت بعض هذه الوجوه في الحديث النبوي الشريف، ومنهما القضاء المقرون بالقدر، « والمراد بالقدر التقدير، وبالقضاء الخلق»⁴

والقدر في اللغة: « قدر: القاف والداد والراء أصل صحيح يدلّ على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته، والقدر: مبلغ كل شيء. يقال: قدره كذا، أي مبلغه، وكذلك القدر، وقدرت الشيء أقدره، وأقداره من التقدير وقدرته أقدره. والقدر: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها وهو القدر. وايقضا قدرة الله تعالى على خليقته: إيتاؤهم بالمبلغ الذي يشاؤه ويريده »⁵

"والقدير فالقادر: « من صفات الله عز وجل، يكونان من القدرة ، ويكونان من التقدير فالله عز وجل على كل شيء قدير، والله سبحانه مقدر كل شيء وقاضيه، فهي من أسماء الله

¹ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة، قضى، مصدر سابق، ج5، ص: 99

² - ابن منظور، لسان العرب، ج11، مصدر سابق، ص: 209

³ - المرجع نفسه، ج11، مصدر سابق، ص: 209

⁴ - مرجع نفسه، ج11، مصدر سابق، ص: 209

⁵ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مصدر سابق، ح 5، ص: 62

تعالى القادر المقتدر والقدير، فالقادر اسم فاعل من قدر يقدر، والقدير فعيل منه وهو للمبالغة، والمقتدر مفتعل من اقتدر وهو ابلغ¹

ويأتي القدر بمعنى: «القضاء، والحكم، والتقدير، والتدبير، وللإتمام والمساواة، والقياس، والتهيئة، والطاقة، والقوة، والقدرة، والموت... غير ذلك.»²

«فالقضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه»³

ومهما تكن نظرة العلماء إلى القضاء والقدر على اعتبارهما أمراً واحداً، أم هما على خلاف ذلك، فإنه قد جاء في الغالب القدر مقرون بالقضاء، وقد نجد بعض الصيغ التي توحى بالقضاء والقدر دون الصيغة المألوفة، ومن الأحاديث التي جاء فيها ذكر القدر ما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: «إذا همّ أحدكم بالأمر، فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله، فاقره لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرّ لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال: عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به، قال: ويسمى حاجته»⁴

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ح 11، مصدر سابق، ص: 55

² - الخليل بن أحمد، كتاب العين، مصدر سابق، مادة "قدر" ج 6، مصدر سابق، ص: 112-113

³ - ابن منظور لسان العرب، مصدر سابق، ح 11، مصدر سابق، ص: 209

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ح 1، ص: 391، رقم الحديث: 1109

والواضح من الحديث دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تقوم على "الاستخارة" وهي طلب الخير من العالم بعواقب الأمر- جل جلاله - وتفضيلها وخيرها وشرها، وفيه أيضا دلالة على أن علم الله تعالى سابق ومحيط بكل شيء، إلى جانب علمه وقدرته سبحانه وتعالى السابق بالأشياء قبل كونها، وهو تام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيء. وفي هذا الحديث ورد لفظ القدرة أكثر من مرة فجاء قوله: "استقدرك" وكذلك "بقدرتك" إلى جانب "تقدر" وهي جميعها تدل على أنه القادر الذي له القدرة الشاملة المنزل الأشياء منازلها يقدم ما شاء، ومن شاء، ويؤخر ما شاء، ومن شاء.¹

وقد كشف البيان النبوي أهمية القضاء والقدر ووجوب الإيمان به، خاصة وأنه من الأمور الغيبية، لذلك كان عليه الصلاة والسلام شديد الحرص على أن يعلم الصحابة أمور دينهم ودنياهم، وأن يذكّرهم بالقضاء والقدر، وأن ما كتبه الله لهم لا يمكن أن يغيره أحد، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما فقال: « يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك، إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف »² . والرسول صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على توعية أصحابه وتربيتهم على الإيمان بالقضاء والقدر منذ نعومة أظافرهم ،لأن تعليم أمور الدين هو ما يتوق إليه الصحابة، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالأمور الغيبية التي يجب الإيمان بها والاعتقاد بأنها سرّ من أسرار الله تعالى، اختص العليم الخبير بها، ثم أنها الوسيلة التي تجعل المؤمن شجاعا لا يخاف إلا الله وحده، يلقي كل المصائب والصعاب راضيا مطمئنا ،لأن إيمانه قوي فكل ما يصيبه مكتوب عليه، وقد سبق به علم الله ومشيئته منذ الأزل، ثم الأرزاق والآجل

¹- انظر: البيهقي ، الاعتقاد والهداية إلى سبل الرشاد، مصدر سابق، ص: 55

²- سنن الترمذي، مصدر سابق، ج4، ص: 489، رقم الحديث: 2685

بيد الله، وبذلك يقتحم المؤمن الصعاب والأهوال بقلب ثابت، وهامة مرفوعة، وقد كان هذا الإيمان بالله من أهم ما دفع المجاهد ين إلى الإقدام في ميدان النزال، حتى أن الواحد منهم يطلب الموت في سبيل الله، لأن إيمانه بالقضاء والقدر والآجال محدودة مقدرة، لا تتقدم ولا تتأخر لحظة واحدة.

والصورة في قوله عليه الصلاة والسلام: « رفعت الأقلام وجفت الصحف » وهي صورة عن نفذ القدر بما كتب» وهي كناية عن تقدم كتابه المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد، فإن الكتاب إذا فرغ من كتابته ورفعت الأقلام عنه طال عهده، فقد رفعت عنه الأقلام وجفت الأقلام التي كتب بها من مدادها، جفت الصحيفة التي كتب فيها والمداد المكتب به فيها وهذا من أحسن الكنايات و أبلغها¹ ولذلك قيل أن الفراغ بعد الشروع يستلزم جفاف القلم من مداده، فأطلق اللزوم على الملزوم، وهي صورة الكنائية من الصور غير المسبوق فيها، أو هي من الاختراع غير المسبق، ولذلك رسخت في ذهن الصحابة رضوان الله عليهم حتى أن البدوي منهم ليديرها في كلامه كالمتمكن منها، وهذا ما جاء في حديث سراقه بن مالك حين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: « لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير»²

ومن صور التي تظهر أن القضاء والقدر، حكم الله تعالى منذ الأزل، ما جاء في الحوار الذي دار بين آدم وموسى عليهما السلام، وحول الخطيئة التي أخرجت آدم من الجنة فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت

¹ - أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت، ط1، عام 1408هـ، ص: 193

² - صحيح مسلم، مصدر سابق: ج4، ص 2040، رقم الحديث: 2648

موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمرٍ قدّر عليّ قبل أن أخلق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فحج آدم موسى ¹»

والواضح من هذا الحوار الذي دار بين آدم وموسى عليهما السلام حين أشار موسى إلى الخطيئة والتي كانت سبب خروج آدم من الجنة، عندما أكل من الشجرة التي نهى الله عنها، فقال آدم أنت موسى الذي اختارك الله على الناس برسالاته ، وقد كلمك الله، تلومني على أمر قد قدر عليّ قبل أن أخلق، وحكم ذلك كائن لا محالة لعلمه السابق، فهل يمكن أن يصدر مني خلاف علم الله، ثم يذكره كيف تغفل عن العلم السابق وتذكر الكسب هو السبب وتتسى الأصل الذي هو القدر، وأنت من المصطفين الأخيار الذين يشاهدون سر الله من وراء الأستار، ثم أشار عليه الصلاة والسلام غلب آدم وموسى بالحجة في دفع اللوم مرتين.

وصورة البيانية تظهر من خلال إسناد إخراج آدم من الجنة إلى الخطيئة، مع أنّ المخرج الحقيقي لآدم من الجنة هو الله تعالى ،صورة مجازية تظهر أن الإخراج أمر مقدر " عليه قبل أن أخلق" ثم يشير الحديث إلى أن ما أشار به موسى ما هو إلا سبب والحقيقة تكمن في الأصل ،أن الأمر قدّر مُقدّرٌ، ولا يمكن أن يصدر عنه ما يخالف قضاء وقدر الله، وفي ذلك تأكيد من آدم عليه السلام، أن لا مرد للقضاء والقدر، وأن كل شيء لا يقع في الوجود إلا وقد سبق به علم الله ومشيئته، وأن أفعالنا وإن كانت معلومة لنا ومرادة منا، فلا تقع مع ذلك منا إلا بمشيئة الله.

¹- صحيح البخاري، مصدر سابق، ح3، 1251، رقم الحديث: 3228

المطلب الثاني: صورة يوم الآخر والحشر في الخطاب النبوي الشريف.

من ضروب الإيمان، الإيمان باليوم الآخر، أو يوم القيامة، قد سَمَّى الله عز وجل ذلك اليوم الذي تنتهي فيه الحياة الفانية، وبداية الحياة الأبدية ، هذا اليوم سيعقبه البعث والنشور للجزاء والحساب، هذا اليوم جاء بأسماء كثيرة، حاول أهل العلم جمعها، حيث عدّها الغزالي والقرطبي فبلغت خمسين اسما عند القرطبي وله تفسيراً لها¹ حتى وإن سبقه في ذلك صاحب كتاب "سراج المريدين" لابن العربي، وربما يكون قد أخذ عنه، وقد يكون أضاف شيئاً على ذلك خاصة في الشرح والتفسير.

ومن أشهر هذه الأسماء اسم يوم القيامة، حيث ورد في سبعين آية من آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ كُمُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾² يوم القيامة في اللغة: مصدر قام يقوم، ودخلها التأنيث للمبالغة على عادة العرب، وسميت بذلك لما يقوم فيها من الأمور العظام التي بينتها النصوص القرآن والأحاديث النبوية، ويطلق بصيغ عديدة مثل الدار الآخرة، لأنه اليوم الذي لا يوم بعده.

ومن أسمائها: اليوم الآخر، يوم البعث، يوم الخروج، القارعة، يوم الفصل، يوم الدين، الصاخة، الطامة، يوم الحشرة، الغاشية، يوم الخلود، الواقعة، يوم الحساب، يوم الوعيد، يوم الآزفة، يوم الجمع، الحاقة، يوم التلاق، يوم التغابن، اليوم المشهود، اليوم العظيم، يوم الفتح، وغيرها من الأسماء التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف.

يقول القرطبي في حديثه عن الساعة: «الساعة كلمة يعبر بها في العربية عن جزء من

¹ - القرطبي، كتاب التذكير بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: الصادق بن عمر بن إبراهيم مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام: 1425هـ، ص: 849

² - سورة النساء، الآية: 87

الزمن غير محدود، ، و الساعة بالآلف واللام عبارة في الحقيقة عن الوقت الذي أنتفيه وهو المسمى، بالآن، وسميت به القيامة لقربه فإن كل آت قريب»¹

وهذه الأسماء المختلفة الدالة على يوم القيامة جاء ذكرها في البيان النبوي الشريف والقراءة المتأنية في الأحاديث النبوية التي تناولت مسألة الإيمان بيوم الحشر، أو يوم الآخر يتضح أن نهاية هذا اليوم الذي ما بعده يوم آخر، يكون أما عذب السموم في نار جهنم، وإما جنة تجري من تحتها الأنهار.

وقبل بداية في تحليل الأحاديث، لا بد من الوقوف عند هذا اليوم وما فيه من الأمور الغيبية التي استأثر الله بعلمها، والأمور الغيبية عموماً سرّ من أسرار الله تعالى وضرب دونها الأستار، وحجبهم عن العقول والأنظار، وما علينا إلا الإيمان بها، وأنها حق موعود، وهذا ما جعل موضوع يوم القيامة ينال حظاً كبيراً، وربما يعود ذلك إلى كثرة ما ورد في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، مما جعله « ماثلاً في وجدان المسلمين مجاهدين وعابدين، وعلماء ، فاستقامت حياتهم على منهج الإسلام وقدموا بطولات فذة في الجهاد والفتح وإحقاق الحق، وخلفوا للإنسانية تراثاً فكرياً عظيماً»²

فلا عجب بعد هذا أن نجد في الحديث النبوي الشريف هذه العناية الكبيرة بهذا اليوم العظيم، أو بهذا اليوم العصيب الذي ما بعده يوم.

وحقيقة الأمر أن يدخل تحت يوم القيامة أمور كثيرة ، منها الجنة والنار، فهذا اليوم شديد الاتصال بهما، في ذلك أحاديث كثيرة، وسيأتي ذكر بعضها.

¹ - القرطبي، كتاب التذكير بأحوال الموتى وأمور الآخرة، مصدر سابق، مصدر سابق، ص: 546.

² - محمد الصباع، التصوير الفني في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 109

ومن النصوص النبوية التي تتناول يوم القيامة حديث الذي رواه أبي حازم بن دينار عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء، عفراء كقرصه النقي، ليس فيها علم لأحد »¹

وفي حديث آخر عن عائشة قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءَ تَبَدُّلًا﴾² فأين يكون الناس يومئذ؟ يا رسول الله؟ فقال: "على الصراط" ³

وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري قال النبي صلى الله عليه وسلم: « تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها الجبار بيده كما يكفأ أحكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة، فأتى رجل من اليهود فقال: بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم، ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة؟ قال: بلى، قال: تكون الأرض خبزة واحدة، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلينا، ثم ضحك حتى بدت نواجذه، ثم قال: ألا أخبرك بإدامهم؟ قال: إدامهم بالأمّ وثون، قالوا: وضما هذا ؟ قال: ثور وثون يأكل من زائدة كبديهما سبعون ألفاً⁴.

موضوع يوم القيامة، أو اليوم الآخر وردت فيه أحاديث كثيرة، تحاول الكشف عن بعض جوانبه مثل صفة الأرض في هذا اليوم، الذي ليس بعده يوم ، يحشر الناس فيه وتكون الأرض فيه غير الأرض التي عرفها العباد، وإذا اختلفت الروايات في هذه الأحاديث، إلا أن جميعها صورة واحدة لحالة الأرض في هذا اليوم المشهود، فقد شبه عليه الصلاة والسلام الأرض حين يبدلها الله غير الأرض التي نعرفها، في يوم القيامة بخبزة واحدة، خبزة

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ح4، ص: 2150، رقم الحديث: 2790

² - سورة إبراهيم، الآية: 48

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ح4، ص: 2150، رقم الحديث: 2791

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ح5، ص: 2390، رقم الحديث: 6155

المسافر يميلها تعالى من يد إلى يد حتى تستوي قال النووي: « إن الله تعالى يجعل الأرض كالظلمة والرغيف العظيم ويكون ذلك طعاما ونزلا لأهل الجنة، والله على كل شيء قدير»¹

والملاحظ في هذه الصورة أن النار غيرت بياض وجه الأرض إلى حُمْرة مما يدلّ على شدة نار جهنم، ثم أن هذه الأرض بعد تغييرها لم تعد فيها دلالات ،أو أي أثر على أن الإنسان كان يسكنها، وإنما فيها من الوحشة ما فيها، وفيها من الغرابة الحقيقية، لأن في هذا اليوم تتغير معالم الكون وتختلف سننه، ومن مظاهر اختلاف سنن الكون في يوم الآخرة نجد الشمس تطلع من الغرب نحو الشرق، ومن ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه »²

والكناية تكشف معالم هذا الاضطراب فالرسول صلى الله عليه وسلم عند أراد أن يذكر يوم القيامة لم يذكره باسمه، وإنما كنى عنه بهذه الكناية التي هي بهذه الصورة الواقعية الغيبية، ولم يتوقف التصوير البياني عند إظهاره هذا الجانب الذي يضطرب فيه الكون واختلاف سننه في يوم الآخر، وإنما يقدم لنا صورته أخرى ومن ذلك ما جاء عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « " تُدْنَى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل".

قال سليم بن عامر: فو الله! ما أدري ما يعني بالميل؟ أمسافة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين، قال: فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، قال: وأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده إلى فيه »³

¹ - القسطلاني، إرشاد الساري، مصدر سابق، ح 10، ص: 253، هامش بشرح صحيح مسلم ،لنوي

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ح4، ص: 2076، رقم الحديث: 2703

³ - المصدر نفسه، ح4، ص: 2196، رقم الحديث: 2864

إن هذا الحديث العظيم يقدم لنا صورة في منتهى الأهمية ، لأنها تقدم لنا جانبا من جوانب أهوال يوم القيامة، من خلال صورتين من أشد أنواع العذاب، صورة أهل المحشر وهم واقفون تحت محرق الشمس وقد اقتربت منهم، و صورتهم وهم يخوضون في تجمعات العرق.

والبيئة العربية بطبيعتها علمت العربي، فهو يعي معنى حرارة الشمس، لأنه يعيش في الصحراء، ويدرك هذه الحقيقة، على الرغم من بعد الشمس عنا مسافات طويلة تقدر بسرعة الضوء.

ومما يزيد هذه الصورة مخافة عندما تكتمل فيجعل الناس يغمر بعضهم العرق حتى يصل عند البعض حقويه ،أو إلى ركبتيه ،أو إلى كعبيه « بحر يعوم فيه الناس، وقد اختلف موجه صعودا أو هبوطا، وفق ما قدمه السابحون، فمن واقف في الماء إلى كعبيه، ومن غائص إلى ركبتيه، أو خصره، ومن ملجم لا يجد من العرق متنفسا، إذ يلجمه الماء إلجاما، وحرارة الشمس اللاهبة فوق الرؤوس دائية بشواظها اللفاح، أي موقف هذا الذي صورته البيان في أقرب لفظ وأيسره دون افتعال»¹

والراوي لهذا الحديث لم يصل إلى المعنى الذي أراده عليه الصلاة والسلام بقوله: "مقدار ميل" هل مساحة الأرض، أم الميل الذي تكتحل به العين؟.

ومهما يكن الأمر فإن الوظيفة من الصورة البيانية " تُدْنَى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم لمقدار ميل" هو بيان مقدار قرب الشمس من الخلق وبيان حالة من الاضطراب ،الذي يقع في هذا اليوم على غير ما يعرفونه، مما يتسبب في الحرارة الشديدة التي لم يألّفوها ، ولا يعرفونها، وقد وصف عليه الصلاة والسلام نزول العرق عليهم فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما، صورة مخيفة.

¹ - محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، مرجع سابق ، ص: 156

صورة فيها استحضار في البصيرة لما سيكون عليه الأمر حقيقة في يوم القيامة ويضرب الصراط ، ووظيفة هذه الصورة ،إنما هي دعوة إلى تقويم الأعمال قبل الوصول إلى الحقيقة ، وهي دعوة بمثابة النجاة، فهي بلاغ وإرشاد وحث على الإيمان بيوم الآخر والامتثال إلى ما جاء به عليه الصلاة والسلام.

وفي صورة ثانية لهذا اليوم المشهود في حديث طويل نقف عند بعض الجوانب منه، فقد جاء عن أبي سعيد الخدري، أن أناسا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « نعم ، قال: هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحب، قالوا: لا يا رسول الله، قال: ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما، إذا كان يوم القيامة أَذَنٌ مُؤَدِّنٌ: ليتبع كل أمة ما كنت تعبد، فلا يبقى أحد كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب ،إلا يتساقطون في النار.... فيحشرون إلى النار كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضا...ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة، ويقولون: اللهم سلم سلم، قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دحض مزلة فيه خطاطيف وكلايب وحسك تكون بنجد فيها شوكة يقال لها: السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين، والبرق، والريح، والطيور، وكأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلّم، ومخدوشٌ مرسل، ومكدوس في نار جهنم.. »¹

وطبيعة الإنسان المؤمن يشترك إلى رؤية سبحانه وتعالى، وهذا ما يظهره هذا الحديث أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فكان جوابه عليهم بقوله: "هل تضارون في القمر ليلة بدر ليس دونه حجاب؟ وهل تشكون في رويته؟ فكان جوابهم: لا يا رسول الله، ثم سألهم مرة ثانية، فهل تشكون في رؤية الشمس ليس دونها سحب؟ قالوا: لا، فقال: فإنكم ترونه تعالى كذلك بلا مَرِيَةٍ ظاهرا جليا.

¹- صحيح مسلم، مصدر سابق، ح1، ص: 167، رقم الحديث: 183

ثم وصف أصناف الناس وحالهم يوم القيامة، حيث أظهر أن الناس مختلفون في عقائدهم في الدنيا، فكذاك يختلف حالهم يوم القيامة، ثم يدعوهم ربهم فيوضع الصراط بين ظهرائي جهنم فيكون النبي صلى الله عليه وسلم أول من يقطع الصراط من الرسل عليهم الصلاة والسلام وأمنته معه، ويكون دعاء الرسل حينئذ: اللهم سلم سلم، شفقة منهم على الخلق ثم يبين عليه الصلاة والسلام مظاهر هذا اليوم حال هؤلاء وهم يمرون على الصراط وفي جهنم كالليب مثل شوك السعدان ، وفي رواية البخاري «...كالليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان ، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله ،فتخطف الناس بأعمالهم، منهم من يُوبَقُ بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو...»¹

وأما قوله "فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضا" والسراب هو الذي يرى عادة في منتصف النهار في الأرض القفر والقاع المستوي في الحر الشديد لا معا مثل الماء يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا حاءه لم يجده شيئاً، يكسر بعضه بعضا لشدة انتقادها وتلاطم أمواجها أمواج لهبها، فيتسقطون في النار، وأما قوله: "ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة"

قيل يا رسول الله: وما الجسر؟ قال: " دحض مزله " فيه خطاطيف وكلايب وحسك تكون بنجد فيها شوكة يقال لها السعدان.

فيمر المؤمنون كطرف العين، والبرق، والريح، والطير، وكأجاويد الخيل والركاب، فجاج مسلم، ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم"

صورة توضح مرور الناس على الصراط المستقيم حسب أعمالهم مثل طرف العين، أو كالبرق، أو كالطير، أو كأجاويد الخيل والركاب، ومن الناس من هو ناج مسلم ومنهم من يكون مخدوش مرسل ومنهم مكدوس في جهنم.

¹- صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 278، رقم الحديث: 773

هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة، يوضّح أن عمل المسلم كلما حسن أسرع بصاحبه في العبور، وأن سرعة مرورهم على الصراط بقدر أعمالهم ومبادرتهم لطاعة ربهم، حتى من لا يستطيع المشي إلا زحفاً، أو حبواً، وفي حافتي الصراط كالليب معلقة تخطف الناس فيكدسون في جهنم، ومن الطبيعي أن المؤمن الذي رضي الله بعمله الصالح يشعر بالثبات في السرعة والاستقرار تبعاً لطبيعة عمله، وبقدر إيمانهم.

إن مثل هذه المشاهد الغيبية يجب على المؤمن الإيمان بها، لأنها ركن من أركان الإيمان والعمل بما جاء به الرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يوم القيامة حق لا ريب فيه وأن الحشر حق لا محالة، وكل حسب عمله في الدنيا وبقدر إيمانه.

المطلب الثالث: صورة الجنة والنار في الخطاب النبوي الشريف

القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، «والجنة والنار مخلوقتان ، لا تفنيان ولا تبيدان ، فالله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه ، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له»¹

وقد اتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، ولم يزل أهل السنة على ذلك، وهذا بخلاف المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك ، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة، وقد عقد البخاري في صحيحه بابا قال فيه "باب ماجاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة" وساق في هذا الباب أحاديث كثيرة تدل على أن الجنة مخلوقة منها الحديث الذي ينص على أن الله يُري الميت عند ما يوضع في قبره مقعده من الجنة والنار، وحديث إطلاع الرسول صلى الله عليه وسلم على الجنة والنار وحديث رؤية الرسول لقصر عمر بن الخطاب في الجنة وغير ذلك من الأحاديث ومنها ماجاء عن أبي هريرة: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يدخل أحدا لجنة إلا أُرِي مقعده من النار لو أساء، ليزداد شكرا، ولا يدخل النار أحد إلا أُرِي مقعده من الجنة لو أحسن ليكون عليه حسرة»²

ونحن هنا نود الوقوف على أثر الصورة البيانية في الكشف عن الجنة والنار في الحديث النبوي الشريف،

¹ - صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، تحقيق، أحمد محمد شاكر، وكالة المطبوعات، الرياض، عام: 1418هـ، ص: 420.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2402، رقم الحديث: 6200.

أولاً: صورة الجنة في الخطاب النبوي الشريف

الجنة هي الجزاء العظيم والثواب الجزيل الذي وعد الله بها، وأعدّها لأوليائه، وأهل طاعته، وهي نعيم كامل، لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها حق، وأخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم صدق، نعيم يعجز العقل عن وصفه وإدراكهجنة أعدت للمتقين.

الجنة في اللغة: « الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها جنان، وفيها تخصيص يقال للنخل وغيرها، لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب، فإن لم تكن فيها ذلك وكانت ذات شجر فهي حديقة. »¹

وفي مختار القاموس: « الجنة: الحديقة ذات الشجر والنخل وجمعها جنان » وعند علماء العقيدة: « هي الاسم العام المتناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة والسرور وقرة الأعين »²

والجنة لها أسماء عديدة منها دار السلام، دار الخلود، دار المقامة، وكذلك من أسماءها الفردوس، والنعم، وغيرها من الأسماء التي وردت في حق النعيم الذي أعده الله لعباده. وقد اتفق أهل السنة والعلم أن الجنة والنار حق، وأن الإيمان بهما واجب على كل مؤمن، ولا يكتمل الإيمان، إلا بهما.

وقد جاءت أحاديث كثيرة تتناول أهل الجنة، وأحوالهم فيها، حيث تظهر هذه الأحاديث سعادة المؤمنين فيها، لا تعادلها سعادة، خاصة عندما يساقون مُعززين مُكرمين

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج2، ص: 391

² - ابن قيم، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، مكتبة عباد الرحمن، مصر للنشر والتوزيع، ط 1، عام: 2005 ص: 11

زُمرًا زُمرًا إلى جنات النعيم، حتى إذا وصلوا إليها فتحت أبوابها، وكذا عتقاء الله الذين يخرجوا من جهنم فتكون سعادتهم وسرورهم بدخولها.

ومن هذه الأحاديث وصفه عليه الصلاة والسلام أول مجموعه من الذين يدخلون الجنة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين على آثارهم كأحسن كوكب دريٍّ في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا تَبَاغُضُ بينهم ولا تحاسد، لكل امرئ زوجتان من الحور العين، يرى مخُّ سَوْقِهِنَّ من وراء العظم واللحم»¹ وفي رواية ثانية «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوطون، أنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الألوَّة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخُّ سَوْقِهِنَّ من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد، يسبِّحون الله بكرة وعشيًا»².

هذا تصوير بديع لأول زمرة تلج الجنة، تصوير لم يهتف به بشر من قبل، هؤلاء الأوائل الذين يدخلون الجنة، صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، في الإضاءة والإشراق وفي الرواية الثانية: والذين على آثارهم كأشد كوكب الإضاءة، أو كأحسن كوكب دري عظيم شديد الإضاءة وسمى بذلك لبياضه كالدر، أو لضوئه، هؤلاء لا يبصقون فيها ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، وبحكم أن الجنة طيبة مسكن للطيبين، فلا يلائمها الأدناس والأنجاس، ولذلك كانت أغذية أهل الجنة في غاية اللطافة والاعتدال، لم يكن فيها أذى ولا فضلة تستفذر، بل يتولد عن تلك الأغذية أطيب ريح وأحسنه، وأنيتهم في ذلك من الذهب وكذلك أمشاطهم، وأن مجامرهم من الألوَّة، والمجمر - بكسر الميم - هو الذي يوضع فيه النار للبخور ووقود مجامرهم الألوَّة والألوية، هو العود الهندي»³.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1188، رقم الحديث: 3081

² - المصدر نفسه، ج3، ص: 1185، رقم الحديث: 3074

³ - انظر: ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج2، ص: 350

وفي حديث زيد بن أرقم، قال جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم نزع من أهل الجنة يأكلون ويشربون، قال: نعم إن أحدكم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع، قال الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة أذى، قال تكون حاجة أحدكم رشحا يفيض من جلودهم كرشح المسك»¹

وتصوير رشحهم، أي عرقهم بمثل المسك، أي رائحة المسك، والمراد رائحة عرقهم رائحة المسك فهو تشبيه بليغ، وفي ذلك إظهار للأمور الغيبية في صورة حسية وتقريب المعنى إلى السامع والقارئ، وكان سلفنا الصالح من هذه الأمة ضاربين أروع الأمثلة في ذلك.

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تحتاج الجنة والنار، فقالت النار: أو ثرت بالمتكبرين والمجبرين، وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسَقَطُهُمْ، قال الله تبارك وتعالى للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشياء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشياء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار: فلا تمتلئ حتى يَصْعَ رِجْلُهُ فتقول: قط، قط، فهناك تمتلئ ويُرْوَى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله عز وجل من خلقه أحدا، وأما الجنة: فإن الله عز وجل ينشئ لها خلقا»².

الحديث بدأ بصورة مجازية من قبيل الاستعارة المكنية في قوله عليه الصلاة والسلام: "تحتاج الجنة والنار" ولفظ تحتاج دال على التخاصم، والحجة ما دافع به الخصم والمألوف بين الناس أن تحتاج يكون بين الأشخاص، أما وقوعه بين الجنة والنار فهذا من الاستعارة حيث شبهت الجنة، والنار بشخصين يفكران ويتحاجان، وأطراف الاستعارة تقوم على أن المستعار منه، هو الإنسان حذف وابقى لازما من لوازمه وهو المحجة، والمستعار له: الجنة والنار، وهي استعارة من قبيل المحسوس للمعقول، وذكر ما يناسب المستعار منه "الإنسان"

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج 4، ص: 2180، رقم الحديث: 2834

² - صحيح البخار، مصدر سابق، ج 4، ص: 1836، رقم الحديث: 4569

وهذا ما يجعلها استعارة ترشيحيه، وهذا الضرب من الاستعارة أكثر بلاغة، والترشيح يكمن في قوله عليه الصلاة والسلام: " فقالت النار...وقالت الجنة" وكذلك في خطاب الله عزّ وجلّ لهما، إلى جانب قول النار: " قط، قط، قط " ثم أن في المحاجة "لا بد من وجود العلم مع الكلام، لأن المحاجة تقتضي التفتن لوجه الدلالة"¹ وهذه كله يركز صفات المستعار منه في المستعار له.

أما في قوله: حتى يضع رجله" أي يذلّلها تذليل من يوضع تحت القدم" بما فيها من كفار ومنافقين، أما قول النار " قط قط قط" قيل أن ذلك صوت النار، والمراد منه "حسبي أي يكفيني".²

والقرآن الكريم في تصويره للجنة والنار، وظّف أسلوب الاستعارة، بغية تشخيص المعاني وإخراجها في صورة حسنة في كثير من الآيات من أجل تقريب المعاني إلى الذهن المتلقي.

والرسول صلى الله عليه وسلم سار على نفس الأسلوب، فكان للاستعارة أثرها في ذلك، خاصة الاستعارة المكنية، التي كان لها دور في تصوير الأمور الغيبية والمعنوية مثل ما جاء في الحديث السابق.

ومما جاء في بيان جزاء المؤمنين الذين حسن إيمانهم وأعمالهم وصدقوا المرسلين ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم، كما تتراءون الكوكب الدُرِّيَّ الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، ليتفاضلوا بينهم، قالوا: يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى، والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»³

¹ - القسطلاني، إرشاد الساري، مصدر سابق، ج1، ص: 487

² - انظر: صحيح البخاري، بشرح الكرمانلي، مصدر سابق، ج18، ص: 105

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1188، رقم الحديث: 3083

والغُرف أعلى مراتب الجنة يبلغها المؤمنون الذين تَبَوَّأُوا الدار والإيمان، فهم يمثلون الصفة البشرية، والرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث يبين مراتب أهل الجنة بحسب مكانهم من الفضل، فأهل الإيمان يتَبَوَّأون الغرف العالية، حتى أن عامة أهل الجنة ينظرون إليهم وإلى منازلهم العالية، فيرون سلالاً عرفهم وفرط نورها وضياؤها وحسنها، ولقد كانوا في الدنيا من صفوة الناس بما تتطوي عليه صدورهم من التقوى وخشية الله يتراءون في الآخرة كذلك صفوة الناس، بما أعد لهم من رفعة وتكريم ونعيم مقيم.

ودلالة "بلى" في هذا السياق أن « هذا الحرف " بلى " التي أصلها حرف جواب وتصديق وليس هذا موضعها، لأنهم لم يستفهموا وإنما أخبروا أن تلك المنازل للأنبياء عليهم السلام لا لغيرهم، فجواب هذا يقتضي أن تكون " بلى " التي للإضراب عن الأول وإيجاب المعنى الثاني، فكأنه فيها فوضعت بلى في موضع بل»¹

وفي هذا التصوير متعة للعين، ومتعة الشم والإحساس، وإذا الصورة البصرية هي الأكثر شيوعاً، وأكثر استعمالاً، وقد ركز عليها البلاغيون العرب أكثر من غيرها باعتبار البصر أكثر الأمور وضوحاً، غير أن السياق مثلاً قد يفرض صورة أخرى من التصوير يحتاج إليها الموقف الشعوري مثلاً، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "ريح الولد من ريح الجنة"² وفي حديث آخر يتناول الجوانب الداخلية لأهل الجنة وفي ذلك ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير»³

شبه عليه الصلاة والسلام أفئدة أقوام ممن يدخلون الجنة بأفئدة الطير في الرقة والضعف، وقيل في الخوف والرغبة، وقيل لأنهم متوكلون على الله، كتوكل الطير عليه

¹ - العيني عمدة القارئ، مصدر سابق، ج15، ص: 159

² - محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف جامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، عام 1408، رقم الحديث: 3670

³ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2183، رقم الحديث: 2840

والطيور شديدة الخوف والفرع، تخاف من أي حركة، أو صوت، المؤمن خائف من ربه دائم المراقبة، يرجو رحمته، خائف إذا سمع آيات العذاب والوعيد.

وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدر يرضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يقول الله: من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجوه، فيخرجون قد امْتَحَشُوا وعادوا حمما، فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، أو قال: حمية السيل - وقال النبي صلى الله عليه وسلم - ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية¹، ولفظ "امتحشوا" احترقوا، والمحش احتراق الجلد وظهور العظم، وأما قوله "حمما" فإن المراد منه صاروا سود الأجسام كالحمم، وهو الفحم.

وصورة التشبيه في الأحاديث النبوية ، وردت كثيرة نظرا لما تقوم به من وظيفة هامة في توضيح المعاني، والتقريب بين المشبه والمشبه به نتيجة للعلاقة التي تربط بينهما، وهذا الربط يعطي للصورة نوعا من التحديد والدقة والوضوح لدى القارئ والسامع، ومن ذلك ما ورد في الحديثين السابقين حول عتقاء الله من النار، الذين يرسل الله تبارك وتعالى إليهم فيخرجون وقد امتحشوا وصاروا فحما.

يصور عليه الصلاة والسلام هذا المشهد الذي يمثل نباتهم، كما تنبت الحبة في حميل السيل، ولهذا المشهد اختار عليه الصلاة والسلام صورة التشبيهية من أجل تقريب المعاني الغيبية إلى الذهن وإخراجها في صورة حسية مألوفة في حياة العرب، والمعنى المراد من ذلك أن من كان في قلبه مثقال حبة من إيمان يخرج من ذلك الماء نضرا حسنا منبسطا متبخترا، كخروج هذه الريحانة من جانب السيل صفراء ملتوية.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق: ج5، ص: 2400، رقم الحديث: 6192

والمراد من قوله: "حميل السيل" سرعة النبات وحسنه وطراوته، والثابت أن الطمي أكثر التربة خصوبة، «وطمي النبت: طال وعلا»¹ وحتى يوضح عليه الصلاة والسلام المعنى أكثر، نجده يكرر هذه الصورة. لكن مع شيء من التفصيل مما يساعد على تجليلها وجعلها وكأنها منظورة أمام العين، فيقول عليه الصلاة والسلام: «..ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حمما، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصفِرُ وأخْيَضِرُ، وما يكون منها إلى الظلّ يكون أبيض، فقالوا: يا رسول الله! كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله..»²

والحديث يصور حالتهم في أول خروجهم من النار، حيث أنهم يماثلون الفحم من شدة الاحتراق، صورة بليغة يوضح فيها عليه الصلاة والسلام حال الخارجين من جهنم، ومن جانب آخر يظهر عليه الصلاة والسلام كرامات يهبها لهم ربهم تعالى فضلا وكرما منه على عباده، أنه يخرجهم من النار بعد ما امتحشوا ويلقى بهم في نهر الحياة، ثم الإنبات من جديد فيخرجون من هذا النهر كاللؤلؤ، بعد ما كانوا قد امتحشوا وتفحموا، فإذا بهم مثل اللؤلؤ في البياض والبريق وذلك كله فضل منه تعالى على عباده. يخرجون هؤلاء بهذه الصفة وفي رقابهم الخواتم يعرفهم بها أهل الجنة بأنهم عتقاء الله، ثم يغطيهم كل ما يجدونه مما يرونه في الجنة مما جعلهم من شدة تنعمهم وبلوغهم الغاية من السرور يعتقدون أن الله تعالى أكرمهم بما لم يكرم به غيرهم من رضوانه، فلا يسخط عليهم بعد هذا أبدا ،

الملاحظ في الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام قد جعل الله نبات أجسام بني آدم كنبات الأرض، وحياتهم من الماء، فنشأتهم الأولى: من الماء دافق يخرج من بين صلب

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج8، ص: 205

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 171، رقم الحديث: 183.

الرجل وترائب المرأة، ونشأتهم الثانية: من قبورهم من الماء الذي ينزل من تحت العرش فينبتون فيه كما ينبت النبات حتى تتكامل أجسامهم ، ونبات من يدخل النار ثم يخرج منها من الماء نهر الحياة، فيخرجون منها وقد ذهب اسوداد جسدكم وعادة إليهم نضراتهم مرة أخرى فسبحان الله العلي القدير، وبهذا ينهي الموقف حيث أزلت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين¹.

ولقد تناول الأدب النبوي الشريف "وصف الجنة والنار ما لا يسبقه في دنيا البيان غير وصف القرآن » لقد تحدث الرسول عن كليهما بإسهاب شاف واف ، وحديث الرسول عن دار الثواب ودار العقاب مما يجب أن يتكرر في عظاته دون ملال... ولكن البراعة أن يضطر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى إعادة ما قال، فما يسأم كما يسأم المعيدون، بل يحاول أن يظهر حديثه المعاد في ثوب بياني جديد ليضيف بعض الطريف إلى تليد ما قال²

والحديث عن الجنة حديث كمال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال تعالى: أعددت لعبادي الصالحين: "ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر"»³ هذا الوصف النبوي الشريف الذي أصبح في إطار المثل السائد في وصف الجنة، هذا التركيب على قلة ألفاظه، رسم للمؤمن صورة تكاد تكون مرئية ، ولذلك كانت الجنة وسوف تظل الغاية التي يسعى إليها كل إنسان فهي " لا تدع في النفس بعدها للمؤمن من مأمل، فكل ما أمكن أن يتخيله التصوير الإنساني من نعيم ومتعة يندرج تحتها لا محالة وذلك بعض ما يعطيه الأدب البليغ إذ يشبع النفس امتلاء وارتواء بألفاظ معدودات والرسول في ذلك مشابه كثيرة، ومنها في وصف الجنة أيضا، هذا الحديث المعبر « إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم "وظل ممدود"، ولقاب قوس أحدكم

¹ - انظر: محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، مرجع سابق، ص: 161.

² - المرجع نفسه، ص: 161

³ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج 1، ص: 1185، رقم الحديث: 3072

في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت»¹ إن الشمس لتطلع وتغرب على الدنيا جميعا بما تحوي من فنون البهجة والإمتاع وكل ما يتطلب²

وبعد هذا الوصف لنعيم الجنة من خلال الصورة البيانية التي أظهر من خلالها عليه الصلاة والسلام الحقائق الدينية الغيبية في شكل بديع، معتمد على الصورة الحسية، بغية تقريب الجوانب الغيبية إلى العقول والأذهان.

هذا التصوير يكشف على أن الأدب النبوي أدب رفيع، وفن بديع يندرج في مقاصد الدين ويدركها إدراكا حسيا عاطفيا، وأن لغته التصويرية تشكل عالما وجدانيا فسيحا، تتوافق مع الوظيفة الدينية التي هي غاية كل الوظائف. ومن ثم فإن الصورة في الخطاب النبوي الشريف تختلف من حيث الوظيفة والغاية عن الخطاب الأدبي، فالأدب غايته فنية خالصة تكمن في الغالب على تزيين الكلام وتحسنه، في حين تكون الصورة في الأدب النبوي الشريف في وظيفتها هي الحقيقة، حقيقة الجنة التي وعد الله بها، ومن أجل ذلك تسعى الصورة البيانية إلى الإقناع، والتمكين، والتأثير والترغيب وذلك في ضوء التوجيه الديني، إلى الناس عامة وإلى المسلم خاصة.

ثانيا: صورة النار والعذاب في الخطاب النبوي الشريف

إن الحديث عن النار والعذاب في جهنم وأهوال يوم الآخرة، حديث تتقاطر له الأكباد، وتتفجر منه القلوب، وتضطرب له النفوس رهبة وخشية أن يكون المرء من أهلها.

النار هي الدار التي أعدها الله للكافرين والمتمردين على شرعه، والمكذابين لرسوله، هؤلاء لهم عذاب عظيم يعذب فيها أعداء الله ورسوله، وهي الخزي الأكبر والخسران الأعظم، الذي لاخزي بعده، ولا خسران مثله، أو أعظم منه، فيها من الآلام والأحزان ما تعجز الألفاظ عن وصفه، وأهلها مخلدون، إما خلود أبدي، وإما خلود أمدى.

¹ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 1187، رقم الحديث: 3081.

² - محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، مرجع سابق، ص: 162.

والنار في اللغة: تقال للهب الذي يظهر للحاسة، وللحرارة المجردة، وجمعها أنوار، وأنيار، ونور ونيار،» وفي رواية سيبويه: يجد حطبا جزلا ونارات، والجمع أنور ونيران انقلب الواو ياء لكسرة ما قبلها ونيرة ونور ونيار، الأخيرة عن أبي حنيفة، وفي حديث شجر جهنم فتعلوهم نار الأنيار»¹

وفي الاصطلاح: هي التي أعدها الله سبحانه لمن عصاه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾² أو هي مكان العذاب الخالد الذي أعده الله تعالى للعباد العاصين، والخارجين عن النهج القويم، جزاء كفرهم وتكبرهم وعصيانهم وعليه فهي «الاسم العام المتنازل لتلك الديار وما استملت عليه من أنواع العذاب والشقاء والحزن والغم»³ والنار لها أسماء عديدة جاء ذكرها في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ومن أهم هذه الأسماء المشهورة، جهنم، الجحيم، السعير، السقر، الحطمة، الهاوية، وغير ذلك من الأسماء .

ويقوم على النار ملائكة خلقهم عظيم، وبأسهم شديد ،لا يعصون الله الذي خلقهم ،و يفعلون ما يؤمرون، قيل: عليها تسعة عشر ملك، وقيل: تسعة عشر صنفا من الملائكة، قيل: ملائكة جهنم ذوو طباع غليظة قد نزعت الرحمة من قلوبهم، عن عكرمة أنه قال: إذا وصل أهل النار إلى النار وجدوا على الباب أربعمئة ألف من خزنة جهنم سود وجوههم، كالحة أنيابهم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم.

فنار جهنم تغلي شدة وحرارة، قد ضوعفت سبعين مرة مما عليه نار الدنيا، وأي مخلوق يقوى على نار الدنيا حتى يقوى على احتمال نار الآخرة ؟، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ناركم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم، قيل:يا رسول الله ،إن كانت لكافية، قال: فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا كلهن مثل حرها »⁴ ولشدة ما عليه جهنم من الحر، فإن

¹ - ابن منظور، لسان العرب، مصدر سابق، ج14، ص: 323

² - سورة البقرة، الآية:39.

³ - أبو حاتم الرازي، الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، مطبعة الرسالة القاهرة، ط1، عام 1958م، ج2، ص: 202

⁴ - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج3، ص: 1191، رقم الحديث: 3092

أخف الناس عذاباً فيها إذا لفحته في أقدامه غلى دماغه من شدة الحر، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إن أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار، يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل، ما يرى أن أحداً أشدُّ منه عذاباً، وأنه لأهونهم عذاباً»¹ والحديث يحذر فيه عليه الصلاة والسلام العصاة بصفة عامة، والمشركون بصفة خاصة، من عذاب النار وشدتها وبالع أضرها، حيث أشار عليه الصلاة أن أخف أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل يقف على نار تبلغ الكعبين، حيث شبه ذلك بمن يلبس نعلين من نار، وأهون منه رجل يوضع تحت باطن قدميه الذي لا يصل الأرض عند المشي جمرتان من نار يغلي منهما دماغه ويفور "كما يغلي المرجل" المرجل بكسر الميم وفتح الجيم قدر من نحاس.

وفي رواية البخاري «إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة رجل، على أخمص قدميه جمرتان، يغلي منهما المرجل بالقمقم»² و«والقمقم بضم القافين، إناء من نحاس ضيق الرأس له عروتان غالباً يسخن فيه الماء، أو ما يستقى به من نحاس»³ والمقصود في الروایتين تشبيه غليان الرأس من شدة الحرارة، بغليان هذين الإناءين، وأن تشبهه بالقمقم "كما يغلي المرجل بالقمقم"⁴ ويرى بعضهم أن الباء في هذه الحالة بمعنى مع، وأجاز بعضهم أن تكون الرواية "بالقمقم" بكسر القافين، وهو يابس البسر وحينئذ يكون المعنى يغلي منهما دماغه كما يغلي القدر باليسر اليابس ويكون قد شبه تحرك أجزاء رأسه الداخلة بتحريك البسر في الماء عند الغليان.⁵

¹ صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 196، رقم الحديث: 213.

² صحيح البخاري، مصدر سابق، ج5، ص: 2400، رقم الحديث: 6194.

³ ابن منظور لسان العرب، مصدر سابق، ج11، ص: 310.

⁴ صحيح مسلم، مصدر سابق، ج1، ص: 196، رقم الحديث: 213.

⁵ انظر: شرح النووي على صحيح مسلم، هامش ارشاد الساري، مصدر سابق، ج2، ص: 188.

ومهما يكون الأمر فإن المراد من هذه الصورة إظهار شدة عذاب النار، في ذلك تحذير للعصاة والكفار من هول هذا العذاب بغية الابتعاد عن كل ما يؤدي إلى هلاك.

وبالنظر إلى طابع التصوير البياني الذي أعتمده عليه الصلاة والسلام في أداء معانيه، أنه جعل الصورة تتلاحم بفكرة الحديث، وتتفاعل مع صلب معناه، باعتبارها وسيلة تعبيرية تظهر الصورة وكأنها هي المعنى ذاته، وهذا ما يجعل الصورة البيانية عنصرا مهما في تشكيل الحديث، وفي أداء مهمته الرفيعة، ووظيفة الجليّة، في الدعوة إلى الله جلال جلاله والإيمان بما جاء به القرآن والحديث الشريف، والصور المرعبة المخيفة ما جاء في قوله عليه الصلاة والسلام حيث يقول: « يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتتدلق أقطاب بطنه، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، قد كنت أمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتية»¹

صورة غيبية تمثل مشهدا من مشاهد العذاب يوم القيامة من خلال الصورة التمثيلية التي تظهر العذاب رأى العين، في مشكل فضيع شنيع كئيب، وذلك عندما يؤدى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار وكأنه قطعة من الخشب فتتدلق، فهو يدور بأمعائه في جهنم كما يدور الحمار برحى الطاحونة، يتجلى منها الرعب في مشهد لا يعهد في الدنيا، حيث يدور المرء بأمعائه وكأنه أصيب بصرع، لا يدري إلى أين يتجه والأمعاء بين يديه، فهو يدور في حركة تدل على اليأس. والصورة « تبدي القبح في مغايرة المشهد للمعهود، وفي تشبيه الدوران بدوران الحمار حول الرحى مما يزيد في تصوير بهيمة المرائى وحياته الغريزية إذ يغدو عبدا لغرائزه، فضلا عن اندلاق الأمعاء، المثيرة للتقزز مع الرعب »² إنها صورة رهيبة تقشعر لها الأبدان وترتعد لها الفرائص، إنها صورة المشبه فه ذلك الرجل الذي اندلقت أمعاؤه من بطنه فأصبح يدور

¹ - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2291، رقم الحديث: 2989

² - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 663

بها على مرأى ومسمع من أهل النار فيجتمع حوله أهل النار عليه وهم يسألونه مستغربين عن سبب هذا العذاب وعن سبب ذلك المصير المشؤوم؟ يقولون له: ألسنت أنت فلان الذي كنت تأمرنا في الدنيا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ السنت أنت الذي كان يقضى أوقاته في الدعوة إلى الخير والبر والإصلاح؟ فيقول: نعم كنت آمركم بالخبر، ولكنني لا أفعله، وأنها كم عن الشر و أفعله.

وأما المشبه به فهو صورة الحمار الذي يدور بالرحى، صورة تمثيلية تمثل حالة بحالة، وهي صورة « بشعة حقاً لهذا النوع من العذاب، وجزاء موجه لهذا اللون من الذنب ولكنه أمر تتدر مشاهدة نظيره في الدنيا، فهو مع إمكانية وجوده، يمضى العمر من كثير من الناس وما رأوه مرة، ولهذا البعد لم يقدم من المحس المحض فاحتيج معه إلى التقرير بالتمثيل»¹

والبلاغة النبوية تزداد رفعة حين نتلمس الألفاظ وبناء الأفعال ومن ذلك بناء الفعلين يؤتى، يلقي للمجهول وفي ذلك دلالة على الإكراه والحمل على الفعل، وكل كرية للنفس تساق إليه سوقاً، ثم أن الفعل "يلقى" فيه من الدلالة على أنه حطب يلقي ب يطابق.

وأما اختيار هذا الحيوان من سائر الحيوانات ففيه من الدلالة على المبالغة في تحقير هذا الرجل وإنزاله منزلة الحيوان بعد أن جرد من أهم مميزاته التي يمتاز بها الإنسان العقل والفكر، لقد كشفت الصورة حقيقة هذا الرجل فجاءت موضحة للجريمة والعقاب، فكان الجزاء من جنس العمل ألم يكن يبطن الجرائم، ويظهر الصلاح والفلاح والتقوى، فالיום يفتضح وينكشف حتى يعجب لافتضاحه من لاحق له أن يعجب ويتساءل عن ذنبه²

ولاشك أن خيال السامع عندما يصل إلى الصورة بعد تلك التوطئة يكون في قمة نشاطه، لأن متابعة حال الرجل لم ينبثق مع ولادة الصورة، وإنما مهد لها من خلال استحضار

¹ - كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص: 168

² - انظر: المرجع نفسه، ص: 170

الأحداث من المستقبل إلى الحاضر ، وبتوظيف الفعل المضارع ، ومن خلال التركيز على الفعل والمفعول به ببناء فعلين التوطئة للمجهول "يؤتى، بلقي"¹ والصورة التشبيه جاءت مفردة صريحة، كما هو واضح تناولت صور غيبية.

ومن الأحاديث التي تناولت شدة الحر وشدة الزمهرير ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر من فيح جهنم، واشتكت النار إلى ربها، فقالت: يا رب أكل بعضي بعضا، فأذن لها بنفسين، نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فهو أشد ما تجدون من الحر، وأشد ما تجدون من الزمهرير»² والواضح من هذا الحديث أنه يقوم على استعارة حيث تستعار فيه الصفات الإنسانية للنار، بدلالة "اشتكت النار" و " أكل بعضي بعضا" و "تنفسها في الشتاء والصيف" وإذا نظر إلى النفس فهو ما يخرج من صدر الإنسان أو يدخل فيه من الهواء، « فأشد ما تجدونه من الحر من ذلك، وأشد ما تجدونه من الزمهرير من ذلك النفس، ولا مانع من حصول الزمهرير من نفس النار، لأن المراد من النار محلها، وهو جهنم وفيه طبقة زمهريرية، والذي خلق الملك من الثلج والماء قادر على جمع الضدين في محل واحد»³ وكذلك صفة الشكي، لأن الشكي يكون في العادة من الذي يشتكي وجعا، أو ألما " الشين والكاف والحرف المعتل أصل واحد يدل على توجع من شيء، والشكي: الذي يشتكي وجعا»⁴

فالنار في هذا النص مخلوق كانت له متاعبه، مما يدفعه إلى الترجي والتوسل إلى الخالق عز وجل، فهي على وشك الاختناق من شدة الحر وعذاب الزمهرير فيها، وفي ذلك إيضاح لهول جهنم، وأيضا فيه من الإيحاء لما سيكابده الكافر والعاصي فيها من عذاب، لأن العذاب يوم القيامة بالحرارة يكون للعباد، وأما تأخير العذاب بالزمهرير ،لأن هذا الأخير

¹ - اكمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، مرجع سابق، ص:169.

² - صحيح البخاري، مصدر سابق، ج1، ص: 199، رقم الحديث: 512

³ - القسطلاني ، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، مصدر سابق، ج1، ص: 132

⁴ - ابن فارس، مقاييس اللغة، مصدر سابق، ج3، ص:207.

المشهود»¹ خاص بالشياطين « وهذه النار لا تشبه نار الدنيا بدلالة احتوائها على الزمهرير، فقد أمكن هناك اجتماع النقيضين: الحر والبردة وهذا مما يقرب تصديق الكلام لها إلى العقول، ويلحظ في النص النقلة من الحوار ومشهد في عالم الغيب إلى تصور الحرارة والبرودة في العالم وفي ذلك مخاطبة العباد بما يألّفونه في حياتهم من الأشياء المأخوذة من واقعهم المحس.

ومن صور التشبيهية أيضا التي تناولت أهل النار ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسياہ عاريات، مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»² وفي رواية أخرى: «وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام»³ والحديث يظهر أن هناك صنفين من أمتة لم يرهما، عليه الصلاة والسلام، وسيأتون بعده، ونعتقد أنه قد حدث ما أخبر به المصطفى عليه الصلاة والسلام، وإن ما نشأه ونسمع به خير دليل على ذلك وهؤلاء الصنفان من أهل النار.

الصنف الأول: هم الظلمة الذين يعتدون على خلق الله وعباده بالضرب والإهانة والتعذيب والتكيل بدون سبب، وربما كان ذلك رغبة في التعالي، والترفع، وإشباع نفوسهم المتعطشة إلى الدماء وتعذيب الأبرياء.

وصف عليه الصلاة والسلام هؤلاء بالظلمة، وكأنه يشاهدهم ويراهم وهم يعتدون على الناس، ومعهم تلك السياط الغليظة، التي تشبه أذناب البقر في غلظتها ومتانتها أو في قسوتها.

¹ - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي، مرجع سابق، ص: 476

² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج3، ص: 1680، رقم الحديث: 2128

³ - المصدر نفسه، ج4، ص: 2192، رقم الحديث: 2156

وأما الصنف الثاني: فهو "النسوة الفاجرات اللواتي خالفن تعاليم الدين والآداب وأخلاق الإسلام، فخلعن ملابسهن وكشفن عن سواعدهن، إلى جانب الملابس الرقيقة والدقيقة التي لا تستر جسدا، مما يزيد في الفتنة والإغراء، صورهن عليه الصلاة والسلام بصورة من تعتمد إثارة الفتنة وإغراء الرجال، خاصة في المشية، فهي تدعو إلى نفسها وهذا هو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام "مميلات مائلات" "أنهن مائلات في مشيتهن مميلات لقلوب الرجال، يقصدن إثارة الشهوة في قلوبهم"¹ ثم أشار عليه الصلاة والسلام بأنهن يصففن شعورهن حتى يصبح شعر الوحدة منهن مثل سنام الجمل، في ارتفاع وقد وضعت عليه أنواع الزينة.

ونهاية الحديث كانت بما يفرع القلب فقال: "لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها" وأي عذاب أشد من هذا العذاب، أن يحرم الإنسان من نعم الجنة ولا يجد ريحها أنه أكبر عذاب يصاب به الإنسان والصورة التشبيهية من المحسوس بالمحسوس.

وما يكن قوله في الصورة التي تناولت يوم الآخرة وجههم وأهوالها إلا القول أنها كشفت عن العذاب ورصد أنواعه المختلفة، فقدمت الصورة البيانية بإظهار ذلك في أكل أهل جهنم وشرابهم وفرشهم، فهي جحيم ونيران، لا تقنى أعدها الله لكل جواط "كافر" عتل مستكبر إذا ذكر لا يذكر، وإذا وعظ لم يتعظ، وإذا سمع آيات القرآن اتخذها هزوا ولعبا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «..ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا: بلى، قال: كل عُتْلٍ جَوَّاطٍ مستكبر»².

فالإنسان المؤمن يشعر بقوة حين يرجع فكره وشعوره وسلوكه إلى مصدر واحد هو الله الذي هو المصدر نفسه الذي يرجع إليه الكون والحياة، حينئذ يشعر بقوة الارتباط بخالقه، وهكذا أصبحت كل القضايا الفكرية واضحة ومفهومة في ذهن العبد، وعلى أساسها كان الخطاب النبوي الشريف بغية توضيح هذه الحقائق الدينية من خلال الوظيفة الدينية وأداته في ذلك والمفضلة في التعبير هي الصورة البيانية

¹ - محمد على الصابوني، من كنوز السنة، مرجع سابق، ص: 114
² - صحيح مسلم، مصدر سابق، ج4، ص: 2190، رقم الحديث: 2853

الخاتمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله، وصحبه أجمعين.

وبعد فقد طال بي المسير في صحبة البيان النبوي، والتأمل فيما اشتمل عليه من صور فنية اتسمت بالروعة والجمال.

ومع ذلك أشعر بأنني أمام بحر زاخر بآيات الحسن والإبداع بلاغة، وفصاحة، تسمو علواً على كلام البشر، فكلما اعتقدت أنني وصلت إلى المراد، ألفتني في شوق إلى المزيد من هذا المعين الذي لا ينضب، ولكن لكل شئ غاية وأمد ينتهي إليه، وقد بذلت من الجهد ما رأيت أن ثمرته تكفي أن تكون شاهداً، على بلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي امتاز بها، وكان أهم ما توصلت إليه في هذه الدراسة هو:

1- إذا كان القرآن الكريم أسمى أنواع البيان، لأنه كلام الله المعجز، فإن الحديث النبوي الشريف، يأتي في المقام الثاني، لأن بلاغته في أعلى طبقات البلاغة الإنسانية، فهي بين الإعجاز القرآني، وبلاغة البلغاء

2- إن أسباب بلاغته عليه الصلاة والسلام، تجمعت فيه خلال كثرة، ثقفت لسانه وزينت بيانه، وجعلته تاج الفصحاء وسيد البلغاء، فقد نشأ في أمة صناعته البيان، والفصاحة أكبر أمرهم، والكلام سيد عملهم، نشأ نشأة لغوية في بيئة نقية صافية تموج بالبلاغة والفصاحة، التي صقلت موهبته، إلى جانب التمكين الإلهي والإعداد الرباني، ثم أثر القرآن الكريم في تكوينه البلاغي، في معانيه، وفي ألفاظه، وبناء صورته.

3- إن الخطاب النبوي الشريف، جامع لكل أنواع التصوير البياني، وإن هذه الأساليب التي تضمنها واحتواها تعبر بصدق عن المعاني المقصودة بشكل يتوخى إظهار المعنى وعرضه في مشهد مرئي مائل للعيان، حتى يكون أقوى في تأثيره في المتلقي.

4- إن التشبيهات النبوية المفردة ، جاءت منتشرة في الصحيحين، وقد اشتملت على مساحة كبيرة، وهي أكثر من غيرها من الصور، تتجه إلى إظهار التفاعل والاتحاد بين الطرفين ، وإلى المقارنة والموازنة المؤثرة، وتناولت موضوعات مختلفة حسب المقام، فكان لها الأثر الطيب، حثا على الفضيلة، وترغيبا فيها، أو تحذيرا من الرذيلة وتنفيها عنها، ووصف الدنيا وأحوال أهلها، والآخرة وما فيها ، من نعيم الجنة، وعذاب النار، إلى جانب موضوع العبادات وفضائل الأعمال.

وقد تنوعت التشبيهات المفردة بين التشبيه الظاهر، والضمني، إلا أن التشبيه الضمني كان قليل الوجود، وبني الظاهر في الغالب على " الكاف " ، وقلت التشبيهات التي بنيت على " مثل، وكأن، من دون روابط "، وأما التشبيه الضمني، فقد تبين أنه مبني في الغالب، على أسلوب التفضيل.

5- إن التركيب اللغوي يزيد من قوة الصورة التشبيهية، عند تقديم المشبه به على المشبه، أو عدم التصريح بذكرهما ، بل يلحان في المعنى ، مما يستوجب نوعا من التأمل وإعمال الفكر.

6- وقد بين البحث، أن الصورة التشبيهية المركبة تزداد قوة وتأثيرا في المتلقي، لأنها تتشكل من عناصر فنية، سواء على مستوى اختيار اللفظ ، أو من خلال الإيجاز، أو من الطبيعة الحية، وقد تُتبع بالإشارة، والإشارة في الحديث النبوي لا تدل على ضعف في التعبير، وإنما تدل على أسمى غايات التصوير، لأنها تقدم الجانب الحسي بغية تثبيتها في النفس.

7- الخطاب النبوي الشريف جامع لكل أنواع الاستعارات، وقد تبين ذلك من خلال الاستعارة المفردة، والمركبة، وما يتفرع عنهما من أنواع، وقد ظهر لنا أن بناء الصورة الاستعارية في الحديث النبوي الشريف، مبنية على التشبيه في الأصل، وترتبط به من حيث قدرتها على التصوير والتقديم الحسي للمعنى

8- ومن خلال التحليل، تبين لنا أنه على صعيد الاستعارة التصريحية، في الحديث النبوي الشريف تتبلور تعاليم الرسول صلى الله عليه، في توظيف هذا النوع من الاستعارة في عدد غير قليل من الأحاديث، حيث أظهرت المعاني والأفكار بصورة حيوية مؤثرة في مقام استعمالها، بما لا يستطيعه التعبير المباشر، أو الأسلوب التقريري، كما تحمل في طياتها إichاءات، إلى جانب أن التفاعل، بين الاستعارة والإطار المحيط بها، يثير ألوانا من الدلالات النفسية والفكرية المؤثرة في المتلقي، وأحاسيس ومشاعر متنوعة بحسب المواقف، ثم أنها تنوعت في الحديث النبوي الشريف، فجاءت حسية وعقلية، وأصلية وتبعية، وبين مرشحة ومطلقة ومجردة وغيرها، وقد تقوم على الاقتباس من القرآن الكريم، فتأتي بلفظها فقط، وربما تأتي بلفظها ومعناها، مما يعطي قوة التأثير أكثر في المتلقي.

9- وقد اشتمل البيان النبوي على صور كثيرة للاستعارة المكنية وما يتفرع عنها وكان لها دور بارز في شرح المعاني من خلال التجسيم والتشخيص، فجسمت الأمور المعنوية في أجسام ظاهرة للعيان، مما يدعو إلى التأمل ومعرفة أسرارها، كما هو الحال في استعارة (بني الإسلام).

وتقوم على التشخيص، والتشخيص طريقة فنية تعطي الحيوية التامة، لأن المعاني التي لا تقع تحت الحس، والجمادات التي لا تعقل، والظواهر الطبيعية، جميعها تتحول إلى كائنات حية تتجاوب مع الإنسان وتتبادل معه والشعور (جبل أحد يحبنا ونحبه)

10 - ثم تبين أيضا أن الاستعارة التجسيمية أكثر ورودا في الاستعارة المكنية مقارنة بالاستعارة التشخيصية، لأنها تتناول المعاني المختلفة مثل الدين، والإيمان فضائل الأعمال الطيبة، والأفعال المنكرة، وبعض صور العالم الآخر.

11- وتبين لنا أن الاستعارة التمثيلية، تجري في التركيب، فهي المنتزعة من عدة أمور، ومن هذه الاستعارات ما بلغت حدا من الإيجاز، والشهرة بين الناس، فأصبحت مثلا سائرا، وشعت هذه الاستعارات بألوان من الدلالات الفكرية والنفسية، مما يكون لها أثرها الخاص في المتلقي.

ثم تبين لنا أيضا أن الاستعارة التمثيلية، انفردت في التعبير عن العالم الغيبي، مثل عالم الشياطين، فصورته بدقة الأفعال القبيحة والسيئة، في كل المواقف، مبتغيا بذلك إضلال الناس عن طريق الهدى وصرفهم عن وجه الله.

12- والجانب الآخر من البيان النبوي يتمثل في المجاز بنوعيه، العقلي والمرسل، حيث تبين لنا وقوعه في الحديث النبوي الشريف، وقد وقفنا عند نماذج متعددة تبين ذلك، وأن الوظيفة الأساسية التي ينهض بها المجاز، أيًا كانت علاقته، هي المبالغة لمزيد الترغيب، أو الترهيب، إلى جانب الكشف عن بعض الخصائص النفسية، ولعل التصوير والإيجاز، سمتان رئيستان للمجاز في الحديث النبوي الشريف، وربما جاء بناء الصورة المجازية على أسلوب الحوار وذلك بغية استثارة السامع وتشويقه، وفي ذلك ترسيخ للغاية في النفس والعقل.

13- بين البحث أن الكناية بكل أنواعها وفروعها، جاءت في الحديث النبوي الشريف، وأن ظهورها في الحديث يختلف من نوع إلى آخر، والواضح أن النبي صلى الله عليه وسلم، يستخدم الكناية عن الصفة أكثر من غيرها، لأنه يسعى إلى إيصال المعاني إلى المتلقي، وهذه المزية تتحقق في هذا النوع من الكناية .

14- ثم تبين أيضا أن الصورة الكنائية، تتسم بطابعها الحسي، وأن أهمية الحس عظيمة في معاملة النفس، وأن الحس مكنم التصوير ومحل الذوق الجمالي الرفيع، وأن اللغة المهذبة مصدر إحياء، وأن العدول عن الحقيقة كان لغاية، فقد كان صلى الله عليه وسلم، حريصا كل الحرص، على إيصال مفاهيمه إلى الجميع دون جرح العواطف، أو

خدش المشاعر، أو اشمئزاز النفوس، لذلك وظّف عليه الصلاة والسلام الصورة الكنائية، لأنها تملك تلك القدرة على التعبير الموحى والمهذب في وقت واحد، كما نستنتج أن أغلب الصور الكنائية في الحديث النبوي الشريف، كان توظيفها للتهذيب الديني وسمو العبارة وأدبها.

15- وقد تبين لنا أن الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف تميزت بطابعها الديني في تشكيلها المعتمد على أسس وقواعد الدين الإسلامي، وأن أنواعها تدور حول المركزية لبيان حقيقة هذا الدين، ولذلك وظّف البيان النبوي روايد متعددة من الوظائف لإيضاح هذه الحقيقة الدينية.

16- وقد تبين لنا أن الوظيفة النفسية في البياني النبوي، لا تكتفي بالتأثير في المتلقي بالترغيب، أو الترهيب، وإنما تسعى إلى بناء النفس الإنسانية المتوازنة التي تدرك الحقائق، فهي تهزّ أعماق الإنسان بالترغيب، والترهيب لتوقظ فيه التأمل والتفكير في حقائق الحياة والوجود والإنسان، من خلال المشاهد المعروضة والصور المشخصة والأحداث الواقعة، ومشاهد القيامة، والحساب والعقاب، ونعيم الجنة ومراتبها، فتفتح النفس لتستقبل هذا التأثير عبر الفكر والوجدان والعقل والشعور.

فإثارة المتلقي بحقائق الحياة الحسية المعروضة من سمات البيان النبوي الشريف، لأن صور الحياة المعروضة ليست صوراً شكلية خالية من المضمون، أو أنها تسعى إلى التأثير العابر، بل تسعى إلى توضيح حقائق أساسية في حياته، لهذا كانت الصورة البيانية في الحديث النبوي بهذا التأثير في النفوس المؤمنين والكافرين على السواء.

وقد أظهر البحث أن التقزز من القبح لا يتوقف عند هذا الحد فحسب، بل يثير مشاعر التقزز مقروناً بالرعب، بغية الترفع عن الخطايا، وأنه لا يقصد القبح لذاته في البيان النبوي الشريف، وهذا طبيعي في فن ديني.

17- وتبين لنا أيضا أن بناء الإنسان من الناحية النفسية، لا يقل أبدا عن بناء الإنسان من الناحية الأخلاقية، لأن الصورة البيانية في الأحاديث النبوية، تأتي للتأثير والتوجيه الأخلاقي نحو القيم الخيرية ، ومن زاوية ثانية تظهر الوجه الآخر المذموم، وتظهر في ذات الوقت أن الجزء من جنس العمل ، لامتناعه عن الإحسان والبر والخير، فتجرد هذه الصفة المذمومة من كل لبوس قد يعتذر به، ثم إن هذه القيم تقوم على المقابلة بين المنفق والبخل، وبين الجليس الصالح وجليس السوء، و بين الصدق والكذب، وغير ذلك من القيم الأخلاقية، لأن الدين الأخلاق، وأكمل المؤمنين إيماننا أحسنهم خلقا .

18- وأما الوظيفة التربوية فقد تبين لنا أنه عليه الصلاة والسلام قد استخدم أساليب متعددة في توجيهه وإرشاده وتعديله سلوك صحابته، رضوان الله عليهم أجمعين، فقد تفاوتت هذه الأساليب ما بين تعليم بالقُدوة الحسنة والخلق العظيم ، وبين تعليمه بالحوار والمساءلة، وبين تعليمه بالقصة ورواية الأخبار، أو تعليمه بالتكرار وإعادة الكلام، وكذلك ضرب الأمثال، أو عن طريق مساءلة أصحابه بغية الكشف عن ذكائهم، أو إجابة السائل عما سأل، وغيرها من الأساليب التربوية التي اعتمدها عليه الصلاة والسلام .

ومن خلال هذه الأساليب التربوية تظهر أهمية الصورة البيانية حيث يتحول التأثير في المتلقي إلى منجز فعلي في السلوك الإنساني، لأن التأثير بمختلف أنواع البيان، الذي يخاطب الوجدان، ويخاطب في الإنسان إنسانيته، ومشاعره المختلفة، ويتجه به إلى الإقناع، وإذا اقتنع بها، استقرت فيه، وحينئذ يقينا ، تتحول بعد ذلك إلى سلوك فعلي متبع.

19- وأخيرا فقد تبين لنا أن أهم وظيفة يقوم بها التصوير البياني، ويهدف إليها، هي الوظيفة الدينية، فيها تصب كل الوظائف المختلفة وتجتمع ، وهي تهدف إلى تعريف الإنسان بخالقه، وتدعوه إلى الإيمان به، وبكل ما جاء به القرآن الكريم، من الإيمان بالله وملائكته، ورسوله، والقضاء والقدر، واليوم الآخر، والجنة والنار .

وقد تبين أن هذه هي أهم الأصول التي يقوم عليها الدين، بل لا إيمان لأحد إلا بها، وهي أصول مترابطة متلازمة، لا ينفك بعضها عن بعض، فالإيمان ببعضها مستلزم للإيمان بباقيها، والكفر ببعضها، كفر بباقيها، وتبين أن المعرفة بهذه الأصول، لا تتوقف عند المعرفة الذهنية، بل تتحول إلى إيمان، وسلوك، وفكر والتزام، في جوانب الحياة.

فلم تكن الصورة البيانية مجردة من الوظيفة، بل كانت تحمل رؤية إسلامية، لا يمكن اكتمالها إلا باكتمال كل الصور والوظائف المختلفة، وضيّم بعضها إلى بعض ضمن نظام العلاقة التصويرية والتعبيرية لتكتمل الرؤية الدينية. **

— و إذا كان لنا من توصية فإننا ندعو بتواضع، إلى استمرار البحوث والدراسات المتأنية، في البيان النبوي الشريف، لأن الدراسات البلاغية، لم تف الأدب النبوي الرفيع حقه، وتظهر مكانته الفنية في الأدب العربي.

الفهارس العامة

فهرس الآيات القرآنية

الرقم	الآيات القرآنية	السورة	رقم الآية	الصفحة
1	﴿ ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ﴾	الإسراء	39	2
2	﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا	ص	86	6
3	﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾	التوبة	119	6
4	﴿ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾	الطلاق	3	6
5	﴿: امثلهم كمثل الذي استوقد نارا..... ﴾	البقرة	17	6
6	﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾	ص	87	8
7	﴿كَأَنَّهُ هُوَ ﴾	النمل	42	34
8	﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ..... ﴾	البقرة	238	38
9	﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ..... ﴾	النور	35	58
10	﴿ مِثْلَهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا..... ﴾	البقرة	17	79
11	﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ..... ﴾	المائدة	2	84
12	﴿أَقُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ . ﴾	ص	88-86	89
13	﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْآيِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾	الغاشية	7	107
14	﴿هَذَا نُزْلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾	الواقعة	56	115
15	﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴾	طه	20	116
16	﴿وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا..... ﴾	مريم	4	116
17	﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾	ق	30	117
18	﴿وَأَيُّهُ لَّهُمْ أَلِيلٌ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ ﴾	يس	37	121
19	﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾	الفجر	13	121
20	﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ ﴾	الفرقان	23	123
21	﴿ سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴾	الملك	7	125

125	12	الإسراء	﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ آلِ إِيلَ﴾	22
128	64	التغابن	﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ.....﴾	23
130	44	النحل	﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾	24
130	97	مريم	﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ..﴾	25
143	175	الأعراف	﴿وَأَنْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا...﴾	26
145	20	البقرة	﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾	27
146	122	الأنعام	﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا.....﴾	28
147	112	النحل	﴿فَإِذَا قَهَّ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ.....﴾	29
147	16	السجدة	﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ.....﴾	30
174	24	النساء	﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ.....﴾	31
210	4	يوسف	﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَجِدِينَ.....﴾	32
211	18	النمل	﴿يَأْتِيهَا النَّמْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ.....﴾	33
211	40	يس	﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.....﴾	34
211	30	البقرة	﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ....﴾	35
212	77	الكهف	﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾	36
212	10	النساء	﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا.....﴾	37
212	42	المائدة	﴿أَكَلُونَ لِلْسُّخْتِ..﴾	38
212	69	النحل	﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ....﴾	39
227	91	آل عمران	﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ.....﴾	40
228	8	العاديات	﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ.....﴾	41
252	40	المائدة	﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا.....﴾	42
268	149	الأعراف	﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ....﴾	43
268	12	الممتحنة	﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِهِمَا يَفْتَرِيَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ...﴾	44

45	﴿أُولَئِكَ شَرُّ مَكَّانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا.....﴾	الفرقان	34	269
46	﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ.....﴾	التوبة	60	275
47	﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ﴾	القمر	13	286
48	﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾	الشرح	7	302
49	﴿أَوْ مَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ.....﴾	البقرة	130	303
50	﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا.....﴾	نوح	10-12	303
51	﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ.....﴾	النحل	97	303
52	﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ.....﴾	التوبة	103	305
53	﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا.....﴾	مريم	29	315
54	﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا..﴾	آل عمران	97	322
55	﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي.....﴾	المائدة	3	327
56	﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ.....﴾	النحل	89	327
57	﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا.....﴾	الإسراء	70	327
58	﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ.....﴾	العلق	1 إلى 4	328
59	﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ.....﴾	القلم	1	328
60	﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ.....﴾	المجادلة	11	334
61	﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾	الأنعام	73	334
62	﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ....﴾	يس	81	334
63	﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ.....﴾	يوسف	88	337
64	﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا.....﴾	البقرة	245	338
65	﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ....﴾	التوبة	111	351
66	﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ.....﴾	الحشر	13	357
67	﴿وَإِيَّاي فَارْهَبُون﴾	البقرة	4	357
68	﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ.....﴾	فصلت	13	358

69	﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا...﴾	النساء	137	360
70	﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ نَتَّبِعُ.....﴾	القصص	48	360
71	﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ.....﴾	البقرة	208	273
72	﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيْطَانِ.....﴾	الصفافات	65	274
73	﴿فَوَسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا.....﴾	الأعراف	20	276
74	﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ.....﴾	الذاريات	13	284
75	﴿يَا أَيُّكُمُ الْمَقْتُولُ.....﴾	القلم	6	284
76	﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.....﴾	الأنبياء	25	393
77	﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ.....﴾	الأنعام	1	407
78	﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ.....﴾	النحل	4	407
79	﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.....﴾	المؤمنون	14	408
80	﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكًَا.....﴾	العنكبوت	17	408
81	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.....﴾	القلم	4	408
82	﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ.....﴾	البقرة	102	408
83	﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ.....﴾	المؤمنون	11-1	409
84	﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا.....﴾	التوبة	103	410
85	﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ.....﴾	الفرقان	72-63	411
86	﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ.....﴾	القلم	4	412
87	﴿وَمَا ءَاتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ.....﴾	الحشر	7	412
88	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.....﴾	الأحزاب	21	412
89	﴿إِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ.....﴾	النساء	59	412
90	﴿وَيُرِي الصِّدْقَاتِ.....﴾	البقرة	176	438
91	﴿وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبَا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ.....﴾	الروم	39	438
92	﴿وَقُل رَّبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا.....﴾	الإسراء	24	439

441	282	البقرة	﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ.....﴾	93
447	21	الأحزاب	﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ.....﴾	94
450	134	الانشقاق	﴿إِنَّهُ وَظَنَ أَنْ لَنْ يَحْوَِرَ.....﴾	95
454	159	آل عمران	﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ....﴾	96
454	3	يوسف	﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ.....﴾	97
454	176	الأعراف	﴿فَأَقْصَصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.....﴾	98
462	94	الشعراء	﴿فَكَبِّبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ.....﴾	99
466	15	محمد	﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ.....﴾	100
502	136	النساء	﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ...﴾	101
503	6	التحریم	﴿مَلَائِكَتُهُ غَلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ.....﴾	102
506	37	المعراج	﴿عَنِ الَّيْمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ.....﴾	103
513	185	البقرة	﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾	104
514	2— 1	النبأ	﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيَّ الْعَظِيمِ.....﴾	105
514	3	التحریم	﴿قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ.....﴾	406
514	35	النمل	﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ.....﴾	107
536	87	النساء	﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾	108
538	48	إبراهيم	﴿يَوْمَ تَبَدَّلَ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ.....﴾	109
554	24	البقرة	﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا...﴾	110

فهرس الأحاديث النبوية

الرقم	الأحاديث النبوية	المصدر	الصفحة
1	اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا	مسلم	25
2	وصلوا في بيوتكم ولا تتخذوها قبورا	مسلم	25
3	فعلیکم بالصلاة في بيوتكم فإن خير صلاة المرء في بيته	مسلم	27
4	ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة،	البخاري	27
5	كلکم راع وکلکم مسؤول عن رعيته	البخاري	28
6	يا معشر الأنصار! ألم أجدكم ضلّالاً، فهداكم الله بي	مسلم	29
7	الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق،	البخاري	30
8	الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل،	البخاري	30
9	يا حكيم، إن هذا المال خَصِرٌ حلوة، فمن أخذه	البخاري	30
10	دعه فإن له أصحاباً يحقّر أحدكم صلاته مع	البخاري	31
11	اعتدلوا في السجود، ولا يبسط أحدكم ذراعيه	البخاري	31
12	يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفاً،	مسلم	32
13	إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم	البخاري	33
14	إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم	البخاري	33
15	الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله	مسلم	36
16	أن تخشى الله كأنك تراه	مسلم	36
18	من الصلاة صلاة ، من فاتته، كأنما وتر أهله وماله	البخاري	37
20	ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً،	البخاري	37
21	لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم من المل،	مسلم	38
22	يا عائشة! أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟	مسلم	39
23	إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع	البخاري	42
24	صنفان من أهل النار لم أرهما	مسلم	43
25	مثل الصلوات الخمس كمثل نهر جار	مسلم	46
26	وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني	البخاري	47
27	من شهد الجنازة حتى يصلي عليها	مسلم	47
28	لا تسبوا أصحابي ،فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً	البخاري	48
29	إنّ خليلي أبا القاسم صلى الله عليه وسلم دعاني فأجبتة	مسلم	49

30	بشر الكانزين بِرَضْفٍ يحمى عليه في نار جهنم	مسلم	49
31	والله! ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه	مسلم	50
32	لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود	مسلم	53
33	تعاهدوا القرآن فوالذي نفس محمد	مسلم	53
34	إن الحلال بين وإن الحرام بين	مسلم	54
35	إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها	البخاري	58
36	أتدرون ما المفلس؟	مسلم	59
37	الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد	البخاري	62
38	كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل	البخاري	63
39	الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر	مسلم	64
40	اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة	مسلم	65
41	كأنهما غمامتان، أو ظلتان سوداوان	مسلم	65
42	دحض مزلة، فيه خطا طيف وكلايبُ وَحَسَاكُ	مسلم	67
43	العلم خليل المؤمن، والحلم وزيره	المجازات	69
44	رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة	المجازات	70
46	إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها	البخاري	70
47	المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعض	البخاري	82
48	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم	مسلم	84
49	إنما مثل الجليس الصالح والجليس	مسلم	86
50	مثل المؤمن كالخامة من الزرع	البخاري	87
51	مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع، من حيث أنتها	البخاري	87
52	فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بها الخطايا	البخاري	92
53	المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى	مسلم	94
54	المدينة كالكير تنفي خبيثها وينصع طيبها	البخاري	98
55	إن الحلال بين ، وإن الحرام بين	مسلم	99
56	يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار	البخاري	102
57	ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر	مسلم	102
59	مثل الذي يقرأ القرآن كالأترجة	البخاري	104
60	إنما مثل صاحب القرآن كمثل صاحب الإبل	البخاري	107

61	من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب	مسلم	108
62	اتقوا النار ولو بشق تمرة،	مسلم	108
63	مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين	مسلم	109
64	مثل الذي يرجع في صدقته، كمثل الكلب	مسلم	110
65	من خير معاش الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل	مسلم	116
67	إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى	البخاري	158
68	فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله	مسلم	159
69	فإذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة	البخاري	162
70	اتَّقِ الله واصبري قالت: إليك عني،	البخاري	163
71	مثل المسلمين واليهود والنصارى، كمثل رجل استأجر	البخاري	165
72	إن عبداً أصاب ذنباً، وربما قال: أذنب ذنباً	البخاري	167
73	أتدرون ما المفلس؟	مسلم	168
74	من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه	مسلم	170
75	ويحك يا أنجشه رويدك سوقك بالقوارير	البخاري	171
76	يا معشر النساء تصدقن فإني أرىكن أكثر أهل النار	البخاري	172
77	يا معشر الشباب! من استطاع منكم الباءة فليتزوج	مسلم	173
78	من استطاع الباءة فليتزوج	البخاري	173
79	أتريدون أن ترجعي إلى رفاة	البخاري	175
80	أتريدون أن ترجعي إلى رفاة؟ لا حتى تذوقي	مسلم	175
81	أحد جبل يحبنا ونحبه	البخاري	180
82	بني الإسلام على خمس	البخاري	181
83	ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان	مسلم	184
84	ثلاث من كان فيه وجد طعم الإيمان	مسلم	184
85	إن الدين يُسرّ ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه	البخاري	186
86	إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ	مسلم	188
87	إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين	البخاري	189
88	إنهم إذا دعوا على رؤوس الأشهاد	البخاري	189
89	إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء	البخاري	190
90	لا يلدغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين	البخاري	197

197	البخاري	لا حكيم إلا ذو تجربة	91
200	البخاري	ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند	92
201	البخاري	متلي ومثل ما بعثني الله، كمثل رجل أتى قوما	93
201	مسلم	فذلك مثل من أطاعني، واتبع ما جئت به،	94
203	البخاري	خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى	95
204	البخاري	ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس	96
204	البخاري	واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف	97
206	البخاري	يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام	98
207	البخاري	 بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح	99
227	البخاري	أنتشف في حد من حدود الله	100
229	مسلم	ومضى الناس فأتى الراهب فأخبره	101
229	البخاري	قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، أراه فلانا، لِعَمِّ حفصة	102
231	مسلم	أين فلان قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء	103
232	مسلم	احتج آدم وموسى، فقال موسى	104
232	مسلم	إن أحداً جبل يحبنا ونحبه	105
234	مسلم	احتجت النار والجنة، فقالت هذه يدخلني	106
234	البخاري	أمرت بقرية تأكل القرى، يقولون يثرب وهي المدينة	107
235	البخاري	فأتيت أهلي وأخذت محلي فحلبت، وغنمي	108
241	مسلم	من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله	110
242	مسلم	فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة	111
242	البخاري	لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا	112
243	البخاري	يا سعد إني لأعطي الرجل، وغيره	113
244	مسلم	أحلُّوا من إحرامكم فطوفوا بالبيت وبين الصفا	114
245	البخاري	لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح	115
246	مسلم	يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده	116
247	مسلم	من سأل الناس أموالهم تكثراً، فإنما يسأل جمراً	117
248	البخاري	واليد العليا خير من اليد السفلى	118
249	البخاري	أتجد ما تحرر رقبة	119
250	مسلم	كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً	120

121	ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه	مسلم	250
122	إذا استيقظ أحدكم من نومه، فلا يغمس يده في الإناء	مسلم	251
123	أتكلمني في حد من حدود الله	البخاري	251
124	أما إن أحدكم إذا أتى أهله وقال: بسم الله	البخاري	252
125	تضمن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجه إلا جهاداً	مسلم	253
126	ومن قُتِلَ له قَتِيلٌ فهو بخير النظرين	البخاري	253
127	اثبت أحد، فما عليك إلا نبئ، أو صديق، أو شهيدان	البخاري	254
128	من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة	البخاري	255
129	ت حاجت النار والجنة: فقالت هذه يدخلني الجبارون	مسلم	256
130	إن الله حبس عن مكة القتلى، أو الفيل	البخاري	256
131	إن إبراهيم حرّم مكة ودعا لها	البخاري	257
133	فقال الله للجنة: أنت رحمتي، أرحم بك من	مسلم	259
134	يقبض العلم، ويظهر الجهل والفتن، ويكثر الهرج	البخاري	259
135	إن هذا المال خَصْرَةٌ خُلُوَّةٌ، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه	مسلم	275
136	والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم أحبله، فيحتطب	البخاري	276
137	يا ابن آدم! إنك أن تبذل الفضل خيرٌ ل	مسلم	276
138	ما من مولود إلا يولد على الفطرة	البخاري	277
140	من دخل دار أبي سفيان فهو آمن	مسلم	278
141	لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار	البخاري	278
142	المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة	مسلم	280
143	لتسوّن صفوفكم، أو ليخالفن الله بين وجوهكم	أبو داود	280
144	أقيموا الصفوف وحاذوا بين المناكب وسدوا الخلل ولينوا	البخاري	280
145	سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله	البخاري	281
146	والذي نفسي بيده، لقد هممت أن أمر بحطب فيحطب	البخاري	282
147	أطولكن يدًا	البخاري	282
148	إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار	البخاري	283
149	أيها الناس لا تتمنوا لقاء العد	البخاري	284
150	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت	مسلم	284
151	سبعة يظلهم الله في ظله...ورجل طلبته امرأة..	البخاري	284

152	«.. ثم أُتِيْتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ	البخاري	287
153	أَتَيْتُكُمْ بِالْحَنِيفِيَةِ الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كُنْهَارَهَا	البخاري	288
154	رَوَيْدُكَ يَا أَنْجَشُهُ سَوْفَكَ بِالْقَوَارِيرِ	البخاري	288
155	أَرْفُقْ يَا أَنْجَشُهُ، وَبِحُكِّ بِالْقَوَارِيرِ	البخاري	288
156	وَيَحُكُّ يَا أَنْجَشُهُ رَوَيْدُكَ سَوْفَكَ بِالْقَوَارِيرِ	البخاري	2888
157	خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلِمَهُ	البخاري	289
159	يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعِيرْتَهُ بِأَمِهِ؟ إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ	البخاري	290
161	مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ،	مسلم	291
162	يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيْتُكُمْ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ	البخاري	293
163	مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ	البخاري	293
164	الْمُتَشَبِعُ بِمَا لَمْ يَعْطِ كِلَابِسُ ثَوْبِي زُورٌ	مسلم	296
165	الْإِيمَانُ يَمَانٍ هَا هُنَا أَلَا إِنَّ الْقِسْوَةَ وَغُلَظَ	البخاري	298
166	«... لَا قَرِيشَ بَعْدَ الْيَوْمِ	مسلم	298
167	الْخَيْرُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِي الْخَيْلِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ	البخاري	298
168	الْخَيْلُ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ	البخاري	299
169	الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ	البخاري	299
170	الْبَرَكَةُ فِي نَوَاصِي الْخَيْلِ	البخاري	299
171	مَنْ احْتَبَسَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ	البخاري	299
172	مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا أَقَامَ نَصِيفَ اللَّيْلِ	مسلم	305
173	وَلَقَدْ رَيْتَنَا وَمَا يَتَخَلَفُ عَنِ الصَّلَاةِ إِلَّا مُنَافِقٌ	مسلم	305
174	«.. وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهَا وَلَوْ حَبَوَ	مسلم	306
175	مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غَسَلَ الْجَنَابَةَ ثُمَّ رَاحَ	البخاري	307
176	فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ يَمْحُو اللَّهُ بِهَا الْخَطَايَا	البخاري	308
177	مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ	مسلم	309
178	.. فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتْ الصَّلَاةُ	مسلم	309
179	فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً، تَتَوَخَّذُ	البخاري	310
180	أَتَرَى أَحَدًا فَنَظَرْتَ مَا عَلَيَّ مِنَ الشَّمْسِ	مسلم	311
181	مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ	البخاري	311
182	وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ	البخاري	311

183	مثل البخيل والمنفق ،كمثل رجلين عليهما	البخاري	312
184	خير الصدقة ما كان عن ظهر غني	البخاري	312
185	اليـد العليا خير من اليـد السفلى، فاليد العليا	البخاري	314
186	قال الله عز وجل: كل عمل ابن آدم له إلا الصيام	مسلم	316
187	حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات	مسلم	317
188	من صام رمضان، ثم أتبعه ستا من شوال	مسلم	318
189	يا عبد الله، أَلَمْ أُخَبِّرْ أَنَّكَ تصوم النهار وتقوم	البخاري	318
190	إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة	البخاري	319
191	إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء	البخاري	319
192	من حج لله، فلم يرفث ولم يفسق	البخاري	322
193	إنما جعل الطواف بالكعبة، وبين الصفا والمروة	مسند أحمد	325
194	الإيمان بالله، ثم قال: ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله	مسلم	328
195	مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن، كمثل الأترجة	البخاري	329
196	اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا	مسلم	331
197	يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله	مسلم	331
198	وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم	البخاري	334
199	من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين	البخاري	335
200	بيننا أنا نائم، أتيت بقدح لبن	البخاري	335
201	قيدوا العلم بالكتاب	المجازات النبوية	336
202	ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله	مسلم	338
203	لا يتصدق أحد بتمر من كسب طيب	مسلم	338
204	من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمر	مسلم	339
205	ما يسرنى أن لي مثله ذهبا أنفقته كله	مسلم	340
206	كل سلامي من الناس عليه صدقة، كل يوم	مسلم	340
207	على كل مسلم صدقة، فقالوا:	البخاري	341
208	يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة	مسلم	341
209	رجل تصدق ، أخفى حتى لا تعلم شماله	البخاري	342
210	قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أمك، قال: ثم من	مسلم	346
211	إن الله خَلَقَ الخَلْقَ، حتى إذا فرغ من خلقه	البخاري	347

212	لئن كنت كما قلت، فكأنما تسفهم المَلَّ	البخاري	349
213	من أحب أن يُبْسَطَ له في رزقه	مسلم	350
214	من سره أن يبسط عليه رزقه أو ينسأ له	مسلم	350
215	مثل المجاهد في سبيل الله	البخاري	352
216	لا أجدّه" قال "هل تستطيع إذا خرج المجاهد	البخاري	353
217	أناس من أمتي عُرِضُوا عليّ غزاة في	البخاري	353
218	تضمن الله لمن خرج في سبيله	مسلم	354
219	واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف	البخاري	355
220	«... طوبي لعبد آخذ بعنان فرسه	البخاري	356
221	إني لأرجو أن تكونوا شطر	مسلم	362
222	أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة	مسلم	362
223	ضرس الكافر، أو ناب الكافر مثل أحد	مسلم	363
224	ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان	البخاري	364
225	...وحتى أن يقذف في النار أحب إليه	البخاري	365
226	أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا،	البخاري	369
227	يُجَاءُ بالرجل يوم القيامة فيلقى	البخاري	396
228	مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين	مسلم	370
229	من يقل عليّ ما لم أقل فليتبوا	البخاري	372
230	وإن الكذب يهدي إلى الفجور	البخاري	372
231	يا فلان! هذه زوجتي فلانة	مسلم	376
232	إن الشيطان يجري من الإنسان	مسلم	377
233	إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم	مسلم	377
234	إياكم والدخول على النساء	مسلم	378
235	اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم	مسلم	379
236	إن المرأة تقبل في صورة شيطان	مسلم	379
237	يعقد الشيطان على قافيه رأس	البخاري	380
238	بال الشيطان في أذنه	البخاري	381
239	هو اختلاس يختلسه الشيطان	البخاري	383
240	إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم	مسلم	384

241	اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر	البخاري	387
242	منهن ثلاث لا يكدن يذرن شيئاً	مسلم	388
243	هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن	البخاري	389
244	تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً	مسلم	389
245	ثلاث إذا خرجن لا ينفعه نفسا	مسلم	393
246	إن الله تبارك وتعالى ليس بأعور	مسلم	394
247	أراني الليلة في المنام عند الكعبة فرأيت	مسلم	394
248	كأن عينه عنبة طافئة	مسلم	395
249	ألا أخبركم عن الدجال حديثا	مسلم	396
250	إن الدجال يخرج وإن معه ماء ونارا	مسلم	397
251	لأننا بما مع الدجال أعلم منه	مسلم	397
252	...كالغيث استندبرته الرِّيحُ فيأتي...	مسلم	398
253	والله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم	مسلم	413
254	كان خلق الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن	سنن أبي داود	414
255	ما من مؤمن إلا أنا أولى به في الدنيا	البخاري	416
256	مثل البخيل والمنفق كمثلي رجلين عليهما جبتان	البخاري	418
257	ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام	مسلم	421
158	مثل الجليس الصالح وجليس السوء	البخاري	422
259	أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا	الترمذي	424
260	إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيام	الترمذي	424
261	تري المؤمنين في تراحمهم وتوادهم	البخاري	424
262	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم	مسلم	424
263	المؤمنون كرجل واحد، إن اشتكى رأسه	مسلم	425
264	المسلمون كرجل واحد، إن اشتكى عين	مسلم	425
265	مثل المؤمن كمثلي الخامة من الزرع	البخاري	427
266	تقئ الأرض أفلاذ كبدها	مسلم	428
267	من يضمن لي ما بين لحييه وما بين	مسلم	431
268	يا أبا بكر ألا تسمع إلى هذه ما تجهر	البخاري	434
269	إذا جلس بين شعبها الأربعه	البخاري	435

436	البخاري	اللهم إن كنت تعلم أنني كنت أحب	170
443	البخاري	كيف وقد قيل؟	171
443	البخاري	كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولنا	272
444	البخاري	بلغوا عني ولو آية وحدثوا	273
448	البخاري	صلوا صلاة كذا في حين كذا ، وصلوا	274
448	البخاري	لتأخذوا مناسكم فإني لا أدري لعلني	275
448	البخاري	إنما مثل الجليس الصالح والجليس	276
452	البخاري	ارجع فصل، فإنك لم تصل	277
453	البخاري	أمك" قال ثم من؟ قال: "أمك"،	278
456	البخاري	بينما ثلاثة نفر يمشون أخذهم المطر	279
459	البخاري	أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا	280
460	مسلم	ضع يدك على الذي تألم من جسدك	281
462	مسلم	مالك؟ يا أم السائب! أو يا أم المسيب تزفرين	282
462	البخاري	أحيانا يأتيني مثل صلصلة فيكلمني	283
463	البخاري	فتان، فتان، فتان، ثلاث مرات	284
463	مسلم	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة	285
463	مسلم	ألا إن الفتنة ها هنا، ألا إن الفتنة ها هنا	286
469	البخاري	ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم،	287
470	البخاري	لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين	288
471	البخاري	خير الصدقة ما كان عن ظهر غني	289
476	البخاري	إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها،	290
478	البخاري	أرأيتم لو أن نهرا بباب أحدكم يغتسل فيه	291
479	البخاري	إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم	292
481	البخاري	حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن	293
481	البخاري	إن قدر حوضي كما بين أيلة وصنعاء	294
481	البخاري	بني الإسلام على خمس	295
481	البخاري	إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ	296
486	البخاري	إن لربك عليك حقا، وإن لنفسك عليك	297
494	مسلم	الإيمان بضع وسبعون	319

494	البخاري	الإيمان بضع وستون	320
496	البخاري	بني الإسلام .على خمس	321
499	مسلم	ذاق طعم الإيمان، من رضي بالله ربا	322
499	البخاري	ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان	323
505	مسلم	ما لي أراكم رافعي أيديكم كأنها أذناب خيل شمس	327
509	مسلم	يا حنظلة ساعة وساعة	329
510	البخاري	إذا قضى الله الأمر، في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها	330
511	البخاري	أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس	331
515	مسلم	عرضت علي الأمم فرأيت النبي	332
515	البخاري	إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل	333
518	البخاري	مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل	334
525	البخاري	إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به، كمثل رجل أتى قوما	335
529	البخاري	إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا	338
534	مسلم	لا بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير	340
535	البخاري	احتج آدم وموسى، فقال له موسى: أنت آدم	341
538	مسلم	فأين يكون الناس يومئذ؟ يا رسول الله فقال: "على الصراط	343
539	مسلم	تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق	346
541	مسلم	هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا	347
542	البخاري	كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك	348
546	البخاري	أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر	350
546	البخاري	أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر	351
547	مسلم	يا أبا القاسم نزع أن أهل الجنة يأكلون ويشربون،	352
547	البخاري	ت حاجت الجنة والنار، فقالت النار	353
548	البخاري	إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم	354
449	مسلم	يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير	355
450	البخاري	إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار	356
555	مسلم	إن أهون أهل النار عذابا من له نعلان وشرا كان	361
556	مسلم	يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتتدلق	362
558	البخاري	إذا اشتد الحر فأبردوا بالصلاة، فإن شدة الحر	365
559	مسلم	صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر	369
560	مسلم	ألا أخبركم بأهل النار؟ كل جواظ زنيم متكبر	371

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم:

- 1 - ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، مطبعة البابي الحلبي، دون ذكر الطبعة، سنة 1939.
- 2 - ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، المكتبة الإسلامية، دار النشر الحلبي، ط1، عام: 1963م.
- 3 - ابن قيم الجوزية، الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن، دار مكتبة الهلال بيروت ط1، عام: 1987م.
- 4 - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الرياض، عام: 1998م.
- 5 - ابن المعتز عبد الله، البديع، شرح وتحقيق، عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، عام: 2012م.
- 6 - ابن تيمية، بغية المرئاد، تحقيق: موسى بن سليمان الدويش، مكتبة العلوم، المملكة العربية السعودية، ط1، عام: 2001م.
- 7 - ابن جني: أبو الفتح عثمان ابن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب، بيروت، دون ذكر الطبعة، عام: 1952م.
- 8 - ابن رشيق القيرواني، العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ط5، عام: 1981م.
- 9 - ابن سنان، سر الفصاحة، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح القاهرة، ط1، عام: 1950م.
- 10 - ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق، عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 1983م.
- 11 - ابن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، القاهرة، دون ذكر الطبعة،

عام: 1972م.

12 - ابن قتيبة الدينوري، تأويل مشكل القرآن، تعليق، إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، عام: 2007م.

13 - ابن منظور، لسان العرب، تنسيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، عام: 1988م

14 - أبو الحسن الماوردي، النكت والعيون، تحقيق السيد عبد المقصود، دار الكتب العلمية،

584

بيروت، ط1، 1992م.

15 - أبو الحسن بن عبد الرحمن بن خالد الرامهرمزي، أمثال الحديث، تحقيق: أحمد عبد الفتاح

تمام، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط1، عام: 1409هـ.

16 - أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق ، محمد فؤاد عبد الباقي،

دار احياء التراث العربي ،ط2، عام: 1972م.

17 - أبو الطيب صديق حسن علي الحسيني، عون الباري لحل أدلة البخاري، دار الرشيد، حلب، سوريا،

ط1، عام 1984م.

18 - أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني، ارشاد الساري لشرح صحيح البخاري، دار

الكتاب العربي، بيروت، ط، جديدة عن ط7، عام: 1983م.

19 - أبو الفرج عبد الرحمان بن أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم الحكم، دار المعرفة، بيروت، ط1،

عام: 1408هـ.

20 - أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألو، روح معاني تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

تحقيق: محمد حسين العرب، دار الفكر للطباعة، بيروت، ط1، دون ذكر السنة.

21 - أبو القاسم الحسن بشر الأمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، تحقيق: أحمد صقر، دار

المعارف المصرية، القاهرة، ط4، عام: 1992م.

22 - أبو حاتم الرازي، الزينة في الكلمات الإسلامية العربية، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط1، عام: 1958م.

23 - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المنهاج للنشر والتوزيع ، السعودية، ط1،

عام: 2011م، ج5، ص: 191.

24 - أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، الفصيل بين التفرقة الإسلام والزندقة " مجموعة رسائل الإمام

الغزالي " تحقيق إبراهيم أمين محمد، طبعة خادم، الحرمين.

25 - أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، الأمثال من الكتاب والسنة، تحقيق: علي محمد

البجاوي، مكتبة التراث، دون ذكر الطبعة والسنة.

26 - أبو عبيدة معمر بن المثنى، مجاز القرآن، تحقيق، محمد فؤاد سزكين، مكتبة الخانجي، القاهرة، دون ذكر الطبعة والسنة.

27 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون،

مطبعة الحلبي، ط2، عام1966م.

28 - أبو علي الحاتمي، الرسالة الموضحة، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ط1، عام: 1965م.

29 - أبو عبد الله مالك بن أنس، شرح موطأ الإمام، شرح محمد صالح العثيمين، تحقيق: صلاح الدين

محمود العسير، دار الغد الجديد، القاهرة، ط1، عام: 2011م،

30 - أبو منصور الثعالبي، الإعجاز والإيجاز، تحقيق، محمد إبراهيم سليم، مكتبة

585

القرآن، القاهرة، ط1، عام: 1999م.

31 - أبو هلال العسكري، جمهرة الأمثال، تحقيق: أحمد عبد السلام، دار الكتب

العلمية، بيروت، ط1، عام: 1988م.

32 - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل، المكتبة

العصرية، بيروت، دون ذكر الطبعة، عام: 1986م.

33 - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، المكتبة العصرية، دون ذكر الطبعة، سنة 2003م.

34 - أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، كتاب الإيمان، المكتب

الإسلامي، بيروت، ط5، عام: 1996م.

35 - أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية، مجمع

الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، ط1، عام: 2004م.

36 - أحمد بن محمد إبراهيم الخطابي، غريب الحديث، تحقيق، إبراهيم العزباوي،

دار الفكر، دمشق، ط1، عام: 1982م.

37 - أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير، تحقيق، عبد العظيم

الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط2، دون ذكر السنة.

38 - أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، دار الهيئة المصرية، ط1، عام: 1979م.

39 - أحمد عبده عوض، بلاغة الرسول، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، ط1، عام: 2013م.

40 - أحمد علي دهمان، الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، منشورات وزارة

الثقافة، سوريا، ط2، عام: 2000م

41 - أحمد مطلوب، البلاغة العربية، مؤسسة دار الكتاب للطباعة والنشر، جامعة

الموصل، ط1، عام: 1980م.

42 - أحمد مطلوب، دراسات بلاغية ونقدية، دار الرشيد للنشر والتوزيع، بغداد، ط1، عام: 1978م.

43 - أحمد مطلوب، فنون بلاغية، دار البحوث العلمية، الكويت، ط1، عام: 1975م.

44 - أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية، دار العربية للموسوعات، ط1 عام 2006م.

45 - أحمد هندواي هلال، الكناية في لسان العرب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، عام: 2003م.

- 46 - أحمد هنداوي هلال، المجاز اللغوي مكتبة وهبة، مصر، ط1، عام: 2005م.
- 47 - أحمد هنداوي، أدوات التشبيه في لسان العرب لابن منظور، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، عام: 2003شم.
- 48 - أحمد ياسوف، الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف، دار المكتبي، سوريا ط2، عام: 2006م
- 586
- 49 - الأصفهاني الراغب، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كلاني، دار المعرفة، بيروت، ط1، عام: 1929م.
- 50 - الإمام أحمد بن حنبل، مسند أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دون ذكر الطبعة والسنة.
- 51 - شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح تحقيق: عبد الحميد الهنداوي، مكة، مكتبة نزار مصطفى الباز، ط1، عام 1997م.
- 52 - الآمدي علي بن محمد، الإحكام في أصول الأحكام، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام: 2003م.
- 53 - إيمان عبد المؤمن سعد الدين، الأخلاق في الإسلام، مكتبة الراشد للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام: 2002م.
- 54 - البخاري، الجامع الصحيح المسند، تحقيق: محب الخطيب، مكتبة السلفية، القاهرة، ط1، عام: 1400، ج4، ص: 6481.
- 55 - البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى البُغا، دار الهدي للطباعة والنشر، الجزائر، ط1، عام: 1992م.
- 56 - بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، عمدة القارئ، دار الفكر، دون ذكر الطبعة والسنة.
- 57 - بدوي طبانة، أبو هلال العسكري ومقاييسه البلاغية والنقدية، دار الثقافة، بيروت، ط3، عام: 1981م.
- 58 - بدوي طبانة، البيان العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط4، عام: 1968م.
- 59 - بسيوني عبد الفتاح فيود، دراسات بلاغية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، عام: 1998م.
- 60 - بكري شيخ أمين، أدب الحديث، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، عام: 2005م.
- 61 - بهاء الدين السبكي، عروس الأفراح في شرح وتلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، عام: 2003م.

62 - البيضاوي ناصر الدين سعيد، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار الجيل، بيروت، ط1، دون ذكر السنة.

63 - البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، الاعتقاد والهداية الى سبل الرشاد، تحقيق، أحمد موسى، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام، 1999م.

64 - الترمذي، سنن الترمذي، الجامع الصحيح، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة

587

مصطفى البابي الحلبي، مصر: ط2 عام: 1978م.

65 - جابر سالم بن سعيد، الإقناع في التربية الإسلامية، دار الأندلس الخضراء، السعودية، ط2، عام: 1996م.

66 - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3، عام: 1992م.

67 - الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطبعة، القاهرة، ط7، عام: 1998م.

68 - الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط1، عام: 1943م.

69 - الجاحظ، تهذيب الأخلاق، قراءة وتعليق أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، دار الصحابة للتراث للنشر والتحقيق والتوزيع، بطنطا، مصر، ط1، عام: 1989م.

70 - جار الله محمود بن عمر الزمخشري، الفائق في غريب الحديث، تحقيق، علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل

71 - جنان محمد مهدي العقيدي، لغة الحكمة وإقناع المخاطب في أسلوب الخطاب النبوي، مجلة فصلية، العدد الخاص، السنة، 2013م، جامعة بغداد.

72 - الجوهري، الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت. ط2، عام 1979م.

73 - الحافظ ابن كثير، الفصول في سيرة الرسول، تحقيق محمد العيد الخطراوي، ومي محي الدين، مؤسسة علوم القرآن دمشق، سوريا، ط3، علم 1403هـ

74 - حسين محمد مخلوف، صفوة البيان لمعاني القرآن، اللجنة الوطنية لاحتفالات القرن الخامس الهجري، الإمارات العربية المتحدة، ط1، عام 1982م.

75 - محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث،

القاهرة، ط1، عام1994،

76 - خالد فهمي إبراهيم، تطبيقات في التحليل البلاغي للسنة النبوية، دار النشر للجامعات، القاهرة، ط1، عام: 2013م.

77 - خديجة الحديثي، موقف النحاة من الاحتجاج بالحديث الشريف، دار الرشيد للنشر، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، العراق، ط1، عام: 1981م.

588

78 - الخطابي، ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: حمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط3، عام: 1976م

79 - الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1 عام: 2004م

80 - الخطيب عبد الكريم، الإعجاز في دراسات السابقين، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، عام: 1974م.

81 - الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق، عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 عام: 2003 م.

82 - الدسوقي على شرح التفتازاني، تحقيق: محمد قطة العدوي، المطبعة العامرة، بولاق، مصر دون ذكر الطبعة والسنة،

83 - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داود، دار القلم، سوريا، ط4، عام: 2009م.

84 - الرماني: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، وزغلول سلامة، سلامة، دار المعارف، ط2، 1980م،

85 - الزركشي: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3، عام: 1980م.

86 - زكريا البري، أصول الفقه الإسلامي، مكتبة الجامعة الأردنية، ط1، دون ذكر السنة.

87 - الزمخشري، أساس البلاغة، تحقيق، محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 1998م.

88 - الزمخشري، تفسير الكشاف، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، عام: 1998م.

- 89 - سالم جبار، الإقناع في التربية الإسلامية، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط1، عام: 2001م،
- 90 - سعد الدين التفتازاني، شرح المقاصد، تحقيق، عبد الرحمن عمير، عالم الكتب، بيروت، ط2، عام: 1998م،

589

- 91 - سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، المطول شرح تلخيص مفتاح العلوم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، سنة: 2001 م
- 92 - السكاكي: مفتاح العلوم، تحقيق: أكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، بغداد، ط1، عام: 1982م.
- 93 - سنن أبي داود، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، دار الرسالة، دمشق، طبعة خاصة، عام: 2009م.
- 94 - سنن أبي داود، تحقيق 94 - سنن أبي داود، تحقيق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار الكتب، العلمية، ط1، عام: 1389هـ، 1342م محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي القاهرة دون ذكر الطبعة، عام: 1952م.
- 95 - سيبويه، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، عام: 1988م.
- 96 - سيد قطب، التصوير الفني في القرآن، دار الشروق، القاهرة دون ذكر الطبعة والسنة.
- 97 - شرح النووي على صحيح مسلم، دار الطبع بيت الأفكار، السعودية، دون ذكر السنة والطبعة
- 98 - الشريف الرضي، المجازات النبوية، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، عام: 2007م.
- 99 - شفيع السيد، التعبير البياني، دار الفكر العربي، بيروت، ط2، عام: 1980م.
- 100 - صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وكالة المطبوعات، الرياض، عام: 1418هـ.
- 101 - صلاح عبد الفتاح الخالدي، نظرية التصوير الفني عند سيد قطب، شركة الشهاب، الجزائر، ط1، عام: 1988م.
- 102 - صليبان جميل، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، عام: 1982م.
- 103 - ضياء الدين بن الأثير، المثل السائر، تحقيق: أحمد الحوفي، وبدوي بطانة، دار نهضة، مصر، دون ذكر الطبعة والسنة.

104 - الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، دون ذكر السنة .

105 - الطبري، جامع البيان من تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ط1، عام: 1408هـ.

106 - عائشة عبد الرحمن، التفسير البياني، دار المعارف، القاهرة، ط7، عام: 1968م.

107 - عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1، عام: 1969م.

590

108 - عبد الباري طه سعيد، أثر التشبيه في تصوير المعنى،، دون ذكر دار الطبع، ط1، 1992م .

109 - عبد الحميد الصيد الزنتاني، أسس التربية الإسلامية في السنة النبوية، الدار العربية للكتاب، ليبيا تونس، ط2، عام: 1993م.

110 - عبد الحميد بن باديس، العقائد الإسلامية " تعليق: محمد الصالح رمضان، دار الفتح للطباعة والنشر والتوزيع، الشارقة، ط1، عام: 1995م.

111 - عبد الحميد يونس، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة، ط1، عام: 1949م.

112 - عبد الخالق إبراهيم، الدعوة إلى الله أصولها ومبادئها، مطبعة الأمانة، القاهرة، ط1، عام: 1407هـ.

113 - عبد الرحمان بودراع، الإيجاز وبلاغة الإشارة، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط1، عام: 2009م.

114 - عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، دار ابن كثير، ط6، عام 1421هـ.

115 - عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني، الأخلاق في الإسلام، دار القلم، دمشق، ط5، عام: 1999 م .

116 - عبد الرحمن حسن حنيفة الميداني، روائع من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، دار القلم، دمشق، ط10، عام: 2005م.

117 - عبد السلام أحمد الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن الكريم دار فُصِّلَتْ للدراسات والترجمة والنشر، حلب، ط1، عام: 2001م.

118 - عبد العزيز المعطي عرفة، قضية الإعجاز في القرآن، عالم الكتب، بيروت، ط1، عام 1985م.

119 - عبد العزيز عبد المعطي عرفة، من بلاغة النظم العربي، عالم الكتب، بيروت، ط2، عام: 1984م.

120 - عبد العزيز عتيق، في البلاغة العربية، دار النهضة العربية، بيروت، دون ذكر الطبعة والسنة.

- 121 - عبد العظيم إبراهيم محمد المطعنى، التشبيه البليغ، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، عام: 2002 م.
- 122 - عبد الفتاح لاشين، من بلاغة الحديث الشريف، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام: 1982م.
- 123 - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، المكتبة التوفيقية، القاهرة، دون ذكر الطبعة والسنة.

591

- 124 - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تعليق محمد التنخي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3 عام: 1999م.
- 125 - عبد الكريم زيدان، أصول الدعوة، دار عمر بن الخطاب، مصر، ط1، عام: 1976م.
- 126 - عبد المعتال الصعيدي، البلاغة العالية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، عام: 2000 م.
- 127 - عبد المعتال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، مكتبة الآداب، مصر، دون ذكر الطبعة والسنة،
- 128 - عبده عبد العزيز قلقيلة، البلاغة الاصطلاحية، دار الفكر العربي، القاهرة ط1، عام 1987م.
- 129 - عبود عبد الغاني، طبيعة الخطاب التربوي السائد ومشكلاته، دار المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، بيروت، ط1، عام: 1983م.
- 130 - عزة محمد جدوع، البلاغة في القرآن الكريم والسنة النبوية، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، عام: 2014م.
- 131 - العسقلاني: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة، بيروت، دون ذكر الطبعة والسنة،
- 132 - علي الجارم، ومصطفى أمين، البلاغة الواضحة، المؤسسة الأدبية، بيروت، ط17، عام 2003م.
- 133 - علي الجندي، فن التشبيه، مطبعة نهضة، مصر، ط1، عام: 1952م.
- 134 - علي بن سعيد بن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط1، عام 1983م.
- 135 - علي بن سلطان محمد القارئ، مرقاة المفاتيح: تحقيق جمال عيتائي، دارالكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 2001م،
- 136 - علي بن عبد العزيز الجرجاني، الوساطة بين المتنبي وخصومه، المكتبة العصرية، بيروت، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، عام: 2006م.
- 137 - علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط5، عام: 1976م.
- 138 - علي سعيد إسماعيل، التربية الإسلامية المفهومات والتطبيقات، مكتبة الرشد، الرياض، عام: 2011م
- 139 - علي سعيد إسماعيل، الخطاب التربوي الإسلامي، الكتاب المائة، مركز للبحوث والدراسات، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، عام: 2004م.

140 - علي صباح، التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث النبوي، المكتبة الأزهرية تراث، القاهرة، ط1، عام 2002 م.

141 - علي علي صباح، البناء الفني للصورة الأدبية، المكتبة الأزهرية لتراث، مصر، ط1، عام: 1996م.

142 - عمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، دار النفائس، بيروت، ط2، عام: 1983م.

143 - عمر سليمان الأشقر، عالم الجن والشياطين، مكتبة الفلاح، الكويت، ط4، عام 1984م.

592

144 - عودة أبو خليل عودة، بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف، دار البشير، عمان، ط1، عام: 1991 م .

145 - غازي بموت، علم أساليب البيان، دار الفكر اللبناني، ط2، عام 1995م.

146 - غريال أشرف، الموسوعة العربية الميسرة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، عام 1987.

147 - فالح حمد أحمد الحمداني، الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، ط1، عام: 2001م.

148 - فتحي فريد، صور من البيان القرآني والنبوي، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط1، عام: 1983م.

149 - فخر الدين الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تحقيق إبراهيم السمارائي، ومحمد بركات حمدي بوعلي، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ط1، عام : 1985م

150 - فضل حسن عباس، أساليب البيان في علوم البلاغة، دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، عام 2007 م.

151 - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط8، عام: 2005م ، ص: 447.

152 - قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تحقيق كمال مصطفى، القاهرة، مكتبة الخانجي، دون ذكر الطبعة، عام: 1963م.

153 - قدامة بن جعفر، نقد النثر، تحقيق، العبادي، تصوير دار الكتب العلمية، عن الطبعة المصرية القديمة، دون ذكر الطبعة، والسنة.

154 - القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الله عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، عام: 2006م.

155 - القرطبي، المفاهيم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محي الدين ديب مستو، وأحمد محمد السيد، دار ابن كثير، دمشق، ط1، عام: 1996م.

156 - القرطبي، كتاب التذكير بأحوال الموتى وأمور الآخرة، تحقيق: الصادق بن

عمر بن إبراهيم، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، ط1، عام: 1425هـ.

- 157 - قطب سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ط7، عام 1978م.
- 158 - كمال عز الدين، الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، دار اقرأ، بيروت، ط1، عام: 1984.
- 159 - الكوفي أيوب بن موسى، الكليات، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة بيروت، ط1، عام: 1419هـ،

593

- 160 - محسن محمد معالي، من روائع الكناية في اللغة العربية، مؤسسة حوس الدولية، الإسكندرية، ط1، عام: 2012م.
- 161 - محمد عبد العزيز الخولي، الأدب النبوي، دار كرم، دمشق، ط4، عام: 1955م.
- 162 - محمد أبو العلاء الحمزاوي، الخصائص البلاغية للبيان النبوي، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، عام: 2007م.
- 163 - محمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط2، عام: 1997م،
- 164 - محمد أبو موسى، شرح أحاديث من صحيح البخاري، مكتبة وهبة - القاهرة ط1، عام: 2001م.
- 165 - محمد الصباغ، التصوير الفني في الحديث النبوي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1، عام 1983م.
- 166 - محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، دون ذكر التاريخ والطبعة.
- 167 - محمد الهادي الطرابلسي، خصائص الأسلوب في الشوقيات، منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، دون ذكر الطبعة، عام: 1981م.
- 168 - محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة مدققة، عام: 1986م.
- 169 - محمد بن أبي بكر بن أيوب بن القيم الجوزية، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، مكتبة عباد الرحمن، مصر للنشر والتوزيع، ط1، عام: 2005م.
- 170 - محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت طبعة مدققة، عام 1986،
- 171 - محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، مؤسسة الخافقين، دمشق، ط2، عام: 1982م
- 172 - محمد بن أحمد عثمان الذهبي، تنقيح التحقيق في أحاديث التعليق: تحقيق مصطفى أبو الغيط، دار الوطن، ط1 عام 1421هـ،
- 173 - محمد بن الطيب أبو بكر الباقلاني، إعجاز القرآن، تحقيق، احمد صقر، دار

المعارف ، القاهرة، ط1، عام:1997م.

174 - محمد بن سعد الدبل، الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مكتبة العبيكان، الرياض، ط2، عام: 1997م.

175 - محمد بن عبد الباقي الزرقاني، مختصر المقاصد الحسنة في بيان الأحاديث المشتهرة، تحقيق: محمد الصباغ، دار الكتب الإسلامي، بيروت، ط1 عام 1403هـ

594

176 - محمد بن علي بن محمد الشوكاني، فتح القدير، دار الوفاء، مصر، ط1، عام:2015م.

177 - 'محمد بن يوسف الكرمانى شمس الدين، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (شرح الكرمانى على البخاري)، دار إحياء التراث، بيروت، ط2، عام: 1981م.

178 - محمد جابر فياض، الكناية، دار المنار للنشر والتوزيع، جدة، ط1، عام:1989م.

179 - محمد حسين أبو موسى، البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري، دار الفكر العربي القاهرة، دون ذكر الطبعة والسنة.

180 - محمد حسين علي الصغير، أصول البيان العربي رؤية بلاغية معاصرة، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد، دون ذكر التاريخ والطبعة.

181 - محمد خلف الله وإبراهيم أنيس وعطية الصالحي، المعجم الوسيط، دار الدعوة، بيروت، ط2، عام:1990م

182 - محمد رجب البيومي، البلاغة النبوية، الدار المصرية اللبنانية ط1، عام: 2008م.

183 - محمد رفعت أحمد زنجير ، دراسات في البيان النبوي، دار اقرأ للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، ط1، عام:2007م.

184 - محمد زكريا الزعيم، فنون الأدب في الحديث النبوي..، مركز الفوال، دمشق، ط1، عام: 2011م.

185 - محمد شعبان علوان، ونعمان شعبان علوان، من بلاغة القرآن الكريم، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، عام:1988م.

186 - محمد عطية الإبراشي، روح التربية والتعليم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الباني وشركاه، مصر، دون ذكر التاريخ والطبع.

187 - محمد علي الصابوني، من كنوز السنة، المكتبة العصرية، بيروت، ط1 عام:2004م.

188 - محمد علي إبراهيم الطائي، الاستعارة في الحديث النبوي الشريف، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام : 2014م.

189 - محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، بيروت، دار القرآن الكريم، ط4، عام: 1981م.

190 - محمد علي سلطاني، البلاغة العربية في فنونها، دار العصماء، سوريا ، ط1، عام 2004م.

191 - محمد لطفي الصباغ ، الحديث النبوي مصطلحا ته ، بلاغته ، كتبه، المكتب

الإسلامي، بيروت، ط8، عام:2003 م .

192 - محمد لطفي عبد التواب، علم البيان، المكتبة العالمية العلمية، بيروت، ط1، عام: 2001م.

193 - محمد ناصر الدين الألباني، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، تحقيق: زهير الشاويش المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، سنة: 1408 م.

595

194 - محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادة، تحقيق، زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، عام:1988م،

195 - محمود بن سليمان الحلبي، حسن التوسل الى صياغة الترسل. المطبعة الوهبيية، مصر، عام: 1298هـ،

196- محمود موسى حمدان، أدوات التشبيه في القرآن، مطبعة الأمانة، مصر، ط1، عام: 1992م.

197 - محي الدين شيخ زاده علي، حاشية على تفسير البيضاوي، تحقيق محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، عام 1419هـ.

198 - مسكويه، تهذيب الأخلاق، تحقيق عماد الهلالي، منشورات الجمل، بيروت، ط1، عام: 2011م.

199 - مسند الإمام أحمد، تحقيق عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام: 2008م.

200 - مصطفى السباعي، السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط2، عام:2000م

201 - مصطفى حلمي، الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، عام:2004م.

202 - مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الفكر العربي، ط1، عام:2004م.

203- مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، الجزائر، وزارة الثقافة، مؤفم للنشر، ط1، عام 2007م.

204 - مصطفى فهمي، الدوافع النفسية، مكتبة مصر، القاهرة، ط1، عام:1960م.

205 - منى إبراهيم اللبوايدي، الحوار فنياته واستراتيجياته وأساليب التعليم، مكتبة وهبة، القاهرة، ط1، عام:2003م.

206 - الميداني عبد الرحمان، الأخلاق الإسلامية وأسسها، دار القلم، دمشق، ط5، عام: 1999م.

- 207الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط3، 1973م.
- 208 - النحلاوي عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية، دار الفكر، دمشق، ط1، عام1979م.

596

- 209 - نور الدين عتر، في ظلال الحديث النبوي، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، عام:2013م..
- 210 - النووي، شرح النووي على صحيح مسلم ، بيت الأفكار الدولية ، السعودية ،دون ذكر الطبعة والسنة،
- 211 - وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، ط3، عام: 1989م.
- 212 - يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الطراز، تحقيق ، عبد الحميد هندراوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، عام:2002م.
- 213 - يوسف القرضاوي ، المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذري، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر،دون ذكر الطبعة،عام:1993 م.
- 214- يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة، ط1، عام: 1983 م ،

ثالثا: – الرسائل العلمية

- 1 - خليل محمد أيوب، لغة الحديث النبوي بين التشبيه والمجاز، قسم البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن، جامعة القاهرة، مخطوط رسالة ماجستير عام:2007م.
- 2 - زينب داودي، التشبيه التمثيلي في الحديث النبوي الشريف،، اطروحة دكتوراه قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الحاج لخضر باتنة، السنة :2010م-2011م.
- 3 - ساهر عبد الكريم، الصورة البيانية قبل الإسلام وأثر البيئة فيها. رسالة دكتوراه كلية الآداب، جامعة بغداد، 1984م.
- 4 - فايز سالم صالح يحي أحمد، التشبيه التمثيلي في الصحيحين، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في البلاغة، جامعة أم القرى ،كلية اللغة، مخطوط

5 - نائلة قاسم لمغون، الكناية في ضوء التفكير الرمزي، بحث لنيل درجة الماجستير،

كلية اللغة العربية جامعة أم القرى، مكة، عام: 1984م.

597

6 - نواف محمد حسين قوقزة، التشكيل الاستعاري في البلاغة والنقد، رسالة دكتوراه كلية

الآداب واللغات، جامعة الموصل، عام: 1994م.

7 - محمد بن صالح بن علي العلوي، خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للطفل

المسلم مخطوط، بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية، جامعة أم القرى، كلية التربية

رابعاً: — الدوريات:

1 - أديب نايف ذياب، اليد وصورتها المجازية، مجلة أبحاث اليرموك العدد "1" السنة:

1988م،

2 - أسماء الخطاب، وعلي يونس، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مجلد

2(8) 2013 م .

3 - أميمة بدر الدين، التكرار في الحديث النبوي الشريف، مجلة جامعة دمشق، المجلد 26،

العدد الأول والثاني، عام: 2010م.

4 - عدنان زرزور، بلاغة النبي ، بحث منشور في مجلة مركز البحوث السنة، العدد: 5.

5 - مصعب حمود، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية المجلد 26، العدد الأول

عام: 2010 م.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
	مقدمة
1	تمهيد: البلاغة والفصاحة في الحديث النبوي وجهود الباحثين في دراستها...
2	أسباب بلاغة الرسول صلى الله عليه وسلم وفصاحته.....
2	أولاً: النشأة اللغوية الخاصة.....
3	ثانياً: الفطرة النقية.....
4	ثالثاً: التمكين الإلهي.....
5	رابعاً: أثر القرآن الكريم في البيان النبوي الشريف.....
7	الحديث النبوي في الدراسات البلاغية.....
7	البلاغة النبوية عند القدماء.....
7	أولاً: الجاحظ.....
8	ثانياً: الشريف الرضي.....
9	ثالثاً: الخطابي.....
10	رابعاً: عبد القاهر الجرجاني.....
11	خامساً: ابن الأثير.....
11	الدراسات البلاغية المعاصرة.....
13	الباب الأول: أساليب التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف
14	الفصل الأول: الصورة التشبيهية في الخطاب النبوي الشريف.....
15	المبحث الأول: التشبيه المفرد في الخطاب النبوي الشريف.....

15	المطلب الأول: مفهوم التشبيه وأهم أقسامه.....
15	- التشبيه في اللغة.....
16	- التشبيه في الاصطلاح:.....
19	- التشبيه بين الحقيقة والمجاز.....
22	- أهم أقسام التشبيه.....
24	المطلب الثاني: ما يدل على التفاعل والاتحاد بين طرفين.....
24	أ- التشبيه البليغ.....
33	ب - دلالة "كأن" على التفاعل والاتحاد بين طرفي التشبيه.....
41	المطلب الثالث: الدلالة على المقارنة والموازنة في التشبيه.....
41	1- دلالة "الكاف" على المقارنة والموازنة.....
46	2 - دلالة "مثل" على المقارنة والموازنة بين الطرفين.....
51	المطلب الرابع: أنواع أخرى من التشبيه.....
51	1- التشبيه الضمني في الحديث النبوي الشريف.....
55	2 - التشبيه المقلوب في الحديث النبوي الشريف.....
60	3 - صور أخرى من التشبيه المتعدد.....
61	أ- التسوية.....
63	ب- تشبيه الجمع.....
68	ج - التشبيه المفروق.....
71	د - التشبيه الملفوف.....
73	المبحث الثاني: التشبيه التمثيلي في الخطاب النبوي الشريف.....
73	المطلب الأول: آراء وجهود علماء البلاغة في التشبيه التمثيلي.....
74	أهم مذاهب التشبيه التمثيلي.....
74	أولاً: عبد القاهر الجرجاني.....
75	أولاً: تشبيه غير تمثيلي.....
75	ثانياً: التشبيه التمثيلي.....
77	ثانياً: التمثيل عند السكاكي.....
79	ثالثاً: التمثيل عند الخطيب القزويني.....
80	الموازنة بين الآراء الثلاثة.....
82	المطلب الثاني: أثر التمثيل النبوي في بيان صفات المؤمنين وأعمالهم.....
89	المطلب الثالث: ظواهر فنية في تشكيل التمثيل النبوي.....
89	أولاً: اختيار الألفاظ.....
97	ثانياً: الإيجاز وجوامع الكلم.....
100	ثالثاً: الطبيعة الحية في تشكيل الصورة التمثيلية.....
101	أ - الطبيعة النباتية.....
106	ب - الطبيعة الحيوانية.....

112	الفصل الثاني: الاستعارة في الخطاب النبوي الشريف
113	المبحث الأول: مفهوم الاستعارة من خلال جهود علماء البلاغة
113	المطلب الأول: الاستعارة في اللغة والاصطلاح
113	الاستعارة في اللغة
115	الاستعارة في اصطلاح علماء البلاغة

128	المطلب الثاني: دور اللغة والخيال في بلاغة الاستعارة
128	اللغة
133	الخيال
137	أولاً: والتشخيص:
139	ثانياً: التجسيم
141	المطلب الثالث: أركان الاستعارة وأقسامها
142	أركان الاستعارة:
149	أقسام الاستعارة:
154	المبحث الثاني: الاستعارة بين الأفراد والتركيب في الخطاب النبوي الشريف...
155	المطلب الأول: الاستعارة التصريحية في الخطاب النبوي الشريف....
177	المطلب الثاني: الاستعارة المكنية في الخطاب النبوي الشريف
192	المطلب الثالث: الاستعارة المركبة في الخطاب النبوي الشريف
208	الفصل الثالث: الصورة المجازية والكنائية في الخطاب النبوي الشريف
209	المبحث الأول: الصورة المجازية في الخطاب النبوي الشريف
209	المطلب الأول: مفهوم المجاز بين اللغة والاصطلاح
209	المجاز في اللغة

210	المجاز عند علماء البلاغة
226	المطلب الثاني: صورة المجاز العقلي في الخطاب النبوي الشريف....
227	علاقات المجاز العقلي:.....
238	المطلب الثالث: صورة المجاز المرسل في الخطاب النبوي الشريف.....
241	علاقات المجاز المرسل في الخطاب النبوي الشريف:.....
260	المبحث الثاني: الصورة الكنائية في الخطاب النبوي الشريف.....
260	المطلب الأول: مفهوم الكناية لغة واصطلاحاً عند علماء البلاغة.....
260	الكناية في أصل اللغة.....
262	الكناية في اصطلاح البلاغيين.....
274	المطلب الثاني: الكناية عن صفة في الخطاب النبوي الشريف
286	المطلب الثالث: صورة الكناية عن موصوف في الخطاب النبوي الشريف.....
295	المطلب الرابع: الكناية عن نسبة في الخطاب النبوي الشريف.....
300	الباب الثاني: وظائف التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف.....
331	الفصل الأول: الوظيفة النفسية بين الترغيب والترهيب
302	المبحث الأول: أثر الصورة البيانية في الترغيب على فضائل الأعمال في الخطاب النبوي.....
302	المطلب الأول: مفهوم الترغيب
302	الترغيب في اللغة.....

304	المطلب الثاني: أثر الصورة البيانية في الترغيب على أداء العبادات
305	أولاً: الترغيب في أداء الصلاة.....
310	ثانياً: الترغيب على أداء الزكاة.....
315	ثالثاً: الترغيب على أداء الصوم.....
322	رابعاً: الترغيب على أداء فريضة الحج
327	المطلب الثالث: أثر الصورة البيانية في الترغيب على فضائل الأعمال.....
328	أولاً: ترغيب في قراءة القرآن.....
334	ثانياً: الترغيب في العلم وفي تعليمه.....
337	ثالثاً: الترغيب في أداء الصدقات.....
343	رابعاً: الترغيب في المحافظة على صلة الرحم.....
344	مفهوم الصلة:.....
351	خامساً: الترغيب في الجهاد في سبيل الله.....
357	المبحث الثاني: الترهيب في الخطاب النبوي الشريف
357	المطلب الأول: مفهوم الترهيب.....
357	-الترهيب في اللغة :
358	- الترهيب في الاصطلاح:.....
359	المطلب الثاني: صورة الكفر والنفاق في الخطاب النبوي.....
359	- معنى الكفر في اللغة.....
361	--وفي الاصطلاح:.....
361	أولاً:صورة الكافر في الخطاب النبوي الشريف.....
366	ثانياً: صورة المنافق في الخطاب النبوي الشريف

373	المطلب الثالث: الترهيب من الشيطان في الخطاب النبوي الشريف
373	- مفهوم الشيطان في اللغة:.....
375	- الشيطان في الاصطلاح:.....
376	- صورة الشيطان في الخطاب النبوي.....
384	المطلب الرابع: صور الفتن والمعاصي في الخطاب النبوي.....
384	- مفهوم الفتن والمعاصي:.....
393	- فتنة الدجال في الخطاب النبوي:.....
400	الفصل الثاني: الوظيفة الأخلاقية والتربوية في الخطاب النبوي الشريف
401	المبحث الأول: الأخلاق في الخطاب النبوي الشريف.....
401	المطلب الأول: مفهوم الأخلاق ومصادرها.....
401	- الأخلاق في اللغة:.....
403	- وفي الاصطلاح:.....
407	المطلب الثاني: مصادر الأخلاق في الإسلام.....
407	أولاً: الأخلاق في القرآن الكريم:.....
412	ثانياً: السنة النبوية:.....
416	المطلب الثالث: أثر الصورة البيانية في توجيه الخطاب الأخلاقي.....
438	المبحث الثاني: البعد التربوي في الخطاب النبوي الشريف
438	المطلب الأول: مفهوم الخطاب التربوي ومكانته.....
438	- مفهوم التربية في اللغة:
439	- مفهوم التربية في الاصطلاح:.....

440	- مكانة الخطاب التربوي في البيان النبوي:.....
440	أولاً: القرآن الكريم مصدر الخطاب التربوي النبوي التربوي.....
442	ثانياً: رغبة الصحابة في تلقي الخطاب التربوي النبوي.....
444	ثالثاً: توثيق الخطاب التربوي النبوي:.....
446	المطلب الثاني: أساليب التربية في الخطاب النبوي الشريف.....
446	أسلوب القدوة الحسنة:.....
449	أسلوب الحوار في الخطاب التربوي النبوي:
454	أسلوب القصة:.....
458	أسلوب التكرار في الخطاب النبوي الشريف:.....
465	ضرب الأمثال في الخطاب النبوي:.....
473	المطلب الثالث: دور الصورة البيانية في توجيه الخطاب التربوي النبوي...
488	الفصل الثالث: الوظيفة الدينية في الخطاب النبوي الشريف
489	المبحث الأول: أثر التصوير البياني في بيان الإيمان في الخطاب النبوي الشريف.....
490	المطلب الأول: الإيمان والإسلام.....
501	المطلب الثاني: صورة الملائكة في الخطاب النبوي الشريف.....
501	الملائكة في اللغة والإصلاح.....
514	صورة الملائكة في الخطاب النبوي الشريف:.....
512	المطلب الثالث: أثر الصورة البيانية في بيان الإيمان بالرسالة المحمدية.....
529	المبحث الثاني: أثر الصورة البيانية في بيان القضاء والقدر والجنة والنار في الخطاب النبوي الشريف.
529	المطلب الأول: الإيمان بالقضاء والقدر في الخطاب النبوي الشريف.....

535	المطلب الثاني: صورة يوم الآخر والحشر في الخطاب النبوي الشريف.....
543	المطلب الثالث: صورة الجنة والنار في الخطاب النبوي الشريف.....
545	أولاً: صورة الجنة في الخطاب النبوي الشريف.....
552	ثانياً: صورة النار والعذاب في الخطاب النبوي الشريف.....
561	الخاتمة:.....
568	الفهارس:.....
569	1 - فهرس الآيات القرآنية:.....
574	2 - فهرس الأحاديث النبوية:.....
585	3 - فهرس المصادر والمراجع:.....
599	4 - فهرس الموضوعات:.....

ملخص البحث باللغة العربية

لقد تناولت في هذه الدراسة الموسومة بـ:التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف دراسة تحليلية في الأساليب والوظائف في الصحيحين "البخار ومسلم " ولذلك رأينا تقسيم البحث إلى بابين ومقدمة وتمهيد وخاتمة.

أما المقدمة: أما المقدمة فكانت خبراً مركزاً عن موضوع الدراسة وخصوصيته ،وأما التمهيد فقد كان استضاءه حول البلاغة والفصاحة في الحديث النبوي الشريف وأسباب بلاغته وفصاحته ، خاصة من حيث النشأة اللغوية،والفطرة النقية،إلى جانب التمكين الإلهي والعطاء الرباني ،ثم أثر القرآن الكريم في الهدى النبوي ،وأخيراً جُهودُ الباحثين في دراستها.

وأما الباب الأول: فقد تمحور حول: أساليب التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف، وقد قسمناه بدوره إلى ثلاثة فصول.

تناولنا في الفصل الأول:الصورة التشبيهية في الخطاب النبوي الشريف.

وقسمت هذا الفصل إلى مبحثين.

المبحث الأول جاء في: التشبيه المفرد، تناولنا فيه الحقيقة والمجاز، ثم ما يدل على

التفاعل والاتحاد بين الطرفين، وكان ذلك من خلال صورة التشبيه البليغ، ثم دلالة كأن على التفاعل والاتحاد بين طرفي التشبيه. ثم نظرنا إليه من حيث الدلالة على المقارنة والموازنة مثل دلالة "الكاف" "ودلالة" "مثل". ثم توقفنا عند أنواع أخرى من التشبيه مثل التشبيه الضمني، والتشبيه المقلوب أو المعكوس، ثم صور أخرى من التشبيه المتعدد، مثل التسوية، والجمع، والتشبيه المفروق، والتشبيه الملفوف

و جاء المبحث الثاني الذي يتمحور حول : التشبيه التمثيلي في الخطاب النبوي

الشريف، تناولنا فيه الإمتداد التاريخي لهذا الفن من خلال إيراد آراء البلاغيين والموازنة بين هذه الآراء، ثم تناولنا أثر التمثيل النبوي الشريف في بيان صفات المؤمنين وأعمالهم، ثم توقفنا عند بعض الظواهر الفنية التي تشكل التمثيل النبوي من خلال اختيار الألفاظ، و جوامع الكلم، ثم توظيف الطبيعة الحية سواء كانت الطبيعة النباتية، أو الحيوانية.

بينما خصّص الفصل الثاني: لتناول الاستعارة في الخطاب النبوي الشريف، وقد قسمت

هذا الفصل أيضا إلى مبحثين، المبحث الأول جاء في: مفهوم الاستعارة من خلال جهود علماء البلاغة، تناولنا فيه الاستعارة في اللغة وفي الاصطلاح، ثم دور الخيال في تشكيلها، من خلال التشخيص والتجسيم عند استنطاق الجماد وهو أكثر ما يكون في الاستعارة المكنية (أحد جبل يحبنا ونحبه) فتحول الجبل الجامد إلى شخص وديع يحب المسلمين ويحبونه.

وأما المبحث الثاني فقد جاء في الاستعارة بين الأفراد والتركيب في الخطاب النبوي

الشريف تناولنا في هذا المبحث الاستعارة التصريحية وهي ما صرح فيها بلفظ المشبه به الذي هو المستعار منه صرحا، ويحذف المشبه الذي هو المستعار له.

فعلى صعيد الاستعارة التصريحية في الحديث النبوي الشريف تتبلور تعاليم الدين

الإسلامي من خلال توظيف الرسول صلى الله عليه وسلم لهذا النمط من التصوير الفني فكان الشرح والإيضاح للمبادئ التي يقوم عليها الدين الإسلامي.

وأما الاستعارة المكنية: وهي التي اختفى فيها المشبه به واكتفى بذكر شئ من لوازمها

دليلا عليه، والقول بالمكنية هو عدم التصريح بالمشبه به والدلالة عليه بلازمه، وهذا النوع من

الاستعارة لها طاقة كبيرة على التصوير والإيحاء، وفيها يزداد التشبيه خفاءً وتصبح ميدانا واسعا للخيال، حيث أن عملية إثبات لازم المستعار منه للمستعار له هي عملية خيالية ولذلك تسمى هذه العملية بالاستعارة التخيلية وهي التي لا يدرك في الوجود التشبيه الحاصل بها

الفصل الثالث فقد تناولنا فيه أما: الصورة المجازية والكنائية في الخطاب النبوي الشريف

فكان المبحث الأول في : الصورة المجازية في الخطاب النبوي الشريف، حيث تناولنا مفهوم المجاز في اللغة والاصطلاح ثم المجاز عند علماء البلاغة، ثم صورة المجاز العقلي في الخطاب النبوي الشريف، ووقف عند علاقات المجاز العقلي من خلال نماذج وصور من البيان النبوي، فوقفنا بالتحليل عند العلاقة المفعولية، ثم السببية، و المكانية والزمانية والفاعلية، والمصدرية.

من ثم تناولنا أيضا صور مختلفة من المجاز المرسل من خلال أشهر العلاقات التي تناولها علماء البلاغة من السببية والمسببية والكلية وباعتبار ما يكون وباعتبار ما كان عليه ثم المحلية والحالية.

أما المبحث الثاني فقد جاء في: الصورة الكنائية في الخطاب النبوي الشريف تناولنا في البداية مفهوم الكناية في اللغة و اصطلاح البلاغيين، وإذا كانت الكناية بمثابة تصوير الحقائق والمعاني بشئ من الخفاء، وفي الخفاء يكمن السحر والجمال.

والكنايات النبوية جاءت على نسق طبيعي لا كلفة فيه جمعت بين جمال التصوير، والإيجاز واختيار الألفاظ الموحية الدالة ، والمعروف أن التلميح أجمل من التصريح في بعض المواطن من الكلام، ولا نعمم هذا، فقد يحسن وجود ظلال فنية، ولا تطلب في مقام آخر يتطلب التصريح وفي الأدب تتفوق الصورة الإيحائية على الصورة الوصفية المباشرة.

لم تكن الكناية في الحديث النبوي الشريف بديلا عن المعنى في كل مقام، كما أن المعاني التي استقرت خلف حسية الكناية، لم تكن غامضة إلى درجة الإلغاز.

تناولنا في هذا المقام الكناية عن صفة وهذا الضرب من الكناية ورد في الحديث النبوي الشريف أكثر من غيره من أنواع الكناية.

وأما الكناية عن موصوف: فإن هذا الضرب من الكناية تذكر فيه الصورة ويستتر الموصوف مع أنه هو المقصود، وإذا نظرنا إلى هذا الضرب من حيث الحضور في الحديث النبوي الشريف بالنسبة إلى الكناية عن صفة فإنها أقل حضوراً، لأنه عليه الصلاة والسلام في منهجه يعتمد على الوضوح وإظهار المعاني في صورة حسية ليتمكن السامع من استيعابها خاصة المعاني المتعلقة بالجانب الديني.

وأما الضرب الثالث من الكناية فهي: الكناية عن نسبة في الخطاب النبوي الشريف لم نجد إلا عدداً قليلاً من هذا النوع من الكناية ، ربما يعود ذلك إلى طبيعة هذا الضرب، أو إلى الجانب التعليمي التربوي في الحديث النبوي، لأنه يسلك مسلكاً آخر حيث نذكر الصفة والموصوف، إلا أننا بدلاً من نسب الصفة إلى صاحبها ننسبها إلى شيء آخر .

وأما الباب الثاني فقد جاء بعنوان: وظائف التصوير البياني في الخطاب النبوي الشريف، و قد تميّزت الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف بطابعها الديني، في تشكيلها المعتمد على الفكر الإسلامي، هذا الطابع أكسبها خصوصية وتميّزاً في تشكيلها ووظيفتها ، لأن الحديث النبوي دعوة لهداية البشر والتأثير فيهم، ولهذا كانت الصورة البيانية وسيلة تعبير وتأثير، لأنها تحوّل الموضوعات إلى مشاهد منظورة وصور شاخصة تنفذ إلى أعماق النفوس البشرية من طرق شتى كطريق العقل والفكر، والحس والشعور، والخيال والوجدان .

ولهذا كان مقسماً إلى ثلاثة فصول.

الفصل الأول ويشتمل: الوظيفة النفسية بين الترغيب والترهيب، وقد قسمنا هذا الفصل إلى مبحثين

المبحث الأول تناول: أثر الصورة البيانية في الترغيب أداء العبادات، من خلال أداء الصلاة، والزكاة، والصوم، وفريضة الحج، إلى جانب الترغيب في فضائل الأعمال مثل : قراءة القرآن والترغيب في العلم وفي تعليمه، ثم أداء الصدقات، إلى جانب المحافظة على صلة الرحم.

والواضح أن الصورة البيانية في الوظيفة النفسية لا تكتف بالتأثير في النفوس، بل تبني النفس الإنسانية من خلال بعث المشاعر المتوازنة فيها. ثم أثر الصورة في ترغيب فضائل الأعمال مثل: قراءة القرآن والترغيب في العلم وفي تعليمه، ثم أداء الصدقات، إلى جانب المحافظة على صلة الرحم.

والصورة البيانية في الوظيفة النفسية لا تكتف بالتأثير في النفوس، بل تبني النفس الإنسانية من خلال بعث المشاعر المتوازنة فيها.

أما المبحث الثاني: فقد جاء في: الترهيب في الخطاب النبوي الشريف. وتوقفنا عند صورة الكافر وصورة المنافق في البيان النبوي الشريف، ثم الترهيب من الشيطان في الخطاب النبوي الشريف، ثم صورة الفتن والمعاصي.

ثم تناولنا الفصل الثالث: الوظيفة الأخلاقية والتربوية حيث تطرقنا في المبحث الأول إلى: الأخلاق في الخطاب النبوي الشريف، ثم مصادر الأخلاق في الإسلام، وأثر الصورة البيانية في توجيه الخطاب الأخلاقي في البيان النبوي الشريف

أما المبحث الثاني: تناولنا فيه : مفهوم الخطاب التربوي ومكانته وكان ذلك من خلال القرآن الكريم، ورغبة الصحابة في تلقي الخطاب التربوي النبوي، ثم توثيق الخطاب التربوي، ثم التركيز على أساليب التربية في الخطاب النبوي الشريف من أسلوب القدوة، و الحوار التربوي، ثم القصة إلى جانب التكرار والأمثال، وبعد ذلك تناولنا أثر الصورة البيانية في توجيه الخطاب التربوي في البيان النبوي الشريف.

أما الفصل الثالث فقد جاء في: الوظيفة الدينية في الخطاب النبوي الشريف.

وقد تناولنا هذا الفصل أيضا في مبحثين:

المبحث الأول كان في: أثر التصوير البياني في بيان الإيمان، وكان ذلك من خلال مفهوم الإيمان في الإسلام، ثم صورة الملائكة في الخطاب النبوي، ثم أثر الصورة البيانية في بيان الإيمان بالرسالة المحمدية.

وأما المبحث الثاني فقد جاء في :الصورة البيانية في بيان القضاء والقدر والجنة والنار في الخطاب النبوي الشريف.

وتناولنا هذه المفاهيم من خلال الإيمان بالقضاء والقدر، ثم صورة يوم الآخر والحشر في الخطاب النبوي، إلى جانب صورة الجنة والنار والعذاب في التصوير البياني النبوي الشريف وبعد فقد طال بي المسير في صحبة البيان النبوي الشريف و ما اشتمل عليه من صور فنية اتسمت بالوضوح والجمال.

ومع ذلك أشعر بأنني أمام بحر زاخر بآيات الحسن والإبداع بلاغه وفصاحته، تسمو علوا على كلام البشر، فكلما اعتقدت أنني وصلت إلى المراد، ألفيتني في شوق إلى المزيد من هذا المعين الذي لا ينضب.

ولكن لكل شئ غاية وأمد ينتهي وإليه وقد بذلت من الجهد ما رأيت أن ثمرته تكفي أن تكون شاهداً، على بلاغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي امتاز بها

SUMMARY OF THE THESIS

In this thesis, under the title « The Description Statement in the Prophet's Mohamed Discourse », I have studied the analytical way in the style and functions of the prophet discourse from the two sources « Sahih El Boukhari and Sahih Mouslim ». I tried to highlight, and find out the literary beauty of the hadith (the prophet's sayings and discourses) especially from its rhetorical point of view, then I showed the importance of the functions of this in the Hadith itself.

I divided my research work into two main chapters, an introduction, a preface, and a conclusion.

Concerning the preface, it is a kind of enlightenment for the rhetoric eloquence in the Hadith of the Prophet (pbuh), and I showed the scholars' efforts in studying this, whether the ancient ones or the new ones.

As far as the introduction is concerned, I mentioned the causes of my choice of this very subject, as well as the methodology and approach which I followed in this research. I also showed the different approaches which I looked at to help me in this study. I have also mentioned the problematic and hypothesis and the plan of this work as well as the answers to these questions.

CHAPTER ONE

In the first chapter, I studied the description styles in the Prophet's discourses, and I divided it into three sections

SECTION ONE : the analogical perspective in the Prophet's discourse.

And this section has two Topics:

TOPIC ONE : concerns the single metaphor its meanings and the analogical metaphor

TOPIC TWO : the interaction and union ,and emphasised on the signification of the expression « such as » which stresses on the metaphor and the example taken from it.

Then I studied the expression «as » and this among the most common tools of the metaphors used in the Prophet's discourse where he (pbuh) compares and makes balance between two or more things.

He also used the word « like » to compare two or more things and shows which is the best.

And I showed other tools of comparison used in the speeches of the Prophet like for instance : the « unmentioned comparison »,the « up side down comparison » and other different figures of comparisons like the « multiple comparison » ,the « additional,the equalities,the different, and the wrapped one .

SECTION TWO : The double comparison i.e the descriptive comparison,I have studied in this section the different points of view of the different scholars of rhetoric,then I studied the effect of this metaphor in the description of the Good Deeds as well as the characteristics of the Believers in the Prophet's discourse and sayings . I emphasised on the artistic phenomenon which shows the beauty of the discourse of the Prophet (SAWS) from a literary point of view like the selection of words, the shortness of expressions and the accurate way in saying them,and the influence of the environment ,nature on these metaphores either from a direct or indirect way,like for example herbs,animals, desert and so on. And I showed that this kind of mataphor is fewer comparing to the single metaphor ,and the meanings which were uttered in this kind of metaphors are the same.

TOPIC ONE : Concerns the metaphor in the Prophet's Sayings and Discourse.

I divided it into two as well.

- I- Concerns the Single metaphor and this derived from the uttered or unsaid metaphor . As far as the uttered metaphor is concerned, it has occured in many ways ; in sensational way,and logical way , originally and dependently, free and conditionally and so on.
- II- As far as the indirect metaphor is concerned (or as it was also called personalised metaphor) , it is divided into many metaphors such as « imaginative,selected, discovered and so on.

TOPIC TWO : The Composed Metaphor

We call it the acting metaphor as well, this kind of metaphor has been used in the speeches of the Prophet Mohamed (SAWS) while describing the best characteres of the believers,especially while talking about the Faith of a muslim in order to show the importance of this very pillar in Islam and its influence on the muslim's daily life and its importance in the life of the believers as a whole.

SECTION TWO : Describes the relocation figures and the replacement of metaphores in the sayings and discourse of the Prophet (pbuh)

I divided this into two Topics

TOPIC ONE : the transfert or the relocation expressions in the Prophet's sayings

TOPIC TWO : concerns the Euphemism in the Prophet's discourse, and this appears in the beautiful style and fantastic description of the matters

As far as the Descriptive Euphemism is concerned its role is to give to the described element a characteristic wanted without using an adjective , and in this case the euphemism is used in special circumstances such as describing feelings,touch ,sights etc.

And in this kind of euphemism we find different descriptions as well either directly or indirectly and this is also another type of metaphore which is limited and concerns mostly the education.

CHAPTER TWO :concerns the Purpose of the Description Discourse in the Prophet's sayings, and it is divided into :

SECTION ONE :

TOPIC ONE : the pschycological aims in the Prophet's discourse : motivation and warnings. He (pbuh) motivates the believers in doing good deeds such as prayings, telling the truth, helping the needy, performing pilgrimage etc .

Section two : Warnings the believers of doing wrong things, or behaving in a wrong way

which might contradict with Islam and their belief such as telling lies, be hypocrite,cowards etc.

Section three : Describes the objectives of Morals and Education in the Prophet's discourse.

TOPIC TWO : The educational discourse in the Prophet's speeches and the different Styles used ;

In this context the Prophet (pbuh) gives examples through discussions, and dialogues, and sometimes asking questions or telling stories,using positive repetitions and comparing different situations etc.

The last **SECTION** concerns the religious objective in the Prophet's discourse,and this latter is stable because it concerns the thoughts,and religion .

TOPIC ONE ONE : The influence of the literary discourse on the Faith in the Prophet's sayings.

And this concerns Islam,Iman (Faith) ,Angels ,The Holy Books,and the Messengers. :

TOPIC TWO :The image of the literary discourse in the Preordainment .

The characteristics of the descriptive image and figures used for the preordainment as well as the description of the Paradise and the Hell-fire in the Prophet's discourse.

At the end of this thesis I showed the the most important results I reached and the thorough explanations and analysis I studied.

Finally I hope that this humble work will be accepted by Allah as Good Deeds ,and may